اللباب
في علوم الكتاب

تأليف
الإمام المفسّر أبي حفص عمر بن عليّ
ابن عادل الدمشقي الحنبلي
المتوفى بعد سنة ٨٨٠ هـ

تحقيق وتعليق
الشيخ عادل أحمد عبد الموجود — الشيخ علي محمد معوض

شارك في تحقيقه برسالته الجامعية
الدكتور محمد سعد رمضان حسن / الدكتور محمد المتولي الدسوقي حرب

الجزء العشرون

المحتوى :
أول سورة الإنسان - آخر سورة الناس

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة **لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان** ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Copyright ©
All rights reserved

Exclusive rights by **DAR al-KOTOB al-ILMIYAH Beirut - Lebanon.** No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت

تلفون وفاكس : ٣٦٤٢٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠

صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.

Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98

P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

ISBN 2-7451-2298-3



http://www.al-ilmiyah.com.lb/

e-mail : baydoun@dm.net.lb

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الإنسان

مكية، وهي إحدى وثلاثون آية، ومائتان وأربعون كلمة وألف وأربعمائة وخمسون حرفاً.

قال ابن عباس ومقاتل والكلبي: هي مكية[1].

وقال الجمهور: مدنية.

وقيل: فيها مكي من قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٣] إلى آخر السورة وما تقدمه مدني.

وذكر ابن وهب قال: وحدثنا ابن زيد قال: إن رسول الله ﷺ ليقرأ ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ وقد أنزلت عليه وعنده رَجُلٌ أَسْودُ كَانَ يَسْأَلُ النَّبيَّ ﷺ فقَالَ لَهُ عُمَرُ بن الخطَّاب: لا تُثقِلْ على النَّبيِّ ﷺ فقال له دعه يا ابْنَ الخطَّاب قال: فنزلت عليه هذه السورة وهو عنده، فلما قرأها عليه، وبلغ صفة الجنان زفر زفرة فخرجت نفسه، فقال رسول الله ﷺ: «أَخْرَجَ نَفْسَ صَاحِبكُم ـ أو أخِيكُم ـ الشَّوقُ إلى الجنَّةِ»[2].

وقال القشيري: إن هذه السورة نزلت في علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ، والمقصود من السورة عام، وهكذا القول في كل ما يقال إنه نزل بسبب كذا وكذا.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ في «هل» هذه وجهان:

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٨٠) وعزاه إلى النحاس عن ابن عباس.
وينظر تفسير الماوردي (٦/ ١٢٦١) والقرطبي (١٩/ ٧٧).

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٧٧).

أحدهما: أنها على بابها من الاستفهام المحض، أي: هو ممن يسأل عنه لغرابته أأتى عليه حين من الدهر لم يكن كذا فإنه يكون الجواب: أتى عليه ذلك وهو بالحال المذكورة. كذا قاله أبو حيان[1].

وقال مكي في تقرير كونها على بابها من الاستفهام: والأحسن أن تكون على بابها للاستفهام الذي معناه التقرير، وإنما هو تقرير لمن أنكر البعث فلا بد أن يقول: نعم قد مضى دهر طويل لا إنسان فيه، فيقال له: من أحدثه بعد أن لم يكن وكونه بعد عدمه، كيف يمتنع عليه بعثه، وإحياؤه بعد موته، وهو معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢] أي: فهلا تذكرون، فتعلمون أن من أنشأ شيئاً بعد أن لم يكن قادراً على إعادته بعد موته وعدمه انتهى.

فقد جعلها لاستفهام التقرير لا للاستفهام المحض، وهذا هو الذي يجب أن يكون؛ لأن الاستفهام لا يرد من الباري ـ تعالى ـ على هذا النحو وما أشبهه.

والثاني: قال الكسائي والفراء وأبو عبيدة وحكي أيضاً عن سيبويه: أنها بمعنى «قد» قال الفرَّاء: «هل» تكون جحداً وتكون خبراً، فهذا من الخبر؛ لأنك تقول: هل أعطيتك؟ تقرره: بأنك أعطيته، والجحد أن تقول: هل يقدر أحد على مثل هذا؟.

وقال الزمخشري: «هل» بمعنى «قد» في الاستفهام خاصة، والأصل: «أهل»؛ بدليل قوله: [البسيط]

٥٠١٩ ـ سَائِلْ فَوارِسَ يَربُوعٍ لِشدَّتِنَا أَهَلْ رَأوْنَا بوَادِي القِفِّ ذِي الأكَمِ؟[2]

فالمعنى: أقد أتى، على التقرير والتقريب جميعاً، أي أتى على الإنسان قبل زمان قريب «حين من الدهر لم يكن» فيه ﴿شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ أي: شيئاً منسياً غير مذكور انتهى.

فقوله: «على التقرير» يعني المفهوم من الاستفهام، وهو الذي فهمه مكي من نفس «هل» وقوله: «والتقريب» يعني المفهوم من «قد» التي وقع موقعها «هل»، ومعنى قوله: «الاستفهام خاصة» أن «هل» لا تكون بمعنى «قد» إلا ومعها استفهام لفظاً كالبيت المتقدم، أو تقديراً كالآية الكريمة.

فلو قلت: هل جاء زيد، يعني: قد قام، من غير استفهام لم يجز. وغيره قد جعلها بمعنى «قد» من غير هذا القَيْدِ.

وبعضهم لا يجيز ذلك ألبتة ويتأول البيت المتقدم على أنه مما جمع فيه بين حرفي معنى للتأكيد، وحسن ذلك اختلاف لفظهما؛ كقوله: [الطويل]

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٩٣.
(٢) تقدم.

٥٠٢٠ ـ فأصْبَحْنَ لا يَسْألْنَنِي عَنْ بِمَا بِهِ[١]

فالباء بمعنى «عن» وهي مؤكدة لها، وإذا كانوا قد أكدوا مع اتفاق اللفظ؛ كقوله: [الوافر]

٥٠٢١ ـ فَلاَ ـ واللَّهِ ـ لا يُلْفَى لِمَا بِي ولا لِلِمَا بِهِمْ أبَداً دَوَاءُ[٢]

فلأن يؤكد مع اختلافه أحرى، ولم يذكر الزمخشري غير كونها بمعنى «قد»، وبقي على الزمخشري قيد آخر، وهو أن يقول: في الجمل الفعلية، لأنه متى دخلت «هل» على جملة اسمية استحال كونها بمعنى «قد» لأن «قد» مختصة بالأفعال.

قال شهاب الدين[٣]: وعندي أن هذا لا يرد لأنه تقرر أن «قد» لا تباشر الأسماء.

فصل في المراد بالإنسان المذكور في الآية

قال قتادة والثوري وعكرمة والشعبي: إن المراد بالإنسان هنا آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو مروي عن ابن عباس[٤].

وقيل: المراد بالإنسان: بنو آدم لقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾.

فالإنسان في الموضعين واحد وعلى هذا فيكون نظم الآية أحسن.

وقوله ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾.

قال ابن عباس في رواية أبي صالح: مرت به أربعون سنة قبل أن ينفخ فيه الروح وهو ملقيّ بين «مكة» والطائف[٥].

وعن ابن عباس في رواية الضحاك أنه خلق من طين فأقام أربعين سنة، ثم من حمإٍ مسنون أربعين سنة، ثم من صلصال أربعين سنة، فتم خلقه في[٦] مائة وعشرين سنة، ثم نفخ فيه الروح[٧].

وحكى الماوردي عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: أن الحين المذكور هاهنا هو الزمن الطويل الممتد الذي لا يعرف مقداره[٨].

وقال الحسن: خلق الله تبارك وتعالى كل الأشياء ما يرى وما لا يرى من دوابّ البر

---

(١) تقدم. (٢) تقدم.

(٣) ينظر الدر المصون ٦/ ٤٣٧.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٥٣) عن قتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٨١) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وابن المنذر وينظر تفسير الماوردي (٦/ ١٦١).

(٥) تقدم. (٦) في أ: بعد.

(٧) تقدم. (٨) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١٦٢) عن ابن عباس.

والبحر في الأيام الست التي خلق الله ـ تعالى ـ فيها السماوات والأرض، وآخر ما خلق آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهو كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾[١].

فإن قيل: إن الطين والصلصال والحمأ المسنون قبل نفخ الروح فيه ما كان إنساناً، والآية تقتضي أنه مضى على الإنسان حال كونه إنساناً «حينٌ من الدَّهرِ» مع أنه في ذلك الحين ما كان شيئاً مذكوراً.

فالجواب: أن الطين والصلصال إذا كان مصوراً بصورة الإنسان، ويكون محكوماً عليه بأنه سينفخ فيه الروح، ويصير إنساناً صح تسميته بأنه إنسان، ومن قال: إن الإنسان هو النَّفس الناطقة، وأنها موجودة قبل وجود الأبدان فالإشكال عنهم زائل، واعلم أنَّ الغرض من هذا التنبيه على أن الإنسان محدث، وإذا كان كذلك فلا بد من محدث قادر.

قوله: «لم يكن» في هذه الجملة وجهان:

أحدهما: أنها في موضع نصب على الحال من الإنسان، أي هل أتى عليه حين في هذه الحال.

والثاني: أنها في موضع رفع نعتاً لـ «حين» بعد نعت، وعلى هذا فالعائد محذوف، تقديره: حين لم يكن فيه شيئاً مذكوراً. والأول أظهر لفظاً ومعنى.

فصل في تفسير الآية

روى الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾: لا في السماء ولا في الأرض[٢].

وقيل: كان جسداً مصوراً تراباً وطيناً لا يعرف ولا يذكر، ولا يدري ما اسمه.ولا ما يراد به ثم نفخ فيه الروح فصار مذكوراً. قاله الفراء وقطرب وثعلب.

وقال يحيى بن سلام: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كله، ولم يخلق حيواناً بعده[٣]، ومن قال: إنَّ المراد من الإنسان الجنس من ذرية آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فالمراد بالحين تسعة أشهر مدة الحمل في بطن أمه ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ إذ كان مضغة وعلقة؛ لأنه في هذه الحالة جماد لا خطر له.

وقال أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ لما قرأ هذه الآية: ليتها تمَّت فلا نبتلى، أي ليت المدة التي أتت على آدم لم يكن شيئاً مذكوراً تمت على ذلك فلا يلد ولا يبتلى أولاده، وسمع عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ رجلاً يقرأ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾. فقال: ليتها تمّت[٤].

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٠/٢٠٨ ـ ٢٠٩).

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/٧٨). (٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤٨١) وعزاه إلى ابن المبارك في «الزهد» وأبي عبيد في «فضائله» وعبد بن حميد وابن المنذر.

قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾. يعني ابن آدم من غير خلاف «من نُطفَة» أي: من ماء يقطر وهو المنيّ، وكل ماء قليل في وعاء، فهو نطفة؛ كقول عبد الله بن رواحة يعاتب نفسه: [الرجز]

٥٠٢٢ ـ مَا لِي أرَاكِ تَكْرهِينَ الجَنَّهْ هَلْ أنْتِ إلاَّ نُطْفَةٌ فِي شَنَّهْ؟[١]

وجمعها: نطف ونطاف.

قوله: «أمْشَاجٍ»: نعت لـ «نُطفَةٍ» ووقع الجمع نعتاً لمفرد؛ لأنه في معنى الجمع كقوله تعالى: ﴿رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ [الرحمن: ٧٦] أو جعل جزء من النطفة نطفة، فاعتبر ذلك فوصفت بالجمع.

وقال الزمخشري: «نُطْفةٍ أمشاجٍ» كبُرمةٍ أعشارٍ وبُرٌ أكباش وثوب أخلاق وأرضٍ يباب وهي ألفاظ مفردة غير جموع ولذلك وقعت صفات للأفراد، ويقال: نطفة مشج؛ قال الشماخ: [الوافر]

٥٠٢٣ ـ طَوَتْ أحْشَاءَ مُرتِجَةٍ لوقتٍ عَلى مَشجٍ سُلالتُهُ مَهِينُ[٢]

ولا يصح في «أمْشَاجٍ» أن يكون تكسيراً له بل هما مثلان في الإفراد لوصف المفرد بهما.

فقد منع أن يكون «أمشاج» جمع «مشج» بالكسر.

قال أبو حيان[٣]: وقوله مخالف لنص سيبويه والنحويين على أن «أفعالاً» لا يكون مفرداً.

قال سيبويه: وليس في الكلام «أفْعَال» إلا أن يكسر عليه اسماً للجميع، وما ورد من وصف المفرد بـ «أفعال» تأولوه انتهى.

قال شهاب الدين[٤]: هو لم يجعل «أفعالاً» مفرداً، إنما قال: يوصف به المفرد، يعني التأويل ذكرته من أنهم جعلوا كل قطعة من البُرْمة بُرْمة، وكل قطعة من البرد برداً، فوصفوهما بالجمع.

وقال أبو حيان[٥]: «الأمشاج»: الأخلاط، واحدها «مَشَج» بفتحتين أو مشج كعدل وأعدال، أو مشيج كشريف وأشراف. قاله ابن العربي؛ وقال رؤبة: [الرجز]

---

(١) ينظر اللسان (شنن)، والقرطبي ١٩/٧٨، وجامع البيان ٢٩/١٢٦.

(٢) ينظر ديوانه ٣١٨، والكشاف ٤/٦٦٦، وشرح شواهده ص ٥٥٩، والكامل ٣٠/ ١١٣، واللسان (شجج)، والبحر ٨/ ٣٨٤، والدر المصون ٦/ ٧٣٧.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٩٤.

(٤) الدر المصون ٦/ ٤٣٧.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٣٩١.

٥٠٢٤ ـ يَطْرحْنَ كُلَّ مُعجلٍ مشَّاجِ لم يُكْسَ جِلْداً مِنْ دمِ أمْشَاجِ[١]

وقال الهذليُّ يصف السهم لهم بأنه قد نفذ في الرمية فالتطخ ريشه وفوقاه بدم يسير: [الوافر]

٥٠٢٥ ـ كَأنَّ الرِّيشَ والفُوقَيْنِ مِنْهُ خِلافُ النَّصْلِ سِيطَ بِهِ مَشِيجُ[٢]

ويقال: مَشَج يمشُج مشجاً إذا خلط، فمشيج كـ «خليط»، وممشوج كـ «مخلوط» انتهى.

فجوز أن يكون جمعاً لـ «مشيج» كعدل، وقد تقدم أن الزمخشري منع من ذلك.

وقال الزمخشري: «ومشجه ومزجه بمعنى، من نطفة قد امتزج فيها الماءَانِ».

وقال القرطبي[٣]: ويقال: مشجت هذا بهذا أي: خلطته، فهو ممشوج ومشيج، مثل مخلواط وخليط، وهو هنا اختلاط النطفة بالدم، وهو دم الحيض[٤]، وذلك أنَّ المرأة إذا بلغت ماء الرجل وحبلت أمسك حيضها، فاختلطت النُّطفة بالدم.

وقال الفراء: أمشاج: اختلاط ماء الرجل وماء المرأة، والدم والعلقة.

روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: الأمشاج في الحمرة، والبياض في الحمرة[٥]، وعنه أيضاً قال: يختلط ماء الرجل وهو أبيض غليظ بماء المرأة وهو أصفر رقيق، فيخلق منهما الولد فما كان من عصب وعظم وقوة فهو من ماء الرجل، وما كان من دم ولحم وشعر فهو من ماء المرأة[٦].

قال القرطبي[٧]: «وقد روي هذا مرفوعاً؛ ذكره البزار».

وعن ابن مسعود: أمشاجها عروق المضغة[٨].

وقال مجاهد: نطفة الرجل بيضاء وحمراء، ونطفة المرأة خضراء وصفراء[٩].

وقال ابن عباس: خلق من ألوان، خلق من تراب ثم من ماء الفرج والرحم وهي نطفة ثم علقة، ثم مضغة ثم عظم ثم لحم[١٠]، ونحوه.

---

(١) ينظر ديوانه ص (٣٢)، والطبري ٢٩/ ١٢٦، والبحر ٨/ ٣٨٤، والدر المصون ٦/ ٤٣٧.
(٢) ينظر ديوان الهذليين ٣/ ١٠٤، ومجاز القرآن ٢/ ٢٧٩، والطبري ٢٩/ ١٢٦، والبحر المحيط ٨/ ٣٨٤، والكامل ٢/ ٩١، والدر المصون ٦/ ٤٠٣.
(٣) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٧٩. (٤) في أ: الحيضة.
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٧٩).
(٦) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٤٢٦ ـ ٤٢٧) وينظر المصدر السابق.
(٧) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٧٩.
(٨) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٨١) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.
(٩) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٥٥) عن مجاهد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٨٢) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.
(١٠) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٥٥).

قال قتادة: هي أطوار الخلق: طوراً نطفة، وطوراً علقة، وطوراً مضغة، وطوراً عظاماً، ثم يكسو العظام لحماً[١].

قال ابن الخطيب[٢]: وقيل: إن الله ـ تعالى ـ جعل في النطفة أخلاطاً من الطَّبائع التي تكون في الإنسان من الحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة، والتقدير: من نطفة ذات أمشاج، فحذف المضاف وتم الكلام.

قوله: «نبتليه». يجوز في هذه الجملة وجهان:

أحدهما: أنها حال من فاعل خلقنا، أي: خلقناه حال كوننا مبتلين له.

والثاني: أنها حال من الإنسان، وصح ذلك لأن في الجملة ضميرين كل منهما يعود على ذي الحال، ثم هذه الحال يجوز أن تكون مقارنة إن كان معنى «نبتليه» نصرفه في بطن أمه نطفة ثم علقة كما قال ابن عباس وأن تكون مقدرة إن كان المعنى نبتليه نختبره بالتكليف؛ لأنه وقت خلقه غير مكلف.

وقال الزمخشري: «ويجوز أن يكون ناقلين له من حال إلى حال، فسمي ذلك ابتلاء على طريق الاستعارة».

قال شهاب الدين[٣]: «وهذا معنى قول ابن عباس المتقدم».

وقال بعضهم: في الكلام تقديم وتأخير، والأصل: إننا جعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه، أي: جعلنا له ذلك للابتلاء، وهذا لا حاجة إليه.

فصل في تفسير قوله تعالى نبتليه

قوله: «نبتليه»: لنبتليه، كقولك: «جئتك أقضي حقك، أي لأقضي حقك وآتيك أستمنحك كذا» ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أي: لتستكثر.

ومعنى «نبتليه» نختبره، وقيل: نقدر فيه الابتلاء وهو الاختبار، وفيما يختبر به وجهان:

أحدهما: قال الكلبي: نختبره بالخير والشر[٤].

والثاني: قال الحسن: نختبر شكره في السراء وصبره في الضراء[٥].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٥٥) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٨٢) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ٢٠٩.

(٣) ينظر الدر المصون ٦/ ٤٣٨.

(٤) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١٦٣) والقرطبي (١٩/ ٧٩).

(٥) ينظر المصدر السابق.

وقيل: «نَبْتَلِيه» نكلّفه بالعمل بعد الخلق. قاله مقاتل رحمه الله. وقيل: نكلفه؛ ليكون مأموراً بالطاعة، ومنهياً عن المعاصي.

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

والمعنى: إنا خلقناه في هذه الأمشاج لا للعبث بل للابتلاء والامتحان، ثم ذكر أنه أعطاه ما يصح معه الابتلاء وهو السمع والبصر، وهما كنايتان عن الفهم والتمييز، لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخلقة، والمعنى: جعلنا له سمعاً يسمع به الهدى وبصراً يبصر به الهدى كما قال تعالى حاكياً عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ [مريم: ٤٢] وقد يراد بالسميع المطيع، كقوله: «سَمْعاً وَطَاعَة»، وبالبصير: العالم، يقال: لفلان بصر في هذا الأمر.

وقيل: المراد بالسمع والبصر: الحاسَّتان المعروفتان، والله ـ تعالى ـ خصهما بالذكر؛ لأنهما أعظم الحواس وأشرفهما.

قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: بيَّنا له وعرفناه طريق الهدى والضلال والخير والشر ببعث الرسل فآمن أو كفر.

وقال مجاهد: السبيل هنا خروجه من الرحم[١].

وقيل: منافعه ومضاره التي يهتدي إليها بطبعه وكمال عقله.

فصل في أن العقل متأخر عن الحواس

قال ابن الخطيب[٢]: أخبر الله ـ تعالى ـ أنه بعد أن ركبه وأعطاه الحواس الظاهرة والباطنة بين له سبيل الهدى والضلال، قال: والآية تدل على أن العقل متأخر عن الحواس، وهو كذلك ثم ينشأ عنها عقائد صادقة أولية كعلمنا بأن النفي والإثبات لا يجتمعان ولا يرتفعان، وأن الكل أعظم من الجزء وهذه العلوم الأولية هي العقل.

قال الفراء: هذا يتعدى بنفسه وباللام.

قوله: ﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾. نصب على الحال، وفيه وجهان:

أحدهما: أنه حال من مفعول «هَدَيْنَاهُ» أي: هديناه مبيناً له كلتا حالتيه.

قال أبو البقاء: وقيل: وهي حال مقدرة.

قال شهاب الدين[٣]: لأنه حمل الهداية على أول البيان له وفي ذلك الوقت غير متصف بإحدى الصفتين.

---

(١) ذكره الماوردي (٦/ ١٦٤) والقرطبي (١٩/ ٨٠) عن أبي صالح والضحاك والسدي.

(٢) الفخر الرازي ٣٠/ ٢١٠.

(٣) الدر المصون ٦/ ٤٣٨.

والثاني: أنه حال من «السبيل» على المجاز.

قال الزمخشري: «ويجوز أن يكونا حالين من السبيل أي عرفناه السبيل، إما سبيلاً شاكراً، وإما سبيلاً كفوراً، كقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، فوصف السبيل بالشكر والكفر مجازاً».

والعامة على كسر همزة «إما»، وهي المرادفة لـ «أو» وقد تقدم خلاف النحويين فيها.

ونقل مكي عن الكوفيين أن هاهنا: «إن» الشرطية زيدت بعدها «ما» ثم قال: «وهذا لا يجيزه البصريون؛ لأن «إن» الشرطية لا تدخل على الأسماء إلاَّ أن يضمر فعل نحو: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٦]، ولا يصح إضمار الفعل هنا؛ لأنه كان يلزم رفع «شاكر»، وأيضاً لا دليل على الفعل» انتهى.

قال شهاب الدين[1]: لا نسلم أنه يلزم رفع «شاكراً» مع إضمار الفعل، ويمكن أن يضمر فعل ينصب «شاكراً» تقديره: إنا خلقناه شاكراً فشكوراً، وإنا خلقناه كافراً فكفوراً.

وقرأ أبو السمال[2]**، وأبو العجاج**: بفتحها، وفيها وجهان:

أحدهما: أنها العاطفة وأنها لغة، وبعضهم فتح الهمزة؛ وأنشدوا على ذلك: [الطويل]

**٥٠٢٦ ـ تُنفِّخُهَا أمَّا شِمالٌ عَرِيَّةٌ 		وأمَّا صَبَا جُنحِ العَشِيِّ هَبُوبُ**[3]

بفتح الهمزة.

ويجوز مع فتح الهمزة إبدال ميمها الأولى ياء؛ قال: [البسيط]

٥٠٢٧ ـ أيمَا إلَى جَنَّةٍ أيمَا إلى نَارِ[4]

وحذف الواو بينهما.

والثاني: أنها «إما» التفصيلية وجوابها مقدر.

قال الزمخشري: وهي قراءة حسنة، والمعنى: إما شاكراً فبتوفيقنا، وإما كفوراً فبسوء اختياره انتهى، ولم يذكر غيره.

---

(١) السابق.

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٩، والبحر المحيط ٨/ ٣٨٦.

(٣) البيت لأبي القمقام الأسدي ينظر خزانة الأدب ١١/ ٨٧، والدرر ٦/ ١٢٠، ورصف المباني ص ١٠١، وهمع الهوامع ٢/ ١٣٥، والمقرب ١/ ٢٣١، وشرح جمل الزجاجي لابن عصفور ١/ ٢٣٢، والبحر ٨/ ٣٨٧، والدر المصون ٦/ ٤٣٩.

(٤) تقدم.

فصل في الكلام على الآية

قال ابن الخطيب بعد حكايته أن «شاكراً وكفوراً» حالان: إنّ المعنى: كلما يتعلق بهداية الله تعالى وإرشاده فقد تم حالتي الكفر والإيمان.

وقيل: وانتصب «شاكراً وكفوراً» بإضمار «كان» والتقدير: سواء كان شاكراً أو كان كفوراً.

وقيل: معناه إنا هديناه السبيل ليكون إما شاكراً وإما كفوراً، أي يتميز شكره من كفره، وطاعته من معصيته كقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] قال القفال: ومجاز هذه الكلمة على هذا التأويل كقولك: «قد نصحت لك إن شئت فاقبل، وإن شئت فاترك» فتحذف الفاء، وقد يحتمل أن يكون ذلك على جهة الوعيد، أي: إنا هديناه السبيل، فإن شاء فليشكر، وإن شاء فليكفر فإنا قد أعتدنا للكافرين كذا كقوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقيل: حالان من السبيل، فإن شاء فليشكر، وإن شاء فليكفر.

وقيل: حالان من السبيل، أي عرفناه السبيل إما سبيلاً شاكراً وإما سبيلاً كفوراً، ووصف السبيل بالشكر والكفر مجاز.

قال ابن الخطيب[(١)(٢)]: وهذه الأقوال لائقةٌ بمذهب المعتزلة.

وقيل قول خامس مطابق لمذهب أهل السنة واختاره الفراء وهو أن تكون «إما» في هذه الآية كما في قوله تعالى: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦] والتقدير: إنا هديناه السبيل، ثم جعلناه تارة شاكراً، وتارة كفوراً ويؤيده قراءة أبي السمال المتقدمة، قالت المعتزلة: هذا التأويل باطل لتهديده الكفار بعد هذه الآية بقوله تعالى ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾، ولو كان كفر الكافر من الله وبخلقه لما جاز منه أن يهدده عليه، ولما بطل هذا التأويل ثبت أن الحق هو التأويل الأول، وهو أنه ـ تعالى ـ هدى جميع المكلفين، سواء آمن أو كفر، وبهذا بطل قول المجبرة.

وأجيب: بأنه ـ تعالى ـ لما علم من الكافر أنه لا يؤمن، ثم كلفه بأن يؤمن فقد كلفه بالجمع بين العلم بعدم الإيمان ووجود الإيمان، وهذا تكليف بالجمع بين متنافيين، فإن لم يصر هذا عذراً في سقوط التهديد والوعيد جاز أيضاً أن يخلق الكفر فيه، ولا يصير ذلك عذراً في سقوط التهديد والوعيد، فإذا ثبت هذا ظهر أن هنا التأويل هو الحق، وبطل تأويل المعتزلة.

---

(١) الفخر الرازي ٣٠/ ٢١١.
(٢) السابق.

فصل في جمعه تعالى بين الشاكر والكفور

قال القرطبي[١]: «جمع بين الشاكر والكفور ولم يجمع بين الشكور والكفور مع اجتماعهما في معنى المبالغة نفياً للمبالغة في الشكر، وإثباتاً لها في الكفر؛ لأن شكر الله ـ تعالى ـ لا يؤدّى فانتفت عنه المبالغة، ولم ينتف عن الكفر المبالغة فقلَّ شكره لكثرة النعم عليه وكثرة كفره وإن قلّ مع الإحسان إليه، حكاه الماوردي».

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟﴾.

قرأ نافع والكسائي[٢]**، وهاشم، وأبو بكر**: بتنوين «سَلاسِلاً» والباقون: بغير تنوين.

ووقف هؤلاء، وحمزة، وقنبل عليه بالألف بلا خلاف.

وابن ذكوان والبزي وحفص: بالألف وبدونها ـ يعني بلا ألف ـ والباقون: وقفوا بالألف بلا خلاف.

فقد تحصّل من هذا أن القراء على أربع مراتب، منهم من ينون وصلاً ويقف بالألف وقفاً بلا خلاف وهما حمزة وقنبل، ومنهم من لم ينون ويقف بالألف بلا خلاف، وهو أبو عمرو وحده، ومنهم من لم ينون ويقف بالألف تارة وبدونها أخرى، وهم ابن ذكوان وحفص والبزي، فهذا ضبط ذلك.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٨٠.

(٢) ينظر: الحجة ٦/٣٤٨، وإعراب القراءات ٢/ ٤١٩ ـ ٤٢٠، وحجة القراءات ٤٣٧.

فأما التنوين في «سَلاسِل» فذكروا له أوجهاً:

منها: أنه قصد بذلك التناسب؛ لأن ما قبله وما بعده منون منصوب.

ومنها: أن الكسائي وغيره من أهل «الكوفة» حكوا عن بعض العرب أنهم يصرفون جميع ما لا ينصرف إلا «أفعل منك».

قال الأخفش: سمعنا من العرب من يصرف كل ما لا ينصرف؛ لأن الأصل في الأسماء الصرف، وترك الصرف لعارض فيها، وأن هذا الجمع قد جمع وإن كان قليلاً قالوا: «صواحب وصواحبات»، وفي الحديث: «إنَّكُنَّ لصَواحِباتُ يُوسُفَ»[(١)]؛ وقال: [الرجز]

٥٠٢٨ ـ قَـدْ جَـرتِ الـطَّـيْـرُ أيَـامِـنِـيـنَـا[(٢)]

فجمع «أيامن» جمع تصحيح المذكر.

وأنشدوا: [الكامل]

٥٠٢٩ ـ وإذَا الـرِّجـالُ رَأوا يَـزِيـدَ رَأيـتـهُـمْ خُـضـعَ الـرِّقـابِ نَـواكِـسِ الأبْـصَـارِ[(٣)]

بكسر السين من «نواكس» وبعدها ياء تظهر خطًّا لا لفظاً لالتقاء الساكنين، وهذا على رواية كسر السين، والأشهر فيها نصب السين، فلما جمع شابه المفردات فانصرف.

ومنها: أنه مرسوم في إمام «الحِجَاز» و «الكوفة» بالألف، رواه أبو عبيد، ورواه قالون عن نافع، وروى بعضهم ذلك عن مصاحف «البصرة» أيضاً.

وقال الزمخشري: وفيه وجهان:

أحدهما: أن تكون هذه النون بدلاً من حرف الإطلاق، ويجري الوصل مجرى الوقف.

والثاني: أن يكون صاحب هذه القراءة ممن ضري برواية الشعر ومرن لسانه على صرف ما لا ينصرف.

قال شهاب الدين[(٤)]: «وفي هذه العبارة فظاظة وغلظة، لا سيما على مشيخة

---

(١) تقدم.

(٢) ينظر الخصائص ٣/ ٢٣٦، والمقرب ٢/ ١٢٨ وسمط اللآلىء ١/ ٦٨١، والدر المصون ٦/ ٤٣٩.

(٣) البيت للفرزدق في ديوانه ١/ ٢٦٦؛ وجمهرة اللغة ص ٦٠٧؛ وخزانة الأدب ١/ ٢٠٦؛ وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٣٦٧؛ وشرح التصريح ٢/ ٣١٣؛ وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٣٩؛ وشرح شواهد الشافية ص ١٤٢؛ وضرح المفصّل ٥/ ٥٦؛ والكتاب ٣/ ٦٣٣؛ ولسان العرب (نكس)، (خضع)؛ والمقتضب ١/ ١٢١، ٢/ ٢١٩.

(٤) ينظر الدر المصون ٦/ ٤٣٩.

الإسلام، وأئمة العلماء الأعلام، ووقف هؤلاء بالألف ظاهر».

وأما لمن لم ينونه فظاهر، لأنه على صيغة منتهى الجموع.

وقولهم: قد جمع نحو «صواحبات، وأيامنين» لا يقدح؛ لأن المحذور جمع التكسير، وهذا جمع تصحيح، وعدم وقوفهم بالألف واضح أيضاً. وأما من لم ينون ووقف بالألف فاتباعاً للرسم الكريم كما تقدم.

وأيضاً: فإن الروم في المفتوح لا يجوزه القراء، والقارىء قد يبين الحركة في وقفه فأتوا بالألف ليبين منها الفتحة.

وروي عن بعضهم أنه يقول: «رَأَيْتُ عُمَراً» بالألف، يعني عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ والسلاسل: جمع سلسلة: وهي القيود في جهنم، وقد تقدم الكلام عنها في سورة «الحاقة».

فصل

اعلم أنه بيّن ـ هاهنا ـ حال الفريقين، وأنه تعبد العقلاء، وكلّفهم ومكّنهم مما أمرهم فمن كفر فله العقاب، ومن وحد وشكر فله الثّواب، والاعتداد هو اعتداد الشّيء حتى يكون عتيداً حاضراً متى احتيج إليه، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [ق: ٢٣]، والأغلال: جمع غل، تغلّ بها أيديهم إلى أعناقهم. وتقدم الكلام في السعير أيضاً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ الآية. لما ذكر ما أعد للكافرين ذكر ما أعد للشاكرين، والأبرار أهل الصدق، واحدهم: برّ، وهو من امتثل أمر الله تعالى.

وقيل: البر: الموحد، والأبرار: جمع «بار» مثل: «شاهد وأشهاد».

وقيل: هو جمع «بر» مثل: «نهر وأنهار».

وفي «الصحاح»(١): وجمع البر: الأبرار، وجمع البار: البررة، وفلان يبرُّ خالقه ويتبرره أي يطيعه، والأم برة بولدها.

وروى ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «إِنَّما سمَّاهُم اللَّهُ ـ تعالَى ـ الأَبْرَارَ؛ لأَنَّهُمْ بَرُّوا الآبَاءَ والأبناءَ، كما أنَّ لِوالديكَ عَلَيْكَ حقًّا، كذَلكَ لوَلَدكَ عَلَيْك حقًّا»(٢).

وقال الحسن: البر الذي لا يؤذي الذّرّ(٣).

---

(١) ينظر الصحاح ٢/ ٥٨٨.

(٢) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٤/ ٣٢٣) وذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٤٥٤٩٢) وعزاه للطبراني عن ابن عمر.

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١٦٥) بمعناه والقرطبي (١٩/ ٨١).

وقال قتادة: الأبرار الذين يؤدّون حق الله، ويوفون بالنذر، وفي الحديث: «الأبْرَارُ الَّذينَ لا يُؤْذُوَن أحَداً»[١].

﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾. أي: من إناء فيه الشراب.

قال ابن عباس: يريد الخمر[٢].

والكأس في اللغة: الإناء فيه الشراب، وإذا لم يكن فيه الشراب لم يسمَّ كأساً.

قوله تعالى: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ المزاج: ما يمزج به أي: يخلط، يقال: مزجه يمزجه مزجاً أي: خلطه يخلطه خلطاً.

قال حسان: [الوافر]

٥٠٣٠ ـ كَأنَّ سَبِيَئةً من بَيتِ رَأسٍ يَكُونُ مِزاجَهَا عَسَلٌ ومَاءُ[٣]

فالمزاج كالقِوام اسم لما يقاوم به الشيء، ومنه مزاج البدن: وهو ما يمازجه من الصفراء والسوداء والحرارة والبرودة.

و«الكافور»: طيب معروف، وكأن اشتقاقه من الكفر، وهو الستر لأنه يغطي الأشياء برائحته، والكافور أيضاً: كمائم الشجر الذي يغطّي ثمرتها.

قال بعضهم: الكافُور: «فاعول» من الكفر كالنّاقور من النَّقر، والغامُوس من الغمس، تقول: غامسته في الماء أي: غمسته، والكفر: القرية والجبل العظيم؛ قال: [الطويل]

٥٠٣١ ـ .... تُطَلِّعُ ريَّاهُ من الكَفَرَاتِ[٤]

والكافور: البحر، والكَافِر: الليل، والكَافِر: الساتر لنعم الله تعالى، والكَافِر: الزارع لتوريته الحب في الأرض؛ قال الشاعر: [السريع]

٥٠٣٢ ـ وكَافِرٍ مَاتَ على كُفْرِهِ وجَنَّةُ الفِرْدَوسِ للكَافِرِ[٥]

والكفَّارة: تغطية الإثم في اليمين الفاجرة والنذور الكاذبة بالمغفرة، والكافور: ماء جوف شجر مكنون، فيغرزونه بالحديد، فيخرج إلى ظاهر الشجر، فيضربه الهواء فيجمد وينعقد كالصمغ الجامد على الأشجار.

---

(١) ينظر المصدر السابق. (٢) ينظر المصدر السابق.

(٣) تقدم.

(٤) عجز بيت لعبد الله بن نمير الثقفي وصدره:

له أرج من مجمر الهند ساطع

ينظر اللسان (أرج)، (كفر).

(٥) ينظر اللسان (كفر).

ويقال: كفر الرجل يكفر إذا وضع يده على صدره.

فصل في الآية

قال ابن الخطيب[١]: مزج الكافور بالمشروب لا يكون لذيذاً، فما السبب في ذكره؟.

والجواب من وجوه:

أحدها: قال ابن عباس: اسم عين ماء في الجنة يقال له: عين الكافور أي: يمازجه ماء هذا العين التي تسمى كافوراً في بياض الكافور ورائحته وبرده ولكن لا يكون فيه طعمه ولا مضرته[٢].

وثانيها: أن رائحة الكافور عرض، والعرض لا يكون إلا في جسم، فخلق الله تلك الرائحة في جرم ذلك التراب فسمي ذلك الجسم كافوراً وإن كان طعمه طيباً فيكون ريحها لا طعمها.

وثالثها: أن الله تبارك وتعالى يخلق الكافور في الجنة مع طعم لذيذ ويسلب عنه ما فيه من المضرّة، ثم إنه ـ تعالى ـ يمزجه بذلك الشراب كما أنه تعالى يسلب عن جميع المأكولات والمشروبات ما معها من المضرات في الدنيا.

قال سعيد عن قتادة: يمزج لهم بالكافور ويختم بالمسك[٣].

وقيل: أراد بالكافور في بياضه وطيب رائحته وبرده، لأن الكافور لا يشرب، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ [الكهف: ٩٦]، أي: كنَارٍ.

وقيل: كان في علم الله تعالى، و «كان» زائدة، أي: من كأس مزاجها.

قال القرطبي[٤]: ويقال: «كافور وقافور»، **وهي قراءة عبد الله[٥] بالقاف بدل الكاف**، وهذا من التعاقب بين الحرفين كقولهم: «عربي فجّ وكجّ».

ومفعول «يشربون» إما محذوف، أي: يشربون ماء أو خمراً من كأس، وإما مذكور وهو «عيناً»، وإما «من كأس» و «من» مزيدة فيه، وهذا يتمشّى عند الكوفيين والأخفش.

وقال الزمخشري: «فإن قلت: لم وصل فعل الشرب بحرف الابتداء أولاً، وبحرف

---

(١) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ٢١٣.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٨٢) والرازي (٣٠/ ٢١٣).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٥٨) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٨٣) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٨٢.

(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٤٤١.

الإلصاق آخراً؟ قلت: لأن الكأس مبدأ شربهم، وأول غايته، وأما العين فبها يمزجون شرابهم، فكأن المعنى: يشرب عباد الله بها الخمر كما تقول: شربت الماء بالعسل».

قوله: ﴿عَيْنًا﴾. في نصبها أوجه:

أحدها: بدل من «كافوراً»؛ لأن ماءها في بياض الكافور وفي رائحته وفي برده.

الثاني: أنها بدل من محل «من كأس». قاله مكي. ولم يقدر حذف مضاف.

وقدر الزمخشري على هذا الوجه حذف مضاف، قال: كأنه قيل: يشربون خمراً، خمر عين. وأما أبو البقاء فجعل المضاف مقدراً على وجه البدل من «كافور».

قال: «**والثاني**: بدل من كافور، أي من ماء عين، أو خمر عين». وهو معنى حسن.

والثالث: أنها مفعول بـ «يشربون» يفسره ما بعده، أي يشربون عيناً من كأس.

الرابع: أن ينتصب على الاختصاص.

الخامس: بإضمار «يشربون» يفسره ما بعده، قاله أبو البقاء. وفيه نظر؛ لأن الظاهر أنه صفة لـ «عين» فلا يصح أن يفسر.

السادس: بإضمار «يعطون».

السابع: على الحال من الضمير في «مزاجها». قاله مكي.

وقال القرطبي(١): «نصب بإضمار أعني».

قوله: «يشرب بها». في الباء أوجه:

أحدها: أنها مزيدة، أي: يشربها، **ويدل له**(٢) **قراءة** ابن أبي عبلة: يشربها معدى إلى الضمير بنفسه.

الثاني: أنها بمعنى «من».

الثالث: أنها حالية، أي: يشرب ممزوجة بها.

الرابع: أنها متعلقة بـ «يشرب» والضمير يعود على الكأس، أي: يشربون العين بذلك الكأس، والباء للإلصاق كما تقدم في قول الزمخشري.

الخامس: أنه على تضمين «يشربون» معنى يلتذون بها شاربين.

السادس: على تضمينه معنى يروى، أي: يروى بها عباد الله، وكهذه الآية الكريمة في بعض الأوجه قول الهذلي: [الطويل]

٥٠٣٣ ـ شَرِبْنَ بِمَاءِ البَحْرِ ثُمَّ تَرفَّعَتْ مَتَى لُجَجٍ خُضْرٍ لَهُنَّ نَئِيجُ(٣)

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٨٢.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣١٠، والبحر المحيط ٨/ ٣٨٧، والدر المصون ٦/ ٤٤١.

(٣) تقدم.

فهذه يحتمل الزيادة ويحتمل أن تكون بمعنى «من».

وقال الفراء: «يشربها ويشرب بها سواء في المعنى، وكأن يشرب بها: يروى بها، وينفع بها، وأما يشربونها فبيِّن، وأنشد قول الهذلي، قال: ومثله: يتكلم بكلام حسن، ويتكلم كلاماً حسناً».

والجملة من قوله «يشرب بها» في محل نصب صفة لـ «عيناً» إن جعلنا الضمير في «بها» عائداً على «عيناً» ولم نجعله مفسراً لناصب كما قاله أبو البقاء، و «يفجرونها» في موضع الحال.

فصل في المراد بعباد الله هاهنا

قال ابن الخطيب[١]: قوله ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ يفيد أن كل عباد الله يشربون منها، والكفار بالاتفاق لا يشربون منها فدل على أن لفظ عباد الله مختص بأهل الإيمان، وإذا ثبت هذا فقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] لا يتناول الكفار، بل يختص بالمؤمنين، فيصير تقدير الآية: لا يرضى لعباده المؤمنين الكفر، ولا تدل الآية على أنه ـ تعالى ـ لا يريد الكفر للكفار.

قوله: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾. أي: يشققونها شقًّا كما يفجر الرجل النَّهر هاهنا وهاهنا إلى حيث شاءوا، ويتبعهم حيث مالوا مالت معهم.

روى القرطبي[٢] عن الحسن ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أرْبعُ عُيونٍ في الجَنَّةِ اثْنان يَجرِيَانِ مِنْ تَحْتِ العَرْشِ؛ إحداهما الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ تعالى يُفجِّرونها تفجيراً وعينان يجريان من فَوْقِ العرشِ نضَّاختان: إحداهُما الَّتي ذكر اللَّهُ تعالى سلسبيلاً، والأُخرى: التَّسْنِيمُ»[٣] ذكره الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول».

وقال: فالتَّسْنيم للمقربين خاصة، شراباً لهم، والكافور للأبرار شراباً لهم، يمزج للأبرار من التسنيم شرابهم، وأما الزَّنجبيل والسَّلسبيل فللأبرار [منها مزاج هكذا ذكره في التنزيل وسكت عن ذكر ذلك لمن هي شرب فما كان للأبرار مزاج][٤] للمقربين صرف، وما كان للأبرار صرف فهو لسائر أهل الجنة مزاج، والأبرار هم الصادقون والمقربون: هم الصديقون.

قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ يجوز أن يكون مستأنفاً لا محلَّ له ألبتة، ويجوز أن يكون خبراً لـ «كان» مضمرة.

---

(١) ينظر الرازي ٣/ ٢١٤. (٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٨٣.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٨٨) وعزاه إلى الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول».

(٤) سقط من: ب.

قال الفراء: التقدير «كانوا يوفون بالنَّذر في الدنيا، وكانوا يخافُون» انتهى. وهذا لا حاجة إليه.

الثالث: جواب لمن قال: ما لهم يرزقون ذلك؟.

قال الزمخشري: «يوفون» جواب من عسى يقول: ما لهم يرزقون ذلك؟.

قال أبو حيان(١): «واستعمل «عسى» صلة لـ «من» وهو لا يجوز، وأتى بالمضارع بعد «عسى» غير مقرون بـ «أن» وهو قليل أو في الشعر».

فصل في معنى الآية

معناه: لا يخلفون إذا نذروا، وقال معمر عن قتادة: يأتون بما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة وغيره من الواجبات(٢).

وقال مجاهد وعكرمة: يوفون إذا نذروا في حق الله تعالى(٣).

وقال الفراء والجرجاني: وفي الكلام إضمار، أي: كانوا يوفون بالنذر في الدنيا والعرب قد تزيد مرة «كان» وتحذف أخرى.

وقال الكلبي: «يُوفُونَ بالنَّذرِ» أي: يتممون العهود لقوله تعالى ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٩١]، و ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١] أمرٌ بالوفاء بها؛ لأنهم عقدوها على أنفسهم باعتقادهم الإيمان.

قال القرطبي(٤): «والنذر: حقيقته ما أوجبه المكلف على نفسه [من شيء يفعله، وإن شئت قلت في حد النذر هو إيجاب المكلف على نفسه](٥) من الطاعات ما لو لم يوجبه لم يلزمه».

وقال ابن الخطيب(٦): الإيفاءُ بالشيء هو الإتيان به وافياً.

وقال أبو مسلم: النذر كالوعد، إلا أنه إذا كان من العباد فهو نذر، وإن كان من الله فهو وعد، واختص هذا اللفظ في عرف الشرع بأن تقول: لله عليَّ كذا وكذا من الصدقة، أو يسلم بأمر يلتمسه من الله ـ تعالى ـ مثل أن تقول: إن شفى الله مريضي، أو ردَّ غائبي

---

(١) ينظر البحر المحيط ٨/ ٣٩٥.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٥٩) عن قتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٨٣) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٥٩) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٨٣) وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٨٣.

(٥) سقط من ب.

(٦) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٢١٤.

فعليَّ كذا وكذا، واختلفوا فيما إذا علق ذلك بما ليس من وجوه البر كقوله: إن أتى فلان الدَّار فعلي هذا، فمنهم من جعله كاليمين، ومنهم من جعله من باب النذور.

فصل في المراد بالإيفاء بالنذر

قال القشيري: روى أشهب عن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «يُوفُونَ بالنَّذْرِ» هو نذر العتق، والصيام والصلاة.

وروى عنه أبو بكر بن عبد العزيز قال: قال مالك: «يُوفُونَ بالنَّذرِ» قال: النذر هو اليمين.

قال ابن الخطيب[1]: هذه الآية تدلّ على وجوب الوفاء بالنذر؛ لأنه تعالى قال عقيبه: «ويخَافُونَ يَوْماً»، وهذا يقتضي أنهم إنما وفَّوا بالنذر خوفاً من شر ذلك اليوم، والخوف من شر ذلك اليوم لا يتحقق إلا إذا كان الوفاء به واجباً ويؤكده قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٧١] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩] وهذا محتمل ليوفوا أعمال نسكهمُ التي ألزموها أنفسهم.

فصل في زيادة كان

قال الفراء وجماعة من أهل المعاني: «كان» في قوله تعالى: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ زائدة وأما هاهنا فكان محذوفة، والتقدير: كانوا يوفون بالنذر.

قال ابن الخطيب[2]: ولقائل أن يقول: إنا بينا أن «كان» في قوله تعالى: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ ليست بزائدة، وأما في هذه الآية فلا حاجة إلى إضمارها؛ لأنه ـ تعالى ـ ذكر في الدنيا أن الأبرار يشربون أي: سيشربون، فإن لفظ المضارع مشترك بين الحال والاستقبال، ثم قال السبب في ذلك الثواب الذي سيجدونه أنهم الآن يوفون بالنذر.

قوله: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾، أي: يخافون يوم القيامة، و «كَانَ شَرُّهُ» في موضع نصب صفة لـ «يَوْم».

و «المُسْتطِيرُ»: المنتشر، يقال: اسْتَطَار يَسْتطِيرُ اسْتيطَاراً، فهو مستطير، وهو «استفعل» من الطيران.

قال الأعشى: [المتقارب]

٥٠٣٤ ـ فَبَانَتْ وقَدْ أسْأرَتْ في الفُؤا دِ صَدعاً على نَأيِهَا مُسْتَطِيرَا[3]

والعرب تقول: استطار الصدع في القارورة والزجاجة، أو استطال إذا امتدّ، ويقال: استطار الحريق إذا انتشر.

---

(١) السابق. (٢) السابق. (٣) تقدم.

وقال الفرَّاء: المستطير: المستطيل، كأنه يريد أنه مثله في المعنى، لأنه أبدل من اللام راء، والفجر: فجران، مستطيل كذنبِ السِّرحان وهو الكاذب، ومستطير، وهو الصادق لانتشاره في الأفق.

قال قتادة: استطار والله شرُّ ذلك اليوم حتى ملأ السماوات والأرض(١).

وقال مقاتل: كان شره فاشياً في السموات، فانشقت وتناثرت بالكواكبِ وفزعت الملائكة في الأرض، ونسفت الجبال وغارت المياه(٢).

فإن قيل: أحوال القيامة وأهوالها كلها فعل الله تعالى، وكل ما كان فعلاً لله، فهو حكمة وصواب، وما كان كذلك لا يكون شرًّا، فكيف وصفها الله بأنها شرّ؟.

والجواب: إنما سميت شرًّا لكونها مضرة بمن تنزل عليه، وصعبة عليه كما سميت الأمراض، وسائر الأمور المكروهة شروراً.

قال ابن الخطيب(٣): وقيل: المستطير هو الذي يكون سريع الوصول إلى أهله، وكأن هذا القائل ذهب إلى أن الطيران إسراع.

فإن قيل: لم قال: كان شره، ولم يقل: سيكون شره مستطيراً؟.

فالجواب: أن اللفظ وإن كان للماضي إلا أن معناه كان شره في علم الله وحكمته(٤).

قوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ وهذا الجار والمجرور حال إما من «الطعام» أي: كائنين على حبهم الطعام كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قال ابن عباس ومجاهد: على قلة حبهم إياه وشهوتهم له(٥)، وإما من الفاعل.

والضمير في «حبه» لله تعالى، أي: على حب الله، وعلى التقدير: فهو مصدر مضاف للمفعول.

قال الفضيل بن عياض: على حب إطعام الطَّعام.

قوله «مسكيناً». أي: ذا مسكنة، «ويَتِيماً» أي: من يتامى المسلمين «وأسِيراً» أي: الذي يؤسر فيحبس، وذلك أن المسكين عاجز عن الاكتساب بنفسه، واليتيم: هو الذي مات من يكتسب له، وبقي عاجزاً عن الكسبِ لصغره، والأسير: هو المأخوذ من قومه المملوك رقبة، الذي لا يملك لنفسه نصراً ولا حيلةً.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٥٩).

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٨٤) عن مقاتل.

(٣) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ٢١٥.

(٤) في أ: وحكمه.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٥٩) عن مجاهد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٨٤) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في «شعب الإيمان».

قال ابن عباس والحسن وقتادة: الأسير من أهل الشرك يكون في أيديهم[١].

فإن قيل: لمَّا وجب قتله، فكيف يجب إطعامه؟.

فالجواب: أن القتل في حال لا يمنع من الإطعام في حال أخرى، ولا يجب إذا عوقب بوجهٍ أن يعاقب بوجه آخر، وكذلك لا يحسن فيمن عليه قصاص أن يفعل به ما هو دون القتل، ويجب على الإمام أن يطعمه، فإن لم يفعله الإمام وجب على المسلمين.

وقال مجاهد وسعيد بن جبير: الأسير: المحبوس[٢].

وقال السديُّ: الأسير: المملوك[٣]، وقيل: الأسير: الغريم، قال رسول الله ﷺ: «أسِيرُكَ غَريمُكَ»[٤] وقال عطاء: الأسير من أهل القبلةِ وغيرهم[٥].

قال القرطبي[٦]: «هذا يعم جميع الأقوال، ويكون إطعام الأسير المشرك قربة إلى الله تعالى، غير أنه من صدقة التطوع، فأما المفروضة فلا».

وقيل: الأسير: الزوجة، قال ﷺ: «اتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّساءِ، فإنَّهُنَّ عوانٍ عِندكُمْ»[٧].

قال القفال[٨]: واللفظ يحتمل كل ذلك؛ لأن أصل الأسر هو الشك بالقدر، وكان الأسير يفعل به ذلك حبساً له.

فصل في الكلام على الآية

قال القرطبي[٩]: قيل نسخ آية المسكين آية الصدقات، وإطعام الأسير بالسيف قاله سعيد بن جبير.

وقال غيره: بل هو ثابت الحكم، وإطعام اليتيم والمسكين على التطوع، وإطعام الأسير لحفظ نفسه إلى أن يتخير فيه الإمام.

وقال الماورديُّ: ويحتمل أن يريد بالأسير الناقص العقل؛ لأنه في أسر خبله وجنونه، وأسر المشرك انتقام يقف على رأي الإمام، وهذا برٌّ وإحسان.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٦٠) عن الحسن وقتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٨٤) عن الحسن وعزاه إلى سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن مردويه وذكره أيضاً عن قتادة وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٦٠) عن مجاهد وسعيد بن جبير.

(٣) ورد مثله مرفوعاً من حديث أبي سعيد الخدري ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٨٥) وعزاه إلى ابن مردويه وابن نعيم.

(٤) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٦٦٨).

(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٨٤) وعزاه إلى ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير وعطاء.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٨٤.

(٧) تقدم.

(٨) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٢١٧.

(٩) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٨٤.

قوله ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ على إضمار القول، أي: يقولون بألسنتهم لليتيم والمسكين والأسير إنما نطعمكم في الله ـ جل ثناؤه ـ فزعاً من عذابه وطمعاً في ثوابه ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ أي: ولا تثنوا علينا بذلك.

قال ابن عباس: كذلك كانت نيَّاتهم في الدنيا حين أطعموا(١).

وعن مجاهد: أما إنهم ما تكلموا به، ولكن علمه الله منهم، فأثنى به عليهم ليرغب في ذلك راغب(٢).

قيل: هذه الآيات نزلت في مطعم بن ورقاء الأنصاري نذر نذراً فوفى به.

وقيل: نزلت فيمن تكفل بأسرى بدر، وهم سبعة من المهاجرين: أبو بكر، وعمر، وعلي، والزبير، وعبدالرحمن بن عوف، وسعيد، وأبو عبيدة ـ رضي الله عنهم ـ ذكره الماوردي.

وقال مقاتل: نزلت في رجل من الأنصار أطعم في يوم واحد مسكيناً، ويتيماً، وأسيراً(٣).

وقيل: نزلت في علي وفاطمة ـ رضي الله عنهما ـ وجارية لهما اسمها فضة.

قال القرطبي(٤): نزلت في جميع الأبرار، ومن فعل فعلاً حسناً، فهي عامة، وما ذكر عن عليٍّ، وفاطمة لا يصح.

وروى جابر الجعفي في قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾، عن قنبر مولى علي ـ رضي الله عنه ـ قال: مرض الحسن والحسين حتى عادهما أصحاب رسول الله ﷺ فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: يا أبا الحسن لو نذرت عن ولديك نذراً، فقال عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ إن برأ ولدي صمت لله ثلاثة أيام شكراً.

وقالت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ مثل ذلك، وقال الحسن والحسين مثل ذلك وذكر الحديث. قال أهل الحديث: جابر الجعفي كذاب.

فصل في الإحسان إلى الغير

قال ابن الخطيب(٥): اعلم أن الإحسان إلى الغير تارة يكون لأجل الله، وتارة يكون لغير الله، إما طلباً لمكافأة أو طلباً لحمدٍ وثناء، وتارة يكون لهما، وهذا هو الشرك، والأول هو المقبول عند الله، وأما القسمان الباقيان فمردودان، قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٦٤].

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٨٤).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٦١) عن مجاهد.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٨٤). (٤) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٨٥.

(٥) الفخر الرازي ٣٠/ ٢١٨.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩]، ولا شك أن التماس الشكر من جنس المنّ والأذى، إذا عرفت ذلك فنقول: القوم لما قالوا: «إنَّما نُطعِمكُمْ لوجْهِ اللَّهِ» بقي فيه احتمال، أنه أطعمه لوجه الله ولسائر الأغراض على سبيل التشريك، فلا جرم نفى هذا الاحتمال بقوله تعالى: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾.

فصل في الشكور والكفور

الشُّكور والكُفور: مصدران كـ «الشكر والكفر» وهو على وزن «الدُّخول والخُروج» هذا قول جمهور أهل اللغة.

وقال الأخفش: إن شئت جعلت الشكور، جماعة الشكر، وجعلت الكفور في قوله تعالى: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ مثل «برد وبرود» وإن شئت جعلته مصدراً واحداً في معنى جمع مثل: قعد قعوداً، وخرج خروجاً.

قوله: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أن إحساننا إليكم للخوف من شدة ذلك اليوم لا لإرادة مكافأتهم.

والثاني: لا نريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله تعالى علَّل ترك المكافأة بخوف عقاب الله على طلب المكافأة بالصدقة.

فإن قيل: إنه ـ تعالى ـ لما حكى عنهم الإيفاء بالنذر، علَّل ذلك بخوف القيامة فقط، ولما حكى عنهم الإطعام علل ذلك بأمرين: بطلب رضا الله تعالى، وبالخوف، فما الحكمة في ذلك؟.

فالجواب: أن النذر هو الذي أوجبه على نفسه لأجل الله، فلما كان كذلك، لا جرم علله بخوف القيامة فقط، وإما الإطعام فالله ـ تعالى ـ هو الذي شرعه، فلا جرم ضم إليه خوف القيامة.

قوله: «يَوْمَاً عَبُوساً قَمْطَرِيراً». القَمْطَرِيرُ: الشديد، وأصله كما قال الزجاج: «مشتق من اقمطرّت الناقة إذا رفعت ذنبها، وجمعت قطريها وزمت بأنفها».

قال الزمخشري: اشتقاقه من القطر، وجعلت الميم زائدة[1]؛ قال أسد بن ناعصة: [الخفيف]

٥٠٣٥ ـ واصْطَليْتُ الحُروبَ فِي كُلِّ يومٍ بَـاسِـلَ الـشَّـرِّ قَـمْـطَـرِيـرَ الـصَّـبـاحِ[2]

---

(١) في أ: فريدة.

(٢) ينظر الكشاف ٤/ ٦٦٩، والقرطبي ١٩/ ٩٠، والبحر ٨/ ٣٨٤، والدر المصون ٦/ ٤٤٢.

قال أبو حيان: واختلف النحاة في هذا الوزن، والأكثر على أنه لا يثبت «افمَعَلَّ» في أوزان الأفعال ويقال: اقمطرَّ يقمطرُّ فهو مقمطرّ؛ قال الشاعر: [الرجز]

٥٠٣٦ ـ قَدْ جَعلَتْ شَبْوَةُ تَزبَئِرُّ تَكْسُو استهَا لَحماً وتقْمَطِرُّ[1]

ويوم قَمْطَرير وقُمَاطر: بمعنى شديد؛ قال الشَّاعرُ: [الطويل]

٥٠٣٧ ـ فَفِرُّوا إذَا مَا الحَربُ ثَار غُبَارُهَا وَلَجَّ بِهَا اليَوْمُ العَبُوسُ القُمَاطِرُ[2]

وقال الزجاج: القَمْطَرير: الذي يعبسُ حتى يجتمع ما بين عينيه. انتهى.

فعلى هذا استعماله في اليوم مجاز، وفي بعض كلام الزمخشري، أنه جعله من «القمط» فعلى هذا تكون الرَّاءان فيه مزيدتين.

وقال القرطبي[3]: «القمطرير: الطَّويل»؛ قال الشاعر:

٥٠٣٨ ـ شَدِيداً عَبُوساً قَمطَرِيرا[4]

تقول العرب: يوم قمطرير، وقُماطر، وعصيب بمعنى؛ وأنشد الفراء: [الطويل]

٥٠٣٩ ـ بَنِي عَمِّنَا هل تَذْكُرونَ بَلاءنَا عَليْكُمْ إذا مَا كَانَ يومٌ قُماطِرُ[5]

بضم القاف، واقمطرّ: إذا اشتد، وقال الأخفش: القمطرير: أشد ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء؛ وأنشد: [الطويل]

٥٠٤٠ ـ فَفِرُّوا إذَا ما الحَرْبُ

البيت المتقدم[6].

وقال الكسائي: يقال: اقمطرَّ اليوم وازمهرَّ اقمطراراً وازمهراراً، وهو القمطريرُ والزمهريرُ، ويوم مقمطرٌّ، إذا كان صعباً شديداً؛ قال الهذليُّ: [الطويل]

٥٠٤١ ـ بَنُو الحَرْبِ ارضَعنَا لَهُم مُقمطِرَّةً وَمَنْ يُلقَ مِنَّا ذلِكَ اليَوْمَ يهْربِ[7]

---

(١) ينظر اللسان (قمطر)، والبحر ٨/ ٣٥٤، والدر المصون ٦/ ٤٤٢.

(٢) ينظر اللسان (لجج) و (قمطر)، والقرطبي ١٩/ ٨٨، والبحر ٨/ ٣٨٤، والدر المصون ٦/ ٤٤٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٨٨.

(٤) ينظر القرطبي ١٩/ ٨٨.

(٥) ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٢١٦، وإعراب القرآن ٥/ ٩٩، والطبري ٢٩/ ١٣١، ومجمع البيان ١٠/ ٦١١، والقرطبي ١٩/ ٨٨، واللسان (قمطر).

(٦) تقدم.

(٧) البيت لحذيفة بن أنس.

ورواية البيت كما في ديوان الهذليين:

بنو الحرب أرضعنا بها مقمطرةً فمن يُلْقَ منا يُلْق سيدٌ مُدَرَّبُ

ينظر ديوان الهذليين ٣/ ٢٥، والقرطبي ١٩/ ٨٨.

و «العبوس» أيضاً صفة لـ «اليوم»، «يوماً» تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته، والمعنى: نخاف يوماً ذا عبوس.

وقال ابن عباس: يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل منه عرقٌ كالقطران.

وقال مجاهد: إن العبوس بالشَّفتين، والقَمْطرير بالجبهةِ والحاجبينِ فجعلهما من صفات الوجه المتغيّر من شدائد ذلك اليوم[1].

قوله: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾. أي: دفع عنهم بأس ذلك اليوم وشدته وعذابه.

وقرأ[2] أبو جعفر: «فوقَّاهم الله» بتشديد القاف على المبالغة.

واعلم أنه ـ تعالى ـ لما حكى عنهم أنهم أتوا بالطاعات لغرضين: لأجل رضا الله تعالى والخوف من القيامة، بيّن هنا أنه أعطاهم هذين الغرضين وهو أنه حفظهم من أهوال القيامة، وهو قوله جل ثنائه ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ وأما طلبهم رضا الله فأعطاهم الله بسببه «نُضْرةً» في الوجه، أي حسناً، حين رأوه، «وسروراً» في القلب قال الضحاك: النضرة: البياض والنقاء[3].

وقال ابن جبير: الحسن والبهاء[4].

وقال ابن زيد: أثر النعمة[5].

قوله تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟﴾. «ما» مصدرية، و «جنَّة» مفعول ثانٍ، أي: جزاهم جنة بصبرهم وقدر مكي مضافاً، فقال: تقديره دخول الجنة، ولبس حرير، والمعنى: وجزاهم بصبرهم على الفقر.

وقال القرظي[6]: على الصوم.

وقال عطاء: على الجوع ثلاثة أيام، وهي أيام نذر.

وقيل: بصبرهم على طاعة الله، وصبرهم عن معصية الله ومحارمه، وهذا يدل على أن الآيات نزلت في جميع الأبرار، ومن فعل فعلاً حسناً.

وروى ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ سئل عن الصبر، فقال: «الصَّبرُ أربعةٌ: الصَّبْرُ عند الصَّدمةِ الأولَى، والصَّبرُ على أداءِ الفَرائضِ، والصَّبرُ على اجتنابِ محارمِ اللَّهِ تعالى، والصَّبرُ على المَصائبِ»[7].

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٨٥) وعزاه إلى عبد بن حميد.
(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤١١، والبحر المحيط ٨/ ٣٨٨.
(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١٦٧) والقرطبي (١٩/ ٨٩).
(٤) ينظر المصدر السابق.
(٥) ينظر المصدر السابق.
(٦) ينظر تفسير القرطبي (١٩/ ٨٩).
(٧) ينظر المصدر السابق.

قوله تعالى: ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾. أي: أدخلهم الجنة وألبسهم الحرير.

قوله: ﴿مُتَّكِئِينَ﴾. حال من مفعول «جزاهم» والعامل فيها «جزى» ولا يعمل فيها «صبروا»؛ لأن الصبر إنما كان في الدنيا والاتّكاء في الآخرة.

وقرأ علي[١] ـ رضي الله عنه ـ: «وجازاهم».

وجوَّز أبو البقاء: أن يكون صفة لـ «جَنَّةً».

وهذا لا يجوز عند البصريين؛ لأنه كان يلزم بروز الضمير، فيقال: «مُتَّكِئِينَ هُمْ فِيهَا» لجريان الصفة على غير من هي له.

وقد منع مكي أن يكون «متكئين» صفة لـ «جنة» لما ذكرنا من عدم بروز الضمير.

وممن ذهب إلى كون «متكئين» صفة لـ «جنة»، الزمخشري، فإنه قال: «ويجوز أن يكون مُتَّكئينَ، ولا يَرونَ، ودَانيةً، كلها صفات الجنة». وهو مردود بما تقدم.

ولا يجوز أن يكون «متكئين» حالاً من فاعل «صبروا»؛ لأن الصبر كان في الدنيا، واتكاؤهم إنما هو في الآخرة. قال معناه مكي.

ولقائل أن يقول: إن لم يكن المانع إلا هذا فاجعلها حالاً مقدرة، لا ما لهم بسبب صبرهم إلى هذه الحالة، وله نظائر.

قال ابن الخطيب[٢]: وقال الأخفش: وقد ينصب على المدح والضمير في «فيها» أي في الجنة وقال الفراء: وإن شئت جعلت «متكئين» تابعاً، كأنه قال: جزاؤهم جنة متكئين فيها.

والأرائك: السُّرُر في الحجال، وجاءت عن العرب أسماء تحتوي على صفات: إحداها الأريكة لا تكون إلاَّ حجلة على سرير. وثانيها: السَّجل، وهو الدلو الممتلىء ماء، فإذا صفرت لم تسم سجلاً، وكذلك الذنُوب لا تسمى ذَنوباً حتى تملأ، قاله القرطبي[٣].

وهذا فيه نظر، لأنه قد ورد في شعر العرب يصف البازي؛ قال: [الكامل]

٥٠٤٢ ـ .... يَغْشَى المُهَجْهِجَ كالذَّنُوبِ المُرسَلِ[٤]

يعني الدَّلو إذا ألقي في البئر، وهو لا يلقى في البئر إلا إذا كان فارغاً.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤١١، والبحر المحيط ٨/ ٣٨٨.

(٢) الفخر الرازي ٣٠/ ٢١٩. (٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٨٩.

(٤) عجز بيت للبيد وصدره:

أوْ ذو زوائــــد لا يـــطــــاف بــــأرضــــه

ينظر ديوانه ص ١٢٧، واللسان (هجهج).

قال: والكأس لا تسمى كأساً حتى تُترعَ من الخمر، قال: وكذلك الطبق الذي تهدى فيه الهدية إذا كانت فيه يسمى مِهْدَى، فإذا كان فارغاً يُسمَّى طبقاً أو خواناً.

قال ابن الأعرابي: مِهْدى ـ بكسر الميم ـ، ولا يسمى الطبق مهدى إلا وفيه ما يهدى، والمهداء ـ بالمد ـ الذي من عادته أن يهدى.

وقيل: الأرائك: الفرش على السرر؛ قال ذو الرمة: [الطويل]

٥٠٤٣ ـ خُدودٌ جَفتْ في السَّيْرِ حتَّى كأنَّمَا يُباشِرْنَ بالمَعْزاءِ مسَّ الأرَائِكِ[١]

أي: الفرش على السرر.

قوله: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا﴾. فيها أوجه:

أحدها: أنها حال ثانية من مفعول «جزاهم».

الثاني: أنها حال من الضمير المرفوع المستكن في «مُتَّكئينَ» فتكون حالاً متداخلة.

الثالث: أن تكون صفة لـ «جنة» كـ «متكئين» عند من يرى ذلك ـ كما تقدم ـ عن الزمخشري.

والزمهرير: أشد البرد، وهذا هو المعروف؛ وقيل: هو القمرُ بلغة طيّيء؛ وأنشد: [الرجز]

٥٠٤٤ ـ فِي لَيْلةٍ ظلامُهَا قد اعْتكَرْ قَطَّعتُهَا والزَّمهرِيرُ مَا نَهَرْ[٢]

ويروى: ما ظهر، أي: لم يطلع القمر، والمعنى: لا يرون فيها شمساً كشمس الدنيا، ولا قمراً كقمر الدنيا، أي: أنهم في ضياء مستديم، لا ليل فيه ولا نهار، لأن ضوء النَّهار بالشمس، وضوء الليل بالقمر، والمعنى: أن الجنة لا يحتاج فيها إلى شمس ولا إلى قمر، ووزنه «فعلليل»، وقيل: المعنى: لا يرون في الجنَّة شدة حر كحرِّ الشمس، ولا زمهريراً، أي: ولا برداً مفرطاً.

قال رسول الله ﷺ: «اشْتكَتِ النَّارُ إلى ربِّهَا سُبحانَهُ، قالتْ: يَا ربِّ، أكَلَ بَعْضِي بعْضاً، فجعلَ لَهَا نَفسينِ: نفساً في الشِّتاءِ، ونفساً في الصَّيْف، فشِدَّةُ ما تَجِدُونَ من البَرْدِ من زَمْهَريرِهَا، وشدَّةُ ما تَجِدُون من الحرِّ في الصَّيْفِ من سَمُومِهَا»[٣].

---

(١) ينظر ديوانه ٣/ ١٧٢٩، ومجاز القرآن ١/ ٤٠١، ٢/ ١٦٤، والقرطبي ١٩/ ٨٨.

(٢) ينظر الكشاف ٤/ ٦٧٠، والقرطبي ١٩/ ٩٠، والبحر ٨/ ٣٨٥، والدر المصون ٦/ ٤٤٣، وروح المعاني ٢٩/ ٢٠٠.

(٣) أخرجه البخاري (٢/ ٣٢)، كتاب مواقيت الصلاة: باب الإبراد بالظهر في شدة الحر رقم (٥٣٦، ٥٣٧) ومسلم (١/ ٤٣٠) كتاب المساجد: باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر رقم (١٨٠/ ٦١٥) والشافعي في «مسنده» (١/ ٥٢) رقم (١٥٤) والترمذي (٢٥٩٥) وابن ماجه (٤٣١٩) وأحمد (٢/ ٢٣٨، ٢٧٧) والبغوي في «شرح السنة» (٢/ ٢٤) رقم (٣٦٢) من حديث أبي هريرة.

قال مرة الهمداني: الزمهرير: البرد القاطع.

وقال مقاتل بن حيان: هو شيء مثل رءوس الإبر ينزل من السماء في غاية البرد.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: هو لونٌ من العذاب، وهو البرد الشديد، حتى إن أهل النار إذا ألقوا فيه سألوا الله أن يعذبهم في النار ألف سنة أهون عليهم من عذاب الزمهرير يوماً واحد.

قوله: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ﴾ العامة على نصبها، وفيها أوجه:

أحدها: أنها عطف على محل «لا يرون».

الثاني: أنها معطوفة على «مُتَّكِئِينَ» فيكون فيها ما فيها.

قال الزمخشري: «فإن قلت: «ودانية عليهم ظلالها» علام عطفت؟.

قلت: على الجملة التي قبلها؛ لأنها في موضع الحال من المجزيين، وهذه حال مثلها عنهم لرجوع الضمير منها إليهم في «عليهم»، إلاَّ أنها اسم مفرد، وتلك جماعة في حكم مفرد، تقديره: غير رائين فيها شمساً، ولا زمهريراً ودانية عليهم ظلالها، ودخلت الواو للدلالة على أن الأمرين مجتمعان لهم، كأنه قيل: وجزاهم جنة جامعين فيها بين البعد عن الحر والقمر ودنو الظلال عليهم».

الثالث: أنها صفة لمحذوف، أي: وجنة دانية.

قال أبو البقاء: كأنه قيل: «وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً» أي: أخرى دانية عليهم ظلالها، لأنهم قد وعدوا جنتين، لأنهم خافوا مقام ربهم، بقولهم: «إِنَّا نَخَافُ مِن ربِّنا يَوماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً».

الرابع: أنها صفة لـ «جنة» الملفوظ بها. قاله الزجاج.

وقال الفراء: نصب على المدحِ، أي: دانية عليهم، لقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقرأ أبو حيوة[١]: «ودانية» بالرفع، وفيها وجهان:

أظهرهما: أن يكون «ظلالها» مبتدأ، «ودانية» خبر مقدم، والجملة في موضع الحال.

قال الزمخشري: «والمعنى: لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً، والحال أن ظلالها دانية».

والثاني: أن ترتفع «دانية» بالابتداء، و «ظلالها» فاعل به، وبها استدل الأخفش على جواز إعمال اسم الفاعل، وإن لم يعتمد، نحو «قائم الزيدون»، فإن «دانية» لم تعتمد على شيء مما ذكره النحويون، ومع ذلك فقد رفعت «ظلالها».

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٨٨، والدر المصون ٦/ ٤٤٣.

وهذا لا حجة فيه لجواز أن يكون مبتدأ وخبراً مقدماً كما تقدم.

وقال أبو البقاء: وحكي بالجر، أي: في جنة دانية، وهو ضعيف، لأنه عطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار. يعني أنه قرىء[1] شاذاً: «وَدانِيَةٍ» بالجر على أنها صفة لمحذوف، ويكون حينئذٍ نسقاً على الضمير المجرور من قوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا﴾ أي: ولا في جنة دانية، وهو رأي الكوفيين حيث يجوزون العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار، ولذلك ضعفه، وتقدم الكلام على ذلك في البقرة.

وأما رفع «ظلالها» فيجوز أن يكون مبتدأ، و «عليهم» خبر مقدم، ولا يرتفع بـ «دانية»؛ لأن «دنا» يتعدى بـ «إلى» لا بـ «على»، ويجوز أن يرفع بـ «دانية» على أن يضمن معنى مشرفة؛ لأن «دنا» و «أشرف» متقاربان، قال معناه أبو البقاء، وهذان الوجهان جاريان في قراءة من نصب «دانية».

وقرأ الأعمش[2]: «ودانياً» بالتذكير، للفصل بين الوصف وبين مرفوعه بـ «عليهم»، أو لأن الجمع مذكر.

وقرأ أبيّ[3]: «ودَانٍ عَلَيْهِمْ» بالتذكير مرفوعاً، وهي شاذة. فمذهب الأخفش حيث يرفع باسم الفاعل وإن لم يعتمد، ولا جائز أن يعربا مبتدأ وخبراً لعدم المطابقة.

وقال مكي: «وقرىء «ودانياً» بالتذكير» ثم قال: «ويجوز: «ودانية» بالرفع، ويجوز «دانٍ» بالرفع والتذكير»، فلم يصرح بأنهما قرئا، وقد تقدم أنهما مقروء بهما، فكأنه لم يطلع على ذلك.

فصل في معنى الآية

قال المفسرون: معناه: أن ظل الأشجار في الجنة قريب من الأبرار فهي مظلة عليهم زيادة على نعيمهم.

قال ابن الخطيب[4]: فإن قيل: الظل إنما يوجد حيث توجد الشمس، وهناك لا شمس في الجنة، فكيف يحصل الظل؟.

فالجواب: أن أشجار الجنَّة تكون بحيث لو كان هناك شمس لكانت الأشجار مظلة منها وإن كان لا شمس ولا قمر كما أن أمشاطهم الذهب والفضة، وإن كان لا وسخ ولا شعث. ثم قوله: ﴿وَذُلِّلَتْ﴾ يجوز أن يكون في موضع نصب على الحال عطفاً على دانية

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٤٤٣.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤١١، والبحر المحيط ٨/ ٣٨٨، والدر المصون ٦/ ٤٤٤.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤١١ ـ ٤١٢، والبحر المحيط ٨/ ٣٨٨، والدر المصون ٦/ ٤٤٤.

(٤) الفخر الرازي: ٣٠/ ٢٢٠.

فيمن نصبها، أي: ومذللة، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في «عليهم» سواء نصبت «دانية» أو رفعتها، أو جررتها، ويجوز أن تكون مستأنفة.

وأما على قراءة رفع «ودانية» فتكون جملة فعلية عطفت على اسمية، ويجوز أن تكون حالاً كما تقدم.

فصل في تذليل قطوف الجنة

والمعنى: وسخرت لهم قطوفها، أي: ثمارها «تذليلاً» أي: تسخيراً، فيتناولها القائم والقاعد والمضطجع لا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك.

قال ابن قتيبة: «ذللت» أدنيت منهم، من قولهم: حائط ذليل إذا كان قصير السمك.

وقيل: «ذُلِّلَتْ» أي: جعلت منقادة لا تمتنع على قطافها كيف شاءوا.

قال البراءُ بن عازب رضي الله عنه: ذلّلت لهم، فهم يتناولون منها كيف شاءوا، فمن أكل قائماً لم يؤذه، ومن أكل جالساً لم يؤذه، ومن أكل مضطجعاً لم يؤذه[١].

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إذا همَّ أن يتناول من ثمارها تدلّت إليه حتى يتناول منها ما يريد[٢].

وتذليل القطوف: تسهيل التناول، والقُطُوف: الثمار، الواحد: قِطْف ـ بكسر القاف ـ سمي به؛ لأنه يقطف، كما سمي الجَنَى لأنه يُجْنى.

قوله: ﴿تَذۡلِيلٗا﴾ تأكيد لما وصف به من الذل، كقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ [الإسراء: ١٠٦]، ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤].

قال الماوردي: ويحتمل أن تكون تذليل قطوفها أن تبرز لهم من أكمامها، وتخلص لهم من نواها وقال النحاس: ويقال: المذلل الذي قد ذلله الماء، أي: أرواه.

ويقال: المذلل: الذي يفيئه أدنى ريح لنعمته، ويقال: المسوى؛ لأن أهل الحجاز يقولون: ذَلِّلْ نخلك، أي: سوِّه.

قوله: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ﴾ لما وصف طعامهم ولباسهم ومسكنهم وصف شرابهم، وقدم وصف الأواني التي يشرب بها، ومعنى «يطاف» أي: يدور على هؤلاء الأبرار والخدم إذا أرادوا الشراب بآنية من فضة.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٦٤) عن مجاهد مثله وأخرجه الحاكم (٢/ ٥١١): عن البراء وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٨٦) وزاد نسبته إلى الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شبية وهناد بن السري وعبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في «البعث».

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره (١٩/ ٩١).

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء[1]، أي: الذي في الجنة أشرف وأعلا، ثم لم تنف الأواني الذهبية بل المعنى: يُسقوْنَ في أواني الفضة، وقد يسقون في أواني الذهب، كما قال تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، أي والبرد، فنبه بذكر أحدهما على الأخرى. قوله: «بِآنية» هذا هو القائم مقام الفاعل؛ لأنه هو المفعول به في المعنى، ويجوز أن يكون «عليهم».

و «آنية» جمع إناء، والأصل: «أأنية» بهمزتين، الأولى مزيدة للجمع، والثانية فاء الكلمة، فقلبت الثانية ألفاً وجوباً، وهذا نظير: كساء وأكسية، وغطاء وأغطية، ونظيره في صحيح اللام: حمار وأحمرة.

وقوله «مِنْ فضَّةٍ» نعت لـ «آنية».

قوله: ﴿وَأَكْوَابٍ﴾. الأكواب هي الكيزان العظام التي لا آذان لها ولا عرى، الواحد منها كوب؛ وقال عدي: [السريع]

٥٠٤٥ ـ مُتَّكِئاً تُقْرَعُ أبْوابُهُ يَسْعَى عليْهِ العَبْدُ بالكُوبِ[2]

قوله: ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾. اختلف القراءُ في هذين الحرفين بالنسبة إلى التنوين وعدمه، وفي الوقوف بالألف وعدمها، كما تقدم خلافهم في «سلاسل».

واعلم أن القراء فيهما على خمس مراتب:

إحداها[3]: تنوينهما معاً والوقف عليهما بالألف لنافع والكسائي وأبي بكر.

الثانية: مقابلة هذه، وهي عدم تنوينهما، وعدم الوقف عليهما بالألف، لحمزة وحده.

الثالثة: عدم تنوينهما والوقف عليهما بالألف وعلى الثاني بدونها لهشام وحده.

والرابعة: تنوين الأول دون الثاني، والوقف على الأول بالألف، وعلى الثاني بدونها لابن كثير وحده.

الخامسة: عدم تنوينهما معاً، والوقف على الأول بالألف، وعلى الثاني بدونها، لأبي عمرو، وابن ذكوان، وحفص.

فأما من نونهما فكما مرّ في تنوين «سلاسل»؛ لأنها صيغة منتهى الجموع، ذاك على «مفاعل» وذا على «مفاعيل»، والوقف بالألف التي هي بدل من التنوين، وفيه موافقة للمصاحف المرسومة، فإنهما مرسومان فيهما بالألف على ما نقل أبو عبيد.

---

(١) ينظر القرطبي (١٩/ ٩١). (٢) تقدم.

(٣) تنظر هذه الوجوه في: السبعة ٦٦٤، والحجة، ٦/ ٣٤٨، ٣٤٩، وإعراب القراءات ٢/ ٤٢٠ ـ ٤٢١، وحجة القراءات ٧٣٩.

وأما عدم تنوينهما وعدم الوقف بالألف عليهما فظاهر جدًّا.

وأما من نون الأول دون الثاني، فإنه ناسب بين الأول وبين رءوس الآي ولم يناسب بين الثاني والأول والوجه في وقفه على الأول بالألف وعلى الثاني بغير ألف ظاهر.

وقد روى أبو عبيد أنه كذلك في مصاحف أهل «البصرة».

وأما من لم ينونهما، ووقف على الأول بالألف، وعلى الثاني بدونها، فلأن الأول رأس آية، فناسب بينه وبين رءوس الآي في الوقف بالألف، وفرق بينه وبين الثاني؛ لأنه ليس برأس آية.

وأما من لم ينونهما ووقف عليهما بالألف، فلأنه ناسب بين الأول وبين رءوس الآي، وناسب بين الثاني وبين الأول.

وحصل مما تقدم في «سَلاسِلا» وفي هذين الحرفين، أن القراء منهم من وافق مصحفه، ومنهم من خالفه لاتباع الأثر. وتقدم الكلام على «قوارير» في سورة «النمل»[١]، ولله الحمد.

وقال الزمخشري: «وهذا التنوين بدل من حرف الإطلاق لأنه فاصلة، وفي الثاني لإتباعه الأول». يعني أنهم يأتون بالتنوين بدلاً من حرف الإطلاق الذي للترنم؛ كقوله: [الرجز]

٥٠٤٦ ـ يَا صَاحِ، مَا هَاجَ الدُّمُوعَ الذُّرَّفَنْ[٢]

وفي انتصاب «قوارير» وجهان:

أظهرهما: أنه خبر «كان».

والثاني: أنها حال و «كان» تامة، أي كونت فكانت.

قال أبو البقاء: «وحسن التكرير لما اتصل به من بيان أصلها، ولو كان التكرير لم يحسن أن يكون الأول رأس آية لشدة اتصال الصفة بالموصوف».

وقرأ الأعمش[٣]: «قَوَارِيرُ» بالرفع، على إضمار مبتدأ، أي: هي قوارير، و «مِنْ فضَّةٍ» صفة لـ «قوارير»، والمعنى: في صفاء القوارير، وبياض الفضة، فصفاؤها صفاء الزجاج وهي من فضة.

---

(١) آية ٤٤.

(٢) الرجز للعجاج ينظر ديوانه ٢/ ٢١٩، وتخليص الشواهد ص ٤٧، وخزانة الأدب ٣/ ٤٤٣، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٣٥١، والكتاب ٤/ ٢٠٧، والمقاصد النحوية ١/ ٢٦، والإيضاح ص ١٩.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٨٩، والدر المصون ٦/ ٤٤٥.

فصل في وصف تربة الجنة

رُوي أن أرض الجنة من فضة، والأواني تتخذ من تربة الأرض التي منها، ذكره ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: ليس في الجنة شيء إلا وقد أعطيتم في الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة.

قال ابن الخطيب[١]: ومعنى «كانت» هو من يكون، من قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] أي: فتكونت قوارير بتكوين الله ـ تعالى ـ تفخيماً لتلك الخلقةِ العظيمة العجيبة الشأن، الجامعة بين صفتي الجوهرين المتباينين، ثم قال: فإن قيل: كيف تكون هذه الأكوابُ من فضة ومن قوارير؟.

فالجواب من وجوه:

أحدها: أن أصل القوارير في الدنيا الرَّمل، وأصل قوارير الجنة هو فضة الجنة، فكما أن الله ـ تعالى ـ قادر على أن يقلب الرمل الكثيف زجاجة صافية، فكذلك قادر على أن يقلب فضة الجنة قارورة لطيفة، فالغرض من ذكر هذه الآية التنبيه على أن نسبة قارورة الجنة إلى قارورة الدنيا كنسبة الفضة إلى الرمل، فكما أنه لا نسبة بين هذين الأصلين فكذا بين القارورتين.

وثانيها: ما تقدم من قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء، أي: أنها جامعة بين صفاء الزجاج وشفافيته وبين نقاء الفضة وشرفها[٢].

وثالثها: أنه ليس المراد بالقوارير الزجاج، بل العرب تسمي ما استدار من الأواني التي تجعل فيها الأشربة مما رق وصفا قارورة، فالمعنى: وأكواب من فضة مستديرة صافية.

قوله: ﴿قَدَّرُوهَا﴾ صفة لـ «قوارير»، والواو في «قَدَّرُوها» فيها وجهان:

أحدهما: أنها عطف عليهم، ومعنى تقديرهم إياها أنهم قدروها في أنفسهم أن تكون على مقادير وأشكال على حسب شهواتهم، فجاءت كما قدروا.

والثاني: أن الواو للطائفين للدلالة عليهم في قوله تعالى: «ويُطَافُ»، والمعنى: أنهم قدروا شرابها على قدر ريِّ الشارب، وهذا ألذ الشراب لكونه على مقدار حاجته لا يفضل عنها، ولا يعجز. قاله الزمخشري.

وجوز أبو البقاء: أن تكون الجملة مستأنفة.

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٢٢٠.

(٢) في أ: ونقائها.

قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: أتوا بها على قدر ريِّهم بغير زيادة ولا نقصان[١]، قال الكلبي: وذلك ألذّ وأشهى، والمعنى: قدرتها الملائكة التي تطوف عليهم[٢]، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قدروها على ملء الكف لا يزيد ولا ينقص حتى لا تؤذيهم بثقل، أو بإفراط صغر[٣].

وقرأ علي، وابن[٤] **عباس، والسلمي، والشعبي**، وزيد بن علي، وعبيد بن عمير، وأبو عمرو في رواية الأصمعي: «قُدِّروها» بضم القاف وكسر الدال مبنياً للمفعول أي: جعلت لهم على قدر إرادتهم.

وجعله الفارسي من باب المقلوب، قال: كان اللفظُ قدروا عليها، وفي المعنى قلب؛ لأن حقيقة المعنى أن يقال: قدرت عليهم، فهي مثل قوله تعالى: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]، ومثل قول العرب: إذا طلعت الجوزاء، ألقى العود على الحرباء.

قال الزمخشري: ووجهه أن يكون من قدر منقولاً، تقول: قدرت الشيء وقَدَّرَنِيهِ فلان: إذا جعلك قادراً له، ومعناه: جعلوا قادرين لها كما شاءوا، وأطلق لهم أن يقدروا على حسب ما اشتهوا.

وقال أبو حاتم: قدرت الأواني على قدر ريهم ما لم يسمَّ فاعله، فحذف الري فصارت الواو مكان الهاء والميم، لما حذف المضاف مما قبلها، وصارت الواو مفعول ما لم يسم فاعله، واتصل ضمير المفعول الثاني في تقدير النصب بالفعل بعد الواو التي تحولت من الهاء والميم حتى أقيمت مقام الفاعل.

وفي هذا التخريج تكلف مع عجرفة ألفاظه.

وقال أبو حيان[٥]: والأقرب في تخريج هذه القراءة الشاذة أن يكون الأصل: قدر ريهم منها تقديراً، فحذف المضاف وهو الري، وأقيم الضمير بنفسه، فصار قدروها، فلم يكن فيه إلا حذف مضاف، واتساع في الفعل.

قال شهاب الدين[٦]: وهذا منتزع من تفسير كلام أبي حاتِم.

وقال القرطبي[٧]: وقال المهدوي: من قرأها «قدروها» فهو راجع إلى معنى القراءة

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٦٧) عن مجاهد والحسن. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٨٧) من طريق مجاهد عن ابن عباس وعزاه إلى الفريابي.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٩٢).

(٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤١٢، والبحر المحيط ٨/ ٣٨٩، والدر المصون ٦/ ٤٤٥.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٣٩٨.

(٦) الدر المصون ٦/ ٤٤٥.

(٧) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٩٢.

الأخرى، وكأن الأصل: قدروا عليها، فحذف حرف الجر، والمعنى: قدرت عليهم؛ وأنشد سيبويه البيت: [البسيط]

٥٠٤٧ ـ آلَيْتُ حَبَّ العِرَاقِ الدَّهْرَ آكُلُهُ والحَبُّ يأكُلهُ في القَرْيَةِ السُّوسُ[(١)]

وذهب إلى أن المعنى: على حبّ العراق، وقيل: هذا التقدير هو أن الأقداح تطير فتغترف بمقدار شهوة الشَّارب، وذلك قوله تعالى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾.

أي: لا يفضل عن الري ولا ينقص منه، فقد ألهمت الأقداح معرفة مقدار ري المشتهي حتى تغترف بذلك المقدار. ذكر ذلك الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول».

قوله: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا﴾. وهي الخمر في الإناء «كَانَ مِزاجُهَا زَنْجبيلاً»، «كان» صلة، أي: مزاجها زنجبيل، أو كان في حكم الله زنجبيلاً، وكانت العرب يستلذُّون من الشراب ما يمزج بالزنجبيل لطيب رائحته؛ لأنه يحذو اللسان، ويهضم المأكول، ويحدث في المشروب ضرباً من اللّذع، فرغبوا في نعيم الآخرة بما اعتقدوه نهاية النعمة والطيب.

والزنجبيل: نبت معروف؛ وسميت الكأس بذلك؛ لوجود طعم الزنجبيل فيها؛ وأنشد الزمخشري للأعشى: [المتقارب]

٥٠٤٨ ـ كَأنَّ القَرنْفُلَ والزَّنْجَبِيـ ـلَ بَاتَا بِفيهَا وأرْياً مَشُورا[(٢)]

وأنشد للمسيب بن علس يصف ثغر امرأة: [الكامل]

٥٠٤٩أ ـ وكَأنَّ طَعْمَ الزَّنْجبيلِ بِهِ إذْ ذُقْتُهُ وسُلافَة الخَمْرِ[(٣)]

ويروى: وسلافَةُ الكَرْمِ.

وقال مجاهد: «الزنجبيل» اسم للعين التي منها مزاج شراب الأبرار، وكذا قال قتادة[(٤)]، وقيل: هي عين في الجنة يوجد فيها طعم الزنجبيل.

والمعنى: كأن فيها، وتكون قد عطفت «رأيت» الثاني على الأول، ويكون فعل الجواب محذوفاً، ويكون فعل الجواب المحذوف هو الناصب لقوله تعالى: ﴿نَعِيمًا﴾، والتقدير: إذا صدر منك رؤية؛ ثم صدر منك رؤية أخرى رأيت نعيماً وملكاً فرأيت هذا هو الجواب.

---

(١) تقدم.

(٢) رواية البيت كما في ديوان الأعشى:

كأن جنياً من الزنجبيـ ـل بات بفيها وأرياً مشورا

ينظر ديوان الأعشى ص ٨٥، والكشاف ٤/ ٦٧٢، واللسان (زنجبيل)، ومجمع البيان ٦/ ٣٨٥، ١٠/ ٦٢١، والقرطبي ١٩/ ٩٢، والدر المصون ٦/ ٤٤٦.

(٣) ينظر الكشاف ٤/ ٦٧٢، والقرطبي ١٩/ ٩٢، والبحر ٨/ ٣٨٥، والدر المصون ٦/ ٤٤٦.

(٤) ذكره الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٦٨) والماوردي (٦/ ١٧٠) والقرطبي (١٩/ ٩٢).

فصل في بيان الخطاب لمن؟!

هذا الخطاب قيل: للنبي ﷺ.

وقيل: عامّ، والنعيم: ما يتنعم به.

والملك الكبير: قال سفيان الثوري: بلغنا أن الملك الكبير، تسليم الملائكة عليهم.

وقيل: كون التيجان على رءوسهم كما يكون على رءوس الملوك.

وقال السديُّ ومقاتل: هو استئذان الملائكة عليهم[١].

وقال الحكيم الترمذي: هو ملك التكوين إذا أراد شيئاً قال له: كن.

وفي الخبر: أن الملك الكبير هو أن أدناهم منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألفي عام، يرى أقصاه كما يرى أدناه، وأن أفضلهم منزلة من ينظر في وجه ربِّه ـ تعالى ـ كل يوم مرتين.

و «عيناً» فيها من الوجوه ما تقدم، قوله «سلسبيلاً» السلسبيل: ما سهل انحداره في الحلق، قال الزجاج: هو في اللغة صفة لما كان في غاية السلاسة، وقال الزمخشري: يقال: شراب سلسل وسلسال وسلسبيل، وقد زيدت الباء في التركيب حتى صارت الكلمة خماسية، ودلت على غاية السلاسة.

قال أبو حيان[٢]: فإن كان عنى أنه زيدت حقيقة فليس بجيد؛ لأن الباء ليست من حروف الزيادة المعهودة في علم النحو، وإن عنى أنها حرف جاء في سنخ الكلمة، وليس في سلسل ولا سلسال؛ فيصح، ويكون مما اتفق معناه وكان مختلفاً في المادة.

وقال ابن الأعرابي: لم أسمع السلسبيل إلا في القرآن.

وقال مكي: هو اسم أعجمي نكرة فلذلك صرف. ووزن سلسبيل فعلليل مثل دردبيس[٣].

وقيل: فعفليل؛ لأن الفاء مكررة.

وقرأ طلحة سلسبيل دون تنوين ومنعت من الصرف للعلمية والتأنيث؛ لأنها اسم لعين بعينها، وعلى هذا فكيف صرفت في قراءة العامة؟ فيجاب أنها سميت بذلك لا على

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٩٤).

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٩٠.

(٣) الدَّرْدَبِيسُ: خرزة سوداء كأن سوادها لون كبد إذا رفعتها واستشففتها رأيتها تشفُّ مثل لون العِنبة الحمراء تَتَحَبَّبُ بها المرأةُ إلى زوجها انظر اللسان (دربس).

جهة العلمية بل على جهة الإطلاق المجرد، أو يكون من باب تنوين «سلاسل» و «قوارير» وقد تقدم.

وأغرب ما قيل في هذا الحرف: أنه مركب من كلمتين من فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول، والتقدير سل أنت سبيلاً إليها.

قال الزمخشري: وقد عزوا إلى علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أن معناه سل سبيلاً إليها، قال: وهذا غير مستقيم على ظاهره إلا أن يراد أن جملة قول القائل: سل سبيلاً جعلت علماً للعين؛ كما قيل: تأبط شراً، وذرى حبًّا، وسميت بذلك؛ لأنه لا يشرب منها إلاَّ من سأل سبيلاً إليها بالعمل الصالح، وهو مع استقامته في العربية تكلف وابتداع وعزوه إلى مثل علي أبدع وفي شعر بعض المحدثين:

٥٠٤٩ب ـ سَلْ سَبيلاً فِيهَا إلى رَاحةِ النَّفْـ ـسِ بِـراحٍ كـأنَّـهـا سَـلْـسَـبِـيـلُ[١]

قال أبو حيان[٢] بعد تعجبه من هذا القول: وأعجب من ذلك توجيه الزمخشري له واشتغاله بحكايته.

قال شهاب الدين[٣]: ولو تأمل ما قاله الزمخشري لم يلمه ولم يتعجب منه؛ لأن الزمخشري هو الذي شنع على هذا القول غاية التشنيع.

وقال أبو البقاء: والسلسبيل كلمة واحدة. وفي قوله كلمة واحدة تلويح وإيماء إلى هذا الوجه المذكور.

قوله: «ثَمَّ» هذا ظرف مكان، وهو مختص بالبعد، وفي انتصابه وجهان:

أظهرهما: أنه منصوب على الظرف، ومفعول الرؤية غير مذكور؛ لأنّ القَصْد: وإذا صدرت منك رؤية في ذلك المكان رأيت كيت وكيت، فـ «رأيت» الثاني جواب لـ «إذا».

وقال الفراء: «ثَمَّ» مفعولة به لـ «رأيت»، والمعنى: وإذا رأيت ما ثم، وصلح إضمار «ما»، كما قال ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤]، يريد: ما بينكم.

قال الزجاج: لا يجوز إضمار «ما».

وقال الفراء: «وإذَا رَأيْتَ» تقديره: ما ثَمَّ، فـ «ما» مفعول، وحذفت «ما»، وقامت «ثَمَّ» مقام «ما».

وقال الزمخشري تابعاً لأبي إسحاق: ومن قال: معناه: ما ثَمَّ، فقد أخطأ؛ لأن «ثَمَّ» صلة لـ «ما» ولا يجوز إسقاط الموصول، وترك الصِّلة.

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٦٧٢، والدر المصون ٦/ ٤٤٦.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٩٠.

(٣) ينظر الدر المصون ٦/ ٤٤٦.

وفي هذا نظر؛ لأن الكوفيين يجوزون مثل هذا، واستدلوا عليه بأبيات وآيات تقدم الكلام عليها مستوفى في أوائل هذا الموضوع.

وقال ابن عطية: و «ثم» ظرف والعامل فيه «رأيت» أو معناه، والتقدير: رأيت ما ثم فحذفت ما.

قال أبو حيان[1]: وهذا فاسد؛ لأنه من حيث جعله معمولاً لـ «رأيت» لا يكون صلة لـ «ما»؛ لأن العامل فيه إذ ذاك محذوف: أي ما استقر ثم.

قال شهاب الدِّين[2]: ويمكن أن يجاب عنه، بأن قوله أو معناه هو القول بأنه صلة لموصول فيكونان وجهين لا وجهاً واحداً حتى يلزمه الفساد، ولولا ذلك لكان قوله أو معناه لا معنى له، ويعني بمعناه أي معنى الفعل من حيث الجملة، وهو الاستقرار المقدر.

والعامة على فتح الثاء من «ثَمَّ» كما تقدم.

وقرأ حميد الأعرج بضمها، على أنها العاطفة، وتكون قد عطفت «رأيت» الثاني على الأول ويكون فعل الجواب محذوفاً، ويكون فعل الجواب المحذوف هو الناصب لقوله «نعيماً» والتقدير: وإذا صدرت منك رؤية ثم صدرت رؤية أخرى رأيت نعيماً وملكاً؛ فرأيت هذا هو الجواب.

فصل

واعلم أنه تعالى ذكر بعد ذلك من يكون خادماً في تلك المجالس.

فقال ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾ وقد تقدم تفسير هذين الوصفين في سورة الواقعة والأقرب أن المراد به دوام كونهم على تلك الصورة التي لا يراد في الخدم أبلغ منها، وذلك يتضمن دوام حياتهم وحسنهم ومواظبتهم على الخدمة الحسنة الموافقة، قال الفراء يقال مخلدون مسورون ويقال مقرطون، وروى نفطويه عن ابن الأعرابي مخلدون محلون.

والصفة الثالثة: قوله تعالى ﴿إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا﴾ وفي كيفية التشبيه وجوه:

أحدها: شبهوا في حسنهم وصفاء ألوانهم وانتشارهم في مجالسهم ومنازلهم عند اشتغالهم بأنواع الخدمة باللؤلؤ المنثور ولو كان صفاً لشبهوا باللؤلؤ المنظوم؛ ألا ترى أنه تعالى قال ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾ فإذا كانوا يطوفون كانوا متناثرين.

وثانيها: أنهم شبهوا باللؤلؤ الرطب إذا انتثر من صدفه لأنه أحسن وأكثر ماء.

---

(١) ينظر البحر المحيط ٨/ ٣٩١.

(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٤٤٧.

وثالثها: قال القاضي هذا من التشبيه العجيب لأن اللؤلؤ إذا كان متفرقاً يكون أحسن في المنظر لوقوع شعاع بعضه على البعض فيكون مخالفاً للمجتمع منه.

واعلم أنه تعالى لما ذكر تفصيل أحوال أهل الجنة، أتبعه بما يدل على أن هناك أموراً أعلى وأعظم من هذا القدر المذكور فقال ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾.

فصل

اعلم أن اللذات الدنيوية محصورة في أمور ثلاثة: قضاء الشهوة، وإمضاء الغضب، واللذة الخيالية التي يعبر عنها بحب المال والجاه، وكل ذلك مستحقر فإن الحيوانات الخسيسة قد تشارك الإنسان في واحد منها، فالملك الكبير الذي ذكره الله ههنا لا بد وأن يكون مغايراً لتلك اللذات الحقيرة، وما هو إلا أن تصير نفسه منتقشة بقدس الملكوت متحلية بجلال حضرة اللاهوت، وأما ما هو على أصول المتكلمين، فالوجه فيه أيضاً أنه الثواب والمنفعة المقرونة بالتعظيم فبين تعالى في الآيات المتقدمة تفصيل تلك المنافع وبين في هذه الآية حصول التعظيم وهو أن كل واحد منهم يكون كالملك العظيم، وأما المفسرون فمنهم من حمل هذا الملك الكبير على أن هناك منافع أزيد مما تقدم ذكره، قال ابن عباس لا يقدر واصف يصف حسنه ولا طيبه. ويقال إن أدنى أهل الجنة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام ويرى أقصاه كما يرى أدناه، وقيل لا زوال له وقيل إذ أردوا شيئاً حصل، ومنهم من حمله على التعظيم، فقال الكلبي هو أن يأتي الرسول من عند الله بكرامة من الكسوة والطعام والشراب والتحف إلى ولي الله وهو في منزله فيستأذن عليه، ولا يدخل عليه رسول رب العزة من الملائكة المقربين المطهرين إلا بعد الاستئذان.

فصل

قال بعضهم قوله ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ خطاب لمحمد خاصة، والدليل عليه أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: أرأيت إن دخلت الجنة أترى عيناي ما ترى عيناك؟ فقال نعم، فبكى حتى مات، وقال آخرون بل هو خطاب لكل أحد.

قوله: ﴿عَالِيَهُمْ﴾. **قرأ نافع وحمزة**[1]: بسكون الياء وكسر الهاء، والباقون: بفتح الياء وضم الهاء، لما سكنت الياء كسر الهاء، ولما تحركت ضمت على ما تقدم في أول الكتاب.

فأما قراءة نافع وحمزة، ففيها أوجه:

(١) ينظر: السبعة ٦٦٤، والحجة ٦/ ٣٥٤، وإعراب القراءات ٢/ ٤٢٢، وحجة القراءات ٧٣٩.

أظهرها: أن يكون خبراً مقدماً، و «ثياب» مبتدأ مؤخر.

والثاني: أن «عاليهم» مبتدأ، و «ثياب» مرفوع على جهة الفاعلية، وإن لم يعتمد الوصف، وهذا قول الأخفش.

والثالث: أن «عاليهم» منصوب، وإنما سكن تخفيفاً. قاله أبو البقاء.

وإذا كان منصوباً فسيأتي فيه أوجه، وهي واردة هنا، إلا أن تقدير الفتحة من المنقوص لا يجوز إلا في ضرورة أو شذوذ، وهذه القراءة متواترة، فلا ينبغي أن يقال به فيها، وأما قراءة من نصب، ففيه أوجه:

أحدها: أنه ظرف خبر مقدم، و «ثياب» مبتدأ مؤخر، كأنه قيل: فوقهم ثياب.

قال أبو البقاء: لأن عاليهم بمعنى فوقهم.

قال ابن عطية: يجوز في النصب أن يكون على الظرف؛ لأنه بمعنى فوقهم.

قال أبو حيان[١]: وعالٍ وعالية اسم فاعل فيحتاج في إثبات كونهما ظرفين إلى أن يكون منقولاً من كلام العرب: «عاليك أو عاليتك ثوب».

قال شهاب الدين[٢]: قد وردت ألفاظه من صيغة أسماء الفاعلين ظروفاً، نحو خارج الدار، وداخلها وظاهرها، وباطنها، تقول: جلست خارج الدَّار، وكذلك البواقي، فكذلك هنا.

الثاني: أنه حال من الضمير في «عَلَيْهِم».

الثالث: أنه حال من مفعول «حَسِبْتَهُمْ».

الرابع: أنه حال من مضاف مقدر، أي: رأيت أهل نعيم وملكٍ كبير عاليهم، فـ «عَاليهم» حال من «أهل» المقدر، ذكر هذه الأوجه الثلاثة: الزمخشري، فإنه قال: «وعاليهم» بالنصب على أنه حال من الضمير في «يطوف عليهم» أو في «حسبتهم»، أي: يطوف عليهم ولدان عالياً للمطوف عليهم ثياب، أو حسبتهم لؤلؤاً عالياً لهم ثياب، ويجوز أن يراد: رأيت أهل نعيم وملك عاليهم ثياب.

قال أبو حيان[٣]: أما أن يكون حالاً من الضمير في «حَسِبْتَهُمْ»، فإنه لا يعني إلا ضمير المفعول، وهو لا يعود إلا على «ولدان»، وهذا لا يصح؛ لأن الضمائر الآتية بعد ذلك تدل على أنها للمعطوف عليهم من قوله تعالى ﴿وَحُلُّوٓاْ﴾، ﴿وَسَقَىٰهُمْ﴾ و ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ وفك الضمائر يجعل هذا كذا وذلك كذا مع عدم الاحتياج إلى ذلك، والاضطرار إلى ذلك لا يجوز، وأما جعله حالاً من محذوف، وتقديره: أهل نعيم، فلا

---

(١) ينظر: البحر المحيط: ٨/ ٣٩٩. (٢) الدر المصون ٦/ ٤٤٧.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٩٩.

حاجة إلى ادعاء الحذف مع صحة الكلام وبراعته دون تقدير ذلك المحذوف.

قال شهاب الدين[(١)]: جعل أحد الضمائر لشيء، والآخر لشيء آخر لا يمنع صحة ذلك مع ما يميز عود كل واحد إلى ما يليق به، وكذلك تقدير المحذوف غير ممنوع أيضاً، وإن كان الأحسن أن تتفق الضمائر وألاَّ يقدر محذوف، والزمخشري إنما ذكر ذلك على سبيل التجويز لا على سبيل أنه مساوٍ أو أولى، فيرد عليه ما ذكره.

الخامس: أنه حال من مفعول «لقَّاهُم».

السادس: أنه حال من مفعول «جزاهم». ذكرهما مكي.

وعلى هذه الأوجه التي انتصب فيها على الحال يرتفع به «ثياب» على الفاعلية، ولا يضر إضافته إلى معرفة في وقوعه حالاً؛ لأن الإضافة لفظية كقوله تعالى: ﴿عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] فأنّث «عارضاً» ولم يؤنث عالياً لأن مرفوعه غير حقيقي التأنيث.

السابع: أن ينتصب «عاليهم» على الظرف، ويرتفع «ثياب» به على جهة الفاعلية، وهذا ماشٍ على قول الأخفش والكوفيين حيث يعملون الظرف وعديله، وإن لم يعتمد، كما تقدم ذلك في الصفّ.

وإذا رفع «عاليهم» بالابتداء، و «ثياب» على أنه فاعل به، كان مفرداً على بابه لوقوعه موقع الفعل، وإذا جعل خبراً مقدماً كان مفرداً لا يراد به الجمع، فيكون كقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾ [الأنعام: ٤٥] أي أدبار. قاله مكي.

وقرأ ابن مسعود[(٢)] وزيدُ بن علي: «عاليتهم» مؤنثاً بالتاء مرفوعاً.

والأعمش وأبان عن عاصم كذلك[(٣)]، إلا أنه منصوب.

وقد عرف الرفع والنصب مما تقدم.

وقرأت عائشة[(٤)] ـ رضي الله عنها ـ «عَلَيَتْهُم» فعلاً ماضياً متصلاً بتاء التأنيث الساكنة، و «ثياب» فاعل به، وهي مقوية للأوجه المذكورة في رفع «ثياب» بالصفة في قراءة الباقين كما تقدم تفصيله.

وقرأ ابن سيرين[(٥)] ومجاهد، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة وخلائق: جاراً ومجروراً.

وإعرابه كإعراب «عاليهم» ظرفاً في جواز كونه خبراً مقدماً، أو حالاً مما تقدم وارتفاع «ثياب» به على التفصيل المذكور.

---

(١) الدر المصون ٦/ ٤٤٨.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤١٣، والدر المصون ٦/ ٤٤٨.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٩١، والدر المصون ٦/ ٤٤٨.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤١٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٩١، والدر المصون ٦/ ٤٤٨.

(٥) ينظر السابق.

فصل في الضمير في عاليهم

قال ابن الخطيب[١]: والضمير في «عاليهم» إما للولدان أو للأبرار.

فكأنهم يلبسُون عدة من الثياب، فيكون الذي يعلوها أفضلها، ولهذا قال تعالى «عاليهم» أي فوق حجالهم المضروبة عليهم ثيابُ سندسٍ، والمعنى: أن حجالهم من الحرير والديباج.

قوله تعالى: ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾. قرأ العامة: بإضافة الثياب لما بعدها.

وأبو حيوة[٢] **وابن أبي عبلة**: «ثِيَابٌ» منونة، **﴿سُندُسٌ خُضرٌ وإِستَبرَقٌ﴾** برفع الجميع فـ «سُندُسٌ» نعت لـ «ثِيَابٌ»؛ لأن «السندس» نوع، و «خُضْرٌ» نعت لـ «سُندسٌ» يكون أخضر وغير أخضر، كما أن الثياب تكون سندساً وغيره، و «إِسْتبْرَقٌ» نسق على ما قبله، أي: وثياب إستبرق.

واعلم أن القراء السبعة في «خُضْرٌ»، و «إِسْتبْرَقٌ» على أربع مراتب[٣].

الأولى: رفعهما، لنافع وحفص فقط.

الثانية: خفضهما، للأخوين فقط.

الثالثة: رفع الأول، وخفض الثاني، لأبي عمرو وابن عامر فقط.

الرابعة: عكسه، لابن كثير وأبي بكر فقط.

فأما القراءة الأولى: فإن رفع «خضرٌ» على النعت لـ «ثياب»، ورفع «إستبرق» نسق على «الثياب» ولكن على حذف مضاف، أي: وثيابٌ إستبرق، ومثله: على زيد ثوبُ خزٍّ وكتانٍ، أي: وثوبُ كتَّانٍ.

وأما القراءة الثانية: فيكون جر «خضر» على النعت لـ «سندس».

ثم استشكل على هذا وصف المفرد بالجمع، فقال مكي: هو اسم جمع.

وقيل: هو جمع «سندسة» كـ «تمر وتمرة»، ووصف اسم الجنس بالجمع يصح، قال تعالى ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢]، و ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]، و ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ﴾ [يس: ٨٠] وإذا كانوا قد وصفوا المحل لكونه مراداً به الجنس بالجمع في قولهم: «أهلك الناسَ الدينارُ الحمرُ والدِّرهمُ البيضُ»، وفي التنزيل: ﴿أَوِ

---

(١) الفخر الرازي ٣٠/ ٢٢٣.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤١٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٩١، والدر المصون ٦/ ٤٤٨.

(٣) ينظر في هذه القراءات: السبعة ٦٦٥، والحجة ٣٥٦، ٣٥٧، وإعراب القراءات ٢/ ٤٢٢ ـ ٤٢٤، وحجة القراءات ٧٣٩ ـ ٧٤١.

ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ﴾ [النور: ٣١] فلأن يوجد ذلك في أسماء الجموع أو أسماء الأجناس الفارق بينها وبين واحدها تاء التأنيث بطريق الأولى، وجر «إستبرق» نسقاً على «سندس»، لأن المعنى ثياب من سندس، وثياب من إستبرق.

وأما القراءة الثالثة: فرفع «خضر» نعتاً لـ «ثياب» وجر «إستبرق» نسقاً على سندس أي: ثياب خضر من سندس، ومن إستبرق، فعلى هذا يكون الإستبرق أيضاً أخضر.

وأما القراءة الرابعة: فجر «خضر» على أنه نعت لـ «سندس» ورفع «إستبرق» على النسق على «ثياب» بحذف مضاف، أي: وثياب استبرق. وتقدم الكلام على مادة السندس والإستبرق في سورة الكهف(١).

وقرأ ابن محيصن(٢): «وإستبرق» بفتح القاف، ثم اضطرب النقل عنه في الهمزة، فبعضهم ينقل عنه أنه قطعها، وبعضهم ينقل أنه وصلها.

قال الزمخشري: «وقرىء: «وإستبرق» نصباً في موضع الجر على منع الصرف، لأنه أعجمي، وهو غلط؛ لأنه نكرة يدخله حرف التعريف، تقول الإستبرق، إلا أن يزعم ابن محيصن أنه قد جعل علماً لهذا الضرب من الثياب، وقرأ: «واستبرقَ» بوصل الهمزة والفتح على أنه مسمى بـ «استفعل» من البريق، وهو ليس بصحيح ـ أيضاً ـ لأنه معرب مشهور تعريبه وأصله استبره».

وقال أبو حيان(٣): ودل قوله: إلا أن يزعم ابن محيصن، وقوله بعد: وقرىء «وإستبرق» بوصل الألف والفتح، أنّ قراءة ابن محيصن هي بقطع الهمزة مع فتح القاف، والمنقول عنه في كتب القراءات: أنه قرأ بوصل الألف وفتح القاف.

قال شهاب الدين(٤): قد سبق الزمخشري إلى هذا مكي، فإنه قال: وقد قرأ ابن محيصن بغير صرف، وهو وهم إن جعله اسماً؛ لأنه نكرة منصرفة.

وقيل: بل جعله فعلاً ماضياً من «برق» فهو جائز في اللفظ بعيد في المعنى.

وقيل: إنه في الأصل فعل ماض على «استفعل» من «برق»، فهو عربي من البريق، فلما سمِّي به قطعت ألفه؛ لأنه ليس من أصل الأسماء أن يدخلها ألف الوصل، وإنما دخلت معتلة مغيرة عن أصلها، معدودة، لا يقاس عليها؛ انتهى، فدل قوله «قطعت ألفه» إلى آخره، أنه قرأ بقطع الهمزة وفتح القاف، ودل قوله أولاً: وقيل: بل جعله فعلاً ماضياً من «برق»، أنه قرأ بوصل الألف، لأنه لا يتصور أن يحكم عليه بالفعلية غير منقول إلى

---

(١) آية ٣١.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤١٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٩٢، والدر المصون ٦/ ٤٤٩.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٤٠٠.

(٤) الدر المصون ٦/ ٤٤٩.

الأسماء، ويترك ألفه ألف قطعٍ ألبتة، وهذا جهل باللغة، فيكون قد رُوِيَ عنه قراءتا قطع الألف ووصلها، فظهر أن الزمخشري لم ينفرد بالنقل عن ابن محيصن بقطع الهمزة.

وقال أبو حاتم في قراءة ابن محيصن: لا يجوز، والصواب: أنه اسم جنس لا ينبغي أن يحمل ضميراً ويؤيد ذلك دخول لام المعرفة عليه، والصواب قطع الألف، وإجراؤه على قراءة الجماعةِ.

قال أبو حيان(١): نقول: إن ابن محيصن قارىءٌ جليلٌ مشهورٌ بمعرفة العربية، وقد أخذ عن أكابر العلماء، فيتطلب لقراءته وجه، وذلك أنه يجعل «استفعل» من البريق، تقول: برق واستبرق، كـ «عجب واسْتعجَبَ»، ولما كان قوله: «خضر» يدل على الخضرة، وهي لون ذلك السُّندس، وكانت الخضرة مما يكون فيها لشدتها دُهمة وغبش، أخبر أن في ذلك بريقاً وحسناً يزيل غبشيته، فـ «استبرق» فعل ماض، والضمير فيه عائد على السُّندس، أو على الأخضر الدالّ عليه خضر، وهذا التخريج أولى من تلحين من يعرف العربية، وتوهيم ضابط ثقة. وهذا هو الذي ذكره مكي. وهذه القراءة قد تقدمت في سورة الكهف.

قوله تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ عطف على «ويَطُوفُ» عطف ماضياً لفظاً مستقبلاً معنى، وأبرزه بلفظ الماضي لتحققه.

وقال الزمخشري بعد سؤال وجواب من حيث المعنى: وما أحسن بالمعصم أن يكون فيه سواران: سِوَار من ذهب وسوار من فضة.

وناقشه أبو حيان في قوله: «بالمِعْصَم»، فقال(٢): قوله: «بالمعصم» إما أن يكون مفعول «أحسن» وإما أن يكون بدلاً منه، وقد فصل بينهما بالجار والمجرور، فإن كان الأول فلا يجوز؛ لأنه لم يعهد زيادة الباء في مفعول «أفعل» التعجب، لا تقول: ما أحسن بزيد، تريد: ما أحسن زيداً، وإن كان الثاني ففي هذا الفصل خلافٌ، والمنقول عن بعضهم أنه لا يجوز، والمولد منا إذا تكلم ينبغي أن يتحرز في كلامه فيما فيه خلافٌ.

قال شهاب الدين(٣): وأي غرض له في تتبع كلام هذا الرجل حتى في الشيء اليسير على أن الصحيح جوازه، وهو المسموع من العرب نثراً؛ قال عمرو بن معديكرب: لله درُّ بني مجاشع ما أكثر في الهيجاء لقاءها، وأثبت في المكرمات بقاءها، وأحسن في اللَّزْباتِ عطاءها، والتشاغل بغير هذا أولى.

فصل في المراد بالأساور

قال هنا: «أساور من فضة» وفي سورة «فاطر»: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٠٠. (٢) البحر المحيط ٨/ ٤٠٠. (٣) الدر المصون ٦/ ٤٥٠.

[فاطر: ٣٣]، وفي سورة «الحج»: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [الحج: ٢٣] فقيل: حليُّ[(١)] الرجل الفضة.

وقيل: يجمع في يد أحدهم سواران من ذهب، وسواران من فضة، وسواران من لؤلؤ، ليجتمع لهم محاسن أهل الجنة. قاله سعيد بن المسيب رضي الله عنه.

وقيل: يعطى كل أحد ما يرغب فيه وتميل نفسه إليه.

وقيل: أسورةُ الفضة إنما تكون للولدان وأسورة الذهب للنساء.

وقيل: هذا للنساء والصبيان.

وقيل: هذا بحسب الأوقات.

قوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [قال علي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾][(٢)]، قال: إذا توجه أهل الجنة إلى الجنة مرُّوا بشجرة تخرج من تحت ساقها عينان، فيشربون من إحداهما، فيجري عليهم بنضرة النعيم، فلا تتغير أبشارهم، ولا تتشعّث أشعارهم أبداً، ثم يشربون من الأخرى، فيخرج ما في بطونهم من الأذى، ثم تستقبلهم خزنةُ الجنة، فيقولون لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[(٣)] [الزمر: ٧٣].

وقال النخعي وأبو قلابة: هو إذا شربوه بعد أكلهم طهرهم، وصار ما أكلوه وما شربوه رشح مسكٍ وضمرت بطونهم[(٤)].

وقال مقاتل: هو من عين ماء على باب الجنة ينبع من ساق شجرة من شرب منها نزع الله ما كان في قلبه من غشٍّ وغلٍّ وحسدٍ، وما كان في جوفه من أذى[(٥)]، وعلى هذا فيكون «فعولاً» للمبالغة، ولا يكون فيه حجة للحنفي أنه بمعنى الطاهر. قاله القرطبي[(٦)].

قال ابن الخطيب[(٧)]: قوله تعالى: ﴿طَهُورًا﴾ فيه قولان:

الأول: المبالغة في كونه طاهراً ثم على هذا التفسير احتمالان:

أحدهما: ألاَّ يكون نجساً كخمر الدنيا.

---

(١) في أ: الرجال.
(٢) سقط من ب.
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٩٦).
(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٧٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٨٩) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وابن المنذر.
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٩٦) عن مقاتل.
(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٩٦).
(٧) ينظر الفخر الرازي (٣٠/ ٢٢٥).

وثانيهما(١): المبالغة في البعد عن الأمور المستقذرة، يعني ما مسته الأيدي الوضيعة والأرجل الدنسة.

وثانيهما: أنه لا يؤول إلى النجاسة، لأنها ترشح عرقاً من أبدانهم له ريح كريح المسكِ، وعلى هذين الوجهين يكون الطهور مطهراً؛ لأنه يطهِّرُ باطنهم عن الأخلاق الذميمة والأشياء المؤذية.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ هو نوع ما ذكره قبل ذلك من أنهم يشربون من عين الكافور والزنجبيل والسلسبيل، أو هذا نوع آخر؟.

قلنا: بل هذا نوع آخر، لوجوه:

أحدها: التَّكرار.

والثاني: أنه تعالى أضاف هذا الشراب إلى نفسه تبارك وتعالى، بقوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾، وذلك يدل على فضل هذا على غيره.

والثالث: ما روي من أنه يقدَّم إليهم الأطعمة والأشربة، فإذا فرغوا منها أُتُوا بالشراب الطهور فيشربون فيطهر ذلك بطونهم ويفيض عرقاً من جلودهم مثل ريح المسكِ، وهذا يدل على أن الشراب مغاير لتلك الأشربة، ولأن هذا الشراب يهضم سائر الأشربة ثم له مع هذا الهضم تأثير عجيب وهو أنه يجعل سائر الأطعمة والأشربة عرقاً يفوح منه ريح كريح المسك وكل ذلك يدل على المغايرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾، أي: يقال لهم: إن هذا كان جزاؤكم، أي: ثواب أعمالكم، فيزداد بذلك القول فرحهم وسرورهم، كما أن المعاقب يزداد غمّه، إذا قيل له: هذا جزاء عملك الرديء «وكَانَ سَعيُكُمْ» أي: عملكم «مَشْكُوراً» أي: من قبل الله وشكره للعبد قبُول طاعته وثناؤه عليه وإثابته.

وقال قتادةُ: غفر لهم الذنب وشكر لهم الحسنى(٢).

وقيل: هذا إخبار من الله ـ تعالى ـ لعباده في الدنيا كأنه ـ تعالى ـ شرح لهم ثواب أهل الجنة، أي أنَّ هذا كان في علمي وحكمي جزاء لكم يا معاشر عبيدي لكم خلقتها ولأجلكم أعددتها.

فصل في الكلام على الآية

قال ابن الخطيب(٣): وفي الآية سؤالان:

---

(١) في ب: والثانية.

(٢) ينظر القرطبي (١٩/ ٩٦) وأخرجه الطبري (١٢/ ٣٧٣).

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٢٢٦.

الأول: إذا كان فعل العبد خلقاً لله ـ تعالى ـ فكيف يعقل أن يكون فعل الله ـ تعالى ـ جزاء على فعل الله؟.

والجواب: أن الجزاء هو الكافي وذلك لا ينافي كونه فعلاً لله.

السؤال الثاني: كون سعي العبد مشكوراً يقتضي كون الله شاكراً له؟.

والجواب: كون الله ـ تعالى ـ شاكراً للعبد محال إلا على وجه المجاز، وهو من ثلاثة أوجه:

الأول: قال القاضي: إن الثواب مقابل لعملهم كما أن الشكر مقابل للنعم.

والثاني: قال القفال: إنه مشهور في كلام الناس أن يقولوا للراضي بالقليل والمثنى به أنه مشكور، فيحتمل أن يكون شكر الله لعباده، وهو رضاه عنهم بالقليل من الطاعات وإعطائه إياهم عليها ثواباً كبيراً.

الثالث: أن منتهى درجةِ العبد أن يكون راضياً من ربه مرضيًّا لربه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٢٨]، وكونها راضية من ربه أقلُّ درجة من كونها مرضية لربه، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ﴾ إشارة إلى الأمر الذي تصير به النفس راضية مرضية، وقوله: ﴿وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾ إشارة إلى كونها مرضية لربها لما كانت هذه الحالة أعلى المقامات وآخر الدرجات لا جرم وقع الختم عليها في ذكر مراتب أحوال الأبرار والصديقين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ﴿٢٣﴾ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ﴿٢٤﴾ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾

قوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا﴾. يجوز أن يكون توكيداً لاسم «إن» وأن يكون فصلاً و «نَزَّلنَا» على هذين الوجهين هو خبر «إن»، ويجوز أن يكون «نحن» مبتدأ، و «نَزَّلنَا» خبره والجملة خبر «إنَّ».

وقال مكي: «نَحْنُ» في موضع نصب على الصِّفة لاسم «إن» لأن المضمر يوصف بالمضمر؛ إذ هو بمعنى التأكيد لا بمعنى الغلبةِ، ولا يوصف بالمظهر؛ لأنه بمعنى التَّحلية والمضمر مستغن عن التحلية، لأنه لم يضمرْ إلا بعد أن عرف تحليته وعينَهُ، وهو محتاج إلى التأكيد لتأكيد الخبر عنه.

قال شهاب الدين[1]: وهذه عبارة غريبة جدًّا، كيف يجعل المضمر موصوفاً بمثله،

---

(١) الدر المصون ٦/ ٤٥٠.

ولا نعلم خلافاً في عدم جواز وصف المضمر إلا ما نقل عن الكسائي أنه جوّز وصف ضمير الغائب بضمير آخر، فلا خلاف في عدم جوازه، ثم كلامه يؤول إلى التأكيد فلا حاجة إلى العدول عنه.

فصل في مناسبة اتصال الآية بما قبلها

وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أنه تعالى لما ذكر أصناف الوعد والوعيد بين أن هذا الكتاب يتضمن ما بالناس حاجةٌ إليه، فليس بسحرٍ ولا كهانةٍ ولا شعرٍ وأنه حقٌّ.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنزل القرآن متفرقاً آية بعد آية، ولم ينزل جملة واحدة فلذلك قال: «نَزَّلْنَا»[١].

قال ابن الخطيب[٢]: المقصود من هذه الآية تثبيت الرسول وشرح صدره فيما نسبوه إليه من كهانة وسحر، فذكر تعالى أن ذلك وحي من الله تعالى ولا جرم بالغ في تكرار الضمير بعد إيقاعه تأكيداً على تأكيد فكأنه تعالى يقول: إن كان هؤلاء الكفار يقولون: إن ذلك كهانة فأنا الله الملك الحق، أقول على سبيل التأكيد: إن ذلك وحيُ حقٍّ وتنزيلُ صدقٍ من عندي، وفي ذلك فائدتان:

إحداهما: إزالة الوحشة الحاصلة بسبب طعن الكفار؛ لأن الله ـ تعالى ـ عظّمهُ وصدقه.

والثانية: تقويته على تحمُّل مشاق التكليف، فكأنه ـ تعالى ـ يقول: إني ما نزلت عليك القرآن متفرقاً إلا لحكمة بالغة تقتضي تخصيص كل شيء بوقت معين، وقد اقتضت تلك الحكمة تأخير الإذن في القتال.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: لقضاء ربك.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: اصبر على أذى المشركين، ثم نسخ بآية القتال.

وقيل: اصبرْ لما حكم به عليك من الطَّاعات، أو انتظر حكم الله إذ وعدك بالنصر عليهم ولا تستعجل فإنه كائن لا محالة، ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا﴾ أي: ذا إثمٍ ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ أي: لا تطع الكفار.

روى معمر عن قتادة، قال: قال أبو جهل: إن رأيتُ محمداً لأطأنَّ على عنقه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[٣].

وقيل: نزلت في عتبة بن أبي ربيعة والوليد بن المغيرة، وكانا أتيا رسول الله ﷺ يعرضان عليه الأموال والتزويج على أن يترك ذكر النبوة ففيهما نزلت، وعرض عليه عتبة

---

(١) ينظر القرطبي (١٩/ ٩٦) والطبري (١٢/ ٣٧٣).

(٢) ينظر الفخر الرازي (٣٠/ ٢٢٧).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٧٣) عن قتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٩٠) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

ابنته وكانت من أجمل النساء، وعرض عليه الوليد أن يعطيه من الأموال حتى يرضى، ويترك ما هو عليه، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ عشر آيات من أول «حم» السجدة، إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١ ـ ١٣]، فانصرفا عنه وقال أحدهما: ظننت أنَّ الكعبة ستقع عليَّ.

قوله: ﴿أَوْ كَفُورًا﴾. في «أوْ» هذه أوجه:

أحدها: أنها على بابها، وهو قول سيبويه.

قال أبو البقاء: وتفيد في النهي عن الجميع، لأنك إذا قلت في الإباحة: جالس الحسن أو ابن سيرين كان التقدير: جالس أحدهما فإذا نهي قال: لا تكلم زيداً أو عمراً، فالتقدير: لا تكلم أحدهما، فأيهما كلمه كان أحدهما فيكون ممنوعاً منه، فكذلك في الآية، ويؤول المعنى إلى تقدير: ولا تطع منهما آثماً ولا كفوراً.

قال الزمخشري رحمه الله: فإن قلت: معنى «أو» ولا تطع أحدهما، فهلا جيء بالواو لتكون نهياً عن طاعتهما جميعاً؟.

قلت: لو قال: لا تطعهما لجاز أن يطيع أحدهما، وإذا قيل: لا تطع أحدهما علم أن الناهي عن طاعة أحدهما هو عن طاعتهما جميعاً أنهى، كما إذا نهي أن يقول لأبويه: «أفٍّ» علم أنه منهي عن ضربهما على طريق الأولى.

الثاني: أنها بمعنى «لا»، أي: لا تطع من أثم ولا من كفر.

قال مكي: «وهو قول الفراء، وهو بمعنى الإباحة التي ذكرنا».

الثالث: أنها بمعنى الواو، وقد تقدم أن ذلك قول الكوفيين.

والكفور وإن كان يستلزم الإثم إلا أنه عطف لأحد أمرين:

إما أن يكونا شخصين بعينهما كما تقدم فالآثم عتبة، والكفور الوليد.

وإما لما قاله الزمخشري: «فإن قلت: كانوا كلهم كفرةً، فما معنى القسمة في قوله «آثماً أو كفوراً؟.

قلت: معناه لا تطع منهم راكباً لما هو إثم داعياً لك إليه أو فاعلاً لما هو كفر داعياً لك إليه، لأنهم إمَّا أن يدعوه إلى مساعدتهم على فعل هو إثم أو كفر، أو غير إثم ولا كفر، فنهي أن يساعدهم على الاثنين دون الثالث».

فصل

قال ابن الخطيب(١): قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يدخل فيه ألاَّ تطع فيه آثماً أو كفوراً، فكأن ذكره بعد ذلك تكرار؟.

(١) ينظر الفخر الرازي ٣٠/٢٢٨.

والجواب: أن الأول أمر بالمأمورات، والثاني: نهي عن المنهيات، ودلالة أحدهما على الآخر بالالتزام لا بالتصريح، فيكون التصريح منه مفيداً.

فإن قيل: إنه ﷺ ما كان يطيع أحداً منهم، فما فائدة هذا النهي؟.

فالجواب: أن المقصود بيان أن الناس محتاجون إلى مواصلة التنبيه والإرشاد لأجل ما تركب فيهم من الشهوة الداعية إلى الفساد، وأن أحداً لو استغنى عن توفيق الله ـ تعالى ـ وإرشاده لكان أحق الناس به هو الرسول المعصوم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومتى ظهر ذلك عرف كل مسلم أنه لا بدَّ من الرغبة إلى الله ـ تعالى ـ والتضرع إليه أن يصونه عن الشُّبهات والشَّهوات.

فإن قيل: ما الفرقُ بين الآثم والكفور؟.

فالجواب: أن الآثم هو الآتي بالمعاصي أيِّ معصيةٍ كانت، والكفُور: هو الجاحد للنعمة، فكل كفور آثم، وليس كل آثم كفوراً، لأن الإثم عام في المعاصي كلها، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

فسمى الشرك إثماً، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣] وقال تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩]. قد نزلت هذه الآيات على أن الإثم جميع المعاصي.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾. أي: صلِّ لربِّك أول النَّهار وآخره ففي أوله صلاة الصُّبح والظهر والعصر، وهو الأصيل، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾ يعني صلاة المغرب والعشاء الآخرة، ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ يعني التَّطوع فيه[1]. قاله ابن حبيب.

وقال ابن عباس وسفيان: كل تسبيح في القرآن فهو صلاة[2].

وقيل: هو الذِّكْر المطلق، سواءٌ كان في الصَّلاة أو في غيرها.

وقال ابن زيد وغيره: إنَّ قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ منسوخ بالصلوات الخمس[3].

وقيل: هو ندب.

وقيل: هو مخصوص بالنبي عليه الصلاة والسلام.

وجمع الأصيل: الأصائل، والأصل، كقولك: سفائن وسفن، والأصائل: جمع الجمع، ودخلت «من» على الظرف للتبعيض، كما دخلت على المفعول في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١].

---

(١) في أ: في الليل.
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٩٧).
(٣) ينظر المصدر السابق.

قوله: ﴿وَسَبِّحْهُ﴾ فيه دليل على عدم صحة قول بعض أهل المعاني والبيان، أن الجمع بين الحاء والهاء ـ مثلاً ـ يخرج الكلمَ عن فصاحتها؛ وجعلوا من ذلك قوله: [الطويل]

٥٠٥٠ ـ كريمٌ مَتى أمْدحْهُ أمْدحْهُ والوَرَى مَعِي وإذَا ما لُمْتُهُ لُمْتُهُ وحْدِي(١)

البيت لأبي تمام، ويمكن أن يفرق بين ما أنشدوه وبين الآية الكريمة بأن التكرار في البيت هو المخرج عن الفصاحة بخلاف الآية فإنه لا تكرار فيها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾. توبيخ وتقريع والمراد أهل «مكة»، والعاجلة: الدنيا.

واعلم أنه تعالى لما خاطب رسوله ﷺ بالتعظيم والأمر والنهي، عدل إلى شرح أحوال الكفار والمتمردين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾، ومعناه: إن الذي حمل هؤلاء الكفار على الكفر والإعراض عما ينفعهم في الآخرة، هو محبتهم اللذات العاجلة والراحات الدنيوية البدنية.

قوله: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ﴾، أي: بين أيديهم، وقال: «وراءَهُم» ولم يقل: قُدَّامهم لأمور:

أحدها: أنهم لما أعرضوا عنه ولم يلتفتوا إليه فكأنهم جعلوه وراء ظهورهم.

وثانيها: المراد: يذرون وراءهم مصالح يوم ثقيل، أي عسير، فأسقط المضاف.

وثالثها: أن «وراء» يستعمل بمعنى «قُدّام»، كقوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: ١٦] ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩].

وقال مكي: سمّي «وراء» لتواريه عنك، فظاهر هذا أنه حقيقة، والصحيح أنه استعير لـ «قُدّام».

قوله: «يَوْماً». مفعول بـ «يَذرُونَ» لا ظرف، ووصفه بالثقل على المجاز؛ لأنه من صفات الأعيان لا المعاني.

---

(١) قائله ـ كما قال المؤلف بعده ـ هو أبو تمام. ينظر ديوانه ٢/١٦٦ ومعاهد التنصيص ١/٣٥، والدر المصون ٦/٤٥١.

وقيل: معناه يتركون الإيمان بيوم القيامة.

وقيل: نزلت في اليهود فيما كتموه من صفة الرسول ﷺ وصحة نبوته، وحبُّهم العاجلة: أخذهم الرّشا على ما كتموه، وقيل: أراد المنافقين لاستبطانهم الكفر وطلبِ الدنيا، والآية تعُمّ، واليوم الثقيل: يوم القيامة، وسمي ثقيلاً لشدائده وأهواله وقيل: للقضاء فيه بين العباد.

قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ﴾ أي من طين، ﴿وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ﴾ أي: خلقهم. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ومقاتل وغيرهم، والأسر: الخلق.

قال أبو عبيد: يقال: فرس شديد الأسر، أي: الخلق، ويقال: أسره الله، إذا شدد خلقه؛ قال لبيدٌ: [الرمل]

٥٠٥١ ـ سَاهِمُ الوجْهِ شَدِيدٌ أسْرهُ مُشْرِفُ الحَارِكِ مَحْبُوكُ الكَتِدْ[١]

وقال الأخطل: [الكامل]

٥٠٥٢ ـ مِنْ كُلِّ مُجْتنِبٍ شَدِيدِ أسْرهُ سَلِسُ القِيَادِ تخَالُهُ مُخْتَالا[٢]

وقال أبو هريرة والحسن والربيع رضي الله عنهم: شَدَدْنَا مفَاصِلهُمْ[٣].

قال أهل اللغة: الأسر: الرَّبْط، ومنه: أسِرَ الرجُل، إذا أوثق بالقيد، وفرس مأسورة الخلق وفرس مأسورة بالعقب، والإسار: هو القيد الذي يشد به الأقتاب، تقول: أسرت القتب أسراً، أي: شددته وربطته.

فصل في معنى الأسر

قال ابن زيد: الأسر القوة، والكلام خرج مخرج الامتنان عليهم بالنعم حين قابلوها بالمعصية، أي: سويت خلقك وأحكمته بالقوى ثم أنت تكفر بي[٤].

قال ابن الخطيب[٥]: وهذا الكلام يوجب عليهم طاعة الله تعالى من حيث الترغيب والترهيب، أما الترغيب فلأنه هو الذي خلقهم وأعطاهم الأعضاء السليمة التي بها يمكن الانتفاع باللذات العاجلة، وخلق لهم جميع ما يمكن الانتفاع به، فإذا أحبوا اللذات العاجلة، وتلك اللذات لا تحصل إلا بالمنتفع والمنتفع به، وهما لا يحصلان إلا بتكوين

---

(١) يروى الشطر الثاني برواية: مُشرِفُ الحَالِ مَحْبُوكُ الكفل.
ينظر ديوان لبيد (١٤٤)، واللسان (حبك) (حرك)، والقرطبي ١٩/ ٩٨.

(٢) ينظر ديوان الأخطل ص ٣٨٨، والطبري ٢٩/ ١٣٩، ومجمع البيان ١٠/ ٦٢٥، والقرطبي ١٩/ ٩٨.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٧٥) عن أبي هريرة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٩٠) عن الربيع وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر. وذكره أيضاً عن الحسن وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٧٥). (٥) ينظر الفخر الرازي (٣٠/ ٢٢٨).

الله وإيجاده، وهذا مما يوجب عليهم الانقياد لله ـ تعالى ـ وترك التمرُّد.

وأما الترهيب فإنه قادرٌ على أن يميتهم وأن يسلُب النعم عنهم، وأن يلقي بهم في كل محنة وبلية، فلأجل الخوف من فوت هذه اللذات العاجلة يجب عليهم الانقياد لله ـ تعالى ـ وترك التمرّد، فكأنه قيل: هبْ أن حبكم لهذه اللذات العاجلة طريقة حسنة إلا أن ذلك يوجب عليكم الإيمان بالله ـ تعالى ـ والانقياد له، فلم توسلتم به إلى الكفر بالله ـ تعالى ـ والإعراض عن حكمه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو نشاء لأهلكناهم وجئنا بأطْوعَ لله منهم[١].

وقال ابن الخطيب[٢]: معناه: إذا شئنا أهلكناهم، وأتينا بأشباههم، فجعلناهم بدلاً منهم كقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ [الواقعة: ٦١]، والغرض منه: بيان الاستغناء التام عنهم، كأنه قيل: لا حاجة بنا إلى أحد من المخلوقين ألبتة، وبتقدير إن ثبتت الحاجة، فلا حاجة بنا إلى هؤلاء الأقوام؛ فإنا قادرون على إبدالهم وإيجاد أمثالهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩]، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣]. وروى الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ معناه: لغيرنا محاسنهم إلى أقبح الصور[٣].

وقيل: أمثالهم في الكفر.

فصل في نظم الآية

قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا شِئْنَا﴾: وحقه أن يجيء بـ «إن» لا بـ «إذا»، كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يعني: أنَّ «إذا» للمحقّق، و «إن» للمحتمل، وهو تعالى لم يشأ ذلك، وجوابه أن «إذا» قد تقع موقع «إن» كالعكس.

قال ابن الخطيب[٤]: فكأنه طعن في لفظ القرآن وهو ضعيف، لأن كل واحد من «إن» و «إذا» حرف شرط، إلا أن حرف «إن» لا يستعمل فيما هو معلوم الوقوع، فلا يقال: إن طلعت الشمس أكرمتك.

أما حرف «إذا» فإنه يستعمل فيما يكون معلوم الوقوع تقول ابتداء: إذا طلعت الشمس ـ فهاهنا ـ لما كان الله تعالى عالماً أنه سيجيء وقت يبدل الله تعالى فيه أولئك الكفرة بأمثالهم في الخلقة وأضدادهم في الطاعة لا جرم حسن استعمال حرف «إذا».

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٩٩).

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٢٣٠.

(٣) ينظر تفسير القرطبي (١٩/ ٩٩).

(٤) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ٢٣٠.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾. أي: هذه السورة موعظة، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً موصِّلاً إلى طاعته.

وقيل: «سبيلاً» أي وسيلة.

وقيل: وجهة وطريقة إلى الخير والمعنى: أنّ هذه السورة لما فيها من الترتيب العجيب، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب تذكرة للمتأملين وتبصرة للمتبصرين.

فصل في قول الجبرية

قال ابن الخطيب[(١)]: متى ضمت هذه الآية إلى الآية التي بعدها خرج منهما صريح مذهب الجبر، لأن قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ الآية يقتضي أن مشيئة العبد متى كانت خالصة، فإنها تكون مستلزمة للفعل، وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ يقتضي كون مشيئة الله تعالى مستلزمة لمشيئة العبد، ومستلزم المستلزم مستلزم، فإن مشيئة الله ـ تعالى ـ مستلزمة لفعل العبد، وذلك هو الجبر، وكذا الاستدلال على الجبر بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، لأن هذه الآية أيضاً تقتضي كون المشيئة مستلزمة للفعل، ثم التقدير ما تقدم.

قال القاضي: المذكور هاهنا اتخاذ السبيل إلى الله ـ تعالى ـ وهو أمر قد شاءه؛ لأنه أمر به فلا بد وأن يكون قد شاءه، وهذا لا يقتضي أن يقال: العبد لا يشاء إلاَّ ما قد شاء الله على الإطلاق إذ المراد بذلك الأمر المخصوص الذي قد ثبت أن الله تعالى أراده وشاءه. وهذا الكلام لا تعلق له بالاستدلال الذي ذكرناه، فحاصل ما ذكره القاضي تخصيص العام بالصُّور المتقدمة، وذلك ضعيف لأن خصوص ما قبل الآية لا يقتضي تخصيص هذا العام لاحتمال أن يكون الحكم في هذه الآية وارداً بحيث تعمّ تلك الصورة وغيرها.

قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه حال، أي إلاَّ في حال مشيئة الله تعالى. قاله أبو البقاء.

وفيه نظر: لأن هذا مقدر بالمعرفة إلا أن يريد تفسير المعنى.

والثاني: أنه ظرف.

قال الزمخشري: «فإن قلت: ما محل أن يشاء الله؟.

قلت: النصب على الظرف، وأصله: إلا وقت مشيئة الله تعالى، وكذلك قرأ ابن مسعود[(٢)]: إلا ما يشاء الله، لأن «ما» مع الفعل كـ «إن» معه».

وردّ أبو حيان[(٣)]: بأنه لا يقوم مقام الظرف إلاَّ المصدر الصريح، لو قلت: أجيئك أن

---

(١) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ٢٣٠.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٦٧٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٤١٥.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٠٢.

يصيح الديك، أو ما يصيح، لم يجز. قال شهاب الدين[١]: قد تقدم الكلام في ذلك مراراً.

وقرأ نافع والكوفيون: «تشاءون» خطاباً لسائر الخلق، أو على الالتفات من الغيبة في قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ﴾، **والباقون**[٢]: **بالغيبة جرياً** على قوله: «خلقناهم» وما بعده.

قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ أي الطاعة والاستقامة، واتخاذ السبيل إلى الله ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فأخبر أن الأمر إليه سبحانه، وليس لهم، وأنه لا ينفذ مشيئة أحد، ولا تقدّم إلا تقدّم مشيئة الله تعالى، قيل: إن الآية الأولى منسوخة بالثانية.

قال القرطبي[٣]: والأشبه أنه ليس بنسخ، بل هو تبيين أن ذلك لا يكون إلا بمشيئته.

قال الفراء: «ومَا تشَاءُونَ إلاَّ أن يَشاءَ اللَّهُ» جواب لقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ ثم أخبرهم أن الأمر ليس إليهم، فقال: «ومَا تَشَاءُونَ» ذلك السبيل «إلاَّ أن يشَاءَ اللَّهُ» لكم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بأعمالكم «حَكِيماً» في أمره ونهيه لكم.

قوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾. أي: يدخله الجنة راحماً له.

قال ابن الخطيب[٤]: إن فسرنا الرحمة بالإيمان فالآية صريحة في أن الإيمان من الله تعالى وإن فسرناها بالجنة كان دخول الجنة بسبب مشيئة الله تعالى وفضله، وإحسانه لا بسبب الاستحقاق؛ لأنه لو ثبت الاستحقاق لكان تركه يفضي إلى الجَهْل أو الحاجة، وهما محالان على الله تعالى، والمفضي إلى المحال محال، فتركه محال، فوجوده واجبٌ عقلاً، وعدمه ممتنعٌ عقلاً، وما كان كذلك لا يكون معلقاً على المشيئة ألبتة.

قوله: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: ويعذّب الظالمين، وهو منصوب على الاشتغال بفعل يفسره «أعَدَّ لَهُمْ» من حيث المعنى لا من حيث اللفظ، تقديره: وعذب الظالمين، ونحوه: «زيداً مررت به» أي: جاوزت ولابست. وكان النصب هنا مختاراً لعطف جملة الاشتغال على جملة فعلية قبلها، وهو قوله «يُدْخِلُ».

قال الزجاج: نصب «الظَّالمينَ» لأن قبله منصوباً، أي: يدخل من يشاء في رحمته ويعذب الظالمين، أي: المشركين، ويكون «أعَدَّ لَهُمْ» تفسيراً لهذا المضمر؛ قال الشاعر: [المنسرح]

٥٠٥٣ ـ أصْبَحتُ لا أحْمِلُ السِّلاحَ ولا ... أمْلِكُ رَأسَ البَعِيرِ إنْ نَفَرَا

---

(١) الدر المصون ٦/ ٤٥٢.

(٢) ينظر: السبعة ٦٦٥، والحجة ٦/ ٣٦٧، وإعراب القراءات ٢/ ٤٢٤ ـ ٤٢٥، وحجة القراءات ٧٤١.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٩٩. (٤) الفخر الرازي: ٣٠/ ٢٣٢.

والــذِّئــب أخْــشَــاهُ إنْ مَــررْتُ بِــهِ وحْــدِي وأخْــشَــى الــرِّيــاحَ والــمَــطَــرَا[١]

أي: أخشى الذئب أخشاه.

قال الزجاج: والاختيار النصب، وإن جاز الرفع.

وقوله تعالى في «حَم عَسق»: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الشورى: ٨] ارتفع لأنه لم يذكر بعده فعل يقع عليه فنصب في المعنى، فلم يجز العطف على المنصوب قبله فارتفع بالابتداء، وهاهنا قوله: ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ يدل على «ويُعَذِّبُ» فجاز النصب.

وقرأ الزبير، وأبان[٢] **بن عثمان، وابن أبي عبلة**: «والظَّالِمُونَ» رفعاً على الابتداء، وما بعده الخبر، وهو أمر مرجوح لعدم المناسبة.

وقرأ ابن مسعود[٣]: «ولِلظَّالِمِينَ» بلام الجر، وفيه وجهان:

أظهرهما[٤]: أن يكون «للظَّالمين» متعلقاً بـ «أعَدَّ» بعده، ويكون «لَهُمْ» تأكيداً.

والثاني: وهو ضعيف، أن يكون من باب الاشتغال، على أن يقدر فعلاً مثل الظاهر، ويجر الاسم بحرف الجر، فتقول: «بزيد مررت به» أي: مررت بزيد مررت به، والمعروف في لغة العرب مذهب الجمهور، وهو إضمار فعل ناصب موافق لفعل الظاهر في المعنى، فإن ورد نحو «بزيد مررت به» عُدَّ من التوكيد لا من الاشتغال. والأليم: المؤلم.

روى الثَّعلبيّ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قَرَأَ سُورَة ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ كَانَ جَزاؤهُ عَلى اللَّهِ تَعَالى جَنَّةً وحَرِيراً»[٥].

(١) تقدم.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/٦٧٦، والمحرر الوجيز ٥/٥١٥، والبحر المحيط ٨/٣٩٣.

(٣) ينظر: السابق، والدر المصون ٦/٤٥٢.

(٤) في أ: أشهرهما.

(٥) تقدم تخريجه.

سورة المرسلات

مكيّة في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر.

وقال ابن عباس وقتادة ـ رضي الله عنهم ـ: إلا آية منها[1]، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨]، مدنية.

وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: نزلت ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ على النبي ﷺ ليلة الجنِّ ونحن نسير معهُ، حتى أوينَا إلى غارٍ بمنى فنزلت، فبينا نحن نتلقَّاها منه، وإن فاه لرطب بها إذ وثبت حيَّةٌ، فوثبنا عليها لنقتلها فذهبت، فقال النبي ﷺ: «وقِيتمْ شَرَّها كَمَا وقِيتْ شَرَّكُمْ»[2].

وعن كريب مولى ابن عباس، قال: قرأت سورة ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ فسمعتني أمُّ الفضل امرأة العباس، فبكت، وقالت: والله يا بُنيَّ، لقد أذكرتني بقراءتك هذه السورة، إنها لآخر ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بها في صلاة المغرب[3].

وهي خمسون آية، ومائة وإحدى وثمانون كلمة، وثمانمائة وستَّة عشر حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾. في «عرفاً» ثلاثة أوجه:

---

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٥٥٣ ـ ٥٥٤) كتاب التفسير: باب سورة والمرسلات حديث (٤٩٣٠) ومسلم (٤/ ١٧٥٥) كتاب السلام: باب قتل الحيات وغيرها حديث (١٣٧/ ٢٢٣٤) والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٥٠٥) من حديث ابن مسعود.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٩١) وزاد نسبته إلى ابن مردويه.

(٣) أخرجه البخاري (٢/ ٢٤٦) كتاب الأذان: باب القراءة في «المغرب» حديث (٧٦٣) ومسلم (١/ ٣٣٨) كتاب الصلاة: باب القراءة في الصبح رقم (١٧٣/ ٤٦٢).

أحدها: أنه مفعول من أجله، أي: لأجل العرف، وهو ضد النُّكْر، فإن الملائكة إن كانوا بعثُوا للرحمة، فالمعنى فيهم ظاهر، وإن كانوا بعثوا للعذاب فذلك العذاب وإن لم يكن معروفاً للكفار فإنه معروف للأنبياء والمؤمنين، والمراد بالمرسلات، إما الملائكة، وإما الأنبياء، وإما الرياح، أي: والملائكة المرسلات، أو والأنبياء المرسلات، أو والرياح المرسلات. و «العرف» المعروف، والإحسان، قال: [البسيط]

٥٠٥٤ ـ مَنْ يَفْعلِ الخَيْرَ لا يَعْدمْ جَوازِيَهُ ... لا يَذهبُ العُرْف بينَ اللَّهِ والنَّاسِ[1]

وقد يقال: كيف جمع صفة المذكر العاقل بالألف والتاء، وحقه أن يجمع بالواو والنون، نقول: الأنبياء المرسلون، ولا نقول: المرسلات؟.

والجواب: أن المرسلات جمع مرسلة، ومرسلة: صفة لجماعة من الأنبياء، والمرسلات: جمع مرسلة الواقعة صفة لجماعة، لا جمع مرسل مفرد.

والثاني: أن ينتصب على الحال بمعنى متتابعة، من قولهم: جاءوا كعرف الفرس، وهم على فلان كعرف الضبع، إذا تألبُوا عليه.

قال ابن الخطيب[2]: يكون مصدراً، كأنه قيل: والمرسلات إرسالاً، أي متتابعة.

الثالث: أن ينتصب على إسقاط الخافض، أي: المرسلات بالعرف، وفيه ضعف، وقد تقدم الكلام على العرف في الأعراف[3].

والعامة: على تسكين رائه، **وعيسى**[4]: **بضمها**، وهو على تثقيل المخفف، نحو: «بكّر» في «بكَر»، ويحتمل أن يكون هو الأصل، والمشهور مخففة منه، ويحتمل أن يكونا وزنين مستقلين.

فصل في المراد بالمرسلات

جمهور المفسرين على أن «المرسلات» هي الرياح.

وروى مسروق عن عبد الله قال: هي الملائكة أرسلت بالعرف من أمر الله ونهيه والخبر والوحي، وهو قول أبي هريرة ومقاتل وأبي صالح والكلبي[5].

---

(١) البيت للحطيئة. ينظر ديوانه ص ١٠٩، والخصائص ٢/ ٤٨٩، وشرح الأشموني ٣/ ٥٨٧، والبخلاء ص ٢١٩، والبحر المحيط ٨/ ٣٩٥، والدر المصون ٦/ ٤٥٣.

(٢) ينظر: الفخر الرازي: ٣٠/ ٢٣٣. (٣) آية ٤٦.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤١٧، والبحر المحيط ٨/ ٣٩٥، والدر المصون ٦/ ٤٥٣.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٧٨) عن ابن مسعود ومسروق وأبي صالح.

وأخرجه الحاكم (٢/ ٥١١) عن أبي هريرة وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٩٢) وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الأنبياء أرسلوا بلا إله إلا الله[١].

وقال أبو صالحٍ: الرسل ترسل بما يعرفون به من المعجزات.

وعن ابن عباس وابن مسعود: أنها الرياح، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾[٢] [الأعراف: ٥٧]، ومعنى «عُرْفاً» أي: يتبع بعضها بعضاً كعرف الفرس، وقيل: يحتمل أن يكون المراد بالمرسلات: السحاب لما فيها من نعمة ونقمة عارفة بما أرسلت إليه ومن أرسلت إليه.

وقيل: إنها الزَّواجر والمواعظ، و «عُرْفاً» على هذا التأويل: متتابعات كعرف الفرس. قاله ابن عبَّاس.

وقيل: جاريات، قاله الحسن، يعني في القلوب.

وقيل: معروفات في العقول.

قوله تعالى: ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾. هذا المصدر مؤكد لاسم الفاعل.

والمراد بالعَاصفاتِ: الرياح. قاله المهدوي.

وقال ابن عباسٍ: هي الرياح العواصف تأتي بالعصف، وهو ورق الزرع وحطامه.

وقال: العاصفات الملائكة شبهت بسرعة جريها في أمر الله ـ تعالى ـ بالرياح، وكذلك «نَشْراً، وفَرْقاً» انتصابهما على المصدر.

وقيل: الملائكة تعصف برُوح الكَافرِ، يقال: عصف بالشيء إذا أباده وأهلكه، وناقة عصوف، أي تعصف براكبها فتمضي كأنها ريحٌ في السرعة، وعصفت الحرب[٣] بالقوم، أي: ذهبت بهم.

وقيل: يحتمل أنها الآيات المهلكة كالزلازل والخوف.

قوله تعالى: ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾. هي الملائكة المُوكَّلُون بالسحاب ينشرونها.

وقال ابن مسعود ومجاهد: هي الرياح يرسلها الله تعالى نشراً بين يدي رحمته ينشر السحاب للغيث، وهو مروي عن أبي صالح.

وعنه أيضاً: هي الأمطار لأنها تنشر النبات، فالنَّشر بمعنى الإحياء، يقال: نشر الله الميت وأنشره، بمعنى أحياهُ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ [عبس: ٢٢].

وروي عن السديِّ: أنها الملائكة تنشر كتب الله تعالى[٤]، وروى الضحاك عن ابن

---

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١٧٥).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٧٧) عن ابن مسعود وابن عباس وأبي صالح ومجاهد.

(٣) في ب: الريح.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٨٠) عن السدي.

عباس قال: يريد ما ينشر من الكتب، وأعمال بني آدم[١]، وروى الضحاك: أنها الصحف تنشر على الله تعالى بأعمال العباد[٢].

وقال الربيع: إنه البعث للقيامة تنشر فيه الأرواح[٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ﴾ ـ بالواو ـ لأنه استئنافُ قسم آخر.

قوله: ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾: هي الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل. قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وأبو صالح[٤].

وروى الضحاك عن ابن عباس، قال: ما تفرق الملائكة من الأقوات والأرزاق والآجال[٥]، وروى أنس عن مجاهد قال: «الفارقات»[٦] الرياح تفرق بين السحاب وتبدده.

وروى سعيد عن قتادة قال: ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾، الفرقان فرق الله بين الحق والباطل والحلال والحرام، وهو قول الحسن وابن كيسان[٧].

وقيل: هم الرسل فرقوا بين ما أمر الله ـ تعالى ـ به، ونهى عنه؛ أي بينوا ذلك.

وقيل: السحابات الماطرة تشبيهاً بالنَّاقة الفارقة، وهي الحامل التي تخرج وتندّ في الأرض حين تضع، ونوق فوارق وفُرَّق.

قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾. هي الملائكة، أي: تلقي كتب الله إلى الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ قاله المهدوي.

وقيل: هو جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ وسمي باسم الجمع تعظيماً لأنه كان ينزل بها وقيل: المراد الرسل يلقون إلى أممهم ما أنزل عليهم. قاله قطرب.

وقوله تعالى: ﴿ذِكْرًا﴾ مفعول به، ناصبه «المُلقِيَاتِ».

وقرأ العامة: «فالملقيات» ـ بسكون اللام وتخفيف القاف ـ اسم فاعل.

وقرأ ابن عباس[٨]: **بفتح اللام وتشديد القاف**، اسم مفعول من التلقية، وهي إيصال

---

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١٧٦) والقرطبي (١٩/ ١٠١).
(٢) ينظر المصدر السابق. (٣) ينظر المصدر السابق.
(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٨١) عن ابن عباس وأبي صالح.
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٠١).
(٦) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١٧٦) وينظر المصدر السابق.
(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٨١) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٩٢) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.
(٨) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤١٧، والبحر المحيط ٨/ ٣٩٦، والدر المصون ٦/ ٤٥٤.

الكلام إلى المخاطب. وروى عنه المهدوي أيضاً: فتح القاف، أي: يلقيه من قِبَل الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل: ٦].

قوله: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾. فيهما أوجه:

أحدها: أنهما بدلان من «ذِكْراً».

الثاني: أنهما منصوبان به على المفعولية، وإعمال المصدر المنون جائز، ومنه ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا﴾ [البلد: ١٤، ١٥].

الثالث: أنهما مفعولان من أجلهما، والعامل فيهما، إما «المُلقيَات»، وإما «ذِكراً»؛ لأن كُلاً منهما يصلح أن يكون معلولاً[١] بأحدهما.

وحينئذ يجوز في «عُذْراً، ونذراً» وجهان:

أحدهما: أن يكونا مصدرين ـ بسكون العين ـ كالشُّكْر والكُفْر.

والثاني: أن يكونا جمع عذير، ونذير، المراد بهما المصدر، بمعنى الإعذار والإنذار، كالنكير بمعنى الإنكار.

الثالث[٢]: أنهما منصوبان على الحال من «الملقيات» أو من الضمير فيها، وحينئذ يجوز أن يكونا مصدرين واقعين موقع الحال، بالتأويل المعروف في أمثاله، وأن يكونا جمع «عذير ونذير» مراداً بهما المصدر، أو مراداً بهما اسم الفاعل بمعنى المعذر والمنذر، أي: معذرين، أو منذرين.

وقرأ العامة: بسكون الذَّال من ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾.

وقرأ زيد[٣] **بن ثابت، وابن خارجة، وطلحة**: بضمها.

والحرميَّان، وابن عامر، وأبو بكر[٤]: بسكونها في «عُذْراً» وضمها في «نُذُراً»، والسكون والضم ـ كما تقدم ـ في أنه يجوز أن يكون كل منهما أصلاً للآخر، وأن يكونا أصلين، ويجوز في كل من المثقّل والمخفّف أن يكون مصدراً، وأن يكون جمعاً سكنت عينه تخفيفاً.

وقرأ إبراهيم التيمي[٥]: «عُذْراً ونُذْراً» بواو العطف موضع «أو»، وهي تدل على أن «أو» بمعنى الواو.

---

(١) في أ: مفعولاً. (٢) في أ: الرابع.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤١٧، والبحر المحيط ٨/ ٣٩٦، والدر المصون ٦/ ٤٥٤.

(٤) ينظر: السبعة ٦٦٦، والحجة ٦/ ٣٦٢، وإعراب القراءات ٢/ ٤٢٦، وحجة القراءات ٧٤٢.

(٥) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤١٧، والدر المصون ٦/ ٤٥٤.

فصل في معنى الآية

والمعنى: يلقى الوحي إعذاراً من الله تعالى وإنذاراً إلى خلقه من عذابه. قاله الفراء.

وروي عن أبي صالحٍ قال: يعني الرسل يعذرون وينذرون.

وروى سعيد عن قتادة: «عُذْراً» قال: عذراً لله ـ تعالى ـ إلى خلقه، ونذراً للمؤمنين ينتفعون به ويأخذون به[١]، وروى الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «عُذْراً» أي: ما يقبله الله ـ تعالى ـ من معاذير أوليائه، وهي التوبة «أو نُذْراً» ينذر أعداءه[٢].

فصل في المراد بهذه الكلمات الخمس

قال ابن الخطيب[٣]: اعلم أن هذه الكلمات الخمس، إما أن يكون المراد منها جنساً واحداً، أو أجناساً مختلفة، فالأول فيه وجوه:

أحدها: أن المراد بها الملائكة والمرسلات هي الملائكة الذين أرسلهم الله ـ تعالى ـ إما لإيصال النِّعمة إلى قوم أو لإيصال النقمة إلى آخرين، وقوله تعالى: «عُرْفاً» إما أن يكون العُرْف هو الذي ضد النُّكر، فإن كانوا الملائكة المبعوثين للرحمة، فالمعنى فيهم ظاهر وإن بعثوا للعذاب فذلك العذاب وإن لم يكن معروفاً للكفَّار فإنه معروف للأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ والمؤمنين، أو يكون العرف التَّتابع، وقوله تعالى: ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾ فمعناه أن الملائكة عصفوا في طيرانهم كعصف الرياح، أو يعصفون بروح الكافرِ، يقال: عصف بالشيء إذا أباده، وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ أي: أنهم نشروا أجنحتهم عند انحطاطهم إلى الأرض، أو نشروا الشرائع في الأرض، أو نشروا الرحمة والعذاب، أو المراد الملائكة الذين ينشرون الكتب التي فيها أعمال بني آدم يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً، وقوله تعالى: ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ أي: أنهم يفرقون بين الحق والباطل، وقوله: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ أي أنهم يلقون الذِّكرَ إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

والمراد بالذكر إما العلم والحكمة أو القرآن، لقوله تعالى: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [القمر: ٢٥]، وهذا المُلْقي وإن كان جبريل وحده إلا أنه سمِّي باسم الجمع تعظيماً له.

واعلم أن الملائكة أقسام: قسمٌ يرسل لإنزال الوحي على الأنبياء، وقسمٌ يرسل لكتابة أعمال بني آدم، وقسم يرسل لقبض الأرواح، وقسم يرسل بالوحي من سماءٍ إلى سماءٍ.

الوجه الثاني: أن المراد بهذه الكلمات الخمس: الرياح، أقسم الله ـ تعالى ـ بالرياح

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٨٢). (٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٠٢).
(٣) ينظر الرازي ٣٠/ ٢٣٠.

عند إرسالها عُرْفاً، أي: متتابعة، كشعر العرف، ثم إنها تشتدّ حتى تصير عواصف ورياح رحمة تنشر السحاب في الجو، قال الله تعالى: ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ أي: أنها تنشر السحاب، أو أنها تلقح الأشجار والنبات، فتكون ناشرة، وقوله تعالى: ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ أي: أنها تفرق بين أجزاء السحاب، أو أنها تخرب بعض القرى، وذلك يصير سبباً لظهور الفرق بين أولياء الله وأعدائه، أو أنها عند هبوبها تفرّق الخلق فمن مقرّ خاضع، ومن منكر جاحد.

وقوله تعالى: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ أي: أن العاقل إذا شاهد هبوب تلك الرياح التي تقلع القِلاَع وتهدم الصخور والجبال، وترفع أمواج البحار تمسَّك بذكر الله ـ تعالى ـ والتجأ إلى إعانة الله ـ تعالى ـ فصارت تلك الرياح كأنها ألقت الذِّكر والإيمان والعبودية في القلب.

الوجه الثالث: قال ابن الخطيب[1]: من الناس من حمل بعض هذه الكلمات الخمس على القرآن، وعندي أنه يمكن حمل جميعها على القرآن، فقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ المراد منه الآيات المتتابعة المرسلة على لسان جبريل على محمد ﷺ، وقوله تعالى: ﴿عُرْفًا﴾ أي هذه الآيات نزلت بكل عرف وخير، كيف لا وهي الهادية إلى سبيل النجاة الموصلة إلى مجامع الخيرات، والمراد بـ «العاصفات عصفاً» أن دولة الإسلام والقرآن إن كانت ضعيفةً في أولها، ثم عظُمت وقهرت سائر الملل والأديان، فكأن دولة القرآن عصفت سائر الدُّول والملل والأديان وقهرتها، وجعلتها باطلة دائرة.

والمراد بـ «النَّاشِرات نَشراً»، أن آيات القرآن نشرت الحِكَم والهداية في قلوب العالمين شرقاً وغرباً.

والمراد بـ «الفارقات فرقاً» أن آيات القرآن فرَّقت بين الحقِّ والباطل، ولذلك سمِّي القرآن فرقاناً، والمراد بـ «الملقيات ذكراً» أن القرآن ذكر، قال تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨].

الوجه الرابع: قال ابن الخطيب[2]: ويمكن حملها أيضاً على بعثة الرُّسل، فالمراد بـ «المرسلات عرفاً» هم المُرسَلُون بالوَحْي المشتمل على كُلِّ خير ومعروف، ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾ أن كل أمر لكل رسول يكون في أول أمره حقيراً ضعيفاً، ثم يشتدّ ويعظم ويصير في القوة كعصف الرياح ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ انتشار دينهم، ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ أنهم يفرقون بين الحق والباطل، ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ أنهم يأمرونهم بالذكر ويحثُّونهم عليه.

---

(١) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ٢٣٥. (٢) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ٢٧٥.

الاحتمال الثاني: وهو ألاَّ يكون المراد من هذه الكلمات الخمس شيئاً واحداً، وفيه وجوه:

أحدها: قال الزجاج، واختاره القاضي: أن الثلاثة الأول هي الرياح، فقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ هي الرياح التي تتصل على العرف المعتاد، والعاصفات: ما اشتدّ عنها، والنّاشرات: ما ينشر السحاب، وقوله تعالى: ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ هم الملائكة الذين يُفرّقُون بين الحقّ والباطل والحلال والحرام بما يتحمّلونه من القرآن والوحي، وكذا قوله: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ أنها الملائكة المتحمّلون للذِّكر الذي يلقونه إلى الرسل.

فإن قيل: ما المجانسة بين الريح وبين الملائكة حتى جمع بينهما في القسمِ؟.

قلت: الملائكة روحانيّون فهم سبب طاقتهم وسرعة حركاتهم كالرياح.

وثانيها: أن الآيتين الأوليين هما الرياح، والثلاثة الباقية منهم الملائكة؛ لأنها تنشر الوحي والدين، ثم لذلك الوحي أثران:

الأول: حصول الفرق بين المحق والمبطل.

والثاني: ظهور ذكر الله في القلوب والألسنة، ويؤكد هذا أنه قال: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾، ثم عطف الثاني على الأول بحرف الواو، فقال: «والنَّاشِراتِ» وعطف الاثنين الباقيين عليه بحرف الفاء، وهذا يقتضي أن يكون الأولان ممتازين عن الثلاثة الأخيرة.

قال ابن الخطيب(١): ويمكن أن يكون المراد بالأولين الملائكة، فقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ ملائكة الرَّحمة، وقوله تعالى: ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾ ملائكة العذاب، والثلاثة الباقية آيات القرآن؛ لأنها تنشر الحق في القلوب والأرواح، وتفرّق بين الحق والباطل، وتلقي الذكر في القلوب والألسنة.

فصل في وجه دخول الفاء والواو في جواب القسم

قال القفالُ: الوجه في دخول الفاء في بعض ما وقع به القسم، والواو في بعض مبنيّ على أصل، وهو أن عند أهل اللغة أن الفاء تقتضي الوصل والتعلُّق، فإذا قيل: قام زيد فذهب، فالمعنى: أنه قام ليذهب، فكان قيامه سبباً لذهابه ومتصلاً به، فإذا قيل: قام وذهب، فهما خبران، وكل واحد منهما قائم بنفسه، لا يتعلق بالآخر. ثم إن القفال رحمه الله لما مهد هذا الأصل، فرع عليه الكلام في هذه الآية بوجوه.

قال ابن الخطيب(٢): وتلك الوجوه لا يميل القلب إليها، وأنا أنوع على هذا الأصل

---

(١) الفخر الرازي ٣٠/٢٣٦.

(٢) السابق.

فأقول: أما من جعل الأولين صفة لشيءٍ، والثلاثة الأخيرة صفاتٍ لشيء واحدٍ، فنقول: إن حملناها على الملائكة فالملائكة إذا أرسلت طارت سريعاً، وذلك الطيران هو العصف، فالعصف مرتب على الإرسال، فإن الملائكة أول ما يلقون الوحي إلى الرُّسل لا يصير في الحال ذلك الدين مشهوراً منتشراً، بل الخلق يردون الأنبياء في أول الأمر فيكذبونهم وينسبونهم إلى السحر والجنون، فلا جرم أن يذكر الفاء التي تفيد التعقيب، بل ذكر الواو، وإذا حصل النشر ترتب عليه حصول الفرق بين الحق والباطل وظهور ذلك الحق على الألسنة فلا جرم ذكر هذين الأمرين بحرف الفاء، فكأنه ـ والله أعلم ـ قال: يا محمد، أنا أرسلت إليك الملك بالوحي الذي هو عنوان كل سعادة وخير، ولكن لا تطمع في أن ينتشر ذلك الأمر في الحال، ولكن لا بد من الصَّبر وتحمل المشقة، ثم إذا جاء وقت النصرة اجعل دينك ظاهراً منتشراً في شرق العالم وغربه، وعند ذلك الانتشار يظهر الفرق، فتصير الأديان باطلة، ضعيفة، ساقطة، ودينك الحق ظاهراً عالياً، وهنالك يظهر ذكر الله على الألسنة، وفي المحاريب وعلى المنابر، ومن عرف هذا الوجه أمكنه ذكر مناسبة سائر الوجوه.

قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾. هذا جوابُ القسم، وقوله: «والمُرسَلاتِ» وما بعده معطوف عليه، وليس قسماً مستقلاً، لما تقدم في أول الكتاب، لوقوع الفاء هنا عاطفة؛ لأنها لا تكون للقسم، و «ما» موصولة بمعنى «الذي» هي اسم إن و «تُوعَدُون» صلتها، والعائد محذوف، أي إن الذي توعدونه، و «لواقع» خبرها، وكان من حق «إن» أن تكون منفصلة عن «ما» الموصولة، ولكنهم كتبوها متصلة بها.

فصل في الموعود به

إنما توعدون من أمر القيامة لواقع بكم ونازل عليكم ثم لذكره علامات القيامة بعده.

وقال الكلبي: المراد أن كل ما توعدون به من الخير والشَّر لواقع بكم[١].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾

ثم بين وقت وقوعه فقال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أي: ذهب ضوؤها، ومُحِيَ نورها كطَمْسِ الكتاب، يقال: طمس الشيء إذا درس، وطمس فهو مطموس، والريح

(١) ينظر القرطبي (١٩/ ١٠٢).

تطمس الآثار، فتكون الريح طامسة، والأثر طامس بمعنى مطموس.

قال ابن الخطيب(١): ويحتمل أن تكون محقت ذواتها، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿نُشرت﴾.

و «النُّجومُ» مرتفعة بفعل مضمر يفسره ما بعده عند البصريين غير الأخفش، وبالابتداء عند الكوفيين والأخفش.

وفي جواب «إذا» قولان:

أحدهما: محذوف، تقديره: فإذا طمست النجوم وقع ما توعدون، لدلالة قوله إنما توعدون لواقع أو بان الأمر.

والثاني: أنه «لأيِّ يَومٍ أجِّلتْ» على إضمار القول، أي يقال: لأي يوم أجّلت، فالفعل في الحقيقة هو الجوابَ.

وقيل: الجواب: «ويْلٌ يَومَئذٍ». نقله مكي، وهو غلط؛ لأنه لو كان جواباً للزمته الفاء لكونه جملة اسمية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾. أي: فتحت وشقّت، ومنه قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ [النبأ: ١٩]، والفَرْجُ: الشقُّ، ونظيره: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١]، ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥].

وروى الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ قال: فرجت للطي(٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ﴾. أي: ذهب بها كلها بسرعة، من أنسفت الشيء إذا اختطفته، وقيل: تنشق كالحب المغلق إذا نسف بالمنسف، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾ [طه: ٩٧]، ونظيره: ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا﴾، ﴿وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤]، ﴿فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا﴾ [طه: ١٠٥].

وقرىء(٣): «طُمّست، وفُرّجت، ونُسّفت» مشددة.

وكان ابن عباس يقول: سويت بالأرض(٤)، والعرب تقول: فرس نسوف، إذا كان يؤخر الحزام بمرفقيه؛ قال بشرٌ: [الوافر]

٥٠٥٥ ـ نَسُوفٌ لِلحِزَامِ بِمِرْفَقَيْهَا ....(٥)

---

(١) الفخر الرازي ٣٠/ ٢٣٧.
(٢) ينظر القرطبي (١٩/ ١٠٢).
(٣) قرأ بها عمرو بن ميمون كما في البحر ٨/ ٣٩٦.
(٤) ينظر القرطبي (١٩/ ١٠٢).
(٥) صدر بيت وعجزه:

يَسُدُّ خَوَاءَ طُبْيَيْهَا الغُبَارُ

ينظر اللسان (خوى)، و (نسف)، والقرطبي (١٩/ ١٠٢).

ونسفت الناقة الكلأ إذا رعتهُ.

قوله: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ﴾. **قرأ أبو عمرو**[١]: «وقِّتَتْ» بالواو، والباقون: بهمزة بدل الواو. قالوا: والواو هي الأصل؛ لأنه من الوقت، والهمزة بدل منها لأنها مضمومة ضمة لازمة، وكل واو انضمت وكانت ضمتها لازمة فإنها تبدل على الاطراد همزة أولاً، تقول: صلى القوم إحداناً، تريد: وِحدَاناً، وهذه أجوه حسان؛ لأن ضمة الواو ثقيلة وبعدها واو فالجمع بينهما يجري مجرى جمع المثلين فيكون ثقيلاً، ولم يجز البدل في قوله تعالى ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢٣٧]؛ لأن الضمة غير لازمة، قاله الفراء. وقد تقدم ذكر ذلك أول الكتاب.

فصل في المراد بالتأقيت

قال مجاهد والزجاج: المراد بهذا التأقيت تبيين الوقت الذي تحضرون فيه للشهادة على أممكم، أي: جمعت لوقتها ليوم القيامة، والوقت: الأجل الذي يكون عنده الشيء المؤخر إليه، فالمعنى: جعل لها وقت وأجل للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم، كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة: ١٠٩].

وقيل: المراد بهذا التأقيت تحصيل الوقت وتكوينه، وليس في اللفظ بيان أنه يحصل لوقت أي شيء، ولم يبينه ليذهب الوهم إلى كل جانب، فيكون التهويل فيه أشد، فيحتمل أن يكون المراد تكوين وقت جمعهم للفوز بالثواب، وأن يكون وقت سؤال الرسل عما أجيبوا به، وسؤال الأمم عما أجابوا هم لقوله تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، وأن يكون وقت مشاهدة الجنة والنار وسائر أحوال القيامة، وقيل: «أُقِّتَتْ» أي: أرسلت لأوقات معلومة على ما علمه الله وأراده.

فصل في قراءات الآية

قرأ أبو جعفر[٢] **وشيبة**: بالواو وتخفيف القاف، وهو «فعلت» من الوقت، ومنه ﴿كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣].

وقرىء ـ أيضاً ـ: «وُوقتت» ـ بواوين ـ، وهو «فوعلت» من الوقت أيضاً مثل: عُوهِدَت.

قال القرطبي[٣]: «ولو قلبت الواو في هاتين القراءتين ألفاً لجاز، وقد قرأ يحيى

---

(١) ينظر: السبعة ٦٦٦، والحجة ٦/ ٣٦٤، وإعراب القراءات ٢/ ٤٢٨، وحجة القراءات ٧٤٢.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤١٨، وقال: وهي قراءة ابن مسعود والحسن، وينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٩٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٠٣.

وأيوب[١] وخالد بن إلياس وسلام: «أُقِتَتْ» بالهمز والتخفيف؛ لأنها مكتوبة في المصحف بالألف».

قوله تعالى: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾. الجار متعلق بـ «أجلت» وهذه الجملة معمولةٌ لقول مضمر، أي: يقال وهذا القول المضمرُ يجوز أن يكون جواباً لـ «إذا» ـ كما تقدَّم ـ وأن يكون حالاً من مرفوع «أقتت» أي: مقولاً فيها لأيِّ يوم أجّلت أي: أخّرت، وهذا تعظيم لذلك اليوم، فهو استفهام على التعظيم، أي ليوم الفصل أجلت، كأنه تعالى قال: يعجب العباد من تعظيم ذلك اليوم، فيقال: لأي يوم أجلت الأمور المتعلقة بهذه الرسل، وهي تعذيب من كذبهم وتعظيم من آمن بهم وظهور ما كانوا يدعون الخلق إلى الإيمان به من الأهوال والعرض والحساب، ونشر الدواوين ووضع الموازين.

قوله: ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ بدل من «لأيِّ يومٍ» بإعادة العامل.

وقيل: بل يتعلق بفعل مقدر أي أجلت ليوم الفصل، وقيل: اللام بمعنى «إلى» ذكرها مكي.

فصل في المراد بيوم الفصل

اعلم أنه تعالى بين ذلك اليوم فقال: ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾، قال ابن عباس: يوم فصل الرحمن بين الخلائق، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٢] [الدخان: ٤٠].

قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾. أتبع التعظيم تعظيماً، أي: وما علمك بيوم الفصل وشدته ومهابته، ثم أتبعه بتهويل ثالث، وهو قوله: «ويْلٌ» مبتدأ، سوغ الابتداء به كونه دعاء.

قال الزمخشري: «فإن قلت: كيف وقعت النكرة مبتدأ في قوله تعالى ﴿وَيْلٌ﴾؟ قلت: هو في أصله مصدر منصوب سادّ مسدَّ فعله، ولكنه عدل به إلى الرفع للدلالة على إثبات معنى الهلاك، ودوامه للمدعو عليهم، ونحوه ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد: ٢٤]، ويجوز «وَيلاً» بالنصب، ولكنه لم يقرأ به».

قال شهاب الدين[٣]: «هذا الذي ذكره ليس من المسوّغات التي عدها النحويون وإنما المسوغ كونه دعاء وفائدة العدول إلى الرفع ما ذكره».

و «يَوْمئذٍ» ظرف للويل.

وجوز أبو البقاء: أن يكون صفة للويلِ، وللمكذبين خبره.

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٩٦، ونسبها إلى النخعي والحسن، وعيسى، وخالد.

(٢) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٠/ ٢٣٨). (٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٤٥٥.

فصل في تفسير الآية

قال القرطبي[1]: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: عذاب وخِزْي لمن كذب بالله تعالى وبرسله، وعلى تقدير تكذيبهم؛ فإنَّ لكل مكذب بشيء عذاباً سوى تكذيبه بشيء آخر، وربّ شيء كذب به وهو أعظم جرماً من تكذيبه بغيره؛ لأنه أقبح في تكذيبه، وأعظم في الرد على الله تعالى، فإنما يقسم له من الويل على قدر ذلك، وهو قوله: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦].

وقيل: كرره لمعنى تكرار التخويف والوعيد.

وروي عن النعمان بن بشير قال: «ويْلٌ» واد في جهنم فيه ألوان العذاب، قاله ابن عباس وغيره[2].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «عُرِضتْ عليَّ جهنَّمُ فَلَمْ أرَ فيهَا وَادِياً أعْظَمَ منَ الويْلِ»[3].

وروي أيضاً أنه مجمع ما يسيل من قيح أهلِ النار وصديدهم، وإنما يسيل الشيء فيما سفل من الأرض، وقد علم العباد في الدنيا أن شرّ المواضع في الدنيا ما استنقع فيها مياه الأدناس والأقذار والغسلات من الجيف وماء الحمَّامات، فذكر أن ذلك الوادي مستنقع صديد أهل النَّار والشرك ليعلم العاقل أنه لا شيء أقذرُ منه قذارةً، ولا أنتنُ منه نتناً.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. العامة: على ضم حرف المضارعة، من «أهْلَكَ» رباعيًا، وقتادة: بفتحه[4].

قال الزمخشري: من هلكه بمعنى «أهلكه»؛ قال العجاج: [الرجز]

٥٠٥٦ ـ ومَـهْـمَـهٍ هَـالـكُ مَـنْ تَـعـرَّجَـا[5]

فـ «من» معمول الهالك، وهو من «هلك»، إلاَّ أن بعض النَّاس جعل هذا دليلاً على إعمال الصِّفة المشبهة في الموصول، وجعلها من اللازم؛ لأن شرط الصفة المشبهة أن تكون من فعل لازم، فعلى هذا لا دليل فيه.

قوله: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾.

العامة: على رفع العين استئنافاً أي: ثم نحن نتبعهم، كذا قدره أبو البقاء.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٢٠٣.
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٠٣).
(٣) ينظر المصدر السابق.
(٤) ينظر: الكشاف ٤/ ٦٧٨، والبحر المحيط ٨/ ٣٩٧، والدر المصون ٦/ ٤٥٥.
(٥) تقدم.

وقال: «وليس بمعطوف، لأن العطف يوجب أن يكون المعنى: أهلكنا الأولين، ثمَّ أتبعناهم الآخرين في الهلاك، وليس كذلك؛ لأن هلاك الآخرين لم يقع بعد».

قال شهاب الدين[١]: ولا حاجة في وجه الاستئناف إلى تقدير مبتدأ قبل الفعل، بل يجعل الفعل معطوفاً على مجموع الجملة من قوله: «أَلَمْ نُهلكِ»، ويدل على هذا الاستئناف قراءة[٢] عبد الله: «ثم سَنُتْبِعهُم الآخرين» بسين التنفيس، **وقرأ الأعرج**[٣] **والعباس عن أبي عمرو**: بتسكينها، وفيها وجهان:

أحدهما: أنه تسكين للمرفوع، فهو مستأنف كالمرفوع لفظاً.

والثاني: أنه معطوف على مجزوم، والمعني بالآخرين حينئذ قوم شعيب ولوط وموسى، وبالأولين قوم نوح وعاد وثمود.

قال ابن الخطيب[٤]: وهذا القول ضعيف؛ لأن قوله تعالى: ﴿نُتْبِعُهُمُ﴾ مضارع، وهو للحال والاستقبال، ولا يتناول الماضي، وإنما المراد بالأولين: جميع الكفار الذين كانوا في عهد محمد ﷺ، وقوله: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾ على الاستئناف، أي: سنفعل ذلك، ونتبع الأول الآخر، ويدل على الاستئناف قراءة عبد الله في نتبعهم تدل على الاشتراك، وحينئذ يكون المراد به الماضي لا المستقبل.

قلنا: لو كان المراد هو الماضي لوقع التنافي بين القراءتين، وهو غير جائز، فعلمنا أن تسكين العين ليس للجزم، بل للتخفيف.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ﴾ أي: مثل ذلك الفعل الشَّنيع نفعل بكل من أجرم.

فصل في المراد بالآية

المقصُود من هذه الآية تخويف الكفار وتحذيرهم من الكفر، أخبر عن إهلاك الكفار من الأمم الماضين من لدُن آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى محمد ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ «ثُمَّ نُتبِعهُمُ الآخرين» أي: نُلحق الآخرين بالأولين، ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: مثل ما فعلنا بمن تقدم نفعل بمشركي قريش إما بالسيف وإما بالهلاك، ثم قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ كأنه تعالى يقول: أما الدنيا: فحاصلهم الهلاك، وأما الآخرة فالعذاب الشديد، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١] فإن قيل: المراد من قوله: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هو مطلق الإماتة،

---

(١) الدر المصون ٦/ ٤٥٦.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٦٧٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٤١٨، والبحر المحيط ٨/ ٣٩٧.

(٣) ينظر: السبعة ٦٦٦، والحجة ٦/ ٣٦٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٩٧.

(٤) ينظر: الفخر الرازي: ٣٠/ ٢٣٩.

والإماتة بالعذاب فإن كان مطلق الإماتة لم يكن ذلك تخويفاً للكفار؛ لأن ذلك معلوم حاصل للمؤمن والكافر، فلا يكون تخويفاً للكفار، وإن كانت الإماتة بالعذاب فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يقتضي أن يكون فعل بكفَّار قريش مثل هذا، ومعلوم أن ذلك لم يوجد، وأيضاً فقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

فالجواب: قال ابن الخطيب[١]: لم لا يجوز أن يكون المراد من الإهلاك معنى ثالث، وهو الإماتة المستعقبة للذَّم واللَّعن، فكأنه قيل: أولئك المتقدمون لحرصهم على الدنيا عادوا الأنبياء وخاصموهم، ثم ماتوا ففاتتهم الدنيا، وبقي اللَّعْن عليهم في الدنيا والعقوبة في الآخرة دائماً سرمداً، فهكذا يكون حال الكفار الموجودين، وهذا من أعظم وجوه الزجر.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٤)﴾

قوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾. أي: ضعيف حقير وهو النُّطفة، وهذا نوع آخر من تخويف الكفار، وهو من وجهين:

الأول: أنه ـ تعالى ـ ذكرهم عظيم إنعامه عليهم، وكلما كانت نعمه عليهم أكثر كانت جنايتهم في حقه أقبح وأفحش، فيكون العقاب أعظم، فلهذا قال جل ذكره عقيب هذه الأنعام: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

والثاني: أنه تعالى ذكرهم كونه تعالى قادراً على الابتداء، والظاهر في العقل أن القادر على الابتداء قادر على الإعادة، فلما أنكروا هذه الدلالة الظاهرة، لا جرم قال في حقهم: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨].

﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾، أي: مكان حريز وهو الرَّحم.

﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾، قال مجاهد: إلى أن نصوره، وقيل: إلى وقت الولادة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤].

قوله تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾، **قرأ نافع**[٢] **والكسائي**: بالتشديد من التقدير، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس: ٤].

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/٢٤٠.

(٢) ينظر: السبعة ٦٦٦، والحجة ٦/٣٦٥، وإعراب القراءات ٢/٤٢٨، وحجة القراءات ٧٤٣.

والباقون: بالتخفيف، من القدرة، ويدل عليه ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾.

ويجوز أن يكون المعنى على القراءة الأولى: فنعم القادرون على تقديره، وإن جعلت «القادرون» بمعنى «المقدرون» كان جمعاً بين اللَّفظين، ومعناهما واحد، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٧]؛ وقول الأعشى: [البسيط]

٥٠٥٧ ـ وأنْكَرَتْنِي وقَدْ كَانَ الَّذِي نَكِرَتْ ... مِنَ الحَوادِثِ إلاَّ الشَّيْبَ والصَّلَعَا[1]

وقال الكسائي والفراء: هما لغتان بمعنى.

قال القتيبي: «قَدَرْنَا» بمعنى «قَدَّرْنَا» مشددة، كما تقول: قدرت كذا وقدرته ومنه قوله ﷺ في الهلال: «إذَا غُمَّ عَلَيْكُمْ فاقْدُرُوا لَهُ» أي: قدروا له المسير والمنازل.

وقال محمد بن الجهم عن الفرَّاء: أنه ذكر تشديدها عن علي ـ رضي الله عنه ـ وتخفيفها.

قال: ولا يبعُد أن يكون المعنى في التشديد والتخفيف واحداً، لأن العرب تقول: قدر عليه الموت وقدر، قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ [الواقعة: ٦] قرىء بالتخفيف والتشديد، وقدر عليه رزقه وقدر، واحتج الذين خففوا فقالوا: لو كانت كذلك لكانت «فنِعْمَ المُقدِّرُونَ».

قال الفراء: والعرب تجمع بين اللُّغتين، واستدل بقوله: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الآية، [الطارق: ١٧] وذكر بيت الأعشى المتقدم.

وقيل: المعنى قدَّرنا قصيراً وطويلاً، ونحوه عن ابن عبَّاس: قدرنا ملكنا.

قال المهدوي: وهذا التفسير أشبه بقراءة التخفيف.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ هذا هو النوع الرَّابع من تخويف الكُفَّار؛ لأنه ـ تعالى ـ ذكرهم في الآية المتقدمة بالنعم التي في الأنفس لأنها كالأصل للنعم التي في الآفاق، ثم قال في آخرها: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ لأن النعم كلما كانت أكثر كانت الخيانة أقبح وكان استحقاق الذم أشد، وذكر في هذه الآية النعم التي في الأنفس؛ لأنها كالأصل للنعم التي في الآفاق، قالوا: فإنه لولا الحياة والسمع والبصر والأعضاء السليمة لما كان

(١) ينظر ديوان الأعشى ص ١٠٥، والمحتسب ٢/ ٢٩٨، والخصائص ٣/ ٣١٠، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢٢٤، ومجاز القرآن ١/ ٢٩٣، والأمالي لأبي علي القالي ٣/ ٢٢١، وإعراب القرآن ٥/ ١١٧، والطبري ٢٩/ ١٤٥، ومجمع البيان ١٠/ ٦٣١، واللسان نكر، والدر المصون ٦/ ٤٥٦.

الانتفاع بشيء من المخلوقات ممكناً ـ والله أعلم ـ، وإنما قدم الأرض لأنها أقرب الأشياء إلينا من الأمور الخارجة.

والكِفَات: اسم للوعاء الذي يكفت فيه أي يجمع. قاله أبو عبيدٍ، يقال: كفته يكفته أي جمعه وضمه.

وفي الحديث: «أكْفِتُوا صبيانكُم»[1]، قال الصمصامة بن الطرمَّاح: [الوافر]

٥٠٥٨ ـ وأنْتَ غَداً اليَوْمَ فَوْقَ الأرْضِ حَيًّا وأنْتَ غَداً تَضُمُّكَ فِي كِفَاتِ[2]

وقيل: الكِفَات: اسم لما يكفت كـ «الضِّمام والجماع»، يقال: هذا الباب جماع الأبواب، والمعنى: نجعل الأرض ضامَّة تضم الأحياء على ظهرها، والأموات في بطنها، والكفت: الضم والجمع؛ وأنشد سيبويه: [الوافر]

٥٠٥٩ ـ كِرَامٌ حِينَ تَنْكَفِتُ الأفَاعِي إلَى أحْجَارِهِنَّ مِنَ الصَّقِيعِ[3]

وروي عن ربيعة في النباش، قال: تقطع يده، فقيل له: لم قلتَ ذلك؟ فقال: إن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ فالأرض حِرز، وكانوا يسمون بقيع الغرقد كفتة، لأنه مقبرة تضم الموتى، فالأرض تضم الأحياء إلى منازلهم، والأموات في قبورهم، وأيضاً استقرار النَّاس على وجه الأرض، ثم اضطجاعهم عليها، انضمام منهم إليها.

وقال الأخفش وأبو عبيدة ومجاهد في أحد قوليه: الأحياء والأموات ترجع إلى الأرض، والأرض منقسمة إلى حيٍّ وهو الذي ينبت، وإلى ميت وهو الذي لا ينبت.

وفي انتصاب: «كِفَاتاً، أحياء وأمواتاً» وجهان:

أحدهما: أنه مفعول ثانٍ لـ «نجعل»؛ لأنها للتصيير.

والثاني: أنه منصوب على الحال من «الأرض»، والمفعول الثاني: «أحياءً وأمواتاً» بمعنى: ألم نصيِّرها أحياء بالنبات، وأمواتاً بغير نبات، أي: بعضها كذا، وبعضها كذا.

وقيل: «كِفَاتاً» جمع كافت كـ «صيام، وقيام» جمع «صائم، وقائم».

وقيل: بل هو مصدر كالكتاب والحساب.

وقال الخليل: التكفيت: تقليب الشَّيء ظهراً لبطن وبطناً لظهر، ويقال: انكفت القوم إلى منازلهم، أي: انقلبوا، فمعنى الكفات: أنهم يتصرفون على ظهرها، وينقلبون إليها فيدفنون فيها.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٧٣٣) وأحمد (٣/ ٣٨٨).

(٢) ينظر اللسان (كفت)، والقرطبي ١٩/ ١٠٥، والدر المصون ٦/ ٤٥٦.

(٣) نسب البيت إلى خالد بن أبي فهر، ينظر الكتاب ٣/ ٥٧٧، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٣١٦، والمقتضب ٢/ ١٩٧، والقرطبي ١٩/ ١٠٥.

قوله: ﴿أَحْيَآءً﴾. فيه أوجه:

أحدها: أنه منصوب بـ «كفات» قاله مكي، والزمخشري؛ وبدأ به بعد أن جعل «كِفَاتاً» اسم ما يكفت، كقولهم: الضِّمام والجماع.

وهذا يمنع أن يكون «كِفَاتاً» ناصباً لـ «أحياءً»؛ لأنه ليس من الأسماء العاملة، وكذلك إذا جعلناه بمعنى الوعاء على قول أبي عبيدة، فإنه لا يعمل أيضاً، وقد نصّ النحاة على أن أسماء الأمكنة والأزمنة والآلات وإن كانت مشتقة جارية على الأفعال لا تعمل، نحو: مَرْمَى، ومَنْجَل.

وفي اسم المصدر خلاف مشهور، ولكن إنما يتمشّى نصبهما بـ «كفات» على قول أبي البقاء، فإنه يجوز فيه إلا أن يكون جمعاً لاسم فاعل أو مصدراً، وكلاهما من الأسماء العاملة.

الوجه الثاني: أن ينتصب بفعل مقدر يدل عليه «كفاتاً» أي: يكفتهم أحياءً على ظهرها، وأمواتاً في بطنها، وبه ثنى الزمخشري.

الثالث: أن ينتصب على الحالِ من محذوف، أي: يكفتكم أحياءً وأمواتاً، لأنه قد علم أنها كفات للإنس قاله الزمخشري، وإليه نحا مكي، إلا أنه قدره غائباً أي تجمعهم الأرض في هاتين الحالتين.

الرابع: أن ينتصب مفعولاً ثانياً لـ «نجعل» و «كفاتاً» حال، كما تقدم تقريره.

وتنكير «أحياء وأمواتاً» إما للتفخيم، أي يجمع أحياء لا يقدرون وأمواتاً لا يحصون، وإما للتبعيض؛ لأن أحياء الإنس وأمواتهم ليسوا بجميع الأحياء ولا الأموات، وكذلك التنكير في «ماءً فراتاً» يحتمل المعنيين أيضاً، أما التفخيم فواضحٌ لعظم المنّة عليهم وأما التبعيض، فلقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣] فهذا مفهم للتبعيض والقرآن يفسّر بعضه بعضاً.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾. أي جعلنا في الأرض «رواسي» وهي الثوابت «شامخات»، وهي الجبال الطُّوال، جمع شامخ، وهي المرتفعة جدًّا، ومنه شمخ بأنفه إذا تكبّر، جعل كناية عن ذلك كثني العطف، وصعر الخد وإن لم يحصل شيء من ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾، أي: وجعلنا لكم سُقْياً، والفرات: الماء العذب يُشْرَب ويُسقَى به الزرع، أي: خلقنا الجبال، وأنزلنا الماء الفرات، وهذه الأمور أعجبُ من البعث.

وروى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: في الأرض من الجنة الفرات والدجلة ونهر الأردن[1].

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٠٥).

وفي مسلم: سيحان وجيحان، والنيل، والفرات، كل من أنهار الجنة[١].

قوله تعالى: ﴿انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٤)﴾

قوله تعالى: ﴿انطَلِقُوا﴾. أي: يقال لهم ذلك.

والعامة: على «انطلقوا» الثاني كالأول بصيغة الأمر على التأكيد وروى رويس عن يعقوب[٢]: «انْطَلَقوا» ـ بفتح اللام ـ فعلاً ماضياً على الخبر، أي: لمَّا أمروا امتثلوا ذلك، وهذا موضع الفاء، فكان ينبغي أن يكون التركيب فانطلقوا، نحو قولك: قلت له: اذهب فذهب، وعدم الفاء هنا ليس بواضح.

فصل في كيفية عذاب الكفار في الآخرة

هذا هو النَّوع الخامس من تخويف الكُفَّار، وهو بيان كيفية عذابهم في الآخرة والمعنى: يقال لهم: انطلقوا إلى ما كذبتم به من العذاب، يعني النار، فقد شاهدتموها عياناً.

﴿انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ أي: دخان ذي ثلاث شعب، يعني الدخان الذي يرتفع، ثم يتشعب إلى ثلاث شعب، وكذلك بيان دخان جهنم العظيم إذا ارتفع تشعب.

قال أبو مسلم: ويحتمل في ثلاث شعبٍ ما ذكره بعد ذلك، وهو أنه غير ظليل، وأنه لا يغنى من اللهب، وبأنه يرمي بشرر، ثم وصف الظليل، فقال:

﴿لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ أي: لا يدفع من لهب جهنم شيئاً، أي: ليس كالظلِّ الذي يقي حرّ الشمس، وهذا تهكّم بهم، وتعريض بأن ظلّهم غير ظلِّ المؤمنين، وأنه لا يمنع حرَّ الشمس.

واللهب ما يعلو على النار إذا اضطرمت من أحمر، وأصفر، وأخضر.

وقيل: إن الشعب الثلاث من الضَّريع، والزَّقُّوم، والغسلين؛ قاله الضحاك.

وقيل: اللهب ثم الشرر ثُمَّ الدخان، لأنها ثلاثة أحوال هي غاية أوصاف النار إذا اضطرمت واشتدت.

وقيل: عنق يخرج من النار فيتشعب ثلاث شعب، فأما النور فيقف على رءوس

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٨٣) كتاب الجنة: باب ما في الدنيا من أنهار الجنة حديث (٢٦/ ٢٨٣٩) من حديث أبي هريرة.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤١٩، والبحر المحيط ٨/ ٣٩٧، والدر المصون ٦/ ٤٥٧.

المؤمنين، وأما الدخان فيقف على رءوس المنافقين، وأما اللهب الصافي فيقف على رءوس الكفار.

وقيل: هو السرادق، وهو لسان من النَّار يحيط بهم يتشعب منه ثلاث شعب، فيظلهم حتى يفرغ من حسابهم، لقوله تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

وتَسْمِيَةُ النَّار بالظِّل مجاز من حيث إنها محيطةٌ بهم من كل جانب، لقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

وقيل: هو الظل من يحموم لقوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٣، ٤٤].

وفي الحديث: «إنَّ الشَّمسَ تَدنُو مِنْ رُءوسِ الخَلائقِ، وليْسَ عَليْهِم ولا لَهُمْ أكْفانٌ، فتَلْحَقُهمُ الشَّمسُ وتَأخذُ بأنْفَاسِهِمْ، ثُمَّ يُنَجِّي اللَّهُ بِرحْمَتهِ مَنْ يَشاءُ إلى ظلٍّ من ظلِّه، فهُنالكَ يقُولُونَ: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧] ويقال للمكذبين: انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون من عذاب الله وعقابه»[١].

قوله: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ صفة لـ «ظلّ»، و «لا» متوسّطة بين الصفة والموصوف لإفادة النَّفي، وجيء بالصِّفة الأولى اسماً، وبالثانية فعلاً دلالة على نفي ثبوت هذه الصِّفةِ واستقرارها للظل، ونفي التجدد والحدوث للإغناء عن اللَّهب، يقال: أغني عني وجهك، أي أبعد؛ لأن الغنيَّ عن الشيء يباعده كما أن المحتاج إليه يقاربه.

قال الزمخشري: «ولا يغني» في محل الجر، أي وغير مُغْنٍ عنهم من حر اللهب شيئاً.

﴿إِنَّهَا﴾ أي إن جهنم، لأن السياق[٢] كله لأجلها.

وقرأ العامة: «بِشَررٍ» بفتح الشين وعدم ألف بين الراءين.

وورش[٣] يرقّق[٤] الراء الأولى لكسر التي بعدها.

وقرأ ابن عباس وابن مقسم: بكسر الشين[٥] وألف بين الراءين.

وعيسى[٦] كذلك، إلا أنه يفتح الشين.

فقراءة ابن عباس: يجوز أن تكون جمعاً لـ «شَرَرة»، و «فَعَلة» تجمع على «فِعَال» نحو «رَقَبة ورِقَاب، ورحبة ورِحَاب».

---

(١) تقدم.
(٢) في ب: البيان.
(٣) في أ: وعيسى.
(٤) ينظر: الد المصون ٦/ ٤٥٧.
(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٩٨، والدر المصون ٦/ ٤٥٧.
(٦) ينظر: السابق.

وأن يكون جمعاً لـ «شر» لا يراد به «أفعل» التفضيل، يقال: رجل شر، ورجال أشرار ورجل خير ورجال أخيار، ويؤنثان، فيقال: امرأة شرة وامرأة خيرة، فإن أريد بهما التفضيل امتنع ذلك فيهما، واختصّا بأحكام مذكورة في كتب النحو، أي: ترمي بشرار من العذاب، أو بشرار من الخلق.

وأما قراءة عيسى: فهو جمع شرارة بالألف، وهي لغة تميم، والشررة والشرارة: ما تطاير من النار منصرفاً.

قال القرطبي[١]: «الشرر: واحدته شررة، والشرار: واحدته شرارة، وهو ما تطاير من النار في كل جهة، وأصله من شررت الثوب إذا بسطته للشمس ليجفَّ.

والقَصْر: البناء العالي».

قوله: ﴿كَٱلْقَصْرِ﴾ العامة على فتح القاف وسكون الصاد، وهو من القصر المعروف شبِّهت به في كِبره وعظمه.

وابن عباس وتلميذه ابن جبير والحسن[٢]: بفتح القاف والصَّاد، وهي جمع قصرة ـ بالفتح ـ والقصرة: أعناق الإبل والنخل وأصول الشجر.

وقرأ ابن[٣] **جبير والحسن أيضاً**: بكسر القاف وفتح الصَّاد، جمع قصرة بفتح القاف.

قال الزمخشري: «كحاجة وحوج».

وقال أبو حيان[٤]: «كحلقة من الحديد وحلق».

وقرىء[٥]: «كالقَصِر» بفتح القاف وكسر الصاد.

قال شهاب الدين[٦]: ولم أر لها توجيهاً، ويظهر أن يكون ذلك من باب الإتباع والأصل: كالقصر ـ بسكون الصاد ـ ثم أتبع الصاد حركة الراء فكسرها، وإذا كانوا قد فعلوا ذلك في المشغول بحركة نحو «كَتِف، وكَبِد» فلأن يفعلوه في الخالي منها أولى، ويجوز أن يكون ذلك للنقل، بمعنى أنه وقف على الكلمة، فنقل كسرة الراء إلى الساكن قبلها، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف، وهو باب شائع عند القراء والنحاة.

وقرأ عبد الله[٧]: قُصُر، وفيها وجهان:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩/١٠٦.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٢٠، والبحر المحيط ٨/ ٣٩٨، والدر المصون ٦/ ٤٥٨.

(٣) ينظر السابق.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٤٠٣.

(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٩٨، والدر المصون ٦/ ٤٥٨.

(٦) الدر المصون ٦/ ٤٥٨.

(٧) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٩٨، والدر المصون ٦/ ٤٥٨.

أحدهما: أنه جمع قصر، كـ «رَهْن ورُهُن». قاله الزمخشري.

والثاني: أنه مقصور من قصور؛ كقوله: [الرجز]

٥٠٦٠ ـ فِيهَا عَيَايِلُ أُسُودٌ ونُمُرْ(١)

يريد: نمور، فقصر، وكقوله: ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ [النجم: ١] يريد: النجوم.

وتخريج الزمخشري أولى، لأن محل الثاني إما الضرورة، وإما الندور.

قوله: «جِمَالات» قرأ الأخوان وحفص: «جِمَالَة»، والباقون(٢): «جِمَالاَت».

فـ «الجِمَالة» نحو «ذكر، وذِكارة، وحجر، وحِجَارة».

والثاني: أنه جمع كـ «الذِّكَارة، والحِجَارة». قاله أبو البقاء.

والأول: قول النحاة.

وأما «جمالات»، فيجوز أن يكون جمعاً لـ «جمالة»، وأن يكون جمعاً لـ «جمال»، فيكون جمع الجمع، ويجوز أن يكون جمعاً لـ «جميل» المفرد كقولهم: «رجالات قريش» كذا قالوه. وفيه نظر؛ لأنهم نصُّوا على أن الأسماء الجامدة، وغير العاقلة لا تجمع بالألف والتاء، إلا إذا لم تكسر، فإن كسرت لم تجمع، وقالوا: ولذلك لحن المتنبي في قوله: [الطويل]

٥٠٦١ ـ إذَا كَانَ بَعْضُ النَّاسِ سَيفاً لِدوْلَةٍ فَفِي النَّاسِ بُوقَاتٌ لَهُمْ وطُبُولُ(٣)

فجمع «بوقاً» على «بوقات» مع قولهم: «أبواق»، فكذلك «جمالات» مع قولهم: «جمل، وجمال» على أن بعضهم لا يجيز ذلك، ويجعل نحو «حمامات، وسجلات» شاذًا، وإن لم يكسر.

وقرأ ابن عباس والحسن وابن جبير وقتادة وأبو رجاء(٤)، **بخلاف عنهم كذلك**، إلا أنهم ضموا الجيم، وهي حبال السفن.

وقيل: قلوص الجسور، الواحد منها جملة، لاشتمالها على طاقات الحبال، وفيها وجهان:

أحدهما: أن يكون «جُمالات» ـ بالضم ـ جمع جمال، فـ «جمال» جمع «جملة»، كذا قال أبو حيَّان، ويحتاج في إثبات أن «جُمَالات» جمع «جملة» بالضم إلى نقل.

---

(١) تقدم.

(٢) ينظر: السبعة ٦٦٦، والحجة ٦/ ٣٦٥، وإعراب القراءات ٢/ ٤٢٩، وحجة القراءات ٧٤٤.

(٣) تقدم.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٢٠، والبحر المحيط ٨/ ٣٩٨، والدر المصون ٦/ ٤٥٧.

والثاني: أن «جمالات» جمع «جمالة». قاله الزمخشري. وهو ظاهر.

وقرأ ابن عبَّاس والسلمي[١] **وأبو حيوة**: «جُمَالة» بضم الجيم لما قاله الزمخشري آنفاً.

وروي عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنها قطع النُّحاس.

قوله: ﴿صُفْرٌ﴾. صفة لـ «جمالات» أو لـ «جمالة» لأنه إما جمع أو اسم جمع.

والعامة: على سكون الفاء جمع، والحسن[٢] بضمها، كأنه إتباع، ووقع التشبيه بها في غاية الفصاحة.

قال الزمخشري: وقيل: «صُفْر» سود تضرب إلى الصفرة، وفي شعر عمران بن حطَّان الخارجيِّ: [الطويل]

٥٠٦٢ ـ دَعتْهُمْ بأعْلَى صَوْتِهَا ورَمتهُمُ بِمِثْلِ الجمالِ الصُّفْرِ نزَّاعةُ الشَّوَى[٣]

وقال أبو العلاءِ: [الكامل]

٥٠٦٣ ـ حَمْراءُ سَاطِعَةُ الذَّوائبِ في الدُّجَى تَرْمِي بِكُلِّ شَرارةٍ كطِرَافِ[٤]

فشبهها بالطِّراف، وهو بيت الأدم في العظم والحمرة، وكأنه قصد بخبثه أن يزيد على تشبيه القرآن، ولتبجحه بما سوّل له من توهم الزيادة جاء في صدر بيته قوله: حمراء، توطئة لها ومناداة عليها تنبيهاً للسَّامعين على مكانها، ولقد عمي، جمع الله له عمى الدارين عن قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ فإنه بمنزلة قوله: كبيت أحمر وعلى أن في التشبيه بالقصر، وهو الحصن تشبيهاً من جهتين: من جهة العظم، ومن جهة الطّول في الهواء. انتهى.

وكان قد قال قبل ذلك بقليل: «شبهت بالقصور، ثم بالجمال لبيان التشبيه؛ ألا ترى أنهم يشبهون الإبل بالأفدان والمجادل».

والأفدان: القصور؛ كأنه يشير إلى قول عنترة: [الكامل]

٥٠٦٤ ـ فَوقَفْتُ فِيهَا نَاقَتِي وكَأنَّهَا فَدنٌ لأقْضِيَ حَاجَةَ المُتلومِ[٥]

فصل في المراد بالقصر

قال القرطبي[٦]: القصر: البناء العالي.

---

(١) ينظر: السابق. (٢) ينظر السابق.

(٣) ينظر الكشاف ٤/ ٦٨١، والقرطبي ١٩/ ١٠٧، والبحر المحيط ٨/ ٣٩٨، والدر المصون ٦/ ٤٥٩.

(٤) ينظر: الكشاف ٤/ ٦٨١، والدر المصون ٦/ ٤٥٩.

(٥) ينظر ديوان عنترة ص ١١٩، ومجمع البيان ١/ ٣٦٤، والمعلقات للزوزني ١٤٢، والبحر ٨/ ٣٩٨، والدر المصون ٦/ ٤٥٩.

(٦) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٠٦.

وقيل: القصر: جمع قصرة ـ ساكنة الصاد ـ مثل جمر وجمرة، وتمر وتمرة، والقصر: الواحدة من جزل الحطب الغليظ.

قال سعيد بن جبير، والضحاك: هي أصول الشجر والنخل العظام إذا وقع وقطع.

وقيل: أعناقه، شبّه الشرر بالجمال الصفر، وهي الإبل السود، والعرب تسمي السود من الإبل صفراً.

قال الشاعر: [الخفيف]

٥٠٦٥ ـ تِلْكَ خَيلِي منهُ وتِلْكَ رِكَابِي هُنَّ صُفْرٌ أولادُهَا كالزَّبِيبِ[١]

أي: هنّ سود، وإنما سميت السود من الإبل صفراً؛ لأنه يشوب سوادها شيء من صفرة.

قال الترمذي: وهذا القول ضعيف، ومحال في اللغة أن يكون من يشوبه شيء قليل فينسب كله إلى ذلك الشائب[٢]، فالعجب ممن قد قال هذا، وقد قال تعالى: ﴿جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ فلا نعلم شيئاً من هذا في اللغة. والجمالات: الجمال.

وقال الفراء: يجوز أن تكون الجُمَالات ـ بالضم ـ من الشي المجمل، يقال: أجملت الحساب، وجاء القوم جملة، أي مجتمعين.

والمعنى: أن هذا الشرر يرتفع كأنه شيء مجموع غليظ أصفر.

قيل: شبهها بالجمالات لسرعة سيرها.

وقيل: لمتابعة بعضها بعضاً.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ العامة على رفع «يوم» خبراً لـ «هذا»، أي تقول الملائكة: هذا يوم لا ينطقون.

ويجوز أن يكون قوله «انطَلِقُوا» من قول الملائكة ثم يقول الله لأوليائه: هذا يومُ لا ينطق الكافر، ومعنى اليوم السَّاعة والوقت.

وزيد بن علي، والأعرج، والأعمش، وأبو حيوة، وعاصم[٣] **في بعض طرقه**: بالفتحِ، وفيه وجهان:

أحدهما: أن الفتحة فتحة بناء، وهو خبر لـ «هذا» كما تقدم.

---

(١) تقدم. (٢) في ب: الشيء.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٢٠، والبحر المحيط ٨/ ٣٩٩، والدر المصون ٦/ ٤٥٩.

والثاني: أنه منصوب على الظرف واقعاً خبراً لـ «هذا» على أن يشار به لما تقدم من الوعيد، كأنه قيل: هذا العقاب المذكور كائن يوم لا ينطقون وقد تقدم آخر المائدة ما يشبه هذا في قوله تعالى: «هذا يَوْم يَنْفَع» إلا أن النصب هناك متواتر.

قوله: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ﴾ العامة: على عدم تسمية الفاعل. وحكى الأهوازي **عن زيد بن**[1] **علي**: «ولا يأذَنُ» سمى الفاعل، وهو الله تعالى.

وقوله: فيعتذرون». في رفعه وجهان:

أحدهما: أنه مستأنف، أي فهم يعتذرون.

قال أبو البقاء: ويكون المعنى: أنهم لا ينطقون نطقاً ينفعهم، أو ينطقون نطقاً في بعض المواقف ولا ينطقون في بعضها.

والثاني: أنه معطوف على «يؤذن» فيكون منفياً، ولو نصب لكان متسبباً عنه.

وقال ابن عطيَّة: «ولم ينصب في جواب النَّفْي لتشابه[2] رءوس الآي، والوجهان جائزان».

فظهر من كلامه أنهما بمعنى واحد، وليس كذلك بل المرفوع له معنى غير معنى المنصوب، وإلى هذا ذهب الأعلم إلى أن الفعل قد يرتفع ويكون معناه النصب، ورد عليه ابن عصفور.

قال الفرَّاء في قوله «ولا يُؤذَنُ لهُمْ فيَعْتَذِرُونَ»: الفاء نسق، أي عطف على «يؤذن»، وأجيز ذلك، لأن آخر الكلام بالنون، ولو قال: فيعتذروا، لم يوافق الآيات، وقد قال: «لا يقضى عليهم فيموتوا» [فاطر: ٣٦]، بالنصب، وكل صواب، ومثله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، بالرفع والنصب.

فصل في تخويف الكفار

هذا نوع آخر من أنواع تخويف الكفار، لأن الله ـ تعالى ـ بين أنه ليس لهم عذر ولا حجة فيما أتوا به من القبائح، ولا لهم قدرة على رفع العذاب عن أنفسهم، واعلم أن يوم القيامة له مواطن ومواقيت، فهذا من المواقيت التي لا يتكلمون فيها ولا يعتذرون.

روى عكرمة: أن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ سأله ابن الأزرق عن قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ و ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، وقد قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الطور: ٢٥]. فقال له: إن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٩٩، والدر المصون ٦/ ٤٦٠.

(٢) في ب: لمناسبة.

كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧] فإن لكل مقدار من هذه الأيام لوناً من هذه الألوان[١].

وقال الحسن: فيه إضمار، أي هذا يوم لا ينطقون فيه بحجة نافعة، ومن نطق بما لا ينفع ولا يفيد، فكأنه ما نطق، كما يقال لمن ذكر كلاماً غير مفيد: ما قلت شيئاً[٢]، وقيل: إن هذا وقت جوابهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

قال الفراء: أراد بقوله: «لا ينطقون» تلك الساعة، وذلك القدر من الوقت الذي لا ينطقون فيه، كما تقول: آتيك يوم يقدم فلان، والمعنى: ساعة يقدم، وليس باليوم كله؛ لأن القدوم إنما يكون في وقت يسير ولا يمتد في كل اليوم.

وأجاب ابن الخطيب[٣]: بأن قوله تعالى ﴿لَا يَنطِقُونَ ﴾ لفظ مطلق، والمطلق لا يفيد العموم لا في الأنواع، ولا في الأوقات، بدليل أنك تقول: فلان لا ينطق بالشر ولكنه ينطق بالخير، وتارة تقول: فلان لا ينطق شيئاً ألبتة، فهذا يدل على أن مفهوم «لا ينطق» مشترك بين الدائم والمؤقت، وإذا كان كذلك فمفهوم «لا ينطق» يكفي في صدقه عدم النطق ببعض الأشياء، وفي بعض الأوقات، وذلك لا ينافي حصول النطق بشيء آخر في وقت آخر، فيكتفى في صدق قوله: «لا يَنطِقُونَ» أنهم لا ينطقون بعذر وعلة في وقت واحد، وهو وقت السؤال.

فإن قيل: لو حلف لا ينطق في هذا اليوم حنث في قطعه في جزء منه. قلنا: ذلك لعرف الإيمان وبحثنا في عرف اللفظ من حيث هو.

قال ابن الخطيب[٤]: فإن قيل: قوله: «ولا يُؤذَنُ لهُم فيَعتَذِرُونَ» يوهم أن لهم عذراً، وقد منعوا من ذكره، وهذا لا يليق بالحكمة؟.

فالجواب: أن ليس لهم عُذْر في الحقيقة، ولكن ربما تخيلوا خيالاً فاسداً أن لهم فيه عذراً، فهم لا يؤذن لهم في ذكر ذلك العذر الفاسد.

قوله تعالى: ﴿هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَـٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَـٰكُمْ ﴾. هذا نوع آخر من أنواع تهديد الكفار وتخويفهم، أي: يقال لهم: هذا اليوم الذي يفصل فيه بين الخلائق، فيتبين المحق من المبطل.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/١٠٨) عن الحسن.
(٢) ينظر التخريج السابق.
(٣) ينظر الفخر الرازي ٣٠/٢٤٦.
(٤) ينظر الفخر الرازي ٣/٢٤٧.

﴿جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾.

قال ابن عباس: جمع الذين كذبوا محمداً ﷺ والذين كذبوا النبيين من قبله.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ أي: حيلة في الخلاص من العذاب «فَكِيدُونِ» أي: فاحتالوا لأنفسكم وفاء، ولن تجدوا ذلك[1].

وقيل: فإن كان لكم كيد أي إن قدرتم على حرب «فَكِيدُونِ» أي: حاربوني رواه الضحاك عن ابن عباس أيضاً، قال: يريد كنتم في الدنيا تحاربون محمداً وتحاربوني، فاليوم حاربوني.

وقيل: إنكم كنتم في الدنيا تعملون المعاصي، وقد عجزتم الآن عنها، وعن الدفع عن أنفسكم.

وقيل: إنه من قول النبي ﷺ فيكون كقول هود ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾.

قال مقاتل والكلبي: المراد[2] بالمتقين: الذين يتقون الشرك بالله تعالى؛ لأن السورة من أولها إلى آخرها في تقريع الكفار على كفرهم وتخويفهم[3].

قال ابن الخطيب[4]: فيجب أن تكون هذه الآية مذكورة لهذا الغرض، وإلا لتفككت السورة في نظمها وترتيبها، وإنما يتم النظم بأن يكون الوعد للمؤمنين بسبب إيمانهم، فأما من جعله بسبب الطاعة فلا يليق بالنظم، وأيضاً فإن المتقي للشرك يصدق عليه أنه متَّقٍ؛ لأن غاية هذا أنه عام مخصوص، فتبقى حُجَّة فيما عدا محل التخصيص، وأيضاً فأن يحمل اللفظ على المعنى الكامل أولى وأكمل أنواع التقوى تقوى الشرك، فالحمل عليه أولى.

---

(١) ينظر تفسير القرطبي (١٩/١٠٨) عن الحسن.

(٢) في أ: أراد.

(٣) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٠/٢٤٨) عن مقاتل والكلبي.

(٤) الفخر الرازي ٣٠/٢٤٩.

وقال بعضهم: هذه الآية أيضاً من جملة التهديد، فإن الكفار في الدنيا يكون الموت عليهم أسهل من أن يكون للمؤمنين دولة، فإذا رأوا عاقبة الفريقين في الآخرة تضاعف خسرانهم وندمهم، ولما أوعد الكفار بظل ذي ثلاث شعب، وعد المؤمنين بظلال وعيون وفواكه.

قوله: ﴿فِي ظِلَـٰلٍ﴾. هذه قراءة العامة.

والأعمش والزهري وطلحة[1] **والأعرج**: «ظُلَل» جمع ظلة، يعني في الجنة. وتقدم في «يونس»[2] مثل لها.

قوله: ﴿كُلُواْ﴾. معمولاً لقول ذلك المنصوب على الحال من الضمير المستكن في الظرف، أي كائنين في ظلال مقولاً لهم: وكذلك كلوا وتمتعوا قليلاً، فإن كان ذلك مقولاً لهم في الدنيا فواضح، وإن كان مقولاً في الآخرة فيكون تذكيراً بحالهم، أي حقاً بأن يقال لهم في دنياهم كذا؛ ومثله قوله: [المديد]

٥٠٦٦ ـ إخوتي لا تَبعَدُوا أبَداً وبَلَى، واللَّهِ قَدْ بَعِدوا[3]

أي هم أهل إن دعا لهم بذلك.

قوله ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. أي: نثيب الذين أحسنوا في تصديقهم بمحمد ﷺ وأعمالهم في الدنيا.

فصل في الكلام على الآية

اختلفوا في قوله ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ هل هو أمر أو إذن؟.

فقال أبو هاشم: هو أمر، وأراد الله تعالى منهم الأكل والشرب لأن سرورهم يعظم بذلك إذا علموا أن الله تعالى أراده منهم جزاء على عملهم، فكما يريد إجلالهم وإعظامهم بذلك، فكذلك يريد نفس الأكل والشرب منهم. وقال أبو علي: ليس بأمر وإنما يقوله على وجه الإكرام، والأمر والنهي إنما يحصلان في زمان التكليف لا في الآخرة.

فصل فيمن قال: العمل يوجب الثواب

تمسّك من قال: العمل يوجب الثواب بالباء في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قال ابن الخطيب[4]: وهذا ضعيف؛ لأن الباء للإلصاق، ولمَّا جعل هذا العمل

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٢٢، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٠، والدر المصون ٦/ ٤٦٠.

(٢) آية ٥٦.

(٣) البيت لفاطمة بنت الأحجم الخزاعية. ينظر الحماسة ١/ ٣٨٣، والمغني ١/ ٢١٠، والكشاف ٤/ ٦٨٢، والدر المصون ٦/ ٤٦٠.

(٤) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ٢٤٩.

علامة لهذا الثواب كان الإتيان بذلك كالآلة والصلة إلى تحصيل ذلك الثواب، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ المقصود منه تذكير الكفار بما فاتهم من النعيم العظيم ليعلموا أنهم لو كانوا من المتقين المحسنين لفازوا بمثل تلك الخيرات، فلما لم يفعلوا وقعوا فيما وقعوا فيه.

قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ هذا مردود إلى ما تقدم قبل المتقين وهو وعيد وتهديد، وهو حال من المكذبين، أي: الويل ثابت لهم في حال ما يقال لهم: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ أي كافرون.

وقيل: مكتسبون فعلاً يضركم في الآخرة من الشرك، فكأنه ـ تعالى ـ يقول للكافر: إنك في الدنيا عرضت نفسك لهذه الآفات التي وصفناها لمحبتك الدنيا، ورغبتك في طيباتها، إلا أن طيباتها قليلةٌ بالنسبة إلى تلك الآفات العظيمة، فالمشتغل بتعظيمها يجري مجرى لُقْمةٍ واحدة من الحلوى، وفيها السم المهلك، فإنه يقال لآكلها تذكيراً له ونصحاً: كُلْ هذا، وويلٌ لك منه بعدُ؛ فإنك من الهالكين بسببه، فهذا وإن كان في اللفظ أمر إلا أنه في المعنى نهيٌ بليغ وزجر عظيم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ﴾ وهذا نوع آخر من أنواع تخويف الكفار، أي: إذا قيل لهؤلاء المشركين: «ارْكَعُوا» أي: صلوا «لا يَرْكعُونَ» أي: لا يصلون. قاله مجاهد[1].

قال مقاتل: نزلت في ثقيف، حين امتنعوا من الصلاة فنزلت فيهم[2].

قال مقاتل: قال لهم النبي ﷺ: أَسْلِمُوا وأمرهم بالصلاة، فقالوا: لا نَنْحَنِي، فإنها مَسبَّة علينا فقال رسول الله ﷺ: «لا خَيْرَ في دِينٍ ليس فيهِ رُكوعٌ ولا سجُودٌ»[3].

وقال ابن عباس: إنما يقال لهم هذا في الآخرة حين يدعون إلى السجود[4] فلا يستطيعون.

وقال قتادة: هذا في الدنيا[5].

فصل في وجوب الركوع

قال ابن العربي: هذه الآية تدلّ على وجوب الركوع، وكونه ركناً في الصلاة، وقد انعقد الإجماع عليه.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٩٤) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٩٧) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٠٩).
(٣) أخرجه أبو داود (٢/ ١٧٨) كتاب الخراج والفيء والإمارة: باب ما جاء في خبر مكة رقم (٣٠٢٦) عن عثمان بن أبي العاص.
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٠٩ ـ ١١٠).
(٥) ينظر المصدر السابق.

وقال قوم: إن هذا إنما يكون في الآخرة، وليست بدار تكليف فيتوجه فيها أمر يكون عليه ويل وعقاب، وإنما يدعون إلى السجود كشفاً لحال الناس في الدنيا، فمن كان يسجد لله تمكن من السجود، ومن كان يسجد رياء لغيره صار ظهره طبقاً واحداً.

وقيل: إذا قيل لهم: اخضعوا للحق لا يخضعون، فهي عامّة في الصلاة وغيرها، وإنما ذكر الصلاة لأنها أصل الشرائع بعد التوحيد، والأمر بالصلاة أمر بالإيمان لا يصح من غير إيمان.

فصل في المراد بالآية

حكى ابن الخطيب[١] عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن المراد بقوله: «وإذا قيلَ لهم اركعُوا لا يَرْكعُونَ» هو الصلوات، قال: وهذا ظاهر، لأن الركوع من أركانها فبين أن هؤلاء الكفار من صفتهم أنهم إذا دعوا إلى الصلاة لا يصلون، وهذا يدل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة[٢]، وأنهم حال كفرهم يستحقُّون الذم والعقاب بترك الصلاة، لأن الله ـ تعالى ـ ذمهم حال كفرهم على ترك الصلاة.

فصل في أن الأمر للوجوب

استدلوا بهذه الآية على أن الأمر للوجوب، لأن الله ـ تعالى ـ ذمهم بمحمود ترك المأمور به، وهذا يدل على أن مجرد الأمر للوجوب.

فإن قيل: إنما ذمهم لكفرهم.

فالجواب: أنه ـ تعالى ـ ذمهم على كفرهم من وجوه، إلا أنه ـ تعالى ـ إنما ذمهم في هذه الآية لترك المأمور به؛ فدل على أن ترك المأمور به غير جائز.

قوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾. متعلق بقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾.

والعامة: على الغيبة، **وقرأ ابن عامر في رواية ويعقوب**[٣]: بالخطاب على الالتفات، أو على الانفصال.

فصل في الكلام على الآية

قال ابن الخطيب[٤]: اعلم أنه تعالى لما بالغ في زجر الكفار من أول هذه السورة إلى آخرها في الوجوه العشرة المذكورة، وحثَّ على التمسُّك بالنظر والاستدلال، والانقياد للدين الحق، ختم السورة بالتعجُّب من الكفار، وبين أنهم إذا لم يؤمنوا بهذه

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٢٥٠. (٢) في أ: الشرائع.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٢٢، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٠، والدر المصون ٦/ ٤٦٠.

(٤) الفخر الرازي ٣٠/ ٢٥٠.

الدلائل العقلية[١] بعد تجليتها ووضوحها، ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾.

قال القاضي: هذه الآية تدلّ على أن القرآن محدث؛ لأن الله ـ تعالى ـ وصفه بأنه حديث، والحديث ضد القديم، والضدان لا يجتمعان، فإذا كان حديثاً وجب ألاَّ يكون قديماً.

وأجيب: بأن المراد منه هذه الألفاظ، ولا نزاع في أنها محدثة.

روى الثعلبي عن أبيٍّ بن كعبٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ سُورةَ «المُرسَلاتِ» كُتِبَ أنَّهُ لَيْسَ مِنَ المُشْرِكينَ»[٢].

---

(١) في أ: اللطيفة.

(٢) تقدم تخريجه.

سورة النبأ

مكية، وهي أربعون أو إحدى وأربعون آية، ومائة وثلاثة وسبعون كلمة، وسبعمائة وسبعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ (١) عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ (٢) ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣)﴾

قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ قد تقدم أن البزي يدخل هاء[1] السكت عوضاً من ألف «ما» الاستفهامية في الوقف.

ونقل عن ابن كثير[2] أنه يقرأ «عمه» ـ بالهاء ـ وصلاً، أجرى الوصل مجرى الوقف.

وقرأ عبد الله، وأبي، وعكرمة وعيسى[3]: «عمّا» بإثبات الألف، وقد تقدم أنه يجوز ضرورة وفي قليل من الكلام؛ ومنه قوله: [الوافر]

٥٠٦٧ ـ عَلَى ما قَامَ يَشْتُمنِي لَئِيمٌ كَخِنْزِيرٍ تَمَرَّغَ فِي رَمَادِ[4]

وتقدم أن الزمخشري جعل منه ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ [يس: ٢٧] في «يس»، و «عم» فيه قولان:

أظهرهما[5]: أنه متعلق بـ «يتَساءَلُون».

قال أبو إسحاق: الكلام تام في قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، ثم كان مقتضى القول أن يجيب مجيب، فيقول: يتساءلون عن النبأ العظيم فاقتضى إيجاز القرآن، وبلاغته أن يبادر المحتجّ بالجواب الذي يقتضيه الحال والمجاورة اقتضاءً بالحجة، وإسراعاً إلى موضع قطعهم.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٢٣، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٢، والدر المصون ٦/ ٤٦١.

(٢) ينظر: السابق، والكشاف ٤/ ٦٨٤.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٢٣، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٢، والدر المصون ٦/ ٤٦١.

(٤) تقدم.

(٥) في أ: أحدهما.

والثاني: أنه متعلق بفعل مقدر، ويتعلق «عن النبأ العظيم» بهذا الفعل الظاهر.

قال الزمخشري: «وعن ابن كثير: أنه قرأ «عمّه» بهاء السكت، ولا يخلو إما أن يجري الوصل مجرى الوقف، وإما أن يقف، ويبتدىء بـ «يتساءلون عن النبأ العظيم» على أن يضمر «يتساءلون»؛ لأن ما بعده يفسره كشيء مبهم ثم يفسر».

فصل في لفظ عم

قال ابن الخطيب[١]: «عم» أصله: «عن ما»؛ لأنه حرف جر دخل على «ما» الاستفهامية.

قال حسان بن ثابت: [الوافر]

٥٠٦٨ ـ عَلَى مَا قَامَ يَشْتُمُنِي لَئِيمٌ ....[٢]

والاستعمال الكثير على الحذف، وعلى الأصل قليل، وذكروا في سبب الحذف وجوهاً:

أحدها: قال الزجاج: لأن الميم تشرك النون في الغُنَّة في الأنف فصارا كالحرفين المتماثلين.

وثانيها: قال الجرجاني: أنهم إذا وضعوها في استفهام حذفوا ألفها تفرقةً بينها وبين أن يكون اسماً، كقولهم: فيمَ ولِمَ وبِمَ وحتام.

وثالثها: قالوا: حذفت الألف لاتصال «ما» بحرف الجر حتى صارت كالجزء منه لينبىء عن شدة الاتصال.

ورابعها: حذف للتخفيف في الكلام، فإنه لفظ كثير التَّرداد على اللسان.

فصل في أن السائل والمجيب هو الله تعالى

قال ابن الخطيب[٣]: قوله تعالى ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ سؤال، وقوله: «عن النبأ العظيم» جواب، والسائل والمجيب هو الله تعالى، وذلك يدلّ على علمه بالغيب، بل بجميع المعلومات، وفائدة ذكره في معرض السؤال والجواب؛ لأنه أقرب إلى التفهيم والإيضاح، ونظيره قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

فصل في لفظ ما

«ما» لفظة وضعتْ لطلب ماهيَّات الأشياء، وحقائقها، تقول: ما الملك؟ وما

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣١/٣. (٢) تقدم.
(٣) ينظر الفخر الرازي ٣١/٣.

الروح؟ وما الجن؟ والمراد طلب ماهياتها، وشرح حقائقها، وذلك يقتضي كون ذلك المطلوب مجهولاً، ثم إنَّ الشيء العظيم الذي يكون لفظه مزيَّة يعجز العقل عن أن يحيط بكنهه كأنه مجهول، فحصل بين الشيء المطلوب، وبين الشيء العظيم مشابهة من هذا الوجه، فلذلك سُئل عنه بما استعارة، وكأنه مجهول، ومنه ﴿ٱلْحَآقَّةُ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١، ٢]، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ [المطففين: ٨]، و ﴿مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ [البلد: ١٢] وشبهه.

فصل

قال الفراء: السؤال هو أن يسأل بعضهم بعضاً كالتقابل، وقد يستعمل أيضاً في أن يتحدثوا به، وإن لم يكن بينهم سؤال، قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾ [الصافات: ٥٠، ٥١] الآية، وهذا يدل على التحدث.

فصل في نزول الآية

والضمير في ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ لـ «قريش».

روى أبو صالح عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: كانت قريش تجلس لمَّا نزل القرآن، فتتحدث فيما بينهم، فمنهم المصدقُ، ومنهم المكذبُ به، فنزلت ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾[1].

وقيل: «عم» قسم، فشدد المشركون أين يختصمون، بدليل قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ وهذا تهديد، والتهديد لا يليق إلا بالكفار.

فإن قيل: فما تصنع بقوله: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ مع أنَّ الكفَّار كانوا متفقين في إنكار الحشر؟ فالجواب: لا نسلم اتفاقهم في إنكار الحشر؛ لأن منهم من كان يثبت المعاد الروحاني، وهم جمهور النصارى، وأما المعاد الجسماني، فمنهم من كان شاكًّا فيه لقوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [فصلت: ٥٠] ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

ومنهم من ينكرهُ، ويقول: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

ومنهم من يُقرُّ بهِ لكنه ينكر نبوَّة محمد ﷺ فقد حصل اختلافهم.

وأيضاً فهبْ أنَّهم كانوا منكرين له، لكن لعل اختلافهم في كيفية إنكاره، فمنهم من أنكر؛ لإنكاره الصانع المختار، ومنهم من ينكره؛ لاعتقاده أنَّ إعادة المعدوم ممتنعة لذاتها، والقادر المختار إنما يكون قادراً على الممكن في نفسه.

وقيل: الضمير في «يتَساءَلُونَ» هم الكفَّار والمؤمنون كانوا جميعاً يتساءلون عنه،

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١١١) من طريق أبي صالح عن ابن عباس.

فأما المسلمُ فيزداد يقيناً وبصيرةً في دينه، وأمَّا الكافر فاستهزاءً وسخريةً، وعلى سبيل إيراد الشكوك، والشُّبهاتِ.

قال ابن الخطيب[١]: ويحتملُ أنهم يسألون الرسول ﷺ ويقولون: ما هذا الذي تعدنا به من أمر الآخرة؟.

قوله: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ﴾ يجوز فيه ما جاء في قوله تعالى: ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾ في البدليَّة، والتعلُّق بفعلٍ مقدرٍ، ويزيد عليه هاهنا أنَّه يتعلق بالفعل الظاهر، ويتعلق ما قبله بمضمرٍ كما تقدم عن الزمخشري.

وقال ابن عطية: قال أكثر النحاة: «عن النَّبأ العَظيم» يتعلق بـ «يَتسَاءلُونَ» الظاهر كأنه قال: لم يتساءلون عن النبأ، وقوله: «عَمَّ» هو استفهامَ توبيخ وتعظيم.

وقال المهدوي: «عن» ليس تتعلق بـ «يتساءَلُونَ» الذي في التلاوة؛ لأنه كان يلزمُ دخول حرف الاستفهام، فيكون «أعن النبأ العظيم»؟ كقولك: كم مالك أثلاثون أم أربعون؟ فوجب لما ذكرنا امتناع تعلقه بـ «يتساءلون» الذي في التلاوة، وإنما يتعلق بـ «يتساءلون» آخر مضمر، وحسُن ذلك لتقدم «يَتسَاءلُونَ».

قال القرطبي[٢]: «وذكر بعضهم أن الاستفهام في قوله: «عن» مكرر إلا أنَّه مضمر كأنه قال: «عمَّ يَتسَاءلُون أعنِ النَّبأ العَظيم»، فعلى هذا يكون متصلاً بالآية الأولى، والنبأ العظيم، أي: الخبر الكبير، «الذي هم فيه مختلفون» أي: يخالف فيه بعضهم بعضاً فيصدقُ واحدٌ ويكذبُ آخر».

قوله: ﴿مُخۡتَلِفُونَ﴾ خبر «هم» والجار متعلق بـ «هم»، والموصول يحتمل الحركات الثلاث إتباعاً وقطعاً رفعاً ونصباً.

فصل في المراد بهذا النبأ

قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ «النَّبأُ» هو القرآن[٣]، قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ﴾، فالقرآن نبأ وخبر وقصص، وهو نبأ عظيم، وكانوا يختلفون فيه، فجعله بعضهم سحراً، وبعضهم شعراً، وبعضهم قال: أساطيرُ الأولين.

وقال قتادة: هو البعث بعد الموت اختلفوا فيه، فمصدِّق ومكذِّب، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾[٤] [النبأ: ١٧].

---

(١) الفخر الرازي: ٣١/ ٤.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١١١.
(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٩٨)، وعزاه إلى ابن مردويه عن ابن عباس.
(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٩٦)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٩٨)، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه أَمْرُ النبي ﷺ؛ لأنه لما بعث سأله اليهود عن أشياء كثيرة، فأخبره الله باختلافهم، وأيضاً فجعل الكفار يتساءلون فيما بينهم، ما هذا الذي حدث؟ فأنزل الله ـ تعالى ـ «عَمَّ يتسَاءَلُون» وذلك أنَّهُم عجبُوا من إرسال محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢]، وعجبوا أن جاءهم بالتوحيد أيضاً كما قال تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، فحكى الله ـ تعالى ـ عن مسألة بعضهم بعضاً على سبيل التعجب بقوله: «عم يتساءلون».

قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾

قوله: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾؛ التكرار للتوكيد.

وزعم ابن مالك: أنَّه من باب التوكيد اللفظي، ولا يضر توسّط حرف العطف، والنحويون يأبون هذا، ولا يسمونه إلا عطفاً وإن أفاد التأكيد، والعامة: على الغيبة في الفعلين.

والحسن وابن دينار(١) **وابن عامر بخلاف عنه** بتاء الخطاب فيهما.

والضحاك(٢): قرأ الأول كالحسن، والثاني كالعامة. والغيبة والخطاب واضحان.

فصل في لفظ كلا

قال القفالُ(٣): «كلا» لفظة وضعت للردع، والمعنى: ليس الأمر كما يقوله هؤلاء في النبأ العظيم، إنه باطل، وإنه لا يكون.

وقيل: معناه: حقًا، ثم إنه ـ تعالى ـ كرر ذلك الردع والتهديد، فقال سبحانه ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ وهو وعيدٌ بأنهم سوف يعلمون أنَّ ما يتساءلون عنه ويضحكون منه حق لا دافع له، وأما تكرير الردع، فقيل: للتأكيد، ومعنى «ثُمَّ» الإشعار بأن الوعيد الثاني أبلغ من الوعيد الأول وأشد.

وقيل: ليس بتكرير.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٢٣، والدر المصون ٦/ ٤٦٢، وينظر الحجة ٦/ ٤٦٧.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٠٣، والدر المصون ٦/ ٤٠٢.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٥.

قال الضحاك: الأولى للكفار، والثانية للمؤمنين أي: سيعلم الكفار عاقبة تكذيبهم، وسيعلم المؤمنون عاقبة تصديقهم[١].

وقال القاضي: يحتمل أن يريد بالأول سيعلمون معنى العذاب إذا شاهدوه، وبالثاني: سيعلمون العذاب.

وقيل: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ما الله فاعل بهم يوم القيامة ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الأمر ليس كما كانوا يتوهَّمون من أن الله غير باعث لهم.

قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ لمَّا حكى الله ـ تعالى ـ عنهم إنكار البعث والحشر، وأراد إقامة الدلائل على صحة الحشر قدم لذلك مقدمة في بيان كونه ـ تعالى ـ قادراً على جميع الممكنات عالماً بجميع المعلومات؛ لأنه إذا ثبت هذان الأصلان ثبت القول بصحة البعث، فأثبت هذين الأصلين بأن عدَّد أنواعاً من مخلوقاته المتقنةِ المحكمة؛ فإنَّ هذه الأشياء من جهة حدوثها تدل على القدرة، ومن جهة إحكامها وإتقانها تدل على العلم، وإذا ثبت هذان الأصلان، وثبت أن الأجسام متساوية في قبول الصفات والأعراض ثبت لا محالة كونه قادراً على تخريب الدنيا بسمواتها وكواكبها وأرضها، وعلى إيجاد عالم الآخرة، فهذا وجه النظم.

قوله: «مِهَاداً». مفعول ثان؛ لأنَّ الجعل بمعنى التصيير، ويجوز أن يكون بمعنى الخلق، فتكون «مِهَاداً» حالاً مقدرة.

وقرأ العامة: «مهاداً».

ومجاهد وعيسى[٢] **وبعض الكوفين** «مهداً»، وتقدمت هاتان القراءتان في سورة «طه»، وأن الكوفيين قرأوا «مهداً» في «طه» و «الزخرف» فقط، وتقدم الفرق بينهما ثمَّة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾، والكلام عليها كالكلام في «مِهَاداً» في المفعوليَّة والحاليَّة، ولا بُدَّ من تأويلها بمشتق أيضاً، أي مثبتات.

والمهاد: الوطاء، وهو الفراش، لقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢]، ومعنى «مَهْداً» أي: كمهدِ الصَّبي، وهو ما يمهد للصبي فينوّم عليه، و «أوتاداً» أي: لتسكن ولا تميل بأهلها.

قوله: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾. أي: أصنافاً، ذكراً وأنثى.

وقيل: ألواناً.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٩٧)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٩٩)، عن الضحاك.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٢٤، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٣، والدر المصون ٦/ ٤٦٢.

وقيل: يدخل كل زوجٍ بهيج، وقبيح، وحسن، وطويل وقصير، لتختلف الأحوال، فيقع الاعتبار.

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ الظاهر أنَّه مفعول ثانٍ، ومعناه: راحةً لأبدانكم، ومنه السبتُ أي: يوم الراحة، أي: قيل لبني إسرائيل: استريحوا في هذا اليوم، ولا تعملوا فيه شيئاً.

وأنكر ابن الأنباري هذا، وقال: لا يقال للراحة: سباتاً.

وقيل: أصله التمدُّد، يقال: سبتت المرأة شعرها: إذا حلَّته وأرسلته، فالسُّبات كالمد، ورجل مسبوتُ الخلق: أي ممدود، وإذا أراد الرجل أن يستريح تمدد، فسميت الراحة سبتاً.

وقيل: أصله القطع، يقال: سبت شعره سبتاً، أي: حلقه، وكأنه إذا نام انقطع عن الناس، وعن الاشتغالِ، فالسُّبات يشبه الموت، إلا أنه لم تفارقه الروح، ويقال: سيرٌ سبتٌ، أي سهلٌ ليِّن.

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾. فيه استعارة حسنة؛ وعليه قول المتنبي: [الطويل]

٥٠٦٩ ـ وكَمْ لِظَلامِ اللَّيْلِ عِندكَ من يَدٍ تُـخَـبِّـرُ أنَّ الـمـانـويَّـة تَـكـذِبُ[1]

والمعنى: يُلبسُكُمْ ظُلْمتَهُ وتَغْشاكُمْ. قاله الطبري، قال القفال[2]: أصل اللباس هو الشيء الذي يلبسه الإنسان، ويتغطَّى به، فيكون ذلك مُغَطِّياً، فلمَّا كان الليل يغشى الناس بظلمته جعل لباساً لهم، فهلذا سمي الليل لباساً على وجه المجاز، ووجه النعمة في ذلك هو أنَّ ظلمة الليل تستر الإنسان عن العيون إذا أراد هرباً من عَدُو، أو إخفاء ما لا يجب اطِّلاع غيره عليه.

وقال ابن جبير والسدي: أي: أسْكنَّاكُمْ.

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾. فيه إضمار، أي: وقت معاش، فيكون مفعولاً، وظرفاً للتبعيض، أي: منصرفاً لطلب المعاش، وهو كل ما يعاش به من المطعم، والمشربِ وغير ذلك، فـ «مَعَاشاً» على هذا اسم زمان ليكون الثاني هو الأول، ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى العيش على تقدير حذف مضاف، يقال: عاش يعيش عيشاً ومعاشاً ومعيشةً، ومعنى كون النهار معيشة أن الخلق إنما يمكنهم التقلب في حوائجهم ومكاسبهم في النهار.

قوله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾. أي: سبع سماوات محكمات، أي: محكمة الخلق وثيقة البنيان.

---

(١) ينظر ديوانه ٢/ ٢٢٩، والكشاف ٤/ ٦٨٥، والدر المصون ٦/ ٤٦٢.

(٢) ينظر الفخر الرازي ٣١/ ٧.

وشداداً: جمع شديدة، أي: قوية لا يؤثِّر فيها مرور الأزمان[١] لا فطور فيها ولا فروج، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾. أي: وقَّاداً، وهو الشمس، و «جَعَل» هنا بمعنى «خلق»؛ لأنها تعدت لمفعول واحد، والوهَّاج: المُضيء المتلألىء، من قولهم: وهج الجوهر أي: تلألأ.

وقيل: الوهَّاج: الذي له وهج، يقال: وَهَجَ يَوْهَجُ، كـ «وحَلَ يَوحَلُ»، «ووهَجَ يَهِجُ» كـ «وَعَدَ يَعِدُ» وهجاً.

قال ابن عباس: وهَّاجاً: منيراً أي: مُتلألئاً[٢].

قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾. يجوز في «من» أن تكون على بابها من ابتداءِ الغاية، وأن تكون للسببية، **وتدل عليه قراءة عبد الله[٣] بن زيد وعكرمة وقتادة:** «بالمعصرات» بالباء بدل «من»، وهذا على الخلاف في «المعصرات» ما المراد بها، فعن ابن عباس: أنها السَّحاب، وهو قول سفيان والربيع وأبي العالية والضحاك، أي: السحاب التي تنعصر بالماء، ولم تمطر بعد كالمرأة المُعْصِر التي قد دَنَا حيْضُهَا ولمْ تَحِضْ، يقال: أعْصرتِ السَّحابُ، أي: جاء وقت أن يعصرها الرياح فتمطر، كقولك: أجز الزرع، إذا جاز له أن يجز؛ وأنشد ابن قتيبة لأبي النَّجْم: [الرجز]

٥٠٧٠ ـ تَمْشِي الهُوَيْنَى مَائِلاً خِمارُهَا   قَدْ أعْصَرتْ وقَدْ دَنَا إعْصَارُهَا[٤]

ولولا تأويل «أعْصرَتْ» بذلك لكان ينبغي أن تكون «المُعصَرات» ـ بفتح الصَّاد ـ اسم مفعول؛ لأن الرياح تعصرها.

وقال الزمخشري: «وقرأ عكرمة: «بالمعصرات».

وفيه وجهان:

أحدهما: أن تراد الرياح التي حان لها أن تعصر السحاب، وأن تراد السحائب؛ لأنه إذا كان الإنزال منها، فهو بها كما تقول: أعطى من يده درهماً، وأعطى بيده.

وعن ابن عباس ومجاهد: «المعصرات» الرياح ذوات الأعاصيرِ كأنها تعصر السحاب.

---

(١) في ب: الزمان.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٩٨)، عن ابن عباس بمعناه وعن مجاهد مثله.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٩٩)، وعزاه إلى أبي الشيخ في «العظمة».

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٦٨٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٢٤، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٤.

(٤) يروى: «ساقطاً خمارها» مكان «مائلاً خمارها».
وقد نسب البيت إلى منظور بن مرثد الأسدي. ينظر ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٧٢، وسمط اللآلىء ٢/ ٦٨٤، واللسان (عصر)، والدر المصون ٦/ ٤٦٢، والقرطبي ١٩/ ١١٣.

وعن الحسن وقتادة: هي السماوات وتأويله: أن الماء ينزل من السماء إلى السَّحاب، وكأنَّ السماوات يعصرن، أي: يحملن على العصر، ويمكن منه.

فإن قلت: فما وجه من قرأ «من المعصراتِ» وفسرها بالرياح ذوات الأعاصير، والمطرُ لا ينزل من الرياح؟.

قلت: الرياح هي التي تُنشِىءُ السَّحاب، وتدرُّ أخلافه، فصحَّ أن تجعل مبدأ للإنزال، وقد جاء: إنَّ اللَّه تبارك وتعالى يَبعثُ الرِّياح فتَحْمِلُ المَاءَ من السَّماءِ إلى السَّحابِ.

فإن صحَّ ذلك فالإنزال منها ظاهر.

فإن قلت: ذكر ابن كيسان أنه جعل «المعصرات» بمعنى المُغيثَات، والعاصر المغيث لا المعصر، يقال: عصره فاعتصر.

قلت: وجهه أن يريد اللاتي أعصرت، أي: حان لها أن تعصر، أي: تغيث.

يعني أن «عصر» بمعنى الإغاثة: ثلاثي، فكيف قال هنا: «معصرات» بهذا المعنى وهو من الرباعي؟.

فأجابه عنه بما تقدم، يعني: أن الهمزة بمعنى الدخول في الشيء.

قال القرطبي[١]: «ويجوز أن تكون الأقوال واحدة، ويكون المعنى: وأنزلنا من ذوات الرياح المعصرات ﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾، وأصح الأقوال أن المعصرات: السحاب، كذا المعروف أن الغيث منها، ولو كان «بالمعصرات» لكان الريح أولى».

وفي «الصِّحاح»[٢]: والمعصرات: السحائب تعصر بالمطر، وأعصر القوم أي: مطروا، ومنه قراءة بعضهم: «وفيه تُعْصَرُون» [يوسف: ٤٩]، والمعصر: الجارية التي قربتْ سنَّ البلوغ، والمعصر: السحابة التي حان لها أن تمطر، فقد أعصرت، ومنه «العَصَرُ» ـ بالتحريك ـ للملجأ الذي يلجأ إليه، والعصرُ ـ بالضم ـ أيضاً: الملجأ؛ وأنشد أبو زيد: [الخفيف]

٥٠٧١ ـ صَادِياً يَسْتَغِيثُ غَيرَ مُغاثٍ وَلَقَدْ كَانَ عُصْرَةَ المَنْجُودِ[٣]

قوله: ﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾. الثَّجُّ: الانصبابُ بكثرةٍ وبشدةٍ.

وفي الحديث: «أحَبُّ العملِ إلى اللَّهِ العَجُّ والثَّجُّ»[٤].

فالعَجُّ: رفع الصوت بالتلبية.

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١١٣. (٢) ينظر: الصحاح ٢/ ٧٥٠.
(٣) تقدم. (٤) تقدم.

والثَّجُّ: إراقة دماءِ حجج الهدي، يقال: ثجَّ الماء بنفسه، أي: انصبَّ، وثَجَجْتُه أنا: أي: صَبَبْتُه ثجًا وثُجُوجاً، فيكون لازماً ومتعدياً؛ وقال الشاعر: [الطويل]

٥٠٧٢ ـ إذَا رَجَفَتْ فِيهَا رَحاً مُرْجَحِنَّةٌ تَبَعَّقَ ثَجَّاجاً غَزِيرَ الحَوافِلِ[(١)]

وقرأ الأعمش[(٢)]: «ثَجّاحاً» ـ بالحاء المهملة ـ أخيراً.

قال الزمخشريُّ: «ومثاجح الماء: مصابُّه، والماء يثجح في الوادي».

وكان ابن عبَّاس مثجًا، يعني: يثج الكلام ثجًا في خُطبته.

قوله تعالى: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء «حَبًّا» كالحِنطَةِ والشعير وغير ذلك.

«ونَبَاتاً» من الإنبات، وهو ما تأكله الدواب من الحشيش.

«وجَنَّاتٍ» أي: بساتين «أَلْفَافاً» أي: مُلتفًا بعضها ببعض كتشعيب أعضائها.

وفي الألفاف وجوه:

أحدها: أنه لا واحد له.

قال الزمخشريُّ: «أَلْفافاً»: مُلتفَّة، ولا واحد له كـ «الأوزاع» والأَخْيَاف.

والثاني: أنَّه جمعُ «لِفٍّ» ـ بكسر اللام ـ فيكون نحو: «سِرّ وأسرار»؛ وأنشد أبو عليٍّ الطوسِيُّ: [الرمل]

٥٠٧٣ ـ جَنَّةٌ لِفٌّ وعَيْشٌ مُغْدِقٌ ونَدامَى كُلُّهُمْ بِيضٌ زُهُرْ[(٣)]

وهذا قول أكثر أهل اللغة، ذكره الكسائي.

الثالث: أنه جمع «لَفِيفٍ». قاله الكسائي، وأبو عبيدة كـ «شريف» و «أشراف»، و «شهيد» و «أشهاد»؛ قال الشاعر: [الطويل]

٥٠٧٤ ـ أَحَابِيشُ أَلْفَافٍ تَبايَنَ فَرْعهُمْ وحَزْمُهُمُ عَنْ نِسْبَةِ المُتَعَرِّفِ[(٤)]

الرابع: أنَّه جمعُ الجمعِ، وذلك أنَّ الأصل: «لُفّ» في المذكر، و «لَفَّاء» في المؤنث كـ «أحْمَر وحَمْرَاء»، ثُمَّ جمع «لُف» على «ألفاف» إذ صار «لف» زنة «فعل» جمع جمعه قاله ابن قتيبة.

إلا أنَّ الزمخشري قال: وما أظنه واجداً له نظيراً من نحوْ: «خضر وأخضار، وحمر وأحمار».

---

(١) ينظر اللسان (وجف)، (رجحن)، و(حول)، والبحر ٨/ ٤٠٢، والدر المصون ٦/ ٤٦٣.

(٢) وقرأ بها الأعرج ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٠٤، والكشاف ٤/ ٦٨٦، والدر المصون ٦/ ٤٦٣.

(٣) ينظر الكشاف ٤/ ٦٨٧، والقرطبي ١٩/ ١١٤، والبحر ٨/ ٤٠٤، والدر المصون ٦/ ٤٦٣.

(٤) ينظر الدر المصون ٦/ ٤٦٣.

قال شهاب الدين(١): كأنه يستبعد هذا القول من حيث إنَّ نظائرهُ لا تجمع على «أفْعَال» إذ لا يقال: «خضر ولا حمر»، وإن كانا جمعين لـ «أحمر وحمراء، وأخضر وخضراء»، وهذا غير لازم؛ لأن جمع الجمع لا ينقاس، ويكفي أن يكون له نظير في المفردات، كما رأيت من أن «لفّاء» صار يضارع «فَعْلاء»، ولهذا امتنعوا من تكسير «مفَاعِل ومفَاعِيل» لعدم نظيره في المفردات يحملان عليه.

الخامس: قال الزمخشريُّ: «ولو قيل: هو جمع: «ملتفّة» بتقدير حذف الزوائد لكان قولاً وجيهاً».

وهذا تكلُّف لا حاجة إليه.

وأيضاً: فغالب عبارات النحاة في حذف الزوائد إنما هو في التصغير، يقولون: تصغير الترخيم بحذف الزوائد، وفي المصادر يقولون: هذا المصدر على حذف الزوائد.

قال القرطبي(٢): ويقال: شجرة لفَّاء، وشجر لفٌّ، وامرأة لفَّاء: أي: غليظةُ السَّاقِ مجتمعة اللحم.

وقيل: التقدير: ونُخرجُ به جنَّاتِ ألفافاً، ثم حذف لدلالة الكلام عليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾. أي: وقتاً ومجمعاً وميعاداً للأولين والآخرين؛ لما وعد اللَّهُ الجزاء والثواب، وسمِّي يوم الفصل؛ لأنَّ الله ـ تعالى ـ يفصل فيه بين خلقهِ.

قوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ﴾. يجوز أن يكون بدلاً من «يَوْمِ الفَصْلِ»، أو عطف بيان له، أو منصوباً بإضمار «أعني».

و «أفواجاً» حال من فاعل «تَأْتُونَ».

وقرأ أبو عياض(٣): «في الصُّوَرِ» بفتح الواو وتقدم مثله.

فصل في النفخة الآخرة

هذا النفخ هو النفخة الأخيرة التي عندها يكون الحشر، وهذا هو النفخ للأرواح.

وقيل: هو قَرْنٌ يُنْفَخُ فيه للبعث.

---

(١) ينظر الدر المصون ٦/ ٤٦٣. (٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١١٤.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٢٥، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٤، والدر المصون ٦/ ٤٦٤.

«فتأتون» أي: إلى موضع العرض.

«أفْواجاً» أي: أمَماً كُل أمَّةٍ مع إمامهم.

روى معاذُ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ قلت: يا رسول الله، أرأيت قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، فقال رسول الله ﷺ: «يَا مُعَاذُ، لَقَدْ سَألْتَنِي عَنْ أمْرٍ عَظيْمٍ»، ثم أرسل عينيه باكياً ـ ثم قال عليه الصلاة والسلام: «يُحْشَرُ عَشَرَةُ أصْنافٍ مِنْ أمَّتِي أشْتَاتاً قَدْ مَيَّزهمُ اللَّهُ ـ تَعَالَى ـ مِنْ جَماعَاتِ المُسْلِمِيْنَ وبَدَّلَ صُورَهُمْ، فَمِنْهُمْ على صُورةِ القِرِدَةِ، وبَعْضُهُمْ عَلى صُورَةِ الخَنازِيْرِ، وبَعْضُهُمْ مُنَكَّسِيْنَ أرْجُلهُمْ أعلاهُمْ وَوُجُوهُمْ يُسْحَبُونَ عليْهَا، وبعضُهمْ عُمْياً، وبَعْضهُم صُمًّا، وبَعْضُهُمْ يَمْضُغُونَ ألْسنَتَهُمْ فَهِيَ مُدَلاَّةٌ على صُدورِهِمْ، يَسِيلُ القَيْحُ مِنْ أفْواهِهِم، يَتقذَّرهمُ الجَمْعُ، وبَعْضهُمْ مُقطَّعَةٌ أيْدِيهِمْ وأرْجُلهمْ مُصَلَّبين على جذُوعٍ مِنْ نَارٍ، وبَعضُهمْ أشَدُّ نَتْناً مِنَ الجِيفِ، وبَعْضُهمْ مُلْبَسِينَ جَلابِيْبَ لاصقةً بِجلوْدهِمْ، فَأمَّا الذينَ على صُورةِ القِرِدَةِ: فالقَتَّاتُ مِنَ النَّاسِ ـ يَعْنِي: النَّمَّامَ ـ وأمَّا الَّذينَ عَلى صُورةِ الخَنازِيْرِ فأهْلُ السُّحْتِ والحَرام والمَكْسِ، وأمَّا المُنكسُونَ رُءوسَهُمْ وَوُجوهمْ فأكلَةُ الرِّبَا، وأمَّا العُمْيُ: فالَّذيْنَ يَجُورُونَ في الحُكْمِ، وأمَّا الصُّمُّ البُكْمُ: فالمُعْجَبُونَ بأعْمالِهِمْ، وأمَّا الَّذينَ يَمْضُغُونَ ألْسِنتَهُمْ، فالعُلَماءُ الَّذينَ يُخَالفُ قَوْلهُم فِعلهُمْ، وأمَّا الَّذينَ قُطِعَتْ أيْديهِمْ وأرْجُلهُمْ فالَّذينَ يُؤذُوْنَ الجِيرانَ، وأمَّا المُصَلَّبُونَ فِي جُذوْعِ النَّارِ، فالسُّعاة بالنَّاسِ إلى السُّلطانِ، وأمَّا الَّذينَ أشَدُّ نَتْناً مِنَ الجِيَفِ، فالَّذينَ يَتَّبعُونَ الشَّهواتِ واللَّذَّاتِ، ويَمْنعُونَ حَقَّ اللَّهِ فِي أمْوالِهِمْ، وأمَّا الَّذينَ يَلْبِسُونَ الجَلابِيْبَ فأهْلُ الكِبْرِ والفَخْرِ والخُيَلاءِ»[1].

قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾.

قرأ أبو عامر وحمزة والكسائي: «فُتِحَتْ» خفيفة، والباقون[2] بالتثقيل.

والمعنى: كُسرتْ أبوابها المفتَّحةُ لنزول الملائكة كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

وقيل: تقطَّعت، فكانت قطعاً كالأبواب، فانتصاب الأبواب على هذا بحذف الكاف.

وقيل: التقدير: كانت ذات أبواب؛ لأنها تصير كلها أبواباً.

وقيل: أبوابها: طرقها.

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٠١)، وعزاه إلى ابن مردويه عن البراء بن عازب أن معاذ بن جبل الخ.

(٢) ينظر: السبعة ٦٦٨، والحجة ٦/ ٣٦٨، وإعراب القراءات ٢/ ٤٣١، وحجة القراءات ٧٤٥.

وقيل: إنَّ لكل عبد باباً في السماء لعمله، وباباً لرزقه، فإذا قامت القيامة انفتحت الأبواب.

قال القاضي: هذا الفتح هو معنى قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١١]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] إذ الفتح والتشقق تتقارب.

قال ابنُ الخطيب(١): وهذا ليس بقوي؛ لأن المفهوم من فتح الباب غير المفهوم من التشقُّق والتفطُّر، فربما تفتح تلك الأبواب مع أنه لا يحصل في جرم السماء تشقق ولا تفطر، بل الدلائل الصحيحة دلت على أن حصول فتح هذه الأبواب بحصول التفطُّر والتشقُّق بالكلِّية.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ يفيد أنَّ السَّماء بكليتها تصير أبواباً بفعل ذلك.

فالجواب من وجوه:

أحدها: أنَّ تلك الأبواب لمَّا كثرت جدًّا صارت كأنَّها ليست إلا أبواباً؛ كقوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢] أي: صارت كلها عيوناً تتفجَّر.

وثانيها: قال الواحديُّ: هذا من باب حذف المضاف، أي: فكانت ذات أبواب.

وثالثها: أنَّ الضمير في قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ يعود إلى السماء، والتقدير: فكانت تلك المواضع المفتوحة أبواباً لنزول الملائكة.

قوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾.

أي: لا شيء كما أن السراب كذلك يظنه الرائي ماء وليس بماء.

وقيل: نُسفَتْ من أصُولِهَا.

وقيل: أزيلتْ عن مواضعها.

قال ابن الخطيب(٢): إن الله ـ تعالى ـ ذكر أحوال الجبال بوجوهٍ مختلفةٍ، ويمكن الجمع بينها بوجوه، بأن نقول:

أول أحوالها: الاندِكَاكُ، وهو قوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤].

والحالة الثانية: أن تصير كالعهنِ المنفوش، وهو قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

والحالة الثالثة: أن تصير كالهباء، وهو قوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾.

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣١/١١.

(٢) السابق.

والحالة الرابعة: أن تنسف؛ لأنها مع الأحوال المتقدمة تارة في مواضعها في الأرض، فترسل الرياح، فتنسفها عن وجه الأرض، فتطيِّرها في الهواء كأنها مارة، فمن نظر إليها يحسبها لتكاثفها أجساداً جامدة، وهي في الحقيقة مارة، إلا أن مرورها[1] بسبب مرور الرياح بها مندكَّة متنسفة.

والحالة الخامسة: أن تصير سراباً، أي: لأي شيء كما رؤي السراب من بعد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا (٢٢) لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا (٢٣) لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَآءً وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا (٢٩) فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ «مِفْعَالاً» من الرصد، والرصد: كل شيء كان أمامك.

قرأ ابن يعمر وابن عمر والمنقري[2]: «أنَّ جَهنَّمَ» بفتح «أن».

قال الزمخشريُّ: على تعليل قيام الساعة، بأن جهنم كانت مرصاداً للطَّاغين، كأنَّه قيل: كان ذلك لإقامة الجزاء، يعني: أنه علَّة لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ إلى آخره.

قال القفال[3]: في المرصاد قولان:

أحدهما: أنَّ المرصاد اسم للمكان الذي يرصد فيه، كالمضمارِ اسم للمكان الذي يضمر فيه الخيل، والمِنْهَاج: اسم للمكان الذي ينهج فيه، أي: جهنم معدَّة لهم فالمرصاد بمعنى المحل، وعلى هذا فيه احتمالان:

الأول: أنَّ خزنة جهنم يرصدون الكفَّار.

والثاني: أن مجاز المؤمنين، وممرهم على جهنم، لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، فخزنة الجنة يَسْتقبلُونَ المؤمنين عند جهنم، ويرصدونهم عندها.

القول الثاني: أنَّ «المِرصَاد» «مِفْعَال» من الرصد، وهو «الترقب» بمعنى أنَّ ذلك يكثر منه، و «المِفْعَالُ» من أبنية المبالغة كـ «المِعْطَاء، والمِعْمَار، والمِطْعَان».

قيل: إنَّها ترصد أعداءَ اللَّهِ، وتشتد عليهم لقوله تعالى: تكاد تميَّزُ من الغيظ.

---

(١) في أ: مورها.
(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٦٨٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٢٥، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٥.
(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ١٢.

وقيل: ترصدُ كُلَّ منافقٍ وكافرٍ.

فصل

دلت الآية على أنَّ جهنم كانت مخلوقة لقوله تعالى أن جهنم كانت مرصاداً وإذا كان كذلك كانت الجنة لعدم الفارق.

قوله: ﴿لِلطَّاغِينَ﴾ يجوز أن يكون صفة لـ «مِرْصَاداً»، وأن يكون حالاً من «مآباً» كان صفته فلما تقدَّم نصبَ على الحال، وعلى هذين الوجهين يتعلق بمحذوف، ويجوز أن يكون متعلقاً بنفس «مِرْصَاداً»، أو بنفس «مآباً»؛ لأنه بمعنى مرجع.

قال ابن الخطيب[1]: إن قيل بأن: «مِرصَاداً» للكافرين فقط، كان قوله: «للطَّاغين» من تمام ما قبله، والتقدير: كانت مرصاداً للطَّاغين، ثم قوله: «مآباً» بدل قوله: «مرصاداً»، وإن قيل: إنَّ مرصاداً مطلقاً للكفَّار والمؤمنين كان قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ كلاماً تاماً وقوله تعالى: ﴿لِلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ كلاماً مبتدأ، كأنه قيل: إنَّ جهنَّم كانت مرصاداً للكل، و «مآباً» للطَّاغين خاصَّة، فمن ذهب إلى القول الأول لم يقف على قوله: «مرصاداً» ومن ذهب إلى القول الثاني وقف عليه.

قال القرطبيُّ[2]: «للطَّاغِينَ مآباً» بدلٌ من قوله: «مِرصَاداً»، والمَآبُ: المرجع، أي: مرجعاً يرجعون إليه، يقال: آب يئوب أوْبَة: إذا رجع.

وقال قتادة: مأوى ومنزلاً[3]، والمراد بالطاغين من طغى في دينه بالكفر ودنياه بالظلم.

قوله: ﴿لَّٰبِثِينَ﴾. منصوب على الحال من الضمير المستتر في «للطاغين»، وفي حال مقدرة.

وقرأ حمزة[4]: «لبثين» دون ألف.

والباقون: «لابثين» بألف.

وضعف مكي قراءة حمزة، قال: ومن قرأ: «لبثين» شبهه بما هو خلقة في الإنسان نحو حِذْر وفِرْق، وهو بعيد؛ لأن اللبث ليس مما يكون خلقة في الإنسان وباب فعل إنما يكون لما هو خلقة في الإنسان. وليس اللبس بخلقة.

ورجَّح الزمخشري قراءة حمزة، فقال: «قرأ: لابثين «ولبثين» واللبث أقوى؛ لأن

---

(١) ينظر: السابق ٣١/ ١٣.
(٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١١٦.
(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٠٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٠١)، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.
(٤) ينظر: السبعة ٦٦٩، والحجة ٦/ ٣٦٩، وإعراب القراءات ٢/ ٤٣١، وحجة القراءات ٧٤٥.

اللاَّبث يقال لمن وجد منه اللبث، ولا يقال: لبث إلا لمن شأنه اللبث، كالذي يجثم بالمكان لا يكاد ينفكّ منه».

وما قاله الزمخشري أصوب.

وأمَّا قولُ مكيٍّ: اللبث ليس بخلقة، فمسلم، لكنه بولغ في ذلك، فجعلَ بمنزلة الأشياء المختلقة.

و «لابثين» اسم فاعل من «لبث»، ويقويه أنَّ المصدر منه «اللّبث» ـ بالإسكان ـ كـ «الشرب». قوله: «أَحْقَاباً» منصوب على الظرف، وناصبه «لاَبِثِيْنَ»، هذا هو المشهور، وقيل: منصوب بقوله: «لا يذوقون»، وهذا عند من يرى تقدم معمول ما بعد «لا» عليها وهو أحد الأوجه، وقد مر هذا مستوفًى في أواخر الفاتحة وجوَّز الزمخشري أن ينتصب على الحال. قال: «وفيه وجه آخر: وهو أن يكون من: حَقِبَ عامنا إذا قلَّ مطرهُ وخيرهُ، وحقب فلان إذا أخطأه الرزق، فهو حقبٌ وجمعه: «أَحْقَاب»، فينتصب حالاً عنهم، بمعنى: لابثين فيها حقبين جحدين». وتقدم الكلام على الحقب في سورة «الكهف»[1].

قال القرطبي[2]: و «الحِقْبَةُ» ـ بالكسر ـ: السَّنة، والجمع حِقَب؛ قال متممُ بنُ نويرةَ: [الطويل]

٥٠٧٥ ـ وكُنَّا كَنَدْمَانَي جَذِيمَةَ حِقْبَةً مِنَ الدَّهْرِ حتَّى قِيلَ: لَنْ يتصدَّعا[3]

والحُقْبُ ـ بالضم والسكون ـ: ثمانون سنة.

وقيل: أكثر من ذلك وأقل، والجمع: «أَحْقَاب».

قال الفراءُ: أصل الحقبة من الترادُف والتتابُع، يقال: «أَحْقَبَ»: إذا أردف، ومنه الحقبة، ومنه كل من حمل وزراً فقد احتقب، فعلى هذا معناه: لابثين فيها أحقاباً، أي: دُهوْراً مُترادِفةً يتبع بعضهم بعضاً.

فصل في تحرير معنى الآية

المعنى: ماكثين في النَّار ما دامت الأحقاب، وهي لا تنقطع، فكُلَّما مضى حُقبٌ جاء حُقبٌ، و «الحُقُبُ» ـ بضمتين ـ: الدَّهْرُ، والأحقابُ: الدهور، والمعنى: لابثين فيها أحقاب الآخرة التي لا نهاية لها، فحذف الآخرة لدلالة الكلام عليها، إذ في الكلام ذكر الآخرة، كما يقال: أيَّامُ الآخرة، أي: أيام بعد أيام إلى غير نهاية، أي: لابثين فيها أزماناً ودهوراً، كُلَّما مضى زمنٌ يعقبهُ زمنٌ، ودهر يعقبه دهر، هكذا أبداً من غير انقطاع، فكأنه

(١) الآية: ٦٠. (٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١١٦.
(٣) ينظر شعر متمم بن نويرة ص ١١١، والمفضليات ص ٥٣٥، والقرطبي ١٩، ١١٦، ومجمع البيان ١٠/ ٦٤١.

قال: أبداً، وإنَّما كان يدل على التوقيت لو قال: خمسة أحقاب، أو عشرة ونحوه، وذكر الأحقاب؛ لأن الحقب كان أبعد شيء عندهم، فذكر ما يفهمونه، وهو كناية عن التأبيد، أي: يمكثون فيها أبداً.

وقيل: ذكر الأحقاب دون الأيام؛ لأن الأحقاب أهول في القلوب، وأدل على الخلود، وهذا الخلود في حق المشركين، ويمكن حمله على العصاة الذين يخرجونَ من النار بعد أحقاب.

وقيل: الأحقاب وقت شربهم الحميم والغسَّاق، فإذا انقضت فيكون لهم نوع آخر من العذاب، ولهذا قال تعالى: ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ أي في الأرض لتقدم ذكرها ويكون «لا يَذُوقُونَ فِيْهَا بَرْداً» جهنم.

قوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ﴾. فيه أوجه:

أحدها: أنه مستأنف، أخبر عنهم بذلك.

الثاني: أنه حال من الضمير في «لابِثِيْنَ» غير ذائقين، فهي حال متداخلة.

الثالث: أنه صفة لـ «أحقَاب».

قال مكي: واحتمل الضمير؛ لأنه فعل فلم يجب إظهاره كأن قد جرى صفة على غير من هو له، وإنَّما جاز أن يكون نعتاً لـ «أحْقَاب» لأجل الضمير العائد على «الأحقاب» في «فيها»، ولو كان في موضع «يَذُوقُونَ» اسم فاعل لكان لا بُدَّ من إظهار الضمير إذا جعلته وصفاً لـ «أحقاب».

الرابع: أنه تفسير لقوله تعالى: ﴿أَحْقَابًا﴾ إذا جعلته منصوباً على الحال بالتأويل المتقدم عن الزمخشري، فإنه قال: «وقوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾. تفسير له».

الخامس: أنه حال أخرى من «للطاغين» كـ «لابثين».

فصل في معنى هذا البرد

قال أبو عبيدة: البَرْدُ: النومُ؛ قال الشاعر: [الطويل]

٥٠٧٦ ـ فَلوْ شِئْتُ حَرَّمتُ النِّساءَ سِواكُمُ وإنْ شِئْتُ لَمْ أطْعَمْ نِقَاخاً ولا بَرْدَا[1]

وهو قول مجاهدٍ والسديّ والكسائيّ والفضل بن خالدٍ وأبي معاذٍ النحويّ.

والعرب تقول: منع البَرْدُ البَرْدَ، يعني: أذهب النوم.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: البرد برد الشراب.

---

(١) تقدم.

وعنه ـ أيضاً ـ البرد: النَّوم، والشراب: الماء[١].

قال الزجاج: لا يذوقُونَ فيها بَرْدَ ريحٍ، ولا بَرْدَ نومٍ، ولا بَرْدَ ظلٍّ. فجعل البرد كل شيء له رائحة.

وقال الحسن وعطاء وابن زيد: بَرداً: أي روحاً ورائحة[٢].

قوله: ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾. يجوز أن يكون استثناء متَّصلاً من قوله: «شراباً»، ويجوز أن يكون مُنْقَطِعاً.

قال الزمخشري: «يعني لا يَذُوقُون فيها برداً، ولا روحاً ينفس عنهم حر النَّار «ولا شراباً» يسكن من عطشهم، ولكن يذوقون فيها حميماً وغسَّاقاً».

قال شهاب الدين[٣]: «ومكي لمَّا جعله منقطعاً جعل البرد عبارة عن النوم، قال: فإن جعلته النوم كان «إلا حميماً» استثناء ليس من الأول».

وإنَّما الذي حمل الزمخشري على الانقطاع مع صدق الشراب على الحميم والغسَّاق، وصفه له بقوله: «ولا شراباً يسكن من عطشهم» فبهذا القيد صار الحميمُ ليس من جنس هذا الشراب؛ وإطلاق البردِ على النوم لغة هذيل، وأنشد البيت المتقدم.

وقول العرب: منع البرد البرد، قيل: وسمي بذلك لأنه يقطع سورة العطش، والذوق على هذين القولين مجاز، أعني: كونه روحاً ينفس عنهم الحر، وكونه النوم مجاز، وأمَّا على قول من جعله اسماً للشراب البارِدِ المستلذّ كما تقدَّم عن ابن عباس رضي الله عنهما وأنشد قول حسان رضي الله عنه: [الكامل]

٥٠٧٧ ـ يَسْقُون مَنْ ورَدَ البَريصَ عَليهِمُ   بَـرَدى تُـصفِّـقُ بالـرَّحِيـقِ السَّلْسَلِ[٤]

قال ابنُ الأثيرِ: البريص: الماء القليل، والبرصُ: الشيء القليل؛ وقال الآخر: [الطويل]

٥٠٧٨ ـ أَمَانيَّ مِنْ سُعْدى حِسانٌ كأنَّما   سَقتْكَ بِهَا سُعْدَى عَلى ظَمَإٍ بَرْدَا[٥]

والذوق حقيقة، إلا أنه يصير فيه تكرار بقوله بعد ذلك «ولا شَراباً».

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/١١٨).

(٢) ينظر المصدر السابق.   (٣) ينظر الدر المصون ٦/ ٤٦٥.

(٤) ينظر ديوانه ص ١٢٢، وجمهرة اللغة ص ٣١٢، وخزانة الأدب ٤/ ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٤، ١١/ ١٨٨، والدرر ٥/ ٣٨)، وشرح المفصل ٣/ ٢٥، ولسان العرب (برد)، و (برص)، و (صفق)، ومعجم ما استعجم ص ٢٤٠، وأمالي ابن الحاجب ١/ ٤٥١، وشرح الأشموني ٢/ ٣٢٤، وهمع الهوامع ٢/ ٥١، والطبري ٣/ ٦٧، ومجمع البيان ١٠/ ٦٩١، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٥، والدر المصون ٦/ ٤٦٥.

(٥) ينظر اللسان (سعد)، (برد)، والبحر ٨/ ٤٠٦، والدر المصون ٦/ ٤٦٥.

الثالث: أنَّه بدلٌ من قوله: «وَلا شَراباً»، وهو الأحسن؛ لأن الكلام غير موجب.

قال أبو عبيدة: الحَمِيْمُ: الماءُ الحارّ.

وقال ابن زيد: دموع أعينهم تجمع في حياض، ثم يسقونه.

وقال النحاس: أصل الحميمِ الماءُ الحار، ومنه اشتقَّ الحمَّام، ومنه الحُمَّى ومنه ظل من يحموم، إنَّما يراد به النهايةَ في الحر، والغسَّاق: صديد أهل النار وقيحهم.

وقيل: الزَّمهرير، وتقدم خلاف القرَّاء في «غسَّاقاً» والكلام عليه وعلى «حَمِيم».

قال أبو معاذ: كنت أسمع مشايخنا يقولون: الغسَّاقُ: فارسية معربةٌ، يقولون للشيء الذي يتقذرونه: خاشاك.

قوله: ﴿جَزَآءً﴾ منصوبٌ على المصدر، وعامله إما قوله: «لا يذوقون» إلى آخره؛ لأنه من قوة جوزوا بذلك، وإمَّا محذوف، و «وِفَاقاً» نعت له على المبالغةِ، أو على حذف مضاف، أي: ذا مبالغة.

قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: معناه: موافقاً لأعمالهم، فالوفاقُ بمعنى: «الموافقة» كالقتال من المقاتلة.

قال الفراء والأخفش: أي: جازيناهم جزاء وافق أعمالهم.

وقال الفراء أيضاً: هو جمع الوفقِ واللَّفقِ واحد.

وقال مقاتل: وافق العذاب الذنب، فلا ذنب أعظم من الشرك، ولا عذاب أعظم من النار[١].

وقال الحسن وعكرمة: كانت أعمالهم سيئة فأتاهم الله بما يسوؤهم[٢].

وقرأ أبو حيوة[٣] **وابن أبي عبلة**: بتشديد الفاء من «وفقه كذا».

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾. أي: لا يخافون حساباً، أي: محاسبة على أعمالهم، وقيل: لا يرجون ثواب حساب.

وقال الزجاج: إنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث، فيرجون حسابهم، فهو إشارة إلى أنَّهم لم يكونوا مؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾ قرأ العامة: «كِذَّاباً» بتشديد الذال، وكسر الكاف.

وكان من حق مصدر «فعَّل» أن يأتي على «التَّفعيل» نحو صرَّف تصريفاً.

---

(١) ينظر القرطبي (١١٨/١٩). (٢) ينظر المصدر السابق.

(٣) ينظر: الكشاف ٦٨٩/٤، والبحر المحيط ٤٠٦/٨، والدر المصون ٦/ ٤٦٥.

قال الزمخشري: و «فعَّال» في باب «فعّل» كله فاشٍ في كلام فصحاءٍ من العرب لا يقولون غيره، وسمعني بعضهم أفسر آية، فقال: لقد فسرتها فسَّاراً ما سمع بمثله.

قال غيره: وهي لغة بعض العرب يمانية؛ وأنشد: [الطويل]

٥٠٧٩ ـ لَقَدْ طَالَ ما ثَبَّطتَنِي عَنْ صَحابَتِي وعَـنْ حَـاجَـةٍ قِـضَّـاؤهـا مـن شِـفَـائِـيَـا[١]

يريد: تَقْضِيَتُهَا، والأصل على «التفعيل»، وإنَّما هو مثل «زكّى تَزْكيَةً».

وسمع بعضهم يستفتي في حجه، فقال: آلحلق أحبُّ إليك أم القصَّار؟ يريد التقصير.

قال الفراء: «هي لغة يمانية فصيحة، يقولون: كذبت كذّاباً، وخرَّقتُ القميص خِرَّاقاً، وكل فعل وزن «فعّل»، فمصدره «فِعَّال» في لغتهم مشددة».

وقرأ علي والأعمش وأبو رجاء[٢] **وعيسى البصري**: بالتخفيف.

وهو مصدر أيضاً، إمَّا لهذا الفعل الظاهر على حذف الزوائد، وإمَّا لفعل مقدر كـ «أنْبَتكُمْ منَ الأرْضِ نَبَاتاً».

قال الزمخشري: «وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [نوح: ١٧] يعني وكذبوا بآياتنا، فكذبوا كذاباً، أو تنصبه بـ «كذبوا»؛ لأنه يتضمن معنى «كذّبوا»، لأن كل مكذب بالحق كاذب، وإن جعلته بمعنى المكاذبة، فمعناه: وكذبوا بآياتنا، فكاذبوا مكاذبة، أو كذبوا بها مكاذبين؛ لأنَّهم كانوا عند المسلمين مكاذبين، وكان المسلمون عندهم كاذبين فبينهم مكاذبة، أو لأنَّهم يتكلمون بما هو إفراط في الكذب، فعل من يغالب فيبلغ فيه أقصى جهده».

وقال أبو الفضل: وذلك لغة «اليمن»، وذلك بأن يجعل مصدر «كذب» مخففاً «كِذَاباً» بالتخفيف مثل «كَتَبَ كِتَاباً» فصار المصدر هنا من معنى الفعل دون لفظه، مثل: «أعطيته عطاءً».

قال شهابُ الدِّينِ[٣]: أمَّا «كذب كذاباً» بالتخفيف، فهو مشهور، ومنه قول الأعشى: [مجزوء الكامل]

٥٠٨٠ ـ فَـصَـدَقْـتُـهَـا وكَـذَبْـتُـهَـا والـمَـرْءُ يَـنْـفَـعُـهُ كِـذَابُـهْ[٤]

---

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٢٩، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٥/ ٢٧٤، والقرطبي ١٩/ ١١٨، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٦، والدر المصون ٦/ ٤٦٦.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٢٧، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٦.

(٣) الدر المصون ٦/ ٤٦٦.

(٤) ينظر ابن يعيش ٦/ ٤٤، وشواهد الإيضاح ص ٦٠٦، واللسان (صدق)، والكشاف ٤/ ٦٨٩، والقرطبي ١٩/ ١١٨، ومجاز القرآن ٢/ ٢٨٣، والكامل ٢/ ٢٣٠، والتاج (صدق)، والطبري ٣٠/ ١٤، ومجمع البيان ١٠/ ٦٤١، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٦، والدر المصون ٦/ ٤٦٦.

وقرأ عمر[١] بن عبد العزيز والماجشون: «كُذاباً» بضم الكاف وتشديد الذال، وفيها وجهان:

أحدهما: أنه جمع كاذبٍ، نحو: ضراب «في» ضارب، وعلى هذا، فانتصابه على الحال المؤكدة، أي: وكذبوا في حال كونهم كاذبين. قاله أبو البقاء.

والثاني: أنَّ «الكُذَّاب» بمعنى الواحد البليغ في الكذب، يقال: رجل كذاب، كقولك: حسان، فيجعل وصفاً لمصدر كذبوا: أي تكذيباً لهم كذاباً مفرطاً كذبه. قاله الزمخشري.

قال القرطبي[٢]: وفي «الصّحاح»: وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾ وهو أحد مصار المشدد؛ لأن مصدره قد يجيء على «تَفْعِلَة» مثل «تَوصِيَة»، وعلى «مُفَعَّل» مثل: ﴿وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ١٩].

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ العامة على النصب على الاشتغال، وهو الراجح، لتقدم جملة فعلية.

وقرأ أبو السمال[٣]: برفع «كُل» على الابتداء، وما بعده الخبر وهذه الجملة معترض بها بين السبب والمسبب، لأنَّ الأصل: «وكَذَّبوا بِآيَاتِنَا كِذاباً» فـ «ذوقوا» مُسَبَّبٌ عن تَكْذيبهم.

قوله: «أحْصَيْنَاهُ». فيه أوجه:

أحدها: أنه مصدر من معنى أحصينا، أي إحصاءً، فالتجوُّز في نفس المصدر.

الثاني: أنه مصدر لـ «أحْصَيْنَا» لأنَّه في معنى: «كَتَبْنَا» فالتجوُّز في نفس الفعل.

قال الزمخشري: «لانتفاءِ الإحْصاءِ»، والكتبة في معنى الضبط، والتحصيل.

قال ابن الخطيب[٤]: وإنَّما عدل عن تلك اللفظة إلى هذه اللفظة؛ لأن الكتابة هي النهاية في قوة العلم، ولهذا قال ﷺ: «قَيِّدُوا العِلْمَ بالكِتابَةِ»، فكأنَّهُ تعالى قال: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا﴾ إحصاءً في القوة والثبات والتأكُّد، كالمكتوب، والمراد من قوله: «كِتَاباً» تأكيد ذلك الإحصاء والعلم، وهذا التأكيد إنَّما ورد على حسب ما يليق بأفهام أهل الظاهر، فإن المكتوب يقبل الزوال، وعلمُ الله ـ تعالى ـ بالأشياءِ لا يقبل الزوال؛ لأنَّه واجبٌ لذاته.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٢٧، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١١٩.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٦٩٠، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٦، والدر المصون ٦/ ٤٦٦.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ١٨.

الثالث: أن يكُون منصوباً على الحال، بمعنى مكتوباً في اللوح المحفوظ، لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

وقيل: أراد ما كتبته الملائكة الموكلون بالعباد، بأمر الله ـ تعالى ـ إياهم بالكتابة، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠، ١١].

فصل في المراد بالإحصاء

معنى ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ﴾ أي: علمنا كُلَّ شيء علماً كما هو لا يزول، ولا يتبدل ونظيره قوله تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

قال ابن الخطيب[١]: وهذه الآية لا تقبل التأويل، لأن الله ـ تبارك وتعالى ـ ذكر هذا تقديراً لما ادعاه من قوله تعالى: «جَزَاءً وفاقاً»، كأنه تعالى قال: أنا عالم بجميع ما فعلوه، وعالم بجهات تلك الأفعال، وأحوالها؛ واعتباراتها التي لأجلها يحصل استحقاق الثواب والعقاب، فلا جرم لا أوصل إليهم من العذاب إلاَّ قدر ما يكون وفاقاً لأعمالهم، وهذا القدر إنما يتمُّ بثبوت كونه عالماً بالجُزئيَّاتِ، وإذا ثبت هذا ظهر أن كل من أنكره كافر قطعاً.

قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾.

قال ابن الخطيب[٢]: هذه «الفاء» للجزاء، فنبَّه على أنَّ الأمر بالذوق معلَّل بما تقدم شرحه من قبائح أفعالهم، فهذه «الفاء» أفادت عين فائدة قوله: «جزاء وفاقاً».

فإن قيل: أليْسَ أنه ـ تعالى ـ قال في صفة الكفار: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٧٤].

فها هنا لمَّا قال تعالى لهم: «فذوقوا»، فقد كلَّمهُمْ؟.

فالجواب: قال أكثر المفسرين: ويقال لهم: «فَذُوقُوا».

ولقائلٍ أن يقول: قوله: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ﴾ لا يليق إلا بالله، والأقرب في الجواب أن يقال: قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ [آل عمران: ٧٧] معناه: ولا يكلمهم بالكلام الطيب النافع، فإن تخصيص العموم سائغ عند حصول القرينة، فإن قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ إنما ذكره لبيان أنَّه ـ تعالى ـ لا يقيم لهم وزناً، وذلك لا يحصل إلا من الكلام الطيب.

فإن قيل: إن كانت هذه الزيادة غير مستحقة كانت ظلماً، وإن كانت مستحقة كان تركها في أول الأمر إحساناً، والكريم لا يليق به الرجوع في إحسانه.

والجواب: أنَّها مستحقةٌ، ودوامها زيادة لفعله بحسب الدوام، وأيضاً: فترك المستحق في بعض الأوقات لا يوجب الإبراء والإسقاط.

(١) الفخر الرازي ٣١/١٧.
(٢) ينظر الفخر الرازي ٣١/١٨.

فصل في الالتفات في هذه الآية

قال ابنُ الخطيبِ[١]: قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ﴾ يفيد معنى التعليل، وهو التفات من الغيبةِ للخطابِ، فهو دالٌّ على الغضبِ، وفيه مبالغاتٌ: منها أنَّ «لن» للتأكيد، ومنها الالتفات، ومنها إعادة قوله: «فذوقوا» بعد ذكر العذاب، قال أبو برزة رضي الله عنه: سألت النبي ﷺ عن أشد آية في القرآن، قال عليه الصلاة والسلام: قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٥٦] أي: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾[٢] [النساء: ٥٦]، و ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾. تقدم تفسير المتقين، و «المفازُ»: يحتمل أن يكون مصدراً، بمعنى: فَوْزاً وظفراً بالنعمة، ويحتمل أن يكون المراد فوزاً بالنجاة من العذاب، ولذلك قيل للفلاة إذا قل ماؤها: مفازة، تفاؤلاً بالخلاص منها، وأن يكون مجموع الأمرين.

وقال الضحاك[٣]: منتزهاً.

قوله: ﴿حَدَآئِقَ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من «مفازاً» بدل اشتمالٍ، أو بدل كُلٍّ من كل مبالغةً في أن جعل نفس هذه الأشياء مفازاً.

ويجوز أن يكون منصوباً بإضمارِ «أعْنِي»، وإذا كان مفازاً بمعنى الفوز، فيُقدَّر مضاف، أي فوز حدائق، وهي جمع حديقة، وهي البستان المحوط عليه، ويقال: أَحْدقَ بِهِ أي أَحَاطَ.

والأَعْنَابُ: جمعُ عنب، أي: كروم أعناب، فحذف، والتنكير في قوله تعالى: ﴿وَأَعْنَٰبًا﴾ يدل على تعظيم تلك الأعناب.

قوله تعالى: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾. الكواعب: جمع كاعب، وهي من كعب ثديها وتفلك، أي يكون الثدي في النتوء كالكعب والفلكة، وهي النَّاهد، يقال: كَعَبَتِ الجارية تكعب

---

(١) السابق.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٠٤)، عن أبي برزة موقوفاً وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه.

(٣) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٤٣٩)، عن الضحاك.

كُعوباً، وكعَّبَتْ تُكعِّب تَكْعِيباً، ونهَدتْ تَنْهَدُ نُهُوداً؛ قال: [الطويل]

٥٠٨١ ـ وكَانَ مِجَنِّي دُونَ مَنْ كُنْتُ أَتَّقِي ثَلاثُ شُخُوصٍ: كَاعِبَانِ ومُعْصِرُ[١]

وقال قيس بن عاصم المسعريُّ: [الطويل]

٥٠٨٢ ـ وَكَمْ مِنْ حَصَانٍ قَدْ حَوَيْنَا كَرِيمَةٍ وَمِنْ كَاعِبٍ لَمْ تَدْرِ مَا البُؤْسُ مُعْصِرِ[٢]

وقال الضحاك: الكواعب: العَذَارى[٣]، والأتراب الأقران في السن، وقد تقدم ذكرهن في «الواقعة».

قوله تعالى: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾.

الدِّهاقُ: الملأى المُترعَةُ.

قيل: هو مأخوذ من دهقهُ، أي: ضغطه، وشده بيده، كأنه ملأ اليد فانضغط، قال: [الوافر]

٥٠٨٣ ـ لأنْتِ إلى الفُؤادِ أحَبُّ قُرْباً مِنَ الصَّادي إلى كَأْسِ الدِّهَاقِ[٤]

وهذا قول ابن عباس، والحسن، وقتادة، وأبي عبيدة، والزجاج، والكسائي.

وقال عكرمة: ورُبَّما سمعت ابن عبَّاسٍ يقول: اسقنا وادهق لنا، ودعا ابن عباس غلاماً له فقال له: اسقنا دهاقاً، فجاء الغلام بها ملأى، فقال ابن عباس: هذا الدِّهاق.

وقيل: الدِّهاق: المتتابعة؛ قال رحمه الله: [الوافر]

٥٠٨٤ ـ أتَانَا عَامِرٌ يَبْغِي قِرَانَا فَأتْرَعْنَا لَهُ كَأْساً دِهَاقَا[٥]

وهذا قول أبي هريرة، وسعيد بن جبير، ومجاهد.

قال الواحدي: وأصل هذا القول من قول العرب: أدهقت الحجارة إدهاقاً، وهي شدة ترادفِها، ودخول بعضها في بعض. ذكره الليث.

والتَّتابعُ كالتَّداخُل.

وعن عكرمة وزيد بن أسلمَ: أنَّها الصَّافيةُ، وهو جمع «دهق»، وهو خشبتان يعصر بهما.

والمراد بالكأسِ: الخَمْرُ.

---

(١) تقدم.

(٢) ينظر القرطبي ١٩/ ١١٩، والبحر ٨/ ٤٠٢، والدر المصون ٦/ ٤٦٧.

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١٨٨)، والقرطبي (١٩/ ١١٩).

(٤) ينظر القرطبي ١٩/ ١٢٠، والبحر ٨/ ٤٠٢، والدر المصون ٦/ ٤٦٧.

(٥) البيت لخداش بن زهير. ينظر القرطبي ١٩/ ١٢٠، والبحر ٨/ ٤٠٢، والدر المصون ٦/ ٤٦٧.

قال الضحاك: كل كأس في القرآن فهو خمر، والتقدير: وخمر ذات دهاق، أي عصرت وصفيت بالدهاق، قاله القشيري.

وفي «الصحاح»[1]: وأدْهَقْتُ الماءَ، أي: أفرغتُه إفراغاً شديداً، قال أبو عمرو: والدَّهقُ ـ بالتحريك ـ ضرب من العذاب، وهو بالفارسية: «أشكَنْجَه».

قال المبرد: والمَدهوقُ: المُعذَّبُ بجميع العذاب الذي لا فرجة فيه.

وقال ابن الأعرابي: دهقت الشيء: أي: كسرته وقطعته، وكذلك: «دَهْدَقْتُهُ» و «دَهْمَقْتُهُ» بزيادة الميم المثلثة.

وقال الأصمعي: «الدَّهْمَقَة»: لين الطعام وطيبه ورقته، وكذلك كل شيء لين، ومنه حديث عمر ـ رضي الله عنه ـ: لو شئت أن يدهمق لي لفعلت، ولكن الله عاب قوماً فقال تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾[2] [الأحقاف: ٢٠].

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾. أي: في الجنة، وقيل: في الكأس. ﴿لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾.

اللَّغو: الباطلُ، وهو ما يلغى من الكلام ويطرح، ومنه الحديث: «إذا قُلتَ لِصاحِبِكَ: أنْصِتْ، فَقدْ لغَوْتَ»[3]. وذلك أنَّ أهل الجنة إذا شربوا لم تتغير عقولهم، ولم يتكلموا بلغو بخلاف الدنيا، و «لا كِذَّاباً» أي: لا يتكاذبُون في الجنَّةِ.

وقيل: هما مصدران للتكذيب، وإنَّما خففها؛ لأنَّها ليست مقيَّدة بفعل يصير مصدراً له، وشدَّد قوله: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾؛ لأنَّ «كذَّبُوا» يفيد المصدر بالكذاب.

قال شهابُ الدين[4]: «وإنَّما وافقَ الكسائيُّ الجماعة في الأول للتصريح بفعله المشدد المقتضي لعدم التخفيف في «كذَّبوا»، وهذا كما تقدم في قوله: ﴿فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ﴾ [الإسراء: ٩١]، حيثُ لم يختلف فيه للتصريح معه بفعله بخلاف الأول».

وقال مكيٌّ: مَنْ شدد جعله مصدر «كَذَّب»، زيدت فيه الألف، كما زيدت في «إكْرَاماً» وقولهم: تَكْذِيباً، جعلوا التاء عوضاً من تشديد العين، والياء بدلاً مِنَ الألف غيَّروا أوَّله كما غيَّروا آخره، وأصل مصدر الرباعي أن يأتي على عدد حروف الماضي بزيادة ألف مع تغيير الحركات، وقالوا: «تَكَلُّماً»، فأتي المصدر على عدد حروف الماضي بغير زيادة ألف، وذلك لكثرة حروفه، وضمت «اللام» ولم تكسر؛ لأنَّه ليس في الكلام اسم على «تفعَّل» ولم تفتح لئلا تشتبه بالماضي، وقراءة الكسائي: «كِذَاباً» ـ بالتخفيف ـ جعله مصدر كذب كذاباً.

---

(١) ينظر: الصحاح ٤/١٤٧٨.

(٢) ينظر تفسير القرطبي (١٩/ ١٢٠).

(٣) تقدم.

(٤) الدر المصون ٦/ ٤٦٧.

وقيل: هو مصدر «كذب» كقولك: كتبتُ كِتَاباً.

قوله: ﴿جَزَآءً﴾. مصدر مؤكد منصوب بمعنى قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾، كأنَّه قيل: جازى المتقين بمفاز.

قوله: ﴿عَطَآءً﴾ بدلٌ من «جَزاءً» وهو اسم مصدر؛ قال: [الوافر]

٥٠٨٥ ـ .... وبَعْدَ عَطائِكَ المِائَةَ الرِّتاعَا[1]

قال: وجعله الزمخشري[2]: منصوباً بـ «جزاءً» نصب المفعول به.

ورده أبو حيان[3] بأنه جعل «جزاء» مصدراً مؤكداً لمضمون الجملة، التي هي «إنَّ للمُتَّقِيْنَ»، قال: «والمصدر المؤكد لا يعمل؛ لأنه لا ينحلُّ لحرف مصدري والفعل، ولا نعلمُ في ذلك خلافاً».

قوله: «حساباً». صفة لـ «عطاءً»، والمعنى: كافياً، فهو مصدر أقيم مقام الوصف أو بولغ فيه، أو على حذف مضاف، من قولهم: أحْسبَنِي الشيء أي: كفاني.

وقال قتادةٌ: «عَطاءً حِسَاباً» أي: كثيراً، يقال: أحسبتُ فلاناً، أي: أكثرت له العطايا حتى قال: حسبي[4].

وقال الكلبي: حاسبهم فأعطاهم بالحسنة عشر أمثالها، وقد وعد قوماً جزاء لا نهاية له، ولا مقدار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[5] [الزمر: ١٠] **وقرأ أبو البرهسم**[6]، **وشريحُ بنُ يزيد الحمصي**: بتشديد السين مع بقاء الحاء على كسرها.

وتخريجها: أنَّه مصدر، مثل: «كذّاب» أقيم مقام الوصف، أي: عطاء محسباً، أي: كافياً.

وابن قطيب: كذلك، إلاَّ أنَّه فتح الحاءَ.

قال أبو الفتح: بناء «فعَّال» من «أفْعَل» كـ «دَرَّاك» من «أدْرك» بمعنى أنه صفة مبالغة من «حَسَب» بمعنى: كافي كذا.

وابن عباس[7]: «حَسَناً» بالنون من الحسن.

وسريح: «**حَسْباً**»[8] بفتح الحاء وسكون السين والباء الموحدة، أي: عطاء كافياً، من قولك: حَسْبُك كذا، أي: «كافيك».

---

(١) تقدم.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٦٩٠.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٠٧.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤١٤).

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٢٠).

(٦) ينظر: الكشاف ٤/ ٦٩٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٢٨، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٧، والدر المصون ٦/ ٤٦٨.

(٧) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٢٨، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٧، والدر المصون ٦/ ٤٦٨.

(٨) ينظر السابق.

قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

قرأ نافعٌ، وابن كثير[١]، **وأبو عمرو**: برفع «رب» و «الرحمن».

وابن عامر، وعاصم: بخفضهما.

والأخوان: بخفض الأول، ورفع الثاني.

فأما رفعهما، فيجوز من أوجه:

أحدها: أن يكون «ربُّ» خبر مبتدأ محذوف مضمر، أي: «هو رب»، و «الرحمن» كذلك، أو مبتدأ، خبره «لا يَملِكُون».

الثاني: أن يجعل «ربُّ» مبتدأ، و «الرحمن» خبره، و «لا يملكون» خبر ثان، أو مستأنف.

الثالث: أن يكون «ربُّ» مبتدأ، و «الرحمن» نعته، و «لا يملكون» خبرُ «ربُّ».

الرابع: أن يكون «ربُّ» مبتدأ، و «الرحمن» مبتدأ ثان، و «لا يملكون» خبره، والجملة خبر الأول، وحصل الرَّبطُ بتكرير المبتدأ بمعناه، وهو رأي الأخفشِ، ويجوز أن يكون «لا يَمْلِكُون» حالاً وتكون لازمة.

وأما جرهما: فعلى البدل، أو البيان، أو النعت، كلاهما للأول، إلاَّ أنَّ تكرير البدل فيه نظر وتقدم التنبيه عليه في آخر الفاتحة[٢].

وتجعل ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ تابعاً للأول، و «الرَّحْمن» تابعاً للثاني على ما تقدم.

وأمَّا الأول، فعلى التبعية للأول.

وأما رفع الثاني، فعلى الابتداء، والخبر: الجملة الفعلية، أو على أنَّه خبر مبتدأ مضمر، و «لا يَمْلِكُونَ» على ما تقدم من الاستئناف، أو الخبر الثاني، أو الحال اللازمة.

قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾.

نقل عطاء عن ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ أن الضمير في «لا يملكون» راجع إلى المشركينَ، أي: لا يخاطبهم الله.

وأما المؤمنون فيشفعون، ويقبل الله ـ تعالى ـ منهم بعد إذنه لهم[٣].

وقال القاضي: إنَّهُ راجع للمؤمنين، والمعنى: أنَّ المؤمنين لا يملكون أن يخاطبُوا الله ـ تعالى ـ في أمرٍ من الأمورِ.

---

(١) ينظر السبعة ٦٦٩، والحجة ٦/ ٣٧٠، وإعراب القراءات ٢/ ٤٣٣، وحجة القراءات ٧٤٧.
(٢) آية ٧.
(٣) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣١/ ٢١)، عن ابن عباس.

فصل في أنَّ الله عدل في عقابه

لما ثبت أنه ـ تعالى ـ عدل لا يجور، وثبت أن العقاب الذي أوصله إلى الكفَّار عدل، وثبت أنَّ الثَّواب الذي أوصله إلى المؤمنين عدل، وأنَّه ما بخسهم حقَّهم، فبأيِّ سبب يُخاطبونه.

وقيل: الضمير يعود لأهل السماواتِ والأرضِ، وإنَّ أحداً من المخْلُوقِيْنَ لا يملك مخاطبة الله ـ تعالى ـ ومكالمته.

قال ابن الخطيب[1]: وهذا هو الصواب.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾. منصوب على الظرف، إمَّا بـ «لا يَتكلَّمُونَ» بعده، وإمَّا بـ «لا يَمْلِكُونَ» و «صفًّا» حال، أي: مُصطفِّيْنَ، و «لا يَتَكلَّمُونَ» إمَّا حال أو مستأنف.

فصل في المراد بالروح

اختلفوا في الروح.

فقال ابن عباس: هو ملك ما خلق الله بعد العرش أعظم منه، فإذا كان يوم القيامة قام وحده صفًّا، وقام الملائكة كلهم صفًّا[2]، ونحوه عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: الرُّوح ملك أعظم من السموات السبع والأرضين السبع والجبال[3].

وقيل: جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ قاله الشعبي والضحاك وسعيد بن جبير[4].

وروى عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ أنه قال: الرُّوحُ في هَذهِ الآيَةِ جُنْدٌ مِنْ جُنودِ اللَّهِ لَيْسُوا مَلائِكةً لَهُمْ رُءوسٌ وأيْدٍ وأرْجُلٌ يَأكُلونَ الطَّعام، ثُمَّ قَرَأ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ﴾[5]، وهذا قول أبي صالح، ومجاهد، وعلي ـ رضي الله عنهم ـ وعلى هذا هو خلقٌ

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٢١.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤١٥)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٠٦)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والبيهقي في «الأسماء والصفات».

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤١٥).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤١٥)، عن الضحاك والشعبي.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٠٦)، عن الضحاك وعزاه إلى عبد بن حميد وأبي الشيخ.

(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٠٥)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم وأبي الشيخ في «العظمة» وابن مردويه.

على صورة بني آدم كالناس، وليسوا بناس، وما ينزل من السماء ملك إلاَّ ومعه واحد منهم، نقله البغوي[١].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ «هُمْ أرْواحُ النَّاسِ»[٢].

وقال مقاتل بن حيان: هُمْ أشراف الملائكة[٣].

وقال ابن أبي نجيحٍ: هم حفظة على الملائكة[٤].

وقال الحسن وقتادة: هم بنو آدم[٥]، والمعنى: ذو الروح.

وقال العوفي، والقرظي: هذا ممَّا كان يكتمه ابن عباس.

وقيل: أرواح بني آدم تقومُ صفًّا، فتقومُ الملائكةُ صفًّا، وذلك بين النَّفختين قبل أن تردُّ إلى الأجسادِ. قاله عطية.

وقال زيد بن أسلم: هو القرآن.

وقرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، و ﴿صَفًّا﴾ مصدر؛ أي: يقومون صفوفاً، والمصدر يغني عن الواحد والجمع كالعدل، والصوم، ويقال ليوم العيد: يوم الصف.

وقال في موضع آخر سبحانه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، وهذا يدل على الصفوف، وهذا حين العرض والحساب، قيل: هما صفان.

وقيل: يقوم الكل صفًّا واحداً «لا يَتكلَّمُونَ» أي: لا يشفعون.

قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من «واو» يتكلَّمون، وهو الأرجح، لكونه غير موجب، وأن يكون منصوباً على أصل الاستثناء.

والمعنى: لا يشفعون إلاَّ من أذن لهُ الرحمن في الشفاعة.

وقيل: لا يتكلمون إلا في حقٍّ من أذنَ له الرحمنُ، وقال صواباً.

والمعنى: لا يشفعون إلاَّ في حق شخصٍ أذن الرحمن في شفاعته، وذاك الشخص كان ممن قال صواباً، والمعنى قال صواباً، يعنى: «حقًّا». قاله الضحاك ومجاهد.

وروى الضحاكُ عن ابن عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قال: لا يشفعون إلاَّ لمن قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأصل الصَّواب: السداد من القول والفعل، وهو من أصاب يصيب إصابة، كالجواب من أجاب يجيبُ.

---

(١) ينظر معالم التنزيل ٤/ ٤٤٠ (٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤١٦).
(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٠٦)، وعزاه إلى ابن المنذر وأبي الشيخ.
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٢٢). (٥) ينظر المصدر السابق.

وقيل: «لا يتكلَّمون» يعني: الملائكة، والروح الذين كانوا صفًّا لا يتكلمون هيبة وإجلالاً إلا من أذن له الرب تعالى في الشفاعة، وهم الذين قالوا صواباً، وأنهم يوحدون الله ـ تعالى ـ ويسبِّحونه.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾. «ذلك» إشارة إلى ما تقدَّم ذكره ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾، أي: موجباً بالعمل الصالح.

وقال قتادة: «مآباً» سبيلاً[1].

ثم إنه ـ تعالى ـ زاد في تخويف الكفَّار فقال تعالى:

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني العذاب في الآخرة، وسماه قريباً؛ لأن كل ما هو آت قريب. كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

وقال قتادة: عقوبة الدنيا؛ لأنه أقرب العذابين[2].

وقال مقاتل: هي قتل قريش بـ «بدر»، وهذا خطاب لكفَّار قريش، ولمشركي العرب؛ لأنهم قالوا: لا نُبْعَثُ، وإنَّما سمَّاهُ إنذاراً؛ لأنَّه ـ تعالى ـ قد خوَّف بهذا الوصف نهاية التخويف، وهو معنى الإنذار[3].

قوله: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ﴾. يجوز أن يكون بدلاً من «يوم» قبله، وأن يكون منصوباً بـ «عذاباً» أي: العذاب واقع في ذلك اليوم.

وجوّز أبو البقاء أن يكون نعتاً لـ «قريباً» ولو جعله نعتاً لـ «عَذاباً» كان أولى.

والعامَّة: بفتح ميم «المرء» وهي الغالبة، **وابن أبي إسحاق**[4]: بضمها، وهي لغة يتبعُون اللام الفاء.

وخطَّأ أبو حاتم هذه القراءة، وليس بصواب لثبوتها لغة.

فصل في المراد بـ «المرء»

أراد بالمرء: المؤمن في قول الحسن، أي: ليجد لنفسه عملاً، فأمَّا الكافر فلا يجد لنفسه عملاً، فيتمنى أن يكون تراباً، قال: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ﴾ فعلم أنه أراد بالمرء المؤمن، وقيل: المراد هنا أبيُّ بنُ خلفٍ، وعُقبَةُ بنُ أبِي معيط، ويَقولُ الكافِرُ: أبو جهل.

وقيل: هو عام في كل أحد يرى في ذلك اليوم جزاء ما كسبَتْ.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤١٨)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٠٧)، وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٢٣). (٣) ينظر المصدر السابق

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٢٩، والبحر المحيط ٨/ ٤٠٨، والدر المصون ٦/ ٤٦٩.

قوله: ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾. يجوز في «ما» أن تكون استفهامية معلقة لـ «يَنْظُر» على أنَّه من النظر، فتكون الجملة في موضع نصب على إسقاط الخافض، وأن تكون موصولة مفعولة بها، والنَّظر بمعنى الانتظارِ، أي: ينتظر الذي قدمت يداه.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾.

العامة: لا يدغمون تاء «كنت تراباً» قالوا: لأنَّ الفاعل لا يحذف، والإدغامُ يشبه الحذف، وفي قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر شهادة عليه بذلك.

فصل في نزول هذه الآية

قال مقاتل: نزل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ في أبِي سلمةَ بْنِ عَبْدِ الأسدِ المخزوميِّ. ويقول الكافر: «يَا ليْتَنِي كُنْتُ تُراباً» في أخيه الأسودِ بْنِ عبدِ الأسدِ[(١)].

وقال الثعلبي: سمعت أبا القاسم بن حبيب يقول: الكافر هنا إبليس ـ لعنة الله عليه ـ وذلك بأنه عاب آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأنه خلقَ من تُرابِ، وافتخر بأنه خلقَ من نار، فإذا عاين يوم القيامة ما فيه آدم وبنوه من الثواب والراحة، ورأى ما هو فيه من الشدة والعذاب، تمنى أنه كان بمكان آدم، فيقول: يا ليتني كنت تراباً، قال: ورأيته في بعض التفاسير للقشيري أبي نصر.

روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «يُحْشَرُ الخَلقُ كُلُّهُمْ مِنْ دابَّةٍ، وطَائِرٍ، وإنْسَانٍ، ثُمَّ يُقَالُ للبَهَائِمِ والطَّيْرِ: كُونُوا تُرَاباً، عند ذلكَ يَقُولُ الكَافِرُ: يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً»[(٢)].

وقيل: معنى «يا ليتني كنت تراباً» أي: لم أبعث.

وقال أبو الزناد: إذا قُضِيَ بين الناس، وأمِرَ بأهْلِ الجنَّة إلى الجنَّة، وأهْلِ النَّار إلى النار، قيل لسائر الأمم ولو من الجن: عودوا تراباً، فيعودون تراباً، فعند ذلك يقول الكافر حين يراهم: يا ليتني كنت تراباً.

وقال ليث بن أبي سليم: مُؤمنو الجِنِّ يعُودُونَ تُرَاباً.

وقال عُمرُ بْنُ عبدِ العزيْزِ والزُهرِيُّ والكلبيُّ ومجاهدٌ: مؤمنو الجِنِّ حول الجنَّةِ في رَبضِ ورحابِ وليسوا فيها، وهذا أصح، فإنهم مُكلَّفُونَ: يُثَابونَ ويُعاقَبُونَ كبَنِي آدمَ.

روى الثعلبي عن أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ سقاه الله تعالى بَرْدَ الشَّرابِ يَوْمَ القِيامَةِ»[(٣)].

---

(١) ينظر تفسير القرطبي (١٩/ ١٢٣).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤١٩)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٠٧)، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في «البعث».

(٣) تقدم تخريجه.

سورة [النازعات][1]

مكية، وهي ست وأربعون آية، ومائة وسبعون كلمة، وسبعمائة وثلاثون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥)﴾

قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ يجوز في «غرقاً» أن يكون مصدراً على حذفِ الزوائد، بمعنى: «إغْرَاقاً»، وانتصابه بما قبله لملاقاته في المعنى.

وإمَّا على الحال، أي: ذواتُ إغراقٍ، يقال: أغرق في الشيء يغرق فيه إذا أوغل، وبلغ أقصى غايته، ومنه أغرق النازع في القوس أي: بلغ غاية المد والاستغراق والاستيعاب.

فصل في المراد بالنازعات

أقسم الله تعالى بهذه الأسماء الخمسة على أن القيامة حق.

و «النَّازعات» قيل: هي الملائكة التي تنزع أرواح الكُفَّار، قاله علي، وابن مسعود، ومسروق، ومجاهد[2].

قال ابن مسعود: يريد أنفس الكفار ينزعها ملك الموت من أجسادهم، من تحت كل شعرة، ومن تحت الأظافير، وأصول القدمينِ نزعاً، كالسَّفُّود ينزع من الصوف الرَّطب، ثم يغرقُها، أي: يرجعها إلى أجسادهم، ثم ينزعها، فهذا عمله في الكفَّار[3].

وقال سعيد بن جبير: نُزِعَتْ أرْواحُهم، ثم غرقت، ثم حرقت، ثم قذف بها في النار[4].

---

(١) في أ: الساهرة.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٢٠)، عن ابن مسعود وابن عباس ومسروق وسعيد بن جبير.

(٣) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٤٤١)، والقرطبي (١٩/ ١٢٤).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٢٠).

وقيل: يرى الكافر نفسه في وقت النَّزْع كأنها تغرق.

وقال السدي: «والنَّازِعَات» هي النفوس حين تغرقُ في الصُدور[١].

وقال مجاهد: هي الموت ينزع النفوس[٢].

وقال الحسن وقتادة: هي النُّجوم تنزع من أفق إلى أفق[٣]، أي: تذهب، من قولهم: نزع إليها أي ذهب، أو من قولهم: نزعت الخيل، أي: «جرت»، «غرقاً» أي أنها تغرق وتغيب وتطلع من أفق إلى أفق آخر، وهو قول أبي عبيدة وابن كيسان والأخفش.

وقال عطاء وعكرمة: «والنَّازعَاتِ» القسيُّ تنزع بالسهام.

«غرقاً» بمعنى: إغراق، وإغراق النازع في القوس إذا بلغ غاية المدِّ حتى ينتهي إلى النَّصلِ، ويقال لقشرة البيضة الدَّاخلة «غِرْقىء».

وقيل: هم الغُزَاةُ الرُّماة، وهو والذي قبله سواء؛ لأنه إذا أقسم بالقسي فالمراد: النازعون بها تعظيماً لها، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ [العاديات: ١].

وقال يحيى بنُ سلام: هي الوحش تنزع من الكلأ[٤] وتنفر.

ومعنى «غرقاً» أي: إبعاداً في النزع.

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾.

اعلم أن «نَشْطاً، وسَبْحاً، وسَبْقاً» كلها مصادر.

والنَّشْطُ: الرَّبْطُ، والإنشاطُ: الحل، يقال: نَشَطَ البعير: رَبطهُ، وأنشطهُ: حله.

ومنه: «كأنَّما أنشط من عقال»، فالهمزة للسَّلب، ونشط: ذهب بسرعةٍ، ومنه قيل لبقر الوحش: النواشط؛ وقال هميانُ بنُ قحافةَ: [الرجز]

٥٠٨٦ ـ أمْسَتْ هُمومِي تَنْشِطُ المنَاشِطَا الشَّام بِي طَوْراً وطَوْراً واسِطَا[٥]

ونشط الحبل أنشطه أنشوطة: عقدته، وأنْشَطْتُه: مددته، ونشط كـ «أنشط».

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٠٩)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم عن السدي. وأخرجه الطبري (١٢/ ٤٢١).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٢١)، عن مجاهد.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٠٩)، وعزاه إلى عبد بن حميد وأبي الشيخ في «العظمة».

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٢٢)، عن قتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٠٩)، عن قتادة والحسن وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٤) في أ: الكلاب.

(٥) ينظر اللسان (نشط)، والقرطبي ١٩/ ١٢٥، والبحر ٨/ ٤٠٩، والدر المصون ٦/ ٤٧٠، وروح المعاني ٣٠/ ٦.

قال الأصمعي: بئرٌ أنشاط: أي: قريبةُ القعرِ، يخرج الدَّلوُ منها بجذبةٍ واحدةٍ، وبئر نشُوط، قال: وهي التي لا تخرج الدلو منها حتى تنشط كثيراً.

فصل في المراد بالناشطات

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعنى الملائكةُ تنشط نفس المؤمن، فتقبضها كما ينشط العقال من يد البعير إذا حلَّ عنه[١].

وقيل: يعني أنفس الكفار والمنافقين تنشط كما ينشط العقب الذي يعقب به السَّرج.

والنَّشَطُ: الجذبُ بسرعة.

ومنه الأُنشوطةُ: عقدة يسهل انحلالُها إذا جذبتْ مثل عقدة التكّة.

قال الليث: أنشطه بأنشوطة وأنشوطتين أي: أوثقته، وأنشطت العقال، أي: مددت أنشوطته فانحلّت.

ويقال: نشط بمعنى أنشط، لغتان بمعنى.

وعن ابن عباس أيضاً: أن الناشطات الملائكة، لنشاطها تذهب وتجيء بأمر ربها حيثما كان[٢].

وقال مجاهدٌ: هو الموت ينشط نفس الإنسان[٣].

وقال السدي: هي النفوس حين تَنْشَطُ من القدَميْنِ[٤].

وقال قتادةُ، والحسنُ والأخفشُ: هي النجوم تنشط من أفقٍ إلى أفقٍ[٥]، أي: تذهب.

قال الجوهريُّ: يعنى النجوم تنشطُ من بُرجٍ إلى برجٍ، كالثَّور الناشط من بلدٍ إلى بلدٍ.

وقيل: «النازعات» للكافرين، «والنَّاشطاتِ» للمؤمنين، فالملائكةُ يجْذِبُونَ أرواح المؤمنين برفقٍ.

والنَّزْعُ: جذبٌ بشدَّةٍ.

وقيل: هما جميعاً للكفَّار، والاثنان بعدهما للمؤمنين.

قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾. قال عليٌّ رضي الله عنه: هي الملائكة تُسبح أرواح المؤمنين[٦].

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/ ١٢٥).
(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٢٢).
(٣) ينظر تفسير القرطبي (١٩/ ١٢٥).
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٢٥).
(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٢٢)، عن قتادة وينظر تفسير البغوي (٤/ ٤٤٢)، والمصدر السابق.
(٦) ذكره القرطبي (١٩/ ١٢٦)، عن علي.

قال الكلبيُّ: كالذي يسبح في الماء، فأحياناً يَنْغَمِسُ، وأحياناً يرتفع يسلُّونها سلاً رفيقاً بسهولة، ثم يدعُونهَا حتى تستريح[١].

وقال مجاهدٌ وأبو صالحٍ: هي الملائكة ينزِلُونَ من السماء مُسْرِعِينَ لأمر الله تعالى[٢]، كما يقال للفرس الجوَاد: سابحٌ إذا أسرع في جريه، وعن مجاهد: السابحات: الموت يسبح في نفوس بني آدم. وقيل: هي الخيل الغزاة.

قال عنترةُ: [مجزوء الكامل]

٥٠٨٧ ـ والخَيْلُ تَعْلَمُ حِينَ تَسْـ ـبَحُ في حِيَاضِ المَوْتِ سَبْحَا[٣]

وقال قتادة والحسنُ: هي النجوم تسبحُ في أفلاكها[٤]، وكذا الشمس والقمر.

قال تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

وقال عطاءٌ: هي السُّفن تسبحُ في الماءِ[٥].

وقال ابن عباسٍ: أرواح المؤمنين تسبحُ شوقاً إلى لقاء الله تعالى ورحمته حين تخرج[٦].

قوله تعالى: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا﴾.

قال عليٌّ رضي الله عنه: هي الملائكة، تسبقُ الشياطينَ بالوَحْيِ إلى الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وهو قول مسروق ومجاهد[٧].

وعن مجاهد ـ أيضاً ـ وأبي روق: هي الملائكة سبقت بني آدم إلى العملِ الصَّالحِ، فتكتبه[٨].

وعن مجاهد ـ أيضاً ـ الموت يسبقُ الإنسان[٩].

وقال مقاتلٌ: هي الملائكة تسبقُ بأرواح المؤمنين إلى الجنَّةِ[١٠].

---

(١) ينظر المصدر السابق.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٢٣)، عن مجاهد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٠٩)، عن أبي صالح وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) ينظر: السراج المنير ٤/ ٤٧٦، والقرطبي ١٩/ ١٢٦.

(٤) أخرجه الطبري (١٢/ ٤٢٣)، عن قتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٠٩)، وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٢٣)، عن عطاء.

(٦) أخرجه القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٢٦)، عن ابن عباس.

(٧) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١٩٣)، وينظر المصدر السابق.

(٨) ينظر المصدر السابق.

(٩) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٢٤)، عن مجاهد.

(١٠) ذكره القرطبي (١٩/ ١٢٦).

وقال ابنُ مسعودٍ: هي أنفسُ المؤمنين، تسبقُ إلى الملائكة الذين يقبضونها، وقد عاينت السرور شوقاً إلى لقاءِ الله تعالى[١].

وقال قتادةُ والحسن ومعمر: هي النجوم تسبق بعضها[٢].

وقال عطاءٌ: هي الخيلُ التي تسبقُ إلى الجهاد[٣].

وقيل: يحتملُ أن تكون «السَّابقات» ما تسبق من الأرواح قبل الأجساد إلى جنة، أو نار؛ حكاه الماورديُّ.

قال الجرجانيُّ: وذكر «فالسَّابقَاتِ» بالفاء؛ لأنها مشتقة من التي قبلها، أي: واللاتي يَسْبحْنَ فيسبقن، تقول: قام فذهب، فهذا يوجبُ أن يكون القيام سبباً للذهابِ.

قال الواحديُّ: قول صاحب النَّظم غير مطرد في قوله: «فالمُدبِّراتِ أمْراً»؛ لأنه يبعد أن يجعل السَّبقُ سبباً للتَّدبير.

قال ابن الخطيب ويمكن الجواب عن اعتراض الواحديِّ[٤]: بأنها لمَّا أمرتْ سبَحتْ، فسَبقَتْ، فدَبَّرتْ ما أمِرَتْ بتَدْبِيرِهِ، فتكون هذه أفعالاً يتَّصِلُ بعضها ببعض، كقولك: قام زيد، فذهب، فضرب عمراً، أو لمَّا سبقُوا في الطَّاعاتِ يُسَارِعُونَ إليها، ظهرت أمانَتهُمْ، ففوَّض إليهم التَّدبيرَ.

قوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾.

قيل: «أمْراً» مفعول بالمُدبِّراتِ.

وقيل: حال، تُدبِّرهُ مأمورات، وهو بعيد.

قال القشيريُّ: أجمعوا على أن المراد: الملائكة.

وقال الماورديُّ: فيه قولان:

أحدهما: الملائكةُ، قاله الجمهور.

والقول الثاني: هي الكواكب السبع، حكاه خالد بن معدان عن معاذ بن جبل.

وفي تدبيرها الأمور وجهان:

أحدهما: تدبيرُ طُلوعِهَا وأفُولِهَا.

---

(١) ذكره البغوي (٤/ ٤٤٢)، عن ابن مسعود وينظر المصدر السابق.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٢٤)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٠٩)، وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٢٤)، عن عطاء.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٣١.

والثاني: في تدبير ما قَضى الله ـ تعالى ـ فيها من تقليب الأحوال.

وحكى هذا القول ـ أيضاً ـ القشيري في تفسيره، وأن الله ـ تعالى ـ علَّق كثيراً من تدبير العالم بحركاتِ النُّجُومِ، فأضيف التدبير إليها، وإن كان من الله ـ تعالى ـ كما يُسمَّى الشيء باسم ما يجاوره.

وقال شهاب الدِّين(١): والمراد بهؤلاء إمَّا طوائفُ الملائكة، وإمَّا طوائفُ خيل الغزاة، وإما النجوم، وإمَّا المنَايَا، وإمَّا بقرُ الوحشِ وما جرى مجراها لسرعتها، وإما أرواح المؤمنين يعني المذكورين في جميع القسم(٢).

فصل في تدبير الملائكة

«تَدبِيْرُ المَلائِكَة»: نزولها بالحلالِ، والحرام، وتفصيله، قال ابن عباس، وقتادة، وغيرهما إلى الله تعالى، ولكن لمَّا أنزلت الملائكةُ سُمِّيت بذلك، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢] يعني: جبريل نزَّلهُ على قلب محمدٍ ﷺ والله سبحانه وتعالى هو الذي أنزلهُ.

وروى عطاء عن ابن عباس: «فالمُدبِّراتِ أمْراً»، هي الملائكة وكِّلت بِتدْبِيْرِ أحوال أهلِ الأرض في الرياح والأمطار(٣)، وغير ذلك.

قال عبدُ الرَّحمنِ بنُ ساباط: تدبير أمر الدنيا إلى أربعة:

جِبْريلِ، ومِيْكَائِيلِ، وملكِ الموتِ واسمه عِزرَائِيلُ، وإسْرَافِيْل، فأمَّا جِبْريْل، فمُوكَّلٌ بالرياح، والجنود، وأمَّا مِيْكَائِيْل، فمُوكَّلٌ بالقَطْرِ والنِّباتِ، وأمَّا ملكُ الموتِ فمُوكَّلٌ بقبض الأرْواحِ في البرِّ والبَحْرِ، وأما إسْرافِيلُ، فهو ينزلُ بالأمر عليهم، وليس في الملائكة أقربُ من إسرافيل، وبينه وبين العرش خَمْسمائةِ عامٍ.

وقيل: وُكِّلُوا بأمُورٍ عرَّفهمُ اللَّهُ بِهَا(٤).

فإن قيل: لِمَ قَالَ: «أمْراً»، ولم يَقُلْ: أمُوراً، فإنهم يدبرون أمُوراً كثيرة؟.

فالجوابُ: أنَ المرادَ به الجنسُ، فهو قائم مقام الجمعِ.

واعلم أنَّ هذه الكلمات أقسم الله ـ تعالى ـ بها، ولله ـ تعالى ـ أن يقسم بما شاء من خلقه، وليس لنا ذلك.

---

(١) الدر المصون ٦/ ٤٧٠.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٢٧).

(٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥١٠)، وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في «شعب الإيمان».

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ منصوبٌ بفعلٍ مقدَّرٍ، وهو جوابُ القسمِ، تقديرهُ: لتُبْعَثُنَّ، لدلالةِ ما بعده عليه.

قال الفرَّاءُ: ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً﴾، ألستَ ترى أنه كالجواب لقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً﴾ نُبعث؟ فاكتفى بقوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً﴾؟.

وقال الأخفشُ والزجاجُ: يَنفُخُنَ في الصُّورِ نَفْختَيْنِ، بدليل ذكر «الرَّادفة» و «الرَّاجفَةِ»، وهما النَّفختانِ.

قال الزمخشريُّ(١): فإن قلت: كيف جعلت «يَوْمَ تَرْجفُ» ظرفاً للمضمر الذي هو لتُبْعَثُنَّ، ولا يبعثون عند النفخة الأولى؟.

قلت: المعنى: لتبعثن في الوقت الواسع الذي تقع فيه النفختان، وهم يبعثون في بعض ذلك الوقت الواسع، وهو وقت النفخة الأخرى، ودلَّ على ذلك أن قوله: ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ جعل حالاً عن «الرَّاجِفَة».

وقيل: العامل مقدر، أي: اذكر يوم ترجفُ.

وفي الجواب على هذا التقدير وجوهٌ:

أحدها: قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ [النازعات: ٢٦].

واستقبحه أبو بكر بن الأنباري، لطول الفصل.

الثاني: أنه قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [الإنسان: ١]؛ لأن «هَلْ» بمعنى: «قَدْ».

وهذا غلطٌ؛ لأنه كما تقدَّم في «هَلْ أَتَىٰ» أنَّها لا تكون بمعنى: «قد» إلاَّ في الاستفهام على ما قال الزمخشري.

الثالث: أن الجواب: «تَتْبعُهَا» وإنَّما حذفتِ «اللامُ»، والأصل: «اليَوْمَ تَرْجفُ الرَّاجفةُ تَتْبعُهَا»، فحذفت «اللاَّمُ»، ولم تدخل نون التوكيد على تتبعها للفصل بين «اللام» المقدَّرة، وبين الفعل المقسمِ عليه بالظرف، ومثله: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٨].

وقيل: في الكلام تقديم، وتأخير، أي: يَوْمَ تَرْجفُ الرَّاجفةُ، تَتْبعُهَا الرَّادفة والنَّازعات.

(١) ينظر الكشاف ٤/ ٦٩٣.

وقال أبو حاتم: هو على التقديم، والتأخير، كأنه قال: فإذا هم بالساهرة والنازعات.

قال ابنُ الأنباريِّ: وهذا خطأ؛ لأن الفاء لا يفتتح بها الكلام.

وقيل: «يَوْمَ» منصوب بما دلَّ عليه «راجِفةٌ»، أي: يَوْمَ تَرْجفُ رَجَفَتْ.

وقيل: بما دلَّ عليه «خَاشِعَة» أي: يوم ترجف خشعت، وقوله: «تَتبعُهَا الرَّادفَةُ» يجوز أن يكون حالاً من «الرَّاجِفَةُ»، وأن يكون مستأنفاً.

فصل في تفسير الآية

قال عبد الرحمن بن زيد: «الرَّاجِفَةُ» أي: المُضطَرِبَةُ، ومعناه: أنَّ الأرض تضطرب، و «الرَّادفة» السَّاعة.

وقال مجاهدٌ: الزلزلةُ تتبعها الرادفة، أي: الصيحة.

وعنه ـ أيضاً ـ، وابن عباس والحسن وقتادة: هما الصَّيحتان، أي: النفختان، أمَّا الأولى فتُمِيتُ كُلَّ شيء بإذنِ الله تعالى، وأمَّا الثانية فتُحْيِي كُلَّ شيءٍ بإذن الله تعالى.

قال ﷺ: «بَيْنَ النَّفْخَتيْنِ أرْبعُونَ سنةً»(١).

وقال مجاهد: «الرَّاجفَةُ» الرجفة حين تنشقُّ السَّماءُ، وتُحْملُ الأرضُ والجبالُ، فتُدَكُّ دكَّةً(٢) واحدةٍ [وذلك بعد الزلزلة وقيل: الرجفة تحرك الأرض والرادفة زلزلة أخرى تفني الأرضين](٣).

وأصل «الرَّجفَةِ» الحركةُ، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ﴾ [المزمل: ١٤]، وليست الرجفة هناك من الحركة فقط، بل من قولهم: رجف الرَّعدُ يرجف رجفاً ورجيفاً، أي: أظهرت الصوت والحركة، ومنه سُمِّيت الأراجيف لاضطراب الأصوات بها، وإفاضة النَّاس فيها.

وقيل: الرجفة هذه منكرة في السحاب، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٧٨].

وأما الرادفة: فكل شيء جاء بعد شيء آخر، يقال: ردفهُ: أي: جاء بعده.

قوله: ﴿قُلُوبٌ﴾ مبتدأ، و «يومئذ» منصوب بـ «وَاجِفَة»، و «وَاجِفَة» صفة القلوب،

---

(١) تقدم.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٢٥)، عن مجاهد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥١٠)، وعزاه إلى عبد بن حميد والبيهقي في «البعث».

(٣) سقط من: ب.

وهو المسوغ للابتداء بالنكرة، و «أَبْصارُهَا» مبتدأ ثانٍ، و «خَاشِعَة» خبره، وهو وخبره خبر الأول، وفي الكلام حذف مضاف، تقديره: أبصار أصحاب القلوب.

قال ابن عطية[1]: وجاز ذلك، أي: الابتداء بـ «قُلُوب»؛ لأنها تخصصت بقوله: «يَوْمئِذ».

ورد عليه أبو حيان[2]: بأن ظرف الزَّمان لا يخصص الجثث، يعني: لا يوصف به الجثث.

و «الواجِفة»: الخائفة الوجلة، قاله ابن عباس[3]، يقال: وجَفَ يَجِفُ وجِيفاً، وأصله: اضطراب القلب.

قال قيس بن الخطيم: [المنسرح]

٥٠٨٨ ـ إنَّ بَنِي جَحْجَبَى وأسْرتَهُمْ أكْبَادُنَا مِنْ وَرائِهِمْ تَجِفُ[4]

وقال السديُّ: زَائلةٌ عن أماكنها، ونظيره: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾[5] [غافر: ١٨].

وقال المؤرج: قلقة مستوفزة، مُرتكضةٌ غير ساكنة.

وقال المبرد: مضطربة، والمعنى متقارب، والمراد: قلوب الكفَّار، يقال: وجَفَ القلب يَجِفُ وجِيفاً: إذا خفق، كما يقال: وجَبَ يَجِبُ وَجِيْباً ـ بالباء الموحدة ـ بدل الفاء، ومنه وجيف الفرس والنَّاقة في العدوِ.

والإيجاف: حمل الدابة على السير السريع.

قوله: ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾ أي: مُنكَسِرةٌ ذليلة من هول ما ترى، نظيره: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [القلم: ٤٣].

قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: يقول هؤلاء المكذِّبون المنكِرُونَ للبعث إذا قيل لهم: إنكم تُبْعثُون، قالوا منكرين متعجبين: أنُرَدُّ بعد موتتنا إلى أول الأمر، فنعود أحياء، كما كنا قبل الموت؟ وهو كقولهم: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣١. (٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤١٣.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥١٠)، وعزاه إلى ابن المنذر.

(٤) هذا البيت ملفق من بيتين من فائية قيس المشهورة، أولهما قوله:

أَبْلِغْ بَنِي جَحْجَبَى وقَومَهُمُ خَطْمَةَ أَنَّا وَرَاءَهُمْ أُنُفُ

والثاني بعد هذا البيت، وهو قوله:

أَنَّا وَلَوْ قَدَّمُوا الَّتي عَلِمُوا أَكْبَادُنَا مِنْ وَرَائِهِمْ تَجِفُ

فركب من البيتين البيت المستشهد به؛ أخذ صدر الأول، وجعل له عَجُز البيت الثاني.

ينظر ديوان قيس بن الخطيم ص (١١١)، والأصمعيات ص ١٩٨، والأغاني ٣/ ٢٣، والبحر المحيط ٨/ ٤١٢، والدر المصون ٦/ ٤٧١.

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٢٨).

قوله: ﴿فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ «الحافرة»: الطَّريقة التي يرجعُ الإنسان فيها من حيث جاء، يقال: رجع في حافرته، ثم يعبر عن الرجوع في الأحوال من آخر الأمر إلى أوله؛ قال: [الوافر]

٥٠٨٩ ـ أحَافِرةً عَلى صَلعٍ وشَيْبٍ؟ مَعَاذَ اللَّهِ من سَفهٍ وعَارِ[1]

يقول: أأرجعُ ما كنت عليه في شبابي مع الغزلِ والصبا بعد أن شبت وصلعت؟.

وأصله: أنَّ الإنسان إذا رجع في طريقه أثرت قدماه فيها حفراً.

وقال الراغبُ: في قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ مثل لمن يرد من حيث جاء، أي: أنَحْيَا بعد أن نموت؟.

وقيل: «الحَافِرة»، الأرضُ التي جُعلتْ قبُورهُمْ فيها، ومعناه: أئِنَّا لمردودون ونحن في الحافرة؟ أي: في القبور.

وقوله: «في الحافرة» على هذا في موضع الحال، ويقال: رجع الشيخ إلى حافرته، أي: هرم لقوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [النحل: ٧٠].

وقولهم: «النقد عند الحافرة» لما يباع نقداً، وأصله من[2] الفرس إذا بيع، فيقال: لا يزول حافره، أو ينقد ثمنه.

والحفر: تآكل الأسنان، وقد حفر فوه حفراً، وقد أحفر المهر للأثناء والأرباع.

والحافرة: «فاعلة» بمعنى: «مفعولة»، وهي الأرض التي تحفر قبورهم فيها فهي بمعنى: «المحفورة»، كقوله تعالى: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦]، و﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [القارعة: ٧]، والمعنى: أئِنَّا لمردودون في قبورنا.

وقيل: على النسب، أي: ذاتُ حفر.

وقيل: سُمِّيت الأرض الحافرة؛ لأنها مستقر الحوافر، كما سمِّيت القدم أرضاً؛ لأنها على الأرض، لقولهم: الحافرة جمع حافر بمعنى: القدم أي: نمشي أحياء على أقدامنا، ونطأ بها الأرض.

وقيل: هي أول الأمر.

ويقول التجار: «النقد في الحافرة» أي في أول السّوم؛ وقال الشاعر: [السريع]

٥٠٩٠ ـ آلَيْتُ لا أنسَاكُم فاعْلَمُوا حَتَّى يُرَدَّ النَّاسُ في الحَافِرَهْ[3]

---

(١) ينظر سمط اللآلىء ١/ ١٢٢، وإصلاح المنطق ص ٣٢٧، والكشاف ٤/ ٦٩٤، والطبري ٣٠/ ٢٢، واللسان (حضر)، والقرطبي ١٩/ ١٢٨، والبحر ٨/ ٤١٠، ومجمع البيان ١٠/ ٦٥١، والدر المصون ٦/ ٤٧١.

(٢) في ب: في.

(٣) ينظر القرطبي ١٩/ ١٢٨، والبحر ٨/ ٤١٣، والدر المصون ٦/ ٤٧٢، وفتح القدير ٥/ ٣٧٤.

وقال ابن زيدٍ: الحافرة «النَّار»، وقرأ: «تلك إذا كرَّه خاسرة»[١].

وقال مقاتلٌ وزيدُ بن أسلم: هي اسم من أسماء النار[٢].

وقال ابنُ عبَّاسٍ: الحافرة في كلام العرب: الأرض التي تغيَّرت وأنتنت بأجسادِ موتاها[٣]، من قولهم: حفرت أسنانه، أي: تآكلت، أي: دكها الوسخُ من باطنها وظاهرها، ويجوز تعلقه بـ «مردودون»، أو: بمحذوف على أنه حال.

فصل في تفسير الآية

قال ابن الخطيب[٤]: هذه الأحوال المتقدمة هي أحوال القيامة عند جمهور المفسرين.

وقال أبو مسلم: هذه الأحوال ليست هي أحوال القيامة؛ لأنه فسَّر «النَّازعات» بنزع القوسِ، و «النَّاشطَات» بخروج السَّهم، و «السَّابحَاتِ» بعدو الفرس، و «السَّابقات» بسبقها، و «المُدبِّرات» بالأمور التي تحصل أدبار ذلك الرمي، والعدو، ثم بنى على ذلك، فقال: «الرَّاجفَة» هي خيلُ المشركين، وكذلك «الرَّادفة»، وهما طائفتان من المشركين غزوا رسول الله ﷺ فسبقت إحداهما الأخرى، والقلوب الواجفة، هي القلقةُ، والأبصار الخاشعة، هي أبصار المنافقين، كقوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠]، كأنَّه قيل: لمَّا جاء خيل العدو ترجف؛ لأنها اضطربت قلوب المنافقين خوفاً، وخشعت أبصارهم جُبْناً وضَعْفاً ثم قالوا: «أئِنَّا لمردودون فِي الحَافِرَةِ» أي: نرجع إلى الدنيا حتى نتحمَّل هذا الخوف لأجلها. وقالوا أيضاً: «تِلْكَ إذا كَرَّة خَاسِرةٌ»، فأول هذا الكلام حكاية لحال من غزا رسول الله ﷺ من المشركين، وأوسطه حكاية لحال المنافقين، وآخره حكاية لكلام المنافقين في إنكار الحشر، ثم إنه ـ تعالى ـ أجاب عن كلامهم بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾.

قال ابن الخطيب[٥]: وكلام أبي مسلم محتملٌ، وإن كان على خلاف قولِ الجمهور.

قوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾.

قرأ الأخوان وأبو بكر[٦]: «نَاخِرَةً» بألف.

والباقون: «نَخِرة» بدُونِهَا.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٢٧ ـ ٤٢٨)، عن ابن زيد.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٢٨). (٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) ينظر الفخر الرازي ٣١/ ٣٢. (٥) الفخر الرازي ٣١/ ٣٣.

(٦) ينظر: السبعة ٦٧٠، ٦٧١، والحجة ٦/ ٣٧١، وإعراب القرارات ٢/ ٤٣٥، وحجة القراءات ٧٤٨.

وهما كـ «حَاذِرٍ، وحَذِر» فاعل لمن صدر عنه الفعل، و «فعل» لمن كان فيه غريزة أو كالغريزة.

وقيل: ناخِرَة، ونخِرَة بمعنى: بالية.

يقال: نَخِر العظم ـ بالكسر ـ أي بلي وتفتَّت.

وقيل: نَاخِرةٌ، أي: صارت الريح تَنْخرُ فيها، أي: تصوت، ونَخِرَةٌ أي: ينخر فيها دائماً.

وقيل: ناخرة، أي: بالية، ونخرة: متآكلة.

وعن أبي عمرو: النَّاخرة: التي لم تنخر بعد، والنَّخرةُ: البالية.

وقيل: النَّاخرةُ: المصوت فيها الريح، والنَّاخرة: البالية التي تعفّنت.

قال الزمخشري[1]: «نَخِرَ العَظْمُ فهو نَخِرٌ ونَاخِرٌ، كقولك: طمع، فهو طَمِعٌ وطَامِع، و «فَعِل» أبلغ من فاعل، وقد قُرِىء بهما، وهو البالي الأجوف الذي تمرُّ فيه الريح، فيسمع له نخير».

ومنه قول الشاعر: [الطويل]

٥٠٩١ ـ وأخْلَيْتُهَا مِنْ مُخِّهَا فكَأنَّها ... قَوارِيرُ في أجْوافِهَا الرِّيحُ تَنْخُرُ[2]

وقال الرَّاجز لفرسه: [الرجز]

٥٠٩٢ ـ أقْدِمْ سَجاجِ إنَّها الأسَاوِرَهْ ... ولا يَهُولَنكَ رُءُوسٌ نَادِرَهْ

فإنَّمَا قَصْرُكَ تُرْبُ السَّاهِرَهْ ... ثُمَّ تَعُودُ بَعْدَهَا في الحَافِرَهْ

مِنْ بَعْدِ مَا كُنت عِظَاماً نَاخِرَهْ[3]

ونُخرةُ الريح ـ بضم النون ـ شدة هبوبها، والنُّخْرةُ أيضاً: مقدم أنف الفرس، والحمار، والخنزير، يقال: هشم نخرته، أي: مقدم أنفه.

و «إذَا» منصوبٌ بمُضْمَرٍ، أي: إذَا كُنَّا كذا نُردُّ ونُبعَثُ.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾.

«تلك» مبتدأ مشار بها إلى الرَّجفةِ والردة في الحافرة، و «كَرَّةٌ» خبرها، و «خاسِرة»

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٦٩٤.

(٢) البيت للحارثي ينظر ديوان الحماسة ٢/ ١٦٥، والبحر ٨/ ٤١٠، والدر المصون ٦/ ٤٧٢.

(٣) ينظر سمط اللآلىء ١/ ١٢٤، والاشتقاق لابن دريد ص ٦٧، ١٨، ٣١٦، والطبري ٣٠/ ٢٣، ٢٤، ومجمع البيان ١٠/ ٦١، واللسان (نخر)، والبحر ٨/ ٤١٠، والدر المصون ٦/ ٤٧٢، والقرطبي ١٩/ ١٣٠.

صفة، أي: ذاتُ خسرانٍ، أو أسند إليها الخسار مجازاً والمراد أصحابُها، والمعنى: إن كان رجوعنا إلى القيامة حقاً، فتلك الرجعة رجعة خاسرة [خائبة](١)، وهذا أفادته «إذن» فإنها حرف جواب وجزاء عند الجمهور.

وقيل: قد لا تكون جواباً.

وعن الحسن: أن «خاسرة» بمعنى كاذبة، أي: ليست كائنة(٢).

وقال الربيع بن أنس: خاسرةٌ على من كذَّب بها(٣).

وقيل: كَرَّةُ خُسران، والمعنى: أهْلُهَا خاسرون، كقولك: تِجَارةٌ رابحةٌ، أي: يَرْبَحُ صاحبها.

وقال قتادة ومحمد بن كعب أي: لئن رجعنا أحياءً بعد الموت لنحشرن بالنَّار، وإنَّما قالوا هذا لأنَّهُم أوعدُوا بالنار(٤)، و «الكَرُّ»: «الرجوع»، يقال: كرَّهُ، وكَرَّ بنفسه، يتعدى ولا يتعدَّى.

والكَرَّةُ: المرَّةُ، الجمع: الكرَّات.

قوله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ ضمير الكرة، أي: لا تحسبوا تلك الكرَّة صعبة على الله تعالى.

قال الزمخشري(٥): «فإن قلت: بم يتعلق قوله: «فإنما هي»؟.

قلت: بمحذوف، معناه: لا تستصعبوها فإنما هي زجرة واحدة»، يعني بالتعلُّق من حيث المعنى، وهو العطف.

وقوله: «فإذَا هُمْ» المفاجأة والسبب هنا واضحان.

والزجرة: قال ابن عباس رضي الله عنهما: في النَّفخةِ الواحدة «فإذا هُمْ» أي: الخلائق أجمعون، «بالساهرة» أي: على وجه الأرض من الفلاة، وصفت بما يقع فيها، وهو السهر لأجل الخوف(٦).

وقيل: لأن السراب يجري فيها من قولهم: «عين ساهرة» أي جارية الماء، وفي ضدها نائمة.

[قال الزمخشري(٧): «والساهرةُ: الأرض البيضاء المستوية، سميت بذلك؛ لأن

---

(١) سقط من ب.
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٢٩).
(٣) ينظر المصدر السابق.
(٤) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١٩٦)، وينظر المصدر السابق.
(٥) ينظر الكشاف ٤/ ٦٩٤.
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ١٢٩)، عن ابن عباس.
(٧) ينظر الكشاف ٤/ ٦٩٤.

السراب يجري فيها][1] من قولهم: عين ساهرة، أي: جارية الماء، وفي ضدِّها نائمة؛ قال الأشعثُ بن قيسٍ: [الطويل]

٥٠٩٣ ـ وسَاهِرةٍ يُضْحِي السَّرابُ مُجَلِّلاً لأقْطَارِهَا قدْ جُبْتُهَا مُتلثِّمَا[2]

أي: ساكنها لا ينام خوف الهلكة» انتهى؛ وقال أميَّةُ: [الوافر]

٥٠٩٤ ـ وفِيهَا لَحْمُ سَاهِرةٍ وبَحْرٍ ومَا فَاهُوا بِه لهُمُ مُقِيمُ[3]

يريد: لحم حيوان أرض ساهرة؛ وقال أبو كبير الهذليُّ: [الكامل]

٥٠٩٥ ـ يَرْتَدْنَ سَاهِرةً كَأنَّ جَمِيمهَا وعَمِيمَهَا أسْدافُ ليْلٍ مُظْلِمِ[4]

وقال الراغب: هي وجه الأرض.

وقيل: أرض القيامة، وحقيقتها التي يكثر الوطء بها، كأنَّها سهرت من ذلك.

والأسهران: عرقان في الأنف.

والساهور: غلافُ القمر الذي يدخل فيه عند كسوفه؛ قال: [البسيط]

٥٠٩٦ ـ .... أوْ شُقَّةٌ خَرجتْ مِنْ بَطْنِ سَاهُورِ[5]

أي: هذه المرأة بمنزلة قطعة القمرِ. وقال أمية بن أبي الصلت: [الكامل]

٥٠٩٧ ـ قَمَرٌ وسَاهُورٌ يُسلُّ ويُغْمَدُ[6]

وروى الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «السَّاهرة: أرض من فضَّةٍ لم يُعْصَ اللَّهُ عليها مُنذُ خَلقهَا»[7].

وقيل: أرض يجددها الله يوم القيامة.

وقيل: السَّاهرة: اسم الأرض السابعة يأتي الله تعالى بها، فيحاسب عليها الخلائقَ، وذلك حين تبدَّلُ الأرض غير الأرض.

---

(١) سقط من: أ.

(٢) ينظر الكشاف ٤/ ٦٩٥، والسراج المنير ٤/ ٤٧٨، والدر المصون ٦/ ٤٧٣.

(٣) ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣٢، والقرطبي ١٩/ ١٣٠، واللسان (سهر)، والبحر ٨/ ٤١٠، والدر المصون ٦/ ٤٧٣.

(٤) ينظر ديوان الهذليين ٢/ ١١١، والقرطبي ١٩/ ١٣٠، واللسان (سدف)، و (سهر)، والبحر ٨/ ٤١٠، والدر المصون ٦/ ٤٧٣.

(٥) ينظر اللسان (سهر)، والقرطبي ١٩/ ١٣٠، والدر المصون ٦/ ٤٧٣.

(٦) عجز بيت وصدره:

لا نقص فيه غير أن خبيئه

ينظر ابن يعيش ٣/ ٢٥، والخصائص ٢/ ٤٥٣، والخزانة ٢/ ٢٣٢، واللسان (سهر)، والصحاح (سهر).

(٧) ينظر تفسير القرطبي (١٩/ ١٢٩)، عن ابن عباس.

وقال الثَّوري: السَّاهرة: أرضُ «الشَّام».

وقال وهبُ بن منبه: جبلُ بيتِ المقدسِ.

وقال عثمانُ بنُ أبي العاتكةِ: إنَّه اسم مكان من الأرض بعينه، بـ «الشام»، وهو الصقع الذي بين جبل «أريحَا»، وجبل «حسَّان» يمُدُّه اللَّه كيف يشاء.

وقال قتادةُ: هي جهنَّم(١)، أي: فإذا هؤلاءِ الكُفَّار في جهنَّم، وإنَّما قيل لها: ساهرة؛ لأنَّهُم لا ينامون عليها حينئذ.

وقيل: السَّاهرة بمعنى: الصحراء على شفيرِ جهنَّم، أي: يوقفون بأرض القيامة، فيدوم السهر حينئذ.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ أي: قد جاءك وبلغك، وهذه تسليةٌ للنبي ﷺ، أي: أنَّ فرعون كان أقوى من كفار عصرك، ثُمَّ أخذناه، وكذلك هؤلاء.

وقيل: «هَلْ» بمعنى: «ما» أي: ما أتاك، ولكنِّي أخبرك به، فإنَّ فيه عِبْرةً لمن يخشى.

وقال ابنُ الخطيبِ(٢): قوله: «هَلْ أتَاكَ» يحتملُ أن يكون معناه: ألَيْسَ قَدْ أتَاكَ حديثُ موسى، هذا إن كان قد أتاه ذلك قبل هذا الكلام، أمَّا إن لم يكن قد أتاه، فقد يجوز أن يقال: «هَلْ أتَاكَ» أي: أنا أخبرك وتقدم الكلام على موسى وفرعون فإنَّ فيه عبرة لمن يخشى.

قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ منصوب بـ «حديث» لا بـ «أتاك»؛ لاختلاف وقتيهما، وتقدم الخلاف بين القراء في «طُوَى» في سورة «طه: ١٢».

و «الوادي المقدس»: المُبَاركُ المُطَهَّر.

قال الفراء: «طُوى» واد بين «المدينة» و «مصر»، قال: وهو معدولٌ، من «طاو»، كما عدل «عُمَرُ» من «عامر».

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٣١)، عن قتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥١٢)، وعزاه إلى ابن المنذر.

وينظر تفسير الماوردي (٦/ ١٩٧)، والبغوي (٤/ ٤٤٤)، والقرطبي (١٩/ ١٣٠).

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٣٦.

قال الفراء: مَنْ صرفه قال: هو ذكر، ومن لم يصرفه جعله معدولاً كـ «عمر، وزفر».

قال: «والصَّرفُ أحبُّ إليَّ إذا لم أجد في المعدول نظيراً» أي: لم أجد له اسماً من الواو والياء عدلَ من «فاعل» إلى «فُعَل» غير طُوى.

وقيل: «طوى» معناه: يا رجل، بالعبْرانيَّةِ، فكأنَّه قيل: اذهب يا رجل إلى فرعون، [قاله ابن عباس.

وقيل: الطوى أي: ناداه بعد طويّ من الليل اذهب إلى فرعون][1]؛ لأنك تقول: جئتك بعد طويّ، أي بعد ساعة من الليل.

وقيل: معناه «بالوَادِ المُقدَّسِ طُوى» أي بُورِكَ فيهِ مرَّتيْنِ.

قوله: ﴿ٱذْهَبْ﴾ يجوز أن يكون تفسيراً للنداء، أي: ناداه اذهب، ويجوز أن يكون على إضمار القول.

وقيل: هو على حذف، أي: أن اذهب، ويدل له قراءة[2] عبد الله: أن اذهب.

و «أن» هذه الظَّاهرة أو المقدرة، يحتملُ أن تكون تفسيرية، وأن تكون مصدرية، أي: ناداه ربُّه بكذا.

«اذهب إلى فرعون إنه طغى» أي تجاوز القدر في العصيان.

قال ابنُ الخطيب[3]: ولم يُبيِّنْ أنَّه طغَى في أيِّ شيءٍ.

فقيل: تكبَّر على الله تعالى، وكفر به.

وقيل: تكبَّر على الخلقِ واسْتعبَدهُمْ.

روي عن الحسن قال: كان فرعون علجاً من «همدان»[4].

وقال مجاهد: كان من أهل «إصطخر»[5] وعن الحسن ـ أيضاً ـ كان من أهل «أصبهان»، يقال له: ذو ظفر، طوله أربعة أشبارٍ[6].

قوله: ﴿هَل لَّكَ﴾ خبر مبتدأ مضمر.

و ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ متعلّق بذلك المبتدأ، وهو حذفٌ سائغٌ، والتقدير: هل لك سبيل إلى التزكية، ومثله: هل لك في الخير، تريد: هل لك رغبة في الخير؛ قال: [الطويل]

---

(١) سقط من: ب.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٦٩٥، والدر المصون ٦/ ٤٧٤.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٣٧.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٣١).

(٥) ينظر المصدر السابق.

(٦) ينظر المصدر السابق.

٥٠٩٨ ـ فَهَلْ لَكُمْ فِيهَا إليّ فإنَّنِي بَصِيرٌ بِمَا أعْيَا النِّطَاسِيَّ حِذْيَمَا[١]

وقال أبو البقاء[٢]: لمَّا كان المعنى: أدعوك، جاء بـ «إلى».

وقال غيره: يقال: هل لك في كذا، هل لك إلى كذا كما تقول: هل ترغب فيه وهل ترغب إليه؟.

قال الواحدي: المبتدأ محذوف في اللفظ، مراد في المعنى، والتقدير: هل لك إلى أن تزكَّى حاجة.

وقرأ نافع وابن كثير[٣]: بتشديد الزاي من «تزَّكَّى» والأصل تتزكى، وكذلك «تَصدَّى» في السورة تحتها، فالحرميان: أدغما، والباقون: حذفوا، نحو تنزل، وتقدَّم الخلاف في أيتهما المحذوفة.

فصل في تفسير الآية

معنى «هَلْ لَكَ إلى أنْ تَزكَّى» أي: تُسْلِم فتطهرُ من الذُّنُوبِ.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ هل لك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله.

و «أهْدِيكَ إلى ربِّك فتَخْشَى» أي: تخافُه وتتقيه[٤].

قال ابن الخطيب[٥]: سائر الآيات تدل على أنه ـ تعالى ـ لمَّا نادى موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذكر له أشياء كثيرة، كقوله تعالى في سورة «طه»: ﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ إلى قوله: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٣، ٢٤].

فدلّ [قوله تعالى ـ هاهنا ـ: «اذْهَبْ إلى فِرعَوْنَ إنَّهُ طَغَى»][٦] أنه من جملة ما ناداه به [لا كل ما ناداه به][٧]، وأيضاً فليس الغرض أنَّه ﷺ كان مبعوثاً إلى فرعون فقط بل إلى كل من كان في الطور، إلاَّ أنَّه خصَّه بالذِّكر، لأنَّ دعوته جاريةٌ مجرى دعوةِ كُلِّ القوْمِ.

فصل في كلام المعتزلة

تمسَّك المعتزلة[٨] بهذه الآية في إبطال القول بأن الله ـ تعالى ـ يخلق فعل العبد،

---

(١) البيت لأوس بن حجر ينظر ديوانه ص ١١١، وخزانة الأدب ٤/ ٣٧٠، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٦، وشرح شواهد الشافية ص ١١٦، ١١٧، واللسان (نطس)، و (خدم)، وجمهرة اللغة ص ٨٣٨، ١٣٢٧، والخصائص ٢/ ٤٥٣، وشرح المفصل ٣/ ٢٥، وضرائر الشعر ص ١٦٧.

(٢) ينظر: الإملاء ٢/ ٢٨٠.

(٣) ينظر: السبعة ٦٧١، والحجة ٦/ ٣٧٤، وإعراب القراءات ٢/ ٤٣٦، وحجة القراءات ٧٤٩.

(٤) ينظر المصدر السابق، وقد روي معناه عن عكرمة ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥١٣)، وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٥) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٣٦.

(٦) سقط من: أ.

(٧) سقط من: أ.

(٨) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٣٧.

فإن هذا استفهام على سبيل التقرير، أي: لك سبيل إلى أن تزكّى، ولو كان ذلك بفعل الله ـ تعالى ـ لانقلب الكلام حجةً على موسى.

والجواب: ما تقدَّم في نظائره.

حكى القرطبيُّ[١] عن صخرِ بنِ جويرية قال: «لمَّا بعث الله تعالى موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى فرعون، قال له: «اذْهَبْ إلى فِرْعَونَ» إلى قوله: «وأهْديكَ إلى ربِّك فتَخْشَى»، ولن يفعل، فقال: يا رب، وكيف أذهب إليه، وقد علمت أنه لا يفعل، فأوحى الله ـ تعالى ـ إليه أن امض إلى ما أمرتَ به، فإنَّ في السماء اثني عشر ألف ملك، يطلبون علم القدر، فلم يبلغوه، ولم يدركوه».

قوله تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ «الفاء» في «فأراه»: معطوف على محذوف، يعني فذهب فأراه، كقوله تعالى: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ﴾ [البقرة: ٦٠] أي: فضرب فانفجرت.

واختلفوا في الآية الكبرى، أي: العلامة العظمى، وهي المعجزة.

فقيل: هي العصا.

وقيل: اليدُ البيضاءُ تبرقُ كالشَّمسِ، قاله مقاتل والكلبي[٢].

والأول: قول عطاء وابن عباس؛ لأنَّه ليس في اليد إلا انقلاب لونها، وهذا كان حاصلاً في العصا؛ لأنَّها لمَّا انقلبت حيّة، فلا بد وأن يتغيَّر اللون الأول، فإذن كل ما في اليد، فهو حاصل في العصا، وأمور أخر، وهي الحياة في الجرم الجمادي، وتزايد الأجر إليه، وحصول القدرةِ الكبيرة والقُوَّة الشديدة، وابتلاعها أشياء كثيرة، وزوال الحياة، والقدرة عليها، وبقاء تلك الأجزاء التي عظمت، وزوال ذلك اللون والشكل اللذين صارت العصا بهما حيَّة، وكلُّ واحدٍ من هذه الوجوه كان معجزاً مستقلاً في نفسه، فعلمنا أن الآية الكبرى هي العصا.

وقال مجاهد: هي مجموع العصا واليد.

وقيل: فلق البحر، وقيل: جميع آياته ومعجزاته.

﴿فَكَذَّبَ﴾ أي: كذَّب بِنَبِيِّ الله موسى و «عصى» ربَّه تبارك وتعالى.

فإن قيل: كل من كذَّب الله فقد عصى، فما فائدة قوله: «فكذب وعصى»؟.

فالجواب: كذَّب بالقول، وعصى بالتمرُّد والتجبر.

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٣١.

(٢) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣١/ ٣٨)، عن مقاتل والكلبي.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ أي: يعملُ بالفساد في الأرض.

وقيل: يعمل في نكاية موسى.

وقيل: «أدْبَرَ يَسْعَى» هارباً من الحيَّة.

قال ابن الخطيب[١]: معنى «أدْبَرَ يَسْعَى» أي: أقبل يسعى، كما يقالُ: أقبل يفعل كذا، يعني: إن شاء يفعل، فموضع «أدبر» موضع «أقبل» لئلاً يوصف بالإقبَالِ.

قوله: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ لم يذكر مفعولاهما، إذ المراد: فعل ذلك، أو يكون التقدير: فحشر قومه فناداهم.

وقوله «فَقَالَ» تفسير للنِّداء.

وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، أي: فنادى فحشر؛ لأنَّ النداء قبل الحشر، ومعنى «حشر»، أي: جمع السَّحرة، وجمع أصحابه ليَمْنعُوهُ من الحيَّة.

وقيل: جمع جنوده للقتال، والمحاسبة، و «السَّحَرةُ»: المعارضة.

وقيل: حَشَرَ النَّاس للحُضُور «فنادى»، أي: قال لهم بصوتٍ عالٍ.

﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: لا ربَّ فوقِي.

وقيل: أمر منادياً ينادي فنادى في النَّاس بذلك.

وقيل: قام فيهم خطيباً فقال ذلك.

وعن ابن عباسٍ، ومجاهدٍ، والسديِّ، وسعيد بن جبير، ومقاتلٍ: كلمته الأولى ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] والأخرى: «أَنَا ربُكمُ الأعْلَى»[٢].

قال ابنُ عباس: كان بين الكلمتين أربعون سنة[٣]، والمعنى: أمهله في الأولى، ثم أخذه في الآخرة فعذبه بكلمتيه.

قال ابن الخطيب[٤]: واعلم أنَّا بينَّا في سورة «طه» أنه لا يجوز أن يعتقد الإنسانُ في نفسه كونه خالقاً للسماوات والأرض والجبال والنبات والحيوانِ، فإنَّ العلمَ بفسادِ ذلك ضروريٌّ، فمن تشكك فيه كان مجنوناً، ولو كان مجنوناً لما جاز من الله بعثة الرسل

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٩/١٦.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٣٤)، عن ابن عباس ومجاهد والشعبي والضحاك.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥١٣)، عن الشعبي وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٣٤)، عن مجاهد وخيثمة الجعفي.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥١٣)، عن خيثمة وعزاه إلى عبد الرزاق وابن المنذر.
وذكره أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص وعزاه إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٣٩.

إليه، بل الرَّجل كان دهرياً منكراً للصَّانع والحشر والنشر، وكان يقول: ليس لأحدٍ أمرٌ ولا نهيٌ إلاَّ لي «فأنَا ربُّكم»، بمعنى مربيكم والمُحسنُ إليكم، وليس للعالم إله حتى يكون له عليكم أمرٌ، أو نهيٌ، أو يبعث إليكم رسولاً.

قال القاضي: وقد كان الأليق به بعد ظهور خزيه عند انقلاب العصا حية ألا يقول هذا القول؛ لأن عند ظهور الدلالة والمعجزة، كيف يليق أن يقول: «أنَا ربُّكم الأعْلَى» فدلت هذه الآية أنَّه في ذلك الوقت صار كالمعتوه الذي لا يدري ما يقول.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ يجوز أن يكون مصدر الأخذِ، والتجوز إما في الفعل، أي: نكل بالأخذِ نكال الآخرة، وإما في المصدر، أي: أخذه أخذ نكالٍ، ويجوز أن يكون مفعولاً له، أي: لأجلِ نكالهِ، ويضعف جعله حالاً لتعريفه، وتأويله كتأويل جهدك وطاقتك، غير مقيس.

ويجوز أن يكون مصدراً مؤكِّداً لمضمون الجملة المتقدِّمة، أي: نكل الله [به] نكال الآخرة. قاله الزمخشريُّ[(١)]، وجعله كوعد الله، وصبغة الله.

وقال القرطبيُّ[(٢)]: وقيل: نُصِبَ بنَزْعِ حرف الصِّفة، أي: فأخذه الله بنكال الآخرة، فلمَّا نُزِعَ الخافضُ نُصِبَ.

والنكال: اسم لما جعل نكالاً للغير، أي: عقوبة له حتى يعتبر، يقال: نَكَل فلانٌ بفلانٍ، إذا ألحقهُ عقوبة، والكلمة من الامتناع، ومنه النُّكُول عن اليمين، والنكل: القيد وقد مضى في سورة «المزمل»، والنكال: بمنزلة التنكيل، كالسلام بمعنى التسليم.

والآخرة والأولى: إمَّا الدَّاران وإمَّا الكلمتان، والآخرة قوله: «أنَا ربُّكمُ الأعْلَى»، والأولى: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، كما تقدم، فحذف الموصول للعلم به.

فصل في تفسير الآخرة والأولى

قيل: الآخرة والأولى: هما الكلمتان كما تقدَّم.

وقال الحسنُ وقتادةُ: «نكال الآخرة والأولى»: هو أن أغرقهُ في الدُّنيا وعذّبه في الآخرة[(٣)].

وروي عن قتادة ـ أيضاً ـ: الآخرةُ قوله: «أنَا ربُّكمُ الأعْلَى»، والأولى تكذيبه بموسى عليه الصلاة والسلام[(٤)].

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/٦٩٦.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/١٣٢.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٤٣٥)، عن قتادة وذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/١٩٨).

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/١٣٢) عن قتادة.

قال القفال[١]: وهذا كأنَّه هو الأظهرُ؛ لأنه ـ تعالى ـ قال: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فذكر القصتين، ثم قال: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾.

فظهر أنَّ المراد: أنَّه عاقبه على هذين الأمرين.

ثمَّ إنَّه ـ تعالى ـ ختم هذه القصة بقوله:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾، إنَّ فيما قصصنا عليك اعتباراً وعظةً لمن يخاف.

قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا (٢٩) وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا (٣١) وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا (٣٢) مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ (٣٣)﴾

قوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾، يريد: أهل «مكّة»، أي: أخلقكم بعد الموت أشدُّ في تقديركم أم السماءُ؟.

فمن قدر على خلقِ السَّماء على عظمها، وعظم أحوالها، قدر على الإعادة، وهذا كقوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

والمقصود من الآية الاستدلال على منكري البعث، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ﴾ [يس: ٨١].

ومعنى الكلام: التقريع والتوبيخ.

ثم وصف تعالى السماء، فقال: «أم السَّماءَ بَناهَا»، عطف على «أنتم»، وقوله: «بَنَاهَا» بيان لكيفيّة خلقه إياها، فالوقف على «السَّماءِ»، والابتداء بما بعدها، ونظيره قوله ـ تعالى ـ في «الزخرف»: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ﴾ [الزخرف: ٥٨].

وقوله: «رَفَعَ سَمْكهَا» جملة مفسرة لكيفية البناء، «والسَّمْك»: «الارتفاع».

قال الزمخشريُّ[٢]: «جعل مقدار ذهابها في سمتِ العلوِّ مديداً رفيعاً».

وسمكتُ الشيء: رفعته في الهواء، وسمك هو، أي: ارتفع سُمُوكاً، فهو قاصرٌ ومتعدٍّ، وبناء مسموك، وسنامٌ سَامِكٌ تَامِكٌ، أي: عالٍ مرتفعٌ، وسماك البيت ما سمكته به، والمسموكاتُ: السماوات ويقال: اسمك في الدّيم، أي: اصعد في الدرجة، والسماك: نجم معروف، وهما اثنان، رامح وأعزل؛ قال الشاعر: [الكامل]

٥٠٩٩ ـ إنَّ الذي سَمكَ السَّماءَ بَنَى لَنَا ... بَـيْـتـاً دَعَـائـمُـهُ أعَـزُّ وأطْـوَلُ[٣]

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣١/٤٠.
(٢) ينظر: الكشاف ٤/٦٩٦.
(٣) تقدم.

وقال البغويُّ[(١)]: «رفَعَ سمْكهَا» أي: سقفها.

فصل في الكلام على هذه الآية

قال الكسائيُّ والفراء والزجاج: هذا الكلام تم عند قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾، قال: لأنَّه من صلة السماء، والتقدير: «أم السماء التي بناها» فحذف «التي»، ومثل هذا الحذف جائز.

قال القفالُ[(٢)]: يقال: الرجل جاءك عاقل، أي: الرجل الذي جاءك عاقل، وإذا ثبت جواز ذلك في اللغة، فنقول: الدَّليل على أن قوله تعالى: «بَنَاهَا» صلةٌ لما قبله، أنَّه لو لم يكن صلة لكان صفة، فقوله: «بَنَاهَا» صفة، ثم قوله: «رَفَعَ سَمْكهَا» صفة، فقد توالت صفتان، لا تعلُّق لإحداهما بالأخرى، فكان يجب إدخال العاطف بينهما، كما في قوله: «وأغطَشَ ليْلهَا»، ولمَّا لم يكن كذلك، علمنا أنَّ قوله: «بَنَاهَا» صلةٌ للسَّماءِ، فكان التقدير: «أم السَّماء التي بناهَا»، وهذا يقتضي وجود سماءٍ ما بنَاهَا اللَّهُ، وذلك باطل.

وقوله ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي: خَلقهَا خَلْقاً مستوياً، لا تفاوت فيه، ولا فطور، ولا شقوق.

فصل فيمن استدل بالآية على أن السماء كرة

قال ابن الخطيب[(٣)]: واستدلُّوا بهذه الآية على كونِ السَّماء كُرةً، قالوا: لأنه لو لم تكن كرةً لكان بعضُ جوانبها سطحاً، والبعض زاويةً والبعضُ خطًّا، ولكان بعض أجزائه أقرب إلينا، والبعض الآخر أبعد، فلا تحصل التَّسويةُ الحقيقية، ثُمَّ قالوا: لما ثبت أنَّها محدثةٌ مُفتقِرةٌ إلى فاعل مختار، فأيُّ ضررٍ في الدِّين يُنافِي كونها كرة.

قوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ﴾. أي أظلم بلغة أنمار، يقال: غطشَ الليلُ، وأغطشته أنا؛ قال: [المتقارب]

٥١٠٠ ـ عَقَرْتُ لَهُمْ نَاقَتِي مَوهِناً فَلَيْلُهُم مُدلَهِمٌّ غَطِشْ[(٤)]

وليل أغطش، وليلة غطشاء.

قال الراغب: وأصله من الأغطش، وهو الذي في عينه شبه عمش، ومنه فلاة غَطْشَى لا يهتدى فيها، والتَّغَاطشُ: التَّعامِي انتهى.

ويقال: أغطشَ اللَّيْلُ قاصراً كـ «أظلم»، فـ «أفْعَلَ» فيه متعدٍّ ولازم، فالغَطَشُ والغَتَشُ: الظُّلمة، ورجل أغطش، أي: أعْمَى، أو شبيهٌ به، وقد غطشَ، والمرأة:

(١) معالم التنزيل ٤/ ٤٤٥.
(٢) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٤١.
(٣) السابق ٣١/ ٤٣.
(٤) ينظر القرطبي ١٩/ ١٣٣، والدر المصون ٦/ ٤٧٥.

غطشاءُ، وفلاة غَطْشَى لا يهتدى لها؛ قال الأعشى: [المتقارب]

٥١٠١ ـ وبَهْماءَ باللَّيْلِ غَطْشَى الفَلاَ ةِ يُؤنِسُنِي صَوْتُ قَيَّادِهَا[١]

ومعنى قوله: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي: جعلهُ مُظلماً، وأضاف اللَّيل إلى السَّماء؛ لأنَّ الليل يكون بغروب الشمس، والشمس تضاف إلى السماء، ويقال: نجُومُ اللَّيْلِ؛ لأنَّ ظهورها بالليل.

قوله: ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَنْهَا﴾، فيه حذف، أي: ضحى شمسها، وأضاف الليل والضحى لها للملابسة التي بينها وبينهما، وإنَّما عبَّر عن النَّهارِ بالضحى؛ لأنَّ الضُّحى أكمل النَّهار بالنُّور والضَّوءِ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ أي: بسطها، و «بَعْدَ» على بابها من التأخير، ولا معارضة بينها وبين آية فُصلت؛ لأنَّه ـ تعالى ـ خلق الأرض غير مدحوة، ثم خلق السماء، ثم دحا الأرض.

وقول أبي عبيدة: إنَّها بمعنى: «قَبْلَ» منكرٌ عند العلماء.

والعرب تقول: دحوتُ الشيء أدحوهُ دحْواً: إذا بسطه، ودحَى يَدحِي دَحْياً: إذا بسطه، فهو من ذوات الواو والياء، فيكتب بالألف، والياء.

وقيل لعشّ النَّعامة: أدحو، وأدحى لانبساطه في الأرض.

وقال أمية بن أبي الصلت: [الوافر]

٥١٠٢ ـ وبَثَّ الخَلْقَ فِيهَا إذْ دَحاهَا فَهُمْ قُطَّانُهَا حتَّى التَّنَادِي[٢]

وقيل: دَحَى بمعنى سوَّى.

قال زيدُ بنُ عمرو بن نفيلٍ: [المتقارب]

٥١٠٣ ـ وأسْلَمْتُ وجْهِي لِمَنْ أسْلَمَتْ لَهُ الأرْضُ تَحْمِلُ صَخْراً ثِقَالا
دَحَاهَا فَلَمَّا اسْتَوتْ شَدَّهَا بِأيدٍ وأرْسَى عَلَيْهَا الجِبَالا[٣]

والعامة: على نصب الأرض، والجبال على إضمار فعلٍ مفسَّر بما بعده، وهو المختار لتقدُّم جملة فعلية.

ورفعهما[٤] **الحسن، وابن أبي عبلة، وأبو حيوة وأبو السمال وعمرو بن عبيد:** برفعهما على الابتداء، وعيسى برفع «الأرض» فقط.

---

(١) ينظر ديوانه ص ٢٦٠، والقرطبي ١٩/ ١٣٣، واللسان (غطش).

(٢) ينظر القرطبي ١٩/ ١٣٣، والبحر ٨/ ٤١٠، والدر المصون ٦/ ٤٧٥، وفتح القدير ٥/ ٣٧٩.

(٣) ينظر القرطبي ١٩/ ١٣٣، والبحر ٨/ ٤١١، والدر المصون ٦/ ٤٧٥، وفتح القدير ٥/ ٣٧٩.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٤، والبحر المحيط ٨/ ٤١٥، والدر المصون ٦/ ٤٧٥.

فصل

روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: خلق الله تعالى الكعبة ووضعها على الماء على أربعة أركان، وكان قبل أن يخلق الدُّنيا بألفي عام، ثم دُحيتِ الأرض من تحت البيت[١].

وحكى القرطبي[٢] عن بعض أهل العلم أنَّ «بَعْدَ» هنا في موضع: «مع»، كأنَّه قال: والأرض مع ذلك دحاها، كقوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣]، ومنه قولهم: «أنت أحمق، وأنت بعد هذا سيِّئُ الخلقِ»؛ وقال الشاعر: [الطويل]

٥١٠٤ ـ فَقُلتُ لَهَا: عَنِّي إليكِ فإنَّنِي حَـرامٌ، وإنِّـي بَـعْـدَ ذَاكَ لَـبِـيـبُ[٣]

أي: مع ذلك.

وقيل: «بعد» بمعنى: «قبل»، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] أي: من قبلِ الفرقان؛ قال أبو كثير: [الطويل]

٥١٠٥ ـ حَمِدْتُ إلَهِي بَعْدَ عُرْوَةَ إذْ نَجَا خِراشٌ وبَعْضُ الشَّرِّ أهونُ مِنْ بعضِ[٤]

وزعموا أن خِراشاً نجا قبل عروة.

وقيل: «دَحَاهَا» حرثها وشقَّها، قاله ابن زيد.

وقيل: «دَحَاهَا» مهَّدها للأقوات، والمعنى متقارب.

قوله: ﴿أَخرَجَ﴾. فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون تفسيراً.

والثاني: أن يكون حالاً.

قال الزمخشري[٥]: فإن قلت هلاَّ أدخل حرف العطف على «أخرج»؟ قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون «دَحَاهَا» بمعنى: بسطها، ومهَّدها للسُّكْنَى، ثم فسَّر التَّمهيد بما

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٣٨)، من طريق عكرمة عن ابن عباس وينظر تفسير القرطبي (١٩/ ١٣٣).

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٣٣.

(٣) تقدم.

(٤) البيت ليس لأبي كبير الهذلي، ولكنه لأبي خراش الهذلي من قصيدة قالها عندما قتل أخوه عروة ونجا أبو خراش من الموت.

ينظر ديوان الهذليين ٢/ ١٥٧، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ١/ ٣٢٦، وشرح المفصل ٣/ ١١٧، والطبري ٣٠/ ٢٩، والقرطبي ١٩/ ١٣٣.

(٥) ينظر الكشاف ٤/ ٦٩٧.

لا بد منه في تأتي سكناها من تسوية أمر المأكلِ والمشربِ وإمكان القرار عليها.

والثاني: أن يكون «أخْرَج» حالاً، بإضمار «قد»، كقوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ [النساء: ٩٠].

واعلم أنَّ إضمار «قد» هو قول الجمهور، وخالف الكوفيون والأخفش.

قوله: ﴿مِنْهَا مَآءَهَا﴾، أي: من الأرض عيونها المتفجِّرة بالماء.

و «مَرْعَاهَا» أي: النبات الذي يرعى، والمراد بمرعاها: ما يأكل النَّاسُ والأنعامُ، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾، إلى قوله تعالى: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٥ ـ ٣٢]، واستعير الرَّعي للإنسان، كما استعير الرَّتعُ في قوله: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢]، وقد قُرىء «نرتع» ويرتع من الرَّعي، والرعي في الأصل مكان أو زمان، أو مصدر، وهو هنا مصدر بمعنى: «المفعول»، وهو في حق الآدميين استعارة.

قال ابن قتيبة: قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، فانظر كيف دلَّ بقوله «مَاءهَا ومَرْعاهَا» على جميع ما أخرجه من الأرض قوتاً، ومنها متاعاً للأنام من العشب، والشجر، والثمر، والحب والقضب، واللباس، والدواء، حتى النار والملح.

أمَّا النار؛ فلأنها من العيدانِ، قال جل وعلا: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة: ٧١، ٧٢].

وأمَّا الملحُ؛ فلأنَّه من الماءِ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾.

قراءة العامة: بنصب «الجبال».

وأرْسَى: ثبَّت فيها الجبال.

وقرأ الحسنُ، وعمرو بنُ عبيدٍ[1]**، وعمرو بنُ ميمونٍ، ونصرُ بنُ عاصمٍ**: بالرَّفعِ على الابتداءِ.

قوله تعالى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾.

العامَّة: على النصب مفعولاً له، أو مصدراً لعاملٍ مقدرٍ، أي: متَّعكُمْ، أو مصدراً من غير اللفظ؛ لأن المعنى: أخرج منها ماءها ومرعاها أمتع بذلك.

وقيل: نُصِبَ بإسقاط حرف الصفة، تقديره: لتتمتعوا به متاعاً، والمعنى منفعة لكم ولأنعامكم.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٤، والبحر المحيط ٨/ ٤١٥، والدر المصون ٦/ ٤٧٥.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ (٤١)﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ في جواب «إذا» أوجه:

أحدها: قوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾، نحو: «إذا جاءك بنو تميمٍ، فأما العاصي فأهنه، وأمّا الطائع فأكرمه».

وقيل: محذوف.

فقدَّرهُ الزمخشريُّ: فإن الأمر كذلك، أي: فإنَّ الجحيمَ مأواهُ.

وقدَّره غيرهُ: انقسم الرَّاءون قسمين.

وقيل: عاينُوا أو علموا.

وقيل: جوابها أدخل أهل النار النار، وأهل الجنة الجنة.

وقال أبو البقاء: العامل فيها جوابها، وهو معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾.

والطَّامةُ الكبرى: الدَّاهيَة العُظمَى التي تطمّ على غيرها من الدَّواهي لعظمها، و «الطَّمُّ»: «الدفن»، ومنه: طمَّ السَّيلُ الرَّكية، وفي المثل: جَرَى الوادِي فطمَّ على القُرَى.

وقيل: مأخوذٌ من قولهم: طمَّ الفرس طميماً، إذا استفرغ جهده في الجري، والمراد بها في القرآن: النَّفخة الثانية؛ لأن بها يحصل ذلك.

قال ابن عباس: هي النَّفخةُ الثانية التي يكون معها البعث[١].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أيضاً، والضحاك: أنَّها القيامة، سميت بذلك؛ لأنَّها تطمُّ على كل شيء فتغمره[٢].

وقال القاسمُ بنُ الوليد الهمداني: الطامةُ الكبرى حين يساق أهل الجنَّة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار[٣].

---

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٢٠٠)، عن الحسن. وذكره القرطبي (١٩/ ١٣٤)، عن ابن عباس من طريق الضحاك عنه.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٤٠)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥١٥)، وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.
وينظر تفسير الماوردي (٦/ ٢٠٠)، والقرطبي (١٩/ ١٣٤).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٤٠)، عن القاسم بن الوليد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥١٥)، وعزاه إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر.

قوله: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ﴾ بدل من «إذا»، أو: منصوباً بإضمار فعلٍ، أي: أعني: يوم أو يوم يتذكر كيت وكيت.

قوله: ﴿مَا سَعَىٰ﴾ أي: ما عمل من خير أو شر يراه مكتوباً في كتابه فيتذكرهُ، وكان قد نسيه، لقوله تعالى: ﴿أَحْصَـٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

قوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ العامة على بنائه للمفعول مشدداً، و ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ بياء الغيبة.

وزيدُ بن علي وعائشة وعكرمة[١]: مبنيًّا للفاعل مخففاً، و «ترى» بتاء من فوق، فجوزوا في تاء «ترى» أن تكون للتأنيث، وفي «ترى» ضمير الجحيم، كقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [الفرقان: ١٢]، وأن تكون للخطاب، أي: ترى أنت يا محمد، والمراد: ترى الناس. وقرأ عبد الله[٢]: «لمن رأى» فعلاً ماضياً.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «بُرِّزَتْ» كشفت عنها تتلظّى، فيراه كل ذي بصرٍ، فالمؤمنون يمرُّون عليها، ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، وأمَّا الكفار فهي مأواهُم[٣].

وقيل: الرؤية هنا: استعارة، كقولهم: قد تبين الصبح لذي عينين.

وقيل: المراد: الكافر؛ لأنه الذي يرى النار بما فيها من أصناف العذاب.

وقيل: يراها المؤمن ليعرف قدر النِّعمةِ.

قوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ أي: تجاوز الحدَّ في العصيان.

قيل: نزلت في النَّضْرِ وأبيه الحارث، وهي عامة في كل كافرٍ آثر الحياة الدنيا على الآخرة.

قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ إمَّا هي المأوى له، أو هي مأواه، وقامت «أل» مقام الضمير، وهو رأي الكوفيين وقد تقدم تحقيق هذا والرد على قائله، خلافاً للبصريين؛ قال الشاعر: [الطويل]

٥١٠٦ ـ رَحيبٌ قِطَابُ الجَيْبِ مِنْهَا رَقِيقَةٌ ... بِجَسِّ النَّدامَى بَضَّةُ المُتَجَرَّدِ[٤]

إذ لو كانت «أل» عوضاً من الضمير لما جمع بينهما في هذا البيت، ولا بُدَّ من أحد هذين التأويلين في الآية الكريمة لأجل العائد من الجملة الواقعة خبراً للمبتدأ، والذي

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٦٩٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٤، والبحر المحيط ٨/ ٤١٥، والدر المصون ٦/ ٤٧٦.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٦٩٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٣٤، والدر المصون ٦/ ٤٧٦.

(٣) ذكره القرطبي في تفسيره (١٩/ ١٣٤). (٤) تقدم.

حسَّن عدم ذكر العائد كون الكلمة[١] وقعت رأس فاصلة.

وقال الزمخشري[٢]: «فإن الجحيم مأواهُ، كما تقول للرجل: غُضَّ الطَّرف، تريد طرفك، وليس الألف و «اللام» بدلاً من الإضافة، ولكن لما علم أنَّ الطَّاغي هو صاحب المأوى، وأنَّه لا يغُضُّ الرجل طرف غيره تركت الإضافة، ودخول الألف واللام في «المأوى» والطرف، للتعريف؛ لأنَّهما معروفان».

قال أبو حيان[٣]: «وهو كلام لا يتحصَّل منه الرابط العائد على المبتدأ، إذ قد نفى مذهب الكوفيين، ولم يقدّر ضميراً محذوفاً كما قدَّره البصريون، فرام حصول الرابط بلا رابط».

قال شهابُ الدِّين[٤]: «ولكن لما علم إلى آخره، هو عين قول البصريين، ولا أدري كيف خفي عليه هذا».

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي: حَذِرَ مقامه بين يدي ربه.

وقال الربيعُ: مقامه يوم الحساب[٥].

وقال مجاهدٌ: خوفه في الدنيا من الله عند مواقعة الذَّنب فيقلع عنه، نظيره: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

«ونَهَى النَّفْس عن الهَوى» أي: زجرها عن المعاصي والمحارم[٦].

قال ابن الخطيب[٧]: هذان الوصفان مضادَّان للوصفين المتقدمين، فقوله تعالى: ﴿مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ ضدُّ قوله: «فأمَّا من طغى»، و «نَهَى النفس» ضدُّ قوله: «وآثر الحياةَ الدُّنيا» فكما دخل في ذينك الوصفين جميع القبائح دخل في هذين الوصفين جميع الطاعات.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أنتُم في زمانٍ يقود الحق الهوى، وسيأتي زمان يقود الهوى الحقَّ، فنعوذُ بالله من ذلك الزمنِ[٨].

قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي: المنزل، نزلت الآيتان في مصعبِ بن عميرٍ، وأخيه عامرِ بنِ عميرٍ[٩].

---

(١) في ب: الآية.
(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٦٩٨.
(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤١٥.
(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٤٧٦.
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٣٥).
(٦) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٢٠٠)، وينظر المصدر السابق.
(٧) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٤٨.
(٨) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٣٥).
(٩) قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» (٤/ ٦٩٨): لم أجده.

روى الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ قال: أمَّا من طغى فهو أخٌ لمصعب بن عمير، أسر يوم بدر، فأخذته الأنصار، فقالوا: من أنت؟ قال: أنا أخو مصعب بن عمير فلم يشدوه في الوثاق، وأكرموه، وبيتوه عندهم، فلمَّا أصبحُوا حدَّثُوا مصعب بن عمير حديثه، فقال: ما هو لي بأخ، شدُّوا أسيركم، فإنَّ أمَّه أكثر أهل البطحاءِ حلياً ومالاً، فأوثقوه حتى بعثت أمه في فدائه[١].

«وأمَّا من خَاف مَقامَ ربِّهِ» فمصعب بن عمير، وَقَى رسول الله ﷺ بنفسه يوم «أحُدٍ» حين تفرَّق الناس عنه، حتى نفذت المشاقص في جوفه، وهي السِّهام، فلما رآه رسول الله ﷺ مشحطاً في دمهِ، قال: «عِندَ اللَّهِ أحْتسبهُ». وقال ﷺ لأصحابه: «لَقَدْ رأيْتهُ وعَليْهِ بُردَانِ ما تُعرفُ قيمتُهما وإنَّ شِراكَ نَعْليهِ مِنْ ذهَبٍ».

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ «نزلتِ هذه الآية في رجلين: أبو جهل بن هشام، ومصعب بن عمير»[٢].

وقال السديُّ: نزل قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ في أبي بكرِ الصديق رضي الله عنه[٣].

وقال الكلبيُّ: هما عامَّتان.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾. لما سمع المشركون أخبار القيامة، ووصفها بالأوصاف الهائلة مثل: «الطَّامة الكبرى»، و «الصَّاخَّة»، و «القَارِعَة»، سألوا رسول الله ﷺ استهزاءً، متى تكون الساعة؟.

وقيل: يحتملُ أن يكون ذلك إيهاماً لإيقاعهم أنَّه لا أصْلَ لذلكَ، ويحتملُ أنَّهم كانوا يسألونه عن وقت القيامة استعجالاً كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

وقوله: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾، أي: إقامتها، والمعنى: أيُّ شيء يقيمُها ويوجدُها، ويكون المعنى: أيان منتهاها ومستقرها، كما أنَّ مرسى السفينة: مستقرّها الذي تنتهي إليه فأجابهم الله ـ تعالى ـ بقوله: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾.

قوله «فِيْمَ» خبر مقدم، و «أنْتَ» مبتدأ مؤخرٌ، و «مِنْ ذِكْراهَا» متعلقٌ بما تعلق به الخبر، والمعنى: أنت في أي شيء من ذكراها، أي: ما أنتَ من ذكراهَا لهم وتبيين وقتها في شيء.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٣٥)، من طريق الضحاك عن ابن عباس.

(٢) ينظر المصدر السابق. (٣) ينظر المصدر السابق.

وقال الزمخشري[(١)]: وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ لم يزل رسول الله ﷺ يذكر الساعة، ويسأل عنها ويذكرها حتى نزلت، قال: «فَهوَ عَلى هَذَا تَعجَّبَ مِنْ كَثْرةِ ذِكْرِهِ لَهَا كأنَّهُ قِيلَ: فِي أيِّ شُغلٍ واهتمامٍ أنتَ من ذكرِهَا والسُّؤال عَنْهَا»[(٢)].

وقيل: الوقف على قوله: «فيم»، وهو خبر مبتدأ مضمر، أي: فيم هذا السؤال، ثم يبتدىء بقوله: «أنت مِنْ ذِكراهَا» أي: إرسالك، وأنت خاتم الأنبياء، وآخر الرسل، والمبعوث في تسمية الساعة ذكر من ذكراها، وعلامة من علامتها، فكفاهُم بذلك دليلاً على دُنوِّها، ومشارفتها، والاستعداد لها، ولا معنى لسؤالهم عنها.

قاله الزمخشري: وهو كلام حسنٌ، لولا أنَّه يخالف الظاهر، وتفكيك لنظم الكلام.

ومعنى «إلى ربِّك مُنتَهاهَا» منتهى علمها، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

قال القرطبي[(٣)]: ويجوز أن يكون إنكاراً على المشركين في مسألتهم له، أي: فيم أنت من ذلك حتى يسألوك بيانه، ولست ممن يعلمه، روي معناه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾.

العامة: على إضافة الصفة لمعمولها تخفيفاً.

وقرأ عمر[(٤)] بن عبد العزيزِ وأبو جعفرٍ، وطلحةُ، وابنُ محيصنٍ: بالتنوين، ويكون في موضع نصب، والمعنى: إنَّما ينتفع بإنذارك من يخشى الساعة.

قال الزمخشري[(٥)]: وهو الأصل، والإضافة تخفيف، وكلاهما يصلح للحال والاستقبال، فإذا أريد الماضي، فليس إلا الإضافة، كقولك: هو منذرُ زيدٍ أمس.

---

(١) ينظر الكشاف ٤/ ٦٩٩.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٤١)، والبزار (٢٢٧٩ ـ كشف)، والحاكم (٢/ ٥١٣ ـ ٥١٤)، عن عائشة. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥١٥)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن مردويه. وذكره السيوطي أيضاً في «الدر» (٦/ ٥١٥)، عن عروة مرسلاً وعزاه إلى سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

وذكر الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٣٦) الطريق الموصول وقال: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.

وقد رجح أبو زرعة الطريق المرسل. ففي العلل (٢/ ٦٨) لابن أبي حاتم قال سمعت أبا زرعة يقول: الصحيح مرسل بلا عائشة.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٣٦.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٥، والبحر المحيط ٨/ ٤١٦، والدر المصون ٦/ ٤٧٧.

(٥) الكشاف ٤/ ٦٩٩.

قال أبو حيان[١]: قوله: «هُو الأصل» يعني: «التنوين»، هو قول قاله غيره.

ثم اختار أبو حيَّان: أن الأصل الإضافة، قال: لأنَّ العمل إنما هو بالشبه، والإضافة أصل في الأسماء، ثم قال: وقوله: «ليس إلا الإضافة» فيه تفصيل وخلاف مذكور في كتب النحو.

قال شهاب الدين[٢]: لا يلزمه أن يذكر إلاَّ محل الوفاق، بل هذان اللذان ذكرهما مذهب جماهير الناس.

فصل في معنى الآية

المعنى: إنَّما أنت مُخوِّف، وخص الإنذار بمن يخشى؛ لأنهم المنتفعون به، وإن كان منذراً لكلِّ مكلَّف، كقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ [يس: ١١].

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ يعني: الكُفَّار، يرون الساعة.

﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ في دنياهم ﴿إِلَّا عَشِيَّةً﴾ أي: قدر عشيَّةٍ، ﴿أَوْ ضُحَاهَا﴾ أي: أو قدْرَ الضُّحى الذْي يلي تلك العَشيَّة، والمراد: تقليل مدة الدنيا، كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وأضاف الضحى إلى العشية إضافة الظرف إلى ضمير الظرف الآخر تجوُّزاً واتِّساعاً، وذكرهما؛ لأنَّهما طرفا النهار، وحسَّن هذه الإضافة وقوع الكلمة فاصلة.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿أَوْ ضُحَاهَا﴾ معناه: ضُحَى العشيَّة، وهذا غير معقولٍ؛ لأنَّه ليس للعشيَّة ضُحى؟.

فالجواب: قال ابن عباس رضي الله عنهما: الهاء والألف صلة للكلام، يريد: لم يلبثوا إلا عشية أو ضحى[٣].

وقال الفرَّاء والزجاجُ: المرادُ بإضافة الضُّحى إلى العشية، إضافتها إلى يوم العشية على عادة العرب، يقولون: آتيك الغداة أو عشيها، وآتيك العشية أو غداتها، فتكون العشية في معنى: آخر النهار، والغداة في معنى: أول النهار؛ وأنشد بعض بني عقيل: [الرجز]

٥١٠٧ أ ـ نَحْنُ صَبَحْنَا عَامراً في دَارِهَا جُرْداً تَعَادَى طَرفَيْ نَهارِهَا
عَشِيَّةَ الهِلالِ أو سِرَارِهَا[٤]

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤١٦. (٢) الدر المصون ٦/ ٤٧٧.

(٣) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣١٠/ ٤٩)، من طريق عطاء عن ابن عباس.

(٤) ينظر الطبري ٣٠/ ٣٢، ومعاني القرآن ٣/ ٢٣٥، واللسان (صبح)، (سرر)، والقرطبي ١٩/ ١٣٧.

سورة عبس

وتسمى سورة السفرة مكيَّةٌ، وهي اثنان وأربعون آية، ومائةٌ وثلاثُون كلمةً، وخمسمائة وثلاثُونَ حَرْفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أي: كَلحَ بوجههِ، يقال: عبَسَ وبَسَر وتولى، أي: أعرضَ بوجهه.

قوله: ﴿أَن جَآءَهُ﴾. فيه وجهان:

أحدهما: أنَّه مفعولٌ من أجله، وناصبه: إمَّا «تولَّى» وهو قول البصريين، وإمَّا «عَبَسَ» وهو قول الكوفيين، والمختار مذهب[1] البصريين لعدم الإضمار في الثاني، وتقدم تحقيق هذا في مسائل النزاع والتقدير: لأن جَاءهُ الأعْمَى فعل ذلكَ.

قال القرطبيُّ[2]: إن من قرأ بالمدِّ[3] على الاستفهام، فـ «أنْ» متعلقة بمحذوف دلَّ عليه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ والتقدير: أأن جاءهُ أعرض عنهُ وتولى؟ فيوقف على هذه القراءة على «تولَّى»، ولا يوقف عليه على قراءة العامة.

فصل في سبب نزول الآية

قال المفسرون: أتى رسول الله ﷺ ابن أم مكتوم، واسمُ أم مكتُوم عاتكةُ بنتُ عامرِ بن مخزومٍ، وكان عند النبي ﷺ صناديدُ قريش: عُتْبَةُ وشيبةُ ابنا رَبِيعةَ، وأبُو

---

(١) في ب: قول.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٣٩.

(٣) وهي قراءة الحسن وأبي عمران الجوني وعيسى، ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٧، والبحر المحيط ٨/ ٤١٩، والدر المصون ٦/ ٤٧٨، وزاد «زيد بن علي».

جَهْل بْنُ هشام، والعبَّاسُ بنُ عبدِ المُطلبِ، وأميَّةُ بنُ خلفٍ، والوليدُ بنُ المُغيرةِ، يدعوهم إلى الإسلام رجاءَ أن يسلم بإسلامهم غيرُهم، فقال للنبي ﷺ: عَلِّمني مما علمك الله، وكرَّر ذلك عليه، فكره قطعه لكلامه، وعبس وأعرض عنه، فنزلت هذه الآية.

قال ابن العربي: أمَّا قول المفسرين: إنه الوليد بن المغيرة، أو أمية بن خلف والعباس، فهذا كله باطلٌ وجهلٌ؛ لأن أمية والوليد كانا بـ «مكة» وابن أم مكتوم كان بـ «المدينة» ما حضر معهما، ولا حضرا معه، وماتا كافرين، أحدهما: قبل الهجرة، والآخر في «بدر»، ولم يقصد أمية «المدينة» قط، ولا حضر معه مفرداً، ولا مع أحدٍ، وإنَّما أقبل ابن أم مكتوم والنبي ﷺ مشتغل بمن حضره من وجوه قريش يدعوهم إلى الإسلام، وقد طمع في إسلامهم، وكان في إسلامهم إسلام من وراءهم من قومهم، فجاء ابن أم مكتوم وهو أعمى، فقال: يا رسول الله علمني مما علمك الله وجعل يناديه ويكثر النداء، ولا يدري أنه مشتغل بغيره، حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء: إنَّما أتْباعُه العُمْيَان والسَّفلة والعبيد، فعبس وأعرضَ عنه، فنزلت الآية.

قال الثوري: فكان النبيُّ ﷺ بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم بسط له رداءهُ، ويقول: «مَرْحَباً بمَنْ عَاتَبنِي فِيهِ ربِّي»، ويقول: «هَلْ مِنْ حاجَةٍ»؟ واستخلفهُ على «المدينة» مرتين في غزوتين غزاهما.

قال أنسٌ رضي الله عنه: فرأيته يوم «القادسيَّة» راكباً وعليه دِرْع، ومعه رايةٌ سوداءُ[١].

فصل في معاتبة الله تعالى رسوله

قال ابن الخطيب[٢]: ما فعله ابن أم مكتوم كان يستحق التأديب والزَّجْر، فكيف عاتب الله ـ تعالى ـ رسوله على تأديبه ابن أم مكتوم؟.

وإنما قلنا: إنه كان يستحق التأديب؛ لأنه وإن كان أعمى لا يرى القوم، لكنه سمع

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٤٤)، وذكره الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» (٤/ ٧٠١)، وقال: أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أخبرني أنس بهذا وكذا رواه أبو يعلى والطبري من رواية قتادة عن أنس رضي الله عنه.

وللحديث شاهد من حديث عائشة أخرجه الترمذي (٣٣٢٨)، وابن حبان (١٧٦٩)، والحاكم (٢/ ٥١٤)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٥٠.

مخاطبة الرسول ﷺ لأولئك الكفار، وكان بسماعه يعرف شدة اهتمام النبي ﷺ بشأنهم، فكان إقدامه على قطع كلام النبي ﷺ لغرض نفسه قبل تمام غرض النبي ﷺ معصية عظيمة.

وأيضاً: فإنَّ الأهم يقدَّم على المُهِمّ، وكان قد أسلم، وتعلَّم ما يحتاج إليه من أمر دينه، أما أولئك الكفَّار، فلم يكونوا أسلموا بعد، وكان إسلامهم سبباً لإسلام جمع عظيم، فكان كلام ابن أم مكتوم كالسبب في قطع ذلك الخير العظيم لغرض قليل، وذلك محرم.

وأيضاً: فإنَّ الله ـ تعالى ـ ذمّ الذين ينادونه من وراء الحجرات بمجرد ندائهم، فهذا النداء الذي هو كالصَّارف للكفار عن [قبول][1] الإيمانِ أوْلَى أن يكون ذنباً، فثبت أن الذي فعله ابن أمّ مكتوم كان ذنباً ومعصية.

وأيضاً: فمع هذا الاعتناء بابن أم مكتوم، فكيف لقب بالأعمى؟.

وأيضاً: فالنبيُّ ﷺ يؤدِّب أصحابه بما يراه مصلحة، والتَّعبيسُ من ذلك القبيل، ومع الإذن فيه، كيف يعاتب عليه؟.

والجواب عن الأول: أنَّ ما فعله ابن أم مكتوم كان من سُوءِ الأدب لو كان عالماً بأنَّ النبي ﷺ مشغولٌ بغيره، وأنَّه يرجو إسلامهم، ولكن الله عاتبه حتى لا تنكسر قلوبُ أهْلِ الصُّفَّةِ، أو ليعلم أنَّ المؤمن الفقير خيرٌ من الغنى، وكان النظر إلى المؤمن أولى، وإن كان فقيراً أصلحُ وأوْلَى من الإقبالِ على الأغنياء طمعاً في إيمانهم، وإن كان ذلك أيضاً طمعاً في المصلحة، وعلى هذا يخرج قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ [الأنفال: ٦٧] الآية.

وقيل: إنَّما قصد النبي ﷺ تأليف الرجل ثقة بما كان في قلب ابن أم مكتوم من الإيمان، كما قال النبي ﷺ: «إنِّي لأعْطِي الرَّجُل، وغَيرهُ أحَبُّ إليَّ مِنْهُ مخَافَة أن يكُبَّهُ اللَّهُ على وجْهِهِ».

وقال ابن زيدٍ: إنَّما عبس النبي ﷺ لابن أم مكتوم، وأعرض عنه؛ لأنَّه أشار إلى الذي كان يقوده أن يكفه، فدفعه ابن أم مكتوم، وأبى إلا أن يكلم النبي ﷺ حتى يعلمه، فكان في هذا نوع جفاءٍ منه، ومع هذا أنزل الله تعالى في حقه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، بلفظ الإخبار عن الغائب تعظيماً له، ولم يقل: عَبَسْتَ وتولَّيت. ثم أقبل عليه بمواجهة الخطاب تأنيساً له، فقال: «ومَا يُدْريْكَ» أي: يعلمك «لَعلَّهُ» ابنُ أم مكتوم «يزَّكّى» بما استدعى منك تعليمه إياه من القرآن والدين، وإنَّما ذكره بلفظ الأعمى ليس للتحقير، بل كأنه قيل: إنه بسبب عماه يستحق مزيد الرفق والرأفة، فكيف يليق بك يا محمد، أن

---

(١) سقط من: أ.

تخصَّه بالغلظةِ، وأمَّا كونه مأذوناً لهُ في تأديب أصحابه، لكن هنا لمَّا أوهم تقديمَ الأغنياء على الفقراءِ، وكان ذلك مما يوهمُ ترجيح الدنيا على الدِّين، فلهذا السبب عوتب[١].

فصل فيمن استدل بالآية على جواز صدور الذنوب من الأنبياء

قال ابن الخطيب[٢]: تمسَّك القائلون بصدورِ الذنب عن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بهذه الآية.

وقالوا: لمَّا عُوتبَ النبيُّ ﷺ على ذلك الفعل دلَّ على أنَّه كان معصية.

قال ابن الخطيب: وهذا بعيد لما ذكرنا في الجواب عن الأول، وأيضاً: فإن هذا من باب الاحتياط وترك الأفضل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾؛ الظاهر أنه أجرى التَّرجي مجرى الاستفهام، لما بينهما من معنى الطَّلب في التَّعليق، لأن المعنى منصب على تسليط الدراية على التَّرجي، إذ التقدير: لا يدري ما هو مترجّى منه التركيب، أو التذكر.

وقيل: الوقف على «يدْرِي»، والابتداء بما بعده على معنى: وما يطلعك على أمره، وعاقبة حاله، ثم ابتدأ، فقال: «لعلّه يزكّى».

فصل في تحرير الضمير في قوله: «لعله»

قيل: الضمير في «لعلَّهُ» للكافر، يعني: لعل إذا طمعت في أن يتزكّى بالإسلام.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ أي: قبول الحق، «وما يدريك» أنَّ ما طمعت فيه كائن، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وقوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨].

قوله: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾.

قرأ عاصم: «فتنفعه» بالنصب.

والباقون[٣]: بالرفع.

فمن رفع، فهو نسق على قوله: «أو يذَّكرُ».

ومن نصب، فعلى جواب التَّرجي كقوله في «المؤمن»[٤]: ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ [غافر: ٣٧]، وهو مذهب كوفي وقد تقدم الكلام عليه.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٤٤)، مختصراً وذكره بتمامه القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٣٩)، عن ابن زيد.

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٥١.

(٣) ينظر: السبعة ٦٧٢، والحجة ٦/ ٣٧٦، وإعراب القراءات ٢/ ٤٣٩، وحجة القراءات ٧٤٩.

(٤) يعني سورة «غافر».

وقال ابن عطية[١]: في جواب التمني؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ في حكم قوله: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾.

قال أبو حيان[٢]: «وهذا ليس تمنياً إنما هو ترجٍّ».

قال شهاب الدين[٣]: إنما يريد التَّمني المفهوم من الكلام، ويدلُّ له ما قاله أبو البقاء: «وبالنصب على جواب التمني في المعنى»، وإلاَّ فالفرق بين التمنِّي والترجِّي لا يجهله ابن عطية.

وقال مكي: «من نصبه جعله جواب «لَعلَّ» بالفاء؛ لأنَّه غير موجب، فأشبه التَّمني والاستفهام، وهو غير معروف عند البصريين» وقرأ عاصمٌ[٤] في رواية الأعرج: «أو يذْكُر» ـ بسكون الذال، وتخفيف الكاف مضمومة ـ مضارع «ذكر»، والمعنى: أوَ يتَّعظ بما يقوله، «فتنفعه الذكرى» أي: العِظَةُ.

قوله: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ قال عطاء: يريد عن الإيمان، وقال الكلبي: استغنى عن الله، وقال بعضهم: استغنى أثرى؛ وهو فاسد ههنا؛ لأن إقبال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يكن لثروتهم ومالهم حتى يقال له أما من أثرى، فأنت تقبل عليه، ولأنه قال: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ ولم يقل وهو فقير معدم، ومن قال: أما من استغنى بماله فهو صحيح، لأن المعنى أنه استغنى عن الإيمان والقرآن بما لَهُ من المال.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ تقدمت فيه قراءتا التثقيل والتخفيف.

قال الزجاج: أي أنت تقبل عليه وتتعرض له وتميل إليه، يقال تصدى فلان لفلان، يتصدّد إذا تعرض له، والأصل فيه تصدد يتصدّد من الصدد، وهو ما استقبلك وصار قبالتك فأبدل أحد الأمثال حرف علة مثل: تظنيت وقصيت، وتقضى البازي قال الشاعر:

٥١٠٧ب ـ تَصدَّى لِوضَّاح كأنَّ جَبينَه   سِرَاجُ الدُّجَى يُجْبَى إليه الأساور[٥]

وقيل: هو من الصدى، وهو الصوت المسموع في الأماكن الخالية والأجرام الصلبة.

وقيل: من الصدى وهو العطش، والمعنى على التعرض، ويتمحّل لذلك إذا قلنا أصله من الصوت أو العطش.

وقرأ أبو جعفر «تُصْدي» بضم التاء وتخفيف الصاد. أي يصديك حرصك على إسلامه.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٧.   (٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤١٩.
(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٤٧٨.
(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٧، والبحر المحيط ٨/ ٤١٩، والدر المصون ٦/ ٤٧٩.
(٥) البيت للراعي النميري. ينظر ديوانه (١٠٩)، والبحر المحيط ٨/ ٤١٧، والدر المصون ٤٧٩٦.

يقال: صدى الرجل وصديته، وقال الزمخشري[١]: وقرىء «تُصدي» بضم التاء أي تعرض، ومعناه يدعوك داع إلى التصدي له؛ من الحرص والتهالك على إسلامه.

قوله﴿أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ مبتدأ خبره «عليك» أي ليس عليك عدم تزكيته.

والمعنى لا شيء عليك في أن لا يسلم من تدعوه إلى الإسلام، فإنه ليس عليك إلا البلاغ، أي لا يبلغن بك الحرص على إسلامهم إلى أن تعرض عمن أسلم للاشتغال بدعوتهم.

قوله: ﴿يَسْعَىٰ﴾ حال من فاعل «جاءك» والمعنى أن يسرع في طلب الخير، كقوله: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].

وقوله: ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ جملة حالية من فاعل «يسعى» فهو حال من حال وجعلها حالاً ثانية معطوفة على الأولى ليس بالقوي وفيها ثلاثة أوجه يخشى الله ويخافه في ألاَّ يهتم بأداء تكاليفه، أو يخشى الكفار وأذاهم في إتيانك، أو يخشى الكبوة فإنه كان أعمى، وما كان له قائد.

قوله ﴿تَلَهَّىٰ﴾ أصله تتلهى من لهي يلهى بكذا أي اشتغل وليس هو من اللهو في شيء.

وقال أبو حيان[٢]: ويمكن أن يكون منه لأن ما يبنى على فعل من ذوات الواو تنقلب واوه لانكسار ما قبلها. نحو شقي يشقى. فإن كان مصدره جاء بالياء فيكون من مادة غير مادة اللهو.

قال شهاب الدين[٣]: الناس إنما لم يجعلوه من اللهو لأجل أنه مسند إلى ضمير النبي ﷺ ولا يليق بمنصبه الكريم أن ينسب الله إليه التفعل من اللهو. بخلاف الاشتغال فإنه يجوز أن يصدر منه في بعض الأحيان، ولا ينبغي أن يعتقد غير هذا وإنما سقط الشيخ وقرأ ابن كثير في رواية البزي عنه «عنهو تلهى» بواو وهي صلة لهاء الكناية، وتشديد التاء والأصل تتلهى فأدغم، وجاز الجمع بين ساكنين لوجود حرف علة وإدغام، وليس لهذه الآية نظير. وهو أنه إذا لقي صلة هاء الكناية ساكن آخر ثبتت الصلة بل يجب الحذف، وقرأ أبو جعفر «تُلَهَّى» بضم التاء مبنياً للمفعول. أي يلهيك شأن الصناديد، وقرأ طلحة «تتلهى» بتاءين وهي الأصل، وعنه بتاء واحدة وسكون اللام.

فصل

فإن قيل قوله: ﴿فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾ فأنت عنه تلهى كان فيه اختصاصاً.

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/٧٠١، ٧٠٢.
(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/٤١٩.
(٣) ينظر: الدر المصون ٦/٤٧٩.

قلنا نعم، ومعناه إنكار التصدي والتلهي عنه، أي مثلك خصوصاً لا ينبغي أن يتصدى للغني، ويتلهى عن الفقير.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾

قوله: ﴿كَلَّآ﴾ وهو ردع عن المعاتب عليه وعن معاودة مثله. قال الحسن: لما تلا جبريل على النبي ﷺ هذه الآيات عاد وجهه كأنما أسف الرماد فيه ينتظر ماذا يحكم الله عليه، فلما قال: ﴿كَلَّآ﴾ سري عنه، أي لا تفعل مثل ذلك قال ابن الخطيب(١): وقد بينا نحن أن ذلك محمول على ترك الأولى.

وقوله: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ فيه سؤالان:

الأول: قوله: ﴿إِنَّهَا﴾ ضمير المؤنث، وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ ضمير المذكر، والضميران عائدان إلى شيء واحد، فكيف القول فيه؟.

الجواب: وفيه وجهان:

الأول: أن قوله: ﴿إِنَّهَا﴾ ضمير المؤنث، قال مقاتل: يعني آيات القرآن، وقال الكلبي: يعني هذه السورة وهو قول الأخفش والضمير في قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ عائد إلى التذكرة أيضاً، لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ.

الثاني: قال صاحب النظم: إنها تذكرة يعني بها القرآن والقرآن مذكر إلا أنه لما جعل القرآن تذكرة أخرجه على لفظ التذكرة، ولو ذكره لجاز كما قال في موضع آخر ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ والدليل على أن قوله: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ المراد به القرآن قوله ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾.

فصل

كيف اتصال هذه الآية بما قبلها؟ الجواب: من وجهين:

الأول: كأنه قيل: هذا التأديب الذي أوحيته إليك وعرفته لك في إجلال الفقراء وعدم الالتفات إلى أهل الدنيا أثبت في اللوح المحفوظ الذي قد وكل بحفظه أكابر الملائكة.

الثاني: كأنه قيل: هذا القرآن قد بلغ في العظمة إلى هذا الحد العظيم، فأي حاجة به إلى أن يقبله هؤلاء الكفار، فسواء قبلوه أو لم يقبلوه فلا تلتفت إليهم ولا تشغل قلبك بهم، وإياك وأن تعرض عمن آمن به تطيباً لقلوب أرباب الدنيا.

---

(١) ينظر: الرازي ٣١/ ٥٣.

قوله: ﴿ذَكَرَهُ﴾ يجوز أن يكون الضمير لله تعالى، لأن منزل التذكرة، وأن يكون للتذكرة، وذكر ضميرها؛ لأنها بمعنى الذكر والوعظ.

وقوله: ﴿فِي صُحُفٍ﴾ صفة لتذكرة. فقوله ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ﴾ جملة معترضة بين الصفة وموصوفها، ونحوها ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩] ويجوز أن يكون «في صحف» خبراً ثانياً لـ «إنها» والجملة معترضة بين الخبرين.

فصل

اعلم أنه تعالى وصف تلك التذكرة بأمرين:

الأول: قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ﴾ أي هذه تذكرة بينة ظاهرة بحيث لو أرادوا فهمها والاتعاظ بها والعمل بموجبها لقدروا عليه.

والثاني: قوله: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ أي تلك التذكرة معدة في هذه الصحف المكرمة، والمراد من ذلك تعظيم حال القرآن والتنويه بذكره والمعنى أن هذه التذكرة مثبتة في صحف.

والمراد من «الصحف» قولان:

الأول: أنها صحف منتسخة من اللوح مكرمة عند الله تعالى مرفوعة في السماء السابعة أو مرفوعة المقدار مطهرة عن أيدي الشياطين، أو المراد مطهرة بسبب أنها لا يمسها إلا المطهرون وهم الملائكة.

قوله ﴿سَفَرَةٍ﴾ جمع سافر وهو الكاتب ومثله كاتب وكتبة، وسفرت بين القوم أسفر سفارة أصلحت بينهم قال:

٥١٠٧ج ـ فَمَا أدَعُ السِّفارةَ بَيْنَ قَومي ... ولا أمْشِي بِغِشٍّ إن مَشَيْتُ[1]

وسفرت المرأة: كشفت نقابها.

وقوله: ﴿كِرَامٍ﴾ هي لفظة مخصوصة بالملائكة عند الإطلاق، ولا يشاركهم فيها سواهم، وروى الضحاك عن ابن عباس في «كِرامٍ» قال: يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا بزوجته، أو تَبرَّزَ لغائطهِ.

وقيل: يُؤثِرُون منافعَ غيرهم على منافع أنفسهم.

وقوله تعالى: ﴿بَرَرَةٍ﴾ جمع بارّ، مثل: كافرٍ وكفرةٍ، وساحرٍ وسحرةٍ وفاجرٍ وفجرةٍ، يقال: برٌّ وبارٌّ، إذا كان أهلاً للصِّدقِ، ومنه: برَّ فلان في يمينه أي: صدق،

---

(١) ينظر: القرطبي ١٩/ ١٤١، والبحر المحيط ٨/ ٤١٧، وفتح القدير ٥/ ٣٨٣، والدر المصون ٦/ ٤٨٠.

وفلان يَبِرُّ خالقهُ ويتبرَّرهُ: أي: يُطِيعهُ، فمعنى «بررة» أي: مطيعين لله صادقين الله في أعمالهم.

فصل في المراد بالسفرة

قال ابن الخطيب(١): قوله تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ يقتضي أن طهارة تلك الصحف إنما حصلت بأيدي هؤلاء السَّفرة، فقال القفالُ في تقريره: لمَّا كان لا يمسُّها إلا الملائكة المطهرون أضيف التطهير إليها لطهارة من يمسُّها.

وقال القرطبيُّ(٢): إن المراد بقوله ـ تعالى ـ في سورة «الواقعة»: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ أنهم الكرام البررة في هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ (١٧) مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (١٩) ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ (٢٣)﴾

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾. أي: لُعِنَ.

وقيل: عُذِّبَ، والإنسان: الكافرُ.

روى الأعمشُ عن مجاهدٍ قال: ما كان في القرآن من قتل الإنسان، فإن ما عني به الكافر(٣).

قال النحويون: وهذا إما تعجبٌ، أو استفهام تعجبٍ.

قال ابن الخطيب(٤): اعلم أنَّهُ ـ تعالى ـ لما ذكر ترفُّع صناديد قريش على فقراء المسلمين عجب [عباده](٥) المؤمنين من ذلك، فكأنَّه قيل: وأيُّ سببٍ في هذا الترفُّع مع أنَّه أوله نطفة مَذِرَة، وآخره جِيفةٌ قذرةٌ، وهو فيما بين الوقتين حمال عذرة، فلا جرم أن يذكر ـ تعالى ـ ما يصلُح أن يكون علاجاً لعجبهم، وعلاجاً لكفرهم فإنَّ خلقة الإنسان تصلُح لأن يستدلّ بها على وجود الصانع، ولأن يستدل بها على القول بالبعث والحشر.

قيل: نزلت في عتبةَ بنِ أبي لهبٍ، والظاهر العموم.

وقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ دعاء عليه بأشدِّ الأشياءِ؛ لأنَّ القتل غاية شدائدِ الدُّنيا، و ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾، تعجُبٌ من إفراطهِ في كفرانِ نعمةِ اللَّهِ.

فإن قيل: الدعاء على الإنسان إنما يليق بالعاجز، والقادر على الكُلِّ كيف يليق به

---

(١) الفخر الرازي ٣١/ ٥٤.

(٢) ينظر: لجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٤٢.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٤٦)، من طريق الأعمش عن مجاهد. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٢٠)، وعزاه إلى ابن المنذر.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٥٤.

(٥) سقط من: أ.

ذلك؟ والتعجب أيضاً إنما يليق بالجاهل بسبب الشَّيء، فالعالمُ به كيف يليقُ ذلك بهِ؟.

فالجواب: أن ذلك ورد على أسلوب كلام العرب، لبيان استحقاقهم لأعظم العقاب، حيث أتوا بأعظم القبائحِ كقولهم إذا تعجَّبُوا من شيءٍ: قاتلهُ اللَّهُ ما أخَسّه، وأخزاه الله ما أظلمه، والمعنى: اعجبوا من كفر الإنسان بجميع ما ذكرنا بعد هذا.

وقيل: ما أكفرهُ بالله ونعمه مع معرفته بكثرة إحسانه إليه، والاستفهام بقوله: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ قيل: استفهامُ توبيخٍ، أي: أيُّ شيءٍ دعاهُ إلى الكفر.

وقيل: استفهام تحقير له، فذكر أوَّل مراتبه، وهو قوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ﴾، ولا شك أن النطفة شيءٌ حقيرٌ مهينٌ، ومن كان أصله ذلك كيف يتكبر، وقوله: «فقدَّرهُ» أي: أطواراً.

وقيل: سوَّاه لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧]، وقدَّر كُلَّ عُضوٍ في الكيفيَّة والكميَّة بالقدر اللائق لمصلحته، لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، ثُمَّ لما ذكر المرتبة الوسطى قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾.

قيل: المراد: تيسير خروجه من بطنِ أمِّه، ولا شكَّ أن خروجه حيًّا من أضيقِ المسالك من أعجب العجائبِ، يقالُ: إنه كان رأسه في بطن أمه من فوقٍ، ورجلاهُ من تحتٍ، فإذا جاء وقت الخروج انقلب، فمن الذي أعطاه ذلك الإلهام، المراد منه قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، أي: التمييز بين الخير والشرِّ.

وقيل: مخصوصٌ بالدين.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾. يجوز أن يكون الضمير للإنسان، والسبيل ظرف، أي: يسر للإنسان الطريق، أي: طريق الخير، والشر، كقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

وقال أبو البقاء[١]: ويجوز أن ينتصب بأنَّه مفعولٌ ثانٍ لـ «يسره»، والهاء للإنسان، أي: يسره السبيل، أي: هداه له.

قال شهاب الدين[٢]: فلا بد من تضمينه معنى «أعطَى» حتى ينصب اثنين، أو حُذف حرف الجر أي: يسَّره للسَّبيل، ولذلك قدره بقوله: «هَداه له»، ويجوز أن يكون «السَّبيل» منصوباً على الاشتغالِ بفعلٍ مقدرٍ، والضمير له، تقديره: ثم يسَّر السبيل يسَّره، أي: سهلهُ للناس، كقوله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وتقدَّم مثله في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣].

---

(١) ينظر: الإملاء ٢/ ٢٨١.
(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٤٨٠.

فصل في تفسير الآية

روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ومجاهدٍ قالا: سبيل الشقاء والسعادة(١).

وقال ابن زيد: سبيل الإسلام(٢)، وقال أبو بكر بن طاهر: يسّر على كلِّ أحد ما خلقهُ لهُ وقدره عليه، لقوله عليه الصلاة والسلام: «اعْمَلُوا فكُلٌّ مُيسَّرٌ لمَا خُلِقَ لَهُ»(٣).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ هذه المرتبة الثالثة، أي: جعل له قبراً يوارى فيه يقال: قبرهُ إذا دفنه، وأقبرهُ، أي: جعلهُ بحيث يقبر، وجعل له قبراً إكراماً له، ولم يجعله ممَّن يُلْقَى على وجه الأرض تأكله الطير. قاله الفراء.

قال أبو عبيدة: «أقْبَرَهُ» جعل له قبراً، وأمرَ أن يقبر، والقَابِرُ: هو الدَّافن بيده؛ قال الأعشى: [السريع]

٥١٠٨ ـ لَوْ أسْنَدَتْ مَيْتاً إلى نَحْرِهَا عَاشَ ولَمْ يُنْقَلْ إلى قَابِرِ(٤)

يقال: قبرت الميت «أي» دفنته، وأقبره الله أي: صيَّرهُ بحيثُ جعل لهُ قبراً.

وتقول العرب: بترت ذنب البعير وأبتره الله، وعضبت قرن الثور، وأعضبه الله وطردت فلاناً، والله أطرده، أي: صَيَّره طريداً.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾. أي: أحياه بعد موته، ومفعول شاء محذوف، أي: شاء إنشارهُ، و «أنشره» جواب «إذا».

وقرأ العامة: «أنْشَرَ»، بالألف.

وروى أبو حيوة عن نافع وشعيب عن ابن أبي حمزة: «نَشَرهُ» ثلاثياً بغير ألف(٥).

ونقلها أبو الفضل أيضاً، وقال: هما لغتان بمعنى الإحياء.

قال ابن الخطيب(٦): وإنَّما قال: «إذا شَاءَ أنشرهُ» إشعاراً بأنَّ وقته غير معلوم، فتقديمه وتأخيره موكولٌ إلى مشيئة الله تعالى.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٤٨)، عن مجاهد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٢٠)، وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٤٨)، عن ابن زيد.

(٣) أخرجه البخاري (١١/ ٥٠٣)، كتاب: القدر، باب: وكان أمر الله قدراً مقدوراً حديث (٦٦٠٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٩)، كتاب: القدر، باب: كيفية الخلق حديث (٦/ ٢٦٤٧)، من حديث علي.

(٤) يروى صدرها مكان (نحرها).

ينظر ديوان الأعشى ص ٩٣، وسمط اللآلىء ١/ ٢٧٥، ٢/ ٧٥٦، ومجاز القرآن ٢/ ٢٨٦، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٢٩، ٥/ ١٥٢، والطبري ٣٠/ ٣٦، ومجمع البيان ١٠/ ٦٦٣، والقرطبي ١٩/ ١٤٣.

(٥) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٩، والبحر المحيط ٨/ ٤٢٠، والدر المصون ٦/ ٤٨٠.

(٦) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٥٦.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ «كلاً»: ردعٌ للإنسان عن تكبُّره، وترفعه، وعن كفره، وإصراره على إنكار التوحيد، وعلى إنكار البعث، والحشر والنشر وقوله تعالى: ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ قال مجاهد وقتادة: لا يقضي أحدٌ جميع ما أمر به، وهو إشارة إلى أن الإنسان لا ينفكُّ عن تقصير ألبتَّة(١).

قال ابن الخطيب(٢): وعندي في هذا التفسير نظر؛ لأن الضمير فيه عائد إلى المذكور السَّابق، وهو الإنسان في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ وليس المراد من الإنسان هنا: جميع الإنسان، بل الإنسان الكافر، فقوله تعالى: ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾، كيف يمكن حمله على جميع الناس؟.

وقال ابن فورك: كلاً لما يقض الله ما أمره، [كلا لم يقض الله لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان وترك التكبر، بل أمره بما لم يقض له به وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول لما يقض ما أمره]: لم يبال بالميثاق الذي أخذ عليه في صلب آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وقيل: المعنى: إن ذلك الإنسان الكافر لم يقض ما أمره به من التَّأمُّلِ في دلائل الله تعالى، والتَّدبُّر في عجائب خلقه.

قوله: «ما أمره»، «ما»: موصولة.

قال أبو البقاء(٣): بمعنى «الذي»، والعائد محذوف، أي: ما أمره به.

قال شهابُ الدين(٤): وفيه نظر، من حيثُ إنَّه قدر العائد مجروراً بحرف لم يجر الموصول، ولا أمره به، فإن قلت: «أمر» يتعدى إليه بحذف الحرف، فاقدره غير مجرور.

قلت: إذا قدرته غير مجرور فإمَّا أن تُقدِّره متصلاً أو منفصلاً، وكلاهما مشكل، لما تقدم في أول «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣].

وقال الحسن: «كلاً» معناه: «حقّاً»، «لما يقض»: أي: لم يعمل بما أمره به(٥).

قال القرطبي(٦): و «ما» في قوله: «لما» عماد للكلام، كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله تعالى: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٤٨)، عن مجاهد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٢٠)، وعزاه إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر.
وينظر تفسير الماوردي (٦/ ٢٠٦)، والقرطبي (١٩/ ١٤٣).

(٢) ينظر: الرازي ٣١/ ٥٦.

(٣) الإملاء ٢/ ٢٨١.

(٤) الدر المصون ٦/ ٤٨٠.

(٥) ذكره القرطبي في تفسيره (١٩/ ١٤٣)، عن الحسن.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٤٣.

وقال ابن الأنباريِّ: الوقف على «كلاً» قبيح، والوقف على «أمره» و «نشره» جيد، فـ «كلا» على هذا بمعنى حقًّا.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ (٣٢)﴾

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾.

قال ابن الخطيب[١]: اعلم أنَّ عادة الله ـ تعالى ـ جارية في القرآن الكريم، كلما ذكر دلائل الأنفس يذكر عقبها دلائل الآفاق، فبدأ ـ هاهنا ـ بما يحتاج الإنسان إليه.

واعلم أنَّ النَّبتَ إنَّما يحصل من القَطْرِ النازل من السماء الواقع في الأرض، فالسماء كالذَّكر، والأرض كالأنثى، فبيَّن نزول الماء من السماء إلى الأرض بقوله: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ﴾.

وقال القرطبي[٢]: لمَّا ذكر تعالى ابتداء خلقِ الإنسان، ذكر ما يسَّر من رزقه، أي: فلينظر كيف خلق الله طعامه الذي هو قوام حياته، وكيف هيأ له أسباب المعاش ليستعد بها للمعاد، وهذا النظر نظر القلب بالفكر، والتدبر.

قال الحسنُ ومجاهدٌ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ أي: إلى مدخله ومخرجه[٣].

روى الضحاكُ بنُ سفيان الكلابي، قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا ضحَّاكُ، ما طَعامُكَ»؟ قلت: يا رسول الله، اللَّحْمُ واللَّبنُ، قال: «ثُمَّ يصيرُ إلى مَاذَا»؟ قلت: إلى ما قد علمتهُ، قال: «فإنَّ الله ـ تعالى ـ ضَربَ مَا يَخرجُ مِنْ ابْنِ آدمَ مثلاً للدُّنْيَا»[٤].

وقال أبو الوليد: سألت ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ عن الرجل يدخل الخلاء، فينظر ما يخرج منه، قال: يأتيه الملك فيقول: انظر ما بخلت به إلى ما صار[٥].

واعلم أنَّ الطعام الذي يتناوله الإنسان له حالتان:

إحداهما متقدمة، وهي التي لا بد من وجودها حتى يدخل ذلك الطعام في الوجود.

---

(١) الفخر الرازي ٣١/ ٥٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٤٣.
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٤٤)، ومثله عن ابن الزبير ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٢١)، وعزاه إلى ابن المنذر.
(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٤٥٢)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٣٥٩)، من حديث الضحاك بن سفيان الكلابي.
وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٩١)، وقال: رواه أحمد والطبراني ورجال الطبراني رجال الصحيح غير علي بن زيد بن جدعان وقد وثق.
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٤٤)، وروي بمعناه عن أبي قلابة ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٢١)، وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

والحالة الثانية متأخرة وهي الأمور التي لا بد منها في بدن الإنسان، حتى يحصل الانتفاع بذلك الطعام، فلما كانت الحالة الأولى أظهر للحسِّ؛ لا جرم اكتفى الله تعالى بذكرها.

قوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾.

قرأ الكوفيون: «أنَّا» بفتح الهمزة غير ممالة.

والباقون[1]: بالكسر.

والحسين بن علي: بالفتح والإمالة.

فأمَّا القراءة الأولى، ففيها ثلاثة أوجه:

أحدها: أنها بدل من «طَعامه»، فيكون في محل جر، واستشكل بعضهم هذا الوجه، ورده بأنه ليس بواضح.

والثاني: أنه بدلُ اشتمالٍ، بمعنى أنَّ صبَّ الماء سبب في إخراج الطَّعام، فهو مشتمل عليه بهذا التقدير، وقد نحا مكيٌّ إلى هذا فقال: لأن هذه الأشياء مشتملة على الطعام ومنها يتكون، لأنَّ معنى «إلى طعامِهِ» إلى حدوث طعامه كيف يتأتى، فالاشتمال في هذا إنما هو من الثاني على الأول؛ لأن الاعتبار إنَّما هو في الأشياء التي يتكون منها الطعام لا في الطعام نفسه.

والوجه الثاني: أنها على تقدير لام العلَّة، أي: فلينظر لأنا، ثم حذف الخافض فجرى الخلاف المشهور في محلها.

قال القرطبيُّ[2]: فـ «أنَّا» في موضع خفضٍ على الترجمة عن الطعام، فهو بدل منه؛ كأنَّه قال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ إلى «أنَّا صببنا»، فلا يحسن الوقف على «طعامه» في هذه القراءة.

والوجه الثالث: أنَّها في محل رفعٍ خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو أنَّا صَببنَا، وفيه ذلك النظر المتقدم؛ لأنَّ الضمير إن عادَ على الطعام، فالطعام ليس هو نفس الصب، وإن عاد على غيره، فهو غير معلوم، وجوابه ما تقدم.

وأما القراءة الثانية: فعلى الاستئناف، تقديراً لنعمه عليه.

وأما القراءة الثالثة: «أنَّى» التي بمعنى: «كَيْفَ»، وفيها معنى التَّعجُّب، فهي على هذه القراءة كلمة واحدة، وعلى غيرها كلمتان.

---

(١) ينظر: السبعة ٦٧٢، والحجة ٦/ ٣٧٨، وإعراب القراءات ٢/ ٤٤٠، وحجة القراءات ٧٥٠، والكشاف ٤/ ٧٠٤، والبحر المحيط ٨/ ٤٢١، والدر المصون ٦/ ٤٨١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٤٤.

قال القرطبي[١]: فمن أخذ بهذه القراءة، قال: الوقف على «طعامه» تام، ويقال: معنى «أنَّى»: أين، إلاَّ أنَّ فيها كناية عن الوجوه، وتأويلها: من أي وجهٍ صببنا؛ قال الكميت: [المنسرح]

٥١٠٩ ـ أنَّى، ومِنْ أيْنَ آبَكَ الطَّربُ   مِنْ حَيثُ لا صَبْوةٌ ولا رِيَبُ[٢]

فصل في المراد بصبّ الماء

قوله: ﴿صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾، يعني: الغيث والأمطار، ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ أي: بالنبات ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ أي: قَمْحاً وشعيراً وسلقاً، وسائر ما يحصد ويدخر، وإنما قدم ذلك لأنها كالأصل في الأغذية، «وعِنَباً» وإنما ذكره بعد الحب؛ لأنه غذاء من وجه، وفاكهة من وجه.

قوله: ﴿وَقَضْبًا﴾: القَضْبُ هنا، قال ابن عباس: هو الرطبُ؛ لأنه يقضب النخل، أي: يقطع، ورجَّحه بعضهم بذكره بعد العنب، وكثيراً ما يقترنان.

وقيل: القت.

قال القتيبي: كذا يسميه أهلُ «مكة».

وقيل: كُل ما يُقْضَبُ من البُقولِ لبني آدمَ.

وقيل: هو الرَّطبةُ، والمقاضب: الأرض التي تنبتها.

قال الراغب: والقَضْبُ: كالقضيب، لكن القضيب يستعمل في فروع الشجر، والقضبُ يستعمل في البقل، والقَضَبُ: أي بالفتح قطع القَضْب والقضيب، وعنه ﷺ أنه كان إذا رأى في ثوبٍ تصليباً قضبه، وسيفٌ قاضبٌ وقضيبٌ، أي: قاطعٌ، فالقضيب ـ هاهنا ـ بمعنى: الفاعل، وفي الأول: بمعنى المفعول، وكذا قولهم: ناقة قضيب، لما تركب من بين الإبل ولما ترض، ويقال لكل ما لم يهذب: مقتضب، ومنه اقتضاب الحديث، لما لم يترو فيه.

وقال الخليل: القَضْبُ: أغصان الشجرة يتّخذ منها سهامٌ أو قسيٌّ.

وقال ابن عباس: إنه الفصفصة، وهو القتّ الرطب[٣].

---

(١) ينظر السابق.

(٢) ينظر: الكميت وقصائده الهاشميات ص ١٣٣، وشرح شواهد الألفية ص ٣١٠، وشرح المفصل ٤/ ١٠٩، ١١١، والصاحبي في فقه اللغة ص ٢٤٢، وشرح شافية ابن الحاجب ٣/ ٢٧، والقرطبي ١٩/ ١٤٤.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٤٩)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٢١)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

وقال الخليل: القَضْبُ: الفصفصة الرطبة.

وقيل: بالسين، فإذا يبست فهو قتّ.

قوله: ﴿وَزَيْتُونًا﴾. وهي: شجرة الزيتون، ﴿وَنَخْلًا﴾ يعني: النخيل.

قوله: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾. جمع «أغلبَ وغلبَاء» كـ «حُمْر» في: «أحْمرَ، وحَمْراءَ»، يقال: حديقة غلباء، أي: غليظة الشجر ملتفة، واغلولب العشب أي: غلظ، وأصله في وصف الرقاب يقال: رجل أغلب، وامرأة غلباء، أي: غليظة الرقبة.

قال عمرو بن معديكرب: [الكامل]

٥١١٠ ـ يَسْعَى بِهَا غلْبُ الرِّقابِ كأنَّهُمْ بُزلٌ كُسِينَ مِنَ الكُحَيْلِ جِلالا[١]

ويقال للأسد: الأغلب؛ لأنه مصمت العنق لا يلتفت إلا جميعاً؛ قال العجاج: [الرجز]

٥١١١ ـ مَا زِلْتُ يَوْمَ البَيْنِ ألْوِي صُلْبِي والرَّأسَ حتَّى صِرْتُ مِثْلَ الأغْلبِ[٢]

والغلبة: القهر؛ أن يُنال وتصيب عليه رقبته، هذا أصله، وحديقة غلباء: ملتفة، وحدائق غُلب، وقال ابن عباس: الغلب جمع أغلب، وغلباء، وهي الغِلاظ، وعنه أيضاً: الطوال.

وقال قتادةُ، وابنُ زيدٍ: الغلبُ: النَّخْلُ الكرامُ[٣].

وعن ابن زيدٍ أيضاً وعكرمةَ: عظام الأوساط، والجذوع[٤].

وقال مجاهد: ملتفة[٥]. وتقدم الكلام على الحدائق في سورة «النمل».

قوله: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾. الفاكهةُ: ما يأكله الناس من ثمار الأشجار، كالتين، والخوخ، وغيرهما.

قال ابن الخطيب[٦]: وقد استدلَّ بعضهم بأنَّ الله ـ تعالى ـ لمَّا ذكر الفاكهة بعد ذكر العنبِ، والزيتونِ، والنخل، وجب ألا يدخل هذه الأشياء في الفاكهة، وهذا أقربُ[٧] من جهة الظاهر؛ لأن المعطوف مغاير للمعطوف عليه.

---

(١) ينظر شعر عمرو بن معديكرب ص ١٤١، والكشاف ٤/ ٧٠٤، والقرطبي ١٩/ ١٤٤، والدر المصون ٦/ ٤٨١.

(٢) ينظر اللسان (بين)، و(صلب)، والقرطبي ١٩/ ١٤٤.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٥٠)، عن قتادة وابن زيد.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٥٠)، عن عكرمة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٢١)، وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٢١)، وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٦) ينظر الفخر الرازي ٣١/ ٥٨.

(٧) في أ: قريب.

وأمَّا الأبُّ: فقيل: الأبُّ للبهائم بمنزلة الفاكهة للنَّاس.

وقيل: هو مطلق المرعى.

قال الشاعر يمدحُ النبي ﷺ: [الطويل]

٥١١٢ ـ لَهُ دَعْوةٌ مَيْمُونةٌ رِيحُهَا الصَّبا بِهَا يُنْبِتُ اللَّهُ الحَصِيدَةَ والأبَّا[١]

وقيل: سمي المرعى أبًّا؛ لأنه يؤبُّ، أي: يؤم وينتجع، والأبُّ والأمُّ بمعنى؛ قال الشاعر: [الرمل]

٥١١٣ ـ جِذمُنَا قَيسٌ ونَجْدٌ دَارُنَا ولَنَا الأبُ بِهِ والمُكْرَعُ[٢]

وأبَّ لكذَا يَؤبُّ أبًّا، وأبَّ إلى وطنه، إذا نَزعَ الشيء نزوعاً: تهيَّأ لقصدِهِ، وهكذا أب بسيفه، أي: تهيَّأ لسله، وقولهم: «إبان ذلك» هو فعلان منه، وهو الشيء المتهيّىء لفعله ومجيئه، وقيل: الأبّ: يابس الفاكهة لأنها تؤب للشتاء، أي تعد.

وقيل: الأبُّ ما تأكله البهائمُ من العُشْبِ.

قال ابنُ عباسٍ والحسن: الأبُّ: كل ما أنبتت الأرض مما لا يأكله الناس، وما يأكله الآدميون، هو: «الحصيد»[٣].

وعن ابن عباس وابن أبي طلحة: الأبُّ، الثِّمارُ الرَّطبةُ[٤].

وقال الضحاك: هو التِّينُ خاصَّةً[٥]. وهو محكي عن ابن عباس أيضاً. وقيل: الأب الفاكهة رطب الثمار ويابسها.

وقال إبراهيم التيمي: سُئل أبُو بكر الصديقُ ـ رضي الله عنه ـ عن تفسير الفاكهة والأبِّ، فقال: أيُّ سماءٍ تظلني وأي أرض تقلّني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلمُ[٦].

وقال أنس: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ هذه الآية، ثم قال: كل هذا عرفناه فما الأبُّ؟ ثم رفع عصا كانت بيده، ثم قال: هذا لعمر الله التكليف، وما عليك يا ابن أم عمر ألا تدري ما الأبُّ؟.

ثم قال: اتَّبعوا ما بين لكم في هذا الكتاب، وما لا فدعوه[٧].

---

(١) ينظر القرطبي ١٩/ ١٤٥، والبحر ٨/ ٤١٨، والدر المصون ٦/ ٤٨٢.

(٢) ينظر اللسان (أبب)، والكشاف ٤/ ٧٠٤، والقرطبي ١٩/ ١٤٥، والبحر المحيط ٤٧١، ومجمع البيان ١٠/ ٦٦٧.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٥٢). (٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٥٣).

(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٢٢)، عن الضحاك وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٦) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٢٢) وعزاه إلى أبي عبيد في فضائله وعبد بن حميد.

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٥١). وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٢٢)، وزاد=

وروي عن النبي ﷺ قال: «خُلِقتُمْ مِنْ سبعٍ، ورُزقتُمْ مِنْ سَبعٍ فاسجُدُوا للَّهِ على سَبْعٍ»[١].

وإنما أراد بقوله عليه الصلاة والسلام: «خُلِقتُمْ مِنَ سَبْعٍ» يعني: ﴿مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ [الحج: ٥] الآية.

والرزق من سبع، وهو قوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا﴾ إلى قوله «وفاكهة» ثم قال: «وأبًّا» وهو يدل على أنه ليس برزق لابن آدم، وأنَّه مما تختص به البهائم، والله أعلم.

قوله: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ﴾: نصب على المصدر المؤكد؛ لأن إنبات هذه الأشياء متاعٌ لجميع الحيوانات، واعلم أنه ـ تعالى ـ لما ذكر ما يغتذي به الناس والحيوان، قال جل من قائل: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾.

قال الفراء: جعلناه منفعة لكم ومتعة لكم ولأنعامكم، وهذا مثلٌ ضربه الله لبعث الموتى من قبورهم، كنبات الزرع بعد دُثُوره كما تقدم بيانه في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾: وهي الصَّيحةُ التي تصخُّ الآذان، أي: تصمها لشدة وقعتها.

وقيل: هي مأخوذة من صَخَّهُ بالحجر أي: صَكَّهُ به.

وقال الزمخشري[٢]: «صخَّ لحديثه مثل أصاخ له، فوصفت النفخة بالصاخَّة مجازاً؛ لأن النَّاس يصخُّون لها».

وقال ابن العربي: الصاخَّة: التي تورث الصَّممَ، وإنَّها لمسمعة، وهذا من بديع الفصاحة؛ كقول الشاعر: [البسيط]

٥١١٤ ـ أصمَّنِي سِرُهُمْ أيَّام فُرقتِهِمْ ... فَهلْ سَمِعتُمْ بِسرٍّ يُورِثُ الصَّمَمَا[٣]

وقال آخر: [الطويل]

= نسبته إلى سعيد بن منصور وابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في «شعب الإيمان» والخطيب.

(١) ينظر تفسير القرطبي (١٩/ ١٤٥).

(٢) ينظر الكشاف ٤/ ٧٠٥.

(٣) ينظر القرطبي ١٩/ ١٤٦، والبحر ٨/ ٤٢١، والدر المصون ٦/ ٤٨٢.

٥١١٥ ـ أصَمَّ بِكَ النَّاعِي وإنْ كَانَ أسْمَعَا ....[١]

وجواب «إذا» محذوف، يدل عليه قوله: «لِكُلِّ امرىءٍ مِنهُمْ يومئذٍ شأنٌ يُغنِيْهِ» والتقدير: فإذا جاءت الصاخة اشتغل كل أحد بنفسه.

فصل في تعلق الآية

لما ذكر أمر المعاش ذكر أمر المعاد ليتزودوا له بالأعمال الصالحة، والإنفاق مما امتن به عليهم.

وقال ابنُ الخطيب[٢]: لمَّا ذكر تعالى هذه الأشياء، وكان المقصود منها أمور ثلاثة:

أولها: الدلائل الدالة على التوحيد.

وثانيها: الدلائل الدالة على القدرة والمعاد.

وثالثها: أن هذا الإله الذي أحسن إلى عبيده بهذه الأنواع العظيمة من الإحسان، لا يليق بالعاقل أن يتمرَّد عن طاعته، وأن يتكبَّر على عبيده أتبع ذلك بما يكون كالمؤكِّد لهذه الأغراض، وهو شرح [أهوالِ الآخرة][٣]، فإن الإنسان إذا سمعها خاف، فيدعوه ذلك الخوف إلى التأمل في الدلائل، والإيمان بها، والإعراض عن الكفر، ويدعوه أيضاً إلى ترك التكبُّر على الناس، وإلى إظهار التواضع فقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ يعني: صيحة القيامةِ، وهي النفخة الأخيرةُ، تصخُّ الأسماع أي: تصمُّها، فلا تسمع إلا ما يدعى به الأحياء.

قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ دَابَّةٍ إلا وهِيَ مُصِيخَةٌ يوْمَ الجُمعَةِ شفقاً مِنَ السَّاعةِ إلاَّ الجنَّ والإنسَ»[٤].

قوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ﴾ بدل من «إذا»، ولا يجوز أن يكون «يغنيه» عاملاً في «إذا»، ولا في «يوم»؛ لأنه صفة لـ «شأن» ولا يتقدم معمول الصِّفة على موصوفها.

والعامة على «يغنيه» من الإغناءِ.

---

(١) صدر بيت لأبي تمام الطائي وعجزه:

وأصبح مغنى الحسود بعدك بلقعا

ينظر ديوانه ٣٦١، والبحر ٨/ ٤٢١، والقرطبي ١٩/ ١٤٦، والدر المصون ٦/ ٤٨٢.

(٢) ينظر الفخر الرازي ٣١/ ٥٨.

(٣) في أ: أحوال القيامة.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٤٨٦)، وأبو داود (١٠٤٦)، والترمذي (٤٩١)، والنسائي (٣/ ١١٣ ـ ١١٥)، والحاكم (١/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩)، وابن خزيمة (٣/ ١٢٠)، رقم (١٧٣٨)، وابن حبان (١٠٢٤ ـ موارد)، والبيهقي (٣/ ٢٥٠ ـ ٢٥١)، من حديث أبي هريرة وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وابن محيصن[١] والزهري، وابنُ أبي عبلة وحميدٌ، وابن السميفع: «يعنيه» بفتح الياء والعين المهملة من قولهم: عناني في الأمر، أي: قصدني.

فصل في معنى الآية

قوله: «يَفِرُّ»، أي: يهرب في يوم مجيء الصاخَّةِ، «مِنْ أخِيْهِ» أي: من مُوالاةِ أخيهِ، ومُكالمتهِ لأنه مشتغل بنفسه، لقوله بعده: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾، أي: يشغلهُ عن غيره.

وقيل: إنَّما يفرّ حذراً من مطالبتهم إياه بالتبعات، يقول الأخُ: ما واسيتنِي بمالك، والأبوان يقولان: قصرت في برنَا، والصاحبة تقول: أطعمتني الحرامَ، والبنون يقولون: ما علمتنا.

وقيل: لعلمه أنهم لا ينفعونه، ولا يغنون عنه شيئاً، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ [الدخان: ٤١].

وقال عبد الله بن طاهر: يفرُّ منهم لمَّا تبين له عجزهم، وقلّة حيلتهم.

وذكر الضحاك عن ابن عباس، قال: يفر قابيلُ من أخيه هابيل، ويفرُّ النبي من أمِّه، ويفرُّ إبراهيمُ من أبيه، ونوحٌ من ابنه، ولوطٌ من امرأتهِ، وآدمُ من سوءةِ بنيهِ[٢].

قال ابنُ الخطيب[٣]: المراد: أن الذين كان المرء يفرُّ إليهم في دار الدنيا، ويستجيرُ بهم، فإنه يفرُّ منهم في دار الآخرة، وذكروا في فائدة الترتيب كأنَّه قيل: «يَوْمَ يفرُّ المَرْءُ من أخِيهِ»، بل من أبويه، فإنهما أقرب من الأخوين، بل من الصَّاحبة والولد؛ لأنَّ تعلُّق القلب بهما أشدُّ من تعلُّقه بالأبوين. ثم لمَّا ذكر الفِرارَ أتبعه بذكر سببه فقال تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

قال ابن قتيبة: «يغنيه» أي: يصرفه عن قرابته، ومنه يقال: أغْنِ عنِّي وَجْهَكَ، أي: اصرفه.

وقال أهل المعاني: إنَّ ذلك الهم الذي حصل له قد ملأ صدره، فلم يبق فيه متسع لهمّ آخر، فصار شبيهاً بالغني في أنه ملك شيئاً كثيراً.

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾. لمَّا ذكر تعالى حال يوم القيامة في الهول بيَّن أن المكلفين فيه على قسمين: سعداء، وأشقياء، فوصف سبحانه السعيد بقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ أي: مضيئة مشرقة، وقد علمت ما لها من الفوز، والنعيم، من أسفر الصبح: إذا أضاء، وهي وجوه المؤمنين «ضاحِكَةٌ» أي: مسرورة فرحة.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٤٠، والبحر المحيط ٨/ ٤٢١، والدر المصون ٦/ ٤٨٢.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٤٦). (٣) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٥٩.

قال الكلبي: يعني بالفراغ من الحساب[(١)] ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي: بما آتاها الله تعالى من الكرامة.

وقال عطاءُ الخراسانيُّ: «مسْفِرةٌ» من طول ما اغبرت في سبيل الله.

وقال الضحاكُ: من آثار الوضوء[(٢)].

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: من قيامِ اللَّيل[(٣)]، لقوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ كَثُرتْ صلاتُه باللَّيلِ حسُنَ وجههُ بالنَّهارِ»[(٤)].

قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾.

قال المبرد: «الغَبَرةُ» الغبارُ، والقترةُ: سوادٌ كالدُّخان.

وقال أبو عبيدة: القترُ في كلام العرب: الغبارُ، جمع القترة؛ قال الفرزدقُ: [البسيط]

٥١١٦ ـ مُتَوجٌ بِرداءِ المُلكِ يَتبعهُ ... مَوْجٌ تَرى فَوقَهُ الرَّاياتِ والقَتَرا[(٥)]

وفي عطفه على الغبرة ما يرد هذا إلا أن يقال: اختلف اللفظ فحسن العطف، كقوله: [الوافر]

٥١١٧ ـ .... كَـذِبَـا ومَـيْـنَـا[(٦)]

وقوله: [الطويل]

٥١١٨ ـ .... الـنَّـأيُ والـبُـعْـدُ[(٧)]

وهو خلاف الأصل، وفي الحديث: «إنَّ البَهائِمَ إذَا صَارتْ تُراباً يَوْمَ القِيامَةِ حُولَ ذلِكَ التُّرابُ في وُجوهِ الكُفَّارِ»[(٨)].

وقال زيدُ بن أسلمَ: القترةُ: ما ارتفعت إلى السماء، والغبرةُ: ما انحطت إلى الأرض، والغُبَار والغبرةُ واحدٌ[(٩)].

---

(١) ينظر تفسير القرطبي (١٩/ ١٤٦). (٢) ينظر المصدر السابق.

(٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) أخرجه ابن ماجه (١٣٣٣)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٥٢٦)، والعقيلي في «الضعفاء» (١/ ١٧٦)، والخطيب في «تاريخ بغداد (١/ ٣٤١)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٢٠٧)، والقضاعي في «مسند الشهاب» رقم (٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢)، وأورده ابن الجوزي في «الموضوعات (٢/ ١٠٩ ـ ١١١).

وقال البوصيري في «زوائد ابن ماجه» (١/ ٤٣٣): هذا حديث ضعيف ذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» من عدة طرق وضعفها كلها وقال هذا حديث باطل لا يصح عن رسول الله ﷺ.

(٥) تقدم. (٦) تقدم.

(٧) تقدم (٨) ينظر تفسير القرطبي (١٩/ ١٤٧).

(٩) ينظر المصدر السابق.

قال ابن عباس: «تَرْهَقُهَا» أي: تغشاها، «قَتَرةٌ» أي: كسوفٌ وسواد[١].

وعنه ـ أيضاً ـ: ذلّةٌ وشدَّةٌ[٢].

وقيل: تَرْهقُهَا، أي: تدركها عن قُرب، كقولك: رَهقَتْهُ الخيل إذا أدركته مسرعة، والرَّهَقُ: عجلة الهلاك، والقترةُ: سواد كالدُّخان، ولا يرى أوحشُ من اجتماع الغبار والسواد في الوجه، كما ترى وجوه الزنوج إذا غبرت، فجمع الله ـ تعالى ـ في وجوههم بين السواد، والغبرة، كما جمعوا بين الكفر، والفجور، والله أعلم.

والعامة: على فتح التاء في «قَتَرة»، **وأسكنها**[٣] **ابن أبي عبلة**.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ﴾: جمع كافِر، «الفَجرَةُ»: جمع فَاجِر، وهو الكاذبُ المُفترِي على الله تعالى.

وقيل: الفَاسقُ، يقال: فَجَرَ فُجُوراً، أي: فسَقَ، وفَجرَ: أي: كذبَ. وأصله الميل، والفاجر المائل.

روى الثعلبي عن أبيٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ سُورَة ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ جاءَ يَوْمَ القِيامةِ ووجْههُ ضَاحِكٌ مُسْتَبْشِرٌ»[٤].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٥٤).

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٢١٠).

(٣) ينظر البحر المحيط ٨/ ٤٢١، والدر المصون ٦/ ٤٨٣.

(٤) تقدم تخريجه مراراً.

سورة التكوير

مكيَّةٌ، وهي تسعٌ وعشرون آية، ومائةٌ وأربع كلماتٍ، وأربعمائةٌ وأربعة وثلاثُون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾: في ارتفاع الشمس وجهان:

أصحهما: أنها مرفوعة بفعل مقدر مبني للمفعول، حذف وفسَّره ما بعده على الاشتغال، والرفع على هذا الوجه، أعني: إضمار الفعل واجبٌ عند البصريين؛ لأنهم لا يجيزون أن يليها غيره، ويتَأوَّلُون ما أوهمَ خلافَ ذلكَ.

والثاني: أنَّها مرفوعة بالابتداء، وهو قول الكوفيين، والأخفش، لظواهر جاءت في الشعر، وانتصر له ابن مالك.

قال الزمخشري[1]: ارتفاع «الشمس» على الابتداء، أو الفاعليَّة؟.

قلت: بل على الفاعلية ثم ذكر نحو ما تقدم، ويعني بالفاعلية: ارتفاعها بفعل الجملة، وقد مرَّ أنَّهُ يسمي مفعول ما لم يسم فاعله فاعلاً، وارتفاع «النجوم» وما بعدها، كما تقدَّم في «الشمس».

فصل في تفسير معنى التكوير

قد تقدَّم تفسير التَّكوير في أول «تنزيل».

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٠٧.

قيل: التَّلفيف على جهةِ الاستدارة، كتكوير العمامة.

وفي الحديث: «نعُوذُ باللَّهِ مِنَ الحَوْرِ بَعدَ الكَوْرِ»، أي: من التشتت بعد الألفة.

وقيل: من فساد أمورنا بعد صلاحها.

والحَوْرُ: بالحاء المهملة والراء؛ الطيُّ واللَّف، والكورُ والتَّكويرُ واحدٌ.

وسميت كارَّة القصار: كارة؛ لأنه يجمع ثيابه في ثوب واحد.

ثم إن الشيء الذي يلفّ يصير مختفياً عن الأعين، فعبر عن إزالة النور عن جرم الشمس، وغيبوبتها عن الأعين بـ «التكوير».

فلهذا قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: تكويرها: إدخالها في العرش[١].

وقال الحسنُ: ذهاب ضوئها[٢]، وهو قول مجاهدٍ وقتادة.

وروي عن ابن عباس أيضاً وسعيد بن جبير: غورت[٣].

وقال الرَّبيعُ بنُ خيثمٍ: «كُوِّرتْ»: رمي بها.

ومنه كورته فتكور: أي: سقط.

قال الأصمعي: يقال: طعنه فكوَّره وحوره أي: صرعه.

فمعنى «كورت»: أي: ألقيت ورميت عن الفلك.

وعن أبي صالح: «كورت» نكست.

وقال ابن الخطيب[٤]: وروي عن عمر[٥] ـ رضي الله عنه ـ أن لفظة «كُوِّرتْ» مأخوذةٌ من الفارسية، فإنه يقال للأعمى: كور[٦].

قوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾. أي: تناثرت وتساقطت.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ [الانفطار: ٢].

والأصل في الانكدار: الانصباب.

قال الخليل: انكدر عليهم القول إذا جاءوا أرسالاً، وانصبوا عليهم.

وقال أبو عبيدة: انصبّ كما ينصب العقاب إذا كسرت؛ قال العجاجُ يصفُ صقراً: [الرجز]

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/١٤٨) عن ابن عباس.
(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٤٥٧) عن قتادة.
(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٢٥) وعزاه إلى ابن المنذر من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس. وذكره أيضاً عن سعيد بن جبير وعزاه إلى ابن أبي حاتم.
(٤) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٦١.
(٥) في أ: ابن عمر.
(٦) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣١/ ٦١) عن عمر.

٥١١٩ ـ أَبْصَرَ خِرِبَانَ فَضَاءٍ فَانْكَدرْ تَقَضِّيَ البَازِي إذَا البَازِي كَسَرْ[١]

روى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَبْقَى في السَّماءِ يَوْمئذٍ نَجمٌ إلاَّ سَقطَ في الأرْضِ»[٢].

وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن النجوم قناديلُ معلقةٌ بين السماء والأرض بسلاسلَ من نور بأيدي الملائكة، فإذا مات من في السموات، ومن في الأرض تساقطت تلك الكواكب من أيدي الملائكة؛ لأنه مات من كان يمسكها[٣].

قال القرطبي[٤]: «ويحتمل أن يكون «انكدارها»: طمسَ آثارها، وسميت النجوم نجوماً لظهورها في السماء بضوئها.

وعن ابن عباس ـ أيضاً ـ: «انْكَدرَتْ»: تغيَّرت، فلم يبق لها ضوءٌ لزوالها عن أماكنها[٥]، والمعنى متقارب.

قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾، يعني: قطعت عن وجه الأرض وسيرت في الهواء، لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠] في الهواء، لقوله تعالى: ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

وقيل: سيرها أن تحوَّل عن صفة الجبال للحجارة، فتكون كثيباً مهيلاً، أي: رملاً سائلاً، وتكون كالعِهْن، وتكون هباءً منبثاً، وتكون مثل السَّراب الذي ليس بشيءٍ، وعادت الأرض قاعاً صفصفاً، ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾. العشار: جمع عشراء، وهي: الناقة التي مر لحملها عشرة أشهر، ثم هو اسمها إلى أن تضع في تمام السَّنة وكذلك يقال في جمع نفساء.

قال القرطبي[٦]: وهو اسمها بعد ما تضع أيضاً، ومن عادة العرب أن يسمُّوا الشيء باسمه المتقدم، وإن كان قد جاوز ذلك، يقول الرجل لفرسه وقد قرح: قربوا مهري يسميه بمتقدم اسمه، وإنَّما خصَّ العشار بالذكر؛ لأنَّها أعزُّ ما يكون عند العرب، وهذا على وجه المثل؛ لأن في القيامة لا تكون ناقة عشراء، أو المعنى: أنَّ يوم القيامة بحالٍ لو كان للرجل ناقة عشراء لعطَّلها، واشتغل بنفسه، يقال: ناقة عشراء، وناقتان عشراوتانِ، ونوقٌ عشارٌ وعشراوات، يبدلون من همزة التأنيث واواً.

---

(١) تقدم. (٢) تقدم.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٤٩) من طريق الضحاك عن ابن عباس.

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٤٩). (٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٥٨).

(٦) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٤٩.

وقد عشرت الناقة تعشيراً: أي: صارت عشراء.

وقيل: «العِشَارُ»: السَّحاب، و «عطلت»: أي: لا تمطر.

والعرب تشبه السحاب بالحامل، قال تعالى: ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾ [الذاريات: ٢].

وقيل: الأرض تعطل زرعها.

والتعطيل: الإهمال، ومنه قيل للمرأة: عاطل إذا لم يكن عليها حُلِيّ. وتقدم في «بئر معطلة»[١].

قال امرؤ القيس: [الطويل]

٥١٢٠ ـ وجيدٍ كَجيدِ الرِّئم لَيْسَ بفَاحِشٍ إذَا هِـيَ نَـصَّـتْـهُ ولا بِـمُـعَـطَّـلِ[٢]

وقرأ ابنُ كثير[٣] في رواية: «عُطِلت» بتخفيف الطاء.

قال الرازي: هو غلطٌ، إنما هو بفتحتين، بمعنى: «تعطَّلتْ»؛ لأن التشديد فيه للتعدي، يقال: عطلت الشيء، وأعطله فعطل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾، الوحوش: ما لم يتأنس به من حيوان البرّ، والوحشُ أيضاً: المكان الذي لا أنس فيه، ومنه: لقيته بوحش أي: ببلد قفر، والوحشُ: الذي يبيت وجوفه خالياً من طعامٍ، وجمعه: أوحاشٌ، وسمِّي به المنسوب إلى المكان الوحشيّ: وحشي، وعبر بالوحشيِّ عن الجانب الذي يضاد الإنسي، والإنسي: ما يقبل من الإنسان وعلى هذا وحشي الفرس وإنسيه.

وقوله تعالى: ﴿حُشِرَتْ﴾. أي: جمعت، والحشرُ: الجمع قاله الحسنُ وقتادةُ وغيرهما[٤].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: حشرها موتها، رواه عكرمة[٥]، وحشر كلِّ شيءٍ: الموت لغير الجن والإنس، فإنهما يوافيان يوم القيامة.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: يحشَرُ كلُّ شيءٍ حتى الذباب[٦].

وعن ابن عباس ـ أيضاً ـ: يحشر الوحوش غداً، أي: تُجمع، حتى يقتصّ لبعضها من بعض، فيقتص للجمَّاء من القرناء ثم يقال لها: كوني تراباً فتموت[٧].

---

(١) سورة الحج آية ٤٥.

(٢) ينظر: ديوانه ص ١٦، والمعلقات العشر للزوزني ٢٥، والبحر ٨/ ٤٢٤، والمحرر الوجيز ١/ ٤٧٩، والدر المصون ٦/ ٤٨٨.

(٣) ينظر: إعراب القراءات ٢/ ٤٤٣، والبحر المحيط ٨/ ٤٢٣، والدر المصون ٦/ ٤٨٥.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٦٠) عن قتادة.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٥٩) من طريق عكرمة عن ابن عباس.

(٦) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٢٧) وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٧) تقدم في سورة النبأ.

وقرأ الحسن[١] وابن ميمون: «حُشِّرت» بتشديد الشين.

ومعنى الآية: أي: أنَّ الوحوش إذا كانت هذه حالها فكيف ببني آدم؟.

وقيل: أي: أنَّها مع نفرتها اليوم من النَّاس، وتبددها في الصحاري، تنضمّ غداً إلى الناس من أهوال ذلك اليوم؛ قاله أبي بن كعب.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾.

قرأ ابن كثيرٍ[٢] وأبو عمروٍ: «سُجِرتْ» بتخفيف الجيم.

والباقون: بتثقيلها على المبالغة والتنكير.

والمعنى: مُلئتْ من الماء، والعرب تقول: سجرتُ الحوضَ أسجره سجراً إذا ملأتهُ، وهو مسجورٌ، والمسجورُ والسَّاجرُ في اللغة: المَلآن.

وروى الربيع بن خيثمٍ: «سُجِّرَت»: فاضت وملئت، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣].

وقال الحسن: اختلطت وصارت شيئاً واحداً[٣].

وقيل: أرسل عذبها على مالحها، ومالحها على عذبها حتى امتلأت.

وقال القشيريُّ: يرفع الله الحاجز الذي ذكره ـ تعالى ـ في قوله: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠]، فإذا رفع ذلك البرزخ تفجَّرت مياه البحار، فعمَّت الأرض كلَّها، وصارت بحراً واحداً.

وعن الحسن وقتادة وابن حيان: تيبس، فلا يبقى من مائها قطرةٌ[٤].

قال القشيريُّ: وهو من سجرتُ التنور أسجره سجراً: إذا أحميته، وإذا سلط عليه الإيقاد نشف ما فيه من الرُّطوبة، وتقدم اشتقاق هذه المادة.

قال القفالُ[٥]: وهذا التأويل يحتمل وجوهاً:

الأول: أن تكون جهنم في قعر البحار، فهي الآن غير مسجرة بقوام الدنيا، فإذا انتهت مدة الدنيا أوصل الله تعالى تأثير تلك النِّيران إلى البِحَار، فصارت مسجورة

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٤١، والبحر المحيط ٨/ ٤٢٤، والدر المصون ٦/ ٤٨٥.

(٢) ينظر: السبعة ٦٧٣، والحجة ٦/ ٣٧٩، وإعراب القراءات ٢/ ٤٢٤، وحجة القراءات ٧٥٠.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٥٠).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره (١٢/ ٤٦١) عن قتادة والحسن.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٢٧) عن الحسن والضحاك وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٥) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٦٣.

بالكلية، وهذا قولُ ابن زيد، وعطية، وسفيان، ووهب، وأبيّ، وعلي بن أبي طالب، وابن عباس في رواية، والضحاك ـ رضي الله عنهم ـ أوقدت فصارت ناراً.

الثاني: قال ابن عباس: يُكوِّر الله تعالى الشمس، والقمر، والنجوم في البحار، فتصير البحار مسجورة بسبب ذلك يبعث الله ـ تعالى ـ [لها][(١)] ريحاً دبوراً، فتنفخه حتى تصير ناراً، كذا جاء في الحديث[(٢)].

الثالث: أن يخلق الله ـ تعالى ـ تحت البحار نيراناً عظيمة حتى تسجر تلك المياه.

قال ابن الخطيب[(٣)]: وهذه وجوه متكلَّفة، ولا حاجة إلى شيء منها؛ لأن القادر على تخريب الدنيا يقدر على أن يفعل في البحار ما شاء من تسجير مياهها، ومن قلب مياهها ناراً[(٤)] من غير حاجةٍ إلى أن يلقي فيها الشمس والقمر، أو يكون تحتها نار جهنم.

قال القرطبيُّ[(٥)]: وروي عن ابنِ عمرو ـ رضي الله عنه ـ: لا يتوضأ بماء البحر لأنه طبق جهنم[(٦)].

وقال أبي بن كعب رضي الله عنه: ستّ آيات قبل يوم القيامة: بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوءُ الشمس، فتحيَّروا ودهشُوا، فبينما هم كذلك ينظرون إذ تناثرت النجوم، وتساقطت، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض، فتحركت، واضطربت، واحترقت، فصارت هباءً منبثاً، ففزعتِ الجنُّ إلى الإنسِ، وفزعتِ الإنسُ إلى الجنِّ، واختلط الدواب، والوحش، والهوام والطير، وماج بعضها في بعض، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾، ثم قالت الجنُّ للإنس: نحن نأتيكم بالخبر، فانطلقوا إلى البحار فإذا هي نار تأجَّجُ، فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى، وإلى السماء السابعة العليا، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح، فأماتتهم[(٧)].

وقال ابن الخطيب[(٨)]: وهذه العلامات يمكن أن تكون عند خراب الدنيا، وأن تكون بعد القيامة.

وقيل: معنى «سُجِّرتْ» يحمر ماؤها حتى يصير كالدَّم، من قولهم: «عَيْنٌ سَجراءُ» أي: حمراء.

---

(١) سقط من أ.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٢٠) وعزاه إلى ابن أبي الدنيا في «الأهوال» وابن أبي حاتم وأبي الشيخ في «العظمة» عن ابن عباس.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٦٣.

(٤) في أ: نيراناً.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٥١.

(٦) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/ ١٥١).

(٧) ينظر المصدر السابق.

(٨) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٦٣.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾.

العامة: على تشديد «الواو» من «زوِّجت» من التزويج.

وروي عن عاصم[١]: «زُوْوجَتْ» على وزن «فُوعِلتْ».

قال أبو حيان[٢]: «والمُفاعَلةُ» تكون من اثنين.

قال شهابُ الدِّين[٣]: وهي قراءةٌ مشكلةٌ؛ لأنَّه لا ينبغي أن يلفظ بواو ساكنة، ثم أخرى مكسورة، وقد تقدم أنه متى اجتمع مثلان، وسكن أولهما وجب الإدغام حتى في كلمتين، ففي كلمة واحدة أولى.

فصل في المراد بالآية

قال النُّعمانُ بنُ بشيرٍ: قال النبي ﷺ: «وإذَا النُّفوسُ زُوِّجَتْ» قال: «يُقْرَنُ كُل رجُلٍ مَعَ كُلِّ قومٍ كَانُوا يَعملُونَ كعَمله»[٤].

قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: يقرن الفاجرُ مع الفاجر، ويقرن الصالحُ مع الصالحِ[٥].

وقال ابن عباس رضي الله عنه: ذلك حين يكون الناس أزواجاً ثلاثة: السَّابقون زوج يعني صِنْفاً، وأصحاب اليمين زوجٌ، وأصحاب الشِّمال زوجٌ[٦].

وعنه أيضاً قال: زوجت نفوس المؤمنين بالحُورِ العينِ، وقُرِنَ الكفَّار والمنافقون بالشَّياطينِ[٧].

وقال الزجاجُ: قُرنَت النفوسُ بأعمالها.

وقيل: قرنت الأرواح بالأجساد أي: وقت ردت إليها قاله عكرمة.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٤٢، والبحر المحيط ٨/ ٤٢٤، والدر المصون ٦/ ٤٨٥.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٢٤.

(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٤٨٥.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٢٧) وعزاه إلى ابن مردويه.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٦٢) والحاكم (٢/ ٥١٥ ـ ٥١٦) عن النعمان بن بشير عن عمر ابن الخطاب.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٢٧) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وابن أبي شيبة وسعيد بن منصور والفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في «البعث» وأبي نعيم في «الحلية».

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٥١).

(٧) ينظر: المصدر السابق.

وقيل غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾.

الموءودة: هي البِنْت تدفنُ حيَّة من الوأد، وهو الثقل، لأنها تثقل بالتراب والجندل.

يقال: وأد يَئِدُ، كـ «وعد» «يعِد».

وقال الزمخشري[1]: «وأدَ يئد»، مقلوب من «آد يئود» إذا أثقل، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ لأنه إثقال بالتراب.

قال أبو حيان[2]: ولا يدعى ذلك؛ لأن كلاً منهما كامل التصرف في الماضي، والأمر، والمضارع والمصدر واسم الفاعل، واسم المفعول، وليس فيه شيء من مسوغات إدغام القلب، والذي يعلم به الأصالة من القلب أن يكون أحد النظمين فيه حكم يشهدُ له بالأصالةِ، والآخر ليس كذلك، أو أكثر استعمالاً من الآخر، وهذا على ما قرروهُ في أحكام علم التصريف.

فالأول: كـ «يَئِس وأيِسَ».

والثاني: كـ «طَأمَن واطمَأنَّ».

والثالث: كـ «شوائع وشواعي».

والرابع: كـ «لعمري، ورعملي».

قرأ العامة: «الموءودة» بهمزة بين واوين ساكنتين، كالموعودة.

وقرأ البزي[3] **في رواية بهمزة مضمومة**، ثم واو ساكنة. وفيه وجهان:

أحدهما: أن تكون كقراءة الجماعة، ثم نقل حركة الهمزة إلى «الواو» قبلها، وحذفت الهمزة فصار اللفظ: «الموودة» بواو مضمومة، ثم أخرى ساكنة، فقلبت «الواو» المضمومة همزة، نحو «أجُوهٍ» في «وُجُوه» فصار اللفظ كما ترى، ووزنها الآن «مَفْعُولة»؛ لأن المحذوف «عين».

والثاني: أن تكون الجملة اسم مفعول من «آدَهُ يئوده» مثل «قَادَه يَقُودُه»، والأصل: «مأوودة»، مثل: «مقوودة»، ثم حذف إحدى الواوين على الخلاف المشهور في الحذف من نحو: «مَقُول، ومَصُون»، فوزنها الآن إما «مَفعلة»، إن قلنا: إنَّ المحذوف الواو الزائدة، وإمَّا «مَفولة» إن قلنا: إن المحذوف عين الكلمة، وهذا يظهرُ فضل علم التَّصريف. وقرأ الموودة ـ بضم الواو الأولى ـ على أنه نقل حركة الهمزة بعد حذفها، ولم يقلب الواو همزة.

---

(١) الكشاف ٤/٧٠٨. (٢) البحر المحيط ٨/ ٤٢٤.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٢٤، والدر المصون ٦/ ٤٨٥.

وقرأ الأعمش[١]: «المودة»، [بسكون الواو][٢]، وتوجيهه: أنه حذف الهمزة اعتباطاً، فالتقى ساكنان، فحذف ثانيهما، ووزنها «المُفْلَة»: لأن الهمزة عين الكلمة، وقد حذفت.

وقال مكي: بل هو تخفيف قياسي، وذلك أنه نقل حركة «الهمزة» إلى «الواو» لم يهمزها، فاستثقل الضمة عليها فسكَّنها، فالتقى ساكنان، فحذف الثاني.

وهذا كله خروج عن الظاهر.

وإنما يظهر في ذلك ما نقله الفراء من أن حمزة وقف عليها كالموزة.

قالوا: لأجل الخط لأنها رسمت كذلك، والرسم سُنة متبعة.

والعامة على: «سُئِلَت» مبنياً للمفعول، مضموم السين.

والحسن[٣]: يكسرها من سال يسال.

وقرأ أبو جعفر[٤]: «قُتِّلتْ» ـ بتشديد التاء ـ على التكثير؛ لأن المراد اسم الجنس، فناسبه التكثير.

وقرأ عليٌّ وابن مسعودٍ وابنُ عباسٍ[٥] ـ رضي الله عنهم ـ «سألَت» مبنياً للفاعل، «قُتِلتُ» بضم التاء الأخيرة والتي للمتكلم، حكاية لكلامها.

وعن أبيّ وابن مسعودٍ ـ أيضاً ـ وابن يعمر[٦]: «سألتْ» مبنياً للفاعل، «قُتِلتْ» بتاء التأنيث الساكنة، كقراءة العامة.

فصل في وأد أهل الجاهلية لبناتهم

كانوا يدفنون بناتهم أحياء لخصلتين:

إحداهما: كانوا يقولون: الملائكة بنات الله، فألحقُوا البنات به؛ تبارك وتعالى عن ذلك.

والثانية: مخافة الحاجة والإملاق، وإمَّا خوفاً من السَّبْي والاسْترقَاقِ.

قال ابن عبَّاسٍ: كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت حفرت حفرة، وتمخّضت على رأسها فإن ولدت جارية رمت بها في الحفرة، وردَّت التراب عليها، وإن ولدتْ غلاماً حبسته[٧]، ومنه قول الراجز: [الرجز]

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٤٢، والبحر المحيط ٨/ ٤٢٤، والدر المصون ٦/ ٤٨٦.

(٢) في أ بزنة الموزة.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٤٢، والبحر المحيط ٨/ ٤٢٥، والدر المصون ٦/ ٤٨٦.

(٤) ينظر: السابق.

(٥) ينظر: السابق.

(٦) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٢٥، والدر المصون ٦/ ٤٨٦.

(٧) ينظر: القرطبي (١٩/ ١٥١).

٥١٢١ ـ سَمَّيْتُهَا إذْ وُلِدَتْ تَمُوتُ وَالقَبْرُ صِهْرٌ ضَامِنٌ زِمِّيتُ[١]

وقيل: كان الرجل إذا ولدت له بنت فأراد إبقاء حياتها ألبسها جُبَّة من صوفٍ، أو شعرٍ، ترعى له الإبل والغنم في البادية، وإذا أراد قتلها تركها حتى إذا بلغت قامتُها ستة أشبار فيقول لأمّها: طيِّبيها، وزيِّنيها حتى أذهب بها إلى أقاربها [وقد حفر لها بئراً في الصحراء][٢]، فيذهب بها إلى البئر، فيقول لها: انظري فيها، ثم يدفعها من خلفها، ويهيل عليها التراب حتى تستوي البئر بالأرض.

وكان صعصعة بن ناجية ممن يمنع الوأد؛ فافتخر الفرزدق به في قوله: [المتقارب]

٥١٢٢ ـ ومِنَّا الذي مَنَعَ الوَائِدَاتِ وأحْيَا الوَئِيدَ فَلَمْ يُوأدِ[٣]

فصل

رُوِيَ أنَّ قيس بن عاصم جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله: إنِّي وأدتُ ثماني بنات كُنَّ لي في الجاهليَّة، قال رسول الله ﷺ: «فأعْتِقْ عن كُلِّ واحدةٍ منهُنَّ رقبةً»، قال: يا رسول الله إنِّي صاحبُ إبل، قال عليه الصلاة والسلام: «فأهْدِ عَن كُلِّ واحدةٍ مِنهُنَّ بدنَةً إنْ شِئْتَ»[٤].

واعلم أنَّ سؤال الموءودة سؤالُ توبيخ لقاتلها، كما يقال للطفل إذا ضرب: لِمَ ضُربتَ، وما ذنْبُك؟.

قال الحسنُ: أراد الله توبيخ قاتلها؛ لأنها قتلت بغير ذنبٍ[٥].

وقال ابنُ أسلم: بأي ذنب ضربتْ، وكانوا يضربونها[٦].

وقيل في قوله تعالى: ﴿سُئِلَتْ﴾ معناه: طُلبتْ، كأنه يريد كما يطلب بدم القتيل، وهو كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْئُولًا﴾ [الأحزاب: ١٥] أي: مطلوباً، فكأنها طلبت منهم، فقيل: أين أولادكم؟.

وروي عن النبي ﷺ قال: «إنَّ المَرْأةَ الَّتي تَقْتلُ ولدهَا تَأتِي يَوْمَ القِيامَةِ مُتعلِّقٌ ولدُهَا بِثَدْيَيْهَا، مُلطَّخاً بدمَائِهِ، فيقُولُ: يا ربِّ، هذهِ أمِّي، [وهذه][٧] قَتلتْنِي»[٨].

---

(١) ينظر: اللسان (زمت)، ومجمع البيان ١٠/ ٦٧٤، والقرطبي ١٩/ ١٥٢.
(٢) سقط من: ب.
(٣) ينظر ديوان الفرزدق ١/ ١٧٣، واللسان (وأد) والكشاف ٤/ ٧٠٨، ومجمع البيان ١٠/ ٦٧٢، والقرطبي ١٩/ ١٥٢، والبحر ٨/ ٤٢٥.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٥٢).
(٦) ينظر: المصدر السابق.
(٧) سقط من: أ.
(٨) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/ ١٥٢).

والأول قول الجمهور، كقوله تعالى لعيسى ابن مريم: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾ [المائدة: ١١٦]، على جهة التوبيخ، والتبكيت لهم، فكذلك سؤال الموءودة: توبيخ لوائدها وهو أبلغ من سؤالها عن قتلها؛ لأن هذا مما لا يصحّ إلا بذنب، أي: فبأي ذنب كان ذلك، فإذا ظهر أنه لا ذنب لها كان أعظم في البيّنة وظهور الحجة على قاتلها، وفي الآية دليل على أن أطفال المشركين لا يُعذَّبون، وعلى أن التعذيب لا يستحقُّ إلاّ بذنبٍ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾.

قرأ الأخوان[١] **وابن كثير وأبو عمرو**: بالتثقيل، على تكرار النشر للمبالغة في تقريع العاصي، وتبشير المطيع.

وقيل: لتكرير ذلك من الإنسان.

والباقون: بالتخفيف. ونافع وحفص وابن ذكوان «سُعِّرت» بالتثقيل، والباقون بالتخفيف.

قوله: ﴿نُشِرَتْ﴾، أي: فتحت بعد أن كانت مطويَّة، والمراد: صحف الأعمال التي كتبت الملائكة فيها أعمال العباد من خير أو شر، تطوى بالموت، وتنشر في يوم القيامة، فيقف كل إنسان على صحيفته، فيعلم ما فيها، فيقول: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾، أي: قُشرت، من قولهم: كشط جلد الشَّاة، أي: سلخها. وقرأ عبد الله «قشطت» ـ بالقاف ـ وقد تقدم أنهما متعاقبان كثيراً، وأنه قرىء: وقافوراً [وكافوراً][٢] في ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ [الإنسان: ١]. [يقال: لبكت الشريد ولبقته][٣].

قال القرطبي[٤]: «يقال: كشَطْتُ البعير كشْطاً، نزعت جلده، ولا يقال: سلخته، لأن العرب لا تقول في البعير إلا كشطته أو جلدته»، والمعنى: أزيلت عما فوقها.

قال الفراء: طويت.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾، أي: أوقدت، فأضرمت للكفَّار، وزيد في إحمائها يقال: سعرتُ النَّار وأسْعرتُها.

قال رسول الله ﷺ: «أوقِدَ على النَّارِ ألْفَ سنةٍ حَتَّى اسْودَّتْ فهيَ مُظْلمةٌ»[٥].

---

(١) ينظر: السبعة ٦٧٣، والحجة ٦/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠، وإعراب القراءات ٢/ ٤٤٥، وحجة القراءات ٧٥١.

(٢) سقط من: ب. (٣) سقط من: ب.

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٥٣.

(٥) أخرجه الترمذي (٣/ ٣٤٦) وابن ماجه (٢/ ٥٨٧) من حديث أبي هريرة.

احتج بهذه الآية من قال: إن النار مخلوقة الآن؛ لأنه يدل على أنَّ سعيرها معلّق بيوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾، أي: أدنيت وقرِّبتْ من المُتَّقينَ.

قال الحسنُ ـ رضي الله عنه ـ [إنهم يقربون منها لا أنها تزول عن موضعها.

وقال عبد الله بن زيد][1]: زُيِّنت، والزُّلفَى في كلام العرب: القُربَة.

قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾، هذا جواب «إذا» أوَّل السُّورة وما عطف عليها، والمعنى: ما عملتْ من خيرٍ وشرٍّ.

وروي عن ابن عباس وعمر ـ رضي الله عنهما ـ أنهما قرآها، فلما بلغا «علمت نفس ما أحضرت» قالا: لهذا أجريتِ القصَّةُ.

قال ابن الخطيب: ومعلوم أنَّ العمل لا يمكن إحضاره، فالمراد: إذا ما أحضرته في صحائفها، أو ما أحضرته عند المحاسبة، وعند الميزان من آثار تلك الأعمال، أو المراد: ما أحضرت من استحقاق الجنَّة والنَّار، فإنَّ كلَّ نفس تعلم ما أحضرت، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

والتنكير في قوله: «نَفْسٌ» من عكس كلامهم الذي يقصدون به المبالغة، وإن كان اللفظ موضوعاً للتقليل، لقوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الحجر: ٢]، أو يكون المراد: أنَّ الكفار كانوا يتعبُون أنفسهم فيما يظنونه طاعة، ثم يظهر لهم في القيامة خلاف ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ (١٥) ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ (١٦) وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ (٢٥)﴾

قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾، أي: «أقسم»، و «لا» زائدة، كما تقدم.

«والخُنَّسُ»: جمع خانسٍ، والخُنوسُ: الانقباضُ، يقال: خنس بين القوم، وانْخنسَ.

وفي الحديث: «فانْخنَسْتُ»، أي: استخفيت. يقال: خَنَسَ عنه يَخْنسُ ـ بالضم ـ خُنُوساً.

(١) سقط من: ب.

والخنسُ: تأخر الأنف عن الشَّفة مع ارتفاع الأرنبة قليلاً.

ويقال: رجلٌ أخنسُ، وامرأةٌ خنساءُ، ومنه: الخنساءُ الشاعرةُ.

والخُنَّسُ في القرآن، قيل: الكواكب السبعة السَّيارة القمران، وزحل، والمشتري والمريخ، والزهرة، وعطارد؛ لأنها تخنس في المغيب أو لأنها تختفي نهاراً.

وعن علي رضي الله عنه: هي زُحَل، والمشتري، والمريخ، والزهرة، وعطارد(١).

وفي تخصيصها بالذكر من بين سائر النجوم وجهان:

أحدهما: لأنَّها تستقبل الشمس، قاله بكر بن عبد الله المزني(٢).

الثاني: تقطع المجرة، قاله ابن عباس(٣).

وقيل: خُنُوسُهَا: رجوعها، وكُنُوسها: اختفاؤها تحت ضوء الشمس.

قال ابن الخطيب(٤): الأظهرُ أنَّ ذلك إشارة إلى رجوعها واستقامتها.

وقال الحسن وقتادة: هي النجوم كلها؛ لأنها تخنس بالنهار إذا غربت، وتظهر بالليل، وتكنس في وقت غروبها، أي: تتأخر عن البصر لخفائها، وتكنس أي: تستتر، كما تكنس الظِّباء في المغارة، وهي الكناس، والكنس: الداخلة في الكناس، وهي بيت الوحش، والجواري: جمع جارية(٥).

وعن ابن مسعود: هي بقر الوحش؛ لأن هذه صفتها(٦).

وروي عن عكرمة قال: الخُنَّسُ: البقر، والكُنسُ: هي الظباء، فهي خنسٌ إذا رأين الإنسان خَنَسْنَ، وانقبضن وتأخرن ودخلن كناسهنّ(٧).

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٢٨) وعزاه إلى ابن أبي حاتم من طريق الأصبغ بن نباتة عن علي.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٥٤) وأخرجه الطبري (١٢/ ٤٦٧).

(٣) ينظر: المصدر السابق.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٦٥.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٦٧) عن الحسن.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٦٨) والحاكم (٢/ ٥١٦) والطبراني كما في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٣٧) عن ابن مسعود.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله رجال صحيح.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٢٩) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وسعيد بن منصور والفريابي وابن سعد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن المنذر من طرق عن عبد الله بن مسعود.

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٦٨ ـ ٤٦٩) عن ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والضحاك.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٢٩) عن مجاهد وعزاه إلى عبد بن حميد.

قال القرطبيُّ[١]: «والخُنَّسُ» على هذا: من الخنس في الأنف، وهو تأخير الأرنبة، وقصر القصبة، وأنوف البقر والظِّباء خنس، والقول الأول أظهر لذكر الليل والصبح بعده.

وحكي الماورديُّ: أنها الملائكة، والكُنَّسُ: الغيبُ، مأخوذة من الكناس، وهو كناس الوحش الذي يختفي[٢] فيه، والكُنَّسُ: جمع كانس وكانسة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾. يقال: عَسْعَسَ وسَعْسَع، أي: أقبل.

قال العجاج: [الرجز]

٥١٢٣ ـ حَتَّى إذَا الصُّبْحُ لهَا تَنفَّسَا وانْجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وعَسْعَسَا[٣]

أي: أدبر.

قال الفراء: أجمع المفسرون على أن معنى «عسعس»: أدبر حكاه الجوهري.

وقيل: دَنَا من أوله وأظلم، وكذلك السحاب إذا دنا من الأرض.

وقيل: «أدْبَر» من لغة قريش خاصَّة.

وقيل: أقبل ظلامُه، ورجحه مقابلته بقوله تعالى ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، وهذا قريبٌ من إدباره.

وقيل: هو لهما على طريق الاشتراك.

قال الخليل وغيره: عسعس الليل: إذا أقبل، أو أدبر.

قال المبرد: هو من الأضداد، والمعنيان يرجعان إلى شيء واحدٍ، وهو ابتداء الظلام في أوله، وإدباره في آخره.

قال الماورديُّ: وأصل العسِّ: الامتلاء.

ومنه قيل للقدح الكبير: عُسٌّ، لامتلائه بما فيه، فأطلق على إقبال الليل لابتداء امتلائه، وأطلق على إدباره لانتهاء امتلائه، فعلى هذا يكون القسم بإقبال الليل وبإدباره، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ لا يكون فيه تكرار.

وعَسْعَس: اسم موضع بالبادية، وأيضاً: هو اسم رجل.

ويقال للذئب: العَسْعَسُ والعَسْعَاس؛ لأنه يعسُّ في الليل ويطلب.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٥٥. (٢) في: ب يجتمع.

(٣) رواية البيت الثاني كما في الديوان:

وأَغْسَفَ اللَّيْلُ إذَا اللَّيْلُ غَسَا

ينظر ديوان العجاج ١٢٩، ومجاز القرآن ٢/ ٢٨٨، والطبري ٣٠/ ٥٠، ومجمع البيان ١٠/ ٦٧٦، والكشاف ٤/ ٧١١، والقرطبي ١٩/ ١٥٥، والبحر ٨/ ٤٢٢ وقد نسب البيتان إلى علقمة بن قرط.

ويقال للقنافذ: العَساعِس، لكثرة ترددها بالليل، والتَّعَسْعُس: الشم، والتَّعَسْعُس ـ أيضاً ـ: طلب الصيد.

قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، أي: امتد حتى يصير نهاراً واضحاً.

يقال للنهار إذا زاد: تنفس، ومعنى التنفس: خروج النسيم من الجوف.

وفي كيفية المجاز قولان:

الأول: أنه إذا أقبل الصبح أقبل بإقباله روح ونسيم، فجعل ذلك نفساً له على المجاز، فقيل: تنفس الصبح.

الثاني: أنه شبَّه الليل المظلم بالمكروب المحزون الذي خنس بحيث لا يتحرك، فإذا تنفس وجد راحة، فهاهنا لما طلع الصبح، فكأنه تخلص من ذلك الحزن فعبر عنه بالتنفس.

وقيل: ﴿إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي إذا انشق وانفلق، ومنه تنَفَّستِ القوسُ: أي: تصدعت. [وهذا آخر القسم](١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾. قال الحسنُ وقتادةُ والضحاكُ: الرسول الكريم: جبريل(٢).

والمعنى: إنَّه لقولُ رسولٍ كريم من الله كريم على الله، وأضاف الكلام إلى جبريل، ثم عزاه عنه فقال: ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٨٠]، ليعلم أهل التحقيق في التصديق أن الكلام لله تعالى.

وقيل: هو محمد ﷺ، فمن جعله جبريل، فقوته ظاهرة؛ لما روى الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: من قوته قلعه مدائن قوم لوط بقوادمِ جناحه(٣).

وقوله تعالى: ﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي: عند الله سبحانه وتعالى.

«مكين» أي: ذي منزلةٍ ومكانةٍ.

وروى أبو صالح قال: يدخل سبعين سرادقاً بغير إذن.

وقيل: المراد: القوة في أداء طاعة الله تعالى، وترك الإخلال بها من أول الخلق إلى آخر زمان التكليف.

وقوله تعالى: ﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ﴾ هذه العندية ليست عندية الجهة، بل عندية الإشراف، والتكريم، والتعظيم.

---

(١) سقط من: ب.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٧١) عن قتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٠) وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر. وذكره عن ابن عباس وعزاه إلى ابن المنذر.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٥٦) عن الضحاك عن ابن عباس.

وقوله تعالى: «أنا عند المنكسرة قلوبهم»، وقوله سبحانه: ﴿مَكِينٍ﴾: قال الكسائي: يقال: مكنَ فلانٌ عند فلانٍ ـ بضم الكاف ـ تمكُّناً ومكانة، فعلى هذا هو ذو الجاه الذي يعطى ما يسأل.

قوله تعالى: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾؛ أي: في السموات.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: من طاعة الملائكة جبريل ـ عليه السلام ـ أنَّه لمَّا أسري برسول الله ﷺ قال جبريلُ لرضوان خازن الجنانِ: افتحْ له ففتحَ، فدخلها، فرأى ما فيها وقال لمالك خازن النار: افتح له ففتح، فدخلها، ورأى ما فيها[١].

وقوله تعالى: ﴿أَمِينٍ﴾، أي: مؤتمن على الوحي الذي يجيء به.

ومن قال: إن المراد محمد ﷺ فقال: «ذِي قوةٍ» على تبليغ الوحي «مطاع» أي: يطيعه من أطاع الله عز وجل.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ حتى يتَّهم في قوله، وهو من جواب القسم والضمير في قوله: «إنَّهُ» يعود إلى القرآن الذي نزل به جبريل ـ عليه السلام ـ على محمد ﷺ.

وقيل: يعود إلى الذي أخبركم به محمد ﷺ من أنّ أمر الساعة في هذه السورة ليس بكهانة، ولا ظنٍّ، ولا افتعال، إنما هو قول جبريل أتاه به وحياً من الله تعالى.

فصل فيمن استدل بالآية على تفضيل جبريل على سيدنا محمد

قال ابنُ الخطيب[٢]: احتج بهذه الآية من فضل جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ على محمد ﷺ فقال: إذا وازنت بين قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾، وبين قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ ظهر التفاوت العظيم.

قوله: «عند ذي»: يجوز أن يكون نعتاً لـ «رسولٍ»، وأن يكون حالاً من «مكينٍ»، وأصله الوصف، فلما قدم نصب حالاً.

قوله: ﴿ثَمَّ أَمِينٍ﴾. العامة: على فتح الثَّاء؛ لأنه ظرف مكان للبعد، والعامل فيه «مطاعٍ».

وأبو البرهسم[٣]، وأبو جعفر وأبو حيوة: بضمها، جعلوها عاطفة، والتراخي هنا في الرتبة؛ لأن الثانية أعظم من الأولى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾، أي: لقد رأى جبريل في صورته في ستمائة

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٠) وعزاه إلى ابن المنذر.
(٢) الفخر الرازي ٣١/ ٦٨.
(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٤٤، والبحر المحيط ٨/ ٤٢٦، والدر المصون ٦/ ٤٨٧.

جناح ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: حيث تطلع الشمس من قبل المشرق.

وقيل: «بالأفق المبين»؛ أقطار السماء ونواحيها.

قال الماورديُّ: فعلى هذا ففيه ثلاثة أقوال:

الأول: أنه رآه في الأفق الشرقيّ. قاله سفيان.

الثاني: في أفق السماء الغربي، حكاه[١] ابن شجرة.

الثالث: أنه رآه نحو «أجياد»، وهو مشرق «مكة»، قاله مجاهد[٢].

وقيل: إنَّ محمداً ﷺ رأى ربه ـ عز وجل ـ بالأفق المبينِ، وهو قول ابن مسعود وقد تقدم ذلك في سورة «والنجم».

وفي «المُبينِ» قولان:

أحدهما: أنه صفة للأفق، قاله الربيع.

الثاني: أنَّه صفة لمن رآه، قاله مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾.

قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي[٣]: بالظاء، بمعنى متهم، من ظن بمعنى: اتهم، فيتعدى لواحدٍ.

وقيل: معناه بضعيف القوة عن التبليغ من قولهم: «بئر ظنُون» أي: قليلة الماء، والظِّنَّة التهمة، واختاره أبو عبيدة وفي مصحف عبد الله[٤] كذلك.

والباقون: بالضاد، بمعنى: بخيل بما يأتيه من قبل ربِّه، من ضننت بالشيء أضنُّ ضنًّا، يعني: لا يكتمه كما يكتم الكاهن ذلك، ويمتنع من إعلامه حتى يأخذ عليه حلواناً، إلا أنَّ الطبري قال: بالضاد خطوط المصاحف كلها.

وليس كذلك لما كان رسول الله ﷺ يقرأ بها، وهذا دليل على التمييز بين الحرفين خلافاً لمن يقول: إنه لو وقع أحدهما موقع الآخر بحال لجاز لعسر معرفته، وقد شنَّع الزمخشريُّ على من يقول ذلك، وذكر بعض المخارج، وبعض الصفات بما يطول ذكره[٥].

---

(١) في ب: قاله.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٧٢) عن مجاهد وينظر تفسير الماوردي (٦/ ٢١٨) والقرطبي (١٩/ ١٥٧).

(٣) ينظر: السبعة ٦٧٣، والحجة ٦/ ٣٨٠، وإعراب القراءات ٢/ ٤٤٦، وحجة القراءات ٧٥٢.

(٤) ينظر: الكشاف ٤/ ٧١٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٤٤، والبحر المحيط ٨/ ٤٢٦، والدر المصون ٦/ ٤٨٧.

(٥) ينظر: الكشاف ٤/ ٧١٣.

و ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ متعلق بـ «ظنين»، أو بـ «ضَنِيْنٍ».

و «الغيب»: القرآنُ، وخبر السماء هذا صفة محمد ﷺ.

وقيل: صفة جبريل عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾، أي: مَرجُوم، والضمير في «هو» للقرآن، قالت قريش: إنَّ هذا القرآن يجيء به شيطان، فيلقيه علىٰ لسانه، فنفى الله ذلك، يريدون بالشيطان: الأبيض الذي كان يأتي النبي ﷺ في صورة جبريل يريد أن يفتنه.

فصل في الكلام على الآية

قال ابنُ الخطيب[١]: فإن قيل: إنَّه حلف على أن القرآن قول جبريل ـ عليه السلام ـ فوجب علينا أن نصدقه، فإن لم نقطع بوجوب حمل اللفظ على الظاهر، فلا أقلَّ من الاحتمال، وإذا كان كذلك ثبت أن هذا القرآن يحتملُ أن يكون كلام جبريل لا كلام الله تعالى، وبتقدير أن يكون كلام جبريل لا يكون معجزاً، ولا يمكن أن يقال بأن جبريل معصوم؛ لأنَّ عصمته متفرعة على صدق النبي ﷺ وصدق النبي ﷺ على كون القرآن معجزاً، وكونْ القرآن معجزاً متفرع على عصمة جبريل، فيلزم دور.

فالجواب: أنَّ الإعجاز ليس في الفصاحة، بل في سلب تلك الدواعي عن القلوب، وذلك مما لا يقدر عليه أحد إلاَّ الله تعالى، لأن سلب القدرة عما هو مقدور لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

ثم قال في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾: فإن قيل[٢]: القول بصحة النبوة موقوف على نفي هذا الاحتمال فكيف يمكن نفيه بالدليل السمعي؟.

قلنا: قد بينَّا أنَّه على القول بالصرف لا يتوقف صحة النبوة على نفي هذا الاحتمال بالدليل السمعي.

قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ (٢٧) لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٩)﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ «أيْنَ»: منصوب بـ «تذهبون»؛ لأنه ظرف مبهم.

وقال أبو البقاء[٣]: أي: إلى أين؟ فحذف حرف الجرِّ، كقولك: ذهبت «الشام»، ويجوز أن يحمل على المعنى، كأنه قال: أين تؤمنون، يعني: أنه على الحذف، أو على التضمين، وإليه نحا مكيٌّ أيضاً.

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٦٧.
(٢) الفخر الرازي ٣١/ ٦٨.
(٣) ينظر: الإملاء ٢/ ٢٨١.

ولا حاجة إلى ذلك ألبتَّة لأنه ظرف مكان مبهم لا مختص.

فصل في تفسير الآية

قال قتادةُ: فإلى أين تعدلون عن هذا القول، وعن طاعته[(١)].

وقال الزجاج: فأي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بيَّنت لكم.

ويقال: أين تذهب وإلى أين تذهب.

وحكى الفراء عن العرب: ذهبت «الشام»، وخرجت «العراق»، وانطلقت السوق، أي: إليها؛ وأنشد لبعض بني عقيل: [الوافر]

٥١٢٤ ـ تَصِيحُ بِنَا حنيفةُ إذْ رَأتْنَا وأيُّ الأرضِ تَذهَبُ لِلصِّيَاحِ[(٢)]

يريد: إلى أيِّ أرض تذهب، فحذف «إلى».

قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾، يعني: القرآن ذكر للعالمين، أي: موعظة، وزجر. و «إن» بمعنى: «ما».

وقيل: ما محمد إلا ذكر.

قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾ بدل من «للعالمين» بإعادة العامل، وعلى هذا فقوله: ﴿أَن يَسْتَقِيمَ﴾: مفعول «شاء» أي: لمن شاء الاستقامة، ويجوز أن يكون «لمن شاء» خبراً مقدماً، ومفعول شاء محذوف، وأن يستقيم مبتدأ، وتقدم نظيره والمعنى: لمن شاء منكم أن يستقيم.

قال أبو جهل: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم وهذا هو القدر، وهو رأس القدرية، فنزلت: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فبين بهذا أنه لا يعمل العبد خيراً إلا بتوفيق الله تعالى، ولا شرًّا إلا بخذلانه.

قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، أي: إلا وقت مشيئة الله تعالى.

وقال مكيٌّ: «أن» في موضع خفض بإضمار «الباء»، أو في موضع نصب بحذف الخافض.

يعني: أن الأصل «إلا بأن»، وحينئذ تكون للمصاحبة.

فصل في تفسير الآية

قال الحسن: والله ما شاءت العرب الإسلام حتى شاء الله تعالى لها[(٣)].

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/١٥٨).

(٢) ينظر معاني القرآن ٣/٢٤٣، والقرطبي ١٩/١٥٨.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/١٥٨).

وقال وهب بن منبه ـ رضي الله عنه ـ: قرأت في تسعة[١] وثمانين كتاباً مما أنزل الله ـ تعالى ـ على الأنبياء: من جعل إلى نفسه شيئاً فقد كفر، وفي التنزيل: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]، والآيُ في هذا كثيرة، وكذلك الأخبار وأن الله ـ تعالى ـ هدى بالإسلام، وأضلَّ بالكفر[٢].

قال ابنُ الخطيب[٣]: وهذا عين[٤] مذهبنا؛ لأن الأفعال موقوفة على مشيئتنا، ومشيئتنا موقوفة على مشيئة الله، والموقوف على الشيء موقوف على ذلك الشيء، فأفعال العباد ثبوتاً ونفياً موقوفة على مشيئة الله تعالى، وحمل المعتزلة ذلك على أنها مخصوصة بمشيئة الإلجاء والقهر، وذلك ضعيف؛ لأن المشيئة الاختيارية حادثة، فلا بد من محذوف، فيعود الكلام. والله تعالى أعلم.

روى الثعلبي عن أبيّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، أعاذهُ الله أنْ يَفضحَهُ حِينَ تُنشرُ صَحِيفَتُهُ»[٥]. والله أعلم بالصواب.

---

(١) في أ: سبعة.

(٢) ينظر: المصدر السابق.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٦٩.

(٤) في أ: غير.

(٥) تقدم تخريجه.

سورة الانفطار

مكيَّةٌ، وهي تسع عشرة آية، وكلماتها ثمانون كلمة، وثلاثمائة وسبعة وعشرون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ (١) وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ (٢) وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ (٣) وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ (٤) عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ (٥)﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾، معناه: إذا وقعت هذه الأشياء التي هي أشراط الساعة يحصل الحشر والنشر، ومعنى «انفطَرتْ»: انشقت لنزول الملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]، ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧] ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ [النبأ: ١٩]، ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٨].

قال الخليل: ولم يأت هذا على الفعل بل هو كقولهم: مُرضِع، وحَائض، ولو كان على الفعل لكان «منفطر».

وقال القرطبيُّ[1]: «تفطرت لهيبة الله تعالى، والفطرُ: الشق، يقال: فطرته فانفطر، ومنه: فطر ناب البعير إذا طلع، فهو بعير فاطر، وتفطَّر الشيء: تشقَّق. وسيف فطار: أي فيه شقوق». وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ تساقطت؛ لأن عند انتقاض تركيب السماء تنتثر النجوم على الأرض، يقال: نثرتُ الشيء أنثرهُ نثراً فانتثر. والنُّثار ـ بالضم ـ ما تناثر من الشيء.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾.

العامة على بنائه للمفعول مثقلاً.

وقرأ مجاهد[2]: مبنياً للفاعل مخففاً من الفجور، نظراً إلى قوله تعالى: ﴿بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠]، فلما زال البرزخ بغيا.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٦٠.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٧١٤، والبحر المحيط ٨/ ٤٢٧، والدر المصون ٦/ ٤٨٨.

وقرأ مجاهد ـ أيضاً ـ والربيع بن خيثم، والزعفراني، والثوري[١]: مبنياً مخففاً.

ومعنى «فُجِّرت» أي: دخل بعضها في بعض، واختلط العذبُ بالملحِ، فصار واحداً بارتفاع الحاجز الذي جعله الله تعالى برزخاً بينهما.

وقيل: إنَّ مياه البحار الآن راكدة مجتمعة، فإذا انفجرت تفرقت، وذهب ماؤها.

وقال الحسن: فجرت: يبست.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾. أي: قلبت، يقال: بَعْثَره وبَحْثَره ـ بالعين والحاء ـ قال الزمخشري[٢]: وهما مركبان من البعث والبحث، مضموم إليهما راء، يعني أنهما مما اتفق معناهما؛ لأن الراء مزيدة فيهما، إذ ليست من حروف الزيادة وهذا كـ «دَمَثَ» و «دَمْثَرَ» و «بَسَطَ» و «بَسْطَرَ».

فصل في المراد ببعثرة القبور

والمعنى: قلب أعلاها وأسفلها، وقلب ظاهرها وباطنها، وخرج ما فيها من الموتى أحياء.

وقيل: التبعثر: إخراج ما في باطنها من الذهب والفضة ثم يخرج الموتى بعد ذلك.

وقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾: جواب «إذا»، والمعنى: ما قدمت من عمل صالح، أو شيء، أو أخرت من سيئة أو حسنة، وقيل: ما قدمت من الصدقات وأخرت من التركات على ما تقدم في قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

والمقصود منه الزجر عن المعصية، والترغيب في الطاعة.

فإن قيل: أيُّ وقت من القيامة يحصل هذا العلم؟.

قال ابنُ الخطيب[٣]: أمَّا العلم الإجمالي، فيحصل في أول زمان الحشر؛ لأن المطيع يرى آثار السعادة في أول الأمر والعاصي يرى آثار الشقاوة في أول الأمر، وأمَّا العلم التفصيلي، فإنما يحصل عند قراءة الكتب، والمحاسبة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ أي: المتجاوز.

والعامة: على «غرَّكَ» ثلاثياً، و «ما» الاستفهامية: في محل رفع على الابتداء.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٤٦، والبحر المحيط ٨/ ٤٢٧، والدر المصون ٦/ ٤٨٨.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٧١٤.

(٣) الفخر الرازي ٣١/ ٧١.

وقرأ ابن جبير، والأعمش[١]: «ما أغَرَّكَ»، فاحتمل أن تكون استفهامية، وأن تكون تعجبية، ومعنى «أغرّه»: أدخله في الغرّة، أو جعله غارًّا.

فصل في مناسبة الآية لما قبلها

لما أخبر في تلك الآية الأولى عن وقوع الحشر والنشر، ذكر هاهنا ما يدل عقلاً ونقلاً على إمكانه، أو على وقوعه، وذلك من وجهين:

الأول: أن الإله الكريم الذي لا يجوز من كرمه أن يقطع مواد نعمه عن المذنبين، كيف يجوز في كرمه ألا ينتقم من الظالم؟.

الثاني: أن القادر على خلق هذه البنية الإنسانية، ثم سوَّاها، وعدلها، إمَّا أن يقال: إنه ـ تعالى ـ خلقها لا لحكمةٍ، وذلك عبث، وهو على الله تعالى محال؛ لأنه ـ تعالى ـ منزَّهٌ عن العبث، أو خلقها لحكمةٍ، فتلك الحكمة أن تكون عائدة على الله تعالى، وذلك باطل؛ لأنه منزَّهٌ عن الاستكمال والانتفاع، فتعين أن تكون الحكمة عائدة إلى العبد، وتلك الحكمة أن تظهر في الدنيا، فذلك باطل؛ لأن الدنيا دار بلاء وامتحان لا دار انتفاع وجزاء، فثبت أن تلك الحكمة إنما تظهر في دار الجزاء، فثبت أن الاعتراف بوجود الإله الكريم الذي يقدر على الخلق، والتسوية، والتعديل يوجب على العاقل أن يقطع بأنه تعالى يبعث الأموات ويحشرهم.

فصل في نزول الآية

هذا [خطاب][٢] لمنكري البعث.

روى عطاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنها نزلت في الوليد بن المغيرة[٣].

وقال الكلبي ومقاتل: نزلت في الأشرم بن شريقٍ[٤]، وذلك أنَّه ضرب النبي ﷺ ولم يعاقبه الله تعالى، فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية.

وقيل: يتناول جميع العصاة؛ لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومعنى «ما غرَّك»: ما خدعك وسوَّل لك الباطل حتى تركت الواجبات، وأثنيت بالمحرمات.

والمعنى: ما الذي أمَّنك من عقابه، هذا إذا حملنا الإنسان على جميع العصاة، فإن حملناه على الكافر، فالمعنى: ما الذي دعاك إلى الكفر، وإنكار الحشر والنشر.

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٧١٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٤٧، والبحر المحيط ٨/ ٤٢٧، والدر المصون ٦/ ٤٨٨.
(٢) في ب: جواب.
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٦١).
(٤) ينظر المصدر السابق.

فإن قيل: كونه كريماً يقتضي ألا يغتر الإنسان بكرمه؛ لأنه جواد مطلق، والجواد الكريم يستوي عنده طاعة المطيع، وعصيان المذنب، وهذا لا يوجب الاغترار وروي عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ أنَّه دعا غلامه مرات، فلم يجبه، فنظر فإذا هو بالباب، فقال له: لم لا تجبني؟ فقال: لثقتي بحلمك، وأمني من عقوبتك، فاستحسن جوابه وأعتقه.

وقالوا ـ أيضاً ـ من كرم الرجل سوء أدب غلمانه، وإذا ثبت أن كرمه يقتضي الاغترار به فكيف جعله ـ هاهنا ـ مانعاً من الاغترار؟.

فالجواب من وجوه:

الأول: أن المعنى لما كنت ترى حلم الله ـ تعالى ـ عن خلقه ظننت أن ذلك لا حساب، ولا دار إلا هذه الدار، فما الذي دعاك إلى الاغترار وجرَّأك على إنكار الحشر، والنشر، فإنَّ ربك كريم، فهو من كرمه ـ تعالى ـ لا يعاجل بالعقوبة بسطاً في مدة التوبة، وتأخيراً للجزاء، وذلك لا يقتضي الاغترار.

الثاني: أنَّ كرمه تعالى لمَّا بلغ إلى حيث لا يمنع العاصي من أن يطيعه، فبأن ينتقم للمظلوم من الظالم كان أولى، فإذاً كان كونه كريماً يقتضي الخوف الشديد من هذا الاعتبار، وترك الجزاء والاغترار.

الثالث: أنَّ كثرة الكرم توجب الجد والاجتهاد في الخدمة، والاستحياء من الاغترار.

الرابع: قال بعضهم: إنما قال: «بربِّكَ الكَريم» ليكون ذلك جواباً عن ذلك السؤال حتى يقول: غرني كرمُك، فلولا كرمك لما فعلَت؛ لأنك رأيت فسترت، وقدرت فأمهلت.

وهذا الجواب إنما يصح إذا كان المراد بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ليس هو «الكافر».

فصل في غرور ابن آدم

قال قتادةُ ـ رضي الله عنه ـ: سبب غرور ابن آدم تسويل الشيطان[١] وقال مقاتل: غرّه عفو الله حين لم يعاقبه أوَّل مرة[٢].

وقال السديُّ: غرَّه عفو الله[٣].

وقال ابن مسعودٍ: ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة، فيقول تعالى: ما

---

(١) ينظر المصدر السابق وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٤٥٥).

(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٤٥٥). (٣) ينظر المصدر السابق.

غرّك يا ابن آدم، ماذا عملت فيما علمت؟ يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين[١]؟.

قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾، يحتمل الإتباع على البدل والبيان، والنعت، والقطع إلى الرفع والنصب.

واعلم أنه ـ تعالى ـ لما وصف نفسه بالكرم، ذكر هذه الأمور الثلاثة، كالدلالة على تحقق ذلك الكرم، فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ لا شكَّ أنَّه كرمٌ؛ لأنه وجود، والوجود خير من العدم، والحياة خير من الموت، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، وقوله تعالى: «فسوّاك» أي: جعلك سوياً سالم الأعضاءِ، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧]، أي: معتدل الخلق والأعضاء.

قال ذو النون: أي: سخَّر لك المكونات أجمع، وما جعلك مسخَّراً لشيء منها، ثم أنطق لسانك بالذكر، وقلبك بالعقل، وروحك بالمعرفة، ومدك بالإيمان وشرفك بالأمر والنهي، وفضلك على كثير ممن خلق تفضيلاً.

قوله: «فعدَلَكَ». قرأ الكوفيون: «عَدلَكَ» مخففاً، والباقون[٢]: مثقَّلاً.

فالتثقيل بمعنى: جعلك مناسب الأطراف، فلم يجعل إحدى يديك ورجليك أطول، ولا إحدى عينيك أوسع، فهو من التعديل، وهو كقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٤].

قال علماء التشريح: إنَّه ـ تعالى ـ ركَّب جانبي الجثة على التساوي حتى أنه لا تفاوت بين نصفيه، لا في العظام، ولا في أشكالها، ولا في الأوردة والشرايين، والأعصاب النافذة فيها والخارجة منها.

وقال عطاءٌ عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: جعلك قائماً معتدلاً، حسن الصُّورةِ، لا كالبهيمة المنحنية[٣].

وقال أبو عليٍّ الفارسي: «عَدلَكَ» خلقك، فأخرجك في أحسن تقويم، مستوياً على جميع الحيوان والنبات، وواصلاً في الكمال إلى ما لم يصل إليه شيء من أجسام هذا العالم.

وأمَّا قراءة التخفيف فيحتمل هذا، أي: عدل بعض أعضائك ببعض، ويحتمل أن يكون من المعدول، أي: صرفك إلى ما شاء من الهيئات والأشكال والأشباه، وهذا قول الفراء.

---

(١) ينظر المصدر السابق.

(٢) ينظر: السبعة ٦٧٤، والحجة ٦/ ٣٨٢، وإعراب القراءات ٥/ ٤٤٨، وحجة القراءات ٧٥٢.

(٣) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣١/ ٧٤) من طريق عطاء عن ابن عباس.

ثم قال: والتشديد أحسن الوجهين؛ لأنك تقول: عدلتك إلى كذا، أي: صرفتك إلى كذا وكذا، ولا يحسن: عدلتك فيه، ولا صرفتك فيه.

وفي القراءة الأولى: جعل «في» من قوله: «فِي أيِّ صُورةٍ» للتركيب، وهو حسنٌ.

وفي قراءة الثانية جعل «في» صلة لقوله: «فعدلك»، وهو ضعيف.

ونقل القفَّال[١] عن بعضهم: أنَّهما لغتان بمعنى واحد.

قوله: «في أيِّ صُورةٍ»، يجوز فيه أوجه:

أحدها: أن يتعلق بـ «ركبك»، و «ما»: مزيدة على هذا، و «شاء» صفة لـ «صورة»، ولم يعطف «ركَّبَك» على ما قبله بالفاء، كما عطف ما قبله بها؛ لأنه بيان لقوله: «فَعَدلَكَ»، والتقدير: فعدلك ركبك في أيِّ صورةٍ من الصور العجيبة الحسنة التي شاءها ـ سبحانه وتعالى ـ والمعنى: وضعك في صورة اقتضتها مشيئته من حسن وقبح وطول، وقصر، وذكورة، وأنوثة.

الثاني: أن يتعلق بمحذوف على أنه حال، أي: ركبك حاصلاً في بعض الصور.

الثالث: أنه يتعلق بعد ذلك بـ «عَدلَكَ» نقله أبو حيان[٢] عن بعض المتأولين، ولم يعترض عليه، وهو معترض بأن في «أيِّ» معنى الاستفهام، فلها صدر الكلام، فكيف يعمل فيها ما تقدمها؟.

وكأن الزمخشري استشعر هذا فقال[٣]: ويكون في «أيِّ» معنى التعجب، أي: فعَدلَكَ في أي صورة عجيبة، وهذا لا يحسن أن يكون مجوِّزاً لتقدُّم العامل على اسم الاستفهام، وإن دخله معنى التعجب، ألا ترى أن «كيف، وأي»، وإن دخلهما معنى التعجب، لا يتقدم عاملهما عليهما.

وقد اختلف النحويون في اسم الاستفهام إذا قصد به الاستئناف، هل يجوز تقديم عامله أم لا؟.

والصحيح أنَّه لا يجوز، ولذلك لا يجوز أن يتقدَّم عامل «كم» الخبرية عليها لشبهها في اللفظ بالاستفهامية، فهذا أولى، وعلى تعلقها بـ «عدلك»، تكون «ما» منصوبة على المصدر.

قال أبو البقاء[٤]: يجوز أن تكون «ما» زائدة، وأن تكون شرطية، وعلى الأمرين الجملة نعت لـ «صورة»، والعائد محذوف، أي: ركبك عليها، و «في»: تتعلق بـ «ركَّبك».

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٧٤.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٢٨.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٧١٦.

(٤) الإملاء ٢/ ٢٨٢.

وقيل: لا موضع للجملة؛ لأن «في» تتعلقُ بأحد الفعلين والجميع كلام واحد، وإنما يتقدم الاستفهام على ما هو حقه. قوله: بأحد الفعلين، يعني: «شاء وركبك»، فيحصل في «ما» ثلاثة أوجه: الزيادة، وكونها شرطية، وحينئذ جوابها محذوف، والنصب على المصدرية، أي: واقعة موقع مصدر.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾.

العامة: على «تكذبون» خطاباً، والحسنُ وأبو جعفر وشيبة[1]: بياء الغيبة.

قال ابن الخطيب[2]: لما بين بالدلائل العقلية صحة القول بالبعث، والنشور على الجملة فرع عليها شرح تفاصيل الأحوال المتعلقة بذلك، وهي أنواع:

الأول: أنه ـ تعالى ـ زجرهم عن ذلك الاغترار بقوله «كلا»، و «بل»: حرف وضع في اللغة لنفي شيء قد تقدَّم تحقيق غيره، فلا جرم ذكروا في تفسير «كلاً» وجوهاً:

الأول: قال القاضي: معناه أنكم لا تستقيمون على توجيه نعمي عليكم، وإرشادي لكم، بل تكذبون بيوم الدين.

الثاني: «كَلاً» ردعٌ، أي: ارتدعوا عن الاغترار بكرم الله تعالى، كأنه قال: وإنهم لا يرتعدون عن ذلك، بل يكذِّبون بالدين.

الثالث: قال القفال: أي: ليس الأمر كما تقولون من أنه لا بعث، ولا نشور؛ لأن ذلك يوجب أن الله ـ تعالى ـ خلق الخلق عبثاً، وحاشاه من ذلك، ثم كأنه قال: إنهم لا ينتفعون بهذا البيان، بل يكذِّبون بالدين.

وقال الفراء: ليس كما غررت به، والمراد بالدين: الجزاء على الدين والإسلام.

وقيل: المراد من الدين: الحساب، أي: تكذِّبون بيوم الحساب.

النوع الثاني: قوله ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾: يجوز أن تكون الجملة حالاً من فاعل «تكذِّبون»، والحالة هذه، ويجوز أن تكون مستأنفة أخبرهم بذلك لينزجروا والمراد بالحافظين: الرُّقباءُ من الملائكة يحفظون عليكم أعمالكم.

«كراماً» على الله «كاتبين» يكتبون أقوالكم وأعمالكم.

قال ابنُ الخطيب[3]: والمعنى: التعجب من حالهم، كأنَّه ـ تعالى ـ قال: إنكم

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٤٧، والبحر المحيط ٨/ ٤٢٨، والدر المصون ٦/ ٤٨٩.

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٧٥. (٣) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٥٧.

تكذِّبون بيوم الدين وهو يوم الحساب والجزاء، وملائكة الله ـ تعالى ـ موكَّلون بكم، يكتبون أعمالكم حتى تحاسبوا بها يوم القيامة، ونظيره: قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١]

فصل في الرد على من طعن في حضور الكرام الكاتبين

قال ابن الخطيب: من الناس من طعن في حضور الكرام الكاتبين من وجوه:

الأول: لو كان الحفظة، وصحفهم وأقلامهم معنا، ونحن لا نراهم لجاز أن يكون بحضرتنا جبال، وأشخاص لا نراهم، وذلك دخول في الجهالات.

والثاني: هذه الكتابة، والضبط إن كان لا لفائدةٍ فهو عبثٌ، وهو غير جائزٍ على الله تعالى، وإن كان لفائدةٍ، فلا بد وأن تكون للعبد؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ متعالٍ عن النفع والضر، وعن تطرق النسيان إليه، وغاية ذلك أنَّه حُجَّة على الناس وتشديد عليهم لإقامة الحُجَّة، لكن هذا ضعيف؛ لأنَّ من علم أنَّ الله تعالى لا يجور، ولا يظلم، لا يحتاج في حقه إلى إثبات هذه الحجة، والذي لا يعلم لا ينتفع بهذه الحجة، لاحتمال أنَّه تعالى أمرهم بذلك ظلماً.

الثالث: أنَّ أفعال القلوب غير مرئية، فهي من باب المغيبات، والله ـ تعالى ـ مختص بعلم الغيب، فلا تكتبوها، والآية تقتضي ذلك.

والجواب عن الأول: أنَّ البنية عندنا ليست شرطاً في قبول الحياة؛ ولأن عند سلامة الأعضاء، وحصول جميع الشرائط لا يجب الإدراك، فيجوز على الأوَّل: أن يكونوا أجراماً لطيفة، تتمزق، وتبقى حياتها ذلك، وعلى الثاني: يجوز أن يكونوا أجراماً كثيفة، ونحن لا نراهم.

وعن الثاني: أن الله ـ تعالى ـ أجرى أموره على عباده على ما يتعارفونه في الدنيا فيما بينهم؛ لأن ذلك أبلغ في تقرير المعنى عندهم في إخراج كتاب، وشهود في إلزام الحجة، كما يشهد العدول عند الحاكم على القضاة.

وعن الثالث: أن ذلك مخصوص بأفعال الجوارح، فهو عام مخصوص، وفي مدح الحفظة، ووصفهم بهذه الصفات تعظيم لأمر الجزاء، وأنَّه من جلائل الأمور.

فصل في عموم الخطاب

هذا الخطاب وإن كان خطاب مشافهة إلاَّ أنَّ الأمَّة أجمعت على عموم هذا الحكم في حقِّ المكلَّفين.

وقوله تعالى: ﴿لَحَٰفِظِينَ﴾: جمع يحتملُ أن يكونوا حافظين لجميع بني آدم، من غير أن

يختص واحد من الملائكة بواحد من بني آدم، ويحتمل أن يكون الموكَّل بكل واحد منهم جمعاً من الملائكة، كما قيل: اثنان بالليل، واثنان بالنهار، أو كما قيل: إنهم خمسة.

فصل في أن الكفار هل عليهم حفظة؟

اختلفوا في الكفَّار، هل عليهم حفظة؟.

فقيل: لا؛ لأن أمرهم ظاهر وعلمهم واحد، قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١].

وقيل: بل عليهم حفظة لقوله تعالى: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾، وأمَّا من أوتي كتابه بشماله، ومن أوتي كتابه وراء ظهره، فأخبر أنَّ لهم كتاباً وعليهم حفظة.

فإن قيل: أي شيء يكتب الذي عن يمينه، ولا حسنة له؟.

فالجواب: أنَّ الذي عن شماله يكتب بإذن صاحبه، ويكون صاحبه شاهداً على ذلك، وإن لم يكتب.

فصل في معرفة الملائكة هَمَّ الإنسان

سُئِلَ سفيان: كيف تعرف الملائكة أنَّ العبد همَّ بمعصية، أو بحسنة؟ قال: إذا همَّ العبد بحسنة وجد منه ريح المسك، وإن همَّ بسيئة وجد منه ريح منتن.

فصل في أن الشاهد لا يشهد إلا بعد العلم

دلَّت هذه الآية على أنَّ الشاهد لا يشهد إلاَّ بعد العلم، لوصف الملائكة بكونهم حافظين كراماً كاتبين، يعلمون ما تفعلون، فدلَّ على أنهم يكونون عالمين بها حتى أنَّهم يكتبونها، فإذا كتبوها يكونون عالمين عند أداء الشهادة.

قال الحسن: لا يخفى عليهم شيء من أعمالكم(١).

وقيل: يعلمون ما ظهر منكم دون ما حدثتم به أنفسكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾.

الأبرار: الذين بروا، وصدقوا في إيمانهم بأداء فرائض الله تعالى، واجتناب معاصيه.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٦٣).

فصل في ذكر أحوال العالمين

لما وصف تعالى الكرام الكاتبين لأعمال العباد، ذكر أحوال العالمين، وقسمهم قسمين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ وهو نعيم الجنَّة، ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ وهو النَّار، وهذا تهديد عظيم للعُصاةِ، وهذا التقسيم كقوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

قوله: ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾: يجوز فيه أن يكون حالاً من الضمير في الجار، لوقوعه خبراً، وأن يكون مستأنفاً.

وقرأ العامة: «يَصْلونهَا» مخففاً مبنياً للفاعل وتقدم مثله.

ومعنى ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ يدخلونها يوم القيامة.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ أي: ليسُوا غائبين عن استحقاق الكون في الجحيم، ثم عظَّم ذلك اليوم فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ ثم كرره تعجيباً لشأنه، فقال: ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾.

وقال ابن عباس: كلُّ ما في القرآن من قوله: «وما أدراك» فقد أدراه، وكل شيء من قوله: «وما يدريك» فقد طوي عنه(١).

قوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ﴾.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو(٢): برفع «يومُ» على أنَّه خبر مبتدأ مضمر، أي: هو يوم.

وجوز الزمخشريُّ(٣): أن يكون بدلاً مما قبله يعني قوله: «يوم الدِّين».

وقرأ أبو عمرو(٤) في رواية: «يومٌ»: مرفوعاً منوناً على قطعه عن الإضافة، وجعل الجملة نعتاً له، والعائد محذوف، أي: لا تملك فيه.

وقرأ الباقون: «يوم» بالفتح.

فقيل: هي فتحة إعراب، ونصبه بإضمار أعني، أو يتجاوزون، أو بإضمار اذكر، فيكون مفعولاً به، وعلى رأي الكوفيين يكون خبراً لمبتدأ مضمر، وإنَّما بني لإضافته للفعل وإن كان معرباً، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ﴾ [المائدة: ١١٩].

قال الزجاج: يجوز أن يكون في موضع رفع إلا أنه يبنى على الفتح؛ لإضافته إلى قوله تعالى: ﴿لَا تَمْلِكُ﴾، وما أضيف إلى غير المتمكن، فقد يبنى على الفتح، وإن كان في موضع رفع، أو جرٍّ كما قال: [المنسرح]

---

(١) ينظر القرطبي (١٩/١٦٣).

(٢) ينظر: السبعة ٦٧٤، والحجة ٦/٣٨٣، وإعراب القراءات ٢/٤٤٩، وحجة القراءات ٧٥٣.

(٣) ينظر الكشاف ٤/٧٥٣.

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/٤٨٩.

٥١٢٥ ـ لَمْ يَمْنَعِ الشُّربَ غير أنْ نَطقَتْ حَمامَةٌ ....[١]

قال الواحدي: والذي ذكره الزجاج من البناء على الفتح، إنَّما يجوز عند الخليل وسيبويه إذا كانت الإضافة إلى الفعل الماضي؛ نحو قوله: [الطويل]

٥١٢٦ ـ عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ. . . . .[٢]

البيت. أمَّا مع الفعل المستقبل، فلا يجوز البناء عندهم، ويجوز البناء في قول الكوفيين.

قال ابن الخطيب[٣]: وذكر أبو عليٍّ أنَّه منصوبٌ على الظرفية؛ لأن اليوم لما جرى في أكثر الأمر ظرفاً، فنزل على حالة الأكثرية، والدليلُ عليه إجماع القراء في قوله تعالى: ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، ولا يدفع ذلك أحد، ومما يقوِّي النصب قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ﴾ [القارعة: ٤، ٥]، وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٢، ١٣]، فالنصب في «يوْمَ لا تمْلِكُ» مثل هذا.

فصل فيمن استدل بالآية على نفي الشفاعة عن العصاة

تمسَّكوا بهذه الآية في نفي الشفاعة للعصاة، وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨] وقد تقدم الجواب عنه في سورة البقرة.

قال مقاتلٌ: يعني النفس الكافرة شيئاً من المنفعة[٤].

﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ أي: لن يملِّك الله ـ تعالى ـ في ذلك اليوم أحداً شيئاً كما ملَّكهم في الدنيا.

روى الثعلبي عن أبيٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرأ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ أعْطاهُ اللَّهُ مِنْ الأجْرِ بعدَدِ كُلِّ قَبْرٍ حَسنةً، وبِعددِ كُلِّ قَطْرة مَاءٍ حَسنةً، وأصْلحَ اللَّهُ تعالى لَهُ شَأنهُ»[٥]. ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم.

---

(١) تقدم.

(٢) تقدم.

(٣) ينظر الفخر للرزاي ٣١/ ٧٩.

(٤) ينظر: القرطبي (١٩/ ١٦٣).

(٥) تقدم تخريجه.

سورة المطففين

مدنيَّة في قول الحسن وعكرمة ومقاتلٍ.

قال مقاتلٌ: وهي أوَّل سورة نزلت بـ «المدينة»(١)

وقال ابن عباس وقتادة: مدنيَّة إلا ثمان آياتٍ، وهي من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ [المطففين: ٢٩] إلى آخرها مكي(٢).

وقال الكلبيُّ، وجابرُ بن زيدٍ: نزلت بين «مكة» و «المدينة»(٣)

وقال ابنُ مسعودٍ والضحاكُ: مكيَّة. وهي ست وثلاثون آية، ومائة وتسعة وستون كلمة، وسبعمائة وثمانون حرفاً(٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾.

«ويلٌ»: ابتداء، وسوغ الابتداء به كونه دعاء، ولو نصب لجاز.

وقال مكيٌّ: والمختار في «وَيْل» وشبهه إذا كان غير مضاف الرَّفع، ويجوز النصب، فإن كان مضافاً، أو معرفاً كان الاختيار فيه النَّصب نحو: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ﴾ [طه: ٦١]، و «للمُطففِينَ» خبره.

والمُطفِّف: المُنقِص، وحقيقته: الأخذُ في كيل أو وزنٍ شيئاً طفيفاً، أي: نزراً حقيراً، ومنه قولهم: دُون التَّطفيف، أي: الشيء التَّافه لقلته.

---

(١) ذكره الماوردي (٦/ ٢٢٥) والقرطبي (١٩/ ١٦٤).

(٢) ينظر المصدر السابق. (٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٢٢٥) عن ابن مسعود والضحاك.

قال الزجاجُ: إنما قيل للذي ينقص المكيال والميزان مطفِّف؛ لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلاَّ الشيء اليسير الطفيف.

فصل في تعلق هذه السورة بما قبلها

قال ابن الخطيب[1]: اتصال أوَّل هذه السورة بالمتقدمة أنَّه تعالى بيَّن في آخر تلك السورة أنَّ من صفة يوم القيامة أنه لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً، والأمر يومئذٍ لله، وذلك يقتضي تهديداً عظيماً للعصاة، فلهذا أتبعه بقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ والمراد منه الزجر على التطفيف، وهو البَخْس في المكيال والميزان على سبيل الخفية.

واعلم أن الويل كلمة تذكر عند وقوع البلاء، يقال: ويل لك، وويل عليك، وفي اشتقاق لفظ التطفيف قولان:

الأول: قول الزجاج المتقدم.

والثاني: أنَّ طف الشيء، هو جانبه وحرفه يقال: طفَّ الوادي والإناء إذا بلغ الشيء الذي فيه حرفه، ولم يمتلىء، فهو طفافه وطففه، يقال: هذا طف المكيال وطفافه إذا قارب ملأه، لكنه بعدُ لم يمتلىء، ولهذا قيل للذي «ينقص» الكيل ولا يوفيه مطفف. لأنه إنما يبلغ الطفاف.

فصل في نزول الآية

روى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما قدم رسول الله ﷺ «المدينة»، كانوا من أبْخَس النَّاس كيلاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، فاجتنبوا الكيل، فخرج رسول الله ﷺ فقرأها عليهم، وقال: «خَمْسٌ بِخمْسٍ، ما نقص قومٌ العَهْدَ إلاَّ سلَّط اللَّهُ عليهم عدُوَّهُم، ولا حكمُوا بغيرِ مَا أنْزَلَ اللَّهُ إلاَّ فَشَا فِيْهِمُ الفقرُ، ولا ظَهَرَ فِيهِمُ الفَاحِشَةُ إلاَّ ظَهَرَ فِيهِمُ المَوْتُ، ولا طَفَّفُوا المِكيَالَ إلاَّ مُنِعُوا النَّباتَ وأخذُوا بالسِّنينَ، ولا مَنَعُوا الزَّكَاةَ إلاَّ حُبِسَ عَنْهُم المَطرُ»[2].

وقال السديُّ: قَدِمَ رسول الله ﷺ «المدينة»، وبها رجل يقال له: أبو جهينة، ومعه صاعان يكيل بأحدهما، ويكيل بالآخر فأنزل الله تعالى هذه الآية.

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٨٠.

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ٤٨٣) وابن ماجه (٢/ ٧٤٨) والنسائي (٦/ ٥٠٨) من طريق عكرمة عن ابن عباس.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٦) وزاد نسبته إلى الطبراني وابن مردويه والبيهقي في «شعب الإيمان» بسند صحيح عنه.
قلت: وأخرجه ابن حبان (١٧٧٠ ـ موارد) والحاكم (٢/ ٣٣) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

وروى ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: المطفف الرجل الذي يستأجر المكيال، وهو يعلم أنه يحيف في كيله فوزن عليه[١].

قوله: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾. فيه أوجه:

أحدها: أنَّه متعلق بـ «اكتالوا»، و «على» و «من» «يتعاقبان» هنا. قال الفراء: يقال: اكتلتُ على النَّاسِ: اسْتوفَيْتُ مِنهُمْ، واكْتلتُ مِنهُمْ: أخذتُ مَا عَليْهِمْ.

وقيل: «على» بمعنى اكتل على ومنه بمعنى، والأول أوضح.

وقيل: «على» يتعلق بـ «يستوفون».

قال الزمخشري[٢]: لما كان اكتيالهم لا يضرهم، ويتحامل فيه عليهم أبدل «على» مكان «من» للدلالة على ذلك، ويجوز أن يتعلق بـ «يستوفون»، وقدَّم المفعول على الفعل لإفادة الخصوصية، أي: يستوفون على الناس خاصَّة، فأمَّا أنفسهم فيستوفون لها. وهو حسن.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾. رُسمتا في المصحف بغير ألف بعد الواو في الفعلين، فمن ثم اختلف الناس في «هم» على وجهين.

أحدهما: هو ضمير نصب فيكون مفعولاً به، ويعود على الناس، أي: وإذا كالوا الناس أو وزنوا الناس، وعلى هذا فالأصل في هذين الفعلين التعدي لاثنين: لأحدهما بنفسه بلا خلاف وللآخر بحرف الجر، ويجوز حذفه.

وهل كل منهما أصل بنفسه، أو أحدهما أصل للآخر؟ فيه خلاف، والتقدير: وإذا كالوا لهم طعاماً، أو وزنوه لهم، فحذف الحرف والمفعول؛ وأنشد: [الطويل]

٥١٢٧ ـ ولقَدْ جَنيتُكَ أكمُؤاً وعَساقِلاً ... ولـقَـدْ نَـهـيـتُـكَ عَـن بَـنـاتِ الأوبَـرِ[٣]

أي: جنيت لك.

والثاني: أنَّه ضمير رفع مؤكد للواو، والضمير عائد على «المطففين»، ويكون على هذا قد حذف المكيل والمكيل له، والموزون والموزون له.

إلا أن الزمخشري رد هذا فقال[٤]: «ولا يصح أن يكون ضميراً مرفوعاً

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٥١٧) من طريق إبراهيم بن يزيد عن عبد الرحمن بن الأعرج عن ابن عمر. وسكت عنه الحاكم. وقال الذهبي: إبراهيم واه.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٧١٩.

(٣) ينظر الاشتقاق ص ٤٠٢، والإنصاف ١/ ٣١٩، وأوضح المسالك ١/ ١٨٠، وتخليص الشواهد ص ١٦٧، وجمهرة اللغة ص ٣٣١، والخصائص ٣/ ٥٨، ورصف المباني ص ٧٨، وسر صناعة الإعراب ص ٣٦٦، وشرح ابن عقيل ص ٩٦، ولسان العرب (حجر)، و (سور)، و (عير)، و (وبر)، و (جحش)، و (أبل) و (حفل)، و (عقل)، و (اسم)، و (جنى)، و (نجا)، والمحتسب ٢/ ٢٢٤، ومغني اللبيب ١/ ٥٢، ٢٢٠، والمقاصد النحوية ١/ ٤٩٨، والمقتضب ٤/ ٤٨، والمنصف ٣/ ١٣٤.

(٤) الكشاف ٤/ ٧١٩.

«للمطففين»، لأن الكلام يخرج به إلى نظم فاسد، وذلك أن المعنى: إذا أخذوا من الناس استوفوا، وإذا أعطوهم أخسروا، وإن جعلت الضمير «للمطففين» انقلب إلى قولك: إذا أخذوا من الناس استوفوا، وإن تولوا الكيل، أو الوزن هم على الخصوص أخسروا، وهو كلام متنافر؛ لأن الحديث واقع في الفعل لا في المباشر».

قال أبو حيان(١): ولا تنافر فيه بوجه، ولا فرق بين أن يؤكد الضمير، وألاَّ يؤكد، والحديث واقع في الفعل، غاية ما في هذا أن متعلَّق الاستيفاء، وهو «على الناس» مذكور، وهو في «كالوهم أو وزنوهم» محذوف للعلم به؛ لأنَّه من المعلوم أنهم لا يخسرُون ذلك لأنفسهم.

قال شهابُ الدين(٢): الزمخشري يريد أن يحافظ على أنَّ المعنى مرتبط بشيئين: إذا أخذوا من غيرهم، وإذا أعطوا غيرهم، وهذا إنَّما فهم على تقدير أن يكون الضمير منصوباً عائداً على الناس، لا على كونه ضمير رفع عائداً على «المطففين»، ولا شك أن هذا المعنى الذي ذكره الزمخشري وأراده أتم وأحسن من المعنى الثاني، ورجَّح الأول سقوط الألف بعد الواو؛ لأنه دال على اتصال الضمير.

إلاَّ أن الزمخشري استدرك فقال(٣): «والتعلق في إبطاله بخط المصحف، وأن الألف التي تكتب بعد واو الجمع غير ثابتة فيه ركيك؛ لأن خط المصحف لم يراع في كثير منه حد المصطلح عليه في علم الخط على أني رأيت في الكتب المخطوطة بأيدي الأئمة المتقنين هذه الألف مرفوضة، لكونها غير ثابتة في اللفظ والمعنى جميعاً؛ لأن الواو وحدها معطية معنى الجمع، وإنما كتبت هذه الألف تفرقة بين واو الجمع وغيرها في نحو قولك: «هم لم يدعوا، وهو يدعو»، فمن لم يثبتها قال: المعنى كافٍ في التفرقة بينهما، وعن عيسى بن عمر وحمزة أنهما كانا يرتكبان ذلك، أي: يجعلان الضميرين «للمطففين»، ويقفان عند الواوين وقيفة، يبينان بها ما أرادوا». ولم يذكر فعل الوزن أوَّلاً، بل اقتصر على الكيل، فقال: «إذا اكتالوا»، ولم يقل: إذا اتزنوا، كما قال ثانياً: «أَوْ وَزَنُوهُمْ».

قال ابنُ الخطيب(٤): لأن الكيل والوزن بهما البيع والشراء، فأحدهما يدل على الآخر.

وقال الزمخشريُّ(٥): «كأنَّ المطففين كانوا لا يؤخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل دون الموازين، لتمكنهم بالاكتيال من الاستيفاء، والسرقة؛ لأنهم يدعدعون ويحتالون في الملء، وإذا أعطوا كالوا أو وزنوا لتمكنهم من البخس في النوعين جميعاً».

قوله: «يُخْسِرُونَ» جوابُ «إذا»، وهو يتعدَّى بالهمزة، يقال: خسر الرجل وأخسرته

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٣١.
(٢) الدر المصون ٦/ ٤٩١.
(٣) الكشاف ٤/ ٧٢٠.
(٤) الفخر الرازي ٣١/ ٨١.
(٥) الكشاف ٤/ ٧٢٠.

أنا، فمفعوله محذوف، أي: يخسرون الناس متاعهم. قال المؤرج: يخسرون أي ينقصون بلغة «قريش».

فصل في تفسير الآية

قال الزجاج: المعنى: إذا اكتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل والوزن.

أي: إذا استوفوا لأنفسهم استوفوا في الكيل والوزن، «وإذَا كَالُوهُمْ أو وزَنُوهُمْ» أي: كالوا لهم، أو وزنوا لهم، أي: للناس، ولمَّا كان اكتيالهم من الناس اكتيالاً فيه إضرارٌ بهم، وتحاملٌ عليهم أقيمَ «على» مقام «من» للدلالة على ذلك.

وقال الكسائيُّ والفراءُ: حذف الجار وأوصل الفعل، وهذا من كلام أهل الحجاز، ومن جاورهم، يقال: وزنتك حقك، وكلتك طعامك أي: وزنت لك، وكلتُ لك، كما يقال: نصحتك، ونصحت لك، وكسيتك، وكسيت لك.

وقال الفراء: المراد اكتالوا من الناس، و «على» و «من» يتعاقبان؛ لأنه حق عليه فإذا قلت: اكتلت عليك، فكأنه قال: أخذت ما عليك، وإذا قلت: اكتلت منك فهو كقولك: استوفيت منك.

وقيل: على حذف مضاف، أي: إذا كالوا مكيلهم، أو وزنوا لهم موزونهم.

قوله: ﴿أَلَا يَظُنُّ﴾: الظَّاهر أنَّها «ألا» التحضيضية، حضهم على ذلك، ويكون الظنُّ بمعنى: اليقين.

وقيل: هي «لا» النافية دخلت عليها همزة الاستفهام.

ومعنى الآية: ألا يستيقن أولئك الذين يفعلون ذلك بأنهم مبعوثون ليوم عظيم، وهو يوم القيامة، وفي الظن هنا قولان:

أحدهما: أنَّ المراد به: العلمُ، وعلى هذا التقدير يحتملُ أن يكون المخاطبون بهذا الخطاب من جملة المصدِّقين بالبعث، ويحتمل ألاَّ يكونوا كذلك لتمكُّنهم من الاستدلال عليه بالفعل.

الثاني: أنَّ المراد بالظن هنا: هو الظن نفسه، لا العلم، ويكون المعنى: هؤلاء المطففون هَبْ أنهم لا يجزمون بالبعث، ولكن لا أقل من الظن لوضوح أدلَّته، فإنَّ الأليق بحكمة الله ـ تعالى ـ ورحمته، ورعايته مصالح خلقه ألاَّ يهمل أمرهم بعد الموت، وأن يكون لهم نشر وحشر، وأن هذا الظَّن كافٍ في حصول الخوف.

قوله: ﴿يَوْمَ﴾: يجوز نصبه بـ «مبعوثون».

قال الزمخشريُّ[1]: أو بـ «يبعثون» مقدراً، أو على البدل من محل اليوم، أو

---

(١) الكشاف ٤/ ٧٢٠.

بإضمار «أعني»، أو هو مرفوع المحل لإضافته للفعل وإن كان مضارعاً، كما هو رأيُ الكوفيين، ويدل على صحة هذين الوجهين، قراءة[١] زيد بن عليٍّ: «يَوْمُ يقُومُ» بالرفع، وما حكاه أبو معاذ[٢] القارىء: «يومٍ» بالجر على ما تقدَّم.

فصل في المراد بقيام الناس لرب العالمين

قيام الناس لرب العالمين إمَّا للحساب، وإمَّا قيامهم من القبور.

وقال أبو مسلم[٣]: قيامهم له عبارة عن طاعتهم له وانقيادهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]، وفي الحديث: «إنَّ النَّاسَ يَقُومُونَ مِقدارَ ثَلاثِمائةِ سَنَة لا يُؤمَرُ فِيهِمْ بأمْرٍ»[٤].

وعن ابن عباس: وهو في حقِّ المؤمنين كقدر انصرافهم من الصلاة[٥]. وفي هذه الآيات مبالغات، منها أنَّ الويل إنما يذكر عند شدة البلاء، ومنها الإنكار بقوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾، ومنها استعظامه ـ تعالى ـ لليوم، ومنها تأكيده بما بعده، وما يوهم ذلك، وما يقتضيه من خضوعهم وذلتهم، وفي هذا نكتة، وهي كأن قائلاً يقول: هذا التشديد العظيم، والوعيد البليغ، كيف يكون على التطفيف مع نزارته، وزهادته، وكرم المولى وإحسانه؟.

فأشار بقوله: ﴿لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إلى أنَّه مُربيهم ومسئول عن أمورهم، فلا يليق أن يهمل من أمورهم شيئاً.

فصل في الكلام على لفظ «المطفف»

قال القشيري: لفظ المطفِّف يتناول التطفيف في الوزن والكيل، وفي إظهار العيب، وإخفائه؛ وفي طلب الإنصاف والانتصاف، ويقال: من لم يرض لأخيه المسلم ما يرضاه لنفسه، فليس بمنصف، والمباشرة والصحبة من هذه المادة، والذي يرى عيب الناس، ولا يرى عيب نفسه من هذه الجملة، ومن طلب حقَّ نفسه من الناس، ولا يعطيهم حقوقهم، كما يتطلبه.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ (٧) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ (٨) كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ (٩)﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ﴾.

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٣٢، والدر المصون ٦/ ٤٩١.
(٢) ينظر السابق. (٣) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٨٣.
(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٧) وعزاه إلى ابن مردويه عن أبي هريرة.
(٥) ذكره الرازي في «تفسيره (٣١/ ٨٣) عن ابن عباس.

«كَلاَّ»: حرف ردع، أي: ليس الأمر على ما هم عليه فليَرتَدِعُوا، وهاهنا تم الكلام.

وقال الحسنُ: «كَلاَّ»: ابتداء يتصل بما بعده على معنى «حقًّا» إنَّ كتابَ الفجَّار الذي كتب فيه أعمالهم لفي سجين[١].

اختلفوا في نون «سِجِّين».

فقيل: هيِ أصليَّة، واشتقاقه من السَّجن، وهو الحبسُ، وهو بناء مبالغة «فعيلاً» من السجن، كـ «سِكِّير» و «فسِّيق» من السكر والفسق وهو قول أبي عبيدة والمبرد والزجاج.

قال الواحدي: وهذا ضعيف؛ لأن العرب ما كانت تعرف سجيناً.

وقيل: «النون» بدل من «اللام»، والأصل: «سجيل» مشتقاً من السِّجل، وهو الكتاب.

واختلفوا فيه أيضاً: هل هو اسم موضع، أو اسم كتاب مخصوص؟.

وقيل: هو صفة، أو علمٌ منقول من وصفٍ كـ «خاتم»، وهو مصروف إذ ليس فيه إلا سبب واحدٌ، وهو العلمية.

وإذا كان اسم مكان، فقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ إمَّا بدل منه، أو خبر لمبتدأ محذوف، وهو ضمير يعود عليه.

وعلى التقديرين فهو مشكل؛ لأن الكتاب ليس هو المكان.

فقيل: التقدير، هو محل كتاب، ثم حذف المضاف.

وقيل: التقدير: وما أدراك ما كتاب سجين، والحذف إما من الأول وإمّا من الثاني.

وأما إذا قلنا: إنه اسم لكتاب فلا إشكال.

وقال ابن عطية[٢]: من قال: إن سجيناً موضع، فكتاب مرفوع على أنه خبر «إنَّ»، والظرف الذي هو «لفي سجين» ملغى، ومن جعله عبارة عن الخسار، فـ «كتاب» خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هو كتاب، ويكون هذا الكلام مفسراً لسجين ما هو انتهى.

وهذا لا يصح ـ ألبتة ـ إذ دخول اللام يعيِّن كونه خبراً، فلا يكون ملغياً لا يقال: «اللام» تدخل على معمول الخبر، فهذا منه، فيكون ملغًى؛ لأنَّه لو فرض الخبر، وهو «كتاب» عاملاً أو صفته عاملة، وهو «مَرقُوم» لامتنع ذلك، أمّا منع عمل «كتاب»، فلأنه موصوف، والمصدر الموصوف لا يعمل، وأمَّا امتناع عمل «مرقوم»؛ فلأنه صفة، ومعمول الصفة لا يتقدم على موصوفها، وأيضاً: فاللام إنما تدخل على معمول الخبر بشرطه، وهذا ليس معمولاً للخبر، فتعيَّن أن يكون الجار هو الخبر، وليس بملغى.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/١٦٨) عن الحسن.

(٢) المحرر الوجيز ٥/٤٥١.

وأمَّا قوله ثانياً: ويكون هذا الكلام تفسيراً لـ «سجين» ما هو، فهو مشكل، لأن الكتاب ليس هو الخسار الذي جعل الضمير عائداً عليه مخبراً عنه بـ «كتاب».

وقال الزمخشري[١]: فإن قلت: قد أخبر الله تعالى عن كتاب الفجَّار بأنه في سجِّين، وفسَّر سجيناً بـ «كتاب مرقوم»، فكأنه قيل: إنَّ كتابهم في كتاب مرقوم فما معناه؟.

قلت: سجين: كتاب جامع هو: ديوان الشر دون الله فيه أعمال الشياطين، وأعمال الكفرة والفسقة من الجنِّ والإنسِ، وهو كتاب مرقومٌ مسطورٌ بين الكتابة، أو معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه، فالمعنى: أن ما كتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان، وسمي «سجِّيناً» «فعيلاً» من السجن؛ لأنه سبب الحبس والتضييق في جهنم انتهى.

فصل في تفسير معنى سجين

قال عبدُ اللَّهِ بن عُمرَ وقتادةُ ومجاهدٌ والضحاكُ: «سِجِّين» هي الأرض السابعة السفلى، فيها أرواح الكفَّار[٢].

وروى البراء، قال: قال رسول الله ﷺ: «سِجِّين» أسفلُ سبْعِ أرضين، و «عِلِّيُّون» في السماءِ السَّابعة تحت العرشِ[٣].

وقال الكلبي: هي صخرة تحت الأرض السابعة[٤].

وقال عكرمةُ: «لفي سجِّين» لفي خسارةٍ وضلالٍ[٥].

قال القشيريُّ: «سجين»: موضع في السافلين، يدفن فيه كتاب هؤلاء، فلا يظهر، بل يكون في ذلك الموضع كالمسجون.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾، أي: ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت، ولا قومك.

قال القرطبي[٦]: وليس في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾ ما يدل على أن لفظ «سجين» ليس عربياً، كما لا يدل قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ٢٠]، بل هو تعظيم لأمرِ سجين.

---

(١) الكشاف ٤/ ٧٢١.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٨٧) عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٨) عن مجاهد وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ في «العظمة» والمحاملي في «أماليه». وذكره عن قتادة وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد.
وقد ورد هذا المعنى مرفوعاً من حديث عائشة ذكره السيوطي أيضاً في «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٨) وعزاه إلى ابن مردويه.

(٣) ينظر تفسير القرطبي (١٩/ ١٧٢).

(٤) ينظر المصدر السابق.

(٥) ينظر المصدر السابق.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٦٩.

قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾؛ قال المفسرون: ليس هذا تفسيراً لـ «سجين»، بل هو بيان للكتاب المذكور في قوله: «إنَّ كِتابَ الفُجَّار» أي: هو كتاب مرقوم، أي: مكتوب فيه أعمالهم مثبت عليهم، كالرقم لا ينسى ولا يمحى حتى يجازى به، والرقم: الخط؛ قال: [الطويل]

٥١٢٨ ـ سَأرْقمُ فِي المَاءِ القَراحِ إليْكمُ عَلَى بُعدكُمْ، إنْ كَانَ في المَاءِ رَاقِمُ[١]

وقيل: الرَّقْمُ: الختم بلغة حمير. [وتقدمت هذه المادة في سورة «الكهف»][٢].

وقال قتادةُ ومقاتل: رقم: نشر، كأنه أعلم بعلامة يعرف بها أنَّه كافر.

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (١٧)﴾

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

قيل: إنَّه متصل بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لمن كذَّب بأخبار الله تعالى.

وقيل: إنَّ قوله: «مرقوم» معناه: مرقم أي: يدل على الشَّقاوة يوم القيامة، ثم قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ في ذلك اليوم من ذلك الكتاب.

ثم إنه ـ تعالى ـ أخبر عن صفة من يكذِّب بيوم الدين، فقال تعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ﴾ يجوز فيه الإتباع نعتاً وبدلاً وبياناً، والقطع رفعاً ونصباً.

واعلم أنه ـ تعالى ـ وصف المكذب بيوم الدين بثلاث صفاتٍ:

أولها: كونه معتدياً، والاعتداء هو التجاوز عن المنهج الحقِّ.

وثانيها: الأثيم وهو المبالغة في ارتكاب الإثم والمعاصي.

وثالثها: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ والمراد: الذين ينكرون النبوة، والمراد بالأساطير: قيل: أكاذيب الأولين. وقيل: أخبار الأولين.

قوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾. العامة على الخبر.

---

(١) ينظر اللسان (رقم)، والقرطبي ١٩/ ١٦٩، والبحر ٨/ ٤٣٢، والدر المصون ٦/ ٤٩٢.

(٢) سقط من أ.

والحسن: «أئِذَا؟» على الاستفهام الإنكاري[١].

والعامَّة: «تتلى» بتاءين من فوق.

وأبو حيوة[٢] **وابن مقسم**: بالياء من تحت؛ لأن التأنيث مجازي.

فصل في المراد بالمكذب في الآية

قال الكلبيُّ: المراد بالمكذِّب هنا: هو الوليدُ بن المغيرةِ ـ لعنه الله ـ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ وقوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٠ ـ ١٥].

فقيل: هو الوليد بن المغيرة.

وقيل: هو النَّضر بنُ الحارث.

وقيل: عام في كل موصوف بهذه الصفة[٣].

قوله: ﴿كَلَّا﴾. ردعٌ وزجرٌ، أي: ليس هو أساطير الأولين.

وقال الحسن: معناها «حقًّا» ران على قلوبهم.

وقال مقاتلٌ: معناه: لا يؤمنون[٤]، ثم استأنف: ﴿**بل رَانَ على قُلوبهم**﴾ قد تقدم وقف حفص على لام «بل» في سورة «الكهف».

والرَّان: الغشاوة على القلب كالصَّدأ على الشيء الصقيل من سيف، ومرآة، ونحوهما.

قال الشاعر: [الطويل]

٥١٢٩ ـ وكَمْ رَانَ من ذَنْبٍ على قَلْبِ فَاجِرٍ فَتَابَ مِنَ الذَّنْبِ الذي رَانَ وانْجَلَى[٥]

وأصل الرَّينِ: الغلبة، ومنه رانت الخمر على عقل شاربها.

وقال الزمخشري[٦]: «يقال: ران عليه الذنب، وغان عليه، رَيْناً، وغَيْناً، والغَيْنُ: الغَيْمُ».

والغين أيضاً: شجر متلف، الواحدة غَيْنَاء، أي: خضراء كثيرة الورق ملتفة الأغصان.

ويقال: رَانَ رَيْناً ورَيَناً، فجاء مصدره مفتوح العين وساكنها.

وقرأ حمزةُ والكسائي والأعمش وأبو بكر والفضل[٧]: «رَانَ» بالإمالة؛ لأن فاء الفعل

---

(١) ينظر، البحر المحيط ٨/ ٤٣٣، والدر المصون ٦/ ٤٩٢.

(٢) ينظر: السابق، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٥١. (٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٧٠).

(٤) ينظر المصدر السابق.

(٥) ينظر اللسان (رين)، والبحر ٨/ ٤٣٠، والدر المصون ٦/ ٤٩٣.

(٦) الكشاف ٤٠/ ٧٢١.

(٧) ينظر: السبعة ٦٧٥، والحجة ٦/ ٣٨٥، وإعراب القراءات ٢/ ٤٥١، وحجة القراءات ٧٥٤.

راء، وعينه ألف منقلبة عن ياء، فحسنت الإمالة، ومن فتح فعلى الأصل مثل: كَالَ وبَاعَ.

فصل في المراد بالرَّين والإقفال والطبع

قال أبو معاذ النحويُّ: الرَّيْنُ، والإقفال: [أن يسود القلب من الذنوب وهو][١] أشدّ من الطبع، وهو أن يقفلُ على القلب، قال تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

قال الزجاجُ: «رَانَ على قُلوبِهِمْ» بمعنى غَطَّى على قُلوبِهم.

وقال الحسن ومجاهد: هو الذنب على الذنب حتى تحيط الذنوب بالقلب، ويغشى، فيموت القلب[٢].

قال رسول الله ﷺ: «إيَّاكُمْ والمُحقراتِ مِنَ الذنُوبِ، فإنَّ الذنْبَ على الذَّنْبِ يُوقِدُ على صَاحبِهِ [جحيماً][٣] ضخمة»[٤].

وقال ﷺ: «إنَّ المُؤمِنَ إذَا أذْنبَ كَانتْ نُكْتةٌ سَوداء في قَلْبِهِ، فإنْ تَابَ ونَزعَ واسْتغفرَ صُقِلَ قَلْبهُ مِنْهَا، فإذَا زَادَ زَادتْ حتَّى تَعْلُو قَلْبهُ، فَذلِكُمُ الرَّانُ الَّذي ذَكَرَ اللَّهُ ـ تعَالَى ـ في كِتَابهِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»[٥].

قوله: ﴿مَّا كَانُوا﴾ هو الفاعل، و «ما»: يحتمل أن تكون مصدرية، وأن تكون بمعنى: «الذي» والعائد محذوف، وأميلت ألف «رَانَ»، وفخمت، فأمالها الأخوان وأبو بكرٍ وفخَّمها الباقُون، وأدغمت لام «بل» في الراء، وأظهرتْ.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ﴾.

قال الزمخشريُّ[٦]: «كلاَّ» ردع عن الكسب الرَّائن على قلوبهم.

وقال القفالُ[٧]: إنَّ الله ـ تعالى ـ حكى في سائر السور عن هذا المعتدي الأثيم، أنه كان يقول: إن كانت الآخرة حقًّا، فإن الله ـ تعالى ـ يعطيه مالاً وولداً، ثم كذَّبه الله ـ تعالى ـ بقوله: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٨].

---

(١) سقط من ب.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٩٠) عن مجاهد والحسن وذكره السيوطي عنهما وعزاه إلى عبد بن حميد ينظر «الدر المنثور» (٦/ ٥٤١).

(٣) سقط من: ب.

(٤) تقدم.

(٥) أخرجه الترمذي (٣٣٣١) والنسائي في «التفسير» كما في «تحفة الأشراف» (٩/ ٤٤٣) وأحمد (٢/ ٢٩٧) والطبري في «تفسيره (١٢/ ٤٩٠) والحاكم (٢/ ٥١٧) وابن حبان (١٧٧١ ـ موارد) من حديث أبي هريرة.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٦) ينظر الكشاف ٤/ ٧٢١ ـ ٧٢٢.

(٧) ينظر الرازي ٣١/ ٨٧.

وقال أيضاً: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦]، ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، فلمَّا تكرَّر ذكره في القرآن، ترك الله ذكره ـ هاهنا ـ وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ أي: ليس الأمر كما يقولون من أن لهم في الآخرة الحسنى، بل هم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. وقال ابن عباس أيضاً: «كلاَّ» يريد لا يصدقون، ثم استأنف، فقال: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[(١)] وقيل: قوله تعالى: «كلاَّ» تكرير، وتكون «كلاَّ» هذه هي المذكورة في قوله: «كلا، بل ران على قلوبهم».

قوله: ﴿عَن رَّبِّهِمْ﴾. متعلق بالخبر، وكذلك «يومئذ»، والتنوين عوض عن جملة، تقديرها: «يوم إذْ يقوم الناس»؛ لأنه لم يناسب إلا تقديرها.

فصل في حجب الكفار عن رؤية ربهم

قال أكثر المفسرين: محجوبون عن رؤيته، وهذا يدل على أن المؤمنين يرون ربهم ـ سبحانه وتعالى ـ ولولا ذلك لم يكن للتخصيص فائدة.

وأيضاً فإنه ـ تعالى ـ ذكر هذا الحجاب في معرض الوعيد، والتهديد للكفار، وما يكون وعيداً وتهديداً للكفَّار لا يجوز حصوله للمؤمنين، وأجاب المعتزلة عن هذا بوجوه:

أحدها: قال الجبائي[(٢)]: المراد أنهم محجوبون عن رحمة ربهم أي: ممنوعون كما تحجب الأم بالإخوة من الثُّلث إلى السُّدس، ومن ذلك يقال لمن منع من الدخول: حاجب.

وثانيها: قال أبو مسلم: «لمحجوبون» غير مقرَّبين، والحجاب: الرَّدُ، وهو ضد القبول، فالمعنى: أنهم غير مقبولين عند الرؤية، فإنه يقال: حُجِبَ عن الأمير، وإن كان قد رآه عن بعدٍ، بل يجب أن يحمل على المنع من رحمته.

وثالثها[(٣)]: قال الزمخشريُّ[(٤)]: كونهم محجوبين عنه تمثيل للاستخفاف بهم وإهانتهم؛ لأنه لا يرد على الملوك إلا المكرَّمين لديهم، ولا يُحجب عنهم إلا المبانون عنهم.

والجواب: أن الحجب في استعمالاته مشترك في المنع، فيكون حقيقة فيه، ومنع العبد بالنسبة إلى الله تعالى، إمَّا عن العلم، وإمَّا عن الرؤية، والأول: باطل؛ لأن الكفَّار يعلمون الله تعالى، فوجب حمله على الرؤية.

وأمَّا الوجوه المذكورة فهو عدول عن الظاهر من غير دليل، ويؤيد ما قلنا: أقوال السَّلف من المفسرين:

---

(١) ذكره البغوي (٤/ ٤٦٠).

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٨٧.

(٣) في أ: رابعها.

(٤) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٢٢.

قال مقاتلٌ: بل لا يرون ربَّهم بعد الحساب، والمؤمنون يرون ربهم.

وقال الكلبيُّ: محجوبون عن رؤية ربهم والمؤمن لا يحجبُ[(١)]، وسُئلَ مالكُ بنُ أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ عن هذه الآية، فقال: كما حجب الله تعالى أعداءه فلم يروهُ، ولا بد أن يتجلّى لأوليائه حتى يروه.

وعن الشافعيِّ ـ رحمه الله ـ كما حجب قومٌ بالسُّخطِ دلَّ على أنهم يرونهُ بالرضا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾. أي: إن الكفَّار مع كونهم محجوبين من الله يدخلون النار.

﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ أي: تقول لهم الخزنةُ: «هذا» أي: هذا العذاب ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾، وقوله: يقال يجوز أن يكون القائم مقام الفاعل ما دلَّت عليه جملة قوله: «هَذا الَّذي كُنتُمْ»، ويجوز أن تكون الجملة نفسها، ويجوز أن تكون المصدرية. [وقد تقدم تحريره في أول «البقرة»][(٢)].

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ (٢٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ (٣٢) وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَـٰفِظِينَ (٣٣) فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ﴾: لمَّا ذكر تعالى حال الكفار والمطففين أتبعه بذكر الأبرار الذين لا يطففون، فقال: «كلاَّ» أي: ليس الأمر كما توهمه أولئك الفجَّار من إنكار البعث، ومن أنَّ كتاب الله أساطير الأولين، بل كتابهم في سجِّين، وكتابُ الأبرارِ في علِّيين.

وقال مقاتلٌ: «كلاَّ» أي: لا يؤمن بالعذاب الذي يصلاه.

قوله: ﴿لَفِى عِلِّيِّينَ﴾. هو خبر «إنَّ».

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣١/ ٨٨) عن الكلبي.

(٢) سقط من ب.

وقال ابن عطيَّة هنا كما قال هناك[١]، ويرد عليه بما تقدم، و «علِّيُّون»: جمع «عِلِّيّ»، أو هو اسم مكان في أعْلَى الجنة، وجرى مجرى جمع العقلاء، فرفع بالواو، ونصب وجر بالياء، مع فوات شرط العقل.

وقال أبو البقاء[٢]: واحدها «عليّ» وهو الملك.

وقيل: هو صيغة للجمع مثل عشرين، ثم ذكر نحواً مما ذكره في «سِجِّين» من الحذف المتقدم.

وقال الزمخشري[٣]: «عِلِّيُّون» علم لديوان الخير الذي دوِّن فيه كلُّ ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين منقول من جمع «عليّ» «فعيل» من العلو كـ «سجين» من السجن، سمي بذلك، إمَّا لأنَّه سبب الارتفاع إلى أعلى الدرجات في الجنة، وإما لأنَّه مرفوع في السماء السابعة.

وتلك الأقوال الماضية في «سجِّين» كلُّها عائدة هنا.

وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّها السماء السابعة[٤].

وقال مقاتلٌ وقتادةُ: هي سدرةُ المنتهى[٥].

وقال الفراء: يعني: ارتفاعها بعد ارتفاع لا غاية له.

وقال الزجاجُ: أعْلَى الأمْكِنَةِ.

وقال آخرون: هي مراتب عالية محفوفة بالجلالة.

وقال آخرون: عند كتاب أعمال الملائكة، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾، وذلك تنبيه على أنَّه معلوم، وأنه سيعرفه، ثم قال تعالى: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ فبين أن كتابهم في هذا الكتاب بالمرقوم الذي يشهده المقربون من الملائكة، فكأنَّه ـ تعالى ـ كما وكلَّهم باللوح المحفوظ، فكذلك وكلَّهُم بحفظ كُتبِ الأبرار في جملة ذلك الكتاب الذي هو أم الكتاب على وجه الإعظام له، ولا يمنع أن الحفظة إذا صعدت تكتب الأبرار بأنهم يسلمونها إلى هؤلاء المقربين، فيحفظونها كما يحفظون كتب أنفسهم، أو ينقلون ما في تلك الصحائف إلى ذلك الكتاب الذي وُكِّلوا بحفظه، ويصير علمهم شهادة لهؤلاء الأبرار، فلذلك يحاسبون حساباً يسيراً.

وقيل: المعنى: ارتفاع بعد ارتفاع.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٥٢. (٢) ينظر: الإملاء ٢/ ٢٨٣.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٢٢.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٩٣) عن كعب وقتادة ومجاهد.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٤١) عن مجاهد وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٩٤) عن الضحاك.

وقال أبو مسلم: هذا كناية عن العلو والرفعة، والأول كناية عن الذُّلِّ والإهانةِ.

وقال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «عِلِّيُّون»: لوحٌ من زبرجدة خضراء معلَّق تحت العرش أعمالهم مكتوبة فيه[١].

قال كعب وقتادة: هي قائمة العرش اليمنى[٢].

وقال ابن عباس: هو الجنة[٣].

وقال الضحاكُ: سدرةُ المنتهى[٤].

وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾: ليس فيه تفسير عليِّين، أي: مكتوب أعمالهم كما تقدم في كتاب الفجار.

وقيل: كتب هناك ما أعد الله لهم من الكرامة.

قوله: ﴿يَشْهَدُهُ﴾: جملة يجوز أن تكون صفة ثانية، وأن تكون مستأنفة، والمعنى: أنَّ الملائكة الذين هم في عليين يشهدون، ويحضرون ذلك المكتوب وذلك الكتاب إذا صعد به إلى عليين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾. لمَّا عظم كتابهم عظم منزلتهم بأنَّهم في النعيم، ثم بين ذلك النعيم بأمورٍ ثلاثة: أولها: بقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾.

قال القفَّال: «الأرائك»: الأسِرَّة في الحجال، ولا تُسمَّى أريكة فيما زعموا إلا إذا كان كذلك.

وعن الحسنِ ـ رضي الله عنه ـ كُنَّا لا ندري ما الأريكةُ، حتى لقينا رجلٌ من أهل «اليمن»، أخبرنا أن الأريكة عندهم ذلك[٥]. وقوله: «يَنْظُرون» قيل: إلى أنواع نعيمهم من الحُور والولدان، وأنواع الأطعمة والأشربة والملابس والمراكب وغيرها.

وقال مقاتلٌ: ينظرون إلى عدوِّهم حين يعذبون[٦].

وقيل: إذا اشتهوا شيئاً نظروا إليه، فيحضرهم ذلك الشيء في الحال وقيل: يحمل على الكل.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٧٢).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٩٣) عن قتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٤١) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٩٤) عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٤١) وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم وابن المنذر.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» ١٩/ ١٧٢. (٥) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣١/ ٨٩).

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٧٣).

قال ابن الخطيب[١]: إنهم ينظرون إلى ربهم بدليل قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ﴾. العامة: على إسناد الفعل إلى المخاطب، أي: تعرف أنت يا محمد، أو كل من صح منه المعرفة.

وقرأ أبو جعفر وابن أبي إسحاق وشيبة وطلحة ويعقوب والزعفراني[٢]: «تُعْرَفُ» مبنياً للمفعول، و «نضرةُ»: بالرفع على قيامها مقام الفاعل.

وعلي بن زيد[٣]: كذلك إلا أنه بالياء أسفل؛ لأن التأنيث مجازي.

والمعنى: إذا رأيتهم عرفت أنَّهم من أهل النَّعيم مما ترى في وجوههم من النور والحسن والبياض.

وقال الحسن: النضرةُ في الوجه والسُّرور في القلب[٤].

قوله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾.

قال الليث: الرَّحيقُ: الخمر[٥].

وقيل: الخمر الصافية الطيبة.

وقال مقاتل: الخمر البيضاء[٦].

وقال ابنُ الخطيب[٧]: لعله الخمر الموصوف بقوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾.

قوله: «مختوم»، أي: ختم ومنع أن تمسَّهُ يد إلى أن يفكّ ختم الأبرار.

قال القفال[٨]: يحتملُ أن يكون ختم عليه تكريماً له بالصيانة على ما جرت به العادة من ختم ما يكرم ويصان، وهناك خمر أخرى تجري أنهاراً، لقوله: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: ١٥]، إلاَّ أنَّ هذا المختوم أشرف من الجاري.

وقال أبو عبيدة والمبرد والزجاج: «المختوم»: الذي له ختام أي: عاقبة.

وروى عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: المختوم أشرف من الجاري الممزوج ختامه، أي: آخر طعمه وعاقبته مسكٌ، وختم كلِّ شيء: الفراغ منه، ومنه يقال: ختمتُ

---

(١) ينظر الفخر الرازي ٣١/ ٨٩.
(٢) ينظر المحرر الوجيز ٥/ ٤٥٣، والبحر المحيط ٨/ ٤٣٤، والدر المصون ٦/ ٤٩٤.
(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٣٤، والدر المصون ٦/ ٤٩٤.
(٤) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٤٦١).
(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٩٦ ـ ٤٩٧) عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وقتادة وابن زيد.
(٦) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٤٦١). (٧) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٩٠.
(٨) ينظر: السابق.

القرآن، والأعمال بخواتيمها[1]، **ويؤيده قراءة علي[2] بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ** واختاره الكسائي، فإنه قرأ: «خاتمهُ مِسْك» أي: آخره، كما يقال: خاتمُ النبيين، ومعناه واحد.

قال الفراء: وهما متقاربان في المعنى، إلا أن الخاتم: الاسم، والخِتَام: المصدر، كقولهم: هو كريم الطِّباع والطَّابع، والخِتام والخَاتم.

وقال قتادة: يمزج لهم بالكافور، ويختم لهم بالمسك[3].

وقال مجاهد: مختوم، أي: مطين[4].

قوله: ﴿خِتَٰمُهُۥ﴾ أي: طينه مسك.

قال ابن زيد: ختامه عند الله مسك، وختام الدنيا طين.

وقرأ الكسائي[5]: «خَاتَمهُ» بفتح التاء بعد الألف.

والباقون: بتقديمها على الألف.

فوجه قراءة الكسائي: أنه جعله اسماً لما يختم به الكأس، بدليل قوله: «مَخْتُوم». ثم بين الخاتم ما هو، فروي عن الكسائي أيضاً: كسر التاء، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، والمعنى: خاتم رائحته مسك ووجه قراءة الجماعة: أن الختام هو الطين الذي يختم به الشيء، فجعل بدله المسك.

قال الشاعر: [الوافر]

٥١٣٠ ـ كَأَنَّ مُشعْشَعاً مِنْ خَمْرِ بُصْرَى ... نَمَتْهُ البُخْتُ مَشْدُودَ الخِتَامِ[6]

وقيل: خلطه ومزاجه.

وقيل: خاتمته أي: مقطع شربه يجد الإنسان فيه ريح المسك.

قيل: سُمِّي المسك مسْكاً؛ لأن الغزال يُمسكه في سُرَّته، والمساكةُ: البُخْلُ وحبس

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (١٩/ ١٧٤).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٥٣، والبحر المحيط ٨/ ٤٣٤، والدر المصون ٦/ ٤٩٤.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٩٨) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٤٣) وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد.

(٤) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٤٦١).

(٥) ينظر: الحجة للقراء السبعة ٦/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧، وإعراب القراءات ٢/ ٤٥١، وحجة القراءات ٧٥٤.

(٦) يروى البيت برواية:

فَبِتْنَ جَنَابَتَيَّ مُصَوَّعَاتٍ ... وَبِتُّ أَفُضُّ أَغْلاقَ الخِتَامِ

ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٤٨، واللسان (ختم)، (غلق)، والقرطبي ١٩/ ٩٧٤، والبحر ٨/ ٤٣٤، والدر المصون ٦/ ٤٩٤.

المال، يقال: رجل مَسِيكٌ لبخله، والمَسْكُ: الجلد لإمساكه ما فيه، والمَاسِكَة: التي أخطأت خافضتُها فأصابت من مسكها غير موضع الختان، والمَسَكة: سوار من قرن أو عاجٍ لتماسكه والمسكة ـ بضم الميم ـ: الشَّيء القليل، يقال: ما له مُسْكَة، أي: عقل.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾. التَّنافسُ: المُغالبة في الشيء النفيس، يقال: نفستُه به نفاسة، أي: بخلت به، وأصله من النَّفْسِ لعزتها.

قال الواحديّ: نفستُ الشيء أنفسُه نفاسةً: بَخِلْتُ به.

وقال البغوي[١]: وأصله من الشيء النَّفِيس أي: تحرص عليه نفوس النَّاس، ويريده كل واحد لنفسه، وينفس به على غيره أي: يضنّ، والمعنى: وفي ذلك فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله تعالى.

وقال مجاهد: فليعمل العاملون[٢]، كقوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١].

وقال عطاء: فليستبق المستبقون[٣].

وقال مقاتلُ بن سليمان: فليتنازع المتنازعون[٤].

قوله: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾، التسنيم: علمٌ لعينٍ في الجنَّة.

فصل في المراد بالتسنيم

قال الزمخشريُّ[٥]: «التسنيم» علمٌ لعين بعينها، سميت بالتسنيم الذي هو مصدر سنَّمه، إذا رفعه.

قال شهابُ الدِّين[٦]: وفيه نظر؛ لأنه كان من حقه أن يمنع الصَّرف للعلمية والتأنيث، وإن كان مجازياً، ولا يقدح في ذلك كونه مذكر الأصل؛ لأن العبرة بحال العلمية، ألا ترى أنهم نصّوا على أنّه لو سمي بـ «زيد» امرأة وجب المنع، وإن كان في «هِنْد» وجهان، اللهم إلا أن يقول: ذهب بها مذهب النهر، ونحوه، فيكون كـ «واسط، ودانق».

فصل في معنى التسنيم

التسنيم: شرابٌ ينصبُّ عليهم من علوٍّ في غرفهم ومنازلهم.

وقيل: يجري في الهواء منسماً فينصبُّ في أوانيهم فيملأها.

---

(١) ينظر: معالم التنزيل (٤/ ٤٦١).

(٢) ينظر المصدر السابق وذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٢٣١).

(٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) ينظر المصدر السابق.

(٥) ينظر: الكشاف (٤/ ٧٢٣).

(٦) ينظر: الدر المصون ٦/ ٤٩٤.

قال قتادة: وأصل الكلمة من العلو، ويقال للشيء المرتفع سنامٌ، ومنه سنامُ البعيرِ، وتسنمتُ الحائط: إذا علوته.

وقال الضحاك: هو شراب اسمه: تسنيمٌ، وهو من أشرف الشراب(١).

قال ابنُ مسعودٍ وابن عباسٍ: هو خالص للمقربين يشربونها، ويمزج لسائر أهل الجنَّة، وهو قوله تعالى: «ومزاجه من تسنيم، عيناً يشربُ بها المُقرَّبُونَ»(٢).

وعن ابن عباس: أنَّه سُئلَ عن قوله تعالى: ﴿مِن تَسۡنِيمٍ﴾ قال: هذا ما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٌ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٍ﴾(٣) [السجدة: ١٧].

قوله: ﴿عَيۡنًا﴾. فيه أوجه:

أحدها: أنَّه حالٌ.

قال الزجاج: يعني من تسنيم، لأنه علم لشيء بعينه، إلا أنه يشكل بكونه جامداً.

الثاني: أنه منصوب على المدح. قاله الزمخشري(٤).

الثالث: أنَّها منصوبة بـ «يُسْقونَ» مقدراً. قاله الأخفش.

وقوله: ﴿يَشۡرَبُ بِهَا﴾ أي: منها، والباء زائدة، أو ضمير «يشرب» بمعنى يروى، وتقدم هذا مشبعاً في «هل أتى».

قال البغوي(٥): التقدير: يشربها المقربون صرفاً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾، أي: أشركوا، يعني: كفَّار قريش أبا جهل، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل من مترفي «مكة».

﴿كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عمَّار، وخبَّاب، وصهيب، وبلال وأصحابهم من فقراء المؤمنين «يَضْحكُونَ» استهزاء بهم.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: متعلِّق بـ «يضحكون» أي: من أجلهم، وقدم لأجل الفواصل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ﴾ يعني: المؤمنين بالكفار «يَتغَامَزُونَ»، والغَمْز: الإشارة بالجفنِ والحاجبِ، أي: يشيرون إليهم بالأعين استهزاء.

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٦/ ٤٦٢).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٩٩ ـ ٥٠٠) عن ابن مسعود ومالك بن الحارث ومسروق وغيرهم. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٤٤) عن ابن مسعود وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة وابن المبارك وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وذكره عن ابن عباس وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٤٤) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) ينظر الكشاف ٤/ ٧٢٣. (٥) ينظر: معالم التنزيل ٤/ ٤٦٢.

وقيل: الغمزُ بمعنى: العيب يقال: غمزهُ، أي: عابه، وما في فلان غميزٌ، أي: ما يعابُ به.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ﴾ يعني: الكفار ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ معجبين بما هم فيه، يتفكَّهُونَ تذكرهم بالسُّوءِ.

وقرأ حفص: «فكهين» دون ألف.

والباقون[1]: بها.

فقيل: هما بمعنى، وقيل: «فكهين» أشرين، و «فاكهين» من التفكه.

وقيل: «فكهين» فرحين و «فاكهين» ناعمين.

وقيل: «فاكهين» أصحاب فاكهة ومزاح.

قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ﴾. يجوز أن يكون المرفوع للكفَّار، والمنصوب للمؤمنين، أي: أن الكفار إذا رأوا أصحاب النبي ﷺ قالوا: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ أي: يأتون محمداً المختار، يرون أنهم على شيء، أي: هم على ضلال في تركهم التنعم الحاضر بسبب شراب لا يدرى هل له وجود أم لا؟ ويجوز العكس، وكذلك الضميران في ﴿أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾ يعني: المشركين عليهم، والمعنى: ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ﴾ يعني المشركين «عليهم» يعني المؤمنين «حافظين» أعمالهم، لم يوكلوا بحفظ أعمالهم.

قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. «فاليوم»: منصوب بـ «يَضْحكُون»، ولا يضرّ تقديمه على المبتدأ، لأنه لو تقدم هنا العامل لجاز، إذ لا لبس بخلاف «زيد قائم في الدار» لا يجوز «في الدار زيد قائم».

ومعنى، «فاليوم» أي: في الآخرة يضحك المؤمنون من الكافرين، وفي سبب هذا الضحك وجوه:

منها: أنَّ الكفار كانوا يضحكون على المؤمنين في الدنيا، بسبب ما هم فيه من التضرر والبؤس، وفي الآخرة يضحك المؤمنون على الكافرين، بسبب ما هم فيه من أنواع العذاب والبلاء.

ومنها: أنَّهم علموا أنهم كانوا في الدنيا على غير شيء، وأنهم باعوا الباقي بالفاني.

ومنها: أنَّهم يرون أنفسهم أنهم قد فازوا بالنعيم المقيم، ونالوا بالتعب اليسير راحة الأبد.

ومنها: أنَّهم دخلوا الجنة، فأجلسُوا على الأرائكِ ينظرون إلى الكفَّار كيف يعذبون

---

(١) ينظر: السبعة ٦٧٦، والحجة ٦/ ٣٨٨، وإعراب القراءات ٢/ ٤٥٢، وحجة القراءات ٧٥٥.

في النار، ويرفعون أصواتهم بالويل والثبور، ويلعن بعضهم بعضاً.

ومنها: قال أبو صالح: يقال لأهل النار ـ وهم فيها ـ اخرجوا، ويفتحُ لهم أبوابها، فإذا رأوها وقد فتحت أبوابها أقبلوا إليها يريدون الخروج، والمؤمنون ينظرون إليهم، فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم، فذلك سبب الضحك.

قوله: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾: الجار متعلقٌ بـ «ينظرون»، و «ينظرون»: حال من «يضحكون»، أي: يضحكون ناظرين إليهم، وإلى ما هم فيه من الهوان.

قوله: ﴿هَلْ ثُوِّبَ﴾. يجوز أن تكون الجملة الاستفهامية معلقة للنظر قبلها، فتكون في محل نصب بعد إسقاط الخافض بـ «ينظرون».

وقيل: استئناف لا موضع له، ويجوز أن يكون على إضمار القول، أي: يقولون: هل ثوب، ومعنى «ثُوِّب» أي: جُوزِيَ، يقال: ثوَّبهُ وأثابهُ.

قال: [الطويل]

٥١٣١ ـ سَأجزِيكَ أو يَجْزيكَ عنِّي مُثوِّبٌ وحَسْبُكَ أنْ يُثْنَى عليْكَ وتُحْمَدَا[1]

ويدغم أبو عمرو والكسائي وحمزة[2]: لام «هل» في الثناء.

قوله: «ما كانوا» فيه حذف، أي: ثواب ما كانوا، أو موصول اسمي أو حرفي.

قال المبرد: «ثوب» فعل من الثواب، وهو ما ثوب، يرجع على فاعله جزاء ما عمله من خير، أو شر، والثَّوابُ: يستعمل في المكافأة بالشَّر.

وأنشد أبو عبيدة: [الوافر]

٥١٣٢ ـ ألاَ أبْلِغْ أبَا حَسنٍ رَسُولاً فَمَا لَكَ لا يَجِيءُ إلَى الثَّوابِ[3]

وثوَّب وأثاب بمعنى واحد، والأولى أن يحمل على سبيل التَّهكُّم، كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، كأنه ـ تعالى ـ يقول للمؤمنين: هل جازينا هؤلاء الكفار على استهزائهم بطريقتكم كما جازيناكم على أعمالكم الصالحة، فيكون هذا القول زائداً في سرورهم والله أعلم.

روى الثعلبي عن أبيّ بن كعبٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ سُورَة «المُطَفِّفين» سقاهُ اللَّهُ من الرَّحيقِ المختُومِ يوْمَ القِيَامةِ»[4].

---

(١) البيت لأوس بن حجر، ينظر الكشاف ٤/ ٧٢٤، والبحر ٨/ ٤٣٥، والدر المصون ٦/ ٤٩٥.

(٢) ينظر: الحجة ٦/ ٤٨٩، وإعراب القراءات ٢/ ٤٥٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٥٥، وقال ابن عطية: قال سيبويه: وذلك حسن وإن كان دون إدغام في الراء لتقاربهما في المخرج.

(٣) ينظر الفخر الرازي ٣١/ ١٠٣.

(٤) تقدم تخريجه.

سورة الانشقاق

مكيَّة، وهي ثلاثٌ وعشرون آية، ومائة وسبع كلمات، وأربعمائة وثلاثون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥)﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ كقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١] في إضمار الفعل وعدمه، وفي «إذا» هذه احتمالات:

أحدها: أن تكون شرطية.

والثاني: أن تكون غير شرطية.

فعلى الأول في جوابها خمسة أوجه:

أحدها: أنها «أذنت» [الانشقاق: ٢، ٥] والواو مزيدة.

قال ابن الأنباري: وهذا غلط؛ لأن العرب لا تقحم الواو إلا مع «حتى إذا» كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]، أو مع «لمَّا» كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ [الصافات: ١٠٣، ١٠٤]، أي: ناديناه، والواو لا تقحم مع غير هذين.

الثاني: أنه «فمُلاقيهِ» أي فأنت ملاقيه وإليه ذهب الأخفش.

والثالث: أنَّه «يا أيُّها الإنسانُ» على حذف الفاء.

والرابع: أنَّهُ «يا أيُّهَا الإنسانُ» أيضاً، ولكن على إضمار القول، أي: يقال: «يا أيُّهَا الإنسَانُ».

والخامس: أنَّه مقدَّرٌ، تقديره: بعثتم.

وقيل: تقديره: لاقى كل إنسان كدحه وهو قوله: «فمُلاقِيهِ» ويكون قوله: «يَا أيُّهَا الإنسانُ» معترض، كقولك: إذا كان كذا وكذا ـ يا أيها الإنسان ـ ترى عند ذلك ما عملت من خير أو شر.

ونقل القرطبي[١] عن المبردِ، أنَّه قال: فيه تقديمٌ وتأخير، أي: يا أيُّها الإنسان إنَّك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه إذا السماء انشقت.

وقيل: هو ما صرَّح به في سورتي «التَّكوير» و «الانفطار»، وهو قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ [الانفطار: ٥]، قاله الزمخشري[٢]، وهو حسنٌ.

ونقل ابن الخطيب[٣] عن الكسائيِّ، أنه قال: إنَّ الجواب هو قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾ [الانشقاق: ٧]، واعترض في الكلام على قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ [الانشقاق: ٦].

والمعنى: إذا انشقت السماء وكان كذا وكذا، فمن أوتي كتابه بيمنه، فهو كذا ومن أوتي كتابه وراء ظهره، فهو كذا، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ﴾ [البقرة: ٣٨].

قال النحاسُ: وهذا أصحُّ ما قيل فيه وأحسنه.

وعلى الاحتمال الثاني: فيه وجهان:

أحدهما: أنَّها منصوبة مفعولاً بها بإضمار «واذْكُرْ».

والثاني: أنها مبتدأ، وخبرها «إذَا» الثانية، و «الواو» مزيدة، تقديره: وقت انشقاق السماء وقت مدّ الأرض، أي: يقع الأمران في وقت. قاله الأخفش أيضاً.

والعامل فيها إذا كانت ظرفاً ـ عند الجمهور ـ جوابها، إمَّا الملفوظ به، وإمَّا المقدَّر.

وقال مكيٌّ: وقيل: العامل «انشقت».

وقال ابن عطية[٤]: قال بعض النحاة: العامل «انشقت» وأبى ذلك كثير من أئمتهم؛ لأن «إذا» مضافة إلى «انشقت»، ومن يجيز ذلك تضعف عنده الإضافة، ويقوى معنى الجزاء.

وقرأ العامة: «انشقتْ» بتاء التأنيث ساكنة، وكذلك ما بعده.

وقرأ أبو عمرو في رواية[٥] **عبيد بن عقيل**: بإشمام الكسر في الوقف خاصة، وفي الوصل خاصة بالسكون المحض.

قال أبو الفضلِ: وهذا من التغييرات التي تلحق الروي في القوافي، وفي هذا

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٧٨. (٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٢٥.
(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣٤١/ ٩٥. (٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٥٧.
(٥) ينظر: إعراب القراءات ٢/ ٤٥٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٥٦، والبحر المحيط ٨/ ٤٣٧، والدر المصون ٦/ ٤٩٧.

الإشمام بيان أن هذه «التاء» من علامة تأنيث الفعل للإناث، وليست مما ينقلب في الأسماء، فصار ذلك فارقاً بين الاسم والفعل، فيمن وقف على باقي الأسماء بالتاء، وذلك لغة طيّىء، وقد حمل في المصاحف بعض التاءات على ذلك.

وقال ابن عطية[١]: قال بعض النحاة: وقرأ أبو عمرو «انشقت» يقف على القاف، كأنه يشمها شيئاً من الجر، وكذلك في أخواتها.

قال أبو حاتم: سمعت أعرابياً فصيحاً في بلاد قيس يكسر هذه التاءات.

وقال ابن خالويه[٢]: «انشقّت» ـ بكسر التاء ـ عبيد عن أبي عمرو.

قال شهاب الدين[٣]: كأنه يريد إشمام الكسر، وأنّه في الوقف دون الوصل؛ لأنه مطلق، وغيره مقيد، والمقيد يقضي على المطلق.

وقال أبو حيَّان[٤]: وذلك أن الفواصل تَجْرِي مَجْرَى القوافي، فكما أن هذه التاء تكسر في القوافي تكسر في الفواصل؛ ومثال كسرها في القوافي؛ قول كثير عزّة: [الطويل]

٥١٣٣ ـ ومَا أنَا بالدَّاعِي لعَزَّةَ بالرَّدَى ... ولا شَامِتٍ إنْ نَعْلُ عَزَّةَ زَلَّتِ[٥]

وكذلك في باقي القصيدة، وإجراء الفواصل في الوقف مُجْرَى القوافي مهيع معروف كقوله تعالى: ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾، والرسولا، في سورة «الأحزاب» [١٠ و٦٦]، وحمل الوصل على حالة الوقف موجود في الفواصل أيضاً.

فصل في المراد بانشقاق السماء

انشقاق السماء من علامات القيامة، وقد تقدَّم شرحه.

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ أنَّها تنشق من المجرَّة، وقال: المجرَّة: باب السماء[٦].

قوله: ﴿وَأَذِنَتْ﴾. عطف على «انشقت»، وقد تقدّم أنَّه جواب على زيادة الواو.

ومعنى «وأذنت»: أي: استمعت أمره، يقال: أذنت لك: استمعت لك، وفي الحديث: «مَا أذِنَ اللَّهُ لِشيءٍ كأذنِه لِنبيٍّ يَتغنَّى بالقُرْآنِ»[٧].

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٥٦.
(٢) إعراب القراءات السبع ٢/ ٤٥٤.
(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٤٩٧.
(٤) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٣٧.
(٥) ينظر ديوان كُثَيِّر عَزَّةَ (٤١)، والبحر المحيط ٨/ ٤٣٨، والدر المصون ٦/ ٤٩٧.
(٦) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٤٧) وعزاه إلى ابن أبي حاتم عن علي.
(٧) أخرجه البخاري ١٣/ ٥١٨ في التوحيد: باب: قول النبي ﷺ الماهر بالقرآن (٢٥٤٤)، ومسلم ١/ ٥٤٥، في صلاة المسافرين: باب: استحباب تحسين الصوت بالقرآن (٢٣٣/ ٧٩٢).

وأنشد أبو عبيدة والمبرد والزَّجاج قول قعنب: [البسيط]

٥١٣٤ ـ صُمٌّ إذَا سَمِعُوا خَيْراً ذُكِرْتُ بِهِ وإنْ ذُكِـرتُ بِـسُـوءٍ عِـنْـدهُـمْ أذِنُـوا(١)

وقال آخر: [البسيط]

٥١٣٥ ـ إن يأذنُوا رِيبَةً طَارُوا بِهَا فَرَحاً ومَـا هُـمُ أذِنُـوا مِـن صـالِـحٍ دَفـنُـوا(٢)

وقال الجحاف بن حكيم: [الطويل]

٥١٣٦ ـ أذِنْتُ لَكُمْ لمَّا سَمِعْتُ هَرِيرَكُمْ ....(٣)

ومعنى الاستعارة ـ هاهنا ـ أنَّه لم يوجد في جِرْمِ السماء ما يمنع من تأثير قدرة الله تعالى في شقها، وتفريق أجزائها، فكأنَّها في قبول ذلكَ التأثير كالعبدِ الطائع الذي إذا ورد عليه الأمر من جهة المالك أنصت، وأذعن، ولم يمتنع كقوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وذلك يدل على نفوذ القدرة في الإيجاد والإبداع من غير ممانعة أصلاً. قاله ابن الخطيب(٤).

قوله: «وحُقَّتْ». الفاعل في الأصل هو الله تعالى، أي: حقَّ الله عليها ذلك، أي: بسمعهِ وطاعته، يقال: هو حقيقٌ بكذا ومحقوق، والمعنى: وحقَّ لها أن تفعل.

قال الضحاكُ: «حَقَّتْ» أطاعت وحقَّ لها أن تُطيعَ(٥).

وقال ابن الخطيب(٦): هو من قولك: محقوقٌ بكذا وحقيقٌ به، وهي حقيقة بأن تنقاد، ولا تمتنع.

قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ مد الأديم.

وقيل: «مُدَّتْ» بمعنى: أمدت وزيد في سعتها وقال مقاتلٌ رضي الله عنه: سُويت كمدِّ الأديمِ، فلا يبقى فيها بناء ولا جبل، كقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾(٧) [طه: ١٠] الآية.

---

(١) قائله قعنب ابن أم صاحب من شعراء عصر بني أمية ينظر ديوان الحماسة للتبريزي ٢/ ١٨٧، وسمط اللآليء ١/ ٣٦٢، والاقتضاب في شرح أدب الكتاب: ص ٢٩٢، ومجاز القرآن ٢/ ٢٩١، ومعاني القرآن وإعرابه ٥/ ٣٠٣، والطبري ٣٠/ ٧٢، واللسان (أذن).

(٢) تقدم.

(٣) صدر بيت وعجزه:

.... فَأَسْمَعْتُمونِي بالخَنَا والفَواحِش

ينظر الكشاف ٤/ ٧٢٥، والدر المصون ٦/ ٤٩٧.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٩٤.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٠٥) عن الضحاك ومثله عن السدي ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٤٧) وعزاه إلى ابن المنذر.

(٦) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٩٤.

(٧) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٤٦٣).

قوله: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾. أي: أخرجت ما فيها من الموتى والكنوز، لقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢]، «وتخلَّت» أي: خليتْ منها، ولم يبق في بطنها شيء، وذلك يؤذنُ بعظم الأمر كما تلقي الحامل ما في بطنها عند الشدة، ووصفت الأرض بذلك توسعاً وإلا فالتحقيق أنَّ الله تبارك وتعالى هو المخرج لتلك الأشياءِ من بطن الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾. تقدَّم تفسيره، وهذا ليس بتكرار؛ لأن الأوَّل في السماء وهذا في الأرض.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾.

قيل: المراد جنس الإنسان(١)، كقولك: يا أيها الرجل، فكان خطاباً خص به كل واحد من الناس.

قال القفال(٢): وهو أبلغ من العموم؛ لأنه قائم مقام التنصيص على مخاطبة كل واحد منهم على التعيين، بخلاف اللفظ العام.

وقيل: المراد منه رجل بعينه، فقيل: هو محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، والمعنى: أنك تكدح في إبلاغ رسالات الله ـ تعالى ـ وإرشاد عباده، وتحمل الضرر من الكفَّار، فأبشر فإنك تلقى الله بهذا العمل.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: هو أبيّ بن خلفٍ، وكدحه: هو جده واجتهاده في طلب الدنيا، وإيذاء الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ والإصرار على الكفر(٣).

فصل في المراد بالكدح

الكَدْحُ: قال الزمخشريُّ(٤): جَهْدُ النفس، والكدْم فيه حتى يؤثر فيها، ومنه كدح جلدهُ إذا خدشه، ومعنى «كادح» أي: جاهد إلى لقاء ربك وهو الموت. انتهى. وقال ابن نفيلٍ: [الطويل]

٥١٣٧ ـ ومَا الدَّهْرُ إلاَّ تَارتَانِ فَمنْهُمَا أمُوتُ، وأخرَى أبْتَغِي العَيْشَ أكْدَحُ(٥)

---

(١) في أ الناس.
(٢) الفخر الرازي ٣١/٩٦.
(٣) ينظر المصدر السابق عن ابن عباس.
(٤) الكشاف ٤/٧٢٦.
(٥) تقدم.

وقال آخر: [الكامل]

٥١٣٨ ـ ومَضَتْ بَشاشَةُ كُلِّ عَيْشٍ صالحٍ وبَقِيتُ أكْدَحُ لِلْحياةِ وأنْصَبُ[(١)]

وقال الراغب: وقد يستعمل الكدح دون الكدم بالأسنان.

وقال الخليل: الكدحُ دون الكدم.

فصل في معنى الآية

معنى «كادحٌ إلى ربِّك» أي: ساع إليه في عملك.

والكدحُ: عمل الإنسان وجهده في الخير والشر.

قال قتادةُ والكلبيُّ والضحاكُ: عامل لربك عملاً[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: إلى لقاء ربك، وهو الموت، أي: هذا الكدح استمر إلى هذا الزمن.

وقال القفال[(٣)]: تقديره: أنك كادح في دنياك كدحاً تصير به إلى ربك.

قوله: «فمُلاقِيهِ»: يجوز أن يكون عطفاً على [«إنك][(٤)] كادح»، والسبب فيه ظاهر، ويجوز أن يكُون خبر مبتدأ مضمرٍ، أي: فأنت ملاقيه، وقد تقدم أنه يجوز أن يكون جواباً للشرط.

وقال ابن عطية[(٥)]: فالفاء على هذا عاطفة جملة الكلام على التي قبلها، والتقدير: فأنت ملاقيه. يعني بقوله: «على هذا» أي: على عود الضَّمير على كدحكَ.

قال أبو حيَّان[(٦)]: «ولا يتعين ما قاله، بل يجوز أن يكون من عطف المفردات».

والضميرُ في «فملاقيه»: إمَّا للربِّ، أي: ملاقي حكمه لا مفر لك منه. قاله الزجاج.

وإمَّا لـ «الكدح» إلا أن الكدحَ عمل، وهو عرض لا يبقى، فملاقاته ممتنعة، فالمراد: جزاءُ كدحكَ.

وقال ابنُ الخطيب[(٧)]: المراد: ملاقاة الكتاب الذي فيه بيان تلك الأعمال، ويتأكد هذا بقوله بعده: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾.

---

(١) ينظر القرطبي ١٩/ ٢٧٨، والبحر ٨/ ٤٣٦، والدر المصون ٦/ ٤٩٨.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٠٧) عن قتادة وابن زيد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٤٧) وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٩٦.

(٤) سقط من أ.

(٥) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٥٧.

(٦) البحر المحيط ٨/ ٤٣٩.

(٧) الفخر الرازي ٣١/ ٩٦.

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾، أي: ديوان أعماله بيمينه.

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾، «سوف» من الله واجب، كقول القائل: اتبعني فسوف تجد خيراً، فإنه لا يريد الشك، وإنما يريد تحقيق الكلام، والحساب اليسير: هو عرض أعماله، فيثاب على الطاعة، ويتجاوزُ عن المعصيَّةِ، ولا يقال: لم فعلت هذا، ولا يطالبُ بالحُجَّةِ عليه.

قال ﷺ: «مَنْ حُوسبَ عُذِّبَ»، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أوَ ليْسَ يقُولُ تعالَى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾، فقال: «إنَّما ذلِكَ العرضُ، ولكِنْ من نُوقِشَ الحسابَ عُذِّب»[١].

قوله تعالى: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ في الجنة من الحُورِ العينِ، والآدميَّات والذريَّات إذا كانوا مؤمنين [«مَسْرُوراً» أي: مُغْتَبِطاً قرير العين][٢].

قال ابنُ الخطيب[٣]: فإن قيل: إنَّ المحاسبة تكون بين اثنين، وليس في القيامة لأحد مطالبة قبل ربِّه فيحاسبه؟.

فالجواب: إن العبد يقول: إلهي، فعلتُ الطاعة الفلانيَّة، والربُّ ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: فعلتَ المعصيَّة الفُلانيَّة، فكان ذلك من الرب ـ سبحانه وتعالى ـ ومن العبد محاسبة، والدليل أنه ـ تعالى ـ خصَّ الكفَّار بأنه لا يكلمهم، فدل ذلك على أنه يكلم المطيعين، فتلك المكالمة محاسبة.

قوله: «مَسْرُوراً»: حال من فاعل «يَنْقلبُ».

وقرأ زيد[٤] **بن علي**: «يُقْلَبُ» مبنياً للمفعول من «قلبه» ثلاثياً.

قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾.

قيل: نزلت في الأسودِ بن عبدِ الأسودِ. قاله ابنُ عباسٍ. وقيل: عامة.

وقال الكلبيُّ: لأن يمينه مغلولة إلى عنقه، ويجعل يده اليسرى ممدودة وراء ظهره[٥].

وقيل: يحوَّلُ وجهه إلى قفاه، فيقرأ كتابه كذلك.

وقيل: يُؤتَى كتابه بشماله من ورائه؛ لأنه إذا حاول أخذه بيمينه كالمؤمنين مُنِعَ من ذلك، وأوتي كتابه بشماله.

---

(١) تقدم. (٢) سقط من أ.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٩٧.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٣٩، والدر المصون ٦/ ٤٩٨.

(٥) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣١/ ٩١) عن الكلبي.

[فإن قيل: أليس أنه تعالى قال في سورة الحاقة: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾][١] [الحاقة: ٢٥]، فكيف قال هنا: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾؟.

فالجواب: أنَّه يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره.

قوله: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾، أي: ينادي بالويل، والثبور: الهلاك إذا قرأ كتابه يقول: يا ويلاه يا ثُبُورَاهُ، كقوله تعالى: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣].

قوله: ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾، قرأ أبو عمرو وحمزة وعاصم: بفتح الياء وسكون الصاد وتخفيف اللام.

والباقون[٢]: بضم الياء وفتح اللام والتثقيل، وقد تقدم تخريج القراءتين في سورة النساء عند قوله تعالى: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [الآية: ١٠].

وقرأ أبو الأشهب ونافع وعاصمٌ وأبو عمرو[٣] **في رواية عنهم**: «يُصْلَى» بضم الياء وسكون الصاد من أصلاه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾.

قال القفال[٤]: مُنعَّماً مستريحاً من التعب بأداء العبادات، واحتمال مشقة الفرائض من الصلاة والجهاد، مقدماً على المعاصي، آمناً من الحساب والعذاب والعقاب، لا يخاف الله ـ تعالى ـ ولا يرجوه، فأبدله الله بذلك السرور غماً باقياً لا ينقطع.

وقيل: إن قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٣١]، أي: متنعمين في الدنيا، معجبين بما هم عليه من الكفر بالله، والتكذيب بالبعث، يضحك ممن آمن بالله وصدَّق بالحساب، كما قال ﷺ: «الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤمن وجنَّةُ الكَافِرِ»[٥].

قوله: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾. معنى «يَحُور» أي: يرجع، يقال: حَارَ يَحُورُ حَوْراً؛ قال لبيدٌ: [الطويل]

٥١٣٩ ـ ومَا المَرْءُ إلاَّ كالشِّهابِ وضَوْئِهِ ... يَحُورُ رَمَاداً بَعْدَ إذْ هُوَ سَاطِعُ[٦]

ويستعمل بمعنى: «صار»، فيرفع الاسم وينصب الخبر عند بعضهم مستدلاً بهذا البيت، وموضع نصب «رماداً» على الحال.

---

(١) سقط من ب.

(٢) ينظر: السبعة ٦٧٧، والحجة ٦/ ٣٩٠، وإعراب القراءات ٢/ ٤٥٥، وحجة القراءات ٧٥٥.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٥٨، والبحر المحيط ٨/ ٤٣٩، والدر المصون ٦/ ٤٩٨.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٩٨.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) تقدم.

وقال الراغب: «الحَوْرُ: التردد في الأمر، ومنه: «نعوذ بالله من الحور بعد الكور»، أي: من التردد في الأمر بعد المضي فيه، ومحاورة الكلام: مراجعته، والمحور: العود الذي تجري فيه البكرة لترددها عليه، والمحار: المرجع والمصير».

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما كنت أدري ما معنى: «حَوْر» حتى سمعت أعرابياً يقول لابنته: «حُورِي» أي: ارجعي[١].

وقال عكرمة وداود بن أبي هند: «يَحُور»: كلمة بالحبشية، ومعناها: يرجع[٢].

قال القرطبي: «ويجوز أن تتفق الكلمتان، فإنهما كلمة اشتقاق، ومنه: الخبز الحُوارى، لأنه يرجع إلى البياض».

والحُور أيضاً: الهلاك.

قال الراجز: [الرجز]

٥١٤٠ ـ فِي بِئْرِ لا حُورٍ سَرَى ولا شَعَرْ[٣]

وقوله تعالى: ﴿أَن لَّن يَحُورَ﴾: «أن لن» هذه «أن» المخففة كالتي في أوَّل سورة القيامة، وهي سادَّة مسد المفعولين، أو أحدهما على الخلاف.

وقوله: «بَلَى» جواب للنفي في «لن»، و «أن»: جواب قسم مقدر، والمعنى: إنه ظن أن لن يرجع إلينا ولن يبعث، ثم قال: «بَلَى» أي: ليس كما ظن بلى يحور إلينا، أي: يبعث.

﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ [قال الكلبي: بصيراً به من يوم خلقه إلى أن يبعثه.

وقال عطاء: بصيراً][٤] بما سبق عليه في أمِّ الكتاب من الشقاوة.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾

قوله: «فلا أقسم بالشفق» «لا»: صلة، «بالشَّفقِ» أي: بالحمرة التي تكون عند غروب الشمس حتى تأتي صلاة العشاء الآخرة.

---

(١) ينظر تفسير القرطبي (١٩/ ١٨٠).

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٤٨) عن عكرمة وعزاه إلى عبد بن حميد.
ومثله عن ابن عباس ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٤٨) وعزاه إلى الطستي في مسائله والطبراني.

(٣) تقدم.

(٤) سقط من ب.

قال الراغب: الشَّفقُ: هو اختلاط ضوء النَّهار بسواد الليل عند غروب الشمس، والإشفاقُ: عناية مختلطة بخوف؛ لأن المُشفق يحب المشفق عليه، ويخاف ما يلحقه، فإذا عُدّي بـ «من» فمعنى الخوف فيه أظهر، وإذا عدي بـ «على» فمعنى العناية فيه أظهر.

وقال الزمخشري[١]: «الشفق» الحُمْرة التي ترى في الغروب بعد سقوط الشمس، وبسقوطه يخرج وقت المغرب، ويدخل وقت العتمة عند عامة العلماء، إلا ما روي عن أبي حنيفة في إحدى الروايتين: أنه البياض. وروى أسد بن عمرو أنه رجع عنه، سمي شفقاً لرقته، ومنه الشفقة على الإنسان، رقة القلب عليه انتهى.

والشَّفَقُ: شفقان، الشَّفق الأحمر، والآخر: الأبيض، والشفقُ والشفقةُ: اسمان للإشفاق؛ وقال الشاعر: [البسيط]

٥١٤١ ـ تَهْوَى حَياتِي وأهْوَى مَوْتَهَا شَفقاً والـمَـوْتُ أكْـرَمُ نَـزَّالٍ عـلـى الـحُـرَمِ[٢]

تقدم اختلاف العلماء في القسم بهذه الأشياء، هل هو قسم بها أو بخالقها؟ وأن المتقدمين ذهبوا إلى أن القسم واقع برب الشفق، وإن كان محذوفاً؛ لأن ذلك معلوم من ورود الحظر بأن يقسم بغير الله تعالى.

واعلم أن الصحيح في الشفق: أنَّه الحمرة؛ لأن أكثر الصحابة، والتابعين، والفقهاء عليه، وشواهد [كلام العرب][٣]، والاشتقاق، والسنة تشهد له.

قال الفراء: «وسمعت بعض العرب يقول: عليه ثوب مصبوغ أحمر كأنه الشفق».

وقال الشاعر: [الرجز]

٥١٤٢ ـ وأحْـمَـرُ الـلَّـوْنِ كـمُـحْـمَـرِّ الـشَّـفَـقْ[٤]

وقال آخر: [البسيط]

٥١٤٣ ـ قُمْ يـا غُـلامُ أعِـنِّـي غَـيْـرَ مُـرتَـبِـكٍ عـلـى الـزَّمـانِ بـكـأسٍ حَـشْـوُهَـا شَـفَـقُ[٥]

ويقال للمغرة: الشَّفقة.

وفي «الصِّحاح»[٦]: الشَّفق بقية ضوء الشمس وحمرتها في أول الليل إلى قرب من العتمة.

وقال الخليل: الشفق: الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة إذا ذهب قيل: غاب الشفق.

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٢٧.
(٢) ينظر القرطبي ١٩/ ١٨١، والبحر ٨/ ٤٣٧ والدر المصون ٦/ ٤٩٩.
(٣) سقط من أ.
(٤) ينظر القرطبي ١٩/ ١٨١.
(٥) ينظر القرطبي ١٩/ ١٨١.
(٦) ينظر الصحاح ٤/ ١٥٠١.

وأصل الكلمة من رقّة الشيء، يقال: شيء شفق، أي: لا تماسك له لرقته، وأشفق عليه أي: رق قلبه عليه، والشفقة: الاسم من الإشفاق، وهو رقة القلب، وكذلك الشفق، فكأن تلك الرقة من ضوء الشمس.

وزعم بعض الحكماء: أن البياض لا يغيب أصلاً.

وقال الخليل: صعدت منارة الإسكندرية، فرمقت البياض، فرأيته يتردد من أفق إلى أفق، ولم أره يغيب.

وقال ابن أبي أويس: رأيته يتمادى إلى طلوع الفجر، وكل ما يتجدّد وقته سقط اعتباره.

وروى النعمانُ بن بشير، قال: أنا أعلمكم بوقت صلاة العشاء الآخرة، كان النبي ﷺ يصليها لسقوط القمر لثالثة(١). وهذا تحديد.

وقال مجاهد: الشفق النهار كله(٢)؛ لأنه عطف عليه ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾، فوجب أن يكون الأول هو النهار، فعلى هذا يكون القسم واقع بالليل والنهار اللذين أحدهما معاش، والثاني: سكن، والشفقُ أيضاً: الرديء من الأشياء، يقال: عطاء مشفق: أي: مقلل؛ قال الكميتُ: [الكامل]

٥١٤٤ ـ مَلِكٌ أغَرُّ مِنَ المُلُوكِ تَحلَّبَتْ لِلسَّائِلينَ يَداهُ غَيْرُ مُشفِّقِ(٣)

قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾، أي: جمع وضم ولف، ومنه: الوسْقُ، وهو الطعام المجتمع الذي يكال أو يوزن، وهو ستُّون صاعاً، ثم صار اسماً، واستوسقت الإبل إذا اجتمعت وانضمت، والراعي وسقها، أي: جمعها؛ قال الشاعر: [الرجز]

٥١٤٥ ـ إنَّ لَنَا قَلائصاً حقَائِقَا مُستوسِقَاتٍ لوْ يَجِدْنَ سَائِقَا(٤)

والوِسْقُ ـ بالكسر ـ: الاسم، وبالفتح: المصدر، وطعام موسق: أي: مجموع،

---

(١) أخرجه أبو داود (١/ ١٦٧) كتاب الصلاة، باب: في وقت العشاء الآخرة رقم (٤١٩) والترمذي (١/ ٣٠٦) أبواب الصلاة، باب: ما جاء في وقت صلاة العشاء الآخرة رقم (١٦٥) والنسائي (١/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥) وأحمد (٤/ ٢٧٤) والدارمي (١/ ٢٧٥) والدارقطني (١/ ٢٧٠) والبيهقي (١/ ١٩٤ ـ ١٩٥) من حديث النعمان بن بشير.

وقال ابن العربي في «عارضة الأحوذي» (١/ ٢٧٧): حديث النعمان حديث صحيح وإن لم يخرجه الإمامان.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥١٠) عن مجاهد.

(٣) ينظر شعر الكميت بن زيد ص ٢٥٩، واللسان (شفق)، والقرطبي ١٩/ ١٨١.

(٤) هما للعجاج ينظر ملحقات ديوانه ٨٤، واللسان (وسق)، والقرطبي ١٩/ ١٨٢، والبحر ٨/ ٤٣٧، والدر المصون ٦/ ٤٩٩.

ويقال: وسقهُ فاتَّسقَ، واسْتوسَقَ، ونظير وقوع «افتعل، واستفعل» مطاوعين: اتسع واستوسع، ومنه قولهم: وقيل: وسق، أي: عمل فيه؛ قال: [الطويل]

٥١٤٦ ـ ويَوْماً تَرانَا صَالحِينَ وتَارةً تَقُومُ بِنَا كالواسِقِ المُتلبِّبِ(١)

فصل في معنى الآية

قال عكرمة ـ رضي الله عنه ـ: «ومَا وسقَ»، أي: وما ساق من شيء إلى حيث يأوي(٢) فالوسقُ: بمعنى الطرد، ومنه قيل للطَّريد من الإبل والغنم: وسيقة.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: «وما وسق» أي: وما جنَّ وستر(٣).

وعنه أيضاً: وما حمل، ووسَقَتِ الناقة تَسِقُ وسْقاً: أي: حملت وأغلقت رحمها على الماء فهي ناقة واسق، ونوق وساق، مثل: نائم ونيام، وصاحب وصحاب، ومواسيق أيضاً، وأوسقتُ البعير: حملته حمله، وأوسقت النخلة: كثر حملها.

وقال يمانٌ والضحاك ومقاتلُ بن سليمان: حمل من الظلمة(٤).

وقال مقاتلٌ: حمل من الكواكب(٥).

وقال ابنُ جبيرٍ: «وما وسق» أي: وما حمل فيه من التهجد والاستغفار بالأسحار(٦).

قوله: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾. أي: امتلأ. قال الفراء: وهو امتلاؤه واستواؤه ليالي البدر. وهو «افتعل» من «الوسق» وهو الضم والجمع كما تقدم، وأمر فلان متسقٌ: أي: مجتمع على الصلاح منتظم، ويقال: اتسق الشيء إذا تتابع.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: «إذا اتَّسَقَ» أي: استوى واجتمع وتكامل وتمَّ واستدار(٧).

قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ هذا جواب القسم.

وقرأ الأخوان، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن مسعود، وابن عباس، وأبو العالية، ومسروق، وأبو وائل، ومجاهدٌ والنخعيُّ، والشعبيُّ، وابن جبيرٍ: بفتح الباء على الخطاب للواحد.

---

(١) ينظر اللسان (وسق)، والقرطبي ١٩/ ١٨٢، والبحر ٨/ ٤٤٠، والدر المصون ٦/ ٤٩٩.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥١١) عن عكرمة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٤٩) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٢٣٧) والقرطبي (١٩/ ١٨٢).

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٨٢).

(٥) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٤٦٥) وينظر المصدر السابق.

(٦) ينظر المصدر السابق.

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥١٣) وذكره السيوطي في «الدر النثور» (٦/ ٥٤٩) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم.

والباقون[١]: بضمها على خطاب الجمع.

فالقراءة الأولى: رُوعي فيها إمَّا خطاب الإنسان المتقدم ذكره في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ﴾ [الانشقاق: ٦]، وإما خطاب غيره.

فقيل: خطابٌ للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أي: لتركبن يا محمد مع الكفار وجهادهم، أو لتبدلن أنصاراً مسلمين، من قولهم: النَّاس طبقات ولتركبن سماء [بعد سماء][٢]، ودرجة بعد درجة، ورتبة بعد رتبة في القرب من الله تعالى.

وقيل: التاء للتأنيث، والفعل مسندٌ لضمير السماء.

قال ابن مسعود: لتركبن السماء حالاً بعد حالٍ تكون كالمهل وكالدخان، وتنفطر وتنشق[٣].

والقراءة الثانية: رُوي فيها معنى الإنسان؛ إذ المراد به: الجنس، أي: لتركبنَّ أيُّها الإنسان حالاً بعد حال من كونه نطفة، ثم مضغة، ثم حياً، ثم ميتاً وغنياً وفقيراً.

واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، قال: لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبي ﷺ لما ذكره قبل هذه الآية فيمن يؤتى كتابه بيمينه، ومن يؤتى كتابه وراء ظهره، وقوله بعد ذلك «فَمَا لَهُمْ لا يُؤمِنُونَ» أي: لتركبن حالاً بعد حال من شدائد يوم القيامة، أو لتركبن سُنَّة من كان قبلكم في التكذيب، والاختلاف على الأنبياء.

وقال مقاتلٌ: يعني الموت ثم الحياة[٤].

وعن ابن عباسٍ: يعني: الشدائد والأهوال والموت، ثم البعث، ثم العرض[٥].

وقال عكرمة: رضيع، ثم فطيم [ثم غلام،][٦] ثم شابٌّ، ثم شيخ[٧].

قال ابن الخطيب[٨]: ويصلح أن يكون هذا خطاباً للمسلمين بتعريف نقل أحوالهم

---

(١) ينظر: السبعة ٦٧٧، وإعراب القراءات ٢/ ٤٥٥، وحجة القراءات ٧٥٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٥٩، والبحر المحيط ٨/ ٤٤٠، والدر المصون ٦/ ٤٩٩.

(٢) سقط من أ.

(٣) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٣٨) وقال: رواه البزار وفيه جابر الجعفي وهو ضعيف.
وأخرجه الطبري (١٢/ ٥١٣ ـ ٥١٤) عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٤٩) عن ابن عباس وزاد نسبته إلى أبي عبيد في «القراءات» وسعيد بن منصور وابن منيع وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه.
وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٣٨) وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات وذكره ابن حجر أيضاً في «المطالب العالية» (٣/ ٣٩٦) رقم (٣٨٠٤) وعزاه إلى أحمد بن منيع.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٨٣). (٥) ينظر المصدر السابق.

(٦) سقط من: ب. (٧) ينظر تفسير القرطبي (١٩/ ١٨٣).

(٨) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ١٠١.

بنصرهم، ومصيرهم إلى الظفر بعدوهم بعد الشدة التي تلقونها منهم كما قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وقرأ عمرُ ـ رضي الله عنه[١] ـ: «ليركبُنَّ» بياء الغيبة وضم الباء على الإخبار عن الكفار.

وقرأ عمر ـ أيضاً ـ وابن عباس[٢] **ـ رضي الله عنهما ـ** بالغيبة، وفتح الباء، أي: ليركبَنَّ الإنسان.

وقيل: ليركبنَّ القمر أحوالاً من إسرارٍ والاستهلالِ.

وقرأ[٣] عبد الله وابنُ عباسٍ: «لتركبُنَّ» بكسر حرف المضارعة، وقد تقدم في «الفاتحة».

وقرأ بعضهم[٤]: بفتح المضارعة وكسر الباء، على إسناد الفعل للنفس، أي: لتركبن يا نفس.

قوله: «طبقاً»: مفعول به أو حال.

والطبق قال الزمخشريُّ[٥]: الطَّبق: ما طابق غيره، يقال: ما هذا بطبق كذا: أي: لا يطابقه، ومنه قيل للغطاء: الطَّبقُ، وأطباقُ الثَّرى ما تطابق منه، ثم قيل للحال المُطابقَة لغيرها طبق، ومنه قوله ـ عز وجل ـ: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أي: حالاً بعد حال، كل واحدة مطابقة لأختها في الشدة والهول، ويجوز أن يكون جمع طبقة، وهي المرتبة، من قولهم: هو على طبقاتٍ، ومنه طبقات الظهر لفقاره، الواحدة: طبقة على معنى: لتركبن أحوالاً بعد أحوال، هي طبقات في الشدة، بعضها أرفع من بعض وهي الموت، وما بعده من مواطن القيامة انتهى.

وقيل: المعنى: لتركبن هذه الأحوال أمَّة بعد أمَّة؛ ومنه قول العباس فيه ﷺ: [المنسرح]

٥١٤٧ ـ تُنقَلُ مِنْ صالبٍ إلى رحِمٍ وإذَا مَضَى عالمٌ بَدَا طَبَقُ[٦]

فعلى هذا التفسير، يكون «طبقاً» حالاً، كأنه قيل: أمة بعد أمة.

وأما قول الأقرع: [البسيط]

٥١٤٨ ـ إنّي امرؤٌ قَدْ حَلبْتُ الدَّهرَ أشْطرَهُ وسَاقَني طَبَقٌ منهُ إلى طَبقٍ[٧]

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٥٩، والبحر المحيط ٨/ ٤٤٠، والدر المصون ٦/ ٤٩٩.
(٢) ينظر السابق. (٣) السابق.
(٤) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٤٠، والدر المصون ٦/ ٥٠٠.
(٥) الكشاف ٤/ ٧٢٨.
(٦) ينظر القرطبي ١٩/ ١٨٤، والبحر ٨/ ٤٤٠، والدر المصون ٦/ ٥٠٠.
(٧) ينظر القرطبي ١٩/ ١٨٤، والدر المصون ٦/ ٥٠٠ والبحر ٨/ ٤٣٧.

فيحتمل الأمرين، أي: ساقني من حالة إلى أخرى، أو ساقني من أمَّة ناس إلى أمَّة ناسٍ آخرين، ويكون نصب «طبقاً» على المعنيين على التشبيه بالظرف أو الحال، أي: متنقلاً، والطبقُ أيضاً: ما طابق الشيء أي: ساواه، [ومنه دلالة المطابقة.

قال امرؤ القيس:

٥١٤٩ ـ ديـــــمـــــة هـــطــــلا[١]

والطبق من الجراد أي الجماعة][٢].

قوله: «عَنْ طبقٍ»: في «عن» هذه وجهان:

أحدهما: أنها في محل نصب على الحال من فاعل «تركبن».

والثاني: أنَّها صفة لـ «طبقاً».

وقال الزمخشري[٣]: فإن قلت: ما محل «عن طبق»؟ قلت: النصب على أنه صفة لـ «طبقاً»، أي: طبقاً مجاوزاً لطبقٍ، [أو حال من الضمير في «لتركبن»، أي: لتركبن طبقاً مجاوزين لطبقٍ، أو مجاوراً][٤]، أو مجاورة على حسب القراءة.

وقال أبو البقاء[٥]: و «عن» بمعنى: «بعد»؛ قال: [الكامل]

٥١٥٠ ـ مَا زِلْتُ أقْطَعُ مُنْهَلاً عَنْ مَنْهَلٍ حَتَّى أنَخْتُ بِبابِ عَبْدِ الوَاحِدِ[٦]

لأن الإنسان إذا صار من شيء إلى شيء، يكون الثاني بعد الأول فصلحت «بعد» و «عن» للمجاوزة، والصحيح أنها على بابها، وهي صفة، أي: طبقاً حاصلاً عن طبق، أي: حالاً عن حالٍ. وقيل: جيلاً عن جيل. انتهى.

يعنى الخلاف المتقدم في الطبق ما المراد به، هل هو الحال، أو الجيل، أو الأمة كما تقدم نقله؟ وحينئذ فلا نعرب طبقاً مفعولاً به، بل حالاً، كما تقدم، لكنه لم يذكر في طبق غير المفعول به، وفيه نظر، لما تقدم من استحالته، يعني إذ يصير التقدير: لتركبن طبقة أمَّةٍ عن أمَّةٍ، فتكون الأمة مركوبة لهم، وإن كان يصح على تأويل بعيدٍ جداً وهو حذف مضاف، أي: لتركبن سنن، أو طريقة طبق بعد طبق.

فصل في حدوث العالم

هذا أدلُّ دليل على «حدوث العالم» وإثبات الصانع.

---

(١) ينظر ديوانه (٧٨)، والبحر ٨/ ٤٣٧، والدر المصون ٦/ ٥٠٠.
(٢) سقط من ب.
(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٢٨.
(٤) سقط من أ.
(٥) الإملاء ٢/ ٢٨٤.
(٦) ينظر الفخر الرازي ٣١/ ١١٢.

قالت الحكماء: من كان اليوم على حاله، فليعلم أن تدبيره إلى سواه.

وقيل لأبي بكر الوراق: ما الدليل على أنَّ لهذا العالم صانعاً؟ فقال: تحويل الحالات، وعجز القوَّة، وضعف الأركان وقهر النية ونسخ العزيمة.

قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. يعني: أي شيء يمنعهم من الإيمان بعد ما وضَّحت لهم الآيات والدِّلالات، وهذا استفهام إنكارٍ.

وقيل: تعجب أي: اعجبوا منهم في ترك الإيمان مع هذه الآيات.

وقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حال.

قال ابنُ الخطيب[١]: فما لهم لا يؤمنون بالبعث والقيامة، وهو استفهام إنكارٍ، وإنَّما يحسن عند ظهور الحُجَّة، وذلك أنه ـ تعالى ـ أقسم بتغييرات واقعة في الأفلاك والعناصر، فإن الشفق حالة مخالفة لما قبلها، وهو ضوء النهار، ولما بعدها وهو ظلمة الليل، وكذا قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ فإنه يدل على حدوث ظلمةٍ بعد نورٍ، وعلى تغييرات أحوال الحيوانات من اليقظة إلى النَّوم، وكذا قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ فإنه يدل على حصول كمال القمر بعد نقصانه، ثم إنه أقسم ـ تعالى ـ بهذه الأحوال المتغيرة على تغيير أحوال الخلق، وهذا يدل قطعاً على صحة القول بالبعث، لأن القادر على تغيير الأحوال العلوية والسفلية من حال إلى حال بحسب المصالح، لا بد وأن يكون قادراً، ومن كان كذلك لا محالة قادر على البعث والقيامة، فلما كانت هذه الآية كالدلالة العقلية القاطعة بصحة البعث، لا جرم قال تعالى على سبيل الاستبعاد: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فصل في الكلام على الآية

قال القاضي[٢]: «لا يجوز أن يقول الحكيم لمن كان عاجزاً عن الإيمان: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وهذا يدل على كونهم قادرين، وهذا يقتضي أن تكون الاستطاعة قبل الفعل، وأن يكونوا موجدين لأفعالهم، وأن لا يكون تعالى خالقاً للكفر فيهم، فهذه الآية من المحكمات التي لا احتمال فيها ألبتة». وجوابه تقدم.

قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ﴾ شرط، جوابه ﴿لَا يَسْجُدُونَ﴾، وهذه الجملة الشرطية في محل نصب على الحال نسقاً على ما قبلها، أي: فما لهم إذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون، أي: لا يصلون قاله ابن عباس، وعطاء، والكلبي، ومقاتل [وقال أبو مسلم: المراد الخضوع والاستكانة.

وقيل: المراد نفس السجود لما روى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ سجد فيها[٣].

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣١/١٠١.

(٢) ينظر: السابق.

(٣) تقدم.

وقال مالك: إنها ليست من عزائم السجود؛ لأن المعنى لا يدعون ولا يطيعون][1].

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾. العامّة: على ضمِّ الياء من «يكذبون» وفتح الكاف وتشديد الذّال.

والضحاكُ وابنُ أبي عبلة[2]: بالفتح والإسكان والتخفيف [وتقدمت هاتان القراءتان أول البقرة][3].

والمعنى: يُكذِّبُون بمحمد ﷺ وما جاء به.

قال مقاتل: نزلت في بني عمرو بن عمير، وكانوا أربعة، فأسلم اثنان منهم[4].

وقيل: هو في جميع الكفار.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾. هذه هي قراءة العامة، من أوعى يُوعِي، أي: بما يضمرون في أنفسهم من التكذيب، رواه الضحاك عن ابن عباسٍ.

وقال مجاهدٌ: يكتمون من أفعالهم[5].

وقال ابن زيد: يجمعون من الأعمال الصالحة[6]، مأخوذ من الوعاء الذي يجمع فيه، يقال: وعيت الزَّاد والمتاع: إذا جعلته في الوعاء؛ قال الشاعر: [البسيط]

٥١٥١ ـ ألخَيرُ أبقَى وإنْ طَالَ الزَّمانُ بِهِ والشَّرُّ أخبَثُ ما أوعَيتَ مِنْ زَادِ[7]

وقرأ أبو رجاءٍ[8]: «يَعُونَ» من «وَعَى يَعِي»، يقال: وعاهُ إذا حفظهُ، يقال: وعيتُ الحديثَ، أعيهُ، وعياً، وأذنٌ واعيةٌ، وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: مُؤلمٍ في جهنَّم على تكذيبهم وكفرهم، أي: جعل ذلك بمنزلة البشارة.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: يجوز أن يكون متصلاً، وأن يكون منقطعاً، هذا إذا كانت الجملة من قوله: «لَهُمْ أجْرٌ»: مستأنفة أو حالية، أمَّا إذا كان الموصول مبتدأ والجملة خبره، فالاستثناء ليس من قبيل استثناء المفردات، ويكون من قسم المنقطعِ، أي: لكن الذين آمنوا لهم كيت وكيت.

---

(١) سقط من ب.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٥٩، والبحر المحيط ٨/ ٤٤٠، والدر المصون ٦/ ٥٠١.

(٣) سقط من ب.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٨٥).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥١٧) عن مجاهد.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥١٧) عن ابن زيد.

(٧) البيت لعبيد بن الأبرص ينظر القرطبي ١٩/ ١٨٥، واللسان (وعي).

(٨) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٤١، والدر المصون ٦/ ٥٠١.

وتقدم معنى الممنُون في: «حم» السجدة، وأنَّ معناه: غير منقوص ولا مقطوع، يقال: مننت الحبل: إذا قطعته.

وسأل نافع بن الأزرق ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن قوله: «لَهُم أجْرٌ غَيْرُ مَمنُونٍ» فقال: غير مقطوع، فقال: هل تعرف ذلك العرب؟ قال: نعم، قد عرفه أخو يشكر؛ حيث يقول: [الخفيف]

٥١٥٢ ـ فَتَرَى خَلفَهُنَّ مِنْ سُرعَةِ الرَّجْـ ـعِ مَـنِـيـنـاً كـأنَّـهُ أهْـبَـاءُ[١]

قال المبرد: المنين: الغبار؛ لأنه يقطعه وراءها، وكل ضعيف مَنِين ومَمْنُون.

وقال بعضهم: ليس هنا استثناء، وإنما هو بمعنى الواو، كأنه قال: والذين آمنوا.

وقد مضى القول فيه في سورة البقرة، والله تعالى أعلم.

روى الثعلبي عن أبيٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ سُورَة ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ أعاذهُ اللَّهُ ـ تَعَالَى ـ أن يُعْطيهُ كِتابهُ وَراءَ ظَهْرِهِ»[٢]. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) ينظر القرطبي ١٩/ ١٨٦.

(٢) تقدم تخريجه.

سورة البروج

مكية، وهي اثنان وعشرون آية، ومائة وتسع كلمات، وأربعمائة وثمانية وخمسون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾. هذا قسم أقسم الله تعالى به، وفي البروج أقوال:

قيل: والسَّماء ذات النجوم. قاله الحسنُ ومجاهدٌ وقتادةُ والضحاكُ[1]. وقال ابنُ عباسٍ وعكرمةُ ومجاهدٌ: هي قصور في السماء[2].

وقال مجاهد أيضاً: هي البروج الاثنا عشر[3]، وهو قول أبي عبيدة ويحيى بن سلام.

وقيل: هي منازل القمر.

قوله: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾: وهو يوم القيامة، وهذا قسم آخر، قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: وعد أهل السماء وأهل الأرض أن يجتمعوا فيه[4].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥١٨)، عن مجاهد وقتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٥٢)، عن مجاهد وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر.
وذكره أيضاً عن قتادة وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥١٨)، عن ابن عباس.

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٢٤٠)، والقرطبي (١٩/ ١٨٧).

(٤) ينظر المصدر السابق.

قال القفال[١]: يحتمل أن يكون المراد: اليوم الموعود لانشقاق السماء وبنائها، وبطلان بروجها، وقوله تعالى: «الموعود» أي: الموعود به.

وقال مكيٌّ: «الموعود»: نعت لليوم، وثمَّ ضمير محذوف به تتم الصفة، تقديره: الموعود به، ولولا ذلك ما صحَّت الصفة؛ إذ لا ضمير يعود على الموصوف من صفته. انتهى.

وكأنه يعني أن اليوم موعود به غيره من الناس، فلا بُدَّ من ضمير يرجع إليه؛ لأنه موعود به، وهذا لا يحتاج إليه، إذ يجوز أن يكون قد تجوز بأن اليوم قد وعد بكذا، فيصح ذلك، ويكون فيه ضميرٌ عائدٌ عليه.

قوله: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾. قال علي، وابنُ عباسٍ، وابن عمر، وأبو هريرة ـ رضي الله عنهم ـ: الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة[٢]، وهو قول الحسن، ورواه أبو هريرة مرفوعاً ـ عن النبي ﷺ: «المَوعُودُ: يومُ القيامة، واليَوْمُ المشهودُ: يَوْمُ عَرفةَ، والشَّاهدُ: يَوْمُ الجُمعةِ». خرَّجه الترمذي في «جامعه»[٣].

قال القشيري: فيوم الجمعة يشهد على عامله بما يعمل فيه.

قال القرطبيُّ[٤]: وكذلك سائر الأيام والليالي، لما روى أبو نعيم الحافظ عن معاوية ابن قرة عن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال: «لَيْسَ مِنْ يوْم يَأتِي عَلى العَبْدِ إلا يُنادَى فيه: يا ابْنَ آدمَ أنا خَلقٌ جدِيدٌ، وأنَا فيمَا تَعْمَلُ عليْكَ شَهِيدٌ، فَاعْمَلْ فيَّ خيراً أشْهَد لَكَ فِيهِ غداً، فإنِّي لوْ قَدْ مَضيْتُ لَمْ تَرنِي أبداً، ويقُول اللَّيْلُ مِثْلَ ذلِكَ»[٥]. حديث غريب.

---

(١) ينظر الفخر الرازي ٣١/ ١٠٤.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٢٠)، عن أبي هريرة وابن عباس وعلي بن أبي طالب وقتادة وابن زيد.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٥٢)، عن ابن عباس وعزاه إلى ابن مردويه.
وذكره عن الحسن وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٣٩)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٢٠)، من طريق موسى بن عبيدة عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة مرفوعاً وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث موسى بن عبيدة وموسى بن عبيدة يضعف في الحديث ضعفه يحيى بن سعيد وغيره من قبل حفظه.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٥٢)، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي.

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٨٧.

(٥) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٠٣)، وقال غريب وذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٤٣١٦١)، وعزاه إلى أبي القاسم حمزة بن يوسف السهمي في «كتاب آداب الدين» والرافعي عن معقل بن يسار.

وحكى القشيريُّ عن ابن عمر وابن الزُّبيرِ: أن الشاهد يوم الأضحى.

وقال سعيد بن المسيب[١] الشاهد يوم التروية، والمشهود: يوم عرفة.

[وروي عن علي ـ رضي الله عنه ـ: الشاهد يوم عرفة، والمشهود يوم النحر][٢]

وعن ابن عباس والحسين بن علي ـ رضي الله عنهم ـ: المشهود: يوم القيامة، لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣] وعلى هذا فقيل: الشاهد هو الله تعالى، وهو مروي عن ابن عباسٍ، والحسن، وسعيد بن جبير لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩].

وعن ابن عباسٍ ـ رضي الله عنه ـ: الشاهد: محمد ﷺ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[٣] [البقرة: ١٤٣].

وقيل: الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يشهدون على أممهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ﴾.

وقيل: آدم عليه الصلاة والسلام.

وقيل: عيسى ابن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لقوله تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] والمشهود أمته.

وعن ابن عباس ومحمد بن كعب: الشاهد: الإنسان، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٤] [النور: ٢٤].

وقال الحسين بن الفضل: الشاهد هذه الأمة، لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[٥] [البقرة: ١٤٣]، والمشهود بنو آدم.

---

(١) ينظر تفسير القرطبي (١٩/ ١٨٨). (٢) سقط من: ب.

(٣) أثر الحسين بن علي أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٢١)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٣ ـ ٣٩)، وقال: رواه الطبراني في «الصغير، والأوسط» وفيه يحيى بن عبد الحميد الحماني وهو ضعيف وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٥٣)، وزاد نسبته إلى ابن مردويه.
أثر ابن عباس أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٢١)، والبزار كما في «المجمع» (٧/ ١٣٩)، وقال ورجاله ثقات.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٥٣)، وعزاه إلى الطبراني في الأوسط وعبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر من طرق عنه.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٢٢)، عن مجاهد وعكرمة وقتادة. وذكره الماوردي (٦/ ٢٤١)، عن ابن عباس.

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٨٨).

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ﴾. هذا جواب القسم على المختار، وإنما حذفت اللام، والأصل: «لقتل»؛ كقوله: [الطويل]

٥١٥٣ ـ حَلفْتُ لهَا باللَّهِ حَلفَةَ فَاجرٍ لـنَامُوا فـمَا إنْ مِـنْ حَـديـثٍ ولا صَـالِـي[١]

وإنما حسُن حذفها للطول كما سيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩].

وقيل: تقديره: لقد قتل، فحذف «اللام وقد»، وعلى هذا فقوله «قُتِلَ» خبر، لا دعاء.

وقيل: هي دعاءٌ، فلا يكون جواباً.

وفي الجواب حينئذ أوجه:

أحدها: أنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ﴾ [البروج: ١٠].

الثاني: قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ قاله المبرد.

الثالث: أنه مقدر، فقال الزمخشري ولم يذكر غيره[٢]: هو محذوف يدل عليه قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ كأنَّه قيل: أقسم بهذه الأشياء أن كفار قريش ملعونون، كما لعن أصحاب الأخدود ثم قال: «قُتِلَ» دعاءٌ عليهم كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧].

وقيل: التقدير: لتبعثن.

وقيل: فيه تقديم وتأخير، قتل أصحاب الأخدود والسَّماء ذات البروج، قاله أبو حاتم.

قال ابن الأنباري: وهذا غلط؛ لأنه لا يجوز لقائل أن يقول: والله قام زيد، على معنى: قام زيد والله.

وقرأ الحسن[٣] **وابن مقسم**: «قُتِّل» بتشديد التاء مبالغة أو تكثيراً.

قوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾، أي: لعن أصحاب الأخدود.

قال ابن عباس: كل شيء في القرآن «قُتِلَ» فهو: لُعِنَ، والأخدود الشقُّ العظيم المستطيل الغائص في الأرض[٤].

قال الزمخشريُّ[٥]: والأخدود: الخدُّ في الأرض وهو: الشق، ونحوهما بناء ومعنى: الخق والأخقوق، ومنه: «فَساخَتْ قوائمه في أخاقيق جرذان» انتهى.

فالخَدُّ: في الأصل مصدر، وقد يقع على المفعول، وهو الشق نفسه، وأمَّا الأخدود فاسم له فقط.

---

(١) تقدم. (٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٢٩.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٤٣، والدر المصون ٦/ ٥٠٢.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٨٨). (٥) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٣٠.

وقال الراغب: الخد والأخدود: شق في الأرض مستطيل غائص، وأصل ذلك من خَدَّي الإنسان، وهما ما اكتنفا الأنف عن اليمين والشمال، فالخَدُّ: يستعار للأرض ونحوها كاستعارة الوجه، وتخدد اللحم بزواله عن وجه الجسم، ثم يعبر بالمخدود عن المهزول والخداد: وسم في الخد.

وقال غيره: سمي الخدُّ خدًّا؛ لأن الدموع تخُد فيه أخاديدَ، أي: مجاري، وجمع الأخدود: أخاديد، والمخدَّة؛ لأن الخد يوضع عليها، ويقال: تخدَّد وجه [الرجل](١) إذا صارت فيه أخاديد من جراحٍ.

فصل في نزول السورة

هذه السورة نزلت في تثبيت المؤمنين، وتصبيرهم على أذى المشركين، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان حتى يقتدوا بهم، فيعلموا أنَّ كفارهم عند الله ـ تعالى ـ بمنزلة الأمم السابقة.

وكان من حديث أصحاب الأخدود: أنه كان لبعض الملوك ساحرٌ، فلما كبر ضم إليه غلاماً ليعلمه السحر، وكان في طريق الغلام راهبٌ، فمال قلب الغلام إلى ذلك الراهب، ثم رأى في طريقه ذات يوم حيَّة قد حبست الناس، فقال: اللَّهم إن كان هذا الراهب أحبَّ إليك من الساحر فقوّني على قتل هذه الحيَّة، وأخذ حجراً فرماها به فقتلها، فأعرض الغلام عن تعليم السحر، واشتغل بطريقة الراهب، ثم صار إلى حيث يبرىءُ الأكمه والأبرص، ويشفي من الأذى، فاتفق أن عميَ جليس الملك، وأتاه بهدايا كثيرة، وقال له: إن أنت شفيتني، فهي لك أجمع، فقال الغلام: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله تعالى، فإن آمنت بالله ـ تعالى ـ دعوته شفاك، فآمن بالله، فشفاه الله، فأبرأه فلما رآه الملك، قال: من ردَّ عليك بصرك؟ قال: ربِّي، فغضب الملك وقال: هل لك ربٌّ غيري؟ قال: ربي وربُّك الله، فعذبه حتى دلَّ على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: يا بني قد بلغ من سحرك ما يبرىء الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل؟ فقال: إني لا أشفي أحداً، إنَّما يشفي الله تعالى، فأخذه، فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الراهب، فجيء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقَّه حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبلٍ كذا وكذا، فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه من ذُروتهِ، فذهبوا به، وصعدوا به الجبل، فقال الغلام: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرَجفَ بهم الجبلُ، فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه، وقال: احملوه في سفينة وتوغَّلوا به في البحر،

---

(١) في ب: الأرض.

فإن رجع عن دينه وإلاَّ فأغرقوه، فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة، فغرقوا، ونجا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، وقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تجمع الناس في صعيدٍ واحدٍ، وتصلبني على جذعِ نخلةٍ، ثم تأخذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبدِ القوس، ثم قل: بسم الله رب الغلام، ثم ارم به واضرب، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيدٍ واحدٍ، وصلبه على جذعٍ، ثم أخذ سهماً من كنانته، فوضعه في القوسِ، ثم قال: بسم الله رب الغلام، ورماه به فوقع السهم في صدغه، فوضع يده على صدغه، فمات، فقال الناس: آمنَّا برب الغلام، فقيل للملك: نزل بك ما كنت تحذر، فأمر بأخاديد في أفواه السكك أوقدتْ فيها النيران، وقال: من لم يرجع منهم طرحته فيها، حتى جاءت امرأة ومعها صبي، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الصبي: يا أمَّاه، اصبري، فإنَّك على الحق، فصبرت على ذلك(١).

وفي رواية: أنَّ الدابة التي حبست الناس كانت أسداً، وأن الغلام دفن، قيل: إنه خرج في زمن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وأصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل(٢).

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن النار ارتفعت من الأخدود، فصارت فوق الملك وأصحابه أربعين ذراعاً فأحرقتهم(٣).

وقال الضحاكُ: هم قوم من النصارى باليمن قبل مبعث رسول الله ﷺ بأربعين سنة، أخذهم يوسفُ بن شراحيل بن تبع الحميري، وكانوا نيِّفاً وثمانين رجلاً، وحفر لهم أخدوداً، وأحرقهم فيه(٤). حكاه الماورديُّ. وروي غير ذلك.

قال مقاتلٌ: أصحاب الأخدود ثلاثة: واحدٌ بنجران، والآخر: بالشَّام، والآخر: بفارس، أما الذي بالشام فأنطنيانوس الرومي، وأما الذي بفارس فبختنصّر، والذي بأرض العرب يوسف بن ذي نواس، فلم ينزل الله في الذي بفارس والشام قرآناً، وأنزل قرآناً في الذي كان بنجران(٥).

قال الكلبي: هم نصارى نجران، أخذوا بها قوماً مؤمنين، فخذوا لهم سبعة

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٩٩ ـ ٢٣٠١)، كتاب: الزهد والرقائق، باب: بيان قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام حديث (٧٣/ ٣٠٠٥)، والترمذي (٥/ ٤٠٧ ـ ٤٠٩)، كتاب: التفسير، باب: سورة البروج رقم (٣٣٤٠)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٥١٠ ـ ٥١٢)، عن صهيب.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٥٥)، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد.

(٢) ينظر التخريج السابق والدر المنثور (٦/ ٥٥٦).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٨٩).

(٤) ذكره الماوردي في «تفسيره» ٦/ ٢٤٢).

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٩١).

أخاديد، كل أخدود أربعون ذراعاً، وعرضه اثنا عشر ذراعاً، ثم طرحوا فيه النفط، والحطب، ثم عرضوهم عليها فمن أبى قذفوه فيها(١).

فصل في المراد بأصحاب الأخدود

قال ابن الخطيب(٢): يمكن أن يكون المراد بأصحاب الأخدود: القاتلين، ويمكن أن يكون المراد بهم: المقتولين، والمشهور أنَّ المقتولين هم: المؤمنون.

وروي أن المقتولين هم الجبابرة، روي أنهم لما ألقوا المؤمنين في النار عادت النار على الكفَّار فأحرقتهم، ونجَّى الله ـ تعالى ـ المؤمنين منها سالمين، وإلى هذا القول ذهب الربيع بن أنسٍ، والواحدي، وتأولوا قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ [البروج: ١٠] أي: في الآخرة، ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ في الدنيا، فإن فسَّرنا أصحاب الأخدود بالقاتلين، فيكون قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ دعاءٌ عليهم، أي: لعن أصحاب الأخدود، كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]، ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ [الذاريات: ١٠].

أو يكون المعنى: قتلوا بالنار كما أرادوا قتل المؤمنين بالنار عادت النار عليهم فقتلتهم.

وإن فسَّرنا أصحاب الأخدود بالمقتولين كان المعنى أن المؤمنين قتلوا بالإحراق بالنار، فيكون ذلك خبراً لا دعاء.

فصل في المقصود من هذه الآية

المقصود من هذه الآية: تثبيت قلوب المؤمنين بإخبارهم بما كان يلقاه من قبلهم من الشدائد، وذكر لهم النبي ﷺ قصة الغلام ليصبروا على ما يلقون من أذى الكفار، ليتأسَّوا بهذا الغلام في صده على الأذى والصلب وبذله نفسه في إظهار دعوته، ودخول الناس في الدين مع صغر سنه، وكذلك صبر الراهب على التمسُّك بالحق حتى نشر بالمنشار، وكذلك أكثر الناس لما آمنوا بالله تعالى.

قوله: ﴿ٱلنَّارِ﴾. العامة: على جرها، وفيها أوجه:

أحدها: أنه بدل من «الأخدود» بدل اشتمال؛ لأن «الأخدود» مشتمل عليها، وحينئذ فلا بد من الضمير.

فقال البصريون: مقدرٌ، تقديره: النار.

وقال الكوفيون: «أل» قائمةٌ مقام الضمير، تقديره: ناره، ثم حذف الضمير، وعوِّض عنه «أل» [وتقدم البحث معه في ذلك](٣).

---

(١) ينظر المصدر السابق. (٢) ينظر: الفخر الرازي ٣١/١٠٨.

(٣) سقط من: ب.

الثاني: أنَّه بدل كل من كل، ولا بد حينئذ من حذف مضاف، تقديره: أخدود النار.

الثالث: أن التقدير: ذي النَّار؛ لأنَّ الأخدود هو الشق في الأرض، حكاه أبو البقاء[١].

وهذا يفهم أنَّ النَّار خفض بالإضافة لتلك الصفة المحذوفة، فلما حذف المضاف قام المضاف إليه مقامه في الإعراب، واتفق أن المحذوف كان مجروراً، وقوله: إن الأخدود هو الشق، تعليل بصحة كونه صاحب نار.

الرابع: أن النار خفض على الجوار، نقله مكيٌّ عن الكوفيين.

وهذا يقتضي أن النار كانت مستحقة لغير الجر، فعدل عنه إلى الجر للجوار، والذي يقتضي الحال أنه عدل عن الرفع، **ويدل على ذلك أنه قد**[٢] **قرىء في الشاذ**: «النَّارُ» رفعاً، والرفع على أنه خبر ابتداء مضمر، تقديره: هي النار وقيل: بل هي مرفوعة على الفاعلية تقديره قتلتهم، أي: أحرقتهم، والمراد حينئذ بأصحاب الأخدود: المؤمنون.

وقرأ العامة: «الوَقُودِ» بفتح الواو، **والحسنُ، وأبو رجاء، وأبو حيوة**[٣]، **وعيسى**: بضمها، وتقدمت القراءتان في أول «البقرة».

قوله تعالى: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾. العامل في «إذ» إما: «قُتِلَ أصحاب»، أي: قتلوا في هذا الوقت.

وقيل: اذكر، مقدراً، فيكون مفعولاً به، ومعنى قعودهم عليها أي: على ما يقرب منها كحافتها؛ ومنه قول الأعشى: [الطويل]

٥١٥٤ ـ تُشَبُّ لِمقْرُورَيْنِ يَصْطِليانِهَا وبَاتَ عَلى النَّارِ النَّدَىٰ والمُحلقُ[٤]

وقال القرطبيُّ[٥]: ومعنى «عليها» أي: «عندها» و «على» بمعنى: «عند»، والضمير في «هم» يجوز أن يكون للمؤمنين، وأن يكون للكافرين.

قوله: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾. أي: حضور، يعني: الكفَّار كانوا يعرضون الكفر على المؤمنين، فمن أبي ألقوهُ في النار.

وقيل: «على» بمعنى: «مع» أي: وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين شهود.

---

(١) ينظر: الإملاء ٢/ ٢٨٤.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٢، والبحر المحيط ٨/ ٤٤٤، والدر المصون ٦/ ٥٠٣.

(٣) ينظر: السابق.

(٤) ينظر ديوانه ص ٢٧٥، والأغاني ١١١١٩، وخزانة الأدب ٧/ ١٤٤، ١٥٥، ١٥٧، وشرح شواهد المغني ١/ ٣٠٣، واللسان (حلق)، ومغني اللبيب ١/ ١٠١، ١٤٣.

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٩٣).

قال ابن الخطيب[١]: و «على» بمعنى: «عند» كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ﴾ [الشعراء: ١٤] أي: عندي.

[وقوله: «شهودٌ» إما حضور قاسية قلوبهم لا يرقون على المؤمنين، أو هم مجدون في ذلك لا يخطر لهم أنه حق.

أو يكون المراد وصف المؤمنين بالتصلُّب في دينهم، والثبات عليه، وإن لم يؤثر فيهم حضور هؤلاء، ولا استحيوا من مخالطتهم.

وإما أن يكون المراد بشهودهم شهادة الدعوة؛ أي: يشهد بعضهم لبعض عند الملك بما فعلوا بالمؤمنين.

وإما أنهم متثبّتون في فعلهم متبصرون فيه كما يفعل الشهود، ثم لا يرحمونهم مع ذلك][٢].

قوله: ﴿وَمَا نَقَمُواْ﴾، العامة: على فتح القاف.

وزيدُ بن عليّ[٣]، **وأبو حيوة، وابن أبي عبلة**: بكسرها، والفصيح: الفتح. وقد تقدم ذلك في سورة «المائدة»[٤] و «براءة»[٥].

والمعنى: ما نقم الملك وأصحابه من الذين حرّقوهم ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ﴾ إلاّ أن صدقوا بالله؛ كقوله: [الطويل]

٥١٥٥ ـ ولا عَيْبَ فِيهَا غَيْرَ شُكلةِ عَيْنِهَا كَذاكَ عِتَاقُ الطَّيْرِ شُكْلٌ عُيونُهَا[٦]

وكقول ابن الرقيَّات: [المنسرح]

٥١٥٦ ـ ما نَقَمُوا من بَنِي أميَّة إلْـ ـلا أنَّهُم يَحْلُمُونَ إنْ غَضِبُوا[٧]

يعني أنهم جعلوا أحسن الأشياء قبيحاً وتقدم الكلام على محل «أن» أيضاً في سورة «المائدة».

وقوله تعالى: ﴿أَن يُؤْمِنُواْ﴾ أتى بالفعل المستقبل تنبيهاً على أنَّ التعذيب إنما كان لأجل إيمانهم في المستقبل، ولو كفروا في المستقبل لم يعذبوا على ما مضى من الإيمان، فكأنه قيل: أن يدوموا على إيمانهم، و «العَزِيز» هو الغالب المنيع، «الحميد»: المحمود في كل حال.

---

(١) الفخر الرازي ٣١/ ١٠٩. (٢) سقط من: ب.
(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٣٢، والمحرر الوجيز ٨/ ٤٦٢، والبحر المحيط ٨/ ٤٤٤، والدر المصون ٦/ ٥٠٣.
(٤) آية ٥٩. (٥) آية ٧٤.
(٦) ينظر اللسان (شكل)، والبحر ٨/ ٤٤٤، والدر المصون ٦/ ٥٠٣.
(٧) ينظر ديوانه ص ٤، وسمط اللآلىء ١/ ٢٩٥، ومجاز القرآن ١/ ١٧٠، والكشاف ٤/ ٧٣١، واللسان (نقم)، والبحر ٨/ ٤٤٤، والدر المصون ٦/ ٥٠٣.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: لا شريك له فيهما.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: عالم بأعمال خلقه لا يخفى عليه خافية، وهذا وعد عظيم للمطيعين، ووعيد للمجرمين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ (١٤) ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦)﴾

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: لما ذكر قصة أصحاب الأخدود، أتبعها بما يتفرع من أحكام الثواب والعقاب، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: حرقوهم بالنار، والعرب يقولون: فتن فلان الدرهم والدينار إذا أدخله الكور لينظر جودته، ودينار مفتون، ويسمى الصائغ: فتّان، وكذلك الشيطان، وورق فتين، أي: فضة محرقة، ويقال للحرة: فتين، وهي الأرض التي تركبها حجارة سوداء، كأنما أحرقت حجارتها بالنار لسوادها.

وقال ابن الخطيب[١]: يحتمل أن يكون المراد بالذين فتنوا: كل من فعل ذلك؛ لأن اللفظ والحكم عام.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ أي: من قبيح صنيعهم، وهذا يدل على أنهم لو تابوا لخرجوا من هذا الوعيد، وذلك يدلّ على القطع بأن الله يقبل التوبة، فدلَّ على أن توبة القاتل عمداً مقبولة.

قوله: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾. هو خبر «إنَّ الذينَ» دخلت الفاء لما تضمنه المبتدأ من معنى الشرط، ولا يضر نسخه بـ «إن» خلافاً للأخفش.

وارتفاع «عذاب» يجوز على الفاعلية بالجار قبله لوقوعه خبراً، وهو الأحسن، وأن يرتفع بالابتداء، والمعنى: لهم عذاب جهنَّم لكفرهم.

وقيل: ولهم عذاب الحريق أي: ولهم في الآخرة عذابُ الحريق، والحريق: اسم من أسماء جهنم كالسعير، والنَّار دركات وأنواع، ولها أسماء، وكانوا يعذبون بالزَّمهرير في جهنم، ثم يعذبون بعذاب الحريق.

والأول: عذاب ببردها.

والثاني: عذاب بحرِّها.

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ١١١.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. أي: هؤلاء الذين آمنوا بالله، أي: صدقوا به وبرسوله ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾ أي: بساتين.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ لما ذكر تعالى وعيد المجرمين، ذكر وعد المؤمنين، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: العظيم الذي لا فوز يشبهه، وقال: «ذلِكَ الفوزُ» ولم يقل: تلك؛ لأن ذلك إشارة إلى إخبار الله تعالى بحضور الجنات، وتلك إشارة إلى الجنَّة الواحدة، وإخبار الله ـ تعالى ـ يدل على كونه راضياً. والفوز الكبير: هو رضا الله تعالى، لا دخول الجنة.

قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾؛ أي: أخذه الجبابرة والظلمة، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وقال المبرد: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾ جواب القسم وقد تقدم ذلك.

والبطش: هو الأخذ بعنف، فإذا وصف بالشدة، فقد تضاعف.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾، يعني: الخلق عند أكثر العلماء يخلقهم ابتداء، ثم يعيدهم عند البعث، وروى عكرمةُ، قال: عجب الكفَّار من إحيائه تعالى الأموات(١).

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ يبدىء لهم عذاب الحريق في الدنيا، ثم يعيده عليهم في الآخرة(٢)، وهذا اختيار الطبري(٣).

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾: «الغفور»: أي: الستور لعباده المؤمنين، والودود: مبالغة في الوداد.

قال ابن عباسٍ: هو المتودّد لعباده المؤمنين بالمغفرة(٤).

وعن المبرد: هو الذي لا ولد له، وأنشد: [المتقارب]

٥١٥٧ ـ وأركَبُ في الرَّوعِ عُريانَةً ذَلُولَ الجَناحِ لَقَاحاً ودُودَا(٥)

أي: لا ولد لها تحنّ إليه.

وقيل: هو «فعول» بمعنى: «مفعول»، كالرَّكُوب والحلُوب أي: يوده عباده الصالحون.

قوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ قرأ الكوفيون إلاَّ عاصماً: «المجيد» بالجر.

فقيل: نعت للعرش.

---

(١) ينظر تفسير القرطبي (١٩/ ١٩٥).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٢٩)، وذكره الماوردي (٦/ ٢٤٣)، والقرطبي (١٩/ ١٩٥)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٥٧).

(٣) ينظر: جامع البيان ١٢/ ٥٢٩.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٩٥).

(٥) ينظر القرطبي ١٩/ ١٩٤، والبحر ٨/ ٤٤٥، والدر المصون ٦/ ٥٠٤، وفتح القدير ٥/ ٤١٣.

وقيل: لـ «ربك» في قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾، قاله مكيٌّ. وقيل: لا يجوز أن يكون نعتاً للعرش؛ لأنه من صفات الله تعالى.

وقرأ الباقون[١]: **بالرفع**، على أنه خبر بعد خبر.

وقيل: هو نعت لـ «ذو»، واستدلَّ بعضهم على تعدد الخبر بهذه الآية، ومن منع قال: لأنها في معنى خبر واحد، أي: جامع بين هذه الأوصاف الشريفة، أو كل منها خبر لمبتدأ مضمر.

والمجيد: هو النهاية في الكرم والفضل، والله ـ تبارك وتعالى ـ هو المنعوت بذلك، وإن كان قد وصف عرشه بالكريم في آخر المؤمنين.

ومعنى «ذو العرش» أي: ذو الملك والسلطان، كما يقال: فلان على سرير ملكه وإن لم يكن على سرير، ويقال: بلي عرشه، أي: ذهب سلطانه.

قوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي: لا يمتنع عليه شيء يريده.

قال الزمخشريُّ[٢]: «فعالٌ» خبر مبتدأ محذوف، وإنما قيل: «فعال»؛ لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة.

وقال الفراء: هو رفع على التكرير والاستئناف؛ لأنه نكرة محضة على وجه الإتباع لإعراب الغفور الودود.

وعن أبي السفر قال: دخل ناس من أصحاب النبي ﷺ على أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ يعودونه، فقالوا: ألا نأتيك بطبيبٍ؟ قال رضي الله عنه: قد رآني، قالوا: فَمَا قَال لَك؟ قال: قال: إنِّي فعَّالٌ لما أريدُ[٣].

فصل في أن الآية دلت على خلق الأفعال

دلَّت هذه الآية على خلق الأفعال؛ لأنه تعالى يريد الإيمان، فوجب أن يكون فاعلاً للإيمان، وإذا كان فاعلاً للإيمان وجب أن يكون فاعلاً للكفر ضرورة؛ لأنه لا قائل بالفرق.

فصل في تفسير الآية

قال القفال[٤]: «فعَّالٌ لما يُريد» أي: يفعل ما يريد على ما يراه، لا يعترض عليه ولا يغلبه غالب، فيدخل أولياءه الجنة، لا يمنعه مانع، ويدخل أعداءه النار، لا ينصرهم

---

(١) ينظر: السبعة ٦٧٨، والحجة ٦/ ٣٩٣، وإعراب القراءات ٢/ ٤٥٧، وحجة القراءات ٧٥٧.
(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٣٣.
(٣) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/ ١٩٥).
(٤) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ١١٣.

منه ناصر، ويمهل العصاة على ما يشاء إلى أن يجازيهم، ويعاجل بعضهم بالعقوبة إذا شاء، فهو يفعل ما يريد.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢)﴾

قوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾، أي: قد أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم [تَسلِيَةً له بذلك](١).

قوله تعالى: ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾. يجوز أن يكون بدلاً من الجنود، وحينئذ فكان ينبغي أن يأتي البدل مطابقاً للمبدل منه في الجمعية.

فقيل: هو على حذف مضاف، أي: جنود فرعون.

وقيل: المراد فرعون وقومه، واستغني بذكره عن ذكرهم؛ لأنهم أتباعه.

ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار: أعني؛ لأنه لما لم يطابق ما قبله وجب قطعه.

والمعنى: أنك قد عرفت ما فعل بهم حين كذبوا بأنبيائهم ورسلهم.

قوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾، أي: هؤلاء الذين لا يؤمنون بك في تكذيب لك كدأب من قبلهم، وإنما خُصَّ فرعون وثمود؛ لأن ثموداً في بلاد العرب، وقصتهم عندهم مشهورة، وإن كانوا من المتقدِّمين، وأمر فرعون كان مشهوراً عند أهل الكتاب وغيرهم، وكان من المتأخرين في الهلاك فدلَّ بهما على أمثالهما، والله أعلم.

قوله: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾، أي: يقدر على أن ينزل بهم ما أنزل بفرعون، والمحاط به المحصور.

وقيل: والله أعلم بهم فيجازيهم.

قوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ العامة: على تبعية مجيد لـ «قرآن»، وقرأ ابن(٢) السميفع بإضافة «قرآن» لـ «مجيد».

فقيل: هو على حذف مضاف، أي: قرآن رب مجيد.

كقوله: [الوافر]

٥١٥٨ ـ ولَكِنَّ الغِنَى ربّ غَفُور(٣)

---

(١) في أ: سأله بذلك ثم بينهم.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٣، والبحر المحيط ٨/ ٤٤٦، والدر المصون ٦/ ٥٠٤.

(٣) عجز بيت لعروة بن الورد وصدره:

قليل عيبه، والعيبُ جَمٌّ

ينظر: ديوان عروة ٩٢، والعقد الفريد ٣/ ٢٩، والإنصاف ١/ ٤٨، والبحر ٨/ ٤٤٦، والدر المصون ٦/ ٥٠٤.

أي: غني رب غفور.

وقيل: بل هو من إضافة الموصوف إلى صفته، فتتحد القراءتان، ولكن البصريين لا يجيزون هذا لئلا يلزم إضافة الشيء إلى نفسه، ويتأولون ما ورد.

ومعنى «مَجِيدٌ» أي: متناهٍ في الشرف والكرم والبركة.

وقيل: «مَجِيدٌ» أي: غير مخلوق.

قوله: ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾، **قرأ نافع**[١]: **برفع «محفوظ»**: نعتاً لـ «قرآن».

والباقون: بالجر؛ نعتاً للوح.

والعامة: على فتح اللام، **وقرأ ابن السميفع**[٢] **وابن يعمر**: بضمها.

قال الزمخشري[٣]: يعني: **اللوح فوق السماء السابعة الذي فيه اللوح**، «محفوظ» من وصول الشياطين إليه.

وقال أبو الفضل: «اللّوح»: الهواء، وتفسير الزمخشري بالمعنى، وهو الذي أراده ابن خالويه.

قال القرطبي[٤]: «فِي لوحٍ محفُوظٍ» أي: مكتوب في لوح، وهو محفوظ عند الله ـ تعالى ـ من وصول الشياطين إليه.

وقيل: هو أم الكتاب، ومنه انتسخ القرآن والكتب.

وقال بعض المتكلمين: «اللوح» شيء يلوح للملائكة فيقرءونه.

وفي «الصّحاح»[٥]: لاح الشيء يلوح لوحاً ولواحاً: عطش، وكل عظم عريض، واللوح: الذي يكتب فيه، واللُّوح: بالضم، الهواء بين السماء والأرض. وأنشد دريد: [الرجز]

٥١٥٩ ـ عقابُ لُوحِ الجَوِّ أعلَى مَثْنَا

قال ابن الخطيب[٦]: قال ـ هاهنا ـ: «فِي لَوْحٍ مَحفُوظٍ»، وقال في آية أخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾، فيحتمل أن يكونَ الكتاب المكنون، هو اللوح المحفوظ، ثم كونه محفوظاً يحتمل أن يكون المراد: محفوظاً عن أن يمسَّهُ إلا المُطهَّرون، ويحتمل أن يكون كونه محفوظاً عن اطلاع الخلق عليه سوى الملائكة

(١) ينظر: السبعة ٦٧٨، والحجة ٦/ ٣٩٦، وإعراب القراءات ٤/ ٤٥٨، وحجة القراءات ٧٥٧.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٣٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦٣، والبحر المحيط ٨/ ٤٤٦، والدر المصون ٦/ ٥٠٥.

(٣) الكشاف ٤/ ٧٣٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٩٦.

(٥) ينظر الصحاح ١/ ٤٠٢.

(٦) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ١١٤.

المقربين، ويحتمل أن يكون المراد: ألاَّ يتغيَّر ولا يتبدل. والله أعلم.

روى الثعلبي عن أبيٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ سُورةَ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ أعْطَاهُ اللَّهُ تعَالَى بعددِ كُلِّ يوم جُمعةٍ، وكُلِّ يَوْم عَرفة، يكُونُ في دَارِ الدُّنْيا عَشْرَ حسَناتٍ»[١].

(١) تقدم تخريجه.

سورة الطارق

مكيَّةٌ، وهي سبع عشرة آية، واثنتان وسبعون كلمة، ومائتان وإحدى وسبعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾، «السَّماءِ»: قسم، و «الطَّارِقِ»: قسم، والطَّارقُ: هو النَّجم الثاقب، كما بينهُ الله تعالى بقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾.

والطارق في الأصل: اسم فاعل من: طرق يطرق طروقاً: أي: جاء ليلاً؛ قال امرؤ القيس: [الطويل]

٥١٦٠ ـ فَمِثْلِكِ حُبْلَى قَدْ طَرقتُ ومُرضعٍ فأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمائِمَ مُحْوِلِ[١]

وأصله من الضرب، والطَّارقُ بالحصى: الضارب به؛ قال: [الطويل]

٥١٦١ ـ لعَمْرُكَ، ما تَدْرِي الطَّوارِقُ بالحَصَى ولا زَاجِراتُ الطَّيْرِ ما اللَّهُ صَانِعُ[٢]

ثم اتُّسعَ فقيل لكل من أتى ليلاً: طارق، سواء كان كوكباً، أو غيره، ولا يكون الطارقُ نهاراً.

وروي أنه ﷺ: نهى أن يأتي الرجل أهله طروقاً[٣].

---

(١) ويروى عن ذي تمام مُغْيِلٍ مكان عن ذي تمائم مُحولِ.
ينظر ديوانه ص ١٢، والأزهية ص ٢٤٤، والجنى الداني ص ٧٥، وجواهر الأدب ص ٦٣، وخزانة الأدب ١/ ٣٣٤، والدرر ٤/ ١٩٣، وشرح أبيات سيبويه ١/ ٤٥٠، وشرح شذور الذهب ص ٤١٦، وشرح شواهد المغني ١/ ٤٠٢، ٢٩٣، والكتاب ٢/ ١٦٣، واللسان (رضع)، (غيل)، والمقاصد النحوية ٣/ ٣٣٦، وأوضح المسالك ٣/ ٧٣، ورصف المباني ص ٣٨٧، وشرح الأشموني ٢/ ٢٩٩، ومغني اللبيب ١/ ١٣٦، ١٦١، وهمع الهوامع ٢/ ٣٦.

(٢) البيت للبيد بن ربيعة ينظر ديوانه ٩٠، وسمط اللآلىء ١/ ٣٨٨، واللسان (طرق)، والدر المصون ٦/ ٥٠٦.

(٣) أخرجه البخاري (٩/ ٣٣٩)، كتاب النكاح، باب: لا يطرق أهله ليلاً رقم (٥٢٤٤)، ومسلم (٣/ ١٥٢٨)، كتاب الإمارة، باب: كراهة الطروق حديث (١٨٣/ ٧١٥)، من حديث جابر.

وقوله: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾، قال محمد بن الحسين: هو زُحَل.

وقال ابن زيد: هو الثُّريَّا، وعنه ـ أيضاً ـ: أنه زُحَل(١).

وعن ابن عباس: هو الجديُ(٢)، وعن عليِّ بن أبي طالب والفرَّاء: «النَّجمُ الثَّاقبُ»: نجم في السماء السابعة لا يسكنها غيره من النجوم، فإذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء هبط، فكان معها، ثم يرجع إلى مكانه من السماء السابعة، وهو زحل، فهو طارق حين ينزل، وحين يهبط(٣).

وفي «الصحاح»(٤): «الطَّارقُ: النجم الذي يقال له: كوكب الصبح».

ومنه قول هند: [الرجز]

٥١٦٢ ـ نَحْنُ بَنَاتُ طَارِق   نَمْشِي عَلى النَّمَارِقِ(٥)

وقيل: هو اسم جنس، فيدخل فيه سائر الكواكب، وسمي ثاقباً؛ لأنه يثقب الظَّلام بضوئه، أي: ينفذ فيه. أي يرمي الشيطان فيحرقه.

قال الماورديُّ: وأصل الطرقِ: الدَّق، ومنه سميت المطرقة، فسمي قاصد الليل: طارقاً، لاحتياجه في الوصول إلى الدق.

ورُوِيَ أنَّ أبا طالبٍ أتى النبي ﷺ بخبز ولبن، فبينما هو جالس يأكل إذ انحطَّ نجم فامتلأت الأرض نوراً، ففزع أبو طالب، وقال: أيُّ شيءٍ هذا؟ فقال رسول الله ﷺ: «هَذَا نجمٌ رُمِيَ بِهِ، وإنَّهُ مِنْ آياتِ اللَّهِ» فعجب أبو طالب، ونزلت السورة(٦).

وقال مجاهد: «الثاقب»: المتوهِّج(٧).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ تفخيم لشأن هذا المقسم به.

قوله: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾. قد تقدم في سورة «هود»: التخفيف والتشديد في «لما»، فمن خففها ـ هنا ـ كانت «إنْ»: مخففة من الثقيلة، و «كل»: مبتدأ، و «عليها»:

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٣٣)، عن ابن زيد.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٣). (٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) ينظر الصحاح ٤/ ١٥١٥.

(٥) نسب البيت إلى هند بنت عتبة، وإلى هند بنت بياضة بن رباح بن طارق الإيادي، ولهند بنت الفند الزماني، وللقرشية.

ينظر أدب الكاتب ٩٠، والأغاني ١٢/ ٣٤٣، ١٥/ ١٤٧، وشرح شواهد المغني ٢/ ٨٩، واللسان (طرق)، ومعجم ما استعجم ص ٧٠، وجمهرة اللغة ص ٧٥٦، ومغني اللبيب ٢/ ٣٨٧، وهمع الهوامع ١/ ١٧١.

(٦) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٤٧٢)، عن الكلبي، والقرطبي (٢٠/ ٣).

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٣٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٦٠)، وعزاه إلى عبد بن حميد عن مجاهد.

خبر مقدم، و «حافظ»: مبتدأ مؤخر، والجملة خبر «كل»، و «ما»: مزيدة بعد اللام الفارقة، ويجوز أن يكون «عليها»: هو الخبر وحده، و «حافظ»: فاعل به، وهو أحسن، ويجوز أن يكون «كل»: مبتدأ، و «حافظ»: خبره، و «عليها»: متعلق به، و «ما»: مزيدة أيضاً، هذا كله تفريع على قول البصريين.

وقال الكوفيون: «إنْ» هنا: نافية، واللام بمعنى: «إلاّ» إيجاباً بعد النفي، و «ما»: مزيدة. وتقدم الكلام في هذا مستوفى.

قال الفارسي: ويستعمل «لما» بمعنى: «إلاًّ» في موضعين:

أحدهما: هذا، والآخر: في باب القسم، تقول: سألتك لما فعلت.

ورُوِيَ عن الكسائيِّ والأخفش وأبي عبيدة أنهم قالوا: لم نجد «لما» بمعنى: «إلا» في كلام العرب.

وأما قراءة التشديد: فـ «إن» نافية، و «لمَّا» بمعنى: «إلا» وتقدمت شواهد ذلك في سورة «هود»[١].

وحكى هارون: **أنه**[٢] **قرىء «إنَّ» بالتشديد،** «كُلَّ» بالنصب على أنه اسمها، واللام: هي الداخلة في الخبر، و «ما»: مزيدة، و «حافظ»: خبرها.

وعلى كل تقدير فـ «إن» وما في خبرها: جواب القسم سواء جعلها مخففة أو نافية.

وقيل: الجواب: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾ وما بينهما اعتراض؛ وفيه بعد.

فصل في المراد بالحافظ[٣]

قال قتادةُ: «حافظ» أي: حفظة يحفظون عليك رزقك وعملك وأجلك، قال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠، ١١]، وقال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

وقيل: الحافظ: هو الله تعالى.

وقيل: الحافظ: هو العقل يرشد الإنسان إلى مصالحه، ويكفّه عن مضارّه.

قال القرطبيُّ[٤]: العقل وغيره وسائط، والحافظ في الحقيقة هو الله تعالى، قال الله

---

(١) آية ١١١.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٤٩، والدر المصون ٦/ ٥٠٦.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٣٤)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٢٤٦)، وينظر تفسير القرطبي (٢٠/ ٤).

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٤.

تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا﴾ [يوسف: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۗ﴾ [الأنبياء: ٤٣] وما كان مثله.

قال ابن الخطيب[(١)]: المعنى: لما كانت كل نفس عليها حافظ، وجب أن يجتهد كل واحد، ويشتغل بالمهم، وأهم الأشياء معرفة المبدأ والمعاد والمبدأ يقدم.

قوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠﴾

قوله: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، أي: ابن آدم، «مِمَّ خُلِقَ»، وجه الاتصال بما قبله وصية الإنسان بالنظر في أول أمره حتى يعلم أنَّ من أنشأه قادر على إعادته وجزائه، فليعمل ليوم الإعادة والحشر والجزاء، ولا يملي على الحافظ إلا ما يسرُّه في عاقبه أمره.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾، استفهام، أي: من أيِّ شيء خلق، وهو جواب الاستفهام.

قوله: ﴿مِن مَّآءٖ دَافِقٖ﴾. فاعل بمعنى مفعول [كعكسه في قولهم: سيل مفعم][(٢)]، كقوله تعالى: ﴿حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٥] على وجه.

وقيل: «دافِق» على النسب، أي: ذو دفق أو اندفاق.

وقال ابنُ عطية[(٣)]: يصح أن يكون الماء دافقاً؛ لأن بعضه يدفق بعضاً، أي: يدفقه، فمنه دافق، ومنه مدفوق انتهى.

والدَّفقُ: الصَّبُّ، ففعله متعدٍّ.

وقرأ زيد[(٤)] بن علي: «مَدْفُوقٍ»، وكأنَّه فسر المعنى.

قال القرطبيُّ[(٥)]: الصبُّ: دفقُ الماء، دفقت الماء، أدفقُه دفقاً، أي: صببته فهو ماء دافق، أي: مدفوق، كما قالوا: سرٌّ كاتم، أي: مكتوم؛ لأنه من قولك: دُفق الماء على ما لم يسم فاعله، ولا يقال: دَفق الماء، ويقال: دفق الله روحه: إذا دعى عليه بالموت.

قال الفرَّاء والأخفش: «ماءٍ دافقٍ»: أي مصبوب في الرَّحِم.

وقال الزجاج: «مِن ماءٍ ذي انْدفاقٍ»، يقال: دَارِع، وفَارِس، ونَابِل، أي ذو فَرسٍ ودِرعٍ ونَبلٍ، وهذا مذهب سيبويه.

والدَّافق: هو المندفق بشدة قوته، وأراد ماءين: ماء الرجل وماء المرأة؛ لأن الإنسان مخلوق منهما، لكن جعلهما ماءً واحداً لامتزاجهما.

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ١١٧.
(٢) سقط من: ب.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٥.
(٤) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٤٩، والدر المصون ٦/ ٥٠٧.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٥.

وقال ابن عباس: «دافق» لزج[١].

قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾، أي: هذا الماء من بين الصلب، أي: الظَّهر وقرأ العامة: «يَخْرجُ» مبنياً للفاعل، **وابنُ أبي عبلة وابن مقسم**[٢]: مبنياً للمفعول. **وقرأ ـ أيضاً**[٣] ـ: **وأهل «مكة»**: «الصُّلُبِ» بضم الصاد واللام.

وقرأ اليماني[٤]: بفتحها؛ ومنه قول العجَّاج: [الرجز]

٥١٦٣ ـ فِي صَلَبٍ مِثْلِ العِنَانِ المُؤدَمِ[٥]

[وفيه أربع لغات: «صُلْب، وصُلُبٌ، وصَلَبٌ، وصَالب، ومنه قوله][٦]: [المنسرح]

٥١٦٤ ـ تُنْقَلُ من صَالَبٍ إلى رحِمٍ ....[٧]

والترائب: جمع تريبة، وهي موضع القلادة من عظام الصَّدر؛ لأن الولدَ مخلوق من مائهما؛ فماء الرجل في صلبه، وماء المرأة في ترائبها، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]؛ وقال امرؤ القيس: [الطويل]

٥١٦٥ ـ مُهَفْهَفَةٌ بَيْضاءُ غَيْرُ مُفاضَةٍ تَرائِبُها مَصْقُولةٌ كالسَّجَنْجَلِ[٨]

وقال آخر: [الكامل]

٥١٦٦ ـ والزَّعْفرَانُ على تَرائِبِهَا شَرِقٌ بِهِ اللَّبَّاتُ والنَّحرُ[٩]

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٤)، عن ابن عباس.
(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٤٩، والدر المصون ٦/ ٥٠٧.
(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٥، والبحر المحيط ٨/ ٤٤٩، والدر المصون ٦/ ٥٠٧.
(٤) السابق.
(٥) عجز بيت وصدره:

ريّا العظام فخمة المخدم

ينظر اللسان (صلب)، والقرطبي ٦/١٩، والبحر ٨/ ٤٤٩، والدر المصون ٦/ ٥٠٧.
(٦) في أ ما يلي:
وتقدمت لغاته في سورة «النساء» عند قوله تعالى: ﴿**والذين من أصلابكم**﴾ وأعرفها صالب، كقول ابن عباس ـ ءضي الله عنهما ـ.
(٧) تقدم.
(٨) ينظر ديوان امرىء القيس (١١٥)، وشرح المعلقات للزرزني (٣٠)، وإعراب القرآن ٥/ ٢٠٠، ومعاني القرآن وإعرابه ٥/ ٣١٢، واللسان (ترب)، والقرطبي ٢٠/ ٥، والبحر ٨/ ٤٤٧، والدر المصون ٦/ ٥٠٧.
(٩) هو للمخبل السعدي، ينظر اللسان (ترب)، والطبري ٣٠/ ٦٣، ومجمع البيان ١٠/ ٧١٤، والقرطبي ٢٠/ ٦، والبحر المحيط ٨/ ٤٤٧، والدر المصون ٦/ ٥٠٧.

وقال المثقبُ العبديُّ: [الوافر]

٥١٦٧ ـ ومِنْ ذَهَبٍ يَلوحُ عَلى تَريبٍ كَلوْنِ العَاجِ لَيسَ لَهُ غُضُونُ[1]

وقال الشاعر: [الرجز]

٥١٦٨ ـ أشْرَفَ ثَدْيَاهَا على التَّريبِ[2]

وعن ابن عباسٍ وعكرمة: الترائب: ما بين ثدييها[3].

وقيل: التَّرائب: التراقي.

وقيل: أضلاع الرجل التي أسفل الصلب.

وحكى الزجاجُ: أن الترائب أربعة أضلاع من يمنة الصدر، وأربعة أضلاع من يسرة الصدر.

وعن ابن عبَّاسٍ: أطراف المرء: يداه ورجلاه وعيناه[4]، وهو قول الضحاك.

وقيل: عصلرة القلب[5]، وهو قول معمر بن أبي حبيبة.

قال ابنُ عطية[6]: وفي هذه الأقوال تحكم على اللغة.

وقال سعيدُ بنُ جبيرٍ: هو الجيد[7].

وقال مجاهد: ما بين المنكبين والصدر[8].

وقال القرطبيُّ[9]: والمشهور من كلام العرب أنها عظام الصَّدْر والنَّحْر.

جاء في الحديث: أن الولد يخلقُ من ماء الرجل، يخرج من صلبه العظم والعصب، وماء المرأة التي يخرج من ترائبها اللحم والدم[10].

حكى القرطبيُّ[11]: أنَّ ماء الرجل يخرج من الدِّماغ، ثم يجتمع[12] في الأنثيين، وهذا لا يعارض: «مِنْ بَيْنِ الصُّلبِ والتَّرائبِ»؛ لأنه إن نزل من الدِّماغ، فإنما يمرُّ بين الصلب والترائب.

قال قتادةُ: المعنى: يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة[13].

---

(١) ينظر شعر المثقب العبدي ص (٣٢)، والمفضليات ص ٥٧٩، والطبري ٣٠/٩٣، وإعراب القرآن ٥/١٩٩، واللسان (ترب) والقرطبي ٢٠/٦، والبحر ٨/٤٤٧، والدر المصون ٦/٥٠٧.

(٢) ينظر ابن الشجري ٢/٣٤١، والقرطبي ٢٠/٦.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٥٣٤).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٥٣٥).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٥٣٦).

(٦) ينظر المحرر الوجيز ٥/٤٦٥.

(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/٥).

(٨) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٥٣٥).

(٩) ينظر الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٥.

(١٠) تقدم تخريجه.

(١١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٦.

(١٢) في أ: ينزل.

(١٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٥٣٥).

وحكى الفراء: أنَّ مثل هذا يأتي عن العرب، فيكون معنى من بين الصلب: من الصلب.

والمعنى من صلب الرجل وترائب المرأة، ثم إنَّا نعلم أن النطفة من جميع أجزاء البدن، ولذلك يشبه الرجل والديه كثيراً، وهذه الحكمة في غسل جميع الجسد من خروج المني، وأيضاً فالمكثر من الجماع يجد وجعاً في صلبه وظهره، وليس ذلك إلا لخلو صلبه عما كان محتبساً من الماء.

قال المهدويُّ: من جعل المنيَّ يخرج من بين صلب الرجل وترائبه، فالضمير في «يخرج» للماء، ومن جعله من بين صلب الرجل وترائب المرأة، فالضمير للإنسان.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾. الضمير للخالق المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿خُلِقَ﴾؛ لأنه معلوم أن لا خالق سواه سبحانه.

قوله: ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾، في الهاء وجهان:

أحدهما: أنه ضمير الإنسان أي على بعثه بعد موته، وهو قول ابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة[(١)]، وهو اختيار الطبري[(٢)]، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾.

والثاني: أنه ضمير الماء، أي: يرجع المنيّ في الإحليل أو الصلب[(٣)].

قاله الضحاكُ ومجاهدٌ، والأول قول الضحاك أيضاً وعكرمة.

[وعن الضحاك أيضاً أن المعنى أنه على رد الإنسان من الكِبَرِ إلى الشباب، ومن الشباب إلى الكبر. حكاه المهدوي[(٤)].

وفي الماوردي والثعلبي: إلى الصِّبا ومن الصِّبا إلى النُّطفة[(٥)].

وقال ابن زيد: إنه على حبس ذلك الماء حتى يخرج لقادر.

وقال الماوردي: يحتمل أنه على أن يعيده إلى الدنيا بعثه إلى الآخرة؛ لأن الكفار يسألون فيها الرجعة، والرجع مصدر رجعت الشيء أي: رددته][(٦)].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٣٧) عن قتادة.

(٢) ينظر: جامع البيان ١٢/ ٥٣٧.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٣٦)، عن مجاهد وعكرمة والضحاك.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٦١)، عن مجاهد وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر. وذكره أيضاً عن عكرمة وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٣٧).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٣٧)، عن ابن زيد.

(٦) سقط من: ب.

قوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾. فيه أوجه، وقد رتبها أبو البقاءِ على الخلاف في الضمير، فقال[١]: على القول بكون الضمير للإنسان، فيه أوجه:

أحدها: أنه معمول لـ «قادر».

إلاَّ أنَّ ابن عطية قال[٢] ـ بعد أن حكى أوجهاً عن النحاة ـ: «وكل هذه الفرق فرَّت من أن يكون العامل «لقادر»، لئلاً يظهر من ذلك تخصيص القدرة في ذلك اليوم وحدهُ».

ثم قال: «وإذا تؤمل المعنى وما يقتضيه فصيح كلام العرب جاز أن يكون العامل «لقادر»، وذلك أنه قال: «إنَّهُ على رجعهِ لقادرٌ»؛ لأنه إذا قدر على ذلك في هذا الوقت كان في غيره أقدر بطريق الأولى.

الثاني: أن يكون العامل مضمر على التبيين، أي: يرجعه يوم تبلى.

الثالث: تقديره: اذكر، فيكون مفعولاً به، وعلى عوده على الماء يكون العامل فيه: اذكر» انتهى ملخصاً.

وجوَّز بعضهم أن يكون العامل فيه «نَاصِرٍ»، وهو فاسد؛ لأن ما بعد «ما» النافية وما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلهما.

وقيل: العامل «رَجْعِهِ»، وهو فاسدٌ، لأنه قد فصل بين المصدر ومعموله بأجنبي، وهو خبر «إنَّ». وبعضهم يقتصره في الظرف.

قوله: «تُبلَى» تختبر وتعرف؛ قال الراجز: [الرجز]

٥١٦٩ ـ قَدْ كُنْتَ قَبْلَ اليَوْمِ تَزْدَرِينِي فَاليَومَ أبْلُوكَ وتَبْتَلِينِي[٣]

أي: أعرفك وتعرفني.

وقيل: ﴿تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ تخرج من مخبآتها وتظهر، وهو كل ما استسرّه الإنسان من خير، أو شر، وأضمره من إيمان، أو كفر.

قال ابن الخطيب[٤]: والسرائرُ: ما أسر في القلوب، والمراد هنا: عرض الأعمال، ونشر الصحف، أو المعنى: اختبارها، وتمييز الحسن منها من القبيح لترتيب الثواب والعقاب.

وقال رسول الله ﷺ: «ائْتَمَنَ اللَّهُ ـ تعَالَى ـ خَلقهُ على أرْبَع: الصَّلاةِ، والزَّكاةِ والصِّيام، والغُسْلِ، وهُنَّ السَّرائِرُ الَّتي يَختبِرُهَا اللَّهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ يَوْمَ القِيامَةِ»[٥]. ذكره المهدوي.

وروى الماورديُّ عن زيدِ بن أسلم، قال: قال رسول الله ﷺ: الأمَانَةُ ثلاثٌ:

---

(١) ينظر: الإملاء ٢/ ٢٨٥.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٦.
(٣) ينظر القرطبي ٢٠/ ٧.
(٤) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ١١٩.
(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٦١)، وعزاه إلى البيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي الدرداء مرفوعاً.

الصَّلاةُ، والصَّومُ، والجنابةُ، اسْتأمَنَ اللَّهُ ـ تعالى ـ ابْنَ آدمَ على الصَّلاةِ، فإن شاء قال: صلَّيْتُ، ولمْ يُصَلِّ، واسْتَأمنَ اللَّهُ تعالى ابْنَ آدَم على الصَّوم، فإنْ شَاءَ قَالَ: [صُمْتُ ولَمْ يَصُمْ واسْتَأمنَ اللَّهُ تعالى ابْنَ آدَم على الجَنابةِ فإنْ شَاءَ قَالَ:][١] اغْتسَلْتُ ولَمْ يَغْتسِلْ، اقْرَأوا إن شِئْتُم: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[٢].

[وقال مالك ـ رضي الله عنه ـ: الوضوء من السرائر، والسرائر ما في القلوب يجزي الله به العباد][٣].

وقال ابن العربيِّ: قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: يغفر للشهيد إلاَّ الأمانة، والوضوء من الأمانة، والصلاة والزكاة من الأمانة، والوديعة من الأمانة، وأشد ذلك الوديعة، تمثل له على هيئتها يوم أخذها، فيرمى بها في قعر جهنم، فيقال له: أخرجها، فيتبعها، فيجعلها في عنقه، وإذا أراد أن يخرج بها زلت، فيتبعها، فيجعلها في عنقه، فهو كذلك دهر الداهرين[٤].

وقال أبي بن كعب: من الأمانة أن ائتمنت المرأة على فرجها[٥].

وقال سفيان: الحيضة والحمل من الأمانة، إن قالت: لم أحضْ وأنا حامل صدقت ما لم يأت ما يعرف فيه أنها كاذبة[٦].

قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾، أي: فما للإنسان من قوّة، أي: منعةٍ تمنعه، ولا ناصرٍ ينصره عن ما نزل به.

قال ابن الخطيب[٧]: ويمكن أن يتمسك بهذه الآية على نفي الشفاعة، لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨] الآية.

والجواب ما تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾

قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾.

قيل: الرَّجْعُ: مصدر، بمعنى رجوع الشمس والقمر إليها، والنجوم تطلع من ناحيته، وتغيب في أخرى.

---

(١) سقط من: ب.
(٢) ينظر: تفسير القرطبي (٢٠/ ٨)، وعزاه إلى الثعلبي.
(٣) سقط من: ب.
(٤) ينظر: تفسير القرطبي (٢٠/ ٨)، وعزاه إلى الثعلبي.
(٥) ينظر: المصدر السابق. (٦) ينظر: المصدر السابق.
(٧) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ١٢٠.

وقيل: الرَّجعُ: المطر؛ قال المتنخِّل، يصف سيفاً يشبههُ بالماء: [السريع]

٥١٧٠ ـ أبْيَضُ كالرَّجعِ رَسُوبٌ إذَا مَا ثَاخَ في مُحْتَفلٍ يَخْتَلِي(١)

وقال: [البسيط]

٥١٧١ ـ رَبَّاءُ شَمَّاءُ لا يَأوِي لقُلَّتِهَا إلاَّ السَّحَابُ وإلاَّ الأوبُ والسَّبلُ(٢)

وقال الخليل: المطر نفسه، وهذا قول الزجاج.

قال ابن الخطيب(٣): واعلم أن كلام الزجاج، وسائر علماء اللغة «صريح» في أن الرجع ليس اسماً موضوعاً للمطر، بل سمي رجعاً مجازاً، وحسن هذا المجاز وجوه:

أحدها: قال القفال: كأنه من ترجيع الصوت وهو إعادته، ووصل الحروف به، وكذا المطر، لكونه يعود مرة بعد أخرى سمِّي رجعاً.

وثانيها: أن العرب كانوا يزعمون أنَّ السَّحاب يحمل الماء من بحار الأرض، ثم يرجعه إلى الأرض.

والرجع ـ أيضاً ـ نبات الربيع.

وقيل: «ذَاتِ الرَّجعِ» أي: ذات النفع.

وقيل: ذات الملائكة، لرجوعهم فيها بأعمال العباد، وهذا قسم.

﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ قسمٌ آخر، أي: تتصدع عن النبات، والشجر، والثمار، والأنهار، نظيره: ﴿ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا﴾ [عبس: ٢٦].

والصَّدعُ: بمعنى الشق؛ لأنه يصدع الأرض، فتصدع به، وكأنَّه قال(٤): والأرض ذات النبات الصادع للأرض.

[وقال مجاهد: الأرض ذات الطريق التي تصدعها المشاة.

وقيل: ذات الحرث لأنه يصدعها.

وقيل: ذات الأموات لانصداعها للنشور.

وقيل: هما الجبلان بينهما شق وطريق نافذ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا﴾](٥) [الأنبياء: ٣١].

---

(١) ينظر ديوان الهذليين ٢/ ١٢، ومجاز القرآن ٢/ ٢٩٤، ومعاني القرآن وإعرابه ٥/ ٣١٢، والقرطبي ٢٠/ ٨، والدر المصون ٦/ ٥٠٨، وفتح القدير ٥/ ٤٢٠.

(٢) البيت للمتنخل الهذلي ينظر: خزانة الأدب ٥/ ٣، ٧، وشرح أشعار الهذليين ٣/ ١٢٨، وشرح شواهد الإيضاح ص ٣١٥، وشرح المفصل ٣/ ٥٨، ٥٩، واللسان (أوب).

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ١٢٠.

(٤) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٢٤٩)، والقرطبي (٢٠/ ٩).

(٥) سقط من: ب.

قال ابن الخطيب[1]: واعلم أنَّه تعالى، كما جعل كيفية خلقه الحيوان دليلاً على معرفة المبدأ والمعاد، ذكر في هذا القسم كيفية خلقه النبات.

فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ أي: كالأب، «والأرض ذات الصدع» كالأم، وكلاهما من النعم العظام؛ لأن نعم الدنيا موقوفة على ما ينزل من السماء متكرراً، وعلى ما ينبت من الأرض كذلك، ثم أردف هذا القسم بالمقسم عليه، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾. وهذا جواب القسم، والضمير في «إنَّه» للقرآن، أي: إن القرآن يفصل بين الحق والباطل.

وقال القفالُ: يعود إلى الكلام المتقدم والمعنى: ما أخبرتكم به من قدرتي على إحيائكم يوم تبلى سرائركم قول فصل، وحق، والفصل: الحكم الذي ينفصل به الحق عن الباطل، ومنه فصل الخصومات، وهو قطعها بالحكم الجزم، [ويقال: هذا قول فصل قاطع للشر والنزاع.

وقيل: معناه جد][2] لقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾. أي: باللعب، والهزل: ضد الجد والتشمير في الأمر، يقال: هزل يهزل.

قال الكميتُ: [الطويل]

٥١٧٢ ـ تَجِدُّ بِنَا فِي كُلِّ يَومٍ وتَهْزِلُ[3]

قوله: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا﴾، أي: أنَّ أعداء الله يكيدون كيداً، أي: يمكرون بمحمد ﷺ وأصحابه مكراً.

قيل: الكَيْدُ، إلقاء الشبهات، كقولهم: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ [المؤمنون: ٣٧] ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس: ٧٨]، ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ﴾ [ص: ٥]، ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، ﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ [الفرقان: ٥].

وقيل: الطعن فيه بكونه ساحراً، أو شاعراً، أو مجنوناً، حاشاه من ذلك ﷺ.

وقيل: قصدهم قتله، لقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: ٣٠] الآية.

وأما قوله: ﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾. أي: أجازيهم جزاء كيدهم.

---

(١) ينظر الفخر الرازي ٣١/ ١٢١. (٢) سقط من: ب.

(٣) عجز بيت وصدره:

أَرَانَا عَلَى حُبِّ الحَيَاةِ وَطُولِهَا

ينظر الكميت وقصائده الهاشميات ص ١٤١، واللسان (هزل)، والقرطبي ٢/ ٩، والبحر ٨/ ٤٤٨، والدر المصون ٦/ ٥٠٨.

وقيل: هو ما أوقع الله ـ تعالى ـ بهم يوم «بدر» من القتل، والأسر.

وقيل: استدراجهم من حيث لا يعلمون.

وقيل: كيد الله تعالى، بنصره وإعلاء درجته ﷺ تسمية لأحد المتقابلين باسم الآخر، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠]؛ وقول الشاعر: [الوافر]

٥١٧٣ ـ ألاَ لاَ يـجْـهـلَـنْ أحَـدٌ عَـلـيْـنَـا ... فَـنـجـهَـلَ فـوْقَ جَـهْـلِ الـجَـاهِـلـيـنَـا[1]

وقوله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ [الحشر: ١٩]، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢]. قوله: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾. أي: لا تدع بهلاكهم، ولا تستعجل، وارض بما تريده في أمورهم، ثم نسخت بقوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥].

قوله: ﴿أَمۡهِلۡهُمۡ﴾. هذه قراءة العامة، لما كرر الأمر توكيداً خالف بين اللفظين.

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «مَهِّلهُمْ» كالأول، ومهَّل وأمْهَل بمعنى مثل: نزل وأنزل، والإمهال والتَّمهيل: الانتظار، يقال: أمهلتك كذا، أي: انتظرتك لتفعله، والاسم: المهلة والاستمهال: الانتظار، والمَهْل: الرِّفقُ والتُّؤدةُ، وتمهل في أمره: أي: أتاه، وتمهَّلَ تمهيلاً: اعتدل وانتصب، والامتهال: سكون وفتور، ويقال: مهلاً يا فلان، أي رفقاً وسكوناً.

قوله: ﴿رُوَيۡدَۢا﴾. مصدر مؤكد لمعنى العامل، وهو تصغير إرواد على الترخيم، وقيل: بل هو تصغير «رود» كذا قال أبو عبيد.

وأنشد: [البسيط]

٥١٧٤ ـ كَـأنَّـهُ ثَـمِـلٌ يَـمْـشِـي عـلـى رَوَدِ[2]

أي: على مهل. واعلم أن «رويداً»: يستعمل مصدراً بدلاً من اللفظ بفعله، فيضاف تارة، كقوله تعالى: ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]، ولا يضاف أخرى، نحو: رويداً زيداً، ويقع حالاً، نحو: ساروا رويداً، أي: متمهلين، ونعت المصدر، نحو: «ساروا رويداً»، أي: سيراً رويداً، وتفسير «رويداً» مهلاً، وتفسير «رويدك» أمهل؛ لأن الكاف إنما تدخله إذا كان بمعنى: «افعل» دون غيره، وإنَّما حُرِّكت الدال لالتقاء الساكنين، ونصب نصب

---

(١) ينظر سمط اللآلىء ١/ ٥٨٠، والمحرر الوجيز ١/ ١٥٩، وشرح شواهد الكشاف ص ٥٥١.

(٢) عجز بيت للجموح الظفري، وصدره:

تـكَـادُ لا تـكـلـم الـبـطـحـاء وطـأتـهـا

ينظر ابن يعيش ٤/ ١٩، واللسان (ورد)، والقرطبي ٢٠/ ٩، وشرح القصائد السبع لابن الأنباري ٤٠٣، والدر المصون ٦/ ٥٠٨.

المصادر، وهو مصغَّر مأمور به؛ لأنه تصغير الترخيم من «إرواد»: وهو مصدر: «أرود، يرود»، وله أربعة أوجه: اسماً للفعل، وصفة، وحالاً، ومصدراً، وقد تقدم ذكرها.

قال بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «رويداً» أي: قريباً[١].

وقال قتادةُ: قليلا[٢].

وقيل: ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾: إلى يوم القيامة، وإنما صغَّر ذلك من حيث إن كل آت قريب.

وقيل: «أمهلهم رويداً» إلى يوم يرد.

روى الثعلبي عن أبي بن كعبٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ أعطاهُ اللَّهُ تعَالى مِنَ الأجْرِ بعَددِ كُلِّ نجمٍ في السَّماءِ عَشْرَ حَسَناتٍ»[٣]. والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٤١)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٦٢)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٤١)، عن قتادة.

(٣) تقدم تخريجه مراراً.

سورة الأعلى

مكيَّةٌ في قول الجمهور.

وقال الضحاكُ: مدنيَّة، وهي تسع عشرة آية، واثنتان وسبعون كلمة ومائتان وأربعة وثمانون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾. يستحب للقارىء إذا قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ أن يقول عقيبه: «سبحان ربي الأعلى» كذا جاء في الحديث[1]، وقال جماعة من الصحابة والتابعين وقال ابنُ عباسٍ والسديُّ: معنى «سبح اسم ربك الأعلى» أي: عظِّم ربك الأعلى، والاسم صلة، قصد بها تعظيم المسمى[2].

كقول لبيد: [الطويل]

٥١٧٥ ـ إِلَى الحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلامِ عَلَيْكُمَا ....[3]

[وقيل: نزه ربك عن السوء، وعما يقوله الملحدون، وذكر الطبري أن المعنى: نزه اسم ربك الأعلى عن أن تسمي به أحداً سواه.

وقيل: المعنى: نزه تسمية ربك وذكرك إياه أن تذكره إلا وأنت خاشع معظّم لذكره، وجعلوا الاسم بمعنى التسمية][4].

---

(١) أخرجه أبو داود (١/ ٢٩٦)، كتاب: الصلاة، باب: الدعاء في الصلاة رقم (٨٨٣)، وأحمد (١/ ٢٣٢)، والبيهقي (٢/ ٣١٠)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٦٦)، وزاد نسبته إلى ابن مردويه.

وقد ورد موقوفاً عن ابن عباس من فعله، أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٤٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٦٦)، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد.

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٢٥١)، والبغوي (٤/ ٤٧٥)، والقرطبي (٢٠/ ١١).

(٣) تقدم.

(٤) سقط من: ب.

قال ابن الخطيب[1]: معنى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ أي: نزهه عن كل ما لا يليق به في ذاته، وفي صفاته، وفي أفعاله، وفي أسمائه، وفي أحكامه.

أمَّا في ذاته، فأن تعتقد أنها ليست من الجواهر والأعراض.

وأما في صفاته، فأن تعتقد أنها ليست محدثة ولا متناهية ولا ناقصة.

وأمَّا في أفعاله، فأن تعتقد أنه سبحانه مالك مطلق لا اعتراض لأحد عليه في أمر من الأمور.

وقالت المعتزلة: هو أن تعتقد أن كل ما فعله صواب حسن، وأنه سبحانه لا يفعل القبيح، ولا يرضى به، وأما في أسمائه: فأن لا تذكره ـ سبحانه وتعالى ـ إلاَّ بالأسماء التي لا توهم نقصاً بوجه من الوجوه، سواء ورد الإذن فيها أو لم يرد.

وأمَّا في أحكامه: فهو أن تعلم أن ما كلفنا به ليس لنفعٍ يعود إليه، بل لمحض المالكية على قولنا، أو لرعاية مصالح العباد على قول المعتزلة.

فصل فيمن استدل بالآية على أن الاسم نفس المسمى

قال ابن الخطيب[2]: تُمسِّك بهذه الآية في أن الاسم نفس المسمى.

وأقول: الخوض في هذه المسألة لا يمكن إلا بعد الكشف عن محل النزاع، فنقول: إن كان الاسم عبارة عن اللفظ؛ والمسمى عبارة عن الذات، فليس الاسم المسمى بالضرورة، فكيف يمكن الاستدلال على ما علم بالضرورة؟ نعم هنا نكتة، وهي أنَّ الاسم هو اللفظ الدَّال على معنى في نفسه من غير زمن، والاسم كذلك، فيكون اسماً لنفسه، فالاسم هنا نفس المسمى، فعلى هذا يَرِدُ من أطلق ذلك؛ لأن الحكم بالتعميم خطأ، والمراد: الذي يدل على أن الاسم نفس المسمى هو أن أحداً لا يقول: سبحان الله وسبحان اسم ربنا، فمعنى «سبح اسم ربك» سبح ربك، والربُّ أيضاً اسم، فلو كان غير المسمى لم يجز أن يقع التسبيح عليه.

وهذا الاستدلال ضعيف، لما بيَّنا أنه يمكن أن يكون وارداً بتسبيح الاسم، ويمكن أن يكون المراد: سبح المسمى، وذكر الاسم صلة فيه، ويكون المراد: سبح باسم ربك، كما قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]، ويكون المعنى: سبح بذكر أسمائه.

فصل في تفسير الآية

روى أبو صالح عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: صلِّ بأمر ربك الأعلى قال: وهو أن يقول: «سُبحانَ رَبِّيَ الأعْلَى»[3] وروي عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ وابن عباسٍ، وابن

---

(١) ينظر الفخر الرازي ٣١/ ١٢٤.

(٢) السابق.

(٣) ينظر المصدر السابق.

عمر، وابن الزبيرِ، وأبي موسى، وعبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنهم ـ كانوا إذا افتتحوا قراءة هذه السورة، قالوا: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى» امتثالاً لأمره في ابتدائها، فيختار الاقتداء بهم في قراءتهم، لا أن سبحان ربيّ الأعلى من القرآن، كما قاله بعض أهل[1] الزَّيْغ.

وقيل: إنَّها في قراءة أبيّ[2]: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى».

وروى ابنُ الأنباري بإسناده إلى عيسى بن عمر عن أبيهِ، قال: قرأ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في الصلاة: «سَبِّح اسْمَ ربِّك الأعْلَى»، ثم قال: سبحان ربي الأعلى، فلما انقضت الصلاة، قيل له: يا أمير المؤمنين، أتزيد هذا في القرآن؟ قال: ما هو؟ قالوا: سبحان ربي الأعلى، قال: لا، إنما أمرنا بشيء فقلته[3].

وعن عقبة بن عامرٍ الجهنيِّ، قال: لما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال رسول الله ﷺ: «اجْعَلُوهَا في سُجودِكُمْ»[4].

قال القرطبيُ[5]: «هذا كله يدل على أن الاسم هو المسمى؛ لأنهم لم يقولوا: سبحان اسم ربي الأعلى».

وقيل: معناه: ارفع صوتك بذكر ربك؛ قال جرير: [الكامل]

٥١٧٦ ـ قَبحَ الإلهُ وجُوهَ تَغْلبَ كُلَّمَا ... سَبحَ الحَجيجُ وكَبَّرُوا تَكْبِيرَا[6]

قوله: «الأعلى»: يجوز جره: «صفة» لـ «ربك»، ونصبه صفة لـ «اسم»، إلا أن هذا يمنع أن يكون «الذي» صفة لـ «ربك»، بل يتعين جعله نعتاً لـ «اسم»، أو مقطوعاً لئلا يلزم الفصل بين الصفة والموصوف بصفة غيره؛ إذ يصير التركيب، مثل قولك: جاءني غلامُ هندٍ العاقلُ الحسنة، فيفصل بـ «العاقل» بين «هند» وبين صفتها. وتقدم الكلام في إضافة الاسم إلى المسمى.

قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾.

قال ابن الخطيب[7]: يحتمل أن يريد النَّاس خاصة، ويحتمل أن يريد الحيوان،

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٤٢)، عن علي وابن عمر وابن عباس. وينظر المصادر السابقة.

(٢) ونسبها الزمخشري لعلي، ينظر: الكشاف ٤/ ٧٣٨، وفي المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٨ نقلاً عن الطبري أن ابن عمر وعليًا قرءا كذلك، قال ابن عطية: وهي قراءة أبي موسى الأشعري، وابن الزبير، ومالك بن أبي دينار.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٢)، وعزاه إلى ابن الأنباري.

(٤) تقدم تخريجه في آخر سورة الواقعة. (٥) ينظر الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٢.

(٦) ينظر شرح ديوان جرير ص ٥٤٢، والإتقان في علوم القرآن ١/ ٣٦٣ والقرطبي ٢٠/ ١٢.

(٧) الفخر الرازي ٣١/ ١٢٦.

ويحتمل أن يريد كل شيء خلقه الله تعالى، فمن حمله على الإنسان ذكر للتسوية وجوهاً:

أحدها: اعتدال قامته، وحسن خلقته على ما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] وأثنى على نفسه بسبب خلقه إياه بقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾.

وثانيها: أن كل حيوان مستعد لنوعٍ واحدٍ من الأعمال فقط، وأما الإنسان، فإنه خلقه بحيثُ يمكنه أن يأتي بجميع الأعمال بواسطة الآلات.

وثالثها: أنه ـ تعالى ـ هيأه للتكليف، والقيام بأداء العبادات.

قال بعضهم: خلق في أصلاب الآباء، وسوَّى في أرحام الأمهات، ومن حمله على جميع الحيوانات، فمعناه: أنه أعطى كلَّ حيوان ما يحتاج إليه من آلاتٍ، وأعضاء، ومن حمله على جميع المخلوقات كان المراد من التسوية هو أنه ـ تعالى ـ قادر على كل الممكنات، عالم بجميع المعلومات، يخلق ما أراد على وفق إرادته موصوفاً بالإحكام والإتقان، مبرأ عن النقص والاضطراب.

قوله: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾؛ **قرأ الكسائيُ وعليٌ ـ رضي الله عنه**(١) **ـ والسلميُ**: «قدر» بتخفيف الدال، والباقون: بالتشديد.

والمعنى: قدر كل شيء بمقدار معلوم.

ومن خفف، قال القفَّال(٢): معناه: ملك فهدى، وتأويله: أنه تعالى خلق كل شيء، فسوى، وملك ما خلق، أي تصرف فيه كيف شاء وأراد هذا هو الملك، فهداه لمنافعه ومصالحه.

ومنهم من قال: إنهما لغتان بمعنى واحدٍ، وعليه قوله تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣] بالتشديد والتخفيف، وقد تقدم.

فصل في معنى الآية

قال مجاهدٌ: قدَّر الشقاوة والسعادة، وهدى للرشد والضلالة، وعنه: هدى الإنسان للسعادة والشقاوة، وهدى الأنعام لمراعيها(٣).

وقيل: قدَّر أقواتهم وأرزاقهم، وهداهم لمعاشهم إن كانوا أناساً، ولمراعيهم إن كانوا وحوشاً.

---

(١) ينظر: السبعة ٦٨٠، والحجة ٦/٣٩٨، وإعراب القراءات ٢/٤٦٦، وحجة القراءات ٧٥٨، والقرطبي ٢٠/١٢.

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٣١/١٢٦.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٥٤٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٦٦)، وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وعن ابن عبَّاسٍ والسديِّ ومقاتلٍ والكلبيِّ في قوله تعالى: «فَهَدَى»: عرف خلقه كيف يأتي الذكرُ الأنثى، كما قال تعالى في سورة «طه»: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، أي: الذكر للأنثى(١).

وقال عطاء: جعل لكل دابَّة ما يصلحها، وهداها له(٢).

وقيل: «قدَّر فَهَدى» أي: قدَّر لكل حيوانٍ ما يصلحه، فهداهُ إليه، وعرفه وجه الانتفاع به، يقال: إن الأفعى إذا أتت عليها ألفُ سنة عميت، وقد ألهمها الله تعالى، أن مسح العينين بورق الرازيانج الغض، يرد إليها بصرها، فربما كانت في بريَّة بينها وبين الريف مسيرة أيام، فتطوي تلك المسافة على طولها، وعماها، حتى تهجم في بعض البساتين على شجرة الرَّازيانج، لا تخطئها، فتحك بها عينها، فترجع باصرة بإذن الله تعالى.

[وهدايات الإنسان إلى أن مصالحه من أغذيته وأدويته، وأمور دنياه ودينه وإلهامات البهائم والطيور، وهوام الأرض باب ثابت واسع، فسبحان ربي الأعلى](٣).

وقال السديُّ: قدَّر مدة الجنين في الرحم، ثم هداه إلى الخروج من الرحم(٤).

وقال الفراء: «قدَّى فهدى» أي: وأضل، فاكتفى بذكر أحدهما، كقوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، ويحتمل أن يكون بمعنى «دَعَا» إلى الإيمان كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] أي لتدعو وقد دعا الكل إلى الإيمان](٥).

وقيل: «فَهَدَى» أي: دلَّهم بأفعاله على توحيده وكونه عالماً قادراً.

واعلم أن الاستدلال بالخلق وبالهدى، هي معتمد الأنبياء.

قال إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨].

وقال موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لفرعون: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وقال هنا ذلك، وإنما خصت هذه الطريقة لوضوحها وكثرة عجائبها.

قوله: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ﴾، أي: النبات، لما ذكر سبحانه ما يختص بالناس، أتبعه بما يختص بسائر الحيوان من النعم، أي: هو القادر على إنبات العشب، لا كالأصنام التي عبدتها الكفرةُ، والمرعى: ما تخرجه الأرض من النبات، والثمار، والزروع، والحشيش.

---

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٢٥٢) عن السدي وذكره القرطبي (٢٠/ ١٢)، عن ابن عباس والسدي ومقاتل والكلبي.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٢)، عن عطاء.

(٣) سقط من: ب.

(٤) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٢٥٢).

(٥) سقط من ب.

قال ابنُ عبَّاسٍ: «المرعى»: الكلأ الأخضر[١].

قوله: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾. «غثاء»: إما مفعول ثانٍ، وإما حال.

«والغُثَّاء»: ـ بتشديد الثاء وتخفيفها ـ وهو الصحيح، ما يغترفه السيل على جوانب الوادي من النبات ونحوه؛ قال امرؤ القيس: [الطويل]

٥١٧٧ ـ كَأَنَّ طَميَّاتِ المُجيمِرِ غُدوَةً مِنَ السَّيلِ والأغثَاءِ فلكةُ مِغزَلِ[٢]

ورواه الفراء: «والأغثاء» على الجمع، وفيه غرابة من حيث جمع «فعالاً» على «أفعال».

قوله تعالى: ﴿أَحْوَىٰ﴾. فيه وجهان:

أظهرهما: أنه نعت لـ «غثاء».

والثاني: أنه حال من المرعى.

قال أبو البقاء[٣]: «فقدَّم بعض الصلة»، يعني: أن الأصل أخرج المرعى أحوى، فجعله غثاء.

قال شهابُ الدِّين[٤]: ولا يسمى هذا تقديماً لبعض الصلة.

والأحْوَى: «أفعل» من الحُوَّة، وهي سوادٌ يضرب إلى الخُضْرَة؛ قال ذو الرُّمَّة: [البسيط]

٥١٧٨ ـ لَمْيَاءُ فِي شَفتيهَا حُوَّةٌ لَعَسٌ وفِي اللِّثاتِ وفي أنيَابِهَا شَنَبُ[٥]

وقد استدلَّ بعض النحاة على وجود بدل الغلط بهذا البيت.

وقيل: خضرة عليها سواد، والأحْوَى: الظبي؛ لأن في ظهره خطَّين؛ قال: [الطويل]

٥١٧٩ ـ وفِي الحيِّ أحْوَى يَنفضُ المَرْدَ شَادِنٌ مُظَاهِرُ سِمْطَيْ لُؤلُؤٍ وزَبَرْجَدِ[٦]

ويقال: رجل أحْوَى، وامرأة حوَّاءُ، وجمعهما «حُوٌّ» نحو: أحْمَر وحَمْراء وحُمْر، قال القرطبيُّ[٧]: «وفي «الصِّحاح»: «والحُوَّةُ: حمرة الشفة، يقال: رجل أحْوَى وامرأة

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٣).

(٢) ينظر ديوان امرىء القيس (٥)، والقرطبي ٢٩/ ١٣، والبحر ٨/ ٤٥٣.

(٣) الإملاء ٢/ ٢٨٥.

(٤) الدر المصون ٦/ ٥٠٩.

(٥) تقدم.

(٦) البيت لطرفة بن العبد، ينظر ديوانه (٤٧)، شرح المعلقات السبع للزوزني، واللسان (سمط)، والبحر ٨/ ٤٥٢، والدر المصون ٦/ ٥١٠.

(٧) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٣.

حوَّاء وقد حويتُ، وبعير أحْوَى: إذا خالط خضرته سواد وصُفْرَة، قال: وتصغير أحْوَى: أحَيْوِ في لغة من قال: أسَيْود».

قال عبد الرحمن بن زيدٍ: هذا مثلٌ ضربه الله تعالى للكُفَّار لذهاب الدنيا بعد نضارتها[1]، والمعنى: أنه صار كذلك بعد خضرته.

قال أبو عبيدة: فجعله أسود من احتراقه وقدمه، والرطب إذا يبس اسود.

قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾﴾

قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، قال الواحدي: «سَنُقرئُكَ»: أي: سنجعلك قارئاً، أي: نؤهلك للقراءة فلا تنسى ما تقرأه، أي: نجعلك قارئاً للقرآن فتحفظه، فهو نفي، أخبر الله ـ تعالى ـ أن نبيه ﷺ لا ينسى.

وقيل: نهي والألف للإشباع [وقد تقدم نحو من هذا في سورة يوسف وطه].

ومنع مكيٌّ أن يكون نهياً؛ لأنه لا ينهى عما ليس باختياره، وهذا غير لازم، إذ المعنى: النهي عن تعاطي أسباب النسيان، وهو الشائع، وقيل: هذا بشرى من الله تعالى، بشره تعالى بأن جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يفرغ من آخر الوحي، حتى يتكلم هو بأوله لمخافة النسيان، فنزلت هذه الآية؛ فلا تنسى بعد ذلك شيئاً.

قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ فيه أوجه:

أحدها: أنه مفرَّغ، أي: إلا ما شاء الله أن ينسيكه، فإنك تنساه، والمراد رفع تلاوته، وفي الحديث: «أنَّهُ كَانَ يُصبحُ فَينْسَى الآيَاتِ»[2]، لقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

وقيل: إن المعنى بذلك النُّدْرة والقلَّة.

قال ابن الخطيب[3]: يشترط أن لا يكون ذلك القليل من الواجبات بل من الآداب والسنن، فإنَّه لو نسي من الواجبات، فلم يتذكره أدى ذلك إلى الخلل في الشرع، وهو غير جائز، كما ورد أنه ﷺ أسقط آية في صلاته، فحسب أبيٌّ أنها نُسختْ، فسأله، فقال ﷺ: نَسِيتُها[4].

وقال الزمخشريُّ[5]: «والغرض نفي النسيان رأساً، كما يقول الرجل لصاحبه: أنت

---

(١) ينظر المصدر السابق.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٨/ ٤٨.
(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ١٢٩.
(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٤٠٧)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٦٦٤٧).
(٥) ينظر الكشاف ٤/ ٧٣٩.

سهيمي فيما أملك إلا ما شاء الله، ولم يقصد أستثني شيئاً، وهو استعمال القلة في معنى النفي» انتهى.

وهذا القول سبقه إليه الفراء ومكي.

قال الفراء، وجماعة معه: هذا الاستثناء صلة في الكلام على سنة الله تعالى، وليس شيى أبيح استثناؤه.

قال أبو حيان[1]: «وهذا لا ينبغي أن يكون في كلام الله تعالى، ولا في كلام فصيح، وكذلك القول بأن «لا» للنفي، والألف فاصلة» انتهى.

وهذا الذي قاله أبو حيان لم يقصده القائل بكونه زائداً محضاً، بل بالمعنى الذي ذكره، وهو المبالغة في نفي النسيان، أو النهي عنه.

وقال مكيٌّ: «وقيل: معنى ذلك إلا ما شاء الله، وليس يشاء الله أن تنسى منه شيئاً، فهو بمنزلة قوله تعالى، في سورة «هود» في الموضعين: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧، ١٠٨] وليس يشاء جلَّ ذكره ترك شيء من الخلود، لتقدم مشيئتهْ لهم بالخلود».

وروي عن ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ فلم ينس بعد نزول هذه الآية حتى مات ﷺ[2].

وقيل: هو استثناء من قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾. نقله مكي.

والمعنى: ما شاء الله أن يناله بنو آدم، والبهائم، فإنه لا يضير ذلك.

قال شهابُ الدين[3]: وهذا ينبغي ألاَّ يجوز ألبتَّة.

قال القرطبيُّ[4]: «قيل: إلا ما شاء الله أن ينسى، ثم يذكر بعد ذلك، فإذاً قد ينسى، ولكنه يتذكر ولا ينسى نسياناً كلياً».

[وقيل هذا النسيان بمعنى النسخ إلا ما شاء الله ينسخه، والاستثناء نوع من النسخ.

وقيل: النسيان بمعنى الترك أي: يعصمك من أن تترك العمل إلا ما شاء الله أن تتركه لنسخه إياه، فهذا في نسخ العمل، والأول في نسخ القراءة، ولا للنفي لا للنهي وقيل للنهي، وإنما أثبتت الياء لرؤوس الآي، والمعنى: لا تغفل قراءته وتكراره فتنساه إلا ما شاء الله أن ينسيكه برفع تلاوته للمصلحة، والأوّل هو المختار؛ لأن الاستثناء من النهي لا يكاد يكون إلا مؤقتاً معلوماً.

وأيضاً فإن الياء مثبتة في جميع المصاحف وعليها القراءات.

وقيل: معناه: إلا ما شاء الله أن يؤخر إنزاله][5].

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٥٤.
(٢) ينظر: القرطبي (٢٠/ ١٤).
(٣) الدر المصون ٦/ ٥١٠.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٤.
(٥) سقط من: ب.

فصل في كيفية تعليم القرآن

ذكر في كيفية هذا التعليم والإقراء وجوهاً:

الأول: أن جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ سيقرأ عليك القرآن مراتٍ، حتى تحفظه حفظاً لا تنساه.

وثانيها: أنَّا نشرحُ صدرك ونقوي خاطرك حتى تحفظه بالمرة الواحدة حفظاً لا تنساه.

وثالثها: أنه تعالى لما أمره ﷺ في أول السورة بالتسبيح، فكأنه تعالى قال: واظب على ذلك، ودُمْ عليه، فإنَّا سنقرئك القرآن الجامع لعلوم الأوَّلين، والآخرين، ويكون فيه ذكرك، وذكر قومك، وتجمعه في قلبك.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ وهو العمل به.

فصل في الدلالة على المعجزة

هذه الآية تدلّ على المعجزة من وجهين:

الأول: أنه ﷺ كان رَجُلاً أميًّا، فحفظه هذا الكتاب المطول من غير دراسة، ولا تكرار، ولا كتابة، خارق للعادة.

والثاني: أنه إخبار عن الوقوع في المستقبل، وقد وقع، فكان هذا إخباراً عن الغيب فيكون معجزاً.

فصل في المراد بالآية

قال بعضهم: المراد بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أمور:

أولها: التبرك بهذه الكلمة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤]، فكأنه تعالى يقول: إني عالم بجميع المعلومات، ثم بعواقب الأمور على التفصيل، ومع ذلك لا أخبر عن وقوع شيء في المستقبل إلا مع هذه الكلمة، فأنت وأمتك يا محمد أولى بها، وهذا بناء على أن الاستثناء غير حاصل في الحقيقة، وأنه ﷺ لم ينس بعد ذلك شيئاً، كما قاله ابن عبَّاس والكلبي وغيرهما.

وثانيها: قال الفراء: إنه تعالى ما شاء أن ينسى محمداً ﷺ شيئاً إلا أنَّ المقصود من ذكر هذا الاستثناء بيان أنه تعالى لو أراد أن يصير ناسياً كذلك لقدر عليه، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ١٦]، ثم إنا نقطع أنه تعالى ما شاء ذلك، ونظيره قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦] مع أنه ﷺ ما أشرك ألبتَّة ففائدة هذا الاستثناء أن الله تعالى، يعرفه قدرته، حتى يعلم أنَّ عدم النِّسيان من فضل الله، وإحسانه، لا من قوته.

وثالثها: أن الله تعالى لما ذكر هذا الاستثناء جوَّز رسول الله ﷺ في كل ما ينزل عليه من الوحي، أن يكون ذلك هو المستثنى، فلا جرم كان يبالغ في التثبُّت، والتحفُّظ في جميع المواضع، وكان المقصود من ذكر هذا الاستثناء بقاءه ﷺ على التيقُّظ في جميع الأحوال.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ الجَهْرَ: هو الإعلان من القول والعمل، «ومَا يَخْفَى» من السرّ.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ما في قلبك ونفسك[١].

وقال محمد بن حاتم: يعلم إعلان الصدقة وإخفاءها[٢].

وقيل: الجهر ما حفظته من القرآن في صدرك، «ومَا يَخْفَى» هو ما نسخ في صدرك.

فصل في الكلام على «ما»

«ما»: اسمية، ولا يجوز أن تكون مصدرية، لئلا يلزم خلو الفعل من فاعل، ولولا ذلك لكان المصدرية أحسن ليعطف مصدر مؤول على مصدر صريح.

قوله: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾: عطف على «سُنقرِئُكَ فلا تَنسَى»، فهو داخل في حيز التنفيس، وما بينهما من الجملة اعتراض.

واليسرى: هي الطَّريقة اليسرى، وهي أعمال الخير، والتقدير: سنقرئك فلا تنسى، ونوفقك للطريقة التي هي أسهل وأيسر، يعني في حفظ القرآن.

[قال ابن مسعود: اليسرى الجنة أي نيسرك للعمل المؤدي إلى الجنة[٣] وقيل نهوّن عليك الوحي حتى تحفظه وتعمل به وقيل نوفقك للشريعة لليسرى وهي الحنيفية السهلة السمحة، قال الضحاك:][٤] فإن قيل: المعهود في الكلام أن يقال: يسر الأمر لفلان، ولا يقال: يسر فلان للأمر.

فالجواب أن هذه العبارة كأنها اختيار القرآن هنا وفي سورة «والليل»، فكذا هي اختيار الرسول ﷺ في قوله: «اعمَلُوا فكُلٌّ ميسَّرٌ لمَا خُلقَ لهُ»، وفيه لطيفة: وهي أن الفاعل لا يترجح عنده الفعل عن الترك، ولا عكسه، إلاَّ لمرجح، وعند ذلك المرجح يجب الفعل، فالفاعل إذن ميسر للفعل، إلاَّ أن الفعل ميسر للفاعل، فذلك الرجحان هو المسمى بـ «التيسير».

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٥). (٢) ينظر المصدر السابق.
(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٢٥٤)، وينظر المصدر السابق.
(٤) سقط من: ب.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾

قوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾. أي: فعظ قومك يا محمد بالقرآن ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: الموعظة، و «إن» شرطية، وفيه استبعاد لتذكرهم؛ ومنه قوله: [الوافر]

٥١٨٠ ـ لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا ... ولكِنْ لا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي[1]

وقيل: «إن» بمعنى: «إذا» كقوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] أي: إذا كنتم مؤمنين.

وقيل: هي بمعنى: «قد» ذكره ابن خالويه، وهو بعيد.

وقيل: بعده شيء محذوف، تقديره: إن نفعت الذكرى، وإن لم تنفع، كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، قاله الفراء والنحاس والجرجاني والزهراوي.

وقيل: إنَّه مخصوصٌ في قوم بأعيانهم.

وقيل: «إن» بمعنى: «ما» أي: فذكر ما نفعت الذِّكرى، فتكون «إن» بمعنى: «ما» لا بمعنى: الشرط؛ لأن الذكرى نافعة بكل حال. قاله ابن شجرة.

فصل في فائدة هذا الشرط

قال ابنُ الخطيب[2]: إنَّه ﷺ كان مبعوثاً إلى الكل، فيجب عليه تذكيرهم سواء إن نفعت الذكرى، أو لم تنفعهم، فما فائدة هذا الشرط، وهو قوله: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾؟ والجوابُ من وجوه: إمَّا أن يكون المراد: التنبيه على أشرف الحالين، وهو وجود النفع الذي لأجله شرعت الذكرى، قال: والمعلق بـ «إن» على الشيء لا يلزمُ أن يكون عدماً عند عدم ذلك الشيء، ويدل عليه آيات منها هذه الآية، ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ومنها قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ﴾ [النساء: ١٠١]، فإن القصر جائز عند الخوف وعدمه، ومنها قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، والمراجعة جائزة بدون هذا الظنِّ، وإذا كان كذلك، فهذا الشرط فيه فوائد منها ما تقدم، ومنها: البعث على الانتفاع بالذكرى، كما يقول الرجل لمن يرشده: قد أوضحت لك إن كنت تعقل، وهو تنبيه للنبي ﷺ على أنه لا تنفعهم الذكرى، أو يكون هذا في تكرير الدعوة، فأما الدعاء الأول فعام.

---

(١) ينظر: البحر ٨/ ٤٥٤، والدر المصون ٦/ ٥١٠.

(٢) ينظر الفخر الرازي ٣١/ ١٣١.

فإن قيل: الله ـ تعالى ـ عالم بعواقب الأمور بمن يؤمن، ومن لا يؤمن، والتعليق بالشرط، إنما يحسن في حق من ليس بعالم.

فالجواب: أن أمر البعثة والدعوة شيء، وعلمه تعالى بالمغيبات، وعواقب الأمور غيره، ولا يمكن بناء أحدهما على الآخر، كقوله تعالى لموسى وهارون ـ عليهما الصلاة والسلام ـ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، وهو تعالى عالم بأنه لا يتذكر ولا يخشى.

فإن قيل: التذكير المأمور به، هل هو مضبوط بعدد أو لا؟ وكيف يكون الخروج عن عهدة التذكير؟.

والجواب أن المعتبر في التذكير والتكرير هو العرف.

قوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾، أي: يتّقي الله ويخافه. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ نزلت في ابن أم مكتوم[١].

وقيل: في عثمان بن عفان قال الماوردي: وقد يذكره من يرجوه إلا أنَّ تذكرة الخاشي أبلغ من تذكرة الراجي؛ فلذلك علقها بالخشية والرجاء قيل المعنى: عَمِّمْ أنْتَ التذكير والوعظ وإن كان الوعظ إنما ينفع من يخشى، ولكن يحصل لك ثواب الدعاء. حكاهِ القشيري، ولذلك علقها بالخشية دون الرجاء، وإن تعلّقت بالخشية والرجاء.

فإن قيل: التذكير إنما يكون بشيء قد علم، وهؤلاء لم يزالوا كفاراً معاندين؟.

فالجواب: أن ذلك لظهوره وقوة دليله، كأنه معلوم، لكنه يزول بسبب التقليد والعناد، فلذلك سمي بالتذكير، والسين في قوله: «سيذكر» يحتمل أن تكون بمعنى: «سوف»، و «سوف» من الله تعالى واجب، كقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، ويحتمل أن يكون المعنى: أن من خشي، فإنه يتذكر وإن كان بعد حين بما يستعمله من التذكير والنَّظر.

قوله: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أي: الذِّكرى، يبعد عنها الأشقى، أي: الشقي في علم الله تعالى، لمَّا بيَّن من ينتفع بالذكرى بيَّن بعده من لا ينتفع بها وهو الكافر الأشقى.

قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة.

﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي: العظمى، وهي السفلى من طباق النَّار. قاله الفراء.

وعن الحسن: «الكُبْرَى»: نَارُ جهنَّم، والصُّغرى: نارُ الدُّنيَا[٢].

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٥)، عن إبن عباس.

(٢) ينظر القرطبي (٢٠/ ١٥)، عن ابن عباس.

وقيل: في الآخرة نيران ودركات متفاضلة، كما في الدنيا ذُنُوبٌ ومعاصي متفاضلة، فكما أنَّ الكافر أشقى العصاة، فكذلك يصلى أعظم النيران.

فإن قيل: لفظ الأشقى لا يستدعي وجود الشقي فكيف حال هذا القسم؟.

فالجواب أن لفظ «الأشقى» لا يستدعي وجود الشقي إذ قد يرد هذا اللفظ من غير مشاركة، كقوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، «ويتَجنَّبُهَا الأشْقَى»، كقوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقال ابن الخطيب[١]: الفرق ثلاث: العارف، والمتوقف، والمعاند، فالسعيد: هو العارف، والمتوقف له بعض الشقاء، والأشقى: هو المعاند.

قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾؛ لا يموت فيستريح، ولا يحيى حياة تنفعه، كقوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦].

فإن قيل: هذه الآية تقتضي أن ثمَّة حالة غير الحياة والموت، وذلك غير معقول؟.

فالجواب: قال بعضهم: هذا كقول العرب للمبتلى بالبلاء الشديد: لا هو حي، ولا هو ميت.

وقيل: إن نفس أحدهم في النار تمرُّ في حلقه، فلا تخرج للموت، ولا ترجع إلى موضعها من الجسم، فيحيى.

وقيل: حياتهم كحياة المذبوح وحركته قبل مفارقة الروح، فلا هو حي؛ لأن الروح لم تفارقه بعد، ولا هو ميت؛ لأن الميت هو الذي تفارق روحه جسده. و «ثمّ» للتراخي بين الرتب في الشدة.

قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: صادف البقاء في الجنة، أي: من تطهَّر من الشِّركِ بالإيمان قاله ابن عباسٍ وعطاءٌ وعكرمةُ[٢].

وقال الربيعُ والحسنُ: من كان عمله زاكياً نامياً[٣] وهو قول الزجاج.

وقال قتادةُ: «تزكّى»، أي: عمل صالحاً[٤].

وعن عطاءٍ، وأبي العالية: نزلت في صدقة الفطر[٥].

---

(١) ينظر الرازي ٣١/ ١٣٣.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٤٦)، عن ابن عباس وقتادة وعكرمة.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٦٨)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٤٦)، عن الحسن. وذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٢٥٥)، عن الربيع والحسن. وذكره القرطبي (٢٠/ ١٦).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٤٦)، من طريق معمر عن قتادة. وذكره القرطبي (٢٠/ ١٦).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٤٧)، عن أبي العالية. وينظر المصدر السابق.

قال ابن سيرين: «قد أفلح من تزكّى، وذكر اسم ربه فصلّى» قال: خرج فصلّى بعد ما أدى[١].

والأول أظهر؛ لأن اللفظ المعتاد أن «يقال» في المال: زكّى، ولا يقال: تزكّى، قال تعالى: ﴿وَمَن تَـزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَـتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: ١٨].

وقال أبو الأحوصِ وعطاءٌ: المراد بالآية: زكاة الأموال كلها[٢].

قال بعضهم: لا أدري ما وجه هذا التأويل؛ لأن هذه السورة مكية، ولم يكن بـ «مكة» عيد، ولا زكاة فطر.

قال البغويُّ[٣]: يجوز أن يكون النزول سابقاً على الحكم، كقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد: ٢]، والسورة مكية، وظهر أثر الحل يوم الفتح، قال ﷺ: «أحِلَّتْ لِي ساعةً مِنْ نهارٍ».

وقيل: هذا في زكاة الأعمال، لا زكاة الأموال، أي: زكى أعماله من الرياء [والتقصير][٤] وروى جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ: «قَدْ أفْلحَ مَنْ تَزكَّى؛ أي: شهد أن لا إله إلا اللَّه، وخلع الأنداد، وشهد أنِّي رسُول اللَّهِ»[٥]. وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وروى عطاءٌ عن ابن عباسٍ، قال: نزلت في عثمان ـ رضي الله عنه ـ قال: كان بـ «المدينة» منافق كانت له نخلة بـ «المدينة»، مائلة في دار رجل من الأنصار، إذا هبت الرياح أسقطت البُسْر والرطب في دار الأنصاري، فيأكل هو وعياله، فخاصمه المنافق، فشكاه الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فأرسل إلى المنافق، وهو لا يعلم بنفاقه، فقال: إنَّ أخاكَ الأنصاريَّ ذكر أنَّ بُسركَ ورُطبَكَ يقعُ إلى منزله، فيَأكلُ هُوَ وعِيالُهُ، فهل لَكَ أنْ أعْطيكَ نَخْلَةً في الجنَّة بدلها؟ فقال: أبيع عاجلاً بآجلٍ؟ لا أفعلُ، فذكروا أن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ أعطاه حائطاً من نخل بدل نخلته، ففيه نزلت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾، ونزلت في المنافق: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾[٦].

وقال الضحاكُ: نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه[٧].

قوله: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾.

قال ابن عباس والضحاكُ: وذكر اسم ربه في طريق المصلى، فصلى صلاة العيد[٨].

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٦).
(٢) ذكره الماوردي (٦/ ٢٥٥)، وينظر المصدر السابق.
(٣) ينظر: معالم التنزيل ٤/ ٤٧٧.
(٤) سقط من: ب.
(٥) ينظر تفسير القرطبي ٢٠/ ١٦.
(٦) ذكره القرطبي (٢٠/ ١٦).
(٧) ينظر المصدر السابق.
(٨) ينظر: القرطبي (٢٠/ ١٦).

قال القرطبيُّ[(١)]: «والسورة مكية في قول الجمهور، ولم يكن بـ «مكة» عيد».

قال القشيريُّ: ولا يبعد أن يكون أثنى على من يمتثل أمره في صدقة الفطر، وصلاة العيد فيما يأمر به في المستقبل.

قوله: ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾، أي: وذكر ربه.

وعن ابن عباسٍ ـ رضي الله عنهما: معناه ذكر معاده وموقفه بين يدي الله تعالى، فعبده وصلى له[(٢)].

وقيل: ذكر اسم ربه: التكبير في أوَّل الصلاة؛ لأنها لا تنعقد إلا بذكره، وهو قوله: «اللَّهُ أكبر»، وبه يحتجُّ على وجوب تكبيرة الإحرام وعلى أنَّها ليست من الصلاة؛ لأنَّ الصلاة معطوفة عليها، وفيه حُجَّةٌ لمن قال: الافتتاح جائز بكل اسم من أسماء الله تعالى.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «هذا في الصلوات المفروضة».

روى عبد الله رضي الله عنه: «من أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة فلا صلاة له».

قوله تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾

قوله: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾، قرأ أبو عمرو[(٣)]: بالغيبة.

والباقون: بالخطاب **ويؤيده قراءة أبيّ**[(٤)]: «أَنْتُمْ تُؤثِرُون».

وعلى الأول معناه: بل تؤثرون أيها المسلمون الاستكثار من الدنيا على الاستكثار من الثواب.

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أنَّه قرأ هذه الآية، فقال: أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة؟ قال: لأن الدنيا حضرت وعجلت لنا طيباتها وطعامها وشرابها ولذاتها وبهجتها، والأخرى: غيبت عنا فأخذنا العاجل، وتركنا الآجل[(٥)].

قوله: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾، أي: والدَّار الآخرة خير، أي: أفضل وأبقى أي: أدوم.

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾.

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٧. (٢) ينظر: القرطبي (٢٠/ ١٦).

(٣) ينظر: الحجة ٦/ ٣٩٨، وإعراب القراءات ٢/ ٤٦٧، وحجة القراءات ٧٥٩.

(٤) وقرأ بها ابن مسعود كما في: الكشاف ٤/ ٧٤١، وقراءة أبيّ في: المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٠.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٤٨)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٧٠)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر والطبراني والبيهقي في «شعب الإيمان».

قرأ أبو عمرو[١]، **في رواية الأعمش وهارون**: بسكون الحاء في الحرفين، واختلفوا في المشار إليه بهذا.

فقيل: جميع السورة، وهو رواية عكرمة عن ابن عباس[٢].

وقال الضحاكُ: إن هذا القرآن «لفي الصحف الأولى» أي: الكتب الأولى[٣].

﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ يعني: الكتب المنزلة عليهما، ولم يرد أن هذه الألفاظ بعينها في تلك الصحف، وإنما معناه: أن معنى هذا الكلام في تلك الصحف.

وقال قتادة وابن زيد: المشار إليه هو قوله تعالى: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ وقال: تتابعت كتب الله تعالى ـ كما تسمعون ـ أن الآخرة خير وأبقى وقال الحسن: إن هذا لفي الصحف الأولى يعني من قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ إلى آخر السورة؛ لما روى أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول هل في أيدينا شيء مما كان في صحف إبراهيم وموسى؟ قال ﷺ: «نعم»، ثم قرأ أبو ذر: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ إلى آخر السورة.

وروى أبو ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ أنَّه سأل رسول الله ﷺ كم أنزل الله من كتاب؟ فقال رسول الله ﷺ: «مائة وأربعُ كتبٍ: على آدم عشرةُ صحفٍ، وعل شيثٍ خمسُونَ صحيفةً، وعَلى إدْريسَ ثلاثُونَ صَحيفَةً، وعلى إبْراهِيمَ عشرةُ صَحائفَ، والتَّوراةُ والإنجيلُ والزَّبورُ والفُرقانُ»[٤].

قوله: «إبراهيم» قرأ العامة بالألف بعد الراء، وبالياء بعد الهاء.

وأبو رجاء: بحذفهما[٥] والهاء مفتوحة، أو مكسورة، فعنه قراءتان.

وأبو موسى وابن الزبير[٦]: «إبراهام» ـ بألفين ـ وكذا في كل القرآن.

ومالك بن دينار[٧]: بألف بعد الراء فقط، والهاء مفتوحة.

وعبد الرحمن[٨] **بن أبي بكرة**: «إبْرَهِمَ» بحذف الألف وكسر الهاء وقد تقدم الكلام على هذا الاسم ولغاته مستوفى في سورة «البقرة»[٩] ولله الحمد على كل حال.

وقال ابن خالويه: وقد جاء «إبْراهُم» يعني بألف وضم الهاء.

---

(١) ينظر: إعراب القراءات ٢/ ٤٦٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٧١، والبحر المحيط ٨/ ٤٥٥، والدر المصون ٦/ ٥١١.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٨). (٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) أخرجه ابن حبان (٩٤ ـ موارد)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٦٦)، والطبراني في «الكبير» (١٦٥١)، والبيهقي (٩/ ٤)، وابن عدي في «الكامل» (٧/ ٢٦٩٩)، من حديث أبي ذر.

(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٥٥، والدر المصون ٦/ ٥١١.

(٦) السابق. (٧) السابق.

(٨) ينظر السابق، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٧١. (٩) آية ١٢٤.

وروى الثعلبي عن أبيّ ـ رضي الله عنه ـ: قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ سُورةَ الأعْلَى أعطاهُ اللَّهُ تعالَى من الأجْرِ عَشْرَ حسناتٍ، عدد كُلِّ حرفٍ أنزله اللَّهُ على إبْراهيمَ ومُوسَى ومحمدٍ، صلواتُ اللَّه عليْهِم أجْمعِينَ»[1].

(١) تقدم تخريجه.

سورة الغاشية

مكية [بالإجماع][1]، وهي ستٌّ وعشرون آية، وثنتان وتسعون كلمة، وثلاثمائة وإحدى وثمانون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ (٥) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ (٧)﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾. «هل» بمعنى: «قد»، كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ﴾ [الإنسان: ١] قاله قطرب، أي: قد جاءك يا محمد حديث الغاشية، وهي القيامة؛ لأنها تغشى الخلائق بأهوالها.

وقيل: هو استفهام على بابه، ويسميه أهل البيان: التسويف، والمعنى: إن لم يكن أتاك حديث الغاشية فقد أتاك، وهو معنى قول الكلبيِّ.

وقال سعيدُ بن جبيرٍ، ومحمد بن كعبٍ: الغاشية: النار تغشى وجوه الكفار[2]، ورواه أبو صالح عن ابن عباس لقوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

وقيل: المراد النفخة الثانية للبعث؛ لأنها تغشى الخلق.

وقيل: الغاشية أهل النار يغشونها، ويقحمون فيها.

وقيل: معنى «هَل أتاكَ» أي: هذا لم يكن في علمك، ولا في علم قومك، قاله ابن عباس[3] أي: لم يكن أتاه قبل ذلك على التفصيل المذكور.

قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾. قد تقدَّم نظيره في سورة «القيامةِ»، وفي «النازعات»، والتنوين

---

(١) سقط من ب.

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٢٥٧) والقرطبي (٢٠/ ١٩).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٩).

في «يومئذ»؛ عوض من جملة، مدلول عليها باسم الفاعل من «الغاشية»، تقديره: يومئذ غشيت الناس؛ إذ لا تتقدم جملة مصرح بها، و «خاشعة» وما بعدها صفة.

فصل في تفسير الآية

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لم يكن أتاه حديثهم، فأخبره عنهم، فقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿خَٰشِعَةٌ﴾[(١)].

قال سفيان: أي: ذليلةٌ بالعذاب، وكل متضائل ساكن خاشع[(٢)].

يقال: خشع في صلاته إذا تذلل ونكس رأسه، وخشع الصوت: إذا خفي، قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨].

[والمراد بالوجوه أصحاب الوجوه.

قال قتادة وابن زيد: خاشعة أي في النار، والمراد بالوجوه وجوه الكفار كلهم قاله يحيى بن سلام[(٣)]. وقال ابن عباس: أراد وجوه اليهود والنصارى[(٤)]][(٥)].

قوله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ هذا في الدنيا؛ لأن الآخرة ليست دار عمل، فالمعنى: وجوه عاملة ناصبة في الدنيا خاشعة في الآخرة.

قال أهل اللغة: يقال للرجل إذا دأب في سيره: قد عمل يعمل عملاً، ويقال للسحاب إذا دام برقُه: قد عمل يعمل عملاً.

وقوله: «ناصبةٌ» أي: تعبةٌ، يقال: نَصِبَ ـ بالكسر ـ ينصبُ نصَباً: إذا تعب ونَصْباً أيضاً، وأنصبه غيره.

قال ابنُ عباسٍ: هم الذين أنصبوا أنفسهم في الدنيا على معصية الله تعالى، وعلى الكفر مثل عبدة الأوثان، والرهبان، وغيرهم، ولا يقبل الله ـ تعالى ـ منهم إلاَّ ما كان خالصاً له[(٦)].

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ أنهم الخوارج الذين ذكرهم رسول الله ﷺ فقال: «تُحقِّرُونَ صَلاتكُمْ مَعَ صَلاتهِمْ، وصِيامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وأعْمالَكُم مَعَ أعْمَالِهِمْ، يَمرقُونَ من الدِّينِ كما يَمْرقُ السَّهْمُ من الرميَّة» الحديث[(٧)].

---

(١) ينظر المصدر السابق.

(٢) ينظر المصدر السابق ومثله عن قتادة أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٥١) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٧٢) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٢٥٧) والقرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٩).

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٧٣) وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

(٥) سقط من: ب.

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٢٠).

(٧) ينظر المصدر السابق، وتقدم تخريج الحديث.

وروى سعيد عن قتادة: «عاملةٌ ناصبةٌ» قال: تكبرت في الدنيا عن طاعة الله ـ عز وجل ـ، فأعملها الله وأنصبها في النار، بجر السلاسل الثِّقال، وحمل الأغلال، والوقوف حفاة عراة في العرصات في يوم كان مقداره خمسين ألف سنةٍ[١].

قال الحسن وسعيد بن جبير: لم تعمل لله في الدنيا ولم تنصب له، فأعملها وأنصبها في جهنم.

وقرأ ابن كثير في رواية، وابن محيصن وعيسى وحميد[٢]: «نَاصِبَةً» بالنصب على الحال.

وقيل: على الذَّم.

والباقون: بالرفع، على الصفة، أو إضمار مبتدأ فيوقف على «خاشعة».

ومن جعل المعنى: في الآخرة جاز أن يكون خبراً بعد خبر عن «وجوه»، فلا يوقف على «خاشعة» [وقيل: عاملة ناصبة أي: عاملة في الدنيا ناصبة في الآخرة، وعلى هذا يحمل وجوه يومئذ عاملة في الدنيا ناصبة في الآخرة خاشعة][٣].

وروى الحسن، قال: لما قدم عمر بْن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ «الشام»، أتاه راهب، شيخ كبير عليه سواد، فلما رآه عمر ـ رضي الله عنه بكى، فقيل: يا أمير المؤمنين، ما يبكيك؟ قال: هذا المسكين، طلب أمراً فلم يصبه، ورجا رجاءً فأخطأه، وقرأ قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾[٤].

قوله: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾: هذا هو الخبر.

قرأ أبو عمرو وأبو بكر[٥] **ويعقوب** ـ رضي الله عنهم ـ بضم التاء على ما لم يسم فاعله.

والباقون: بالفتح، على تسمية الفاعل، [والضمير على][٦] كلتا القراءتين للوجوه.

وقرأ أبو رجاء[٧]: بضم التاء، وفتح الصَّاد، وتشديد اللام، وقد تقدم معنى ذلك كله في سورتي: «الانشقاق والنساء».

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٥١) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٧٢) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٢، والبحر المحيط ٨/ ٤٥٧، وزاد: عكرمة والسدي، والدر المصون ٦/ ٥١٢.

(٣) سقط من: ب.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٢٠) عن الحسن وبمعناه عن أبي عمران الجوني أخرجه الحاكم وعبد الرزاق وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٦/ ٥٧٣).

(٥) ينظر: السبعة ٦٨١، والحجة ٦/ ٣٩٩، وحجة القراءات ٧٥٩، وإعراب القراءات ٢/ ٤٦٩.

(٦) سقط من ب.

(٧) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٥٧، والدر المصون ٦/ ٥١٢.

فصل في معنى الآية

والمعنى: يصيبها صلاؤها وحرُّها، «حامية» أي شديدة الحرِّ، أي قد أوقدت وأُحميت مدةً طويلة، ومنه: حَمِيَ النهار ـ بالكسر ـ وحَمِيَ التنور حمياً فيهما، أي: اشتد حره، وحكى الكسائي: اشتد حمى الشمس وحموها بمعنى.

قال ﷺ: «إنَّ اللَّهَ أوْقدهَا ألفَ سنةٍ حتَّى احمرَّت، ثُمَّ أوْقدَ عليْهَا ألْفَ سنةٍ حتَّى ابْيضَّتْ، ثُمَّ أوقدَ عَليْهَا حتَّى اسْودَّتْ، فهي سَوداءُ مُظلِمَةٌ»[(١)].

قال الماوردي: فإن قيل: فما معنى وصفها بالحَمْي، وهي لا تكون إلا حامية، وهو أقل أحوالها، فما وجه المبالغة بهذه الصفة الناقصة؟.

قيل: قد اختلف في المراد بالحامية هاهنا.

قيل: المراد: أنها دائمة [الحمي][(٢)]، وليست كنارِ الدنيا التي ينقطع حميها بانطفائها.

الثاني: أن المراد بالحامية أنَّها حمى من ارتكاب المحظورات، وانتهاك المحارم، لقول النبي ﷺ: «إنَّ لكُلِّ مَلكٍ حِمىً، وإنَّ حِمَى اللَّهِ في أرْضهِ محارمهُ، ومن يرتعْ حولَ الحِمَى يُوشِك أن يقعَ فِيهِ»[(٣)].

الثالث: أنها تحمي نفسها عن أن تطاق ملامستها، وترام مماستها، كما يحمي الأسد عرينه؛ كقول الشاعر: [البسيط]

٥١٨١ ـ تَعْدُو الذِّئَابُ على مَنْ لا كِلاب لَهُ ... وتتَّقِي صَولَةَ المُستأسِدِ الحَامِي[(٤)]

الرابع: وقيل: المراد أنَّها حامية حمي غيظ وغضب مبالغة في شدة الانتقام، كقوله تعالى ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨].

قوله: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾. أي: حارة التي انتهى حرُّها، كقوله تعالى: ﴿بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]، و «آنِيَة»: صفة لـ «عين»، وأمالها هشام، لأن الألف غير منقلبة من غيرها، بل هي أصل بنفسها، وهذا بخلاف «آنِيَة» في سورة: «الإنسان»، فإن الألف هناك بدل من همزة، إذ هو جمع: «إناء» فوزنها: «فَاعِلة»، وهناك «أفعلة»، فاتحد اللفظ واختلف التصريف، وهذا من محاسن علم التصريف.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سقط من ب.

(٣) أخرجه البخاري (١/ ١٥٣) كتاب الإيمان: باب فضل من استبرأ لدينه رقم (٥٢) وفي كتاب البيوع: باب الحلال بين والحرام بين (٢٠٥١) ومسلم (٣/ ١٢١٩ ـ ١٢٢٠) كتاب المساقاة: باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٠٧/ ١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير.

(٤) البيت للنابغة الذبياني ينظر القرطبي ٢٠/ ٢١.

قال القرطبيُّ[(١)]: «الآني: الذي قد انتهى حرُّه، من الإيناء بمعنى: «التأخير»، يقال: أنَّاه يؤنيه إيناءً، أي: أخره وحبسه وأبطأه، نظيره قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]، رُوِيَ أنه لو وقعت [نقطة][(٢)] منها على جبال الدنيا لذابت».

قوله: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾. لمَّا ذكر شرابهم ذكر طعامهم.

والضَّريعُ: شجر في النار، ذو شوك لاصق بالأرض، تسميه قريش: الشِّبرق إذا كان رطباً، وإذا يبسَ فهو الضريع، لا تقربه دابة، ولا بهيمة، ولا ترعاه، وهو سم قاتل. قاله عكرمة، ومجاهد وأكثر المفسرين[(٣)].

وروى الضحاكُ عن ابن عباسٍ ـ رضي الله عنهم ـ قال: شيء يرمي به البحر يسمى الضريع من أقوات الأنعام لا الناس، وإذا وقعت فيه الإبل لم تشبع، وهلكت هزلاً[(٤)].

والصحيح الأول؛ قال أبو ذؤيبٍ: [الطويل]

٥١٨٢ ـ رَعَى الشِّبرقَ الرَّيانَ حتَّى إذا ذَوَى رَعَا ضَرِيعاً بَانَ مِنْهُ النَّحَائِصُ[(٥)]

وقال الهذلي يذكر إبلاً وسوء مرعاها: [الكامل]

٥١٨٣ ـ وَحُبِسْنَ في هَزْمِ الضَّريعِ فكُلُّهَا حَدْبَاءُ دَامِيَةُ اليَدَيْنِ حَرُودُ[(٦)]

وقال الخليل: الضريع: نبات منتن الريح، يرمي به البحر.

وقال أيضاً: ويقال للجلدة التي على العظم تحت اللحم، هي الضريع، فكأنه تعالى وصفه بالقلة، فلا جرم لا يسمن ولا يغني من جوع.

وقيل: هو الزقوم.

وقيل: يابس العرفج إذا تحطم.

وقيل: نبت يشبه العوسج.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: هو شجر من نارٍ، ولو كانت في الدنيا لأحرقت الأرض، وما عليها[(٧)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٢١. (٢) في أ: شرارة.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٥٢ ـ ٥٥٣) عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٧٣) عن مجاهد وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم. وذكره عن ابن عباس وعزاه إلى عبد بن حميد. وعن عكرمة وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٢١).

(٥) ينظر الكشاف ٤/ ٧٤٢، والقرطبي ٢٠/ ٢١، والبحر ٨/ ٤٥٦، والدر المصون ٦/ ٥١٣.

(٦) ينظر ديوانة الهذليين ٣/ ٧٣، واللسان (ضرع)، والكشاف ٤/ ٧٤٢ والبحر ٨/ ٤٥٦، والدر المصون ٦/ ٥١٢.

(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٢٢).

وقال سعيدُ بن جبيرٍ، وعكرمةُ: هي حجارة من نار[١].

وقال القرطبيُّ[٢]: والأظهر أنه شجر ذو شوك حسب ما هو في الدنيا.

وعن ابن عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «الضريع شيء يكون في النَّار: يشبهُ الشّوْك، أشدُّ مرارة من الصَّبْرِ، وأنْتَنُ من الجِيفةِ، وأحرُّ منَ النَّارِ سماهُ اللَّهُ ضَرِيْعاً»[٣].

قال القتيبيُّ: ويجوز أن يكون الضريع، وشجرة الزقوم: نبتين من النار، أو من جوهر لا تأكله النَّار، وكذلك سلاسل النار، وأغلالها، وحياتها، وعقاربها، ولو كانت على ما نعلم لما بقيت على النار، وإنما دلَّنا الله على الغائب عند الحاضر عندنا، فالأسماء متفقة الدلالة والمعاني مختلفة، وكذلك ما في الجنة من شجرها وفرشها.

وزعم بعضهم: أنَّ الضريع: ليس بنبت في النار، ولا أنهم يأكلونه؛ لأن الضريع من أقوات الأنعام، لا من أقوات الناس، وإذا وقعت الإبل فيه لم تشبع، وهلكوا هزلاً، فأراد أن هؤلاء يقتاتون بما لا يشبعهم، وضرب الضريع له مثلاً.

والمعنى أنهم يعذبون بالجوع كما يعذب من قوته الضريع.

وقال الحكيمُ الترمذي: وهذا نظر سقيم من أهله، يدل على أنهم تحيَّروا في قدرة الله تعالى، وأن الذي أنبت في هذا التراب الضريع قادر على أن ينبته في حريق النار، كما جعل ـ سبحانه وتعالى ـ في الدنيا من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون، فلا النار تحرق الشجر، ولا رطوبة الماء في الشجر تُطفىءُ النار، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠]، وكما قيل: حين نزلت: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [الإسراء: ٩٧]، قالوا: يا رسُولَ اللَّهِ، كيف يمْشُونَ على وُجوهِهِمْ؟ فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «الَّذي أمْشَاهُمْ عَلَى أرْجُلِهِمْ قادرٌ على أنْ يُمشِيهِمْ على وُجوهِهِمْ»[٤]، فلا يتحيَّر في مثل هذا إلا ضعيف العقل[٥]، أو ليس قد أخبرنا أنه: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

وعن الحسن: لا أدري ما الضريع، ولم أسمع فيه من الصحابة شيئاً.

قال ابنُ كيسان: هو طعام يضرعون عنده، ويذلون، ويتضرعون منه إلى الله تعالى، طلباً للخلاص منه، فسمي بذلك؛ لأن آكله يتضرع في أن يعفى منه، للكراهة وخشونته.

قال أبو جعفر النحاس: قد يكون مشتقاً من الضارع، وهو الذليل، أي: ذو ضراعة، أي: من شربه ذليل تلحقه ضراعة.

---

(١) ينظر المصدر السابق.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٢٢.
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٢١).
(٤) تقدم.
(٥) في أ: القلب.

فإن قيل: قد قال تعالى في موضع آخر: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٥، ٣٦]. وقال تعالى ـ هاهنا ـ: ﴿إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ وهو غير الغسلين، فما وجه الجمع؟.

والجواب: أن النار دركات، فمنهم من طعامه الزقوم ومنهم من طعامه الغسلين، ومنهم من طعامه الضريع، ومنهم من شرابه الحميم، ومنهم من شرابه الصديد.

قال الكلبيُّ: الضريع في درجة ليس فيها غيره، والزقوم في درجة أخرى[١].

قوله: ﴿لَّا يُسْمِنُ﴾.

قال الزمخشريُّ[٢]: «مرفوع المحل، أو مجرور على وصف طعام، أو ضريع».

قال أبو حيان[٣]: «أما وصفه بـ «ضريع» فيصح؛ لأنه نبت نفي عنه السمن، والإغناء من الجوع، وأمَّا رفعه على وصفه الطعام، فلا يصح؛ لأن الطعام منفي، والسمن منفي، فلا يصح تركيبه؛ لأنه يصير التقدير: ليس لهم طعام لا يسمن، ولا يغني من جوع إلا من ضريع، فيصير المعنى: أن لهم طعاماً يسمن ويغني من جوع من غير الضريع، كما تقول: ليس لزيد مال لا ينتفع به إلا من مال عمرو، فمعناه: أن له مالاً لا ينتفع به من غير مال عمرو».

قال شهاب الدين[٤]: وهذا لا يرد؛ لأنه على تقدير تسليم القول بالمفهوم، وقد منع منه مانع، كالسياق في الآية الكريمة.

ثم قال أبو حيَّان[٥]: ولو قيل: الجملة في موضع رفع صفة للمحذوف المقدر في: «إلاَّ من ضريع»، كان صحيحاً؛ لأنه في موضع رفع، على أنه بدل من اسم ليس، أي: ليس لهم طعام إلاَّ كائن من ضريع؛ إذ لا طعام من ضريع غير مسمنٍ، ولا مغنٍ من جوع، وهذا تركيب صحيح، ومعنى واضح.

وقال الزمخشريُّ[٦] أيضاً: «أو أريد لا طعام لهم أصلاً؛ لأن الضريع ليس بطعام للبهائم فضلاً عن الإنس؛ لأن الطعام ما أشبع، أو أسمن، وهو عنهما بمعزل، كما تقول: ليس لفلان ظلّ إلا الشمس، تريد نفي الظل على التوكيد».

قال أبو حيَّان[٧]: فعلى هذا يكون استثناء منقطعاً؛ لأنه لم يندرج الكائن من الضريع تحت لفظ طعام، إذ ليس بطعام، والظاهر: الاتصال فيه، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٦].

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (٢٠/ ٢١).
(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٤٣.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٤٥٨.
(٤) الدر المصون ٦/ ٥١٣.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٤٥٨.
(٦) الكشاف ٤/ ٧٤٣.
(٧) البحر المحيط ٨/ ٤٥٨.

قال شهابُ الدين[١]: وعلى قول الزمخشري المتقدم لا يلزم أن يكون منقطعاً، إذ المراد نفي الشيء بدليله أي: إن كان لهم طعام، فليس إلا هذا الذي لا يعده أحد طعاماً، ومثله: ليس له ظل إلا الشمس وقد مضى تحقيق هذا عند قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾[٢] وقوله: [الطويل]

٥١٨٤ ـ ولا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُم ....[٣]

ومثله كثير.

فصل في المراد بالآية

المعنى: أن طعامهم ليس من جنس طعام الإنس؛ لأنه نوع من أنواع الشوك، والشوك مما ترعاه الإبلُ، وهذا النوع مما تنفر عنه الإبل، فإذن منفعة الغذاء منتفية عنه، وهما: إماطة الجوع، وإفادة القوة والسمن في البدن أو يكون المعنى: ليس لهم طعام أصلاً؛ لأن الضريع ليس بطعام للبهائم فضلاً عن الإنسان؛ لأن الطعام ما أشبع أو أسمن.

قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية، قال المشركون: إن إبلنا لتسمن بالضريع، فنزلت: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ وكذا فإن الإبل ترعاه رطباً، فإذا يبس لم تأكله.

وقيل: اشتبه عليهم أمره، فظنوه كغيره من النَّبتِ النافع؛ لأن المضارعة المشابهة، فوجدوه لا يسمن ولا يغني من جوع، فيكون المعنى: أن طعامهم من ضريعٍ لا يسمن من جنس ضريعكم، إنما هو من ضريع غير مسمن، ولا مغن من جوع.

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾

قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾. أي: ذات نعمة، وهي وجوه المؤمنين، نعمت بما عاينت من عاقبة أمرها[٤]

وقيل: ذات بهجة وحسن، لقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]، أي: متنعمة «لِسَعْيِهَا»، أي: لعملها الذي عملته في الدنيا «راضيةٌ» في الآخرة حين أعطيت الجنة بعملها، وفيها واو مضمرة، والتقدير: ووجوه يومئذ، ليفصل بينها، وبين الوجوه المتقدمة، والوجوه عبارة عن الأنفس.

---

(١) الدر المصون ٦/ ٥١٣. (٢) سورة الدخان أية ٥٦.

(٣) تقدم.

(٤) زاد في أ: لما ذكر تعالى وعيد الكفار أتبعه بشرح أحوال المؤمنين.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي: مرتفعة؛ لأنها فوق السماوات.

وقيل: عالية القدر، لأن فيها ما تشتهي الأنفس وتلذُّ الأعين.

قوله: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾.

قرأ ابن كثيرٍ وأبو عمرو[١]: بالياء من تحت مضمومة؛ على ما لم يسم فاعله، «لاغية» رفعاً لقيامه مقام الفاعل.

وقرأ نافع كذلك إلا أنه بالتاء من فوق[٢]، والتذكير والتأنيث واضحان؛ لأن التأنيث مجازي.

وقرأ الباقون: بفتح التاء من فوق، ونصب: «لاغية»، فيجوز أن تكون التاء للخطاب، أي: لا تسمع أنت، وأن تكون للتأنيث، أي: لا تسمع الوجوه.

وقرأ الفضلُ والجحدري[٣]: «لا يَسْمَعُ» بياء الغيبة مفتوحة «لاغيةً» نصباً، أي: لا يسمع فيها أحد.

و «لاغيةً» يجوز أن تكون صفة لكلمة على معنى: النسب، أي: ذات لغو، أو على إسناد اللغو إليها مجازاً، وأن تكون صفة لجماعة، أي: جماعة لاغية، وأن تكون مصدراً، كالعافية والعاقبة، كقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ [الواقعة: ٢٥]، واللَّغْوُ: اللَّغَا واللاغية بمعنى واحد؛ قال الشاعر: [الرجز]

٥١٨٥ ـ عَنِ اللَّغَا ورفَثِ التَّكلُّمِ[٤]

قال الفراء والأخفش: أي: لا تسمع فيها كلمة لغوٍ.

والمراد باللغو: ستة أوجه:

أحدها: كذباً وبهتاناً وكفراً بالله عز وجل، قاله ابن عباس[٥].

الثاني: لا باطل ولا إثم، قاله قتادة[٦].

الثالث: أنه الشتم، قاله مجاهد[٧].

---

(١) ينظر: السبعة ٦٨١، والحجة ٦/ ٣٩٩، ٤٠٠، وإعراب القراءات ٢/ ٤٦٩، وحجة القراءات ٧٦٠.

(٢) ينظر السابق. (٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٥١٤.

(٤) البيت للعجاج وقبله:

وربّ أَسْرَابِ حَجِيجٍ كُظَّمِ

ينظر: ديوان العجاج ص ٢٩٦، ومجاز القرآن ١/ ٧، والمحتسب ٢/ ٢٤٧ واللسان (رفث)، و (كظم)، و (سرب)، والقرطبي ٢/ ٢٣.

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٢٣).

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٥٤) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٧٤) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٥٤) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٧٤) وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر.

الرابع: المعصية، قاله الحسن[١].

الخامس: لا يسمع فيها حالف يحلف بكذب، قاله الفراء.

وقال الكلبي: لا يسمع في الجنة حالف بيمين برّة ولا فاجرة[٢].

السادس: لا يسمع في كلامهم كلمة لغوٍ؛ لأن أهل الجنَّة لا يتكلمون إلا بالحكمة، وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم. قاله الفراء، وهو أحسن الأقوال، قاله القفال والزجاج.

قوله: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾. أي: بماء مندفق، وأنواع الأشربة اللذيذة على وجه الأرض من غير أخدود.

قال الزمخشريُّ[٣]: يريد عيوناً في غاية الكثرة، كقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ [الانفطار: ٥].

قوله: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾، أي: عالية في الهواء.

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ والأكواب: الكيزان التي لا عُرى لها، والإبريق: هو ما له عروةٌ وخرطوم، والكوب: ما ليس له عروةٌ وخرطوم.

وقوله: ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ أي: معدة لأهلها.

وقيل: موضوعة على حافات العين الجارية.

وقيل: موضوعة بين أيديهم لاستحسانهم إياها، لكونها من ذهب، وفضة، وجوهر، وتلذذهم بالشرب منها.

وقيل: موضوعة عن حد الكبر، أي هي أوساط بين الصغر والكبر، كقوله تعالى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان: ١٦].

قوله: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾، النمارق جمع «نمرق» وهي الوسادة قالت:

٥١٨٦أ ـ نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقْ   نَمْشِي عَلَى النَّمَارِقْ[٤]

وقال الشاعر:

---

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٢٦٠) والقرطبي (٢٠/ ٢٣).

(٢) ينظر المصدر السابق.

(٣) ينظر الكشاف ٤/ ٧٤٣.

(٤) البيت لهند بنت عتبة في أدب الكاتب ص ٩٠؛ والأغاني ١٢/ ٣٤٣، ١٥/ ١٤٧؛ ولها أو لهند بنت بياضة بن رياح (أو رباح) بن طارق الإيادي في شرح شواهد المغني ٢/ ٨٠٩؛ ولسان العرب (طرق) ولهند بنت بياضة بن رياح بن طارق الإياديّ في معجم ما استعجم ص ٧٠؛ ولهند بنت الفند الزماني (سهل بن شيبان) في الأغاني ٢٣/ ٢٥٤؛ ولهند دون تحديد في لسان العرب (نمرق)؛ وللقرشية في جمهرة اللغة ص ٧٥٦؛ وبلا نسبة في الأغاني ١٢/ ٣٤٢؛ ومغني اللبيب ٢/ ٣٨٧؛ وهمع الهوامع ١/ ١٧١.

٥١٨٦ب ـ كُهُولٌ وشُبَّانٌ حِسانٌ وجُوهُهُمْ عَلى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ ونَمارِقِ[١]

والنمرق والنمرقة: وسادةٌ صغيرة.

والنمرق: بضم النون والراء وكسرهما لغتان؛ أشهرهما الأولى.

قوله: ﴿وَزَرَابِيُّ﴾: جمع «زَرْبِيَّة» [بفتح الزاي وكسرها][٢] لغتان مشهورتان، وهي البسط العراض.

وقيل: ما له منها خملة. قال أبو عبيدة: «الزَّرَابِيُّ»: الطنافس التي لها خمل رقيق، واحدتها: زَرْبيّة.

قال الكلبيُّ والفراءُ: «المَبْثُوثَة»: المبسوطة[٣].

وقال عكرمةُ: بعضها فوق بعض[٤].

وقال الفراء: كثيرة.

وقال القتبي: متفرقة في المجالس.

قال القرطبي[٥]: وهذا أصح، فهي كثيرة متفرقة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقال أبو بكر بنُ الأنباريِّ: وحدَّثنا أحمدُ بنُ الحُسينِ، قال: حدثنا حُسَينُ بنُ عرفةَ قال: حدثنا عمَّار بنُ محمدٍ، قال: صليت خلف منصورِ بنِ المعتمرِ، فقرأ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ وقرأ[٦]: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾: متكئين فيها ناعمين.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾

قوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾، لما ذكر الله ـ تعالى ـ أمر الدارين تعجب الكفَّار من ذلك، فكذبوا وأنكروا، فذكرهم الله صنعته، وقدرته، وأنه ـ تعالى ـ قادر على كل شيء، كما خلق الحيوانات والسماء والأرض، وذكر الإبل أولاً؛ لأنها كثيرة في بلاد العرب، ولم يروا الفيلة، فنبّههم تعالى على عظيم من خلقه، قد ذلله للصغير من خلقه يقوده وينيخه وينهضه، ويحمل عليه الثقيل من الأحمال، وهو بارك، فينهض بثقيل حمله، وليس ذلك في شيء من الحيوان غيره، فأراهم عظيماً من خلقه، يدلهم بذلك على توحيده، وعظيم قدرته تعالى.

---

(١) ينظر ديوانه (١١٣)، والقرطبي ٢٠/ ٢٤، والبحر ٨/ ٤٥٧ والدر ٦/ ٥١٤.

(٢) سقط من: ب.

(٣) ذكره القرطبي (٢٠/ ٢٤) عن الكلبي ومثله عن قتادة أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٥٥) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٧٤) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٧٤) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٢٤. (٦) ينظر السابق.

وعن بعض الحكماء: أنه حدث عن البعير، وبديع خلقه، وقد نشأ في بلاد لا إبل فيها، ففكر، ثم قال: يوشك أن تكون طوال الأعناق.

قال ابنُ الخطيب(١): الإبل لها خواص، منها أنه ـ تعالى ـ جعل الحيوان الذي يقتنى أنواعاً، فتارة يقتنى ليؤكل لحمه، وتارة ليشرب لبنه، وتارة ليحمل الناس في الأسفار، وتارة لنقل المتاع من بلد إلى بلد، وتارة للزِّينة والجمال، وهذه المنافع بأسرها حاصلة في الإبل، ثم إنها فاقت في كل خصلة من هذه الخصال غيرها من الحيوان المختص ببعضها، مع صبرها على العطش، وقطع المفاوز بالأحمال الثقيلة، وقناعتها في العلف بنبات البر، ولقد ضللنا الطريق في مفازة، فقدموا جملاً واتبعوه، فهداهم للطريق بعد زمان طويل، مع كثرة المعاطف والتلول، فانظر كيف ثبت واهتدى على ما عجزت عنه ذوو العقول.

ومنها: أنه في غاية القوة والصبر على العمل.

ومنها: أنها مع كونها كذلك منقادة للصَّبي الصغير.

ومنها: أنها تحمل وهي باركة، ثم تقوم بحملها، وهذه الصفات توجب على العاقل أن ينظر في خلقها وتركيبها، ويستدل بذلك على وجود الصانع الحكيم جلت قدرته.

فصل

قال قتادةُ ومقاتلٌ وغيرهما: لما ذكر الله ـ تعالى ـ السرر المرفوعة، قالوا: كيف نصعدها؟ فأنزل الله هذه الآية، وبيَّن أنَّ الإبل «تبرك» حتى يحمل عليها، ثم تقوم، فكذلك تلك السرر تتطامَنُ، ثم ترتفع(٢).

وقال المبرد: الإبل هنا: القطعُ العظيمة من السَّحاب.

وقال الثعلبي: ولم أجد لذلك أصلاً في كتب الأئمة(٣).

قال القرطبي(٤): قد ذكره الأصمعي أبو سعيد عبد الملك بن قريب، قال أبو عمرو: من قرأها: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾ بالتخفيف، عنى بها: البعير؛ لأنها من ذوات الأربع، يبرك، فتحمل عليه الحمولة، وغيره من ذوات الأربع، لا يحمل عليه إلا وهو قائم، ومن قرأها بالتثقيل فقال: «الإبل» عنى بها السحاب التي تحمل الماء والمطر.

وقال الماورديُّ: وفي الإبل وجهان:

أظهرهما: أنها «الإبل».

---

(١) الفخر الرازي ٣١/١٤٣.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٢٤).

(٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) ينظر الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٢٥).

والثاني: أنها «السحاب» فإن كان المراد بها السحاب، فلما فيها من الآيات الدالة على قدرته، والمنافع العامة لجميع خلقه.

وإن كان المراد بها الإبل من النعم؛ فلأن الإبل أجمع للمنافع من سائر الحيوان؛ لأن ضروبه أربعة: حلوبة، وركوبة، وأكولة، وحمولة، والإبل تجمع هذه الخلال الأربع، فكانت النعمة بها أعم، وظهور القدرة بها أتم.

وقيل للحسن: الفيل أعظم في الأعجوبة، فقال: العرب بعيدة العهدِ بالفيل، ثم هو لا يؤكل لحمه، ولا يركب ظهره، ولا يحلب درّه[١].

فصل في الكلام على الإبل

الإبل: اسم جمع، واحده: بعير، وناقة، وجمل، ولا واحد لها من لفظها، وهو مؤنث، ولذلك تدخل عليه تاء التأنيث حال تصغيره، فيقال: أبيلة.

قال القرطبيُّ[٢]: لا واحد لها من لفظها إذا كانت لغير الآدميين، فالتأنيث لها لازم، وربما قالوا للإبل: إبْل ـ بسكون الباء ـ للتخفيف، والجمع: آبال واشتقوا من لفظه، فقالوا: تأبل زيد، أي كثرت إبله. وتعجبوا من هذا، فقالوا: ما آبله! أي: ما أكثر إبله! وتقدم في سورة «الأنعام»[٣].

قوله: «كَيْفَ»: منصوب بـ «خُلِقتْ» على حد نصبها في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾، والجملة بدل من «الإبل» بدل اشتمال، فتكون في محل جر، وهي في الحقيقة معلقة بالنظر، وقد دخلت «إلى» على «كيف» في قولهم: «انظر إلى كيف يصنع»، وقد تبدل الجملة المشتملة على استفهام من اسم ليس فيه استفهام، كقولهم: «عرفت زيداً أبو من هو» على خلاف بين النحويين.

وقرأ العامة: «خُلِقَتْ، ورُفِعَتْ، ونُصِبَتْ، وسُطِحَتْ» مبنياً للمفعول، والتاء ساكنة للتأنيث.

وقرأ أمير المؤمنين، وابن أبي عبلة، وأبو حيوة، قال القرطبي[٤]: وابن السميفع وأبو العالية: «خلقتُ» وما بعده بتاء المتكلم، مبنياً للفاعل.

والعامة على: «سُطِحَتْ» مخففاً.

وقرأ الحسنُ وأبو حيوة وأبو رجاء[٥]: «سُطِّحَتْ» بتشديد الطاء وإسكان التاء.

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٤٨٠) عن الحسن.

(٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٢٥). (٣) آية ٢٨.

(٤) ينظر: السابق، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٧٥، والبحر المحيط ٨/ ٤٥٩، والدر المصون ٦/ ٥١٤.

(٥) وكذا هارون الرشيد. ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٥، والبحر المحيط ٨/ ٤٥٩، والدر المصون ٦/ ٥١٤.

قال القرطبيُّ[١]: وقدم الإبل في الذكر، ولو قدم غيرها لجاز.

قال القشيريُّ: وليس هذا مما يطلب فيه نوع حكمة.

قوله: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾، أي: رفعت عن الأرض بغير عمدٍ بعيدة المدى.

وقيل: رفعت فلا ينالها شيء.

قوله: ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ نصباً ثابتاً راسخاً لا يميل ولا يزول، وذلك أن الأرض لما دحيت مادت، فأرساها بالجبال، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١].

قوله: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ ممهدة، أي: بسطت ومدت، واستدل بعضهم بهذا على أن الأرض ليست بكرةٍ.

قال ابنُ الخطيب[٢]: وهو ضعيف؛ لأن الكرة إذا كانت في غاية العظمة تكون كل قطعة منها كالسطح.

فإن قيل: ما المناسبة بين هذه الأشياء؟.

فالجواب: قال الزمخشريُّ[٣]: من فسَّر الإبل بالسحاب، فالمناسبة ظاهرة، وذلك تشبيه ومجاز، ومن حملها على الإبل، فالمناسبة بينها وبين السماء والأرض والجبال من وجهين:

الأول: أن القرآن نزل على العرب، وكانوا يسافرون كثيراً، وكانوا يسيرون عليها في المهامه والقفار، مستوحشين منفردين عن الناس، والإنسان إذا انفرد أقبل على التفكُّر في الأشياء؛ لأنه ليس معه من يحادثه، وليس هناك من يشغل به سمعه وبصره، فلا بد من أن يجعل دأبه الفكر، فإذا فكر في تلك الحال، فأوَّل ما يقع بصره على الجمل الذي هو راكبه، فيرى منظراً عجيباً، وإن نظر إلى فوق لم ير غير السماء، وإذا نظر يميناً وشمالاً لم ير غير الجبال، وإذا نظر إلى تحت لم ير غير الأرض، فكأنه تعالى أمره بالنظر وقت الخلوةِ والانفراد، حتى لا تحمله داعية الكبر والحسد على ترك النَّظر.

الثاني: أن جميع المخلوقات دالة على الصانع ـ جلت قدرته ـ إلا أنها قسمان: منها ما للشهوة فيه حظّ كالوجه الحسن، والبساتين للنُّزهة، والذهب والفضة، ونحوها، فهذه مع دلالتها على الصَّانع، قد يمنع استحسانها عن إكمال النظر فيها.

ومنها ما لا حظّ فيه للشهوة كهذه الأشياء، فأمر بالنظر فيها، إذ لا مانع من إكمال النظر.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٢٥.
(٢) الفخر الرازي ٣١/ ١٤٤.
(٣) الكشاف ٤/ ٧٤٥، والرازي ٣١/ ١٤٤.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (٢٢) إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ (٢٤)﴾

قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: عظهم يا محمد وخوفهم.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾: واعظ.

﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ أي بمسلّط فتقتلهم، ثم نسختها آية السيف.

وقرأ العامة: «بمصيطر» بالصّاد.

وهشام[١]: بالسِّين.

وخلف: بإشمام الصاد زاياً بلا خلاف.

وعن خلاَّد: وجهان.

وقرأ هارون الأعور: «بمصيطر» ـ بفتح الطاء ـ اسم مفعول، لأن «سيطر» عندهم متعدٍّ.

[ويدل على ذلك فعل المطاوعة، وهو تسيطر، ولم يجىء اسم فاعل على مفعل إلا مسيطر، ومبيقر، ومهيمن، ومبيطر؛ من سيطر، وبيقر، وهيمن، وبيطر، وقد جاء مجيمر اسم وادٍ، ومديبر، ويمكن أن يكون أصلهما مجمر ومدبر، فصغرا.

قال شهاب الدين[٢]: قد تقدم أن بعضهم جعل مهيمناً مصغراً، وتقدم أنه خطأ عظيم، وذلك في سورة المائدة][٣].

قال القرطبيُّ[٤]: «وفي الصحاح[٥]: المسيطر والمصيطر: المسلط على الشيء، ليشرف عليه ويتعهَّد أحواله، ويكتب عمله، وأصله من السطر؛ لأن معنى السطر ألاَّ يتجاوز، فالكتاب مسطر، والذي يفعله مسطر ومسيطر، يقال: سيطرت علينا، وقال تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾، وسطره أي: صرعه».

قوله: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ استثناء منقطع، أي: لكن من تولّى عن الوعظ والتذكر، فيعذبه الله العذاب الأكبر، وهو جهنم الدائم عذابها، وإنما قال: «الأكبر»؛ لأنهم عذّبوا في الدنيا بالجوع، والقَحْط، والأسْر، والقَتْل، ويؤيد هذا التأويل: قراءة[٦] ابن مسعود: «إلا مَنْ تَوَلَّى وكَفَر فإنَّه يُعَذِّبُهُ الله».

---

(١) ينظر قراءات هذه الكلمة في: السبعة ٦٨٢، والحجة ٦/ ٤٠٠ ـ ٤٠١ وإعراب القراءات ٢/ ٤٧٠، والمحرز الوجيز ٥/ ٤٧٥، والبحر المحيط ٨/ ٤٥٩، والقرطبي ٢٠/ ٢٦.

(٢) الدر المصون ٦/ ٥١٤.

(٣) سقط من ب.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٢٦.

(٥) الصحاح ٢/ ٦٨٤.

(٦) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٤٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٧٥.

وقيل: هو استثناء متصل، والمعنى: لست مسلَّطاً إلا على من تولى وكفر، فأنت مسلَّط عليه بالجهاد، والله ـ تعالى ـ يعذبه ذلك العذاب الأكبر، فلا نسخ في الآية على هذا التقدير.

وقرأ ابنُ عبَّاسٍ[١] وزيد بن عليٍّ، وزَيدُ بنُ أسلمَ، وقتادةُ: «ألا» حرف استفتاح وتنبيه؛ كقول امرىء القيس: [الطويل]

٥١٨٧ ـ ألاَ رُبَّ يَـوْمٍ لَـكَ مِـنْـهُـنَّ صَـالِـحٍ ....[٢]

و «مَنْ» على هذا شرط، فالجملة مقدرة شرطية، والجواب: «فيعذبه الله»، والمبتدأ بعد الفاء مضمر، والتقدير: فهو يعذبه الله؛ لأنه لو أريد الجواب بالفعل الذي بعد الفاء لكان: «إلا من تولى وكفر يعذبه الله».

[قال شهاب الدين[٣]: أو موصول مضمن معناه][٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾

قوله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾، أي: رجوعهم بعد الموت، والعامة: على تخفيف الياء، مصدر: آب، يئوب، إياباً، أي: رجع، كقام يقوم قياماً؛ قال عبيدٌ: [مخلع البسيط]

٥١٨٨ ـ وكُـلُّ ذِي غَـيْـبَـةٍ يَـئُـوبُ وغَـائِـبُ الـمَـوْتِ لا يَـئُـوبُ[٥]

وقرأ أبو جعفر[٦] وشيبة بتشديدها.

قال أبو حاتمٍ: لا يجوز التشديد، ولو جاز جاز مثله في الصيام والقيام.

وقيل: لغتان بمعنى.

قال شهابُ الدين[٧]: وقد اضطربت فيها أقوال التصريفيّين.

فقيل: هو مصدر لـ «أيَّبَ» على وزن «فَيْعَل» كـ «بَيْطَر» يقال منه: «أيَّبَ يُؤيبُ

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٥، والبحر المحيط ٨/ ٤٦٠، والدر المصون ٦/ ٥١٥.

(٢) صدر بيت وعجزه:

وَلاَ سِـيَّـمَـا يَـوْمٍ بِـدَارَةِ جُـلْـجُـلِ

ينظر ديوان امرىء القيس ص ١٠، والجنى الداني ص ٣٣٤، ٤٤٣، وخزانة الأدب ٣/ ٤٤٤، ٤٥١، والدرر ٣/ ١٨٣، وشرح شواهد المغني ١/ ٤١٢، ٢/ ٥٥٨ وشرح المفصل ٢/ ٨٢، والصاحبي في فقه اللغة ص ١٥٥، ولسان العرب (سوا)، ورصف المباني ص ١٩٣، وشرح الأشموني ١/ ٢٤١، ومغني اللبيب ص. ١٤، ٣١٣، ٤٢١، وهمع الهوامع ١/ ٢٣٤.

(٣) الدر المصون ٦/ ٥١٥.

(٤) سقط من ب.

(٥) تقدم.

(٦) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٤٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٧٥، والبحر المحيط ٨/ ٤٦٠، والدر المصون ٥/ ٥١٥.

(٧) الدر المصون ٥/ ٥١٥.

إيَّاباً»، والأصل: أيْوبَ يُؤيوبُ إيواباً كـ «بَيْطَرَ يُبَيطِرُ»، فاجتمعت الواو والياء في جميع ذلك، وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياء، وأدغمت الياء المزيدة فيها، فـ «إيَّابَ» على هذا «فِيعَال».

وقيل: بل هو مصدر لـ «أوَّبَ» بزنة «فَوْعَلَ» كـ «حَوْقَلَ»، والأصل: «إِوْوَاب» بووابن، الأولى: زائدة، والثانية: عين الكلمة، فسكنت الأولى بعد كسرة، فقلبت ياء، فصارت: «إيواباً»، فاجتمعت ياء وواو، وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياء، وأدغمت في الياء بعدها، فوزنه «فِيعَال» كـ «حِيقَال»، والأصل: «حِوْقَال».

وقيل: بل هو مصدر لـ «أوَّبَ»، على وزن «فَعْوَل»، كـ «جَهْور»، والأصل: «إِوْوَاب» على وزن «فِعْوَال»، كـ «جِهْوَار»، والأولى عين الكلمة، والثانية زائدة، وفعل به ما فعل بما قبله من القلب والإدغام، للعلل المتقدمة، وهي مفهومة مما مرَّ.

فإن قيل: الإدغام مانعٌ من قلب الواو ياء.

قيل: إنما يمنع إذا كانت الواو والياء عينان، وقد عرفت أن الياء في: «فَيْعَل»، والواو في «فَوْعَل، وفَعْوَل» زائدتان.

وقيل: بل هو مصدر لـ «أوَّبَ» بزنة: «فعَّل» نحو: «كذَّبَ كِذَّاباً»، والأصل: «إِوَّاب» قلبت الواو الأولى ياء لانكسار ما قبلها، فقيل: «إيواباً».

قال الزمخشريُّ(١): كديوان في «دِوَّان»، ثم فعل به ما فعل بـ «سيِّد وميِّت»، يعني أصله: سَيْود، فقلبت وأدغم، وإلى هذا نحا أبو الفضل أيضاً.

إلاَّ أن أبا حيَّان ردَّ ما قالاه(٢): بأنهم نصُّوا على أن الواو الموضوعة على الإدغام وجاء ما قبلها مكسوراً، فلا تقلب الواو الأولى ياء لأجل الكسرة، قال: ومثلوا بنفس «إِوَّاب» مصدر: «أوَّبَ» مشدداً، وبـ «اخرواط»، مصدر «اخروَّطَ» قال: وأما تشبيه الزمخشري بـ «ديوان»، فليس بجيد؛ لأنهم لم ينطقوا بها في الوضع مدغمة، ولم يقولوا: «دوان»، ولولا الجمع على: «دواوين» لم يعلم أن أصل هذه الياء واو، وقد نصوا على شذوذ: «ديوان»، فلا يقاس عليه غيره.

قال شهاب الدين(٣): أما كونهم لم ينطقوا بـ «دوان»، فلم يلزم منه رد ما قاله الزمخشري، ونص النحاة على أن أصل «ديوان»: «دِوَّان»، و «قيراط»: «قِرَّاط» بدليل الجمع على «دواوين وقراريط»، وكونه شاذًّا لا يقدح؛ لأنه لم يذكره مقيساً عليه، بل منظراً به.

---

(١) الكشاف ٤/ ٧٤٥. (٢) البحر المحيط ٨/ ٤٦٠.

(٣) الدر المصون ٦/ ٥١٥.

وذهب مكي إلى نحو من هذا، فقال: وأصل الياء: واو، ولكن انقلبت ياء لانكسار ما قبلها، وكان يلزم من شدد أن يقول: إوَّابهم؛ لأنه من الواو، أو يقول: إيوابهم، فيبدل من الأول المشدد ياء، كما قالوا «ديوان» وأصله: «دوان». انتهى.

وقيل: هو مصدر لـ «أوَّب» بزنة: «أكْرَمَ» من الأوب، والأصل: «إواب»، كـ «إكرام»، فأبدلت الهمزة الثانية ياء لسكونها بعد همزة مكسورة، فصار اللفظ «إيواباً»، اجتمعت الواو والياء على ما تقدم، فقلب، وأدغم، ووزنه: «إفْعَال» وهذا واضح.

وقال ابن عطية في هذا الوجه[1]: سهلت الهمزة، وكان الإدغام يردها «إواباً»، لكن استحسنت فيه الياء على غير قياس. انتهى.

وهذا ليس بجيد، لما عرفت من أنه لما قلبت الهمزة ياء، فالقياس أن تفعل ما تقدم من قلب الواو إلى الياء من دون عكس.

قال شهاب الدين[2]: «وإنَّما ذكرت هذه الأوجه مشروحة، لصعوبتها، وعدم من يمعن النظر في مثل هذه المواضع القلقةِ، وقدم الخبر في قوله: «إلَيْنَا، وعَلَيْنَا» مبالغة في التشديد في الوعيد». والله أعلم.

روى الثَّعلبيُّ في تفسيره عن أبيّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ سُورة الغَاشِيةِ حَاسبهُ اللَّهُ حِسَاباً يَسِيْراً»[3].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٥.

(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٥١٦.

(٣) تقدم تخريجه.

سورة الفجر

مكيةٌ، وهي ثلاثون آية، ومائة وتسع وثلاثون كلمة، وخمسمائة وسبعة وتسعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥)﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾، قيل: جواب القسم مذكور، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]، قاله ابن الأنباري.

وقيل: محذوف، لدلالة المعنى عليه، أي: ليجازي كل واحد بما عمل، بدليل ما فعل بالقرون الخالية.

وقدَّره الزمخشريُّ[١]: ليُعذبنَّ، قال: يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ إلى قوله «فصبَّ».

وقدره أبو حيَّان[٢]: بما دلت عليه خاتمة السورة قبله، أي: لإيابهم إلينا وحسابهم علينا.

وقال مقاتل: «هل» هنا: في موضع «إنَّ» تقديره: «إنَّ في ذلك قسماً لذي حجر، فـ «هل» على هذا في موضع جواب القسم. انتهى.

وهذا قول باطل؛ لأنه لا يصلح أن يكون مقسماً عليه على تقدير تسليم أنَّ التركيب هكذا، وإنما ذكرناه للتنبيه على سقوطه.

وقيل: ثم مضاف محذوف، أي: صلاة الفجر، أو ربِّ الفجر.

والعامة: على عدم التنوين في: «الفَجْرِ، والوَتْرِ، ويَسْرِ».

وأبو الدينار[٣] الأعرابي: بتنوين الثلاثة.

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٤٧.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٦٤.
(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٦٢، والدر المصون ٦/ ٥١٧.

قال ابن خالويه: هذا ما روي عن بعض العرب أنه يقف على آخر القوافي: بالتنوين، وإن كان فعلاً، وإن كان فيه الألف واللام؛ قال الشاعر: [الوافر]

٥١٨٩ ـ أَقِلِّي اللَّوْمَ عَاذِلَ والعِتَابَنْ وقُولِي إنْ أَصَبْتُ لَقَدْ أَصَابَنْ[1]

يعني: هذا تنوين الترنُّم، وهو أن العربي إذا أراد ترك الترنُّم ـ وهو: مدّ الصوت ـ نوَّن الكلمة، وإنما يكون في الروي المطلق.

وقد عاب بعضهم النحويين تنوين الترنم، وقال: بل ينبغي أن يسموه بتنوين تركه، ولهذا التنوين قسيم آخر، يسمى: التنوين الغالي وهو ما يلحقُ الرويَّ المقيد؛ كقوله: [الرجز]

٥١٩٠ ـ خَاوِي المُخْتَرَقْنْ[2]

على أن بعض العروضيين أنكروا وجوده، ولهذين التنوينين أحكام مخالفة لحكم التنوين مذكورة في علم النحو.

والحاصل: أن هذا القارىء أجرى الفواصل مجرى القوافي، وله نظائر منها: «الرَّسُولا، والسَّبِيلا، والظُّنُونَا» «في الأحزاب ١٠ و ٦٦ و ٦٧» و«المتعال» في الرعد[3] و «عَشْرِ» هنا.

قال الزمخشري[4]: فإن قيل: فما بالها منكرة من بين ما أقسم به؟ قلت: لأنها ليال مخصوصة من نفس جنس الليالي العشر بعض منها، أو مخصوصة بفضيلة ليست لغيرها، فإن قلت: فهلا عرفت بلام العهد؛ لأنها ليال معلومة معهودة؟.

قلت: لو فعل ذلك لم تستقل بمعنى الفضيلة الذي في التنكير؛ ولأن الأحسن أن تكون الكلمات متجانسة، ليكون الكلام أبعد من الإلغاز والتَّعمِيَة.

---

(١) البيت لجرير ينظر ديوانه ص ٨١٣، وخزانة الأدب ١/ ٦٩، ٣٣٨، ٣/ ١٥١، والخصائص ٢/ ٩٦، والدرر ٥/ ١٧٦، ٦/ ٢٣٣، ٣٠٩، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٣٤٩، وسر صناعة الإعراب ص ٤٧١، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٩٣، ٥٠٣، ٥١٣، ٦٧٧، ٧٢٦، وشرح الأشموني ١/ ١٢، وشرح شواهد المغني ٢/ ٧٦٢، وشرح المفصل ٩/ ٢٩، والكتاب ٤/ ٢٠٥، ٢٠٨، والمقاصد النحوية ١/ ٩١، وهمع الهوامع ٢/ ٨٠، ٢١٢، والإنصاف ص ٦٥٥، وجواهر الأدب ص ١٣٩، ١٤١، وأوضح المسالك ١/ ١٦، وخزانة الأدب ٧/ ٤٣٢، ١١/ ٣٧٤، ورصف المباني ص ٢٩، ٣٥٣، وشرح ابن عقيل ص ١٧، وشرح عمدة الحافظ ص ٩٨، واللسان (خنا)، والمنصف ١/ ٢٢٤، ٢/ ٧٩، ونوادر أبي زيد ص ١٢٧.

(٢) البيت لرؤبة بن العجاج وتمامه:

وقاتم الأعماق خاوي المخترقن

ينظر ديوانه ص ١٠٤، وابن يعيش ٢/ ١١٨، ٩/ ٢٩، ٣٤، والهمع ٢/ ٨٠، ٣٦ والضرائر ص ١٧ والأشموني ١/ ٣٢.

(٣) آية ٩.

(٤) ينظر الكشاف ٤/ ٧٤٦.

يعني بتجانس اللامات، أن تكون كلها إمًّا للجنس، وإما للعهد، والغرض الظاهر أن اللامات في: «الفجر»، وما معه، للجنس، فلو جيء بالليالي معرفة بلام العهد لفات التجانس.

أقسم سبحانه: بالفجر، وليال عشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر: أقسام خمسة.

واختلف في «الفجرِ»، فقال عليٌّ وابنُ الزُّبيرِ وابنُ عبَّاسٍ ـ رضي الله عنهم ـ: «الفَجْر» هنا: انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم[١].

قال ابنُ الخطيب[٢]: أقسم تعالى بما يحصل فيه، من حصول[٣] النور، وانتشار الناس، وسائر الحيوان في طلب الأرزاق، وذلك مشاكل لنشور الموتى، وفيه عبرة لمن تأمل، كقوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨]، ومدح بكونه خالقاً، فقال سبحانه: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وعن ابن عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ أنه: النهار كله، وعبر عنه بالفجر؛ لأنه أوله.[٤]

وروى ابن محيصن عن عطيَّة عن ابن عبَّاسٍ: يعني: فجر المحرم[٥].

قال قتادةُ: هو فجر أول يوم من المحرم[٦] منه تنفجر السنة، وعنه أيضاً: صلاة الصبح.

وروى ابن جريح عن عطاء عن ابن عباس قال: يريد صبيحة يوم النحر؛ لأن الله تعالى جعل لكل يوم ليلة قبله إلا يوم النحر لم يجعل له ليلة قبله ولا ليلة بعده؛ لأن يوم عرفة له ليلتان ليلة قبله وليلة بعده، فمن أدرك الموقف الليلة التي بعد عرفة فقد أدرك الحج إلى طلوع فجر يوم النحر، وهذا قول مجاهد.

وقال عكرمة: «والفجر» قال: انشقاق الفجر من يوم جمعة.

وعن محمد بن كعب القرظي: «والفجر» قال: آخر أيام العشر إذا رفعت أو دفعت من جمع.

وقال الضحاك: فجر ذي الحجة؛ لأن الله تعالى قرن به الأيام، فقال تعالى: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ أي ليال عشر من ذي الحجة.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٥٥٨) والحاكم (٢/ ٥٢٢) عن ابن عباس.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٧٧) وزاد نسبته إلى الفريابي وابن أبي حاتم والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٢) ينظر: الفخر الرازي ١٤٧/٣١. (٣) في أ: ظهور.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٥٥٨). (٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٢٧).

(٦) ينظر المصدر السابق.

وقيل: هي العيون التي تنفجر منها المياه.

قوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾.

العامة: على «ليالٍ» بالتنوين، «عشر» صفة لها.

وقرأ ابنُ عباسٍ[(١)]: «وليالِ عشرٍ» بالإضافة.

فبعضهم قال: «ليال» في هذه القراءة دون ياء، وبعضهم[(٢)] قال: «وليالي عشر» بالياء، وهو القياس.

وقيل: المراد: ليالي أيام عشر، وكان من حقه على هذا أن يقال: عشرة؛ لأن المعدود مذكر.

ويجاب عنه: بأنه إذا حذف المعدود جاز الوجهان، ومنه: «وأَتْبَعَهُ بِستٍّ مِنْ شوَّالٍ».

وسمع الكسائي: صمنا من الشهر خمساً.

فصل في المراد بالعشر

قال ابنُ عبَّاسٍ ومجاهدٌ والسديُّ والكلبيُّ: هو عشر ذي الحجة[(٣)].

وقال مسروقٌ: هي العشرة المذكورة في قوله ـ تعالى ـ في قصة موسى ـ عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وهي أفضل أيام السنةِ[(٤)]، قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ أيَّامٍ العَملُ الصَّالحُ فِيهِنَّ أحَبُّ إلى الله ـ تعَالَى ـ مِنْ عَشْرِ ذِي الحجَّةِ»[(٥)]؛ ولأن ليلة يوم النَّحرِ داخلة فيه رخَّصه الله تعالى موفقاً لمن يدرك الموقف يوم عرفة.

وعن ابن عبَّاسٍ أيضاً: هي العشرُ الأواخر من رمضان[(٦)].

وقال الضحاكُ: أقسم الله ـ تعالى ـ بها لشرفها بليلة القدرِ، وكان ﷺ إذا دخل

---

(١) ينظر: الكشاف ٧٤٦/٤، والبحر المحيط ٤٦٣/٨، والدر المصون ٥١٨/٦.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٤٧٦/٥،.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٦٠) عن ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وقتادة.
وأخرجه الحاكم (٢/ ٥٢٣) عن ابن عباس وصححه وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٧٩) وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في «الشعب» وذكره عن عبد الله بن الزبير، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وابن سعد وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٦٠) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٧٩) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب.

(٥) أخرجه البخاري ٤٥٧/٢ في كتاب العيدين: باب فضل العلم في أيام التشريق (٩٦٩) وأبو داود ٢/ ٨١٥ في كتاب الصوم: باب في صوم العشر (٢٤٣٨) وأخرجه الترمذي ٣/ ١٣٠ في كتاب الصوم: باب ما جاء في الأيام العشر (٧٥٧).

(٦) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٨١) وعزاه إلى ابن أبي حاتم وابن المنذر.

العشر الأواخر من رمضان، شد المئزرَ، وأيقظ أهله للتهجد[١].

وعن ابن عبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ ويمان والطبريِّ: هو العشر الأول من المحرم؛ لأن آخرها يوم عاشوراء، ولصومه فضل عظيم[٢].

قوله: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾.

قرأ الأخوان[٣]: بكسر الواو من: «الوِتْر».

والباقون: بفتحها، وهما لغتان، كالحَبْرِ والحِبْر، والفتح: لغة قريش ومن والاها، والكسر: لغة تميم.

وهاتان اللغتان في: «الوتر»، مقابل: «الشفع»، فأما في «الوتر» بمعنى: التِّرة، فبالكسر وحده.

قال الزمخشريُّ: ونقل الأصمعي فيه اللغتين أيضاً.

وقرأ أبو عمرو[٤] **في رواية يونس عنه**: بفتح الواو وكسر التاء، فيحتملُ أن تكون لغة ثالثة، وأن يكون نقل كسرة الراء إلى التاء، إجراءً للوصل مجرى الوقف.

فصل في الشفع والوتر

قال ابنُ الخطيبِ[٥]: «الشَّفْعُ والوتْرُ»: هو الذي تسميه العرب: الخساء والركاء، وتسميه العامة: الزَّوجُ والفَردُ.

قال يونس: أهل العالية يقولون: «الوَتْرُ» بالفتح في العدد، و «الوِتْر» بالكسر في الذحل، وتميم يقولون: بكسر الواو فيهما، تقول: «أوترت أوتر إيتاراً» أي: جعلته وتراً، ومنه قوله ﷺ: «من اسْتَجْمرَ فليُوتِرْ»[٦].

واختلف في الشفع والوتر، فروى عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «الشَّفعُ والوتر: الصَّلاة، مِنْها شَفعٌ، ومِنهَا وتْرٌ»[٧].

قال جابر بن عبد الله: قال النبي ﷺ: «والفَجْرِ وليَالٍ عَشْرٍ» قال: «هُو الصُّبْحُ وعَشْرُ النَّحْرِ، والوترُ: يومُ عرفَة، والشَّفعُ: يومُ النَّحْرِ»[٨].

---

(١) تقدم تخريجه. (٢) تقدم تخريجه عن ابن عباس.

(٣) ينظر: السبعة ٦٨٣، والحجة ٦/٤٠٢، وإعراب القراءات ٢/٤٧٦ وإعراب القراءات ٧٦١.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٨/٤٦٣، والدر المصون ٦/٥١٨.

(٥) الفخر الرازي ٣١/١٤٨. (٦) تقدم.

(٧) أخرجه أحمد (٤/ ٤٤٢) والترمذي (٣٣٤٢) والحاكم (٢/ ٥٢٢) والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٦٣) من طريق قتادة عن عمران بن عصام عن شيخ من أهل البصرة عن عمران بن حصين به وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث قتادة.

(٨) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٤٠) وقال: رواه البزار وأحمد ورجالهما رجال الصحيح غير عياش بن عقبة وهو ثقة.

وهو قول ابن عباس وعكرمة، واختاره النحاس وقال: حديث أبي الزبير عن جابر، هو الذي صح عن النبي ﷺ وهو أصح إسناداً من حديث عمران بن حصين، فيوم عرفة: وتر؛ لأنه تاسعها، ويوم النحر: شفع؛ لأنه عاشرها.

وعن أبي أيوب، قال: سئل النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾، قال: «الشَّفْعُ: يَومُ عَرفَةَ ويوْمُ النَّحرِ، والوترُ: لَيْلَةُ يَوْمِ النَّحْرِ»(١).

وقال مجاهدٌ وابنُ السميفع وابنُ عباسٍ: الشفع: خلقه، قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النبأ: ٨]، والوتْرُ: هو الله عز وجل.

فقيل لمجاهد: أترويه عن أحد؟ قال: نعم، عن أبي سعيدٍ الخدريِّ عن رسول الله ﷺ.

ونحوه قال محمدُ بن سيرين، ومسروق، وأبُو صالحٍ وقتادةُ، قالوا: الشَّفع: الخلقُ، قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]: الكفر والإيمان، والشقاوة والسعادة، والهدى والضلال، والنور والظلمة، والليل والنهار، والحر والبرد، والشمس والقمر، والصيف والشتاء، والسماء والأرض، والإنس والجن، والوَتْر: هو الله تعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١، ٢].

وقال ﷺ: «إنَّ للَّهِ تِسْعَةً وتسْعِينَ اسْماً، واللَّهُ وترٌ يُحِبُّ الوِتْرَ»(٢).

وعن ابنِ عبَّاسٍ ـ رضي الله عنه ـ: الشَّفعُ: صلاة الصبح، والوَتْرُ: صلاة المغرب(٣).

وقال الربيعُ بنُ أنس وأبو العالية: هي صلاة المغرب، فالشفع منها: الركعتان الأوليان، والوتر: الثالثة(٤).

وقال ابنُ الزبيرِ: الشفع: الحادي عشر، والثاني عشر من أيَّام منى، والوتر: اليوم الثالث، قال تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾(٥) [البقرة: ٢٠٣].

---

(١) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٤٠) وقال: رواه الطبراني في حديث طويل وفيه واصل بن السائب وهو متروك.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٨٢) وزاد نسبته إلى ابن مردويه بسند ضعيف.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٦٢) عن ابن عباس ومجاهد والحسن وأبي صالح.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٨١) عن مجاهد وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وذكره عن أبي صالح وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٢٨) عن ابن عباس.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٦٣) عن الربيع بن أنس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٨١) عن أبي العالية وعزاه إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم عنه. =

وقال عطاءٌ والضحاكُ: الشفعُ: عشر ذي الحجة، والوتر: أيام منى الثلاثة[١].

وقيل: الشفع والوتر: آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان وتراً، فشفع بزوجته حواء، رواه ابن أبي نجيحٍ، وحكاه القشيريُّ عن ابن عباس [رضي الله عنهما. وفي رواية: الشفع آدم وحواء، والوترَ هو الله تعالى[٢].

وقيل: الشفع درجات الجنة، وهي ثمان، والوتر هي دركات النار، وهي سبع، كأنه أقسم بالجنة والنار. قاله الحسين بن الفضل.

وقيل: الشفع: الصفا والمروة، والوتر: الكعبة.

وقال مقاتل بن حيان: الشفع الأيام والليالي، والوتر الذي لا ليلة بعده، وهو يوم القيامة[٣].

وقيل غير ذلك][٤].

قال ابنُ الخطيبِ[٥]: كل هذه الوجوه محتملة، والظاهر لا شعار له بشيء من هذه الأشياء على التعيين، فإن ثبت في شيء منها خبرٌ عن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، أو إجماع من أهل التأويل، حكم بأنه المراد، وإن لم يثبت، وجب أن يكون الكلام على طريقة الجواز؛ لا على القطع، ولقائل أن يقول: إني أحمل الكلام على الكل؛ لأن الألف واللام في: «الشفع والوتر» يفيد العموم.

قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾، هذا قسم خامس، بعدما أقسم بالليالي العشر على الخصوص، أقسم بالليل على العموم، ومعنى «يَسْر» أي: يسرى فيه، كما يقال: ليل نائم، ونهار صائم؛ قال: [الطويل]

٥١٩١ ـ لَقدْ لُمْتِنَا يا أم غِيلانَ في السُّرَى ... ونِـمْـتِ، ومَـا لَـيْـلُ الـمَـطِـيِّ بِـنـائِـمِ[٦]

ومنه قوله تعالى: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ﴾ [سبأ: ٣٣]، وهذا قول أكثر أهل المعاني، وهو قول القتبي والأخفش.

وقال أكثر المفسرين: معنى «يَسْر»: سار فذهب.

وقال قتادةُ وأبو العاليةِ: جاء وأقبل[٧].

= وينظر تفسير الماوردي (٦/ ٢٦٦) والقرطبي (٢٠/ ٢٨).

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٦٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٨٢) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن سعد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره الماوردي (٦/ ٢٦٦) والقرطبي (٢٠/ ٢٨).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٢٨).

(٤) سقط من ب.

(٥) الفخر الرازي ٣١/ ١٤٩.

(٦) تقدم.

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٦٤) عن قتادة بلفظ: سار وذكره السيوطي بهذا اللفظ في «الدر المنثور» (٦/ ٥٨٢) عن مجاهد وعزاه إلى الفريابي وعبد بن حميد والطبري وابن أبي حاتم.

وقيل: المراد: ينقص، كقوله: ﴿إِذْ أَدْبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣]، ﴿إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير: ١٧].

و «يَسْرِ»: منصوب بمحذوف، هو فعل القسم، أي: أقسم به وقت سراه، وحذف ياء «يَسْري» وقفاً، وأثبتها وصلاً، نافع وأبو عمرو، وأثبتها في الحالين[١] ابن كثير، وحذفها في الحالين الباقون لسقوطها في خط المصحف الكريم.

وإثباتها هو الأصل؛ لأنها لام فعل مضارع مرفوع، وحذفها لموافقة المصحف، وموافقة رءوس الآي، وجرياً للفواصل مجرى القوافي.

ومن فرق بين حالتي الوقف والوصل؛ فلأن الوقف محل استراحة.

قال الزمخشري[٢]: «وياء «يسري» تحذف في الدَّرج اكتفاء عنها بالكسرة، وأما في الوقف فتحذف مع الكسرة».

وهذه الأسماء كلها مجرورة بالقسم، والجواب محذوف، [تقديره:][٣] ليعذبن، بدليل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾، إلى قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾، وقد تقدم الكلام على ذلك.

قوله: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾.

قيل: «هل» على بابها من الاستفهام الذي معناه التقرير، كقولك: ألم أنعم عليك إذا كنت قد أنعمت.

وقيل: المراد بذلك: التوحيد، لما أقسم به وأقسم عليه، والمعنى: بل في ذلك مقنع لذي حجر، ومعنى «الذي حجر»: لذي لبٍّ وعقلٍ؛ قال الشاعر: [الطويل]

٥١٩٢ ـ وكَيْفَ يُرَجَّى أنْ تَتُوبَ وإنَّمَا يُرَجَّى مِنَ الفِتْيانِ من كَانَ ذَا حِجْرِ[٤]

وقال أبو مالك: «لِذي حِجْرٍ»: أي: لذي ستر من الناس.

وقال الحسن: لذي حِلْم.

قال الفراء: الكل يرجع إلى معنى واحد: لذي حِجْر، ولذي عَقل، ولذي حِلْم، ولذي ستر، الكل بمعنى العقل.

وأصل الحِجْر: المنع، يقال لمن ملك نفسه ومنعها إنه لذو حجر.

[ومنه سمي الحجر: المنع، لامتناعه بصلابته، ومنه: حجر الحاكم على فلان أي: منعه من التصرف، ولذلك سميت الحجرة حجرة، لامتناع ما فيها بها][٥].

---

(١) ينظر: الحجة ٦/٤٠٣، وإعراب القراءات ٢/٤٧٦، وحجة القراءات ٧٦١.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/٧٤٦.

(٣) في أ: وهو.

(٤) ينظر القرطبي ٢٠/٣٠.

(٥) سقط من ب.

وقال الفراء: العرب تقول: إنه لذو حجر إذا كان قاهراً لنفسه ضابطاً لها، كأنه أخذ من قولك: حجرت على الرجل.

والمعنى: أن كلَّ ذلك دال على أن كل ما أقسم الله تعالى به من هذه الأشياء فيه دلائل وعجائب على التوحيد والربوبية، فهو حقيق بأن يقسم به لدلالته على خالقه.

قال القاضي(١): وهذه الآية تدل على أن القسم واقع برب هذه الأمور؛ لأن الآية دالة على أن هذه مبالغة في القسم، والمبالغة لا تحصل إلا في القسم بالله تعالى؛ ولأن النهي قد ورد بأن يحلف العاقل بغير الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ﴾.

قرأ العامة: «بعاد»: مصروفاً، «إرم» بكسر الهمزة، وفتح الراء، والميم.

فـ «عاد» اسم لرجل في الأصل، ثم أطلق على القبيلة أو الحي، وقد تقدم الكلام عليه، وأما: «إرَمَ» فقيل: اسم قبيلة. وقيل: اسم مدينة [اختلفوا في تعيينها، فقيل: «إسكندرية»، وقيل: «دمشق»، وهذان القولان ضعيفان؛ لأنها منازل كانت من «عمان» إلى «حضرموت»، وهي بلاد الرمال والأحقاف، وأما «الإسكندرية» و «دمشق»، فليستا من بلاد الرمال](٢).

فإن كانت اسم قبيلة كانت بدلاً، أو عطف بيان، أو منصوبة بإضمار: «أعني»، وإن كانت اسم مدينة، فتعلق الإعراب من: «عاد» وتخريجه على حذف مضاف، كأنه قيل: بعاد أهل إرم. قاله الزمخشري(٣).

وهو حسن، ويبعد أن يكون بدلاً من: «عاد»، بدل اشتمال، إذ لا ضمير، وتقديره قلق وقد يقال: إنه لما كان المراد(٤) بـ «عاد»: مدينتهم؛ لأن «إرم» قائمة مقام ذلك، صح البدل.

وإرَمَ: اسم جد عاد، وهو عادُ بنُ عوصِ بنِ إرمَ بْنِ نوحٍ عليه الصلاة والسلام؛ قال زهيرٌ: [البسيط]

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ١٥٠.

(٢) سقط من ب.

(٣) الكشاف ٤/ ٧٤٧.

(٤) في أ المعنى.

٥١٩٣ ـ وآخَرِينَ تَرَى المَاذِيَّ عُدَّتَهُمْ ... مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ أوْ مَا أوْرَثَتْ إرَمُ[1]

وقال ابن قيس الرقيات: [المنسرح]

٥١٩٤ ـ مَجْداً تَلِيداً بَنَاهُ أوَّلُهُ ... أدركَ عاداً وقَبْلَهَا إرَمَا[2]

وقرأ الحسن[3]: «عاد» غير مصروف.

قال أبو حيَّان[4]: مضافاً إلى «إرَمَ»، فجاز أن يكون «إرَمَ» أباً، أو جداً، أو مدينة.

قال شهاب الدين[5]: يتعين أن يكون في قراءة الحسن، غير مضاف، بل يكون كما كان منوناً، ويكون «إرَمَ» بدلاً أو بياناً أو منصوباً بإضمارِ: أعني، ولو كان مضافاً لوجب صرفه وإنما منع «عاد» اعتباراً بمعنى: القبيلة، أو جاء على أحد الجائزين في: «هند» وبابه.

وقرأ الضحاكُ[6] في رواية: «بِعادَ أرَمَ» ممنوع الصرف، وفتح الهمزة من: «أرم».

قال مجاهد: من قرأ بفتح الهمزة شبههم بالآرام التي هي الأعلام.

وعنه أيضاً: فتح الهمزة، وسكون الراء، وهو تخفيف: «أرِم» بكسر الراء، وهي لغة في اسم المدينة، كما قرئ: ﴿بورْقِكُمْ﴾ [الكهف: ١٩]، وهي قراءة ابن الزبير، وعنه في: «عاد» مع هذه القراءة: الصرف وتركه.

وعنه ـ أيضاً ـ وعن ابن عباسٍ: «أرَمَّ» بفتح الهمزة والراء والميم المشددة جعلاه فعلاً[7] ماضياً، [يقال: أرم العظم أي بَلِيَ، وأرم وأرمه غيره، فأفعل يكون لازماً ومتعدياً في هذا][8].

و «ذات» على هذه القراءة مجرورة صفة لـ: «عاد» ويكون قد راعى لفظها تارة في قوله: «إرَمَ»، فلم تلحق علامة التأنيث، ويكون: «أرم» معترضاً بين الصفة والموصوف، أي: أرمت هي، بمعنى: رمَتْ وبَليتْ، وهو دعاء عليهم، ويجوز أن يكون فاعل: «أرم» ضمير الباري تعالى، والمفعول محذوف، أي: أرمها الله تعالى، والجملة الدعائية معترضة ـ أيضاً ـ وراعى معناها أخرى في: «ذات» فأنث.

وروي عن ابن عبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ: «ذاتَ» بالنَّصْب، على أنها مفعول بـ

---

(١) تقدم.

(٢) ينظر الديوان ص ١٥٥، والكشاف ٤/ ٧٤٧، والقرطبي ٢٠/ ٣١، والبحر ٨/ ٤٦١، والدر المصون ٦/ ٥١٩.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٨، والبحر المحيط ٨/ ٤٦٤، والدر المصون ٦/ ٥١٩.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٤٦٤.

(٥) الدر المصون ٦/ ٥١٩.

(٦) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٨، والبحر المحيط ٨/ ٤٦٤.

(٧) ينظر: السابق، والدر المصون ٦/ ٥١٩.

(٨) سقط من ب.

«أرم» وفاعل «أرم» ضمير يعود على الله ـ تعالى ـ، أي: أرمها الله، ويكون: «أرم» بدلاً من: «فعَل ربُّك» وتبييناً له.

وقرأ ابنُ الزُّبيرِ[١]: «بعادِ أرمَ» بإضافة: «عاد» إلى: «أرِم» مفتوح الهمزة مكسور الراء، وقد تقدم أنه اسم مدينة.

وقرأ[٢]: «إرَم ذَات»، بإضافة: «إرم» إلى: «ذات».

وروي عن مجاهدٍ: «أرَم»[٣] يعني: بفتحتين، مصدر «أرَمَ، يَأرم»، أي: هلك، فعلى هذا يكون منصوباً بـ: «فَعَلَ ربُّك» نصب المصدر التشبيهي، والتقدير: كيف أهلك ربك عاداً إهلاك ذات العماد؟ وهذا أغرب الأقوال.

و «ذَاتِ العمادِ»: إن كان صفة لقبيلة، فمعناه: أنهم أصحاب خيام لها أعمدة يظعنون بها، أو هو كناية عن طول أبدانهم [كقولهم: رفيع العماد طويل النجاد قاله ابن عباس رضي الله عنهما][٤]، وإن كان صفة للمدينة، فمعناه: أنها ذات عُمُد من الحجارة.

قوله: ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ﴾: يجوز أن يكون: تابعاً، وأن يكون: مقطوعاً، رفعاً ونصباً.

والعامة على: «يُخلَق» مبنياً للمفعول، «مِثلُهَا» مرفوع على ما لم يسم فاعله.

وعن ابن الزُّبيرِ[٥]: «يَخْلقُ» مبنياً للفاعل، «مِثْلها» منصوب به، **وعنه أيضاً**: «نَخْلقُ»[٦] بنون العظمة.

فصل في الكلام على إرم وعاد

قال القرطبيُّ[٧]: من لم يضف جعل «إرم»: اسم «عاد»، ولم يصرفه؛ لأنه جعل «عاداً» اسم أبيهم، و «إرم»: اسم القبيلة، وجعله بدلاً منه، أو عطف بيان.

ومن قرأه بالإضافة ولم يصرفه جعله اسم أمهم، أو اسم بلدتهم، وتقديره: بعادِ أهل إرمَ، كقوله: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، ولم تنصرف ـ قبيلة كانت، أو أرضاً ـ للتعريف والتأنيث.

والإرم: العلم، أي: بعاد أهل ذات العلم، والخطاب للنبيِّ ﷺ، والمراد عام، وكان أمر عاد وثمود عندهم مشهوراً، إذ كانوا في بلاد العرب، وحجر ثمود موجود اليوم، وأمر فرعون يسمعونه من جيرانهم من أهل الكتاب، واستفاضت به الأخبار، وبلاد فرعون متصلة بأرض العرب.

---

(١) ينظر، المحرر الوجيز ٥/٤٧٨، البحر المحيط ٨/ ٤٦٤، والدر المصون ٦/ ٥١٩.
(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٦٤، والدر المصون ٦/٥١٩.
(٣) ينظر السابق.
(٤) سقط من ب.
(٥) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٤٧٨، والبحر المحيط ٨/ ٤٦٤، والدر المصون ٦/٥١٩.
(٦) ينظر السابق.
(٧) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٣٠.

قوله: «بعَادٍ»، أي: بقوم عاد.

قال أبو هريرة: كان الرجل من قوم عادٍ، يتخذ المصراع من حجارة، لو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة، لم يستطيعوا أن يقلوه[١].

[وإرم قال ابن إسحاق: هو سام بن نوح عليه السلام.

وعن ابن عباس وابن إسحاق أيضاً قال: عاد بن إرم بن عاص بن سام بن نوح عليه السلام[٢].

قال ابن إسحاق: كان سام بن نوح له أولاد منهم إرم بن سام، وأرفخشد بن سام؛ فمن ولد إرم بن سام العمالقة والفراعنة والجبابرة والملوك والطغاة والعصاة][٣].

وإرم: قال مجاهد: «إرم» هي أمة من الأمم، وعنه أيضاً: أن معنى «إرم»: القديمة، وعنه أيضاً: القوية[٤].

وقال قتادةُ: هي قبيلة من عاد[٥].

وقيل: هما عادان، فالأولى: هي «إرم»، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٠]، فقيل لعقب عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح: عاد كما يقال لبني هاشم: هاشم، ثم يقال للأولين منهم: عاداً الأولى، وإرم: تسمية لهم باسم جدهم، ولمن بعدهم: عاد الأخيرة؛ قال ابن الرقيَّات: [المنسرح]

٥١٩٥ ـ مَجْداً تَلِيداً بَنَاهُ أوَّلُهُ أدركَ عاداً وقَبْلَهَا إرَمَا[٦]

وقال معمر: «إرم»: إليه مجمع عاد وثمود، وكان يقال: عاد وإرم، وعاد وثمود، وكانت القبائل تنسب إلى إرم، «ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد».

قال ابنُ عبَّاسٍ في رواية عطاء: كان الرَّجل منهم، طوله خمسمائة ذراع، والقصير منهم، طوله ثلاثمائة ذراع بذراع نفسه[٧].

وعن ابن عبَّاسٍ أيضاً: أن طول الرجل منهم، كان سبعين ذراعاً[٨].

قال ابن العربي: وهو باطل؛ لأن في الصحيح: «أنَّ اللَّهَ خَلقَ آدَمَ طُولهُ سِتُّونَ ذِراعاً في الهواءِ، فَلم يَزل الخَلْقُ يَنقصُ إلى الآنَ».

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٣١). (٢) ينظر المصدر السابق.

(٣) سقط من: ب.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٦٦) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٨٣) وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٦٦). (٦) تقدم.

(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٣١). (٨) ينظر المصدر السابق.

وزعم قتادةُ: أن طول الرجل منهم اثنا عشر ذراعاً[١].

قال أبو عبيدة: «ذَاتِ العمادِ»: أي: ذات الطول، يقال: رجل معمد إذا كان طويلاً ونحوه عن ابن عباس، ومجاهد.

وعن قتادة: كانوا عماداً لقومهم، يقال: فلان عميد القوم وعمودهم: أي: سيدهم، وعنه أيضاً: كانوا أهل خيام وأعمدة ينتجعون الغيوث، ويطلبون الكلأ، ثم يرجعون إلى منازلهم.

وقيل: المعنى: ذات الأبنية المرفوعة على العمد، وكانوا ينصبون الأعمدة، فيبنون عليها القصور.

وقال ابن زيد: «ذَاتِ العِمادِ» يعني: إحكام البنيان بالعمد[٢].

قال الجوهري[٣]: «والعماد: الأبنية الرفيعة، تذكر وتؤنث، والواحدة: عمادة».

وقال الضحاك: «ذات العماد» أي ذات الشدة والقوة مأخوذة من قوة الأعمدة بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[٤] [فصلت: ١٥].

فصل في الضمير في «مثلها»

والضمير في: «مِثْلُهَا» يرجع إلى القبيلة، أي: لم يخلق مثل القبيلة في البلاد قوة وشدة، وعظم أجساد.

وعن الحسن وغيره: وفي حرف عبد الله[٥]: «التي لم يخلق مثلهم في البلاد».

وقيل: يرجع إلى المدينة، والأول أظهر وعليه الأكثر.

فصل

قال القرطبيُّ[٦]: «رُوِيَ عن مالك رضي الله عنه أن كتاباً وجد بـ «الاسكندرية» فلم يدر ما فيه، فإذا فيه «أنَا شدَّادُ بنُ عادٍ، الذي رفَعَ العِمادَ، بنيتها حين لا شَيْبَ ولا مَوْتَ» قال مالك: إن كان لتمرُّ بهم مائة سنة لا يرون فيها جنازة».

وروي: أنه كان لعاد ابنان: شدَّاد، وشديد، ثم مات شديد، وخلص الأمر لشداد، فملك الدنيا، ودانت له ملوكها، فسمع بذكر الجنة، فقال: أبني مثلها، فبنى إرم في

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٦٩) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٨٣) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٦٨). (٣) ينظر الصحاح (٢/ ٥١١).

(٤) ذكره القرطبي في «تفسره» (٢٠/ ٣١) عن الضحاك.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٣٢. (٦) ينظر السابق.

بعض صحارى عدن، في ثلاثمائة سنة، وكان عمره تسعمائة سنة، وهي مدينة عظيمة، قصورها من الذهب، والفضة، وأساطينها من الزَّبرجد والياقوت، وفيها أصناف الأشجار والأنهار، ولما تمَّ بناؤها سار إليها بأهل مملكته، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة، بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا.

وعن عبد الله بن قلابة: أنه خرج في طلب إبل له، فوقع عليها، فحمل مما قدر عليه مما هنا، وبلغ خبره معاوية، فاستحضره، فقص عليه، فبعث إلى كعب فسأله، فقال: هي إرم ذات العماد، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك، أحمر أشقر، قصير، على حاجبه خال، وعلى عقبه خال، يخرج في طلب إبل له، ثم التفت، فأبصر ابن قلابة، وقال: هذا والله ذلك الرجل.

فصل في إجمال القول في الكفار هاهنا

ذكر الله ـ تعالى ـ هاهنا ـ قصة ثلاث فرق من الكفار المتقدمين، وهم: عاد، وثمود، وقوم فرعون، على سبيل الإجمال حيث قال: «فَصَبَّ عَلَيْهِم رَبُّكَ سَوْطَ عذابٍ»، ولم يبين كيفية ذلك العذاب، وبين في سورة: «الحاقَّة»، ما أبهم[1] في هذه السورة، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، إلى قوله: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ [الحاقة: ٢ و ٩].

قوله: ﴿وَثَمُودَ﴾.

قرأ العامة بمنع الصرف.

وابنُ وثابٍ[2]: يصرفه، والذي يجوز فيه ما تقدم في: «التي لم يخلق».

و «جَابُوا» أي: قطعوا، ومنه: فلان يجوب البلاد، أي: يقطعها سيراً؛ قال: [البسيط]

٥١٩٦ ـ مَا إنْ رَأيْتُ قَلُوصاً قَبْلهَا حَملتْ سِتِّينَ وسْقاً ولا جَابتْ بِهِ بَلدَا[3]

وجَابَ الشيء يجوبه: أي: قطعه، ومنه سمي جيب القميص؛ لأنه جيب، أي قطع.

وقوله: «بالوَادِ»: متعلق إما بـ «جابوا» أي: فيه، وإما بمحذوف على أنه حال من «الصَّخْر»، أو من الفاعلين.

وأثبت في الحالين: ابنُ كثيرٍ وورشٌ بخلاف عن قنبل، فروي عنه إثباتها في

(١) في ب أصابهم.
(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٨، والبحر المحيط ٨/ ٤٦٥، والدر المصون ٦/ ٥١٩.
(٣) ينظر القرطبي ٢٠/ ٣٣، والبحر ٨/ ٤٦٢، واللسان (حوب)، والدر المصون ٦/ ٥١٩.

الحالين، وروي عنه: إثباتها في الوصل خاصة، وحذفها الباقون في الحالين، موافقة لخط المصحف، ومراعاة[١] للفواصل كما تقدم في «يسر».

فصل في تفسير الآية

قال ابنُ عبَّاس: كانوا يجوبون البلاد، ويجعلون من الجبال بيوتاً، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾[٢] [الحجر: ٨٢].

وقيل: أول من نحت من الجبال، والصخور والرخام: ثمود، وبنوا ألفاً وسبعمائة مدينة، كلها من الحجارة.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْوَادِ﴾ أي: بوادي القرى. قاله محمد بن إسحاق.

[وروى أبو الأشهب عن أبي نضرة، قال: أتى رسول الله ﷺ في غزاة «تبوك» على وادي ثمود، وهو على فرس أشقر، فقال: «أسرعوا السير؛ فإنكم في واد ملعون».

وقيل: الوادي بين جبال، وكل منفرج بين جبال أو تلال يكون مسلكاً للسيل، ومنفذاً، فهو واد][٣].

قوله: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾، أي: الجنود والعساكر والجموع. قاله ابن عباس.

وسمي «ذي الأوتاد» لكثرة مضاربهم التي كانوا يضربونها إذا نزلوا.

وقيل: ذي الأوتاد، أي: ذي الملك الثابت.

كقوله: [الرجز]

٥١٩٧ ـ فـي ظِـلِّ مَـلْـكٍ رَاسِـخِ الأَوْتَـادِ[٤]

وقيل: كان يشدّ الناس بالأوتاد إلى أن يموتوا، تجبّراً منه وعتواً، كما فعل بامرأته آسية، وماشطتها.

قال عبدُ الرحمنِ بن زيدٍ: كانت له صخرة ترفع بالبكرات، ثم يؤخذ له الإنسان، فيوتد له أوتاد الحديد، ثم يرسل تلك الصخرة عليه[٥].

وروى قتادةُ عن سعيدِ بنِ جبيرٍ عن ابنِ عباسٍ: أن تلك الأوتاد، كانت ملاعب يلعبون تحتها[٦].

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟﴾: يجوز فيه ما جاز في: «الذين» قبله، من الإتباع والقطع على الذم.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٨، والدر المصون ٦/ ٥١٩.
(٢) ينظر القرطبي (٢٠/ ٣١) عن الضحاك. (٣) سقط من: ب.
(٤) ينظر الفخر الرازي ٣١/ ١٦٩. (٥) ينظر تفسير القرطبي (٢٠/ ٣١) عن الضحاك.
(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٧٠).

قال ابن الخطيب[١]: يحتمل أن يرجع الضَّمير إلى فرعون خاصة؛ لأنه يليه، ويحتمل أن يرجع إلى جميع من تقدم ذكرهم، وهو الأقرب. وأحسن الوجوه في إعرابه: أن يكون في محل نصب على الذم، ويجوز أن يكون مرفوعاً على: «هم الذين طغوا» مجروراً على وصف المذكورين عاد وثمود وفرعون. يعني: عاداً، وفرعون، وثموداً طغوا، أي: تمردوا وعتوا، وتجاوزوا القدر في الظلم والعدوان، ثم فسر تعالى طغيانهم بقوله: ﴿فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾.

قال الكلبيُّ: القتل، والمعصية لله تعالى.

قال القفال[٢]: والجملة أن الفساد ضد الصلاح، فكما أن الصلاح يتناول جميع أقسام البر، فالفساد يتناول جميع أقسام الإثم، فمن عمل بغير أمر الله، وحكم في عباده بالظلم فهو مفسد.

قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾. أي: أفرغ عليهم، وألقى، يقال: صبَّ على فلان خلعة، أي: ألقاها عليه؛ قال النابغة: [الطويل]

٥١٩٨ ـ فَصبَّ عَليْهِ اللَّهُ أحْسنَ صُنْعِهِ وكَـانَ لَـهُ بَـيْـنَ الـبَـرِيَّـةِ نَـاصِـرا[٣]

وقوله تعالى: ﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي: نصيب عذاب؛ وقيل: شدته؛ لأن السوط عندهم نهاية ما يعذب به.

قال الشاعر: [الطويل]

٥١٩٩ ـ أَلَـمْ تَـرَ أنَّ الـلَّـهَ أظـهـرَ ديـنـهُ وصَـبَّ عـلـى الـكُـفَّـارِ سـوْطَ عـذابِ[٤]

والسوط: هو الآلة المعروفة.

قيل: سمي سوطاً؛ لأنه يساط به اللحم عند الضرب أي: يختلط؛ قال كعب بن زهير: [البسيط]

٥٢٠٠ ـ لَكنَّهَا خُلَّةٌ قَدْ سِيطَ منْ دَمِهَا فَـجْـعٌ ووَلْـعٌ وإخـلافٌ وتَـبْـديـلُ[٥]

وقال آخر: [الطويل]

٥٢٠١ ـ أحَـارِثُ إنَّـا لـو تُـسَـاطُ دِمـاؤُنَـا تَـزايـلـنَ حـتَّـى لا يَـمَـسُّ دَمٌ دَمَـا[٦]

[وقيل: هو في الأصل مصدر: ساطه يسوطه سوطاً، ثم سميت به الآلة][٧].

---

(١) ينظر الفخر الرازي ٣١/ ١٥٣. (٢) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ١٥٣.
(٣) ينظر ديوان النابغة ص ٧١، والقرطبي ٢٠/ ٣٣.
(٤) ينظر القرطبي ٢٠/ ٣٣. (٥) تقدم.
(٦) البيت للمتلمس ينظر مجمع البيان ١٠/ ٧٣٤ والبحر ٨/ ٤٦٢، والدر المصون ٦/ ٥٢٠.
(٧) سقط من ب.

وقال أبو زيد: أموالهم بينهم سويطة، أي: مختلطة.

فالسَّوطُ: خلط الشيء بعضه ببعض، ومنه سمي: المسواط، وساطه: أي خلطه، فهو سائط، وأكثر من ذلك، يقال: سوط فلان أموره؛ قال: [الطويل]

٥٢٠٢ ـ فَسُطْهَا ذَمِيمَ الرَّأي غَيْرَ مُوفَّقٍ فَلستَ عَلى تَسْويطِهَا بِمُعَانِ[١]

قال الفرَّاء: هي كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب، وأصل ذلك أن السَّوطَ: هو عذابهم الذي يعذبون به، فجرى لكل عذاب إذا كان فيه غاية العذاب.

وقال الزجاج: أي: جعل سوطه الذي ضربهم به العذاب.

[ويقال: ساط دابته يسوطها أي: ضربها بسوطه.

وعن عمرو بن عبيد: كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال: إن الله تعالى عنده أسواط كثيرة فأخذهم بسوط منها[٢]][٣].

قال قتادة: كل شيء عذب الله به، فهو سوط عذاب[٤].

[واستعمال الصب في السوط استعارة بليغة شائعة في كلامهم.

قال القاضي[٥]: وشبه بصبّ السوط الذي يتواتر على المضروب فيهلكه][٦].

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾، أي: يرصد عمل كل إنسان، حتى يجازيه به.

قال الحسن وعكرمة: والمِرْصادَ: كالمرصد، وهو: المكان الذي يترقب فيه الرَّصد[٧]، جمع راصد كحرس، فالمرصاد «مفعال» من: «رصده»، كميقات من وقته، قاله الزمخشري[٨].

وجوَّز ابنُ عطيَّة في المرصاد[٩]: أن يكون اسم فاعل، قال: كأنه قيل: «لبالراصد»، فعبر ببناء المبالغة.

ورده أبو حيَّان[١٠]: بأنه لو كان كذلك لم تدخل عليه الباء، إذ ليس هو في موضع دخولها، لا زائدة، ولا غير زائدة.

---

(١) ينظر اللسان (سعط) والقرطبي ٢٠/ ٣٤. (٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٣٤).

(٣) سقط من: ب.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٧٢) عن ابن زيد.

(٥) ينظر: الفخر الرازي ٣١/١٥٣. (٦) سقط من ب.

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٧٢) عن الحسن.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٨٥) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٨) ينظر: الكشاف ٤/٧٤٨. (٩) المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٩.

(١٠) البحر المحيط ٨/ ٤٦٥.

قال شهابُ الدِّين[1]: قد وردت زيادتها في خبر: «إنَّ» كهذه الآية؛ وفي قول امرىء القيس: [الطويل]

٥٢٠٣ ـ .... فـإنَّـكَ مـمَّـا أحـدثَـتْ بـالـمُـجـرِّبِ[2]

إلاَّ أنَّ هذه ضرورة، لا يقاس عليه الكلام، فضلاً عن أفصحه.

فصل

تقدم الكلام في: «المرصاد»، عند قوله: ﴿كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ [النبأ: ٢١]، وهذا مثلٌ لإرصاده العصاة بالعقاب بأنهم لا يفوتونه، كما قيل لبعض العرب: أين ربك؟ قال: بالمرصاد.

وقال الفراء: معناه: إليه المصير.

وقال الزجاج: يرصد من كفر به وعاند طاعته بالعذاب.

وقال الضحاك: يرصد أهل الظلم، والمعصية.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾

قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾: مبتدأ، وفي خبرها وجهان:

أصحهما: أنه الجملة من قوله: «فيقول»، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦] كما تقدم، والظرف حينئذٍ منصوب بالخبر؛ لأنه في نية التأخير، ولا يمنع الفاء من ذلك. قاله الزمخشري[3].

الثاني: «إذَا»: شرطية، وجوابها: «فيقول»، وقوله: «فأكْرمهُ»: معطوف على «ابتلاه»، والجملة الشرطية خبر: «الإنسان». قاله أبو البقاء[4].

وفيه نظر؛ لأن «أما» تلزم الفاء في الجملة الواقعة خبراً عما بعدها، ولا تحذف إلا مع قول مضمر، كقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ﴾ [آل عمران: ١٠٦] كما تقدم، إلا في ضرورة.

قال الزمخشريُّ[5]: «فإن قلت: بم اتَّصل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾؟.

قلت: بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾، فكأنه قيل: إن الله لا يريد من الإنسان إلا الطَّاعة، فأما الإنسان، فلا يريد ذلك، ولا يهمه إلا العاجلة» انتهى.

---

(١) الدر المصون ٦/ ٥٢٠.
(٢) تقدم.
(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٤٩.
(٤) ينظر: الإملاء ٢/ ٢٨٦.
(٥) الكشاف ٤/ ٧٤٩.

يعني: بالتعليق من حيث المعنى، وكيف عطفت هذه الجملة التفصيلية على ما قبلها مترتبة عليه، قوله: «لا يريد إلا الطَّاعة» على مذهبه، ومذهبُ أهل السنة: أن الله يريد الطاعة وغيرها، ولولا ذلك لم يقع ثم من لا يدخل في ملكه ما لا يريد، وإصلاح العبارة أن نقول: إن الله يريد من العبد والإنسان من غير حصر.

ثم قال: فإن قلت: كيف توازن قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾، وقوله: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾، وحق التوازن أن يتقابل الواقعان بعد «أما» و «أما» تقول: أما الإنسان فكفور، وأما الملك فشكور، أمَّا الإنسان أحسنت إلى زيد، فهو محسن إليك، وأمَّا إذا أسأت إليه، فهو مسيء إليك.

قلت: هما متوازنان من حيث إنَّ التقدير: وأما هو إذا ما ابتلاه، وذلك أن قوله «فيقُولُ: ربِّي أكرمنِ»: خبر المبتدأ، الذي هو «الإنسان»، ودخول الفاء لما في «أما» من معنى الشرط، والظرف المتوسط بين المبتدأ والخبر في نية[1] التأخير، كأنه قيل: فأما الإنسان فقائل: ربي أكرمني وقت الابتلاء، فوجب أن يكون «فيقول» الثاني: خبراً لمبتدأ واجب تقديره.

فصل في المراد بالإنسان

قال ابن عبَّاسٍ: المراد بالإنسان: عتبةُ بنُ ربيعة، وأبو حذيفة بنُ المغيرةَ[2].

وقيل: أمية بن خلف.

وقيل: أبي بن خلف.

﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي: امتحنه، واختبره بالنعمة، و «ما» زائدة صلة، «فأكْرمهُ» بالمال، و «نَعَّمَهُ» بما أوسع عليه، «فَيقُولُ: ربِّي أكرمنِ»، فيفرح بذلك، ولا يحمده.

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ أي: امتحنه بالفقر واختبره، «فقَدَر» أي: ضيق، «عَليهِ رِزْقهُ» على مقدار البُلغة، «فيقول: ربي أهاننِ» أي: أولاني هواناً، وهذه صفة الكافر، الذي لا يؤمن بالبعث، وإنما الكرامة عنده، والهوان بكثرة المال والحظ في الدنيا، وقلته، فأمَّا المؤمن، فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته، وتوفيقه، المؤدي إلى حظ الآخرة، وإن وسع عليه في الدنيا حمده وشكره.

قال القرطبيُّ[3]: الآيتان صفة كُلِّ كافرٍ، وكثيرٌ من المسلمين يظن أن ما أعطاه الله لكرامته، وفضيلته عند الله، وربما يقول بجهله: لو لم أستحق هذا، لم يعطينيه اللَّه،

---

(١) في ب: تقدير.
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٣٥) عن ابن عباس.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٣٥.

وكذا إن قتر عليه، يظن أن ذلك لهوانه على الله.

قوله: «فقَدرَ عليهِ».

قرأ ابنُ عامرٍ[(١)]: بتشديد الدَّال.

والباقون: بتخفيفها، وهما لغتان بمعنى واحد، ومعناهما: التَّضييق.

قال القرطبيُّ[(٢)]: والاختيار: التخفيف، لقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧] وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦].

وقال أبو عمرو: و «قَدَرَ» أي: قتر. و «قَدَّرَ» مشدداً: هو أن يعطيه ما يكفيه، ولو فعل به ذلك ما قال: «ربِّي أهانن».

فصل في الكلام على أكرمن وأهانن

قوله: «أكْرمَنِي، أهانني».

قرأ نافع: بإثبات يائهما وصلاً، وحذفهما وقفاً من غير خلاف عنه.

والمروي عن ابن كثير، وابن محيصن، ويعقوب: إثباتهما في الحالين؛ لأنهما اسم فلا تحذف.

واختلف عن أبي عمرو في الوصل: فروي[(٣)] عنه الإثبات والحذف، والباقون يحذفونها في الحالتين.

وعلى الحذف قوله: [المتقارب]

٥٢٠٤ ـ ومِنْ كَاشحٍ ظاهرِ غُمرهُ إذَا مَا انتَسَبْتُ لهُ أنْكَرن[(٤)]

يريد: أنكرني؛ ولأنها وقعت في الموضعين بغير ياء، والسنة لا تخالف خط المصحف؛ لأنه إجماع الصحابة رضي الله عنهم.

وقال الزمخشريُّ[(٥)]: فإن قلت: هلا قال: فأهانه وقدر عليه رزقه، كما قال: «فأكرمه ونعمه»؟ قلت: لأن البسط: إكرام من الله لعبده بإنعامه عليه متفضلاً من غير سابقة، وأما التقدير، فليس بإهانة له؛ لأن الإخلال بالتفضل لا يكون إهانة، ولكن تركاً للكرامة، وقد يكون المولى مكرماً لعبده ومهيناً له، وغير مكرم ولا مهين، وإذا أهدى لك زيدٌ هدية، قلت: أكرمني بالهدية، ولا تقول: أهانني، ولا أكرمني إذا لم يهد لك.

---

(١) ينظر: السابق، وحجة القراءات ٧٦١. (٢) السابق.

(٣) ينظر خلاف السبعة في: السبعة ٦٨٤، ٦٨٥، والحجة ٦/ ٤٠٣، ٤٠٩، وإعراب القراءات ٢/ ٤٧٨، وحجة القراءات ٧٦٤.

(٤) تقدم. (٥) الكشاف ٤/ ٧٤٩.

وأجاب ابنُ الخطيب[١] عن هذا السؤال: بأنه في قوله: «أكرمني» صادق، وفي قوله: «أهانني» غير صادق فهو ظهن أنَّ قلة الدنيا، وتعسرها إهانة، وهذا جهل، واعتقاد فاسد، فكيف يحكي الله ـ تعالى ـ ذلك عنه؟.

قيل: لما قال: «فَأَكْرَمَهُ»، فقد صحَّ أنه أكرمه، ثم إنه لما حكى عنه أنه قال: «أكرمن» ذمه عليه، فكيف الجمع بينهما؟.

فالجواب: أن كلمة الإنكار: «كلاَّ»، فلم لا يجوز أن يقال: إنَّها مختصة بقوله تعالى: «ربي أهانن»؟.

سلمنا أن الإنكار عائد إليهما معاً، لكن يمكن أن يكون الذَّم؛ لأنه اعتقد أن ذلك الإكرام بالاستحقاق، أو أنه لما لم يعترف إلا عند سعة الدنيا، مع سبق النعم عليه من الصحة، والعقل دلَّ على أن غرضه من ذلك ليس الشكر، بل محبة الدنيا، والتكثير بالأموال والأولاد، أو لأن كلامه يقتضي الإعراض عن الآخرة وإنكار البعث، كما حكى الله تعالى بقوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ إلى قوله: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الكهف: ٣٥ و ٣٧].

قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾: ردعٌ للإنسان عن تلك المقالة.

قال ابنُ عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ المعنى: لم أبتله بالغنى، لكرامته عليّ، ولم أبتله بالفقرِ، لهوانه عليّ، بل ذلك لمحضِ القضاء والقدر، والمشيئة والحكم المنزه عن التعليل[٢]، وهذا مذهب أهل السنة، وأما على مذهب المعتزلة: فلمصالح خفيّة، لا يطلع عليها إلا هو ـ سبحانه ـ فقد يوسع على الكافر لا لكرامته، ويقتر على المؤمن لا لهوانه.

قال الفراء في هذا الموضع: يعني: لم يكن للعبد أن يكون هكذا، ولكن يحمد الله ـ تعالى ـ على الغنى والفقر.

قوله: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾. **قرأ أبو عمرو**[٣]: «يكرمون»، وما بعده بياء الغيبة، حملاً على معنى الإنسان المتقدم، إذ المراد به الجنس، والجنس في معنى: الجمع.

والباقون: بالتاء في الجميع، خطاباً للإنسان المراد به الجنس، على طريقة الالتفات.

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٣٥) عن ابن عباس.

(٣) ينظر: السبعة ٦٨٥، والحجة ٦/ ٤٠٩، وإعراب القراءات ٢/ ٤٧٩، وحجة القراءات ٧٦٢.

فصل فيمن نزلت فيه الآية

لما حكى قولهم، فكأنه قال: لهم فعل أشر من هذا القول، وهو أن الله ـ تعالى ـ يكرمهم بكثرة المال، فلا يؤدون ما يلزمهم من إكرام اليتيم، فقرعهم بذلك، ووبخهم. وترك إكرام اليتيم بدفعه عن حقه، وأكل ماله.

وقال مقاتلٌ: نزلت في قدامة بن مظعونٍ، وكان يتيماً في حجر أمية بن خلف، وكان يدفعه عن حقه[١].

قوله: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾.

قرأ الكوفيون: «ولا تحاضون»، والأصل: تتحاضون، فحذف إحدى التاءين، أي: لا يحض بعضكم بعضاً.

وروي عن الكسائي[٢]: «تُحاضُونَ» بضم التاء، وهي قراءة زيد بن علي وعلقمة، أي: تحاضون أنفسكم.

والباقون[٣]: «تَحُضُون» من حضَّه على كذا، أي: أغراه به، ومفعوله محذوف، أي: لا تحضون أنفسكم ولا غيرها، ويجوز ألاَّ يقدر، أي: لا يوقعون الحضّ.

قوله: «عَلى طعامِ»: متعلق بـ «تحضون»، و «طَعَام»: يجوز أن يكون على أصله من كونه اسماً للمطعوم، ويكون على حذف مضاف، أي على بذل، أو إعطاء طعام، وأن يكون اسم مصدر بمعنى: الإطعام كالعطاء بمعنى الإعطاء، فلا حذف حينئذ.

فصل في ترك إكرام اليتيم

اعلم أن ترك إكرام اليتيم على وجوه:

أحدها: ترك بره وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾.

والثاني: دفعه عن حقه، وأكل ماله، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾.

قوله: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ التاء في «التُّراثَ»: بدل من الواو؛ لأنه من الوراثة ومثله: تولج، وتوراة، وتخمة وقد تقدم كما قالوا: تجاه، وتخمة، وتكأة، وتؤدة، ونحو ذلك.

والتراث: ميراث اليتامى، وقوله تعالى: ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾، اللَّمم: الجمع الشديد، يقال: لممت الشيء لماً، أي: جمعته جمعاً.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٣٥) عن ابن عباس.

(٢) وقرأ بها ابن المبارك كما في المحرر الوجيز ٥/ ٤٨٠، والقرطبي ٢٠/ ٣٦، والدر المصون ٦/ ٥٢١.

(٣) ينظر: السبعة ٦٨٥، والحجة ٦/ ٤١٠، وإعراب القراءات ٢/ ٤٧٩، وحجة القراءات ٧٦٢ ـ ٧٦٣.

قال الحطيئة: [الطويل]

٥٢٠٥ ـ إِذَا كَانَ لَمَّا يُتْبِعِ الذَّمُّ رَبَّهُ فَلا قَدَّسَ الرَّحمنُ تِلْكَ الطَّوَاحِنَا[1]

ولَمَمْتُ شعثه من ذلك؛ قال النابغة: [الطويل]

٥٢٠٦ ـ ولَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أخاً لا تَلُمُّهُ عَلى شَعَثٍ أيُّ الرِّجَالِ المُهذَّبُ؟[2]

والجَمُّ: الكثير، ومنه: جمَّة الماء.

قال زهير: [الطويل]

٥٢٠٧ ـ فَلمَّا وَرَدْنَا المَاءَ زُرْقاً جِمَامُهُ ....[3]

ومنه: الجُمَّةُ، للشعر، وقولهم: جاءوا الجمَّاء الغفير من ذلك.

وكتيبة ملمومة وحجر ملموم، وقولهم: إن دارك لمومة، أي تلم الناس وتجمعهم، والآكل يلم الثريد، فيجمعه لقماً، ثم يأكله.

قال الحسنُ: يأكلون نصيبهم، ونصيب غيرهم، فيجمعون نصيب غيرهم إلى نصيبهم[4].

وقيل: إنَّ المال الذي يتركه الميت بعضه حلال، وبعضه شبهة، وبعضه حرام، فالوارث يلم الكل، أي: يجمع البعض إلى البعض، ويأخذ الكل ويأكله.

قال الزمخشريُّ[5]: يجوز أن يكون الذم متوجهاً إلى الوارث الذي ظفر بالمال، سهلاً مهلاً من غير أن يعرق فيه جبينه، فيسرف في إنفاقه، ويأكله أكلاً لمًّا جامعاً بين ألوان المشتهيات [من الأطعمة والأشربة والفواكه][6].

[وقال ابن زيد: كان أهل الشرك لا يورثون النساء ولا الصبيان، بل يأكلون ميراثهم وتراثهم مع تراثهم][7].

قوله: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي: كثيراً حلاله وحرامه.

والجَمُّ: الكثير، يقال: جمَّ الشيء يجم جُمُوماً، فهو جم وجام، ومنه: جمَّ الماء

---

(١) ينظر الكشاف ٤/ ٧٥١، والقرطبي ٢٠/ ٣٦، والبحر ٨/ ٤٦٢، والدر المصون ٦/ ٥٢٢.

(٢) ينظر ديوان النابغة ٧٤، وابن الشجري (١/ ٢٦٧، واللسان (شعث)، والقرطبي ٢٠/ ٣٦، والبحر ٨/ ٤٦٢، والدر المصون ٦/ ٥٢٢.

(٣) بنظر ديوانه (١٠٥)، والانطباع الشعري ص ٢٨١، ومجمع البيان ١٠/ ٧٣٥، والدر المصون ٦/ ٥٢٢.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٧٤). وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٨٦) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد.

(٥) ينظر الكشاف ٤/ ٧٥١.

(٦) سقط من: أ.

(٧) سقط من: ب.

في الحوض، إذا اجتمع وكثر، والجمة: المكان الذي يجتمع فيه الماء، والجُمُوم ـ بالضم ـ المصدر يقال: جم الماء يجم جموماً: إذا كثر في البئر واجتمع، والمعنى: يحبون المال حباً كثيراً شديداً.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾

قوله: ﴿كَلَّآ﴾: ردعٌ لهم عن ذلك، وإنكار لفعلهم، أي: ما هكذا ينبغي أن يكون الأمر، فهو ردع لانكبابهم على الدنيا وجمعهم لها.

قوله: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾. في «دكّاً» وجهان:

أحدهما: أنه مصدر مؤكد، و «دَكّاً» الثاني: تأكيد للأول، تأكيداً لفظياً. كذا قاله ابن عصفورٍ وليس المعنى على ذلك.

والثاني: أنه نُصِبَ على الحال، والمعنى: مكرراً عليها الدَّكُّ، كـ «علمته الحساب باباً باباً»، وهذا ظاهر قول الزمخشري(١).

وكذلك: «صفًّا صفًّا» حال أيضاً، أي: مصطفين، أو ذوي صفوف كثيرة.

قال الخليل: الدَّكُّ: كسر الحائط والجبل والدكداك: رمل متلبّد. ورجل مدك: أي شديد الوطء على الأرض. [فمعنى الدك على قول الخليل: كسر شيء على وجه الأرض من جبل أو حجر حين زلزلت فلم يبق على شيء](٢).

وقال المبرد: الدَّكُّ: حطُّ المرتفع من الأرض بالبسط، واندك سنام البعير: إذا انفرش في ظهره، وناقة دكاء كذلك، ومنه الدكان لاستوائه في الانفراش، فمعنى الدك على قول الخليل: كسر الشيء على وجه الأرض من جبل أو حجر حين زلزلت، فلم يبق على ظهرها شيء، وعلى قول المبرد، معناه: أنها استوت في الانفراش، فذهب دورها، وقصورها، حتى صارت كالصخرة الملساء، وهذا معنى قول ابن عباس، وابن مسعود رضي الله عنهم: تمد الأرض يوم القيامة مد الأديم(٣).

قال ابنُ الخطيبِ(٤): وهذا التَّدكُّكُ لا بد وأن يكون متأخراً عن الزلزلة [فإذا زلزلت الأرض زلزلة] بعد زلزلة، فتكسر الجبال، وتنهدم، وتمتلىء الأغوار، وتصير ملساء، وذلك عند انقضاء الدنيا.

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٥١.
(٢) ثبت في أ مكان هذه العبارة ما يلي: والدكداك رمل متلَبد، ورجل مدك: شديد الوطء على الأرض.
(٣) ينظر: تفسير القرطبي (٢٠/ ٣٧). (٤) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ١٥٨.

قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾. أي: جاء أمره وقضاؤه. قاله الحسن، وهو من باب حذف المضاف.

وقيل: جاءهم الربُّ بالآيات، كقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ١٢٣] أي بظلل.

وقيل: جعل مجيء الآيات مجيئاً له، تفخيماً لشأن تلك الآيات، كقوله تعالى في الحديث: «يَا ابْنَ آدم مَرضتُ فلمْ تعُدْنِي، واسْتسْقَيتُكَ فَلمْ تَسقِنِي واسْتطعَمْتُكَ فَلمْ تُطْعمْنِي»(١).

وقيل: زالت الشبه، وارتفعت الشكوك، وصارت المعارف ضرورية، كما تزول الشبه والشكوك عند مجيء الشيء الذي كان يشك فيه [وقيل وجاء قهر ربك، كما تقول جاءتنا بنو أمية، أي: قهرهم.

قال أهل الإشارة: ظهرت قدرته واستوت، والله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يوصف بالتحول من مكان إلى مكان، وأنَّى له التحول والانتقال، ولا مكان له ولا أوان، ولا يجري عليه وقت ولا زمان؛ لأن في جريان الوقت على الشيء فوات الأوقات، ومن فاته الشيء، فهو عاجز.

وأما قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي: والملائكة صفاً بعد صفٍّ متحلّقين بالجن والإنس](٢).

قوله: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾.

«يومئذ»: منصوب بـ «جيء»، والقائم مقام الفاعل: «بجهنم» وجوز مكيٌّ: أن يكون «يومئذ»: قائم مقام الفاعل.

وأمَّا «يومئذ» الثاني فقيل: بدل من «إذا دُكَّتِ»، والعامل فيها: «يتذكر»، قاله الزمخشري(٣) وهذا مذهب سيبويه.

وقيل: إن العامل في «إذا دكت»: يقول، والعامل في «يومئذ»: يتذكر، قاله أبو البقاء(٤).

فصل

قال ابنُ مسعودٍ ومقاتلٌ: «تقادُ جهنَّمُ بِسبْعِينَ ألف زمام، كُل زِمَامٍ بيدِ سبْعينَ ألْف ملكٍ يجرونها، لهَا تغَيُّظٌ وزفيرٌ، حتَّى تنصبَّ عن يسارِ العرْشِ»(٥).

---

(١) تقدم.
(٢) سقط من ب.
(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٥١.
(٤) ينظر: الإملاء ٢/ ٢٨٧.
(٥) ورد هذا الأثر عن ابن مسعود مرفوعاً أخرجه مسلم وغيره وقد تقدم تخريجه.

رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً.

وقال أبو سعيدٍ الخدريُّ: لما نزلت: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ تغير لون رسول الله ﷺ وعرف في وجهه، حتى اشتد على أصحابه، ثم قال: أقرأني جِبْريلُ: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾، ـ الآية ـ ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾، قال علي ـ رضي الله عنه ـ: قلت: يا رسول الله، كيف يجاءُ بها؟ قال: «يُؤْتَى بِهَا تُقَادُ بِسبعِينَ أَلْف زمام، يَقُودُ بكُلِّ زمَامٍ سَبعُونَ أَلْف ملكٍ، فتشْردُ شَرْدَةً لو تُركَتْ لأحْرقَتْ أَهْلَ الجَمْعِ، ثُمَّ تَعْرِضُ لِي جهنَّمُ، فتقول: مَا لِي ولَكَ يا مُحَمَّدُ، إنَّ اللَّه قَدْ حَرَّمَ لحْمَكَ عليَّ، فلا يَبْقَى أحَدٌ إلاَّ قال: نَفْسِي نَفْسِي، إلاَّ محمدٌ ﷺ فإنَّه يقولُ: ربِّ أمَّتِي، ربِّ أمَّتِي»[(١)].

قال ابن الخطيب[(٢)]: قال الأصوليون: معلوم أنَّ جهنَّم لا تنقل من مكانها، ومعنى مجيئها: برزت وظهرت حتى يراها الخلق، ويعلم الكافر أنَّ مصيره إليها.

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾. تقدم الكلام في إعراب: «يومئذ»، والمعنى: يتَّعظُ الكافرُ، ويتوب من همته بالدُّنيا وقيل: يتذكر أن ذلك كان ضلالاً.

﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: ومن أين له الاتِّعاظُ والتوبة، وقد فرط فيها في الدنيا.

وقيل: ومن أين له منفعة الذِّكرى، فلا بُدَّ من تقدير حذفِ المضاف، وإلاَّ فبين «يومئذٍ يَتذكَّرُ» وبين: «وأنَّى لهُ الذِّكْرى» تناف. قاله الزمخشري[(٣)].

قوله: «وأنَّى» خبر مقدم، و «الذكرى»: مبتدأ مؤخر، و «له» متعلق بما تعلق به الظرف.

قوله: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾، أي: في حياتي، فاللام بمعنى «في».

وقيل: أي: قدمت عملاً صالحاً أي لحياة لا موت فيها.

وقيل: حياة أهل النار ليست هنيئة، فكأنهم لا حياة لهم، فالمعنى: يا ليتني قدمت من الخير لنجاتي من النار، فأكون ممن له حياة هنيئة.

فصل في شبهة للمعتزلة والرد عليها

استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن الاختيار كان في أيديهم وقصدهم، وأنَّهم ما كانوا محجوزين عن الطَّاعات، مجبرين على المعاصي.

والجواب: أن فعلهم كان معلقاً بقصد الله ـ تعالى ـ فبطل قولهم.

قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾.

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٨٧) وعزاه إلى ابن مردويه عن ابي سعيد.

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ١٥٨. (٣) الكشاف ٤/ ٧٥٢.

قرأ الكسائي: «لا يعذَّب[١] ولا يُوثَقُ» مبنيين للمفعول، ورواه أبو قلابة عن النبي ﷺ بفتح الثاء والذال، والباقون: قرأوهما مبنيين للفاعل.

فأمَّا قراءة الكسائي: فأسند الفعل فيها إلى: «أحد»، وحذف الفاعل للعلم به وهو الله تعالى، والزبانية المتولون العذاب بأمر الله تعالى، وأما عذابه ووثاقه، فيجوز أن يكون المصدران مضافين للفاعل، والضمير لله تعالى، أو مضافين للمفعول، والضمير للإنسان، ويكون «عذابَ» واقعاً موقع تعذيب، والمعنى: لا يُعذِّبُ أحدٌ مثل تعذيب الله ـ تعالى ـ هذا الكافر، ولا يوثق أحد توثيقاً مثل إيثاق الله إياه بالسلاسل والأغلال، ولا يعذب أحد مثل تعذيب الكافر، ولا يوثق مثل إيثاقه لكفره، وعناده.

والوثاق: بمعنى: الإيثاق، كالعطاء بمعنى الإعطاء، إلا أن في إعمال اسم المصدر عمل مسمَّاه خلافاً مضطرباً، فنقل عن البصريين المنع، وعن الكوفيين الجواز، ونقل العكس عن الفريقين؛ ومن الإعمال قوله: [الوافر]

٥٢٠٨ ـ أكُفْراً بعْدَ ردِّ المَوْتِ عنِّي وبَعْدَ عَطائِكَ المِائَةَ الرِّتَاعَا[٢]

ومن منع: نصب المائة بفعل مضمرٍ؛ وأصرح من هذا قول الشاعر: [الطويل]

٥٢٠٩ ـ .... تُكلِّمُنِي فِيهَا شفاءٌ لمَا بِيَا[٣]

وقيل: المعنى: ولا يحمل عذاب الإنسان أحد، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]. قاله الزمخشري[٤].

وأما قراءة الباقين: فإنَّه أسند الفعل لفاعله، والضمير في: «عذابه»، و «وثاقه» يحتمل عوده على الباري ـ تعالى ـ، بمعنى: أنه لا يعذب في الدنيا، مثل عذاب الله تعالى يومئذ أحد، أي: أن عذاب من يعذب في الدنيا، ليس كعذاب الله ـ تعالى ـ يوم القيامة، كذا قاله أبو عبد الله.

وفيه نظر، من حيث إنه يلزم أن يكون: «يومئذ» معمولاً للمصدر التشبيهي، وهو ممتنع لتقدمه عليه، إلاَّ أن يقال: إنه توسع فيه.

---

(١) ينظر: السبعة ٦٨٥، والحجة ٦/ ٤١١، وإعراب القراءات ٢/ ٤٨٠، وحجة القراءات ٧٦٣.

(٢) تقدم.

(٣) عجز بيت لذي الرمة وصدره:

فأشفي نفسي من تباريح ما بها

ويروى:

ألا هل إلى سبيل ساعة

ينظر ملحقات ديوان ذي الرمة (٦٧٥)، وشرح المفصل ١/ ٢١، والدرر ٥/ ٢٦٣، والهمع ٢/ ٩٥، والدر المصون ٦/ ٥٢٣.

(٤) ينظر الكشاف ٤/ ٧٥٢.

وقيل: المعنى: لا يكل عذابه، ولا وثاقه لأحد؛ لأن الأمر لله ـ تعالى ـ وحده في ذلك.

وقيل: المعنى: أنه في الشدة، والفظاعة، في حين لم يعذب أحد في الدنيا مثله.

ورد هذا، بأن «لا»، إذا دخلت على المضارع صيرته مستقبلاً، وإذا كان مستقبلاً لم يطابق هذا المعنى، ولا يطلق على الماضي إلاَّ بمجازٍ بعيد، وبأن يومئذ المراد به يوم القيامة، لا دار الدُّنيا.

وقيل: المعنى: أنه لا يعذب أحد في الدنيا، مثل عذاب الله الكافر فيها، إلا أن هذا مردود بما ورد قبله.

ويحتمل عوده على الإنسان، بمعنى: لا يعذب أحد من زبانية العذاب، مثل ما يعذبون هذا الكافر، ويكون المعنى: لا يحمل أحد عذاب الإنسان، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وهذه الأوجه صعبة المرام على طالبها من غير هذا الكتاب.

وقرأ نافعٌ[(١)] **في رواية، وأبو جعفرٍ وشيبة، بخلاف عنهما**: «وثاقه» بكسر الواو.

والمراد بهذا الكافر المعذب، قيل: إبليس ـ لعنه الله ـ؛ لأنه أشد الناس عذاباً.

وقال الفراء: هو أمية بن خلف.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾

قوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾.

قرأ العامة: «يا أَيَّتُها النَّفسُ» بتاء التأنيث.

وقرأ زيد بن[(٢)] علي: «يا أَيُّهَا»، كنداء المذكر، ولم يجوز ذلك أحد، إلا صاحب البديع، وهذه شاهدة له، وله وجه: وهو أنها كما لم تطابق صفتها تثنية وجمعاً، جاز ألاَّ يطابقها تأنيثاً، تقول: يا أيها الرجلان، يا أيها الرجال.

فصل في الكلام على الآية

لما وصف حال من اطمأن إلى الدُّنيا، وصف حال من اطمأنَّ إلى معرفته وعبوديته، وسلم أمره إلى الله ـ تعالى ـ.

وقيل: هذا كلام الباري تعالى، إكراماً له كما كلَّم موسى عليه السلام.

---

(١) وقرأ بها الخليل بن أحمد، ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٨١، والبحر المحيط ٨/ ٤٦٧، والدر المصون ٦/ ٥٢٣.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٦٧، والدر المصون ٦/ ٥٢٣.

وقيل: هو من قول الملائكة لأولياء الله تعالى.

قال مجاهد وغيره: «المُطْمئنَّة»: الساكنة الموقنة، أيقنت أن الله تعالى ربها، فأجيبت لذلك[١].

وقال ابنُ عبَّاسٍ: المطمئنة بثواب الله[٢]، وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: المؤمنة الموقنة[٣].

وعن مجاهدٍ أيضاً: الراضية بقضاءِ الله[٤].

وقال مقاتلٌ: الآمنة من عذاب اللَّه[٥] تعالى.

وفي حرف أبي كعب[٦]: «يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة».

وقيل: التي عملت على يقين بما وعد الله تعالى، في كتابه.

وقال ابن كيسان: المطمئنة ـ هنا ـ: المخلصة وقيل: المطمئنة بذكر الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨] وقيل: المطمئنة بالإيمان، المصدقة بالبعث والثواب.

وقال ابن زيدٍ: المطمئنة، التي بشرت بالجنة، عند الموت، أو عند البعث، ويوم الجمع[٧].

قوله: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾، أي: ارجعي إلى صاحبك، وجسدك.

قاله ابنُ عبَّاسٍ وعكرمةُ وعطاءٌ، واختاره الكلبيُّ، يدل عليه قراءة ابن عباس[٨]: «فادخُلِي في عَبْدِي»، على التوحيد.

وقال الحسنُ: ارجعي إلى ثواب ربك.

وقال أبو صالح: ارجعي إلى الله، وهذا عند الموت.

وقوله تعالى: ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ حالان، أي: جامعة بين الوصفين؛ لأنه لا يلزم من أحدهما الآخر، والمعنى: راضية بالثواب، مرضية عنك في الأعمال، التي عملتها في الدنيا.

فصل في مجيء الأمر بمعنى الخبر

قال القفَّال[٩]: هذا وإن كان أمراً في الظَّاهر، فهو خبر في المعنى، والتقدير: أن

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٨١). (٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٣٩).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٨٠). (٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٣٩).

(٥) ينظر المصدر السابق. (٦) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٥٢، والقرطبي ٢٠/ ٣٩.

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٨١).

(٨) ينظر: جامع البيان ١٢/ ٥٨٣، والكشاف ٤/ ٧٥٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٨٢، والبحر المحيط ٨/ ٤٦٧، والدر المصون ٦/ ٥٢٣.

(٩) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ١٦٠.

النفس إن كانت مطمئنة رجعت إلى الله تعالى، وقال الله تعالى لها: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾، قال: ويجيء الأمر بمعنى الخبر كثيراً في كلامهم، كقوله: «إذَا لَمْ تَسْتَحِ فَافْعَل مَا شِئْت».

فصل في فضل هذه الآية

قال سعيد بن زيد: قرأ رجل عند رسول الله ﷺ: «يا أيَّتُها النَّفسُ»، فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: مَا أحْسنَ هَذَا يَا رسُولَ اللَّهِ، فقَالَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إنَّ المَلكَ سيقُولُها لَكَ يَا أبَا بَكرٍ»[1].

وقال سعيد بن جبير: مات ابن عباس بـ «الطائف»، فجاء طائر لم ير على خلقه طائر قط، فدخل نعشه، ثم لم ير خارجاً منه، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر، لا ندري من تلاها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾[2] [روى الضحاك أنها نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه حين وقف بئر رومة][3].

وقيل: نزلت في خُبيبِ بن عديٍّ، الذي صلبه أهل «مكة»، وجعلوا وجهه إلى «المدينة»، فحوّل الله وجهه للقبلة.

قوله: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾، يجوز أن يكون في جسدِ عبادي، ويجوز أن يكون المعنى في زُمرةِ عبادي. وقرأ ابنُ عبَّاسٍ وعكرمةُ وجماعةٌ: «في عَبْدِي»، والمراد: الجِنْس، وتعدَّى الفعل الأول بـ «في»؛ لأنَّ الظرف ليس بحقيقي، نحو: دخلت في غمارِ الناس، وتعدّى الثاني بنفسه؛ لأن الظرفية متحققة، كذا قيل، وهذا إنما يتأتى على أحد الوجهين، وهو أن المراد بالنَّفس: بعض المؤمنين، وأنه أمر بالدخول في زُمْرَة عباده، وأما إذا كان المراد بالنفس: الرُّوح، وأنها مأمورة بدخولها في الأجساد، فالظرفية متحققة فيه أيضاً.

فصل في المراد بالجنة هاهنا

قال ابنُ عبَّاسٍ: هذا يوم القيامة، وهو قول الضحاك[4].

والجمهور على أنَّ المراد بالجنة: دار الخلود، التي هي سكنُ الأبرار، ودار الصالحين والأخيار.

ومعنى «فِي عبَادِي» أي: في الصالحين، كقوله تعالى: ﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٨١) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٨٨) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نعيم في «الحلية».

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٣٩). (٣) سقط من: ب.

(٤) ذكره القرطبي في تفسيره ٢٠/ ٣٩.

قال ابنُ الخطيب[١]: ولمَّا كانت الجنَّة الروحانية غير متراخية عن الموت في حق السعداء، لا جرم قال تعالى: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾، بفاء التعقيب، ولما كانت الجنة الجسمانية، لا يحصل الكون فيها إلا بعد قيام القيامة الكبرى، لا جرم قال تعالى: ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ بالواو والله تعالى أعلم.

روى الثَّعلبيُّ عن أبيٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ سُورةَ ﴿وَٱلۡفَجۡرِ وَلَيَالٍ عَشۡرٍ﴾ غُفِرَ له، ومَنْ قَرأهَا فِي سَائرِ الأيَّامِ كانَتْ لَهُ نُوراً يوم القيامة»[٢]

(١) ينظر: الفخر الرازي ١٦٢/٣١.

(٢) تقدم تخريجه.

سورة البلد

مكيَّةٌ، وهي عشرون آية، واثنتان وثمانون كلمة، وثلاثمائة وعشرون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ (١) وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ (٢) وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ (٥) يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا (٦) أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ (٧) أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ (٨) وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ (٩) وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ (١٠)﴾

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾: يجوز أن تكون «لا»: زائدة، كما تقدم في: «لا أقسم بيوم القيامة»، قاله الأخفش، أي: أقسم؛ لأنه قال: «بهذا البلد»، وقد أقسم به في قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ [التين: ٣]، فكيف يجوز القسمُ به، وقد أقسم به سبحانه؛ قال الشاعر: [الطويل]

٥٢١٠ ـ تَذَكَّرتُ لَيلَى فاعْتَرتْنِي صَبابَةٌ   وكَادَ صَمِيمُ القَلْبِ لا يَتَقطَّعُ[1]

أي: يتقطع، ودخل حرف «لا»: صلة، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ [الأعراف: ١٢] وقد قال تعالى في سورة «ص»: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾ [ص: ٧٥].

وقرأ الحسن والأعمش[2] **وابن كثير**: «لأقْسِمُ» من غير ألفٍ بعد اللام إثباتاً.

وأجاز الأخفش أيضاً، أن تكون بمعنى: «ألا».

وقيل: ليست بنفي القسم، وإنما هو كقول العرب: لا والله لا فعلت كذا، ولا والله ما كان كذا، ولا والله لأفعلن كذا.

وقيل: هي نفي صحيح، والمعنى: لا أقسم بهذا البلد، إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه. حكاه مكيٌّ، ورواه ابنُ أبي نجيحٍ عن مجاهدٍ، قال: «لا»: رد عليهم،

---

(١) ينظر: القرطبي ٢٠/ ٤٠.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٨٣.

وهذا اختيار ابن العربي، لأنه قال: «وأما من قال: إنها رد، فهو قول ليس له رد؛ لأنه يصح به المعنى، ويتمكن اللفظ والمراد».

فهو رد لكلام من أنكر البعث، ثم ابتدأ القسم.

وقال القشيريُّ: قوله: «لا» رد لما توهم الإنسان المذكور في هذه السورة، المغرور في الدنيا، أي: ليس الأمر كما تحسبه من أنه لم يقسم عليه أحد، ثم ابتدأ القسم، وأجمعوا على أنَّ المراد بالبلد: مكَّة المشرفة، أي: أقسم بالبلد الحرام، الذي أنت فيه، لكرامتك عليَّ وحبي لك.

قوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾. فيه وجهان:

أحدهما: أن الجملة اعتراضية على أحد معنيين، إما على معنى: أنه ـ تعالى ـ أقسم بهذا البلد، وما بعده، على أن الإنسان في كبد، واعترض بينهما بهذه الجملة، يعني: ومن المكابدة، أن مثلك على عظم حرمتك يستحل بهذا البلد، كما يستحل الصيد في غير الحرم.

وإما على معنى: أنه أقسم ببلدة، على أنَّ الإنسان لا يخلُو من مقاساة الشدائد، واعترض بأن وعده فتح «مكة»، تتميماً للتَّسلية، فقال تعالى: وأنت حلٌّ به فيما يستقبل، تصنع فيه ما تريد من القتل، والأسر، فـ «حِلٌّ» بمعنى: حلال، قال معناه الزّمخشري[1]. ثم قال: فإن قلت: أين نظير قوله تعالى: «وَأَنْتَ حِلٌّ» في معنى الاستقبال؟.

قلت: قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، ومثله واسع في كلام العبادِ، تقول لمن تَعدُه الإكرام والحباء: أنت مكرم محبوٌّ، وهو في كلام الله أوسع؛ لأنَّ الأحوال المستقبلة عنده، كالحاضرة المشاهدة، وكفاك دليلاً قاطعاً على أنه للاستقبال، وأنَّ تفسيره بالحال محال؛ لأن السورة بالاتفاق مكية، وأين الهجرة وقت نزولها فما بال الفتح؟.

الثاني من الوجهين الأولين: أن الجملة حالية، أي: لا أقسم بهذا البلد، وأنت حالٌّ بها، لعظم قدرك، أي: لا نقسم بشيء، وأنت أحق بالإقسام بك منه.

وقيل: المعنى: لا أقسم به، وأنت مستحلّ فيه، أي: مستحل إذ ذاك.

فصل في المراد بهذا البلد

أجمع المفسرون على أن ذلك البلد «مكة»، وفضلها معروف، فإنه تعالى، جعله حرماً آمناً قال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وجعل مسجده قبلة لأهل

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٥٤.

المشرق والمغرب، وقال تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤]، وأمر النَّاس بحجِّ البيتِ، فقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧]، وشرف مقام إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، وحرم صيده، وجعل البيت المعمور بإزائه، ودحيت الأرض من تحته، فهذه الفضائل، وأكثر منها، لما اجتمعت في «مكة» لا جرم أقسم الله تعالى بها.

فصل في تفسير وأنت حلّ

روى منصورٌ عن مجاهدٍ: «وأنتَ حِلٌّ»، قال: ما صنعت فيه من شيء، فأنت في حل(١).

وكذا قال ابن عبَّاسٍ: أحل له يوم دخل «مكة»، أن يقتل من شاء، فقتل ابن خطل ومقيس بن صبابة وغيرهما، ولم يحل لأحد من الناس، أن يقتل بها أحداً بعد رسول الله ﷺ(٢).

وقال السدي: أنت في حل ممن قاتلك أن تقتله(٣).

وروى أبو صالح عن ابن عبَّاسٍ، قال: أحلت له ساعة من نهارٍ، ثم أطبقت، وحرمت إلى يوم القيامة، وذلك يوم فتح «مكة»(٤).

[قال ابن زيد: ولم يكن بها أحد حلالاً غير النبي ﷺ(٥) وقيل: معناه: وأنت مقيم فيه، وهو محلك أي: من أهل «مكة» نشأت بينهم، ويعرفون فضلك وطهارتك لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقيل: أنت فيه محسن، وأنا عنك فيه راضٍ](٦).

وذكر أهل اللغة أنه يقال: رجل حلٌّ وحلالٌ ومحل، ورجل حرم وحرام ومحرم.

وقال قتادة: «وأنت حل به»: أي لست بآثم، قيل: معناه أنك غير مرتكب في هذا

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٨٥) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٩٢) وعزاه إلى عبد بن حميد.
(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٨٥) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٩١) وزاد نسبته إلى ابن مردويه.
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٤١).
(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٩٢) وعزاه إلى عبد بن حميد.
(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٨٦) عن ابن زيد.
(٦) سقط من: ب.

البلد ما يحرم عليك ارتكابه معرفة منك بحق هذا البيت لا كالمشركين الذين يرتكبون الكفر بالله فيه.

وقال شرحبيل بن سعد: «وأنْتَ حلٌّ بِهذَا البَلدِ» أي: حلال، أي هم يحرمون «مكة» أن يقتلوا بها صيداً، أو يعضدوا بها شجرة، ثم هم مع هذا يستحلُّون إخراجك وقتلك، ففيه تعجُّب من جرأتهم وشدة عداوتهم له.

قوله: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾.

قيل «ما» بمعنى: «من»، أو بمعنى: «الذي».

وقيل: مصدرية أقسم بالشخص وفعله.

وقال الزمخشريُّ[١]: فإن قلت: هلا قيل: ومَنْ ولد؟.

قلت: فيه ما في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ [آل عمران: ٣٦]، أي: بأي شيء وضعت، يعني: موضوعاً عجيب الشأن.

وقيل: «ما»: نافية، فيحتاج إلى إضمار موصول به يصح الكلام، تقديره: والذي ما ولد، إذ المراد بالوالد: الذي يولد له، «ومَا وَلَد» يعني: العَاقِر الذي لا يُولدُ له، قال معناه ابنُ عبَّاسٍ، وتلميذه ابنُ جبيرٍ وعكرمةُ[٢].

فصل في الكلام على الآية

هذا معطوف على قوله: «لا أقسِمُ بهَذا البَلدِ»، وقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾، معترض بين المعطوف والمعطوف عليه.

قال ابنُ عباسٍ ومجاهد وقتادةُ والضحاكُ والحسنُ وأبو صالحٍ والطبريُّ: المراد بالوالد: آدم عليه الصلاة والسلام، «ومَا وَلَد» أي: وما نسل من ولده، أقسم بهم؛ لأنهم أعجب ما خلق تعالى على وجه الأرض، لما فيهم من البنيان، والنُّطق، والتدبير، وإخراج العلوم، وفيهم الأنبياء، والدُّعاة إلى الله تعالى، والأنصار لدينه، وأمر الملائكة بالسُّجود لآدم ـ عليه السلام ـ وعلمه الأسماء كلَّها، وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[٣] [الإسراء: ٧٠].

وقيل: هو إقسام بآدم، والصالحين من ذريته، وأما الطالحون، فكأنهم بهائم، كما

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٥٤.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٨٦) عن عكرمة وابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٩٣) وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (١٢/ ٥٨٦ ـ ٥٨٧) عن مجاهد وقتادة وأبي صالح والضحاك.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٩٣) عن مجاهد وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم. وذكره عن سعيد بن جبير وعزاه إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد.

قال تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ [الفرقان: ٤٤]، وقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨].

وقيل: الوالد: إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ [ذريته.

وقيل: الوالد إبراهيم وإسماعيل، وما ولد محمد ﷺ لأنه أقسم بمكة وإبراهيم][١].

قال الفراء: وصلح «ما» للناس، كقوله: ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾ [النساء: ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [الليل: ٣]، وهو خالق الذكر والأنثى.

قال الماورديُّ: ويحتمل أن الوالد: النبي ﷺ لتقدم ذكره، «ومَا وَلَدَ»: أمته، لقوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّمَا أنَا لَكُمْ بِمنْزِلةِ الوَالدِ أعَلِّمكُمْ»[٢]، فأقسم به وبأمته، بعد أن أقسم ببلده، مبالغة في تشريفه عليه الصلاة والسلام.

قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾: هذا هو المقسم عليه، والكبد: المشقة.

قال الزمخشريُّ[٣]: والكَبدُ: أصله من قولك: كبدَ الرجل كبداً، فهو أكْبَد، إذا وجعت كبده وانتفخت، فاتسع فيه، حتى استعمل في كل تعب ومشقة، ومنه اشتقت المُكابَدةُ، كما قيل: كبته بمعنى أهلكه، وأصله: كبده إذا أصاب كبده.

قال لبيد: [المنسرح]

٥٢١١ ـ يَا عَيْنُ هَلاَّ بَكَيْتِ أرْبَدَ إذْ   قُمْنَا وقَامَ الخُصُومُ في كَبَدِ[٤]

أي: في شدة الأمر، وصعوبة الخطب؛ وقال أبو الإصبع: [البسيط]

٥٢١٢ ـ لِيَ ابنُ عَمٍّ لو أنَّ النَّاس في كَبدٍ   لظَلَّ مُحْتَجِزاً بالنَّبْلِ يَرْمِينِي[٥]

قال القرطبيُّ[٦]: ومنه تكبَّد اللبن: غلظ واشتد، ومنه الكبدُ؛ لأنه دمٌ تغلظ واشتد، ويقال: كابدتُ هذا الأمر، قاسيت شدته.

فصل في المراد بـ «الإنسان»

الإنسان هنا ابن آدم.

---

(١) سقط من ب.

(٢) أخرجه أبو داود (١/ ٣) كتاب الطهارة: باب كراهية استقبال القبلة حديث (٨) وابن ماجة (١/ ١١٤) كتاب الطهارة: باب الاستنجاء بالحجارة حديث (٣١٣) والنسائي (١/ ٣٧) كتاب الطهارة: باب الاستطابة بالروث.

(٣) الكشاف ٤/ ٧٥٤.

(٤) ينظر ديوان لبيد ص ٥٠، وإعراب القرآن ٣/ ٧٠٥، ٥/ ٢٢٩، والطبري ٣/ ١٢٦ ومجمع البيان ١٠/ ٧٤٦، والكشاف ٤/ ٧٠٤، والبحر ٨/ ٤٦٨، والدر المصون ٦/ ٥٢٥.

(٥) ينظر إعراب القرآن ٥/ ٢٢٩، والمفضليات (٣٢٦)، والبحر ٨/ ٤٦٨، والدر المصون ٦/ ٥٢٥.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٤٢.

قال ابنُ عباسٍ والحسنُ: «في كبدٍ» أي: في شدة ونصب[١] وعن ابن عباس أيضاً: في شدّة من حمله، وولادته، ورضاعه، ونبت أسنانه، وسائر أحواله[٢].

وروى عكرمةُ عنه، قال: منتصباً في بطن أمه[٣]، والكبدُ: الاستواء، والاستقامة، فهذا امتنان عليه في الحقيقة، ولم يخلق الله تعالى دابة في بطن أمها إلاّ منكبةً على وجهها إلا ابن آدم، فإنه منتصب انتصاباً. وهو قول النخعي ومجاهد وغيرهما[٤].

وقال يمان: لم يخلق الله تعالى خلقاً يكابد ابن آدم، وهو مع ذلك أضعف الخلق.

[وقال ابن كيسان: منتصباً في بطن أمه، فإذا أراد الله تعالى أن يخرجه من بطن أمه قلب رأسه إلى رجل أمه.

وقال الحسن: كابد مصائب الدنيا، وشدائد الآخرة][٥].

قال بعضُ العلماء: أول ما يكابدُ قطع سرته، ثم إذا قمط قماطاً، وشد رباطاً، يكابد الضيق والتعب، ثم يكابد الارتضاع، ولو فاته لضاع، ثم يكابد نبت أسنانه، وتحرك لسانه، ثم يكابد الفطام الذي هو أشد من اللطام، ثم يكابد الخِتَان، والأوجاع والأحزان، ثم يكابد المعلم وصولته، والمؤدب وسياسته، والأستاذ وهيبته، ثم يكابد شغل التزويج، ثم يكابد شغل الأولاد، والأجناد، ثم يكابد شغل الدُّور، وبناء القصور، ثم الكِبر والهرم، وضعف الركبة والقدم، في مصائب يكثر تعدادها ونوائب يطول إيرادها، من صداع الرأس، ووجع الأضراس، ورمد العين، وغم الدَّينِ، ووجع السن، وألم الأذُنِ، ويكابد مِحَناً في المال، والنفس، مثل الضرب والحبس، ولا يمر عليه يوم إلا يقاسي فيه شدة، ثم يكابد بعد ذلك مشقة الموت، ثم بعد ذلك مساءلة الملك، وضغطة القبر وظلمته، ثم البعث، والعرض على الله، إلى أن يستقر به القرار، إما في الجنة وإما في النار، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ فلو كان الأمر إليه، ما اختار هذه الشَّدائد، ودل هذا على أن له خالقاً دبره، وقضى عليه بهذه الأحوال، فليمتثل أمره.

وقال ابن زيد: المراد بالإنسان هنا آدم عليه السلام.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٨٧) عن ابن عباس والحسن.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٨٨) والحاكم (٢/ ٥٢٣) من طريق عطاء عن ابن عباس. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٩٣) وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٩٣) عن ابن عباس وعزاه إلى ابن أبي حاتم. وأخرجه الطبري (١٢/ ٥٨٨) عن عكرمة.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٨٨) عن إبراهيم وعكرمة والضحاك ومجاهد.

(٥) سقط من: ب.

وقوله تعالى: ﴿فِي كَبَدٍ﴾ أي: في وسط السماء.

وقال الكلبيُّ: إنَّ هذا نزل في رجل من بني جمح، يقال له: أبو الأشدين واسمه أسيد بن كلدة بن جُمَح، وكان قوياً، وكان يأخذ الأديم العكاظي، فيجعله تحت قدميه، فيقول: من أزالني عنه فله كذا، فيجذبه عشرة حتى يتمزّق الأديم، ولا تزول قدماه، وكان من أعداء النبي ﷺ وفيه نزل: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾، يعني: لقوته[١].

قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾، أي: أيظنّ ابن آدم أن لن يحاسبه الله عزَّ وجل قال ابنُ الخطيب[٢]: إن فسرنا الكبد بالشدة والقوة، فالمعنى: أيحسب الإنسان الشديد أن لشدته لا يقدر عليه أحد؟ وإن فسرناه بالمحنة، والبلاء، كان المعنى: أنَّ الإنسان كان في النعمة، والشدة، أي: أفيظنّ أنه في تلك الحالة لا يقدر عليه شيء، فهو استفهام على سبيل الإنكار.

قوله: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾: يجوز أن تكون مستأنفة، وأن تكون حالاً.

وقرأ العامة: «لُبَداً» بضم اللام وفتح الباء.

وشدَّد أبُو جعفرِ الباء جمع[٣] لابِدٍ، مثل: راكع وركع، وساجد وسُجَّد، وعنه أيضاً[٤]: سكونها.

ومجاهدٌ وابنُ أبِي الزِّناد[٥]: بضمتين، وتقدم الكلام على هذه اللفظة في سورة: «الجن».

قال أبو عبيدة: «لُبَداً»: فعل من التلبيد، وهذا المال الكثير، بعضه على بعض.

قال الزَّجَّاجُ: و «فعل» للكثرة، يقال: رجل حطم، إذا كان كثير الحطم.

قال الفراءُ: واحدته: «لُبْدَة»، و «لُبَدٌ»: جمع.

وجعل بعضهم: واحد، كـ «حطم»، وهو في الوجهين للكثرة، والمعنى: أنفقت مالاً كثيراً مجتمعاً؛ لأن أهل الجاهلية يدعونه مكارم ومفاخر.

قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾، أي: أيظن أن لم يعاينه أحد، بل علم الله ذلك منه، فكان كاذباً في قوله: أهلكت، ولم يكن أنفقه. وقال: أيظن أن لم يره، ولا يسأله عن ماله من أين اكتسبه وأين أنفقه.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: كان أبُو الأشدين يقول: أنفقت في عداوة محمد مالاً كثيراً، وهو في ذلك كاذب[٦].

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٤٨٨) عن مقاتل مثله.

(٢) الفخر الرازي ٣١/ ١٦٦.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٨٤، والبحر المحيط ٨/ ٤٧٠، والدر المصون ٦/ ٥٢٥.

(٤) ينظر السابق.

(٥) السابق.

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٤٣).

وقال مقاتلٌ: نزلت في الحارثِ بنِ عامر بنِ نوفل، أذنب، فاستفتى النبي ﷺ، فأمره أن يكفر، فقال: لقد ذهب مالي في الكفَّارات، والنفقات، منذ دخلت في دين محمد. وهذا القول منه، يحتمل أن يكون استطالة بما أنفق، فيكون طغياناً منه، أو أسفاً منه، فيكون ندماً منه[١].

قال القرطبيُّ[٢]: «وروي عن النبي ﷺ: أنه كان يقرأ: «أيَحْسُبُ»، بضم السين، في الموضعين».

وقال الحسنُ: يقول: أتلفت مالاً كثيراً فمن يحاسبني به، دعني أحسبه، ألم يعلم أن الله قادر على محاسبته، وأن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يرى صنيعه، ثم عدد عليه نعمه، فقال:

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾: يبصر بهما، ﴿وَلِسَانًا﴾ ينطق به، ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾: يستر بهما ثغرهُ[٣]، والمعنى: نحن فعلنا ذلك، ونحن نقدر على أن نبعثه، ونحصي عليه ما عمله.

قوله: ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾، الشَّفةُ: محذوفة اللام، والأصل: شفهةٌ، بدليل تصغيرها على «شُفَيْهَة»، وجمعها على «شفاه» ونظيره: سنة في إحدى اللغتين، وشافهته أي كلمته من غير واسطة، ولا يجمع بالألف والتاء، استغناء بتكسيرها عن تصحيحها.

قال القرطبي[٤]: «يقال: شفهاتٌ وشفواتٌ، والهاء: أقيس، والواو أعم تشبيهاً بالسنوات».

قال الأزهريُّ: «يقال: هذه شفة، في الوصل، وشفة، بالتاء والهاء».

قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾، يعني: الطريقتين: طريق الخير وطريق الشَّر.

روى قتادةُ قال: ذكر لنا أن النبي ﷺ، كان يقول: «يا أيُّها النَّاس، إنَّما هُمَا النَّجدانِ: نَجْدُ الخيرِ، ونجدُ الشَّرِّ، فلم تَجْعَلُ نَجْدَ الشر أحبَّ إليْكَ من نَجْدِ الخَيْرِ»[٥].

فكأنه لما وهمت الدلائل، جعلت كالطريق المرتفعة العالية، لكونها واضحة للعقول، كوضوح الطريق العالي للأبصار، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾، بعد قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢ و ٣].

ورُوِيَ عن عكرمة، قال: النجدانِ: الثَّديانِ، وهو قول سعيد بن المسيب والضحاك.

---

(١) ينظر تفسير البغوي (٤/ ٤٨٨). (٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٤٣).
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٤٣). (٤) ينظر المصدر السابق.
(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٩١) عن قتادة والحسن.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٩٥) عن الحسن وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن مردويه من طرق عنه.

ورُويَ عن ابن عبَّاسٍ وعلي ـ رضي الله عنهما ـ لأنهما كالطريقين لحياة الولد، ورزقه(١).

فقوله: «النجدين» إما ظرف، وإما على حذف الجار إن أريد بهما الثديان.

والنَّجدُ في الأصل: العنقُ، لارتفاعه.

وقيل: الطريق العالي.

قال امرؤ القيس: [الطويل]

٥٢١٣ ـ فَريقَانِ: مِنهُمْ جَازِعٌ بَطْنَ نَخْلةٍ وآخَرُ مِنهُمْ قَاطِعٌ نَجْدَ كَبْكَبِ(٢)

ومنه سميت نجد، لعلوها عن انخفاض تهامة.

قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

قوله: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾.

قال الفراءُ والزجاجُ: ذكر «لا» مرة واحدة، والعرب لا تكاد تفرد: «لا» مع الفعل الماضي، حتى تعيد «لا»، كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١] وإنَّما أفردها لدلالة آخر الكلام على معناه، فيجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: قائماً مقام التكرير، فكأنه قال: فلا اقتحم العقبة ولا آمن.

وقال الزمخشريُّ(٣): هي متكررة في المعنى؛ لأن معنى: «فلا اقتحم العقبة: فلا فكَّ رقبة، ولا أطعم مسكيناً». ألا ترى أنه فسر اقتحام العقبة بذلك؟.

قال أبو حيَّان(٤): ولا يتم له هذا إلا على قراءة: «فكَّ» فعلاً ماضياً.

وقال الزجاج والمبردُ وأبو عليٍّ، وذكره البخاري عن مجاهد: أن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٩٢) عن ابن عباس والضحاك وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٩٥) عن ابن عباس وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس وينظر تفسير الماوردي (٦/ ٢٧٧) والقرطبي (٢٠/ ٤٤).

(٢) يروى الشطر الأول:

غداة غدوا فسالك بطن نخلة

ينظر الديوان ص ٤٣، وإصلاح المنطق ص ٥٦، ومجمع البيان ١/ ٧٤٦ واللسان (نجد)، والقرطبي ٢٠/ ٤٤، والبحر ٨/ ٤٦٨، والدر المصون ٦/ ٥٢٥.

(٣) الكشاف ٤/ ٧٥٦.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٤٧١.

كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يدل على أن «لا» بمعنى: «لم»، ولا يلزم التكرير مع «لم»، فإن كررت «لا» كقوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾، فهو كقوله تعالى: ﴿لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ [الفرقان: ٦٧].

فصل في معنى الآية

المعنى: فهلاً أنفق ماله في اقتحام العقبة، الذي يزعم أنه أنفقه في عداوة محمد ﷺ هلا أنفقه في اقتحام العقبة، فيأمن، والاقتحامُ: الرمي بالنفس في شيء من غير روية، يقال منه: قحم في الأمر قُحُوماً، أي: رمى بنفسه فيه من غير روية، وقحَّم الفرس فارسه تقحيماً على وجهه: إذا رماه وتقحيم النفس في الشيء: إدخالها فيه من غير روية، والقُحْمَةُ ـ بالضم ـ المهلكة والسَّنة الشديدة، يقال: أصاب العرب القُحْمَةُ: إذا أصابهم قحط [فدخلوا الريف][١] والقُحَمُ: صعاب الطريق.

قال عطاء: يريد عقبة جهنم[٢].

وقال مجاهدٌ والضحاكُ: هي الصراطُ[٣].

قال الواحدي: وهذا فيه نظر؛ لأن من المعلوم أن هذا الإنسان وغيره، لم يقتحموا عقبة جهنم، ولا جاوزوها.

وقال ابن العربي: قال مجاهد: اقتحام العقبة في الدنيا؛ لأنه فسره بعد ذلك، بقوله: «فكُّ رقَبةٍ» أو أطعم في يومٍ يتيماً، أو مسكيناً، وهذه الأعمال إنما تكون في الدنيا[٤].

وقال الحسنُ ومقاتلٌ: هذا مثلٌ ضربه الله تعالى، لمجاهدة النفس، والشيطان في أعمال البر[٥].

قال القفال[٦]: قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾، معناه: فلا أنفق ماله فيما فيه اقتحام العقبة.

وقيل: معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ﴾ دعاء، أي: فلا نجا ولا سلم، من لم ينفق ماله في كذا وكذا.

وقيل: شبه عظيم الذنوب، وثقلها بعقبةٍ، فإذا أعتق رقبة، أو عمل صالحاً، كان مثله مثل من اقتحم العقبة، وهي الذنوب تضره، وتؤذيه وتثقله.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾.

---

(١) سقط من ب.
(٢) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣١/ ١٦٧).
(٣) ذكره الماوردي (٦/ ٢٧٨) والقرطبي (٢٠/ ٤٥).
(٤) ينظر المصدر السابق.
(٥) ذكره الماوردي (٦/ ٢٧٨) والقرطبي (٢٠/ ٤٥).
(٦) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ١٦٧.

قال سفيان بن عيينة: كل شيء قال فيه: «ومَا أدْرَاكَ»، فقد أخبر به، وكل شيء قال فيه: «ومَا يُدريْكَ»، فإنه لم يخبره به، والمعنى: وما أدراك ما اقتحام العقبة، وهذا تعظيم لإلزام أمر الدين، والخطاب للنبي ﷺ ليعلمه اقتحام العقبة، ثم إنه تعالى فسر العقبة بقوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾.

قوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾.

قرأ أبو عمرو[1] **وابن كثيرٍ والكسائي**: «فكَّ»: فعلاً ماضياً، و «رَقبةً»: نصباً، «أو أطْعمَ»: فعلاً ماضياً.

والباقون: «فكُّ»: برفع الكاف اسماً، «رقبةٍ»: خفض بالإضافة، «أوْ إطعامٌ»: اسم مرفوع أيضاً.

فالقراءة الأولى: الفعل فيها، بدل من قوله: «اقتحم»، فهو بيان له، فكأنه قيل: فلا فك رقبة ولا أطعم.

والثانية: مرتفع فيها: «فكُّ»، على إضمار مبتدأ، أي: هو فك رقبة، «أو إطعام» على معنى الإباحة، وفي الكلام حذف مضاف، دل عليه «فلا اقتحم»، تقديره: وما أدراك ما اقتحام العقبة، فالتقدير: اقتحام العقبة فك رقبة، أو إطعام، وإنما احتيج إلى تقدير هذا المضاف ليطابق المفسر والمفسر؛ ألا ترى أن المفسِّر ـ بكسر السين ـ مصدر، والمفسَّر ـ بفتح السين ـ وهو العقبة غير مصدر، فلو لم يقدر مضافاً، لكان المصدر، وهو «فك» مفسراً للعين، وهي العقبة.

وقرأ أميرُ المؤمنين وأبو رجاء[2]: «فكَّ، أو أطعمَ» فعلين ـ كما تقدم ـ إلا أنهما نصبا: «ذا» الألف.

وقرأ الحسنُ: «إطعام»[3]، و «ذا» بالألف أيضاً، وهو على هاتين القراءتين: مفعول: «أطعم»، أو «إطعام»، و «يتيماً» حينئذ بدل منه أو نعت له، وهو في قراءة العامة: «ذي» بالياء: نعت لـ «يوم»، على سبيل المجاز، وصف اليوم بالجوع مبالغة، كقولهم: ليلك قائم، ونهارك صائم، والفاعل لـ «إطعام»: محذوف، وهذا أحد المواضع التي يطرد فيها حذف الفاعل وحده عند البصريين.

فصل في الاستفهام في الآية

قال ابنُ زيدٍ، وجماعة من المفسرين: معنى الكلام الاستفهام على معنى الإنكار،

---

(١) ينظر: السبعة ٦٨٦، والحجة ٦/ ٤١٣، وإعراب القراءات ٢/ ٤٨١، وحجة القراءات ٧٦٤.
(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٧١، والدر المصون ٦/ ٥٢٦.
(٣) ينظر: السابق، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٨٥.

تقديره: هلاً اقتحم العقبة، تقول: هلا أنفق ماله في فك الرقاب، وإطعام السغبان، فيكون خيراً له من إنفاقه في عداوة محمد عليه الصلاة والسلام(١).

فصل في الفرق بين الفك والرق

الفكّ: التفريق، ومنه فكُّ القيد، وفكُّ الرقبة، فرق بينها وبين صفة الرق بإيجاد الحرفة، وإبطال العبودية، ومنه فكُّ الرهن، وهو إزالته عن المرتهن، قال رسول الله ﷺ: «أيُّمَا امرىءٍ مُسْلم أعتقَ امْرءًا مُسْلماً كَانَ فِكاكُه مِنَ النَّارِ يَجرِي على كُلِّ عُضوٍ مِنهُ عُضواً مِنْهُ» الحديث(٢).

وسمي المرقوق رقبة؛ لأنه بالرق كالأسير المربوط في رقبته، وسمي عتقها فكًّا كفك الأسير من الأسْر؛ قال: [البسيط]

٥٢١٤ ـ كَمْ مِنْ أسِيرٍ فَكَكنَاهُ بِلاَ ثَمنٍ ... وجَـرِّ نَـاصِـيَـةٍ كُـنَّـا مَـوالِـيـهَـا(٣)

قال الماورديُّ: ويحتمل ثانياً: أنه أراد فك رقبته، وخلاص نفسه، باجتناب المعاصي، وفعل الطاعات، ولا يمتنع الخبر من هذا التأويل، وهو أشبه بالصواب.

فصل في أن العتق أفضل من الصدقة

قال أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ: العِتْق أفضل من الصدقة، وعند صاحبيه الصدقة أفضل، والآية أدلّ على قول أبي حنيفة، لتقديم العتق على الصدقة.

قوله: ﴿أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾، أي: مجاعة، والسَّغبُ: الجوع، والسَّاغبُ: الجائع.

قال شهابُ الدِّين(٤): والمسغبةُ: الجوع مع التعب، وربما قيل في العطش مع التعب.

قال الراغب: يقال سغبَ الرجل يسغبُ سغباً وسغوباً فهو ساغبٌ، وسغبان، والمسغبةُ: مفعل منه.

وأنشد أبو عبيدة: [الطويل]

٥٢١٥ ـ فَلوْ كُنْتَ جاراً يَا بْنَ قَيْسِ بن عاصمٍ ... لـمَـا بِـتَّ شَـبْـعَـانـاً وجـارُكَ سَـاغِـبَـا(٥)

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٤٤) عن ابن زيد.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ينظر شرح ديوان حسان بن ثابت ٤٨٥، والقرطبي ٢٠/ ٤٦.

(٤) ينظر الدر المصون ٦/ ٥٢٦.

(٥) ينظر القرطبي ٢٠/ ٤٦.

فصل

إطعام الطعام فضيلة، وهو مع السغب الذي هو الجوع أفضل.

وقال النخعي في قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾، قال: في يوم عزيز فيه الطَّعام.

قوله: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾، أي: قرابة.

قال الزمخشريُّ[1]: «والمَسْغبَةُ، والمَقربةُ، والمَتربةُ: مفعلات، من سغبَ إذا جاع، وقرب في النسب، يقال: فلان ذو قرابتي وذو مقربتي، وترب إذا افتقر».

وهذه الآية تدل على أن الصدقة على الأقارب، أفضل منها على الأجانب.

واليتيم: قال بعض العلماء: اليتيمُ في الناس من قبل الأب، وفي البهائمِ من قبلِ الأمَّهاتِ.

وقال بعضهم: اليتيمُ: «الذي يموت أبواه».

قال قيس بن الملوح: [الطويل]

٥٢١٦ ـ إلى اللَّهِ أشْكُو فَقْدَ لَيْلَى كَما شَكَا ... إلــى الـلَّــهِ فَــقْــدَ الــوَالِــديْــنِ يَــتِــيــمُ[2]

ويقال: يتم الرجل يتماً: إذا ضعف.

قوله: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾، أي: لا شيء له، حتى كأنه قد لصق بالتراب من الفقر يقال: ترب أي افتقر حتى لصق جلده بالتراب، فأما أترب بالألف فمعناه استغنى نحو: أثرى أي صار ماله كالتراب وكالثرى.

قال المفسرون: هو الذي ليس له مأوى إلا التراب.

وقال ابن عباس: هو المطروح على الطريق الذي لا بيت له.

وقال مجاهد: الذي لا يقيه من التراب لباس ولا غيره.

وقال قتادة: إنه ذو العيال.

وقال عكرمة عن ابن عباس: ذو المتربة هو البعيد عن وطنه، ليس له مأوى إلاَّ التراب.

فصل في أن المسكين قد يملك شيئاً

احتجوا بهذه الآية على أن المسكين قد يملك شيئاً؛ لأنه لو كان المسكين هو الذي لا يملك شيئاً ـ ألبتة ـ لكان تقييده بقوله: «ذا مَتْربة» تكرير.

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/٧٥٦.

(٢) ينظر ديوان مجنون ليلى ص ٢٤٤، والقرطبي ٢٠/٤٦.

قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾. التراخي في الإيمان، وتباعده في المرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة، لا في الوقت؛ لأن الإيمان هو السابق، ولا يثبت عمل إلاَّ به. قاله الزمخشري(١) وقيل: المعنى: ثُمَّ كان في عاقبة أمره من الذين وافوا الموت على الإيمان؛ لأنَّ الموافاة عليه شرط في الانتفاع بالطَّاعات.

وقيل: التراخي في الذكر.

قال المفسرون: معناه أنه لا يقتحم العقبة من فك رقبته، أو أطعم في يوم ذي مسغبة، حتى يكون من الذين آمنوا، أي: صدقوا، فإنّ شرط قبول الطاعات الإيمان بالله تعالى، فالإيمان بعد الإنفاق لا ينفع، قال تعالى في المنافقين: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٥٤].

وقيل: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: فعل هذه الأشياء وهو مؤمن ثم بقي على إيمانه حتى الوفاة [فيكون المعنى: ثم كان مع تلك الطاعات من الذين آمنوا](٢)، نظيره قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

وقيل: المعنى: ثم كان من الذين يؤمنون بأن هذا نافع لهم عند الله تعالى.

وقيل: أتى بهذه القرب لوجه الله ـ تعالى ـ ثم آمن بمحمد ﷺ.

وقيل: إن «ثُمَّ» بمعنى: الواو، أي: وكان هذا المعتق للرقبة، والمطعم في المسغبةِ، من الذين آمنوا.

قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾، أي: أوصى بعضهم بعضاً على طاعة الله، وعن معاصيه، وعلى ما أصابهم من البلاء والمصائب، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾، أي: بالرحمة على الخلق فإنَّهم إذا فعلوا ذلك، رحموا اليتيم والمسكين، ثم إنه تعالى بينهم، فقال تعالى:

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾، أي: الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم، قاله محمد بن كعب القرظي(٣).

[وقال يحيى بن سلام: لأنهم ميامين على أنفسهم(٤).

وقال ابن زيد: لأنهم أخذوا من شق آدم الأيمن(٥).

وقال ميمون بن مهران لأن منزلتهم عن اليمين](٦).

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، أي: القرآن، ﴿هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أي: يأخذون كتبهم

(١) ينظر: الكشاف ٤/٧٥٧.
(٢) سقط من: ب.
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/٤٨).
(٤) ينظر المصدر السابق.
(٥) ينظر المصدر السابق.
(٦) ينظر المصدر السابق.

بشمائلهم قاله محمد بن كعب، وقال يحيى بن سلام: لأنهم مشائيم على أنفسهم[١].

وقال ابن زيد: لأنهم أخذوا من شق آدم الأيسر[٢].

وقال ميمون: لأن منزلتهم على اليسار[٣].

قال القرطبي[٤]: ويجمع هذه الأقوال أن يقال: إن أصحاب الميمنة أصحاب الجنة، وأصحاب المشئمة أصحاب النار.

قوله: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾، قرأ أبو عمرٍو وحمزةُ وحفصٌ: بالهمزة.

والباقون[٥]: بلا همز.

فالقراءة الأولى: من «آصَدتُ الباب» أي: أغلقته، أوصده، فهو مؤصد، قيل: ويحتمل أن يكون من «أوْصدْتُ»، ولكنه همز الواو السَّاكنة لضمة ما قبلها، كما همز ﴿بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣].

والقراءة الثانية ـ أيضاً ـ تحتمل المادتين، ويكون قد خفف الهمزة، لسكونها بعد ضمة.

وقد نقل الفرَّاء عن السوسي الذي قاعدته إبدال مثل هذه الهمزة، أنه لا يبدل هذه، وعللوا ذلك بالإلباس وأيقن أنه قرأ: «مؤصدة» بالواو من قاعدته تخفيف الهمزة.

والظاهر أن القراءتين من مادتين: الأولى من «آصَدَ، يُوصِدُ» كـ «أكرم يكرم»، والثانية من «أوْصَدَ، يُوصِدُ» مثل «أوصل يوصل».

وقال الشاعر: [الطويل]

٥٢١٧ ـ **تَحِنُّ إلى أجْبَالِ مكَّةَ نَاقتِي   ومِنْ دُونِهَا أبْوابُ صَنْعاءَ مُؤْصَدَهْ**[٦]

أي: مغلقة؛ وقال آخر: [الكامل]

٥٢١٨ ـ **قَوْمٌ يُعَالِجُ قُمَّلاً أبْنَاؤهُمْ   وسَلاسِلاً حِلَقاً وبَاباً مُؤصدا**[٧]

وكان أبو بكر راوي عاصم يكره الهمز في هذا الحرف، وقال: لنا إمام يهمز: «مؤصدة»، فأشتهي أن أسد أذني إذا سمعته.

قال شهابُ الدِّين[٨]: وكأنه لم يحفظ عن شيخه إلا ترك الهمزة مع حفظ حفص

(١) ينظر المصدر السابق.
(٢) ينظر المصدر السابق.
(٣) ينظر: المصدر السابق.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٤٨.
(٥) ينظر: السبعة ٦٨٦، والحجة ٦/ ٤١٦، وإعراب القراءات ٢/ ٤٨٦، وحجة القراءات ٧٦٦.
(٦) ينظر القرطبي ٢٠/ ٤٨، والبحر ٨/ ٤٦٩، وفتح القدير ٥/ ٤٤٥، والدر المصون ٦/ ٥٢٦.
(٧) ينظر البحر ٨/ ٤٧١، والدر المصون ٦/ ٥٢٦.
(٨) الدر المصون ٦/ ٥٢٧.

إياه عنه، وهو أضبط لحرفه من أبي بكر، على ما نقله الفراء، وإن كان أبو بكر أكبر وأتقن، وأوثق عند أهل الحديث.

وقال القرطبيُّ(١): وأهل اللغة يقولون: أوصدت الباب وآصدته، أي: أغلقته، فمن قال: أوصدت، فالاسم: الوصاد.

ومن قال: آصدته، فالاسم: الإصاد.

قال الفراء: ويقال من هذا «الأصيد»، وهو الباب المطبق، ومعنى «مؤصدة» أي: مغلقة».

قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ﴾، يجوز أن تكون جملة مستأنفة، وأن تكون خبراً ثانياً، وأن يكون الخبر وحده: «عَلَيْهِمْ»، و «نارٌ»: فاصل به، وهو الأحسن.

وقيل: معنى «عليهم نار»، أي: أحاطت النَّار بهم، كقوله تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ [الكهف: ٢٩]. والله أعلم.

روى الثَّعلبيُّ عن أبيٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسُول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ أعطَاهُ اللَّهُ الأمْنَ مِنْ غَضبهِ يَوْمَ القِيامَةِ»(٢).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤٨/٢٠.

(٢) تقدم تخريجه.

سورة الشمس

مكيةٌ، وهي خمس عشرة آيةً، وأربع وخمسون كلمة، ومائتان وسبعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠)﴾

قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾، وقد تقدَّم أنَّ جماعة من أهل الأصول؛ قالوا: التقدير: ورب الشمس، ورب سائر ما ذكر إلى تمام القسم.

واحتج قوم على بطلان هذا القول، بأن في جملة هذا القسم: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾، وذلك هو الله تعالى، لا يجوز أن يكون المراد منه تعالى أن يقدم قسمه بغيره على قسمه بنفسه، فإذن لا بد من تأويل، وهو أن «ما» مع ما بعده في حكم المصدر، فيكون التقدير: والسَّماءِ وبنائها.

واعترض الزمخشريُّ عليه، فقال[1]: لو كان الأمر على هذا الوجه، لزم من عطف قوله: «فألهمها» عليه فساد النظم.

قوله: ﴿وَضُحَاهَا﴾.

قال المبرِّدُ: إن الضُّحى، والضَّحوة، مشتقان من الضحّ، وهو النور فأبدلت الألف، والواو من الحاء، تقول: ضَحْوة، وضَحَوات، وضُحى فالواو من «ضَحْوة» مقلوبة عن الحاء الثانية، والألف في «ضُحَى» مقلوبة عن الواو.

وقال أبو الهيثم: الضحُّ نقيض الظل، وهو نور الشمس على ظهر وجه الأرض وأصله: الضحى، فاستثقلوا الياء مع سكون الواو فقلبوها ألفاً.

والضُّحَى: مؤنثة، يقال: ارتفعت الضُّحى فوق الصخور، وقد تذكر، فمن أنَّث ذهب إلى أنها جمع ضحوة، ومن ذكَّر ذهب إلى أنَّه اسم على: «فُعَل» نحو «صُرَد،

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٥٩.

ونُغَر» وهو ظرف غير متمكن مثل: سحر، تقول: لقيته ضحًى، وضُحَى، إذا أردت به ضحى يومك لم تنونه.

وقال الفراء: الضُّحَى، هو النهار، كقول قتادة، والمعروف عند العرب أنَّ الضحى إذا طلعت الشمس، وبُعَيْدَ ذلك قليلاً، فإذا زاد فهو الضّحاء بالمد.

ومن قال: الضحى، النهار كله، فذلك لدوام نور الشمس، ومن قال: إنه نور الشَّمس أو حرها، فنور الشمس لا يكون إلاَّ مع حرِّ الشمس، وقد استدل من قال: إن الضُّحى حر الشمس بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٩] أي: لا يؤذيك الحر.

فصل في تفسير الآية

قال مجاهد: «وضُحَاهَا» أي: ضوؤها وإشراقها، وأضاف الضحى إلى الشمس؛ لأنه إنما يكون بارتفاع الشمس[(١)].

وقال قتادةُ: بهاؤها[(٢)].

وقال السدي: حرها.

وقال اليزيدي: انبساطها.

وقيل: ما ظهر بها من كل مخلوق، فيكون القسم بها، وبمخلوقات الأرض كلها. حكاه الماوردي.

قال ابن الخطيب[(٣)]: إنَّما أقسم بالشمس، وضحاها، لكثرة ما يتعلق به من المصالح، فإنَّ أهل العالم كانوا كالأموات في الليل، فلما ظهر الصبحُ في المشرق، صار ذلك الضوء، كالروح الذي تنفخ فيه الحياة، فصارت الأموات أحياء، ولا تزال تلك الحياة في القوة، والزيادة إلى غاية كمالها وقت الضحى، وذلك شبيه استقرار أهل الجنة.

قوله: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَٰهَا﴾، أي: تبعها، وذلك إذا سقطت رؤيا الهلال.

[قال الليث: تلوت فلاناً إذا تبعته.

وقال ابن زيد: إذا غربت الشمس في النصف الأول من الشهر، تلاها القمر بالطلوع، وفي آخر الشهر، يتلوها بالغروب[(٤)]][(٥)].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٩٩) عن مجاهد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٠٠) وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٤٩) عن قتادة.

(٣) ينظر الفخر الرازي ٣١/ ١٧٢.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٠٠) عن قتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٠١) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.
وينظر تفسير الماوردي (٦/ ٢٨٢) والقرطبي (٢٠/ ٤٩).

(٥) سقط من: ب.

قال الفراء: «تَلاهَا»: أخذ منها، يذهب إلى أن القمر يأخذ من ضوء الشمس.

وقال الزجاجُ: «إذا تَلاهَا» أي: حين استوى، واستدار، فكان مثلها في الضياء والنور.

وقال قتادةُ والكلبيُّ: معناه: أن الشمس، إذا قربت، فالقمر يتبعها ليلة الهلال في الغروب(١).

وقيل: يتلوها في كبر الجرم، بحسب الحسّ في ارتباط مصالح هذا العالم بحركته.

قوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾، الفاعل: ضمير النهار.

وقيل: عائد على الله تعالى، والضمير المنصوب، إمَّا للشمس، وإما للظُّلمة، وإما للأرض.

ومعنى «جلاها» أي: كشفها، فمن قال: هي «الشمس»، فالمعنى: أنه يبين بضوئه جرمها، ومن قال: هي «الظلمة»، فهي وإن لم يجر لها ذكر، كقولك: أضحتْ باردةً، تريد: أضحت غداتنا باردة، وهو قول الفراء والكلبي وغيرهما.

ومن قال: هي الدنيا والأرض، وإن لم يجر لهما ذكر، كقوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢].

قوله: «إِذَا تَلاهَا»، وما بعده فيه إشكال؛ لأنه إن جعل شرطاً اقتضى جواباً، ولا جواب لفظاً، وتقديره غير صالح، وإن جُعِلَ محضاً استدعى عاملاً وليس هنا عامل إلا فعل القسم حال؛ لأنه إنشاء، و «إذا» ظرف مستقبل، والحال لا يعمل في المستقبل.

ويخص «إذا» وما بعدها إشكال آخر ذكره الزمخشري، قال(٢): فإن قلت: الأمر في نصب «إذَا» معضل؛ لأنك لا تخلو إمَّا أن تجعل الواو عاطفة، فتنصب بها وتجر، فتقع في العطف على عاملين في نحو قولك: «مررت أمس بزيد واليوم عمرو»، وإمَّا أن تجعلهن للقسم، فتقع فيما اتفق الخليل وسيبويه على استكراهه.

قلت: الجواب فيه: أن واو القسم مطرح معها إبراز الفعل اطراحاً كلياً، فكان لها شأن خلاف شأن الباء، حيث أبرز معها الفعل وأضمر، فكانت الواو قائمة مقام الفعل، والباء سادة مسدهما معاً، والواوات العواطف نوائب عن هذه الواو، فحقهن أن يكنّ عوامل على الفعل، والجار جميعاً، كما تقول: «ضرب زيد بكراً وعمرو خالداً»، فترفع بالواو وتنصب لقيامها مقام «ضرب» الذي هو عاملهما انتهى.

وقال أبُو حيَّان(٣): أما قوله في واوات العطف: «فتنصب وتجر»، فليس هذا

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٠٠) عن ابن زيد.

(٢) الكشاف ٤/ ٧٥٨.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٧٤.

بالمختار على أن يكون حرف العطف عاملاً لقيامه مقام العامل، بل المختار أن العمل إنما هو للعامل في المعطوف عليه، ثم إن الإنشاء حجة في ذلك.

وقوله: «فتقع في العطف على عاملين»، ليس ما في الآية من العطف على عاملين، وإنما هو من باب عطف اسمين مجرور ومنصوب، على اسمين مجرور ومنصوب، فصرف العطف لم ينب مناب عاملين، وذلك نحو قولك: مررت بزيد قائماً وعمرو جالساً؛ وأنشد سيبويه في كتابه: [الطويل]

٥٢١٩ ـ فَلَيْسَ بِمعْروفٍ لَنا أنْ نَرُدَّهَا صِحَاحاً ولا مُسْتنكَرٌ أن تُعَقَّرَا[١]

فهذا من عطف مجرور ومرفوع؛ والعطف على عاملين فيه أربعة مذاهب، ونسب الجواز إلى سيبويه.

وقوله في نحو قولك: «مررت أمس بزيد والْيوم عمرو»، هذا المثال مخالف لما في الآية، بل وزان ما في الآية: «مررت بزيد أمس وعمرو اليوم» ونحن نجيز هذا.

وأمَّا قوله: «على استكراه»، فليس كما ذكر، بل كلام الخليل على المنع.

قال الخليل في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ [الليل: ١ ـ ٣]: «الواوان الأخريان ليستا بمنزلة الأولى، ولكنهما الواوان اللتان تضمان الأسماء إلى الأسماء في قولك: مررت بزيد وعمرو، والأولى بمنزلة الباء والتاء».

وأما قوله: «إن واو القسم ليس يطرح معها إبراز الفعل اطراحاً كلياً» فليس هذا الحكم مجمعاً عليه، بل أجاز ابن كيسان التصريح بفعل القسم مع الواو، فتقول: «أقسم، أو أحلف والله لزيد قائم».

وأما قوله: «والواوات العواطف نوائب عن هذا» إلى آخره، فمبني على أن حرف العطف عامل لنيابته مناب العامل، وليس هذا بالمختار.

قال: والذي يقول: إن المُعضلَ هو تقدير العامل في «إذا» بعد الإقسام، كقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ٨]، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ [المدثر: ٣٣، ٣٤]، ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ [الليل: ٢ ـ ٤]، وما أشبهها فـ «إذا» ظرف مستقبل، لا جائز أن يكون العامل فيه فعل القسم المحذوف؛ لأنه فعل إنشائي، فهو في الحال ينافي أن يعمل في المستقبل لإطلاق زمان العامل زمان المعمول، ولا جائز أن يكون ثم مضاف محذوف أقيم المقسم به مقامه أي وطلوع النجم، ومجيء الليل، لأنه

---

(١) البيت للنابغة الجعدي ينظر ديوانه ص ٥٠، وأمالي المرتضى ١/٢٦٨ وجمهرة أشعار العرب ٢/ ٧٨٥، وشرح أبيات سيبويه ١/ ٢٤١، والكتاب ١/ ٦٤ وخزانة الأدب ٧/ ١٨١، والمقتضب ٤/ ١٩٤، ٢٠٠.

معمول لذلك الفعل [فالطلوع حال، ولا يعمل فيه المستقبل ضرورة أن زمان المعمول زمان العامل ولا جائز أن يعمل فيه نفس المقسم به لأنه ليس من قبيل ما يعمل، سيما إن كان جزماً](١)، ولا جائز أن يقدر محذوف قبل الظرف فيكون قد عمل فيه، ويكون ذلك العامل في موضع الحال، وتقديره: والنجم كائناً إذا هوى والليل كائناً إذا يغشى، لأنه لا يلزم كائناً أن يكون منصوباً بالعامل، ولا يصح أن يكون معمولاً لشيء مما فرضناه أن يكون عاملاً، وأيضاً، فقد يكون المقسم به جثة، وظروف الزمان لا تكون أحوالاً عن الجثث كما لا تكون أخباراً. انتهى ما رد به أبو حيان وما استشكله من أمر العامل في «إذا».

قال شهاب الدين(٢): المختار أن حرف العطف لا يعمل لقيامه مقام العامل، فلا يلزم أبا القاسم لأنه يختار القول الآخر، وقوله «ليس ما في الآية من العطف على عاملين» ممنوع بل فيه العطف على عاملين ولكنه فيه غموض، وبيان أنه من العطف على عاملين، أن قوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ ـ هاهنا ـ، معمولان، أحدهما مجرور وهو «النهار»، والآخر منصوب، وهو الظرف عطفاً على معمول عاملين، والعاملان هنا في فعل المقسم به، الناصب لـ «إذا» الأولى، وواو القسم الجارة، فقد تحقق معك عاملان، لهما معمولان، فإذا عطفت مجروراً على مجرور، وظرفاً على ظرف، معمولين لعاملين، لزم ما قاله أبو القاسم، وكيف يجهل هذا مع التأمل والتحقيق؟!.

وأما قوله: «وأنشد سيبويه» إلى آخره، فهو اعتراف منه بأنه من العطف على عاملين، غاية ما في الباب أنه استند إلى حكمه لسيبويه، وأما قوله: أجاز ابن كيسان، فلا يلزم مذهبه، وأما قوله: فالمثال ليس كالآية بل وزانها، إلى آخره، فصحيح لما فيه من تقديم الظرف الثاني على المجرور والمعطوف والآية والظرف فيها متأخر، وإنما مراد الزمخشري وجود معمول عاملين، وهو موجود في المثال المذكور إلا أن في الآية إشكالاً آخر، وهو كالتكرير للمسألة، وأما قوله: بل كلام الخليل يدل على المنع، إلى آخره، فليس فيه ردٌّ عليه بالنسبة إلى قصده بل فيه تقوية لما قال، غاية ما في الباب أنه عبر بالاستكراه عن المنع، ولم يفهم المنع، وقوله: ولا جائز أن يكون ثم مضاف محذوف، إلى آخره، فأقول: بل يجوز تقديره، وهو العامل، ولا يلزم ما قاله من اختلاف الزمانين، لأنه يجوز أن يقسم [الآن بطلوع النجم في المستقبل، فالقسم في الحال والطلوع في المستقبل، ويجوز أن يقسم](٣) بالشيء الذي سيوجد وقوله «ولا جائز أن يقدر محذوف قبل الظرف فيكون قد عمل فيه» إلى آخره، ليس بممنوع بل يجوز ذلك ويكون حالاً

---

(١) سقط من أ.

(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٥٢٩.

(٣) سقط من ب.

مقدرة، وقوله «ويلزم ألاً يكون له عامل» ليس كذلك بل له عامل وهو فعل القسم، ولا يضر كونه إنشائياً، لأن الحال مقدرة كما تقدم، وقوله «وقد يكون المقسم به جثة» جوابه: يقدر حينئذ حدث، يكون الظرف الزماني حالاً عنه وسئل ابن الحاجب عن هذه المسألة، فأجاب بنحو ما ذكرناه والله أعلم، ولا يخلو الكلام فيها من بحث.

قوله ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾. المفعول «الشمس»: أي: يغشى الشمس فيذهب بضوئها عند سقوطها، قاله مجاهد[١].

وقيل: للأرض أي: يغشى الدنيا بالظلمة، فتظلم الآفاق فالكناية ترجع إلى غير مذكور. وجيء بـ «يَغْشاهَا» مضارعاً دون ما قبله وما بعده مراعاة للفواصل؛ إذ لو أتى به ماضياً لكان التركيب «إذ غشيها» فتفوت المناسبة اللفظية بين الفواصل والمقاطع.

قوله ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾. في «ما» هذه وجهان:

أحدهما: أن «ما» موصولة بمعنى «الذي» وبه استشهد من يجوز وقوعها على العقلاء، ولأن المراد به الباري تعالى، وإليه ذهب الحسن ومجاهد وأبو عبيدة، واختاره ابن جرير[٢].

والثاني: مصدر، أي وبنائها، وإليه ذهب الزجاج والمبرد، وهذا منهما بناء على أنها مختصة بغير العقلاء.

واعترض على هذا القول بأنه يلزم أن يكون القسم بنفس المصادر: بناء السماء وطحو الأرض، وتسوية النفس، وليس المقصود إلاً القسم بفاعل هذه الأشياء، وهو الرب تعالى، وأجيب عنه بوجهين:

أحدهما: أن يكون على حذف مضاف، أي: ورب بناء السماء ونحوه.

والثاني: أنه لا غرو لا يجوز في الإقسام بهذه الأشياء، كما أقسم سبحانه وتعالى بالصبح ونحوه.

وقال الزمخشري[٣]: «جعلت «ما» مصدرية في قوله «وما بناها»، «وما طحاها»، «وما سواها» وليس بالوجه، لقوله «فألهمها»، وما يؤدي إليه من فساد النظم، والوجه أن تكون موصولة، وإنما أوثرت على «من» لإرادة معنى الوصفية، كأنه قيل: والسماء والقادر العظيم الذي بناها، ونفسٍ والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها، وفي كلامهم: سبحان من سخركن لنا» انتهى.

[يعني أن الفاعل في «فألهمها» عائد على الله تعالى، فليكن في بنائها كذلك][٤].

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٥٠) عن مجاهد.

(٢) ينظر: جامع البيان ١٢/ ٦٠٠ ـ ٦٠١. (٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٥٩.

(٤) سقط من ب.

وحينئذ يلزم عوده على شيء، وليس هنا ما يمكن عوده عليه غير «ما» فتعين أن تكون موصولة.

قال أبو حيان: «أما قوله «وليس بالوجه»، لقوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ يعني من عود الضمير في ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ على الله تعالى، فيكون قد عاد على مذكور، وهو «ما» المراد به «الذي»، قال: ولا يلزم ذلك، لأنا إذا جعلناها مصدرية عاد الضمير على ما يفهم من سياق الكلام، في «بَنَاهَا» ضمير عائد على الله تعالى، أي: وبناها هو، أي: الله تعالى، كما إذا رأيت زيداً قد ضرب عمراً، فتقول: عجبت مما ضرب عمرو، تقديره: من ضرب عمرو هو، كان حسناً فصيحاً جائزاً، وعود الضمير على ما يفهمُ من سياق الكلام كثير.

وقوله «وما يؤدي إليه من فساد النظم» ليس كذلك، ولا يؤدي جعلها مصدرية إلى ما ذكر.

وقوله «وإنما أوثرت» إلى آخره، لا يراد بـ «ما» ولا «من» الموصولتين، معنى الوصلية[1]، لأنهما لا يوصف بهما «ما» دون «من».

وقوله «في كلامهم» إلى آخره، تأوله أصحابنا على أن «سبحان» علم، و «ما» مصدرية ظرفية».

قال شهاب الدين[2]: أما ما رد به عليه من كونه يعود على ما يفهم من السياق، فليس يصلح ردًّا؛ لأنه إذا دار الأمر بين عوده على ملفوظ وبين غير ملفوظ به، فعوده على الملفوظ به أولى؛ لأنه الأصل وأما قوله: فلا ينفرد به «ما» دون «من»، فليس مراد الزمخشري أنها توصف بها وصفاً صريحاً، بل مراده أنها تقع على نوع من يعقل وعلى صفته، ولذلك مثل النحويون بقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم﴾ [النساء: ٣].

وقالوا: تقديره: فانكِحُوا الطَّيِّب من النِّساءِ، ولا شك أن هذا الحكم تنفرد به «ما» دون «من».

قوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾. أي: وطحوها، وقيل: ومن طحاها: أي بسطها، قال عامة المفسرين: أي دحاها.

قال الحسن ومجاهد وغيرهما: طحاها ودحاها: واحد، أي: بسطها من كل جانب[3].

والطَّحْوُ: البسطُ، طحا، يطحو، طحواً، وطحى يطحى طحياً، وطحيت:

---

(١) في أ: الوصفية.
(٢) ينظر الدر المصون ٦/ ٥٣١.
(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٠١) عن مجاهد وابن زيد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٠١) عن قتادة وعزاه إلى عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

اضطجعت، عن أبي عمرو، وعن ابن عباس: طحاها: أي قسمها[1]، وقيل: خلقها؛ قال الشاعر: [الوافر]

٥٢٢٠ ـ وَمَا تَدْرِي جَذِيمَةُ مَنْ طَحَاهَا ... ولا مَنْ سَاكِنُ العَرْشِ الرَّفِيعِ[2]

قال الماوردي: ويحتمل أنه ما خرج منها من نبات وعيون وكنوز؛ لأنه حياة لما خلق عليها.

ويقال في بعض أيمان العرب: لا، والقمر الطاحي، أي: المشرق المرتفع.

قال أبو عمرو: طحا الرجل إذا ذهب في الأرض، يقال: ما أدري أين طحا؟.

ويقال: طحا به قلبه، إذا ذهب به في كلِّ شيء؛ قال علقمة: [الطويل]

٥٢٢١ ـ طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الحِسَانِ طَرُوب ....[3]

قال ابن الخطيب[4]: وإنما أخر هذا عن قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ لقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾.

قوله ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾. قيل: المعنى، وتسويتها، فـ «ما» مصدرية.

وقيل: المعنى، ومن سواها، وهو الله تعالى، قيل: المراد بالنفس: آدم عليه الصلاة والسلام.

وقيل: كلُّ نفس منفوسةٍ، فما التنكير إلا لتعظيمها، أي نفس عظيمة، وهي نفس آدم عليه الصلاة والسلام وإما للتكثير، كقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ [التكوير: ١٤]، و «سوَّى» بمعنى هيأ.

وقال مجاهد: سوَّى خلقها وعدَّل، وهذه الأسماء كلها مجرورة على القسم، أي أقسم الله تعالى بخلقه لما فيه من عجائب الصنعة الدالة عليه ـ سبحانه وتعالى ـ.

قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا﴾ أي: عرَّفها طريقَ الفجور والتقوى، قاله ابن عباس ومجاهد[5].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٠٦) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٠٠) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ينظر القرطبي ٢٠/ ٥.

(٣) صدر بيت لعلقمة الفحل، وعجزه:

يعيد الشباب عصر حان مشيب

ينظر ديوانه ص ٣٣، والأضداد ص ١٤٩، وخزانة الأدب ٤/ ٣٩٢، ١١/ ٢٨٩، وجمهرة اللغة ص ٩٩، ورصف المباني ص ٣٥٤، والمفضليات ص ٣٩١، وابن الشجري ٢/ ٢٦٧، ومعاهد التنصيص ١/ ٦٣، والدر المصون ٦/ ٥٣١.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ١٧٤.

(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٠١) عن ابن عباس وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وعن مجاهد أيضاً: عرفها الطاعة والمعصية[١].

[وعن محمد بن كعب ـ رضي الله عنه ـ إذا أراد الله تعالى لعبده خيراً ألهمه الخير فعمل به، وإذا أراد به الشر ألهمه الشرّ فعمل به[٢].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: ألهم المؤمن التقي تقواه وألهم الكافر فجوره[٣]، وعن قتادة: بين لها فجورها وتقواها[٤]، والفجور والتقوى مصدران في موضع المفعول][٥].

قال الواحدي: الإلهام هو أن يوقع الله في قلب العبد شيئاً، وإذا أوقع في قلبه فقد ألزمه إياه، من قولهم: لهم الشيء وألهمه: إذا بلغه، وألهمته ذلك الشيء، أي أبلغته، هذا هو الأصل ثم استعمل ذلك فيما يقذفه الله تعالى في قلب العبد لأنه كالإبلاغ.

قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾. فيه وجهان:

أحدهما: أنه جواب القسم، والأصل: لقد وإنما حذفت لطول الكلام، **والثاني**: أنه ليس بجواب، وإنما جيء به تابعاً لقوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم في شيء، فالجواب محذوف، تقديره [ليدمرنّ][٦] الله عليهم، أي: على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله ﷺ كما دمدم على ثمود لتكذيبهم صالحاً ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال معناه الزمخشري[٧]. وقدر غيره: لتبعثن.

وقيل: هو على التقديم والتأخير بغير حذف، والمعنى: قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها، والشمس وضحاها.

وفاعل «زكَّاها» و «دسَّاهَا»، الظاهر أنه ضمير «مَنْ».

وقيل: ضمير الباري تعالى، أي: أفلح وفاز من زكاها بالطاعة، وقد خاب من دساها أي: خسرت نفسٌ دسها الله تعالى بالمعصية، وأنحى الزمخشري على صاحب هذا القول لمنافرته مذهبه[٨].

قال شهاب الدين[٩]: والحق أنه خلاف الظاهر، لا لما قال الزمخشري، بل لمنافرة نظمه للاحتياج إلى عود الضمير على النفس مقيدة بإضافتها إلى ضمير «من».

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٠٢) عن ابن عباس ومجاهد والضحاك.
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٥١). (٣) ينظر المصدر السابق.
(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٠٢) عن قتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٠١) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٥) سقط من ب. (٦) في ب: فدمدم.
(٧) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٦٠. (٨) ينظر السابق.
(٩) الدر المصون ٦/ ٥٣٢.

وقال ابن عباس: خابت نفس أضلها الله وأغواها.

وقيل: أفلح من زكى نفسه بطاعة الله، «وخاب» خسر من دس نفسه في المعاصي. قاله قتادة.

وأصل الزكاة: النمو والزيادة، ومنه تزكى الزَّرع إذا كثر معه، ومنه تزكية القاضي الشاهد، لأنه يرفعه بالتعديل.

وقيل: دساها: أغواها، قال: [الطويل]

٥٢٢٢ ـ وأنتَ الَّذِي دسَّيتَ عَمْراً فأصْبحَتْ حَلائِلُهُ مِنْهُ أرَامِلَ ضُيَّعَا[1]

قال أهل اللغة: والأصل، دسها، من التدسيس [فكثرت الأمثال فأبدل من ثالثها حرف علة كما قالوا: قصيت أظفاري وأصله قصصت، وتقضي البازي، والتدسية: الإخفاء يعني أخفاه بالفجور، وقد نطق بالأصل الشاعر المتقدم. وقال آخر: [الكامل]

٥٢٢٣ ـ ودَسَسْتَ عَمْراً في التُّرابِ فأصْبَحَتْ ....[2][3]

[وهو إخفاء الشيء في الشيء، فأبدلت سينه ياءً. وقال ابن الأعرابي: «وقَدْ خَابَ من دسَّاهَا» أي: دس نفسه في جملة الصالحين وليس منهم][4].

قال الواحدي: فكأنه ـ تعالى ـ أقسم على فلاح من طهره وخسارة من خذله لئلا يظن أن المراد بتولي ذلك من غير قضاء سابق، فقوله: «قَدْ أفلَحَ»: هو جواب القسم.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾

قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾. في هذه الباء ثلاثة أوجه:

أحدها: أنها للاستعانة مجازاً، كقولك: «كتبت بالقلم»، وبه بدأ الزمخشري[5]، يعني فعلت التكذيب بطغيانها، كقولك: ظلمني بجرأته على الله تعالى.

والثاني: أنها للتعدية، أي كذبت بما أوعدت به من عذابها ذي الطغيان، كقوله تعالى: ﴿فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥] قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: وكان اسم

---

(١) ويروى الشطر الثاني:

نساؤهم منهم أرامل ضُيَّعُ

ينظر القرطبي ٢٠/ ٥٢، والبحر ٨/ ٤٧٢، والدر المصون ٦/ ٥٣١.

(٢) تقدم.

(٣) سقط من ب.

(٤) سقط من أ.

(٥) الكشاف ٤/ ٧٦٠.

العذاب الذي جاءها الطغوى، لأنه طغى عليهم[١]. قال ابن الخطيب[٢]: وهذا لا يبعد لأن الطغيان مجاوزة [الحد فسمي عذابهم طغوا لأنه كالصيحة مجاوزة][٣] للقدر المعتاد.

والثالث: أنها للسببية، أي: بسبب طغيانها، وهو خروجها عن الحدّ في العصيان قاله مجاهد وقتادة وغيرهما.

وقال محمد بن كعب: بأجمعها[٤].

وقيل: مصدر، وخرج على هذا المخرج، لأنه أشكل برءوس الآي.

وقيل: إن الأصل «بطُغيانِهَا» إلا أن «فُعلَى» إذا كانت من ذوات الياء أبدلت في الاسم واو ليفصل بين الاسم والوصف.

وقرأ العامة: «بطغواها» بفتح الطاء، وهو مصدر بمعنى الطغيان، وإنما قلبت الياء واواً لما تقدم، من الفرق بين الاسم والصفة، يعني أنهم يقرون ياء «فَعْلى» ـ بالفتح ـ صفة، نحو جريا، وصديا، ويقلبونها في الاسم، نحو «تَقْوى، وشَرْوى»، وكان الإقرار في الوصف، لأنه أثقل من الاسم والياء أخف من الواو، فلذلك جعلت في الأثقل.

وقرأ الحسن ومحمد[٥] **بن كعب والجحدري، وحماد**: بضم الطاء، وهو أيضاً مصدر، كالرُّجعى والحسنى، إلا أن هذا شاذ، إذ كان من حقه بقاء الياء على حالها، كالسُّقيا، وبابها، وهذا كله عند من يقول: «طغيت طغياناً» بالياء، فأما من يقول: «طغوت» بالواو فالواو أصل عنده. قاله أبو البقاء[٦]، وقد تقدم الكلام على اللغتين في البقرة.

قوله: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾. يجوز في «إذ» وجهان:

أحدهما: أن تكون ظرفاً لـ «كذبت».

والثاني: أن تكون ظرفاً للطغوى.

و «انبعثت» مطاوع بعثت فلاناً على الأمر فانبعث له، و «أشْقاهَا» فاعل «انبعَثَ» أي: نهض، والانبعاث: الإسراع، وفيه وجهان:

أحدهما: أن يراد به شخص معين، روي أن اسمه: قدار بن سالف.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٠٥) عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٠٢) وعزاه للطبري.

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ١٧٦. (٣) سقط من: ب.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٠٥) عن محمد بن كعب وينظر تفسير الماوردي (٦/ ٢٨٥) والقرطبي (٢٠/ ٥٢).

(٥) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٦٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩٨، والبحر المحيط ٨/ ٤٧٥، والدر المصون ٦/ ٥٣٢.

(٦) ينظر: الإملاء ٢/ ٢٨٨.

والثاني: أن يراد به جماعة قال الزمخشري(١): ويجوز أن يكونوا جماعة للتسوية في «أفعل» التفضيل، إذا أضيف بين الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، وكان يجوز أن يقول: «أشقَوها». وكان ينبغي أن يقيد، فيقول: إذا أضيف إلى معرفة، لأن المضاف إلى النكرة حكمه الإفراد والتذكير مطلقاً كالمقترن بـ «من».

فصل

قال رسول الله ﷺ: «إذ انبعَثَ أشْقاهَا: انبعث لهَا رجلٌ عزيزٌ عارمٌ، منيعٌ في أهلِهِ، مثلُ أبي زمعة» الحديث(٢).

وروي عن علي ـ رضي الله عنه ـ: أن النبي ﷺ: قال له: «أتَدْرِي من أشْقَى الأوَّلينَ»؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال عليه الصلاة والسلام: «عَاقرُ النَّاقَة»، ثم قال: «أتَدْرِي من أشْقَى الآخرينَ»؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «قَاتِلُكَ»(٣).

قوله: ﴿فَقَالَ لَهُمْ﴾. إن كان المراد بـ «أشْقاهَا» جماعة، فعود الضمير من «لهم» عليهم واضح وإن كان المراد به علماً بعينه، فالضمير من «لهم» يعود على «ثمود»، والمراد برسول الله يعني: صالحاً.

وقوله تعالى: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ منصوب على التحذير، أي احذروا ناقة الله فلا تقربوها، وإضمار الناصب هنا واجب لمكان العطف، فإن إضمار الناصب يجب في ثلاثة مواضع:

أحدها: أن يكون المحذر نفس «إياك» وبابه.

الثاني: أنه يجب فيه عطف.

الثالث: أنه يوجد فيه تكرار، نحو «الأسد الأسد والصبيَّ الصبيَّ، والحذرَ الحذرَ».

وقيل: ذروا ناقة الله، كقوله تعالى: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٦٤]. وقرأ زيد بن علي: «ناقةُ اللَّهِ» رفعاً، على إضمار مبتدأ مضمر، أي: هذه ناقة الله فلا تتعرضوا لها.

---

(١) الكشاف ٤/ ٧٦٠.

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٥٧٥) كتاب التفسير: باب سورة والشمس رقم (٤٩٤٢) ومسلم (٤/ ٢١٩١) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها: باب النار يدخلها الجبارون حديث (٤٩/ ٢٨٥٥) وأحمد (٤/ ١٧) والترمذي (٥/ ٤١٠) رقم (٣٣٤٣) والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٥١٥) والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٠٥) من حديث عبد الله بن زمعة وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٧٠٢) وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه.

(٣) له شاهد من حديث عمار بن ياسر ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٠٢) وعزاه إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه والبغوي وأبي نعيم في «الدلائل».

قوله: ﴿وَسُقۡيَٰهَا﴾. أي ذروها وشربها، فإنهم لما اقترحوا الناقة، أخرجها لهم من الصخرة وجعل لهم شرب يوم من بئرهم، ولها شرب يوم مكان ذلك، فشق عليهم، فكذبوه يعني صالحاً ـ عليه الصلاة والسلام ـ في وعيدهم بالعذاب.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي: عقرها الأشقى، وأضاف إلى الكل، لأنهم رضوا بفعله.

قال قتادة: بلغنا أنه لم يعقر حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم[(١)].

وقال الفراء: عقرها اثنان، والعرب تقول: هذان أفضل الناس، وهذا خير الناس، وهذه المرأة أشقى القوم، فلهذا لم يقل: أشقياها.

قوله: ﴿فَدَمۡدَمَ﴾. الدمدمة: قيل: الإطباق، يقال: دمدمت عليه القبر، أي: أطبقته عليه، أي: أهلكهم وأطبق عليهم العذاب ﴿بِذَنۢبِهِمۡ﴾ الذي هو الكفر والتكذيب والعقر.

وقال المؤرج: الدمدمة: الإهلاك باستئصال.

وروى الضحاك عن ابن عباس: «دمدم عليهم، دمر عليهم ربهم «بذَنبهِم» أي: بجرمهم»[(٢)].

وقال الفراء: «فَدمْدمَ» أي: أرجف. وحقيقة الدمدمة: تضعيف العذاب وترديده، ويقال: دممت على الشيء: أي: أطبقت عليه، فإذا كرر الإطباق قلت: دمدمت. وفي «الصحاح»[(٣)]: ودمدمت الشيء: إذا ألصقته بالأرض وطحطحته.

[قال القشيري: وقيل دمدمت على الميت التراب أي سويته عليه، والمعنى على هذا فجعلهم تحت التراب فسواها أي فسوى عليهم الأرض، وعلى الأول: فسواها: أي فسوى الدمدمة، وقيل: الدمدمة حكاية صوت الهدة، وذلك أن الصيحة أهلكتهم فأتت على صغيرهم وكبيرهم][(٤)].

وقال ابن الأنباري: دمدم: أي: غضب، والدمدمة: الكلام الذي يزعج الرجل ودمدمت الثوب طليته بالصبغ والباء في بذنبهم للسببية.

وقرأ ابن الزبير: «فدهدم» بهاء بين الدالين بدل الميم[(٥)]، وهي بمعنى القراءة المشهورة.

قال القرطبي[(٦)]: «وهما لغتان، كما يقال: امتقع لونه، وانتقع».

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦٠٦) عن قتادة.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/٥٣). (٣) ينظر الصحاح ٥/ ١٩٢١ (دمم).

(٤) سقط من ب.

(٥) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٤٨٩، والبحر المحيط ٨/ ٤٧٦، والدر المصون ٦/ ٥٣٣.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٥٣.

قوله: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾. الضمير المنصوب يجوز عوده على «ثمود» باعتبار القبيلة كما أعاده في قوله تعالى ﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾ ويجوز عوده على «الدمدمة» والعقوبة أي: سواها بينهم، فلم يفلت منهم أحد.

قوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾. **قرأ نافع**[١] **وابن عامر**: «فَلاَ» بالفاء، والباقون: بالواو، ورسمت في مصاحف المدينة والشام بالفاء، وفي غيرها بالواو، فقد قرأ كل بما يوافق رسم مصحفه.

وروي أن رسول الله ﷺ كان يقرأ: ولم يخف، وهي مؤيدة لقراءة الواو. ذكره الزمخشري[٢].

فالفاء تقتضي التعقيب، وهو ظاهر، والواو يجوز أن تكون للحال، وأن تكون لاستئناف الإخبار.

قال القرطبي[٣]: روي أن ابن وهب وابن القاسم قالا: أخرج إلينا مالك مصحفاً لجده، وزعم أنه كتبه في أيام عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ حين كتب المصاحف، وفيه: «وْلاَ يَخافُ» بالواو وكذا هي في مصاحف أهل مكة والعراق: بالواو، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم.

وضمير الفاعل في «يَخافُ» الأظهر عوده على الرب تبارك وتعالى، لأنه أقرب مذكور، وهو قول ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد، والهاء في «عُقْباهَا» ترجع إلى الفعلة، وذلك لأنه تعالى يفعل ذلك بحق، وكل من فعل فعلاً بحق فإنه لا يخاف عاقبة فعله.

وقيل: المراد تحقيق ذلك الفعل والله تعالى أجل من أن يوصف بذلك.

وقيل: المعنى أنه بالغ في الإعذار إليهم مبالغة من لا يخاف عاقبة عذابهم.

وقيل: يرجع إلى رسول الله، أي: لا يخاف صالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ عقبى هذه العقوبة لإنذاره إياهم، ونجاه الله حين أهلكهم.

وقال السديُّ والضحاك والكلبي: إن الضمير يرجع إلى «أشْقاهَا»، أي: انبعث لعقرها والحال أنه غير خائف عاقبة هذه الفعلة الشنعاء، وهو مروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أيضاً[٤].

في الكلام تقديم وتأخير: إذ انبعث أشقاها ولا يخاف عقباها، وعقبى الشيء: خاتمته.

وروى الثعلبي عن أبيٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ فكأنَّما تصدَّق بِكُلِّ شيءٍ طَلعتْ عليْهِ الشَّمسُ والقَمرُ»[٥].

---

(١) ينظر: السبعة ٦٨٩، والحجة ٦/ ٤٢٠، وإعراب القراءات ٢/ ٤٩١، وحجة القراءات ٧٦٦.

(٢) الكشاف ٤/ ٧٦١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٥٤.

(٤) ينظر القرطبي.(٢٠/ ٥٣).

(٥) تقدم تخريجه.

سورة الليل

مكيّة، وقيل: مدنيّة، وهي إحدى وعشرون آية، وإحدى وسبعون كلمة، وثلاثمائة وعشرة أحرف.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ (١) وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ (٣) إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ (٤)﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾. أي: يغطي، ولم يذكر مفعولاً، للعلم به.

وقيل: يغشى النهار.

وقيل: الأرض.

قال قتادة: أول ما خلق الله تعالى النور والظلمة ثم ميز بينهما، فجعل الظلمة ليلاً أسود مظلماً، والنور نهاراً والنهار مضيئاً مبصراً[1].

قال ابن الخطيب[2]: أقسم بالليل الذي يأوي فيه كل حيوان إلى مأواه وتسكن الخلق عن الاضطراب، ويجيئهم النوم الذي جعله الله تعالى راحة لأبدانهم وغذاء لأرواحهم ثم أقسم تعالى بالنهار إذا تجلى، لأن النهار إذا كشف بضوئه ما كان في الدنيا من الظلمة، جاء الوقت الذي يتحرك فيه الناس لمعاشهم والطير والهوام من مكانها، فلو كان الدهر كله ليلاً لتعذر المعاش، ولو كان كله نهاراً لبطلت الراحة، لكن المصلحة في تعاقبهما، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً﴾ [الفرقان: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣]، فقوله ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ أي: انكشف وظهر وبان بضوئه عن ظلمة الليل. وقرأ العامة: «تَجَلّي» فعلاً ماضياً، وفاعله ضمير عائد على النهار.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٠٩) عن قتادة.

(٢) الفخر الرازي ٣١/ ١٧٩.

وقرأ[1] **عبد الله بن عمير**: «تتجلى» بتاءين، أي: الشمس، **وقرأ**: «**تُجْلِي**»[2] بضم التاء وسكون الجيم أي: الشمس أيضاً، ولا بد من عائد على النهار محذوف أي: تتجلى أو تجلى فيه.

قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ﴾. يجوز في «ما» أن تكون بمعنى «من» على ما تقدم في سورة «والشمس».

قال الحسن: معناه، والذي خلق فيكون قد أقسم بنفسه تعالى[3].

وقيل: مصدرية.

قال الزمخشري[4]: «والقادر: العظيم القدرة الذي قدر على خلق الذكر والأنثى من ماء واحد»، وقد تقدم هذا القول، والاعتراض عليه، والجواب عنه في السورة قبلها.
وقرأ أبو الدرداء[5]: «والذكر والأنثى»، وقرأ عبد الله[6]: «والذي خلق»، **وقرأ الكسائي، ونقلها**[7] **ثعلبة عن بعض السلف**: ﴿**وَمَا خَلَقَ الذَّكَرِ**﴾ بجر الذكر.

قال الزمخشري[8]: «على أنه بدل من محل ما خلق بمعنى وما خلقه الله، أي: ومخلوق الله الذكر والأنثى، وجاز إضمار اسم الله لأنه معلوم بالخلق، إذ لا خالق سواه».

وقيل: المعنى، وما خلق من الذكر والأنثى، فتكون «من» مضمرة، ويكون القسم منه بأهل طاعته، من أنبيائه وأوليائه ويكون قسمه بهم تكريماً لهم وتشريفاً.

قال أبو حيان[9]: وقد يخرج على توهم المصدر، أي: وخلق الذكر؛ كقوله: [المتقارب]

٥٢٢٤ ـ تَطُوفُ العُفَاةُ بِأَبْوابِهِ ... كَمَا طَافَ بِالبَيْعَةِ الرَّاهِبِ[10]

بجر «الراهب» على توهم النطق بالمصدر، أي: كطوف الراهب انتهى.

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٧٧، والدر المصون ٦/ ٥٣٤.
(٢) ينظر السابق.
(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦١٠).
(٤) الكشاف ٤/ ٧٦١.
(٥) وزعم الزمخشري وغيره أنها قراءة النبي ﷺ ينظر: الكشاف ٤/ ٧٦١، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩٠، والبحر المحيط ٨/ ٤٧٧ وقال أبو حيان: «وما ثبت في الحديث من قراءة «والذكر والأنثى» نَقْلُ آحاد، مخالف للسواد؛ فلا يعد قرآناً»، وينظر: الدر المصون ٦/ ٥٣٤.
(٦) ينظر: الدر المصون ٦/ ٥٣٤.
(٧) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٠، والبحر المحيط ٨/ ٤٧٧، والدر المصون ٦/ ٥٣٤.
(٨) الكشاف ٤/ ٧٦٢.
(٩) ينظر البحر المحيط ٨/ ٤٧٧.
(١٠) ويروى الشطر الثاني:

كطوف النصارى ببيت الوثن

ينظر ديوان الأعشى ص ٢٠٩، والبحر ٨/ ٤٧٧، والدر المصون ٦/ ٥٣٥.

والذي يظهر في تخريج البيت أن أصله: الراهبي ـ بياء النسب ـ ثم خفف، وهو قليل، كقولهم: أحمري، وداودي، وهذا التخريج بعينه في قول امرىء القيس: [الطويل]

٥٢٢٥ ـ .... فَقِلْ في مَقِيلٍ نَحسهُ مُتغيِّبِ[١]

لما استشهد به الكوفيون على تقديم الفاعل.

وروي عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه كان يقرأ: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ والذَّكَرِ والأنثى﴾ ويسقط ﴿وَمَا خَلَقَ﴾.

وفي صحيح مسلم عن علقمة، قال: قدمنا «الشام»، فأتانا أبو الدرداء، فقال: فيكم أحد يقرأ عليّ قراءة عبد الله؟ فقلت: نعم، أنا، قال: فكيف سمعت عبد الله يقرأ هذه الآية: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾؟ قال: سمعته يقرأ «والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى، والذكر والأنثى» قال: وأنا والله هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها، ولكن هؤلاء يريدون أن أقرأ «ومَا خَلَقَ» فلا أتابعهم[٢].

وقال ابن الأنباري: حدثنا محمد بن يحيى المروزي بسنده إلى عبد الله، قال: أقرأني رسول الله ﷺ: «إنّي أنَا الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المتينُ»[٣].

قال ابن الأنباري: كل من هذين الحديثين مردود بخلاف الإجماع له، وإن حمزة وعاصماً يرويان عن عبد الله بن مسعود فيما عليه جماعة من المسلمين، وموافقة الإجماع أولى من الأخذ بقول واحد يخالفه الإجماع.

فصل في المراد بالذكر والأنثى

قيل المراد بالذكر والأنثى، آدم وحواء ـ عليهما الصلاة والسلام ـ قاله ابن عباس والحسن والكلبي[٤].

وقيل: جميع الذكور والإناث من جميع الحيوانات.

---

(١) عجز بيت وصدره:

فَظَلَّ لنا يومٌ لَذِيذٌ بِنَعْمَةٍ

ينظر ديوان امرىء القيس ص (٣٧)، وشرح جمل الزجاجي لابن عصفور ١/ ١٦٠، والدر المصون ٦/ ٥٣٥.

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٥٧٧) كتاب التفسير، باب: والنهار إذا تجلى رقم (٤٩٤٣)، وأحمد (٦/ ٤٤٩) والترمذي (٥/ ١٧٥) رقم (٢٩٣٩) والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٥١٦) والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦١٠) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٠٤) وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٥٥) وعزاه إلى ابن الأنباري.

(٤) ينظر تفسير الماوردي (٦/ ٢٨٧) والقرطبي (٢٠/ ٥٦).

وقيل: كل ذكر وأنثى من الآدميين فقط لاختصاصهم بولاية الله تعالى وطاعته.

فصل في معنى الآية

وقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾. هذا جواب القسم، والمعنى: إن أعمالكم لتختلف، [ويجوز أن يكون محذوفاً كما قيل في نظائره المتقدمة، وشتى واحدهُ شتيت مثل مريض ومرضى، وإنما قيل للمختلف: شتَّى؛ لتباعد ما بين بعضه وبعضه، أي إن أعمالكم المتباعدة بعضه عن بعض لشتى، لأن بعضه ضلالة وبعضه هدى أي: فمنكم مؤمن، وبر، وكافر، وفاجر، ومطيع، وعاص.

وقيل: لشتَّى أي: لمختلف الجزاء فمنكم مثاب بالجنة ومعاقب بالنار وقيل لمختلف الأخلاق، فمنكم راحم وقاسي وحليم وطائش وجواد وبخيل][1].

قال المفسرون: نزلت هذه الآية في أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وأبي سفيان.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾﴾

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾. قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يعني أبا بكر[2]، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ أي: بذل واتقى محارم الله التي نهي عنها ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي: بالخلف من الله تعالى على عطائه ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾.

قال رسول الله ﷺ: «مَا مِن يَوم غَربت شَمْسهُ إلا بُعِثَ بجَنْبتها مَلكَانِ يُنَادِيانِ يَسْمَعُهمَا خلقُ اللَّهِ كُلُّهم إلاَّ الثَّقلَيْنِ: اللَّهُمَّ أعْطِ مُنفِقاً خَلفاً، وأعْطِ مُمْسِكاً تَلفاً»[3].

وأنزل الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾... الآيات.

فصل

حذف مفعول «أعطى» ومفعول «اتقى»، ومفعول «صدّق» المجرور بـ «على»، لأن الغرض ذكرُ هذه الأحداث دون متعلقاتها، وكذلك متعلقات البخل والاستغناء، وقوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ إما من باب المقابلة لقوله ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ وإما نيسرهُ: بمعنى نهيئه، والتهيئة تكون في العسر واليسر.

---

(١) سقط من: ب.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٠٥) وعزاه إلى ابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن عساكر عن ابن مسعود.

(٣) أخرجه البخاري (٣/ ٣٠٤) كتاب الزكاة، باب: قوله تعالى فأما من أعطى واتقى رقم (١٤٤٢) ومسلم (٢/ ٧٠٠) كتاب الزكاة، باب: في المنفق والممسك حديث (٥٧/ ١٠١٠) من حديث أبي هريرة.

فصل في المراد بالإعطاء

قال المفسرون: «فأمَّا منْ أعْطَى» المعسرين.

وقال قتادة: أعطى حق الله الواجب(١).

وقال الحسن: أعطى الصدق من قلبه وصدق بالحسنى، أي بلا إله إلا الله، وهو قول ابن عباس والضحاك والسلمي رضي الله عنهم(٢).

وقال مجاهد: بالجنة؛ لقوله تعالى ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾(٣) [يونس: ٢٦].

وقال زيد بن أسلم: في الصلاة والزكاة والصوم(٤).

وقوله: «فسنيسره لليسرى» أي نرشده لأسباب الخير والصلاح حتى يسهل عليه فعلها.

وقال زيد بن أسلم: لليسرى؛ للجنة.

قال رسول ﷺ: «مَا مِن نَفسٍ منفُوسةٍ إلاَّ كتَبَ اللَّهُ ـ تَعالَى ـ مَدخَلهَا» فقال القَوْمُ: يَا رسُولَ اللَّهِ، أفَلا نَتَّكِلُ على كِتابِنَا؟ فقَال ـ عليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ: «بَل اعمَلُوا فكُلٌّ مُيسَّرٌ، فمن كَانَ من أهْلِ السَّعادةِ فإنَّهُ مُيَسَّرٌ لعملِ أهْلِ السَّعادةِ، ومن كَانَ مِنْ أهْلِ الشَّقاوةِ فإنَّهُ ميسَّرٌ لعملِ أهْلِ الشَّقاوةِ» ثُمَّ قَرَأ: «فأما من أعْطَى واتَّقَى، وصَدقَ بِالحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى»(٥).

قوله: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾. أي: ضنَّ بما عنده فلم يبذل خيراً، وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾، قال: سوف أحول بينه وبين الإيمان بالله وبرسوله.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال نزلت في أمية بن خلف. وعن ابن عباس: «وأمَّا من بَخِلَ واسْتَغنَى»، أي: بخل بماله واستغنى عن ربه ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي: بالخلف الذي وعده الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾(٦) [سبأ: ٣٩].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦١٣) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٠٥) وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٢٨٨) والقرطبي (٢٠/ ٥٦).

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٠٥) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦١٢، ٦١٣) عن ابن عباس وأبي عبد الرحمن السلمي والضحاك.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٠٥) عن أبي عبد الرحمن السلمي وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٥) تقدم.

(٦) أخرجه الطبري «تفسيره» (١٢/ ٦١٤) عن ابن عباس.

[وقال مجاهد: وكذب بالحسنى أي بالجنة، وعنه: بلا إله إلا الله[(١)]. فنيسره للعسرى أي نسهل عليه طريقة العسرى للشر، وعن ابن مسعود: أي للنار][(٢)].

قوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ يدل على أن التوفيق والخذلان من الله تعالى لأن التيسير يدل على الرجحان ولزم الوجوب، لأنه لا واسطة بين الفعل والترك، ومع الاستواء لا ترجيح فحال المرجوحية أولى بالامتناع، ومتى امتنع أحد الطرفين وجب الآخر إذ لا خروج عن النقيضين. أجاب القفال[(٣)]: أنه من باب تسمية أحد الضدين باسم الآخر، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ﴾ [الشورى: ٤٠] فسمى الله الألفاظ الداعية إلى الطّاعة تيسيراً لليسرى، وسمى ترك هذه الألفاظ تيسيراً للعسرى، أو هو من باب إضافة الفعل إلى السبب دون الفاعل، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا﴾ [إبراهيم: ٣٦]، أو يكون على سبيل الحكم، والإخبار عنه.

وأجيب بأن هذا كلهُ عدول عن الظاهر، والظاهر من جهتنا وهو المقصود من الحديث المتقدم: «مَا مِنْ نَفْسٍ مَنفوسةٍ».

قال القفال[(٤)]: معنى الحديث: أن النّاس خلقوا للعبادة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وهذا ضعيفٌ؛ لأن هذا جواب عن قولهم: «ألا نتّكل»؟ فقال: اعملوا فكلٌّ ميسر، لما وافق معلوم الله تعالى.

فصل في اليسرى والعسرى

التأنيثُ في «اليُسرَى» و «العُسرَى» إن أريد جماعة الأعمال فظاهر، وإن أريد عمل من الأعمال باعتبار الخصلة، أو الفعلة، أو الطريقة، فمن فسر اليسرى بالجنة، فتيسيرها بإكرام، وسهولة، ومن فسرها بالخير، فتيسيره حضّه عليه ونشاطه، بخلاف المنافق والمرائي، ودخلت السين في «فَسنُيسِّرهُ» بمعنى الترجي، وهذا يفيد القطع من الله تعالى، أو لأن الأعمال بالخواتيم، فقد يعصي المطيع، وبالعكس، أو لأن أكثر الثواب يكون بالآخرة، وهي متأخرة.

قوله: ﴿وَمَا يُغْنِى﴾، يجوز أن تكون «ما» نافية، أي: لا يغني عنه ماله شيئاً، وأن تكون استفهاماً إنكارياً، أي: أيُّ شيء يغني عنه ماله إذا هلك، ووقع في جهنم وتردى، ويروى إما من الهلاك يقال: ردي الرجل يردى، إذا هلك؛ قال: [الطويل]

٥٢٢٦ ـ صَرَفْتُ الهَوَى عَنهُنَّ مِنْ خَشْيةِ الرَّدَى[(٥)]

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦١٥) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٠٥) وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) سقط من ب.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ١٨٢.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ١٨٢.

(٥) ينظر القرطبي ٥٨/١٩.

وقال أبو صالح وزيد بن أسلم: تردى: أي سقط في جهنم، ومنه «المتردية»، ويقال: ردي من في البئر وتردى: إذا سقط في بئر أو نهر أو من جبل، ويقال: ما أدري أين ردى أي أين ذهب.

ويحتمل أن يكون من تردى، وهو كناية عن الموت؛ كقوله: [الكامل]

٥٢٢٧ ـ وخُطًا بأطْرافِ الأسنَّةِ مَضجعِي ورُدًا عَلى عينيَّ فضلَ رِدائيَا[1]

وقول الآخر: [الطويل]

٥٢٢٨ ـ نَصِيبُكَ ممَّا تَجمعُ الدَّهرَ كُلَّهُ رِداءانِ تُلْوَى فِيهِمَا وحَنُوطُ[2]

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾

قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾، أن نبين طريق الهدى، من طريق الضلال، فالهدى بمعنى بيان الأحكام قاله الزجاجُ: أي: على الله بيان حلاله، وحرامه، وطاعته ومعصيته، وهو قول قتادة.

وقال الفراءُ: من سلك الهدى، فعلى الله سبيله، كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]، وقيل: معناه إنَّ علينا للهدى والإضلال، فترك الإضلال كقوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقوله تعالى ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ وهي تقي الحرَّ وهي تقي البرد، قاله الفراء أيضاً. وهو يروى عن ابن عباس رضي الله عنه.

فصل

لما عرفهم سبحانه أن سعيهم شتى، وبين ما للمحسنين من اليسرى، وللمسيئين من العسرى أخبرهم أنه قد مضى ما عليه من البيان، والدلالة، والترغيب، والترهيب، أي: إن الذي يجب علينا في الحكمة إذا خلقنا الخلق للعبادة أن نبين لهم وجوه التعبد، ونبين المتعبد به.

قالت المعتزلة: إباحة الأعذار تقتضي أنه تعالى كلفهم بما في وسعهم وطاقتهم.

وأيضاً فكلمة «على» للوجوب، وأيضاً: فلو لم يستقل العبد بالإيجاد، لم يكن في نصب الأدلة فائدة، وجوابهم قد تقدم.

وزاد الواحديُّ: أن الفراء، قال: إن معنى: إن علينا للهدى والإضلال، فحذف المعطوف كقوله تعالى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، وهو معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما، يريد: أرشد أوليائي للعمل بطاعتي، وأحول بين أعدائي أن

(١) البيت لمالك بن الريب التميمي ينظر الجمهرة (٦١٠)، والبحر ٨/ ٤٧٨، والدر المصون ٦/ ٥٣٥.
(٢) ينظر البحر ٨/ ٤٧٨ والدر المصون ٦/ ٥٣٥.

يعملوا بطاعتي، وهو معنى الإضلال، ورد المعتزلة هذا التأويل بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ [النحل: ٩]، وتقدم جوابهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾، أي: لنا كل ما في الدنيا، والآخرة، فلا يضرنا ترككم الاهتداء بهدانا، ولا يزيد في ملكنا اهتداؤكم بل نفع ذلك وضره عائدان عليكم، ولو شئنا لمنعناكم عن المعاصي لكن ذلك يخل بالتكليف، بل نمنعكم بالبيان والتعريف، والوعد والوعيد، ونكون نحن نملك الدارين، فليطلب منا سعادة الدارين؛ فالأول أوفق لقول المعتزلة، والثاني أوفق لقولنا.

وروى أبو صالح عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: ثواب الدنيا والآخرة، وهو كقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤] فمن طلبهما من غير مالكهما فقد أخطأ الطريق[(١)].

قوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾. قد تقدم في «البقرة»: أن البزي يشدد[(٢)] مثل هذه التاء، والتشديد فيها عسر لالتقاء الساكنين فيهما على غير حدهما، وهو نظير قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ [النور: ١٥] وقد تقدم.

وقال أبو البقاء[(٣)]: يقرأ بكسر التنوين، وتشديد التاء، وقد ذكر وجهه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ﴾ [البقرة: ٢٦٧] انتهى. وهذه قراءة غريبة، ولكنها موافقة للقياس من حيث إنه لم يلتق فيها ساكنان وقد ذكر وجهه، أي الذي قاله في «البقرة»، ولا يفيد هنا شيئاً ألبتة فإنه قال هناك: «ويقرأ بتشديد التاء، وقبله ألف، وهو جمع بين ساكنين، وإنما سوغ ذلك المد الذي في الألف».

وقرأ ابنُ الزبير، وسفيان[(٤)]**، وزيد بن علي، وطلحة**: «تتَلظَّى» بتاءين وهو الأصل.

قال القرطبي[(٥)]: «وهي قراءة عبد الله بن عمير ويحيى بن يعمر».

فصل في معنى الآية

المعنى: خوفتكم، وحذرتكم ناراً تلظى، أي: تلهّب، وتوقّد، وتوهّج، يقال: تلظت النار تلظياً، ومنه سميت جهنم: لظى.

قوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾، أي: لا يجد صلاها، وهو حرها ﴿إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾، أي: الشقي.

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (٢٠/ ٥٨).

(٢) ينظر: السبعة ٦٩٠، والحجة ٦/ ٤٢١، وإعراب القراءات ٢/ ٤٩٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩٢، والبحر المحيط ٨/ ٤٧٨، والدر المصون ٦/ ٥٣٥.

(٣) ينظر: الإملاء ٢/ ٢٨٨.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٢، والبحر المحيط ٨/ ٤٧٨، والدر المصون ٦/ ٥٣٥.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٥٩.

قيل: الأشقى، والأتقى، بمعنى الشقي والتقي، ولا تفضيل فيهما، لأن النار مختصة بالأكثر شقاء، وتجنبها ليس مختصاً بالأكثر تقوى.

وقيل: بل هما على بابهما، وإليه ذهب الزمخشريُّ، فإنه قال[١]: فإن قلت: كيف قال: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾، وقد علم أن كلَّ شقي يصلاها، وكل تقي يجنبها، لا يختص بالصليّ أشقى الأشقياء، ولا بالنجاة أتقى الأتقياء، وإن زعمت أنه نكَّر النار، فأراد ناراً بعينها مخصوصة بالأشقى، فما تصنع بقوله ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ فقد علم أن أفسق المسلمين يجنب تلك النار المخصوصة، لا الأتقى منهم خاصة.

قلت: الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين، وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين؛ فقيل: الأشقى، وجعل: مختصاً بالصلي كأن النار لم تخلق إلا له. وقيل: الأتقى، وجعل مختصاً بالنجاة، كأن الجنة لم تخلق إلا له، وقيل: هما أبو جهل وأمية بن خلف وأبو بكر ـ رضي الله عنه.

قال: جوابه المراد بهما شخصان معينان. انتهى.

فصل

قال المفسرون: المراد بالأشقى، والشقي: الذي «كذَّب» نبي الله ﷺ «وتولَّى» أعرض عن الإيمان.

وقال الفرَّاءُ: معناه إلاَّ مَنْ كان شقياً في علمِ الله تعالى.

قال بعضهم: «الأشْقَى» بمعنى الشقي؛ كقوله: [الطويل]

٥٢٢٩ ـ .... لَسْتُ فِيهَا بِأوْحَدِ[٢]

«بأوحد»، أي: بواحد، ووحيد، ويوضع «أفعل» موضع «فعيل» نحو قولهم: «اللَّهُ أكْبَرُ» بمعنى كبير وهو أهون عليه بمعنى هين، قالت المرجئة: الآية تدل على أن الوعيد مختص بالكافر.

والجواب: المعارضة بآيات الوعيد.

وأيضاً: فهذا إغراء بالمعاصي، وأيضاً، فقوله تعالى بعده: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ يدل على ترك هذه الظاهرة؛ لأن الفاسق ليس «بأتقى» فالمراد بقوله تعالى: ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ أنها مخصوصة من بين النيران؛ لأن النار دركات، ولا يلزم من هذا أنَّ الفاسق لا يدخل النَّار أصلاً، والمراد لا يصلاها بعد الاستحقاق.

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٦٣، ٧٦٤.

(٢) عجز بيت لطرفة بن العبد وتمامه:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

ينظر القرطبي ٢٠/ ٥٩.

وأجاب الواحديُّ: بأن معنى «لا يَصْلاهَا»: لا يلزمها، وهذه الملازمة لا تثبت إلا للكافر.

قوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾، أي: يبعد عنها الأتقى، أي: التقي الخائف.

قال ابن عباس: وهو أبو بكر ـ رضي الله عنه[١] ـ، ثم وصف الأتقى، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ أي: يطلب أن يكون عند الله زاكياً، ولا يطلب بذلك رياء، ولا سمعةً بل يتصدق به مبتغياً به وجه الله.

قوله: «يَتَزكَّى». قرأ العامة: «يتزكّى» مضارع «تزكّى».

والحسن[٢] بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم ـ: «يزكّى» بإدغام الياء في الزاي، وفي هذه الجملة وجهان:

أحدهما: أنها في موضع الحال من فاعل «يُؤتِي»، أي: يؤتيه متزكياً به.

والثاني: أنها لا موضع لها من الإعراب على أنها بدل من صلة «الَّذي»، ذكرهما الزمخشري[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾، أي: ليس يتصدق ليجازى على نعمة بل يبتغي وجه ربه الأعلى، أي: المتعالي، و «تجزى» صفة لـ «نِعْمَة»، أي: يجزى الإنسان، وإنَّما جيء به مضارعاً مبنياً للمفعول، لأجل الفواصل؛ إذ الأصل: يجزيها إياه أو يجزيه إياها.

قوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ﴾. في نصب «إلاّ ابتِغَاءَ» وجهان:

أحدهما: أنه مفعول له قال الزمخشري[٤]: «ويجوز أن يكون مفعولاً له على المعنى؛ لأن المعنى: لا يؤتي ماله إلا ابتغاء وجه ربه، لا لمكافأة نعمة». وهذا أخذه من قول الفراءِ، فإنه قال: ونصب على تأويل: ما أعطيتك ابتغاء جزائك، بل ابتغاء وجه الله تعالى.

والثاني: أنه منصوب على الاستثناء المنقطع، إذ لم يندرج تحت جنس «مِنْ نِعْمةٍ» وهذه قراءة العامة، أعني: النصب، والمد.

وقرأ يحيى[٥]: برفعه ممدوداً على البدل من محل «نِعْمَةٍ»؛ لأن محلها الرفع، إما على الفاعلية، وإما على الابتداء، و «من» مزيدة في الوجهين، والبدل لغة تميم؛ لأنهم يجرون المنقطع في غير الإيجاب مجرى المتصل، وأنشد الزمخشري[٦] بالوجهين: النصب؛ والبدل قول بشر بن أبي خازم: [البسيط]

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٠٧) وعزاه إلى ابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٧٩، والدر المصون ٦/ ٥٣٦.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٦٤.

(٤) السابق ٤/ ٧٦٥.

(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٧٩، والدر المصون ٦/ ٥٣٦.

(٦) الكشاف ٤/ ٧٦٤.

٥٢٣٠ ـ **أَضْحَتْ خَلاَءً قِفَاراً لا أَنِيسَ بِهَا إلاَّ الجَآذِرَ والظُّلْمَانَ تَخْتَلِفُ**[١]

وقول القائل في الرفع: [الرجز]

٥٢٣١ ـ **وبَلْدَةٍ لَيْسَ بِهَا أنيسُ إلاَّ اليَعَافِيرُ وإلاَّ العِيسُ**[٢]

وفي التنزيل: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦].

وقال مكي: «وأجاز الفرَّاءُ الرفع في «ابتغاء» على البدل من موضع «نعمة»، وهو بعيد».

قال شهاب الدين[٣]: «كأنه لم يطلع عليها قراءة، واستبعاده هو البعيد، فإنها لغة فاشية».

وقرأ ابن أبي[٤] **عبلة**: «ابتغا» بالقصر.

فصل في سبب نزول الآية

روى عطاء، والضحاك عن ابن عباس، قال: عذَّب المشركون بلالاً، وبلال يقول: أحدٌ أحدٌ فمرَّ النبي ﷺ فقال: «أَحَدٌ، يعني اللَّهُ يُنْجِيْكَ بِهَا»، ثم قال رسول الله ﷺ لأبي بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ: «يا أَبَا بكرٍ إنَّ بلالاً يُعذَّبُ في اللَّهِ»، فعرفَ أبو بكرٍ الذي يُريدهُ رسُول اللَّهِ ﷺ فانصرفَ إلى مَنْزلِهِ، فأخذَ رَطْلاً مِنْ ذهبٍ ومضى به إلى أمية بن خلفٍ، فقال له: أتبيعني بلالاً؟ قال: نعم، فاشتراه، فأعتقه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ لا ليدٍ كانت له عنده، فنزلت ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ﴾، أي: عند أبي بكر «مِنْ نِعمَةٍ» أي: مزية ومنّةٍ «تُجْزَى» بل ابتغى بما فعل وجه ربِّه الأعلى[٥].

قال بعضهم: المراد ابتغاء ثوابه وكرامته لأن ابتغاء ذاته محال، وقال بعضهم: لا حاجة إلى هذا الإضمار، بل حقيقة هذه المسألة ترجع إلى أن العبد هل يمكن أن يحب ذات الله، والمراد من هذه المحبة ذاته، وكرامته. ذكره ابن الخطيب[٦].

---

(١) ينظر الكشاف ٤/ ٧٦٤، والقرطبي ٢٠/ ٦٠، والبحر ٨/ ٤٧٩ والدر المصون ٦/ ٥٣٦.

(٢) البيت لجران العود، واسمه عامر بن الحارث. ينظر الديوان ص ٥٣ والكتاب ١/ ٤٥٣، ٢/ ٣٢٢، والمقتضب ٢/ ٦١٩، ٣٤٦، ٤١٤، وابن يعيش ٢/ ٨٠، ١١٧، ٧/ ٢١، ٨/ ٥٢، والأشموني ٢/ ١٤٧، والتصريح ١/ ٣٥٣، والهمع ١/ ٢٢٥، ٢/ ١٤٤ والدرر اللوامع ١/ ١٩٢، ٢/ ٢٠٢، والعيني ٢/ ١٠٧، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧٣ والكشاف ٤/ ٧٦٤، والبحر ٨/ ٤٧٩، والقرطبي ٢٠/ ٦٠، والدرر المصون ٦/ ٥٣٦.

(٣) الدر المصون ٦/ ٥٣٦.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٧٩، والدر المصون ٦/ ٥٣٦.

(٥) ينظر تفسير البغوي (٤/ ٤٩٦) والقرطبي (٢٠/ ٦٠).

(٦) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ١٨٧.

والأعلى من نعت الربِّ الذي استحق صفات العلو، ويجوز أن يكون ابتغاء وجه ربه لا لمكافأة نعمة][١].

قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾. هذا جواب قسم مضمر، والعامة: على «يَرضَى» مبنياً للفاعل وقرىء[٢]: ببنائه للمفعول، من أرضاه الله تعالى.

[وهو قريب من قوله تعالى في آخر سورة طه ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾][٣] [طه: ١٣٠].

ومعنى الآية: سوف يعطيه الله تعالى في الجنَّة ما يرضى، بأن يعطيه أضعاف ما أنفق.

قال ابن الخطيب[٤]: وعندي فيه وجه آخر، وهو أن المراد أنه إنما طلب رضوان الله تعالى، وليس يرضى الله عنه، قال: وهذا أعظم من الأول؛ لأن رضا الله أكمل للعبد من رضاه عن ربِّه، والله أعلم.

روى الثعلبيُّ عن أبي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ سُورَةَ ﴿وَالَّيْلِ﴾ أعْطاهُ اللَّهُ حتَّى يَرْضَى، وعافاهُ اللَّهُ تعالى من العُسْرِ، ويسَّر لهُ اليُسْرَ»[٥].

قال الثعلبي: وإذا ثبت نزولها بـ «مكة» ضعف تأويلها بقصة أبي الدحداح، وقوي تأويلها بنزولها في حق أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ لأنه كان بـ «مكة»، وإنفاقه بـ «مكة» وقصة أبي الدحداح كانت بالمدينة.

وروي عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم اللَّهُ أبا بَكْرٍ، زوَّجنِي ابنَتهُ، وحَملنِي إلى دَارِ الهِجْرةِ، وأعْتقَ بلالاً مِنْ مَالهِ»[٦]. والله أعلَم.

---

(١) سقط من ب.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٢، والبحر المحيط ٨/ ٤٧٩، والدر المصون ٦/ ٥٣٦.

(٣) سقط من ب.

(٤) الفخر الرازي ٣١/ ١٨٧.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) أخرجه الترمذي (٣٧١٤) وابن أبي عاصم (٢/ ٥٧٧) والعقيلي في «الضعفاء» (٤/ ٢١٠) وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/ ٢٥٥) من طريق المختار بن نافع عن أبي حيان التيمي عن أبيه عن علي مرفوعاً وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وقال ابن الجوزي: هذا حديث يعرف بمختار قال البخاري هو منكر الحديث وقال، ابن حبان كان يأتي بالمناكير عن المشاهير حتى يسبق إلى القلب أنه كان المتعمد لذلك.

سورة الضحى

مكية، وهي إحدى عشرة آية، وأربعون كلمة، ومائة وسبعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ (١) وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ (٥)﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، تقدم الكلام في «الضُّحَى» والمراد به هنا: النهارُ، لمقابلته بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، ولقوله تعالى: ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٨]، أي: نهاراً.

وقال قتادة ومقاتل وجعفر الصادق: أقسم بالضحى الذي كلم الله فيه موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبليلة[(١)] المعراج.

وقيل: «الضُّحَى» هي الساعة التي خرّ فيها السحرة سُجَّداً لقوله تعالى: ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

وقال القرطبي[(٢)]: «يعني عباده الذين يعبدونه في وقت الضحى، وعباده الذين يعبدونه بالليل إذا أظلم».

وقيل: الضحى نور الجنة، والليل ظلمة النار.

وقيل: الضحى نور قلوب العارفين كهيئة النهار، والليل سواد قلوب الكافرين كهيئة الليل، أقسم تعالى بهذه الأشياء.

وقال أهل المعاني فيه وفي أمثاله: فيه إضمار مجازه ورب الضحى وسيجيء معناه.

و «سَجَى»، أي: سكن، قاله قتادة ومجاهد وابن زيد وعكرمة.

يقال: ليلة ساجية، أي: ساكنة.

ويقال للعين إذا سكن طرفها ساجية، ويقال: سَجَا الشَّيءُ سَجْواً إذا سكن، وسَجَا

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٦٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٦٢.

البحر سُجُوًّا، أي: سكنت أمواجُه وطرف ساج، أي: فاتر، ومنه استعير تسجية الميت، أي: تغطيته بالثوب؛ قاله الراغب.

وقال الأعشى: [الطويل]

٥٢٣٢ ـ فَمَا ذَنْبُنَا أنْ جَاشَ بَحْرُ ابْنِ عمِّكُم وبَحْرُكَ سَاجٍ ما يُوَارِي الدَّعَامِصَا[١]

وقال الفراء: أظلم.

وقال ابن الأعرابي: اشتد ظلامه.

وقال الشاعر: [الرجز]

٥٢٣٣ ـ يا حَبَّذَا القَمراءُ واللَّيلُ السَّاجْ وطُرقٌ مِثْلُ مُلاءِ النَّسَّاجْ[٢]

[قال الضحاك: سجا غطى كل شيء[٣].

قال الأصمعي: سجو الليل؛ تغطيته النهار، ومثل ما يسجَّى الرجل الثوب.

وعن ابن عباس: سجا أدبر، وعنه: أظلم[٤].

وقال سعيد بن جبير: أقبل[٥].

وعن مجاهد: سَجَا: استوى[٦].

والقول الأول أشهر في اللغة، أي: سكن الناس فيه كما قال: نهار صائم وليل قائم.

وقيل: سكونه استقرار ظلامه، وهو من ذوات الواو، وإنما أميل لموافقة رءوس الآي، كالضحى، فإنه من ذوات الواو أيضاً][٧].

فصل

قال ابن الخطيب[٨]: وقدم هنا الضحى، وفي السورة التي قبلها قدم الليل إما لأن لكلٍّ منهما أثر عظيمٌ في صلاح العالم، ولليل فضيلة السبق لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ

(١) ينظر ديوانه ١٠٠، والقرطبي ٢٠/ ٦٢، والبحر ٨/ ٤٨٠، ومجمع البيان ١٠/ ٧٦٣، والدر المصون ٦/ ٣٧.

(٢) البيت للحارثي ينظر الخصائص ٢/ ١١٥، وشرح المفصل ٧/ ١٣٩، ١٤١، ومجاز القرآن ٢/ ٣٠٢، والطبري ٣٠/ ١٤٧، والبحر ٨/ ٤٨٠، ومجمع البيان ١٠/ ٧٦٢، والدر المصون ٦/ ٥٣٧.

(٣) ينظر تفسير القرطبي (٢٠/ ٦٢).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٢١) عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٠٩).

(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٠٩) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٢٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٠٩) وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٧) سقط من: ب.

(٨) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ١٨٩.

﴿وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وللنهار فضيلة النور، فقدم سبحانه هذا تارة وقدم هذا تارة، كالركوع والسجود في قوله تعالى: ﴿ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ [الحج: ٧٧] وقوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

وقيل: قدم الليل في سورة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ لأن أبا بكر سبقه كفر، وقدم الضحى في سورة محمد ﷺ لأنه نور محض، ولم يتقدمه ذنب.

وقيل: لما كانت سورة «الليل» سورة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وسورة «الضحى» سورة محمدٍ ﷺ لم يجعل بينهما واسطة، ليعلم أنه لا واسطة بين محمد ﷺ وبين أبي بكر رضي الله عنه.

فصل في ذكر الضحى والليل

قال ابن الخطيب[1]: وذكر الضحى، وهو ساعة، وذكر الليل بجملته، إشارة إلى أن ساعة من النهار توازي جميع الليل، كما أنَّ محمداً ﷺ يوازن جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وأيضاً: فالضحى وقت السرورِ، والليل وقتُ الوحشةِ، ففيه إشارة إلى أن سرور الدنيا، أقل من شرورها، وأن هموم الدنيا أدوم من سرورها، فإن الضحى ساعة، والليل ساعات، يروى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لما خلق العرش أظلت غمامة سوداء، ونادت: ماذا أمطر؟ فأجيبت أن أمطري الهموم والأحزان مائة عام، ثم انكشفت، فأمرت مرة أخرى بذلك، وهكذا إلى ثلاثمائة سنة، ثم بعد ذلك أظلّت عن يمين العرش غمامة بيضاء، ونادت ماذا أمطر؟ فأجيبت أن أمطري السرور ساعة فلهذا ترى الهموم، والأحزان دائمة، والسرور قليلاً ونادراً، وقدم ذكر الضحى لأنه يشبه الحياة، وأخر الليل؛ لأنه يشبه الموت.

قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾، هذا جواب القسم، والعامة: على تشديد الدال من التوديع.

وقرأ[2] عروة بن الزبير وابنه هاشم، وابن أبي عبلة، وأبو حيوة بتخفيفها، من قولهم: «ودَعَهُ»، أي: تركه والمشهور في اللغة الاستغناء عن «ودع، ووذرَ» واسم فاعلهما، واسم مفعولهما ومصدرهما بـ «ترك» وما تصرف منه، وقد جاء «ودع ووَذَر»؛ قال الشاعر: [الرمل]

٥٢٣٤ ـ سَلْ أمِيرِي: ما الَّذي غَيَّرهُ عَنْ وصالِي اليَوْمَ حتَّى وَدَعَهْ[3]

---

(١) السابق.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٤٩٣.

(٣) نسب البيت إلى سويد بن أبي كاهل، ونسب إلى أبي الأسود الدؤلي، وكذلك نسب لأنس بن زنيم ويروى: =

وقال آخر: [الطويل]

٥٢٣٥ ـ وثَمَّ ودعْنَا آل عمرٍو وعامِرٍ فرائِسَ أطْرافِ المُثقَّفَةِ السُّمْرِ[1]

قيل: والتوديع مبالغة في الودع؛ لأن من ودعك مفارقاً، فقد بالغ في تركك.

قال القرطبيُّ[2]: واستعماله قليل يقال: هو يدع كذا، أي: يتركه.

قال المبرد: لا يكادون يقولون: ودع، ولا وذر، لضعف الواو إذا قدمت، واستغنوا عنهما بـ «ترك».

قوله: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾، أي: ما أبغضك، يقال: قلاه يقليه ـ بكسر العين في المضارع ـ وتقول: قلاه يقلاه، بالفتح؛ قال: [الهزج]

٥٢٣٦ ـ أيَا مَنْ لَستُ أنسَاهُ وَلاَ والـلَّـهِ أقْلاهُ
لَكَ الـلَّـهُ عَلَى ذَاكَا لَكَ الـلَّـهُ لَكَ الـلَّـهُ[3]

وحذف مفعول «قَلاَ» مراعاة للفواصل مع العلم به، وكذا بعد «فآوَى» وما بعده.

فصل في «القِلَى»

القلى: البغض، أي: ما أبغضك ربك منذ أحبك، فإن فتحت القاف مددت، تقول: قلاه يقليه قلى وقلاء، كما تقول: قريت الضيف أقريه قرى وقراء، ويقلاه: لغة طيىء. وأنشد:

٥٢٣٧ ـ أيَامَ أمِّ الغَمْرِ لا نَقْلاهَا[4]

أي: لا نبغضها، ونقلي: أي: نبغض؛ وقال: [الطويل]

٥٢٣٨ ـ أسِيئِي بِنَا أو أحْسِنِي لا ملُومَةٌ لَدينَا ولا مَقلِيَّةٌ إنْ تقلَّتِ[5]

وقال امرؤ القيس: [الطويل]

= لَيتَ شِعْرِي عنْ خَلِيلي مَا الذي غَالَهُ فِي الحُبِّ حَتَى وَدَعَه
ينظر المحتسب ٢/ ٣٦٤، والخصائص ١/ ٩٩، وشرح شواهد الشافية ص ٥٠، واللسان (ودع)، والبحر المحيط ٨/ ٤٨، والدر المصون ٦/ ٥٣٧.

(١) ينظر الكشاف ٤/ ٧٦٦، والقرطبي ٢٠/ ٦٤، والبحر ٨/ ٤٨٠، والدر المصون ٦/ ٥٣٧.

(٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٦٤).

(٣) يروى البيت الأول:
أيَا مَن لَستُ أقْلاه وَلاَ فِي البُعْدِ أنسَاه
ينظر الدرر ٦/ ٤٨، وشرح الأشموني ٢/ ٤٩، وشرح عمدة الحافظ ص ٥٧٣، والمقاصد النحوية ٤/ ٩٧، وهمع الهوامع ٢/ ١٢٥، والدرر المصون ٦/ ٥٣٧.

(٤) ينظر القرطبي ٢٠/ ٦٤، واللسان (قلا).

(٥) تقدم.

٥٢٣٩ ـ .... ولَسْتُ بِمَقْلِيِّ الخِلالِ ولا قَالِ(١)

ومعنى الآية: ما ودعك ربك وما قلاك، فترك الكاف، لأنه رأس آية، كقوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] أي: والذاكرات الله.

فصل في سبب نزول الآية

قال المفسرون: انحبس الوحي عن النبي ﷺ اثني عشر يوماً.

وقال ابن عباس: خمسة عشر يوماً [وقيل خمسة وعشرين يوماً.

وقال مقاتل: أربعين يوماً](٢).

فقال المشركون: إن محمداً ﷺ قلاه ربه وودعه، ولو كان أمره من الله لتابع عليه كما كان يفعل بمن كان قبله من الأنبياء، فنزلت هذه الآية.

وروى البخاريُّ عن جندب بن سفيان قال: اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين، أو ثلاثاً، فجاءت أم جميل امرأة أبي لهب ـ لعنة الله عليها ـ فقالت: يا محمدُ، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين، أو ثلاث، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾(٣).

وروي عن أبي عمران الجوني، قال: أبطأ جبريل على النبي ﷺ حتى شق عليه، فجاءه وهو واضع جبهته على الكعبة يدعو، فنكت بين كتفيه، وأنزل عليه: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾(٤).

وروي أن خولة كانت تخدم النبي ﷺ فقالت: إن جرواً دخل البيت، فدخل تحت السرير فمات، فمكث نبي الله أياماً لا ينزل عليه الوحي، فقال: «يا خولةُ ما حدَثَ في بَيْتِي؟ ما لِجبْريلَ لا يَأتِينِي»؟ قالت خولة: فقلت: لو هيأت البيت، وكنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير، فإذا جرو ميت، فأخذته، فألقيته خلف الجدار، فجاء نبي الله ﷺ ترعد لحياه ـ وكان إذا نزل عليه الوحي استقبلته الرعدة ـ فقال: يا خولة دثِّرِيْنِي، فأنزل

---

(١) عجز بيت وصدره:

صرفت الهوى عنهن من خشية الردى

ينظر ديوانه ص ٣٥، والسان (خلل)، والقرطبي ٢٠/ ٦٤.

(٢) سقط من ب.

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ٥٨٠) كتاب التفسير: باب ما ودعك ربك وما قلى، رقم (٤٩٥٠) ومسلم (٣/ ١٤٢٢) كتاب الجهاد والسير: باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين رقم (١١٥/ ١٧٩٧) والترمذي (٥/ ٤١١) رقم (٣٣٤٥) والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٥١٨) والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٢٣) من حديث جندب بن عبد الله بن سفيان البجلي. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) ينظر تفسير القرطبي (٢٠/ ٦٣).

الله هذه السورة، ولما نزل جبريل سأله النبي ﷺ عن التأخر، فقال: «أما عَلِمْتَ أنّا لا ندخلُ بَيْتاً فِيهِ كَلبٌ، ولا صُورةٌ»(١).

وقيل: لما سألته اليهود عن الروح، وذي القرنين وأهل الكهف، قال النبي ﷺ: «سَأخْبركُمْ غداً» ولم يقل: إن شاء الله، فاحتبس عنه الوحي إلى أن نزل جبريل ـ عليه السلام ـ بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤]، فأخبره بما سئل عنه، وفي هذه القصة نزلت: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

قوله: ﴿وَلَلْأَخِرَةُ﴾ الظاهر في هذه اللام أنها جواب القسم، وكذلك وفي «ولسَوْفَ» أقسم الله تعالى على أربعة أشياء: اثنان منفيان، وهما توديعه وقلاه، واثنان مثبتان مؤكدان، وهما كون الآخرة خيراً له من الأولى(٢)، وأنه سوف يعطيه ما يرضيه. وقال الزمخشري(٣): «فإن قلت: ما هذه اللام الداخلة على «سَوْفَ»؟.

قلت: هي لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة، والمبتدأ محذوف، تقديره: وأنت سوف ـ كما ذكرنا في «لأقسمُ» أن المعنى: لأنا أقسم ـ وذلك أنها لا تخلو من أن تكون لام قسم، أو ابتداء، فلام القسم لا تدخل مع المضارع إلا مع نون التوكيد، فبقي أن تكون لام ابتداء، ولام الابتداء، لا تدخل إلاً على الجملة من المبتدأ، والخبر، فلا بد من تقدير مبتدأ، وخبره، وأن يكون أصله: ولأنت سوف يعطيك».

ونقل أبو حيَّان عنه، أنه قال: «وخلع من اللام دلالتها على الحال» انتهى.

وهذا الذي رده على الزمخشري، يختار منه: أنها لام القسم، وقوله: «لا يدخل مع المضارع إلا مع نون التوكيد»، استثنى النحاة منه صورتين:

إحداهما: أن لا يفصل بينها وبين الفعل حرف التنفيس كهذه الآية، وكقولك: «والله لسأعطيك».

والثاني: ألاً يفصل بينهما بمعمول الفعل، كقوله: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٨].

ويدل لما قلت ما قال الفارسي: ليست هذه اللام هي التي في قولك: «إن زيداً لقائم»، بل هي التي في قولك: «لأقُومنَّ» ونابت «سَوْفَ» عن إحدى نوني التأكيد، فكأنه قال: ولنعطينك.

---

(١) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٤١) وقال رواه الطبراني وأم حفص لم أعرفها.
وذكره الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» (٣/ ٣٩٦) رقم (٣٨٠٦) وعزاه إلى ابن أبي شيبة في «مسنده».
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦١٠) وزاد نسبته إلى ابن مردويه.

(٢) في أ: الدنيا. (٣) الكشاف ٤/ ٧٦٧.

وقوله: «خلع منها دلالتها على الحال» يعني أن لام الابتداء الداخلة على المضارع مخلصة للحال وهنا لا يمكن ذلك؛ لأجل حرف التنفيس، فلذلك خلعت الحالية منها.

وقال أبو حيَّان[١]: واللام في «ولَلآخِرةُ» لام ابتداء أكدت مضمون الجملة، ثم حكى بعض ما تقدم عن الزمخشري وأبي علي، ثم قال: «ويجوز عندي أن تكون اللام في «ولَلآخِرَةُ خَيْرٌ» وفي «ولسَوفَ يُعْطِيكَ» اللام التي يُتَلَقَّى بها القسم، عطفهما على جواب القسم، وهي قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾، فيكون هذا قسماً على هذه الثلاثة» انتهى.

فظاهره أن هذه اللام في «ولَلآخِرةُ» لام ابتداء غير متلقى بها القسم بدليل قوله ثانياً: «ويجوز عندي»، ولا يظهر انقطاع هذه الجملة عن جواب القسم ألبتة، وكذلك في «ولسَوْفَ»، وتقدير الزمخشريِّ: مبتدأ بعدها لا ينافي كونها جواباً للقسمِ، إنَّما منع أن يكون جواباً لكونها داخلة على المضارع لفظاً، وتقديراً.

وقال ابن الخطيب[٢]: فإن قيل: ما معنى الجمع بين حرفي التأكيد والتأخير؟.

قلت: معناه أن العطاء كائن لا محالة وإن تأخر لما في التأخير من المصلحة.

فصل

قال ابن إسحاق: معنى قوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾، أي: ما عندي من مرجعك إليَّ يا محمد خير لك مما عجلت لك من الكرامة في الدنيا.

روى علقمة عن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّا أهْل بيتٍ اخْتارَ اللَّهُ لنَا الآخِرةَ على الدُّنْيا»[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ روى عطاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو الشفاعة في أمته حتى يرضى، وهو قول علي والحسن[٤].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن النبي ﷺ تلا قول الله تعالى في إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وهو قول عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المائدة: ١١٨] الآية، فرفع يديه وقال: «اللَّهُمَّ أمَّتِي أمَّتِي» وبكى، فقال الله تعالى لجبريل: «اذهب إلى محمد، وربُّك أعلم، فسلهُ ما يُبْكِيْكَ» فأتى جبريل النبي ﷺ فسأله فأخبره، فقال الله تعالى لجبريل: «اذهب إلى محمد، فقل له: إن الله يقول لك: إنَّا سَنُرضِيْكَ فِي أمَّتكَ،

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٨١. (٢) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ١٩٤.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦١١) وعزاه إلى ابن أبي شيبة عن ابن مسعود.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦١١) عن الحسن وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

ولا نَسُوءُكَ»[١] وقال حرب بن شريح: سمعت أبا جعفر محمد بن علي يقول: إنكم يا معشر أهل العراق تقولون: إنَّ أرْجَى آية في كتاب الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣] قالوا: إنا نقول ذلك، قال: ولكنا أهل البيت نقول: إن أرجى آية في كتاب الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾.

وقيل: يعطيك ربك من الثواب، وقيل: من النصر، فترضى. وقيل: الحوض والشفاعة.

فصل في الكلام على انقطاع الوحي

وجه النظم، كأنه قيل: انقطاع الوحي لا يكون عزلاً عن النبوّة، بل غايته أنه أمارة الموت للاستغناء عن الرسالة، فإن فهمت منه قرب الموت، فالموت خير لك من الأولى، وفهم النبي ﷺ من الخطاب بقوله: ما ودعك ربك وما قلى تشريفاً عظيماً، فقيل له: «وللآخِرةُ خيرٌ لك من الأوْلَى»، أي: أنَّ الأحوال الآتية خير لك من الماضية، فهو وعد بأنه سيزيده عزًّا إلى عزِّه، وبيان أن الآخرة خيرٌ، كأنه ﷺ يفعل فيها ما يريد، ولأنه آثرها فهي ملكه، وملكه خير مما لا يكون ملكه، أو لأن الكفار يؤذونك وأمتك في الدنيا، وأما في الآخرة فهم شهداء على الناس، أو لأن خيرات الدنيا قليلة مقطوعة، ولم يقل: خير لك، لأن فيهم من الآخرة شر له، فلو ميزهم لافتضحوا، ثم أخبر الله تعالى عن حاله التي كان عليها قبل الوحي، وذكره نعمه، فقال:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾، العامة على: «فآوى» بألف بعد الهمزة رباعياً.

وأبو الأشهب[٢]: «فأوى» ثلاثياً.

قال الزمخشري[٣]: «وهو على معنيين: إما من «أواه» بمعنى «آواه» سمع بعض الرعاة يقول: أين آوي هذه الموقسة؟ وإما من أوى له، إذا رحمه». انتهى.

وعلى الثاني قوله: [الطويل]

٥٢٤٠ ـ أرَانِـي ولا كُـفْـرانَ لِـلَّـهِ أيَّـةً لِـنَـفْـسِي لـقَـدْ طَـالَـبْـتُ غَـيْـرَ مُـنـيـلِ[٤]

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (١/ ١٩١) كتاب الإيمان: باب دعاء النبي ﷺ لأمته (٣٤٦ ـ ٢٠٢) والبغوي في «شرح السنة» (٧/ ٥٠٨) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٤، والبحر المحيط ٨/ ٤٨١، والدر المصون ٦/ ٥٣٨.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٦٨.

(٤) ينظر اللسان (أوا)، والبحر ٨/ ٤٨١، وحاشية الدسوقي على المغني ٢/ ٥١، و٦/ ٥١٨.

أي: رحمة لنفسي، ووجه الدلالة من قوله «أين آوي هذه»، أنه لو كان من الرباعي [لقال: أُأْوي ـ بضم الهمزة الأولى وسكون الثانية ـ لأنه مضارع آوى مثل أكرم، وهذه الهمزة] المضمومة هي حرف المضارعة، والثانية هي فاء الكلمة، وأما همزة «أفْعَل» فمحذوفة على القاعدة، ولم تبدل هذه الهمزة كما أبدلت في «أومن» لئلا يستثقل بالإدغام، ولذلك نص الفراء على أن «تُؤْوِيهِ» من قوله تعالى ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُؤْوِيهِ﴾ [المعارج: ١٣] لا يجوز إبدالها للثقل.

فصل

قال ابن الخطيب(١): «يَجِدْكَ» من الوجود الذي بمعنى العلم، والمفعولان منصوبان بـ «وجد»، والوجود من الله العلم، والمعنى: ألم يعلمك الله يتيماً فآوى.

قال القرطبي(٢): «يَتِيْماً» لا أب لك، قد مات أبوك، «فآوى»، أي: جعل لك مأوى تأوي إليه عند عمك أبي طالب، فكفلك.

وقيل لجعفر بن محمد الصادق: لم أوتم النبي ﷺ من أبويه؟.

فقال: لئلاً يكون لمخلوق عليه حق.

وعن مجاهدٍ: هو من قول العرب: درة يتيمة إذا لم يكن لها مثل، فمجاز الآية ألم يجدك واحداً في شرفك، لا نظير لك، فآواك الله بأصحاب يحفظونك، ويحوطونك.

فصل في جواب سؤال

أورد ابن الخطيب هنا سؤالاً: وهو أنه كيف يحسن من الجواد أن يمن بنعمه، فيقول: «ألَمْ يَجِدكَ يَتِيْماً فآوى»، ويؤكد هذا السؤال أن الله ـ تعالى ـ حكى عن فرعون قوله لموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨] في معرض الذَّم لفرعون فما كان مذموماً من فرعون، كيف يحسن من الله تعالى؟ قال: والجواب(٣): أن ذلك يحسن إذا قصد بذلك تقوية قلبه، ووعده بدوام النعمة، ولهذا ظهر الفرق بين هذا الامتنان، وبين امتنان فرعون، لأن امتنان فرعون معناه: فما بالك لا تخدمني، وامتنان الله تعالى: زيادة نعمه، كأنه يقول: ما لك تقطع عني رجاءك، ألست شرعت في تربيتك أتظنني تاركاً لما صنعته، بل لا بد وأن أتمّ النعمة كما قال تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠].

فإن قيل: إن الله تعالى منَّ عليه بثلاثة أشياء، ثم أمره أن يذكر نعمة ربه، فما وجه المناسبة؟.

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ١٩٤. (٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٦٥.

(٣) الفخر الرازي ٣١/ ١٩٥.

فالجوابُ: وجه المناسبة أن تقول: قضاء الدين واجب، والدين نوعان: مالي وإنعامي، والإنعامي أقوى وجوباً لأن المال قد يسقط بالإبراء، والإنعامي يتأكد بالإبراء، والمالي يقضى مرة فينجو منه الإنسان، والإنعامي يجب عليه قضاؤه طول عمره، فإذا تعذر قضاء النعمة القليلة من منعم، هو مملوك، فكيف حال النعمة العظيمة من المنعم المالك، فكان العبد يقول: إلهي أخرجتني من العدم، إلى الوجود بشراً مستوياً، طاهر الظاهر نجس الباطن، بشارة منك، تستر عليَّ ذنوبي بستر عفوك، كما سترت نجاستي بالجلد الظاهر، فكيف يمكنني قضاء نعمتك التي لا حصر لها، فيقول تبارك وتعالى: الطريق إلى ذلك أن تفعل في حق [عبيدي ذلك، وكنت عائلاً، فأغنيتك، فافعل في حق](١) الأيتام ذلك ثم إذا فعلت كل ذلك، فاعلم أنما فعلته بتوفيقي، ولطفي، وإرشادي، فكن أبداً ذاكراً لهذه النعم.

قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾، أي: غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة فهداك أي: أرشدك، والضلال هنا بمعنى الغفلة، لقوله تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] أي: لا يغفل، وقال في حق نبيه ﷺ: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣] وقيل: معنى قوله: «ضالاً» لم تكن تدري القرآن، والشرائع، فهداك اللَّهُ إلى القرآن، وشرائع الإسلام، قاله الضحاك وشهر بن حوشب وغيرهما. قال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] على ما تقدم في سورة الشورى.

وقال السديُّ والكلبي والفراء: وجدك ضالاً، أي: في قوم ضلال، فهداهم الله بك، أو فهداك إلى إرشادهم(٢).

وقيل: وجدك ضالاً عن الهجرة، فهداك وقيل: «ضالاً»، أي: ناسياً شأن الاستثناء حين سئلت عن أصحاب الكهفِ، وذي القرنين، والروح، فأذكرك، لقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقيل: ووجدك طالباً للقبلة فهداك إليها، لقوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤]، ويكون الضلال بمعنى الطلب؛ لأن الضال طالب.

وقيل: وجدك ضائعاً في قومك، فهداك إليهم، ويكون الضلال بمعنى الضياع.

وقيل: ووجدك محباً للهداية، فهداك إليها؛ ويكون الضلال بمعنى المحبة ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]، أي: في محبتك.

قال الشاعر: [الكامل]

٥٢٤١ ـ هَذا الضَّلالُ أشَابَ منِّي المفرِقَا والعَارِضَينِ ولَمْ أكُنْ مُتحقِّقَا

---

(١) سقط من ب.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٦٥).

عَجَباً لِعزَّة في اخْتِيَارِ قَطِيعَتِي بَعْدَ الضَّلالِ فحَبْلُهَا قَدْ أخْلَقَا[١]

وقيل: ضالاً في شعاب «مكة»، فهداك وردك إلى جدك عبد المطلب.

وقال كعب ـ رضي الله عنه ـ: إن حليمة لما قضت حق الرضاع، جاءت رسول الله ﷺ لتردهُ على عبد المطلب، فسمعت عند باب «مكة»: هنيئاً لك يا بطحاء «مكة»، اليوم يرد إليك الدين والبهاء والنور والجمالُ، قالت: فوضعته لأصلح ثيابي[٢]، فسمعت هدة شديدة فالتفت فلم أره، فقلت: معشر الناس، أين الصبي؟ فقالوا: لم نر شيئاً، فصحتُ: وامحمداه، فإذا شيخ فانٍ يتوكأ على عصاه، فقال: اذهبي إلى الصنم الأعظم، فإن شاء أن يرده إليك فعل، ثم طاف الشيخ بالصَّنم، وقبل رأسه وقال: يا رب، لم تزل منتك على قريش، وهذه السعدية تزعم أن ابنها قد ضلّ، فرده إن شئت، فانكبّ هبل على وجهه، وتساقطت الأصنام؛ وقالت: إليك عنا أيها الشيخ، فهلاكُنَا على يدي محمد، فألقى الشيخ عصاه، وارتعد، وقال: إن لابنك رباً لا يضيعه فاطلبيه على مهل، فانحشرت قريش إلى عبد المطلب، وطلبوه في جميع «مكة»، فلم يجدوه فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعاً، وتضرع إلى الله أن يرده؛ وقال: [الرجز]

٥٢٤٢ ـ يَا ربِّ، رُدَّ ولَدِي مُحَمَّدا أرْدُدْهُ ربِّي واصْطَنِعْ عِنْدِي يَدَا[٣]

فسمعوا منادياً ينادي من السماء: معاشر الناس لا تضجوا، فإن لمحمد ربًّا لا يضيعه ولا يخذله، وإن محمداً بوادي «تهامة»، عند شجرة السَّمُرِ، فسار عبد المطلب هو وورقة بن نوفل، فإذا النبي ﷺ قائم تحت شجرة يلعب بالأغصان وبالورق[٤].

وفي رواية: فما زال عبد المطلب يردد البيت حتى أتاه أبو جهل على ناقة، ومحمد ﷺ بين يديه، وهو يقول: ألا تدري ماذا جرى من ابنك؟.

فقال عبد المطلب: ولم؟ قال: إني أنخت الناقة، وأركبته خلفي فأبت الناقة أن تقوم، فلما أركبته أمامي قامت النَّاقة.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: رده الله إلى جده وبيد عدوه، كما فعل بموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين حفظه عند فرعون[٥].

وقال سعيد بن جبيرٍ: خرج النبي ﷺ مع عمه أبي طالب في سفر، فأخذ إبليس بزمام ناقته في ليلة ظلماء فعدل بها عن الطريق، فجاء جبريل ـ عليه السلام ـ فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى أرض «الهند»، ورده إلى القافلة ﷺ[٦].

---

(١) ينظر القرطبي ٢٠/ ٦٦.
(٢) في أ: شأني.
(٣) البيت لعبد المطلب بن هاشم ينظر القرطبي ٢٠/ ٦٦، والفخر الرازي ٣١/ ٢١٧.
(٤) ينظر القرطبي ٢٠/ ٦٥.
(٥) ينظر المصدر السابق.
(٦) ينظر المصدر السابق.

وقيل: ووجدك ضالاً ليلة المعراج حين انصرف عنك جبريل، وأنت لا تعرف الطريق، فهداك إلى ساق العرش.

وقال بعض المتكلمين: إذا وجدت العرب شجرة منفردة في فلاة من الأرض، لا شجر معها، سموها ضالة، فيهتدى بها إلى الطريق، فقال تعالى لنبيه ﷺ: «ووَجدَكَ ضالاً» أي لا أحد على دينك، بل وأنت وحيد ليس معك أحد، فهديت بك الخلق إلي.

وقيل: ووجدك مغموراً في أهل الشرك، فميزك عنهم، يقال: ضل الماءُ في اللبن، ومنه ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠٠]، أي: لحقنا بالتراب عند الدَّفن، حتى كأنا لا نتميز من جملته وقيل: ضالاً عن معرفة الله حين كنت طفلاً صغيراً، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ فخلق فيك العقل والهداية والمعرفة، فالمراد من الضال الخالي من العلم لا الموصوف بالاعتقاد، قيل: قد يخاطب النبي ﷺ، والمراد قومه فقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ أي وجد قومك ضلالاً فهداهم بك.

وقيل: إنه كان على ما كان القوم عليه لا يظهر لهم في الظاهر الحال، وأما الشرك فلا يظن به بل على مواسم القوم في الظاهر أربعين سنة.

وقال الكلبي والسدي أي وجدك كافراً والقوم كفاراً فهداك، وقد مضى الرد على هذا القول في سورة الشورى.

قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾، العائل: الفقير، وهذه قراءة العامة يقال: عال زيد، أي: افتقر.

قال الشاعر: [الوافر]

٥٢٤٣ ـ ومَا يَدْرِي الفَقِيرُ متَى غِنَاهُ ... ومَا يَدْرِي الغَنِيُّ متَى يَعِيلُ[1]

وقال جرير: [الكامل]

٥٢٤٤ ـ اللَّهُ أنْزلَ في الكِتَابِ فَرِيضَةً ... لابْنِ السَّبيلِ ولِلفَقِيرِ العَائِلِ[2]

وقرأ اليماني[3]: «عيِّلاً» بكسر الياء المشددة كـ «سيد».

وقال ابن الخطيب[4]: العائل ذو العيلة، ثم أطلق على الفقير لم يكن له عيال،

---

(١) البيت لأحيحة بن الجلاح، ينظر مجاز القرآن ١/ ٢٥٥، واللسان (عيل)، والطبري ٣٠/ ١٤٩، والقرطبي ٢٠/ ٦٧، ومجمع البيان ١٠/ ٧٦٣، والبحر ٨/ ٤٨٢، والدر المصون ٦/ ٥٣٩، وفتح القدير ٥/ ٤٥٨.

(٢) ينظر ديوانه ص ٥٠٣، والقرطبي ٢٠/ ٩٧، والبحر ٨/ ٤٨١، والدر المصون ٦/ ٥٣٩.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٤، والبحر المحيط ٨/ ٤٨١، والدر المصون ٦/ ٥٣٩.

(٤) الفخر الرازي ٣١/ ١٩٧.

والمشهور أن المراد به الفقير، **ويؤيده ما روي**[(١)] **في مصحف عبد الله**: «وَوجَدكَ عديماً».

وقوله تعالى: ﴿فَأَغْنَىٰ﴾، أي: فأغناك خديجة وتربية أبي طالب، ولما اختل ذلك أغناك بمال أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ، ولما اختل ذلك أمره بالهجرة وأغناه بإعانة الأنصار ـ رضي الله عنهم ـ، ثم أمره بالجهاد، وأغناه ﷺ بالغنائم.

[وقال مقاتل: أغناك بما أعطاك من الرزق[(٢)].

وقال عطاء: وجدك فقير النفس، فأغنى قلبك، وقيل: فقيراً من الحجج والبراهين، فأغناك بها[(٣)]][(٤)].

قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾. اليتيم منصوب بـ «تَقْهَرْ»، وبه استدل ابن مالك على أنه لا يلزم من تقديم المعمول تقديم العامل؛ ألا ترى أنَّ اليتيم منصوب بالمجزوم، وقد تقدم الجازم، لو قدمت المجزوم على جازمه، لامتنع، لأن المجزوم لا يتقدم على جازمه، كالمجرور لا يقدم على جاره.

وتقدَّم ذلك في سورة هود عليه السلام عند قوله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود: ٨].

وقرأ العامة: «تَقْهَر» بالقاف من الغلبة، **وابن مسعود، والشعبي**[(٥)]، **وإبراهيم النخعي والأشهب العقيلي**: «تكهر» بالكاف. يقال: كهر في وجهه: أي عبس، وفلان ذو كهرة، أي: عابس الوجه.

ومنه الحديث: «فَبأبِي هُو وأمِّي فواللَّه ما كهرني».

قال أبو حيان[(٦)]: «وهي لغة بمعنى قراءة الجمهور» انتهى.

والكهر في الأصل: ارتفاع النهار مع شدة الحر.

وقيل: الكهر: الغلبة، والكهر: الزجر. والمعنى: لا تسلط عليه بالظلم، بل ادفع إليه حقه، واذكر يتمكَ. قاله الأخفش.

وقال مجاهدٌ: لا تحتقر. وخص اليتيم، لأنه لا ناصر له غير الله تعالى، فغلظ في تأثير العقوبة على ظالمه، والمعنى: عامله كما عاملناك به، ونظيره: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

قال رسول الله ﷺ: «اللَّه اللَّهَ فيمَنْ لَيْسَ له إلاَّ اللَّه».

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥٩٥.
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٦٧).
(٣) ينظر: المصدر السابق.
(٤) سقط من ب.
(٥) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٦٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩٥، والبحر المحيط ٨/ ٤٨٢، والدر المصون ٦/ ٥٣٩.
(٦) البحر المحيط ٨/ ٤٨٢.

فصل

دلت الآية على اللطف باليتيم وبره والإحسان إليه، قال قتادة: كن لليتيم كالأب الرحيم، قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين، وأشار بالسبابة والوسطى»[١].

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ ضَمَّ يَتِيماً فَكَانَ فِي نَفَقتهِ وكفاهُ مؤنتَهُ، كَانَ لَهُ حِجَاباً مِنَ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[٢].

وقال النبي ﷺ: «مَنْ مَسَحَ برأسِ يَتِيمٍ كَانَ لَهُ بكُلِّ شَعْرةٍ حَسَنةٌ»[٣].

فصل

الحكمة في أن الله تعالى اختار لنبيه اليتم، أنه عرف حرارة اليتم، فيرفق باليتيم، وأيضاً ليشاركه في الاسم، فيكرمه لأجل ذلك، لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إذَا سَمَّيْتُم الوَلَدَ مُحمَّداً فأكْرِمُوهُ ووسِّعُوا لهُ فِي المَجْلسِ» وأيضاً ليعتمد من أول عمره على الله تعالى، فيشبه إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ في قوله: «حَسْبي مِنْ سُؤالِي، علمهُ بِحَالِي».

وأيضاً فالغالب أن اليتيم تظهر عيوبه فلما لم يجدوا فيه عيباً، لم يجدوا فيه مطعناً.

وأيضاً جعله يتيماً، ليعلم كل أحد فضيلته ابتداء من الله تعالى، لا من التعليم، لأن من له أب فإن أباه يعلمه، ويؤدبه.

وأيضاً فاليتم والفقر نقص في العادة، فكونه ﷺ مع هذين الوصفين من أكرم الخلق كان ذلك قلباً للعادة، فكان معجزة ظاهرة.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، أي: فلا تزجره، يقال: نهره، وانتهره إذا زجره، وأغلظ له في القول، ولكن يرده ردًّا جميلاً.

[قال إبراهيم بن أدهم: نعم القوم السؤّال، يحملون زادنا إلى الآخرة. وقال إبراهيم النخعي: السائل يريد الآخرة يجيء إلى باب أحدكم فيقول: هل تبعثون إلى أهليكم بشيء.

وقيل: المراد بالسائل الذي يسأل عن الدين][٤].

قال رسول الله ﷺ: «سَألتُ ربِّي مَسْألةً وددْتُ أنِّي لَمْ أسْألْهَا، قُلْتُ: يَا ربِّ، اتَّخذتَ إبْراهِيمَ خَلِيلاً، وكلَّمْتَ مُوسَى تَكْلِيماً، وسخَّرتَ مَع دَاوُدَ الجِبالَ يُسبِّحْنَ،

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٠٩٧).
(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٣٩) وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١/ ٢٠٨، ٢٩٦).
(٤) سقط من: ب.

وأعْطيْتَ فُلاناً كَذَا فقال عز وجل: أَلَمْ أجِدْكَ يَتِيماً فَأويْتك؟ أَلَمْ أَجِدكَ ضالاً فَهَدَيْتُكَ؟ أَلَمْ أَجِدكَ عائِلاً فأَغنَيْتُكَ؟ أَلَمْ أَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ؟ أَلَمْ أُوتِكَ مَا لَمْ أُوتِ أَحَداً قَبلَكَ خَوَاتِيمَ سورةِ البقرة؟ أَلَمْ أَتَّخِذْكَ خَلِيْلاً كَمَا اتَّخَذْتُ إبراهيمَ خليلاً؟. قلت: بلى يا ربِّ»[١].

قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾. الجار متعلق بـ «حدِّثْ» والفاء غير مانعة من ذلك قال مجاهدٌ: تلك النعمة هي القرآن والحديث[٢].

وعنه أيضاً: تلك النعمة هي النبوة، أي: بلغ ما أنزل إليك من ربك قيل: تلك النعمة هي أن وفقك الله تعالى، ورعيت حق اليتيم والسائل، فحدث بها؛ ليقتدي بك غيرك.

وعن الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ قال: إذا عملت خيراً فحدث به الثقة من إخوانك ليقتدوا بك[٣]. إلا أن هذا لا يحسن إلا إذا لم يتضمن رياء، وظن أن غيره يقتدي به.

وروى مالك بن نضلة الجشمي، قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ، فرآني رثَّ الثياب فقال: «أَلَكَ مَالٌ»؟.

قلت: نعم، يا رسول الله، من كل المال، قال: «إِذَا آتَاكَ اللَّهُ مالاً فليُرَ أثرهُ عَلَيْكَ».

وقال رسول الله: «إنَّ اللَّه تعالى جَميلٌ يُحِبُّ الجَمالَ، ويُحِبُّ أنْ يَرَى أثَرَ نِعْمتهِ على عَبْدِهِ»[٤].

فإن قيل: ما الحكمة في أن الله أخر نفسه على حق اليتيم والسائل؟.

فالجواب: كأنه سبحانه وتعالى يقول: أنا غني، وهما محتاجان، وحق المحتاج أولى بالتقديم، واختار قوله: «فحدث» على قوله «فخبِّرْ» ليكون ذلك حديثاً عنه وينساه، ويعيده مرة أخرى.

فصل

يكبر القارىء **في رواية البزي عن ابن كثير**[٥]، وقد رواه مجاهد عن ابن عباس، وروي عن أبيّ بن كعب، عن النبي ﷺ أنه كان إذا بلغ آخر «الضُّحَى» كبَّر بين كلِّ سورةِ

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١/ ٤٥٥) والبيهقي في «دلائل النبوة» (٧/ ٦٣) عن ابن عباس.
وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٥٦): رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦١١) وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم وأبي نعيم في «الدلائل» وابن مردويه وابن عساكر.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦١٢) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦١٢) وعزاه إلى ابن أبي حاتم عن الحسن.

(٤) تقدم.

(٥) ينظر تفسير القرطبي (٢٠/ ٦٩).

تكبيرة إلى أن يختم القرآن، ولا يصل آخر السورة بتكبيرة[١]، بل يفصل بينهما بسكتة، وكأن المعنى في ذلك أن الوحي تأخّر عن النبي ﷺ أياماً، فقال ناس من المشركين: قد ودعه صاحبه، وقلاه، فنزلت هذه السورة فقال: «اللَّهُ أَكْبَرُ».

قال مجاهد: قرأت على ابن عبّاس، فأمرني به، وأخبرني به عن أبيٍّ عن النبي ﷺ.

ولا يكبر في [رواية][٢] الباقين، لأنها ذريعة إلى الزيادة في القرآن.

قال القرطبي[٣]: القرآن ثبت نقله بالتواتر سُوَره، وآياته، وحروفه بغير زيادةٍ، ولا نقصان، وعلى هذا فالتكبير ليس بقرآن.

روى الثعلبي عن أبيٍّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ كان فيمن يرضاه اللَّه تعالى لمحمد ﷺ أن يشفع له، وكتب الله تعالى له من الحسنات بعدد كل يتيم وسائل»[٤]. والله أعلم.

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٠٤) من طريق أبي الحسن البزي عن عكرمة بن سليمان عن إسماعيل بن قسطنطين عن عبد الله بن كثير عن مجاهد عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب مرفوعاً.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي فقال: البزي قد تكلم فيه. والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٠٨) وزاد نسبته إلى ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان.

(٢) في أ: قراءة.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٦٩.

(٤) تقدم تخريجه مراراً.

سورة «ألم نشرح»

مكية، وهي ثماني آيات، وتسع وعشرون كلمة، ومائة وثلاثة أحرف.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب (٨)﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، الاستفهام إذا دخل على النفي قرره، فصار المعنى: قد شرحنا، ولذلك عطف عليه الماضي، ومثله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ﴾ [الشعراء: ١٨]، والعامة: على جزم الحاء بـ «لَمْ».

وقرأ أبو جعفر[(١)] المنصور: بفتحها.

فقال الزمخشري[(٢)]: وقالوا: لعلَّهُ بين الحاء، وأشبعها في مخرجها فظن السامع أنه فتحها.

وقال ابن عطية[(٣)]: إن الأصل: «أَلَمْ نَشْرَحَنْ» بالنون الخفية، ثم أبدلها ألفاً ثم حذفها تخفيفاً كما أنشد أبو زيد: [الرجز]

٥٢٤٥ ـ مِنْ أيِّ يَومَيَّ مِنَ المَوْتِ أَفِرْ ... أَيَومَ لَمْ يُقْدَرَ أَمْ يَوْمَ قُدِرْ[(٤)]

بفتح راء: «يقدر» وكقوله: [المنسرح]

٥٢٤٦ ـ إضْرِبَ عَنْكَ الهُمُومَ طَارِقَهَا ... ضَرْبَكَ بالسَّيْفِ قَوْنَسَ الفَرَسِ[(٥)]

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٧٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩٦، والبحر المحيط ٨/ ٤٨٣، والدر المصون ٦/ ٥٤٠.

(٢) الكشاف ٤/ ٧٧٠.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٦.

(٤) تقدم.

(٥) البيت لطرفة بن العبد ينظر ملحق ديوانه ص ١٥٥، وخزانة الأدب ١١/ ٤٥، والدرر ٥/ ١٧٤، وشرح شواهد المغني (٢/ ٩٣٣، وشرح المفصل ٦/ ١٠٧، واللسان (قنس)، والمقاصد النحوية ٤/ ٣٣٧، ونوادر أبي زيد ص ١٣، والإنصاف ٢/ ٥٦٥، وجمهرة اللغة ص ٨٥٢، ١١٧٦، =

بفتح باء «اضرب» انتهى. وهذا مبني على جواز توكيد المجزوم بـ «لم»، وهو قليل جداً، كقوله: [الرجز]

٥٢٤٧ ـ يَحْسبهُ الجَاهِلُ مَا لَمْ يَعْلمَا شَيْخاً عَلى كُرْسِيِّهِ مُعَمَّمَا[1]

فتتركب هذه القراءة من ثلاثة أصول كلها ضعيفة، لأن توكيد المجزوم بـ لَمْ»، ضعيف، وإبدالها ألفاً إنما هو في الوقف، فإجراء الوصل مجرى الوقف خلاف الأصل، وحذف الألف ضعيف؛ لأنه خلاف الأصل.

وخرجه أبو حيان[2] على لغة خرجها اللحياني في «نوادره» عن بعض العرب، وهو أن الجزم بـ «لَنْ» والنصب بـ «لَمْ» عكس المعروف عند الناس، وجعله أحسن مما تقدم.

وأنشد قول عائشة بنت الأعجم تمدح المختار تطلب ثأر الحسين بن علي رضي الله عنهما وعن بقية الصحابة أجمعين: [البسيط]

٥٢٤٨ ـ قَدْ كَان سُمْكُ الهُدَى يَنهَدُّ قَائمهُ حتَّى أُبِيحَ لهُ المُختَارُ فانغَمَدَا

فِي كُلِّ ما هَمَّ أمْضَى رأيهُ قُدُماً ولَمْ يُشاوِرَ في إقْدامِهِ أحَدَا[3]

[بنصب راء «يشاور»، وجعله محتمل للتخريجين. وشرح الصدر: فتحه؛ أي ألم تفتح صدرك للإسلام.

وقال ابن عباس: ألم تلين قلبك وعن الحسن في قوله: ألم نشرح، وقال مكي: حلماً وعلماً][4].

وشرح الصدر: فتحه، روي أن جبريل ـ عليه السلام ـ أتاه وشق صدره، وأخرج قلبه، وغسله وأنقاه من المعاصي، ثم ملأه علماً، وإيماناً، ووضعه في صدره، وطعن القاضي[5] في هذه الرواية من وجوه:

= والخصائص ١/ ١٢٦، وسر صناعة الإعراب ١/ ٨٢، وشرح الأشموني ٢/ ٥٠٥، والمحتسب ٢/ ٣٦٧، ومغني اللبيب ٢/ ٦٤٣، والممتع في التصريف ١/ ٣٢٣.

(١) نسب البيت للعجاج، ولأبي حيان الفقعسي، ولمساور العبسي، وللدبيري، ولعبد بني عبس.
ينظر ملحق ديوان العجاج ٢/ ٣٣١، وخزانة الأدب ١١/ ٤٠٩، ٤١١، وشرح شواهد المغني ٢/ ٩٧٣، والمقاصد النحوية ٤/ ٨٠، والدرر ٥/ ١٥٨، وشرح التصريح ٢/ ٢٠٥، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٢٦٦، والإنصاف ١/ ٤٠٩، وأوضح المسالك ٤/ ١٠٦، وخزانة الأدب ٨/ ٣٨٨، ٤٥١، ورصف المباني ٣٣/ ٣٣٥، وسرّ صناعة الإعراب ٢/ ٦٧٩، وشرح الأشموني ٢/ ٤٩٨، وشرح ابن عقيل ٥٤٦، ومجالس ثعلب ص ٦٢٠، ونوادر أبي زيد ص ١٣٢، وهمع الهوامع ٢/ ٧٨.

(٢) ينظر البحر المحيط ٨/ ٤٨٣.

(٣) البيتان لعائشة بنت الأعجم تمدح المختار بن أبي عبيد الثقفي.
ينظر البحر ٨/ ٤٨٣ والدر المصون ٦/ ٥٤١، وفتح القدير ٥/ ٤٦١.

(٤) سقط من ب.

(٥) ينظر: الفخر الرازي ٣٢/ ٣.

أحدها: أن هذه الواقعة إنما وقعت حال صغرهِ ﷺ وذلك من المعجزات فلا يجوز أن يتقدم بثبوته.

وثانيها: أن تأثير الغسل في إزالة الأجسام، والمعاصي ليست بأجرام فلم يؤثر الغسل فيها.

وثالثها: أنه لا يصح أن يملأ القلب علماً، بل الله تبارك تعالى يخلق فيه العلوم.

وأجيب عن الأول: بأن تقديم المعجزات على زمان البعثة جائز، وهو المسمى بالإرهاص، ومثله في حق الرسول ﷺ كثير.

وعن الثاني، والثالث: لا يبعد أن يكون حصول ذلك الدم الأسود الذي غسلوه من قلب الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ميل القلب إلى المعاصي وإحجامه عن الطاعات، فإذا أزالوه عنه كان ذلك علامة لمواظبة صاحبه على الطاعات، واحترازه عن السيئات، فكان ذلك، كالعلامة للملائكة على عصمة صاحبه.

وأيضاً فإن الله تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

روى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنهم قالوا: يا رسول الله، أينشرح الصدر؟.

قال: «نعم وينفسح»، قالوا: يا رسول الله، وهل لذلك علامة؟.

قال: «نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاعتداد للموت قبل نزول الموت»[١].

قال القرطبيُّ[٢]: معنى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ قد شرحنا، و «لَمْ» جحد، وفي الاستفهام طرف من الجحد وإذا وقع جحد، رجع إلى التحقيق، كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، ومعناه: اللَّه أحكم الحاكمين، وكذا ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، ومنه قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان: [الوافر]

٥٢٤٩ ـ أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا وأنْدَى العَالمِينَ بُطُونَ رَاحِ[٣]

المعنى: أنتم كذا.

فإن قيل: لم قال عز وجل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ فذكر الصدر ولم يذكر القلب؟.

فالجوابُ: لأن محلَّ الوسوسة هو الصَّدر على ما قال تعالى: ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥] فإبدال تلك الموسوسة بدواعي الخير هو الشرح، فلذلك خص الشرح بالصدر دون القلب.

وقيل: الصدر حضن القلب، فيقصده الشيطان، فإن وجد مسلكاً أغار فيه، وبث جنده فيه، وبث فيه الغموم، والهموم والحرص، فيقسو القلب حينئذ، ولا يجد للطاعة

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» ٢٠/ ٧١. (٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٧١.
(٣) تقدم.

لذة، ولا للإسلام حلاوةً، فإذا طرد في الابتداء حصل الأمن، وانشرح الصدر.

فإن قيل: لِمَ قال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ولم يقل: «أَلَمْ نَشْرَحْ صَدْرَك»؟.

فالجوابُ: كأنه تعالى يقول: لام بلام، فأنت إنما تفعل الطاعات لأجلي، وأنا أيضاً جميع ما أفعله لأجلك.

فصل فيمن اعتبر «والضحى»، و «ألم نشرح» سورة واحدة

روي عن طاوس، وعمر بن عبد العزيز أنهما كانا يقرآن: «والضُّحَى»، و ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ سورة واحدة، وكانا يقرآنهما في ركعة واحدة، ولا يفصلان بينهما بـ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحمنِ الرَّحيم»، وذلك لأنهما رأيا أن أولهما يشبه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾. وليس كذلك، لأن حالة اغتمامه ﷺ بإيذاء الكفار، فهي حالة محنةٍ وضيق، وهذه حالة انشراح الصدر، وطيب القلبِ فكيف يجتمعان؟.

قوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾، أي: حططنا عنك ذنبك.

وقرأ أنس ـ رضي الله عنه ـ وحللنا وحططنا[1].

وقرأ ابن مسعود[2]: «وَحَلَلْنَا عَنْكَ وِقْرَكَ». وهذه الآية مثل قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

قيل: الجميع كانوا قبل النبوة، أي: وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية؛ لأنه كان ﷺ كان في يسر من مذاهب قومه، وإن لم يكن عبد صنماً، ولا وثناً.

قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾، أي: حمله على النقض، وهو صوت الانتقاض والانفكاك لثقله، مثل لما كان يثقله ﷺ.

قال أهل اللغة: أنقض الحمل ظهر الناقة: إذا سمعت له صريراً من شدة الحمل، وسمعت نقيض الرجل أي صريره؛ قال العبَّاس بن مرداسٍ: [الطويل]

٥٢٥٠ ـ وأنْقضَ ظَهْرِي ما تطَوَّيتُ مِنهُم ... وكُنْتُ عَلَيْهِمْ مُشْفِقاً مُتَحَنِّنَا[3]

وقال جميلٌ: [الطويل]

٥٢٥١ ـ وحتَّى تَداعَتْ بالنَّقيضِ حِبالهُ ... وهَمَّتْ بَوانِي زَوْرِهِ أنْ تُحطَّمَا[4]

والمعنى: أثقل ظهرك حين سمع نقيضه، أي: صوته.

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٧٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩٧.

(٢) ينظر السابق.

(٣) ينظر البحر ٨/ ٤٨٤، والدر المصون ٦/ ٥٤١، وفتح القدير ٥/ ٤٦١.

(٤) ينظر القرطبي ٢٠/ ٧٢، والبحر ٨/ ٤٨٤، والدر المصون ٦/ ٥٤١، وفتح القدير ٥/ ٤٦١.

والوِزْرُ: الحمل الثقيل.

قال المحاسبيُّ: يعني: ثقل الوزر لو لم يعفُ الله عنه.

قال: وإنما وُصفتْ ذنوبُ الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بهذا الثقل مع كونها مغفورة لشدة اهتمامهم بها، وندمهم منها، وتحسرهم عليها [وقال الحسين بن الفضل: يعني الخطأ والسهو.

وقيل: ذنوب أمتك أضافها إليه لاشتغال قلبه بها](١).

وقال عبد العزيز بن يحيى وأبو عبيدة: خففنا عنك أعباء النبوة، والقيام بها، حتى لا تثقل عليك.

وقيل: كان في الابتداء يثقل عليه الوحي، حتى كاد يرمي نفسه من شاهق الجبل، إلى أن جاءه جبريل ـ عليه السلام ـ وأزال ﷺ عنه ما كان يخاف من تغير العقل.

وقيل: عصمناك عن احتمال الوِزْر، وحفظناك قبل النبوة في الأربعين من الأدناس، حتى نزل عليك الوحي، وأنت مطهَّر من الأدناس.

قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، قال مجاهد: يعني بالتأذين(٢).

وروى الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ يقول عز وجل له: لا ذكرت إلا ذكرت معي في الأذان، والإقامة، والتشهد، ويوم الجمعة على المنابر، ويوم الفطر، ويوم الأضحى، وأيام التشريق ويوم عرفة، وعند الجمار وعلى الصفا والمروة وفي خطبة النكاح، وفي مشارق الأرض ومغاربها(٣). ولو أن رجلاً عبد الله تعالى، وصدق بالجنة والنار وكل شيءٍ ولم يشهد أن محمداً رسول الله لم ينتفع شيء وكان كافراً.

وقيل: أعلينا ذكرك، فذكرناك في الكتب المنزلة على الأنبياء قبلك، وأمرناهم بالبشارة بك، ولا دين إلا ودينك يظهر عليه.

وقيل: رفعنا ذكرك عند الملائكة في السماء وفي الأرض عند المؤمنين، ونرفع في الآخرة ذكرك بما نعطيك من المقام المحمود، وكرائم الدرجات. وقيل: عام في كل ذكر.

قوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، العامة: على سكون السين في الكلم الأربع.

---

(١) سقط من: ب.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٢٧) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦١٥) وزاد نسبته إلى الشافعي في «الرسالة» وعبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في «الدلائل».

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٧٢ ـ ٧٣) من طريق الضحاك عن ابن عباس.

وابن وثَّاب وأبو جعفر[١] **وعيسى**: بضمها، وفيه خلاف، هل هو أصل، أو منقول من المسكن؟ والألف واللام في العسر الأول لتعريف الجنس، وفي الثاني للعهد، وكذلك روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ لن يغلب عسرٌ يسرين وروي أيضاً مرفوعاً أنه ﷺ خرج يضحك يقول: لن يغلب عسر يسرين[٢] والسبب فيه أن العرب إذا أتت باسم، ثم أعادته مع الألف واللام، كان هو الأول، نحو: جاء رجل فأكرمتُ الرجل، وقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا، فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥، ١٦]، ولو أعادته بغير ألف ولام كان غير الأول، فقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ لما أعاد العسر الثاني أعاده بـ «أل»، ولما كان اليُسْر الثاني غير الأول لم يعده بأل.

وقال الزمخشريُّ[٣]: فإن قلت: ما معنى قول ابن عبَّاس؟ وذكر ما تقدم.

قلت: هذا عمل على الظاهر، وبناء على قوة الرجاء، وأن موعد الله تعالى لا يحمل إلا على أوفى ما يحتمله اللفظ، وأبلغه، والقول فيه أنه يحتمل أن تكون الجملة الثانية تكريراً للأولى كما كرر قوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ لتقرير معناها في النفوس، وتمكنها في القلوب، وكما يكرر المفرد في قوله: «جاء زيد زيد»، وأن تكون الأولى عدة بأن العسر مردوف بيُسْرٍ [لا محالة والثانية: عدة مستأنفة بأن العسر متبوع بيسر][٤]، فهما يسران على تقدير الاستئناف، وإنَّما كان العسر واحداً لأنه لا يخلو، إما أن يكون تعريفه للعهد، وهو العسر الذي كانوا فيه، فهو هو، لأن حكمه حكم زيد في قولك: «إن مع زيد مالاً، إن مع زيد مالاً»، وإما أن يكون للجنس الذي يعلمه كل أحد، فهو هو أيضاً، وأما اليسر، فمنكر متناول لبعض الجنس، فإذا كان الكلام الثاني مستأنفاً غير مكرر، فقد تناول بعضاً غير البعض الأول بغير إشكال.

قال أبو البقاء[٥]: العسر في الموضعين واحد؛ لأن الألف واللام توجب تكرير الأول، وأما يُسْراً في الموضعين، فاثنان، لأن النكرة إذا أريد تكريرها جيء

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٧، والبحر المحيط ٨/ ٤٨٤، والدر المصون ٦/ ٥٤١.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٢٨)، عن الحسن وقتادة مرسلاً وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦١٦)، عن قتادة وزاد نسبته إلى عبد بن حميد.
وذكره أيضاً عن الحسن وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن مردويه وعبد الرزاق والبيهقي.
وأخرجه الحاكم (٢/ ٥٢٨)، عن الحسن مرسلاً.
والحديث أخرجه ابن مردويه عن جابر مرفوعاً كما في «الدر المنثور» (٦/ ٦١٦).
وأخرجه الطبري، (١٢/ ٦٢٩) عن ابن مسعود موقوفاً وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦١٦ ـ ٦١٧) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في «الصبر» وابن المنذر والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٣) ينظر الكشاف ٤/ ٧٧١.

(٤) سقط من أ.

(٥) ينظر: الإملاء ٢/ ٢٨٩.

بضميرها، أو بالألف واللام ومن هنا قيل: «لَنْ يَغْلِبَ عُسرٌ يُسرَيْنِ».

وقال الزمخشريُّ[١] أيضاً فإن قلت: «إن «مَعَ» للصحبة، فما معنى اصطحاب اليسر والعسر؟ قلت: أراد أن الله ـ تعالى ـ يصيبهم بيسر بعد العسر الذي كانوا فيه بزمان قريب، فقرب اليسر المترقب، حتى جعله كالمقارن للعسر زيادة في التسلية، وتقوية للقلوب.

وقال أيضاً فإن قلت: فما معنى هذا التنكير؟.

قلت: التفخيم كأنه قيل: إنّ مع العسر يسراً عظيماً، وأي يسر، وهو في مصحف ابن مسعود[٢] مرة واحدة.

فإن قلت: فإذا ثبت في قراءته غير مكرر فلم قال: والذي نفسي بيده لو كان العسر في حجر لطلبه اليسر، حتى يدخل عليه، إنه لن يغلب عسر يسرين؟.

قلت: كأنه قصد اليسرين، أما في قوله: «يُسْراً» من معنى التفخيم، فتأوله بيسر الدّارين، وذلك يسران في الحقيقة.

فصل في تعلق هذه الآية بما قبلها

تعلق هذه الآية بما قبلها أن الله تعالى بعث نبيه ﷺ فعيَّره المشركون بفقره، حتى قالوا له: نجمع لك مالاً، فاغتم لذلك، وظن أنهم إنما رغبوا عن الإسلام لكونه فقيراً حقيراً عندهم، فعدد الله ـ تعالى ـ عليه منته بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾، أي: ما كنت فيه من أمر الجاهلية، ثم وعده بالغنى في الدنيا ليزيل في قلبه ما حصل فيه من التأذي، بكونهم عيَّروه بالفقر، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ فعطفه بالفاء أي: لا يحزنك ما عيروك به في الفقر، فإن مع ذلك يسراً عاجلاً في الدنيا فأنجز له ما وعده، فلم يمت، حتى فتح عليه «الحجاز»، و «اليمن» ووسع عليه ذات يده، حتَّى كان يعطي الرجل المائتين من الإبل، ويهب الهبات السنية، وترك لأهله قوت سنته، وهذا وإن كان خاصاً بالنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقد يدخل فيه بعض أمته ﷺ إن شاء الله تعالى، ثم ابتدأ فصلاً آخر من أمر الآخرة، فقال:

﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ فهذا شيء آخر، والدليل على ابتدائه، تعديه من فاء، وواو، وغيرهما من حروف النسق التي تدخل على العطف، فهذا وعد عام لجميع للمؤمنين، ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ للمؤمنين يسراً في الآخرة لا محالة، وربما اجتمع يسرُ الدنيا، ويسرُ الآخرة.

---

(١) الكشاف ٤/ ٧٧١.

(٢) ينظر: السابق، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩٧، والدر المصون ٦/ ٥٤٢.

قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾.

العامة: على فتح الراء من «فَرغْتَ»، وهي الشهيرة.

وقرأها أبو السمال[١]: مكسورة، وهي لغة فيه.

قال الزمخشري[٢]: «وليست بالفصيحة».

وقال الزمخشري أيضاً: «فإن قلت: كيف تعلق قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ بما قبله؟.

قلت: لما عدد عليه نعمه السالفة، ووعوده الآنفة، بعثه على الشكر، والاجتهاد في العبادة، والنصب فيها».

وعن ابن عباس: فإذا فرغت من صلاتك، فانصب في الدعاء[٣].

العامة: على فتح الصَّاد وسكون الباء أمراً من النصب[٤] **وقرىء: بتشديد الباء مفتوحة أمراً** من الإنصاب.

وكذا قرىء: بكسر[٥] **الصاد** ساكنة الباء، أمراً من النَّصْب بسكون الصاد.

قال شهاب الدين[٦]: ولا أظن الأولى إلا تصحيفاً، ولا الثانية إلا تحريفاً، فإنها تروى عن الإمامية وتفسيرها: فإذا فرغت من النبوة فانصب الخليفة.

وقال ابن عطية[٧]: وهي قراءة شاذةٌ، لم تثبت عن عالم.

قال الزمخشريُّ[٨]: ومن البدع ما روي عن بعض الرافضة، أنه قرأ: «فانْصِبْ» ـ بكسر الصاد ـ أي: فانصب علياً للإمامة، ولو صح هذا للرافضيِّ، لصحَّ للناصبي أن يقرأ هكذا، ويجعله أمراً بالنصب الذي هو بغض علي، وعداوته.

قال ابن مسعود: «إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل»[٩].

وقال الكلبيُّ: «إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب، أي: استغفِرْ لذَنْبِكَ وللمُؤمنِينَ والمُؤمِنَات»[١٠].

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٧، والبحر المحيط ٨/ ٤٨٤، والدر المصون ٦/ ٥٤٢.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٧٢.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٢٨) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦١٧)، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٧، والبحر المحيط ٨/ ٤٨٤، والدر المصون ٦/ ٥٤٢.

(٥) ينظر السابق.

(٦) ينظر: الدر المصون ٦/ ٥٤٢.

(٧) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٨.

(٨) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٧٢.

(٩) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦١٧) وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وينظر تفسير الماوردي (٦/ ٢٩٨).

(١٠) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٧٤).

وقال الحسنُ وقتادة: «فإذا فرغت من جهاد عدوك فانصب لعبادة ربِّك»[١].

قوله: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾.

قرأ الجمهور: «فارْغَبْ» أمر من «رغبَ» ثلاثياً.

وقرأ زيد بن علي[٢]، **وابن أبي عبلة**: «فَرغِّبْ» بتشديد الغين، أمر من «رَغَّبَ» بتشديد الغين أي: فرغب الناس إلى طلب ما عنده.

عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ قَرَأ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ فكأنما جاءني وأنا مغتم ففرج عني»[٣]. والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٢٩) عن الحسن وابن زيد.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٤٩٨، والبحر المحيط ٨/ ٤٨٤، والدر المصون ٦/ ٥٤٢.

(٣) تقدم تخريجه.

سورة التين

مكية، وقال ابن عباس وقتادة: مدنية، وهي ثمان آياتٍ، وأربع وثلاثون كلمة ومائة وخمسون حرفاً[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨)﴾

قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾.

قال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وإبراهيم النخعي وعطاء بن أبي رباح وجابر بن زيد ومقاتل والكلبيُّ: هو تينكم الذي تأكلون، وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾[2] [المؤمنون: ٢٠] ومن خواص التين: أنه غذاء وفاكهة، وهو سريع الهضمِ لا يمكث في المعدة، ويقلل البلغم، ويطهر الكليتين، ويزيل ما في المثانة من الرملِ، ويسمن البدن، ويفتح مسام الكبد والطحالِ.

وروى أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: أهدي للنبي ﷺ سلٌّ من تينٍ، فقال: «كُلُوا» وأكَلَ مِنهُ، ثُمَّ قال لأصْحَابهِ: «كُلُوا؛ لَوْ قُلتُ: إنَّ فَاكِهَةً نَزلَتْ مِنَ الجنَّةِ، لقُلْتُ: هَذهِ، لأنَّ فَاكِهَة الجنَّةِ بِلاَ عجمٍ، فكُلُوهَا، فإنَّهَا تَقطَعُ البَواسِيرَ، وتَنفَعُ مِنَ النقرسِ»[3].

---

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٣٠٠).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٣١ ـ ٦٣٢)، عن الحسن ومجاهد وعكرمة وإبراهيم وقتادة والكلبي. وأخرجه الحاكم (٢/ ٥٢٨)، عن ابن عباس وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٢٠)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في «الطب النبوي» ص ١٧٣ وعزاه إلى ابن السني وأبي نعيم في الطب والديلمي في «مسند الفردوس» قال ابن القيم في «الزاد» (٣/ ٢١٤): في ثبوته نظر. وذكره ابن حجر في «تخريج الكشاف» (٤/ ٧٧٣)، وعزاه إلى أبي نعيم في «الطب» والثعلبي وقال: وفي إسناده من لا يعرف.

وعن علي بن موسى الرضى: «التين» يزيل نكهة الفم، ويطول الشعر، وهو أمان من الفالج، وأما الزيتون فشجرته هي الشجرة المباركة[١].

وعن معاذ ـ رضي الله عنه ـ أنه استاك بقضيب زيتون، وقال: سمعت النبي ﷺ يقول: «نِعْمَ السواكُ الزَّيْتُون، مِنَ الشَّجرةِ المُبارَكَةِ، يُطيِّبُ الفَمَ، ويُذهِبُ الحَفَرَ، وهِيَ سِوَاكِي وسِواكُ الأنبِيَاء من قَبْلِي»[٢].

وعن ابن عباس: «التين» مسجد نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي بني على الجودي والزيتون: «بيت المقدس»[٣].

وقال الضحاك: التين: «المسجد الحرام»، والزيتون: «المسجد الأقصى»[٤].

وقال عكرمة وابن زيد: التين: «مسجد دمشق»، والزيتون: «مسجد بيت المقدس»[٥] [وقال قتادة: «التين: الجبل الذي عليه «دمشق»، والزيتون الذي عليه «بيت المقدس».

وقال محمد بن كعب ـ رضي الله عنه ـ: التين: مسجد أصحاب الكهف والزيتون «إيليا»[٦].

وقال عكرمة وابن زيد: التين: «دمشق»، والزيتون: «بيت المقدس»[٧]][٨] وهذا اختيار الطبري[٩].

وقيل: هما جبلان بالشام يقال لهما: طور زيتا وطور تينا بالسريانية، سميا بذلك لأنهما ينبتان التين والزيتون.

قال القرطبيُّ[١٠]: «والصَّحيحُ الأولُ، لأنه الحقيقة، ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا بدليل».

قوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾. الطُّور جبل، و «سينين» اسم مكان، فأضيف الجبل للمكان الذي هو به.

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٢/ ٩) عن علي بن موسى الرضا.

(٢) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ١٠٠) وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه معلل بن محمد ولم أجد من ذكره.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٣٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦١٩) وزاد نسبته إلى ابن مردويه وابن أبي حاتم.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٧٥).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٣٢).

(٦) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٥٠٤).

(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٣٠/ ٧٥).

(٨) سقط من: ب.

(٩) ينظر: جامع البيان ١٢/ ٦٣٤.

(١٠) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٧٦.

قال الزمخشريُّ[(١)]: «ونحو «سينون يبرون» في جواز الإعراب بالواو والياء، والإقرار على الياء، وتحريك النون بحركات الإعراب».

وقال أبو البقاء[(٢)]: هو لغة في «سيناء». انتهى.

وقرأ العامة: بكسر السين، **وابن أبي إسحاق، وعمرو بن ميمون، وأبو رجاء**[(٣)]: بفتحها وهي لغة بكر وتميم.

وقرأ عمر بن الخطَّاب، وعبيد الله، والحسن، وطلحة[(٤)]: سيناء بالكسر والمد.

وعمر ـ أيضاً ـ وزيد بن علي[(٥)]: بفتحها والمد.

قال عمر بن ميمون: صليتُ مع عُمرَ بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ العشاء بـ «مكة»، فقرأ: ﴿**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينَاءَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ**﴾ قال: وهكذا في قراءة عبد الله، ورفع صوته تعظيماً للبيت، وقرأ في الثانية بـ ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ**﴾، و﴿**لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ**﴾. جمع بينهما[(٦)]. ذكره ابن الأنباري. [وقد تقدم في «المؤمنين»، وهذه لغات اختلفت في هذا الاسم السرياني على عادة العرب في تلاعبها بالأسماء الأعجمية][(٧)].

وقال الأخفش: «سِيْنين» شجر، الواحدة «السينينة»، وهو غريب جداً غير معروف عند أهل التفسير [وقال مجاهد: وطور جبل سينين، أي: مبارك بالسريانية، وهو قول قتادة والحسن[(٨)].

وعن ابن عباس: سينين أي: حسن بلغة الحبشة][(٩)].

وعن عكرمة قال: هو الجبل الذي نادى الله تعالى منه موسى عليه السلام[(١٠)].

وقال مقاتل والكلبي: «سِيْنين» كل جبل فيه شجرٌ وثمرٌ، فهو سينين وسيناء، بلغة النبط[(١١)].

---

(١) الكشاف ٤/ ٧٧٣.	(٢) الإملاء ٢/ ٢٨٩.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٩، والبحر المحيط ٨/ ٤٨٥، والدر المصون ٦/ ٥٤٣.

(٤) ينظر السابق.	(٥) ينظر السابق.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٣٣)، مختصراً وذكره بتمامه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٢٠)، وعزاه إلى عبد بن حميد وابن الأنباري في «المصاحف».

(٧) سقط من: ب.

(٨) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٣٤)، عن مجاهد وقتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٢٠)، عن مجاهد وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.
وذكره عن قتادة وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن عساكر.

(٩) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٣٣)، عن عكرمة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٢٠) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.
وذكره السيوطي أيضاً عن ابن عباس وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(١٠) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٧٦).	(١١) ينظر المصدر السابق.

وقال أبو علي: «سينين»: «فعليل»، فكررت اللام التي هي نون فيه، كما كررت في «زحليل» للمكان الزلق، و «كرديدة»: للقطعة من التمر، وخنديدة: للطويل.

ولم ينصرف «سينين» كما لم ينصرف «سيناء» لأنه جعل اسماً لبقعة، أو أرض، ولو جعل اسماً للمكان، أو المنزل، أو اسم مذكر لانصرف، لأنك سميت مذكراً بمذكر.

وإنما أقسم بهذا الجبل، لأنه بالسَّنام والأرض المقدسة، وقد بارك الله فيهما، كما قال: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١].

ولا يجوز أن يكون «سينين» نعتاً للطور، لإضافته إليه.

قوله: ﴿وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾. يعني «مكة»، والأمين على هذا «فعيل» للمبالغة، أي: أمن من فيه ومن [دخله من إنس، وطير، وحيوان، ويجوز أن يكون من أمن للرجل بضم الميم أمانة، فهو أمين، وأمانته حفظه من دخله كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه، ويجوز أن يكون بمعنى مفعول من أمنه؛ لأنه مأمون الغوائل كما وصف بالأمن في قوله تعالى][١] ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [العنكبوت: ٦٧] يعني ذا أمن.

قال القرطبيُّ[٢]: «أقسم الله تعالى بجبل «دمشق»، لأنه مأوى عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبجبل بيت المقدس، لأنه مقام الأنبياء ـ عليهم السلام، وبـ «مكة» لأنها أثر إبراهيم، ودار محمد ﷺ».

قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾، هذا جواب القسم [وأراد بالإنسان الكافر.

قيل: هو الوليد بن المغيرة.

وقيل: كلدة بن أسيد فعلى هذا نزلت في منكري البعث.

وقيل: المراد بالإنسان][٣]: آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وذريته.

وقوله: ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ صفة لمحذوف، أي: في تقويم أحسن تقويم.

وقال أبو البقاء[٤]: «فِي أحسن تَقْويم» في موضع الحال من الإنسان، وأراد بالتقويم: القوام؛ لأن التقويم فعل، وذاك وصفٌ للخالق لا للمخلوق، ويجوز أن يكون التقدير: في أحسن قوام التقويم، فحذف المضاف، ويجوز أن تكون «فِي» زائدة، أي: قوَّمنَا أحسن تقويمٍ انتهى.

فصل في معنى الآية

قال المفسرون: أحسن تقويم، واعتداله، واستواء أسنانه، لأنه خلق كلَّ شيء منكباً

---

(١) سقط من ب.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٧٧.
(٣) سقط من ب.
(٤) الإملاء ٢/ ٢٨٩.

على وجهه، وخلق هو مستوياً، وله لسان ذلق ويد وأصابع يقبض بها.

قال ابن العربي: ليس لله ـ تعالى ـ خلق أحسن من الإنسان، فإن الله خلقه حياً، عالماً، قادراً، مريداً، متكلماً، سميعاً، بصيراً، مدبراً، حكيماً، وهذه صفات الرب سبحانه، وعنها عبر بعض العلماء، ووقع البيان بقوله: إن الله خلق آدم عليه السلام على صورته يعني: على صفاته التي قدمنا ذكرها، وفي رواية «عَلَى صُورةِ الرَّحْمَن» ومن أين تكون للرحمن صورة مشخصة، فلم يبق إلا أن تكون معاني.

روي أن عيسى بن موسى الهاشمي، كان يحبُّ زوجته حبًّا شديداً، فقال لها يوماً: أنت طالقٌ ثلاثاً إنْ لم تكوني أحسن من القمر، فنهضت واحتجبت عنه، وقالت: طلقتني، وبات بليلة عظيمة، فلما أصبح غدا إلى دار المنصور، فأخبره الخبر، وأظهر للمنصور جزعاً عظيماً، فاستحضر الفقهاء واستفتاهم، فقال جميع من حضر: قد طلقت، إلا رجلاً واحداً من أصحاب أبي حنيفة، فإنه كان ساكتاً، فقال له المنصور: ما لك لا تتكلم؟.

فقال له الرجل: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، يا أمير المؤمنين، فالإنسان أحسنُ الأشياء، ولا شيء أحسن منه، فقال المنصور لعيسى بن موسى: الأمر كما قال الرجل، فأقبل على زوجتك، وأرسل أبو جعفر المنصور إلى زوجة الرجل أن أطيعي زوجك ولا تعصيه، فما طلقك.

فهذا يدلك على أنَّ الإنسان أحسن خلق الله تعالى باطناً وظاهراً، جمال هيئة، وبديع تركيب، الرأس بما فيه، والبطن بما حواه، والفَرْج وما طواه، واليدان وما بطشتاه، والرجلان وما احتملتاه، ولذلك قالت الفلاسفة: إنه العالم الأصغر؛ إذ كل ما في المخلوقات أجمع فيه.

قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾. يجوز في «أسْفلَ سافِلينَ» وجهان:

أحدهما: أنه حال من المفعول.

والثاني: أنه صفة لمكان محذوف، أي: مكاناً أسفل سافلين.

وقرأ عبد الله[(١)]: «السَّافلين» معرفاً.

فصل

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد إلى أرذل العمر، وهو الهرم بعد الشباب والضعف بعد القوة[(٢)]. [وقال ابن قتيبة السافلون هم الضعفاء الزمناء، ومن لم يستطع

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٧٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٠٠، والبحر المحيط ٨/ ٤٨٦، والدر المصون ٦/ ٥٤٣.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٣٧) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

حيلة يقال: سفل يسفل فهو سافل، وهم سافلون كما تقول: علا يعلو فهو عال وهم عالون][١].

وعن مجاهد وأبي العالية: «أسفل سافلين» إلى النار[٢]، يعني الكافر.

قال علي رضي الله عنه: أبواب جهنَّم بعضها أسفل من بعض، فيبدأ بالأسفل فيملأ وهو أسفل السافلين[٣]. وعلى هذا التقدير: ثم رددناه إلى أسفل، وفي أسفل السافلين.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فيه وجهان:

أحدهما: متصل على أن المعنى: رددناه أسفل من سفل خلقاً وتركيباً، يعني أقبح من قبح خلقه، وأشوههم صورة، وهم أهل النار، فالاتصال على هذا واضح.

والثاني: أنه منقطع على أن المعنى: ثم رددناه بعد ذلك التقويم والتحسين أسفل من سفل في الحسن والصورة والشكل، حيث نكسناه في خلقه، فقوس ظهره، وضعف بصره وسمعه والمعنى: ولكن والذين كانوا صالحين من الهرمى فلهم ثواب دائم على طاعتهم، وصبرهم على الابتداء بالشيخوخة، ومشاق العبادة، قاله الزمخشري[٤] ملخصاً، وقال: أسفل سافلين على الجمع؛ لأن الإنسان في معنى الجمع.

قال الفرَّاء: ولو قال: أسفل سافل جاز، لأن لفظ الإنسان واحد كما تقول: هذا أفضل، ولا تقول: أفضل قائمين، لأنك تضمر الواحد، فإن كان الواحد غير مضمور له، رجع اسمه بالتوحيد، والجمع، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ [الشورى: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

قال الضحاكُ: أجر بغير عمل.

وقيل: غير مقطوع أي: لا يمن به عليهم.

قوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾. «مَا» استفهامية في محل رفع بالابتداء والخبر الفعل بعدها والمخاطب: الإنسان على طريقة الالتفات، توبيخاً، وإلزاماً للحُجَّة، والمعنى:

---

(١) سقط من: ب.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٣٨)، عن الحسن وابن زيد.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٢٠)، عن مجاهد وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٢/ ١٢) عن علي رضي الله عنه.

(٤) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٧٤.

فما يجعلك كاذباً بسبب الدين، وإنكاره، وقد خلقك في أحسن تقويم، وأنه يردك إلى أرذلِ العمر، وينقلك من حال إلى حال فما الذي يحملك بعد هذا الدليل إلىّ أن تكون كاذباً بسبب الجزاءِ [لأن كل مكذب بالحق، فهو كاذب فأي شيء يضطرك إلى أن تكون كاذباً يعني: أنك تكذب إذا كذبت بالجزاء؛ لأن كل مكذّب كاذب بسبب الجزاء]، والباء مثلها في قوله: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠].

وقيل: المخاطب رسول الله ﷺ وعلى هذا يكون المعنى: فماذا الذي يكذبك فيما تخبر به من الجزاء والبعث وهو الدين، بعد هذه العبر التي يوجب النظر فيها صحة ما قلت، قاله الفرَّاء والأخفش.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي: أتقن الحاكمين صنعاً في كل ما خلق، وإذا ثبتت القدرة، والحكمة بهذه الدلالة صح القولُ بإمكان الحشرِ، ووقوعه، أمّا الإمكان فبالنظر إلى القدرة، وأما الوقوع فبالنظر إلى الحكمة لأن عدم ذلك يقدح في الحكمة كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧].

وقيل: أحكم الحاكمين: قضاء بالحق، وعدلاً بين الخلق، وألف الاستفهام إذا دخلت على النفي في الكلام صار إيجاباً، كقوله: [الوافر]

٥٢٥٢ ـ أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا ....[1]

[قيل: هذه الآية منسوخة بآية السيف.

وقيل: هي ثابتة لأنه لا تنافي بينهما][2].

وكان ابن عباس وعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ إذا قرءا: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، قالا: بلى، وإنَّا على ذلك من الشاهدين[3].

قال القاضي: هذه الآية من أقوى الدلائل على أنه تعالى لا يفعل القبيح، ولا يخلق أفعال العباد مع ما فيها من السفه والظلم، لأنه تعالى أحكم الحاكمين، فلا يفعل فعل[4] السفهاء.

وأجيب: بالمعارضة بالعلم، والداعي، ثم نقول: السَّفيهُ من قامت السفاهة به، لا من خلق السفاهة، كما أن المتحرك من قامت الحركة به لا من خلقها. والله أعلم.

---

(١) تقدم.
(٢) سقط من: ب.
(٣) ينظر تفسير القرطبي (٢٠/ ٧٩).
(٤) في أ: أفعال.

سورة العلق

مكية، وهي أول ما نزل من القرآن في قول أبي موسى وعائشة رضي الله عنها[1].
وقيل: أول ما نزل الفاتحة، ثم سورة العلق، وهي عشرون آيةً، واثنتان وسبعون كلمة، ومائتان وسبعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾

قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ﴾، العامة: على سكون الهمزة، أمر من القراءة، **وقرأ عاصم**[2] **في رواية الأعشى**: براء مفتوحة، وكأنه قلب تلك الهمزة ألفاً، كقولهم: قرأ، يقرأ، نحو: سعى، يسعى، فلما أمر منه، قيل: «اقر» بحذف الألف قياساً على حذفها من «اسع».

وهذا على حد قول زهير: [الطويل]

٥٢٥٣ - .... **وإلاَّ يُبْدَ بالظُّلْمِ يَظْلِمِ**[3]

وقد تقدم تحرير هذا.

قوله: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، يجوز فيه أوجه:

أحدها: أن تكون الباء للحال، أي: اقرأ مفتتحاً باسم ربِّك قل: بسم الله الرحمن الرحيم ثم اقرأ، قاله الزمخشريُّ[4].

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٢٩) من طريق الزهري عن عائشة وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، والطبراني كما في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٤٢) عن أبي موسى، وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٢٣) وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة وابن الضريس وابن الأنباري في «المصاحف». وابن مردويه وأبي نعيم في «الحلية». وأخرجه الحاكم (٢/ ٥٢٨)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٤٥) من حديث عائشة، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٢٣) وزاد نسبته إلى ابن مردويه والبيهقي في «الدلائل».

(٢) ينظر: البحر المحيط (٨/ ٤٨٨)، والدر المصون (٦/ ٥٤٥).

(٣) تقدم.

(٤) الكشاف (٤/ ٧٧٥).

الثاني: أن الباء مزيدة، والتقدير: اقرأ باسم ربك، كقوله: [البسيط]

٥٢٥٤ ـ .... سُودُ المَحَاجِرِ لا يَقْرأنَ بالسُّورِ[١]

قيل: الاسم فضلة أي اذكر ربك، قالهما أبو عبيدة.

الثالث: أن الباء للاستعانة، والمفعول محذوف، تقديره: اقرأ ما يوحى إليك مستعيناً باسم ربِّك.

الرابع: أنها بمعنى «عَلَى»، أي: اقرأ على اسم ربِّك، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٤١]، قاله الأخفش.

[وقد تقدم في أول الكتاب كيف قدم هذا الفعل على الجار والمجرور، وقدر متأخراً في «بسم الله الرحمن الرحيم» وتخريج الناس له، فأغنى عن الإعادة][٢].

فصل

قال أكثرُ المفسرين: هذه السورة أول ما نزل من القرآنِ، نزل بها جبريل عليه السلام على النبي ﷺ وهو قائم على «حِرَاء»، فعلمه خمس آياتٍ من هذه السورة.

وقال جابر بن عبد الله: أول ما نزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾[٣].

وقال أبو ميسرة الهمذاني: أول ما نزل فاتحة الكتاب.

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: أول ما نزل من القرآن: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ [الأنعام: ١٥١].

قال القرطبيُّ[٤]: «الصحيح الأول».

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أول ما بدىء به ﷺ الرؤيا الصادقة[٥]، فجاءه الملك، فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾، خرجه البخاري[٦].

وروت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ أنها أول سورة نزلت على رسول الله ﷺ ثم بعدها «ن، والقلم» ثم بعدها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾، ثم بعدها «والضُّحَى»، ذكره الماوردي[٧].

ومعنى قوله: «اقْرَأ» أي: اقرأ ما أنزل عليك من القرآن مفتتحاً باسم ربك وهو أن تذكر التسمية في ابتداء أول كلِّ سورةٍ، أو اقرأ على اسم ربِّك، على ما تقدم من الإعراب.

---

(١) تقدم.
(٢) سقط من: ب.
(٣) تقدم تخريجه في سورة المدثر.
(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٨٠).
(٥) في ب: الصالحة.
(٦) تقدم تخريجه.
(٧) ينظر تفسير الماوردي (٦/ ٣٠٤). وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٢٤) وعزاه إلى ابن الأنباري في «المصاحف».

قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ، خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾، يجوز أن يكون «خَلَقَ» الثاني تفسيراً لـ «خَلَقَ» الأول، يعني أبهمه أولاً، ثم فسره ثانياً بـ «خَلَقَ الإِنْسَانَ» تفخيماً لخلق الإنسانِ، ويجوز أن يكون حذف المفعول من الأول، تقديره: خلق كُلَّ شيء؛ لأنه مطلق، فيتناول كُلَّ مخلوقٍ، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ تخصيص له بالذكر من بين ما يتناوله الخلق، لأنه المنزَّل إليه، ويجوز أن يكون تأكيداً لفظياً، فيكون قد أكد الصفة وحدها، كقولك: الذي قام قام زيد.

والمرادُ بالإنسانِ: الجنس، ولذلك قال تعالى: ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ جمع علقةٍ، لأن كل واحدٍ مخلوق من علقة، كما في الآية الأخرى، والعلقة: الدَّمُ الجامدُ، وإذا جرى فهو المسفوح، وذكر «العَلَق» بلفظ الجمعِ، لأنه أراد بالإنسانِ الجمع، وكلهم خلقُوا مِنْ علقٍ بعد النُّطفَةِ. والعلقة: قطعة من دم رطبٍ، سميت بذلك؛ لأنها تعلق بما تمر عليه لرطوبتها، فإذا جفت لم تكن علقة.

فصل

قال ابن الخطيب[1]: فإن قيل: فما وجه التسمية في المباح كالأكل؟.

فالجوابُ: أنه يضيف ذاك إلى الله تعالى ليدفع ببركة اسمه الأذى، والضرر، أو ليدفع شركة الشيطان، ولأنه ربما استعان بذلك المباح على الطاعة، فيصير طاعة، وقال هنا: باسم ربِّك، وفي التسمية المعروفة: بسم الله الرحمن الرحيم، لأن الربَّ من صفات الفعل، وهي تستوجب العبادة بخلاف صفة الذات فأفاد الربُّ هنا معنيين:

أحدهما: أني ربيتك فلزمك الفعل، فلا تتكاسل.

والثاني: أن الشروع ملزم للإتمام، وقد ربيتك منذ كنت علقة إلى الآن، فلم أضيعك، وقال هنا: «ربك»، وقال في موضع آخر: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١] كأنه يقول سبحانه: هو لي وأنا له، كقوله ﷺ: «عليٌّ منِّي وأنَّا مِنْهُ»[2]، لأن النعم واصلة منّي إليك، ولم يصل إليَّ منك خدمة فأقول: أنا لك، ثم لما أتى بالعبادات وفعل الطاعات، قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾

فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ كالدليل على الربوبية، كأنه تعالى يقول: الدليل على أني ربُّك، أنك ما كنت معه بذاتك وصفاتك، فخلقتك وربيتك، ويحتمل أن يكون المعنى أنه حصل منه الخلق.

قوله: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾، فقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ﴾ تأكيد، وتم الكلام، ثم استأنف فقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾، أي: الكريم.

---

(١) الفخر الرازي (٣٢/ ١٥). (٢) تقدم تخريجه.

وقال الكلبيُّ: يعني الحليم عن جهل العباد، فلم يعجل بعقوبتهم(١)، [وقيل: اقرأ أولاً لنفسك، والثاني للتبليغ، والأول للتعميم من جبريل عليه السلام، والثاني للتعليم واقرأ في صلاتك.

وقيل: اقرأ وربك، أي: اقرأ يا محمد وربك يغنيك ويفهمك، وإن كنت غير قارىء](٢). [والأول أشبه بالمعنى، لأنه لما ذكر ما تقدم من نعمة، دلَّ على كرمه](٣).

قوله: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾، يعني: الخط والكتابة، أي: علم الإنسانَ الخط بالقلم.

قال قتادة: العلم نعمة من الله عظيمة، ولولا ذلك لم يقُم دين، ولم يصلح عيش(٤)، فدل على كمال كرمه تعالى، بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبَّه على فضل الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم، ولا قيدت الحكم، ولا ضبطت أخبار الأولين، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة. وسمي القلم، لأنه يقلم ومنه تقليم الظفر، ولولا هي ما استقامت أمور الدينِ والدنيا.

وروى عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قلت: يا رسول الله أكتب ما أسمع منك منَ الحديث؟ قال: «نَعَمْ، فاكتُبْ، فإنَّ اللَّه علَّمَ بالقَلمِ»(٥).

ويروى أن سليمان عليه السلام سأل عفريتاً عن الكلام، فقال: ريح لا يبقى. قال: فما قيده؟ قال: الكتابة.

وروى مجاهد عن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: خلق الله تعالى أربعة أشياء بيده، ثم قال تعالى لسائر الحيوان: كن فكان: القلم، والعرش، وجنة عدن، وآدم عليه الصلاة والسلام(٦).

من علمه بالقلم؟ ثلاثة أقوال:

أحدها: قال كعب الأحبار: أول من كتب بالقلم آدم عليه السلام(٧).

وثانيها: قول الضحاك: أول ما كتب إدريس عليه الصلاة والسلام(٨).

والثالث: أنه جميع من كتب بالقلم، لأنه ما علم إلاَّ بتعليم الله تعالى.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٨١). (٢) سقط من: ب.

(٣) سقط من: أ.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٤٤) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٢٥) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٣٠٥) والقرطبي (٢٠/ ٨٢).

(٧) ينظر المصدر السابق. (٨) ينظر المصدر السابق.

قال القرطبي(١): الأقلام ثلاثة في الأصل.

الأول: الذي خلقه الله تعالى بيده، وأمره أن يكتب.

والقلم الثاني: قلم الملائكة الذي يكتبون به المقادير، والكوائن والأعمال.

والقلم الثالث: أقلامُ النَّاسِ، جعلها الله بأيديهم يكتبون بها كلامهم، ويصلون بها مآربهم.

وروى عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُسْكِنُوا نِسَاءَكُم الغُرَفَ ولا تُعلمُوهُنَّ الكِتابَة»(٢).

قال بعض العلماء: وإنَّما حذَّرهم النبي ﷺ لأن في إسكانهن الغرف تطلُّعاً على الرجال، وليس في ذلك تحصُّن لهن ولا تستُّر، وذلك لأنهن لا يملكن أنفسهن، حتى يشرفن على الرجال، فتحدث الفتنة والبلاء، فحذرهم أن يجعلوا لهن غرفاً ذريعة إلى الفتنة. وهو كما قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ للنِّساءِ خَيْرٌ لَهُنَّ من ألاّ يَرَاهُنَّ الرِّجالُ، ولا يَرَوْنَ الرِّجالَ»(٣).

وذلك أنها خلقت من الرجل فنهمتها في الرجل، والرجل خلقت فيه الشَّهوة، وجعلت سكناً له، فكل واحد منهما غير مأمونٍ على صاحبه، وكذلك تعليم الكتابة، ربما كانت سبباً في الفتنة، لأنها إذا علمت الكتابة كتبت إلى من تهوى؛ فالكتابة عين من العيون بها يبصر الشاهد الغائب، والخط آثار يده، وفيه تعبير عن الضمير بما لا ينطق به اللسانُ، فهي أبلغ من اللسان، فأحبَّ رسول الله ﷺ أن يقطع عنهن أسباب الفتنة تحصيناً لهنَّ، وطهارة لقلوبهن.

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

قيل: الإنسان هنا آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ علمه أسماء كل شيءٍ، وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

وقيل: الإنسان ـ هنا ـ محمد ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

وقيل: عام، لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾

(١) ينظر الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٨٢).

(٢) ذكره المتقي الهندي (٤٤٩٩٩)، وعزاه إلى الحكيم الترمذي عن ابن مسعود.
وأخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٤/ ٢٢٤) عن عائشة قال ابن عراق في «تنزيه الشريعة»: ولا يصح.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٨٣).

[النحل: ٧٨]، لأنه تعالى بين أنه خلقه من نطفة، وأنعم عليه بالنعم المذكورة، ثم ذكر أنه إذا زاد عليه في النعمة فإنه يطغى، ويتجاوز الحد في المعاصي، واتباع هوى النفس، وذلك وعيد وزجر عن هذه الطريقة.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾

قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾. إلى آخر السورة.

قيل: إنه نزل في أبي جهل، نهى النبي ﷺ عن الصلاة، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يصلي في المسجدِ، ويقرأ باسم الربِّ ـ تبارك وتعالى ـ وعلى هذا فليست السورة من أول ما نزل، ويجوز أن يكون خمس آياتٍ من أولها أولى ما نزل، ثم نزل البقية في شأن أبي جهل، وأمر النبي ﷺ بضم ذلك إلى أول السورة؛ لأن تأليف السور إنما كان بأمر الله تعالى، ألا ترى أنّ قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] آخر ما نزل ثم هو مضموم إلى ما نزل قبله بزمان طويل.

و «كلاً» بمعنى حقاً.

قال الجرجانيُّ: لأن ليس قبله ولا بعده شيء يكون «كلاً» ردًّا له، كما قالوا في ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ﴾ [المدثر: ٣٢]، فإنهم قالوا: معناه: أي والقمر؛ لأنه ردع وزجر لمن كفر بنعمة الله بطغيانه، وإن لم يذكر لدلالة الكلام عليه.

وقال مقاتل: كلاً ليعلم الإنسان أن الله تعالى هو الذي خلقه من العلقة، وعلمه بعد الجهل؛ لأنه عند صيرورته غنياً يطغى، ويتكبر ويصير مستغرق القلب في حُبِّ الدنيا، فلا يفكر في هذه الأحوال ولا يتأمل فيها.

قوله: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾، مفعول له، أي: رؤيته نفسه مُسْتغنياً، وتعدى الفعل هنا إلى ضميريه المتصلين؛ لأن هذا من خواص هذا الكتابِ.

قال الزمخشريُّ[١]: «ومعنى الرؤية، ولو كانت بمعنى الإبصار لامتنع في فعلها الجمع بين الضميرين، و «اسْتَغْنَى» هو المفعول الثاني».

قال شهاب الدين[٢]: والمسألة فيها خلاف، ذهب جماعةٌ إلى أن «رأى» البصرية تعطى حكم العلمية، وجعل من ذلك قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ: لقد رأيتنا مع رسول

(١) الكشاف (٤/ ٧٧٧). (٢) الدر المصون (٦/ ٥٤٦).

الله ﷺ وما لنا طعام إلا الأسودان[١]؛ وأنشد: [الكامل]

٥٢٥٥ ـ ولقَدْ أرَانِي للرِّماحِ دَرِيئَةً ... مِنْ عَنْ يَمِينِي تَارَةً وأمَامِي[٢]

وتقدم تحقيقه. وقرأ قنبل[٣] بخلاف عنه: «رأه» دون ألف بعد الهمزة، وهو مقصور من «رآه» في قراءة العامة.

ولا شك أن الحذف جاء قليلاً، كقولهم: «أصاب الناس جهد ولو تر أهل مكة» بحذف لام «ترى»؛ وقول الآخر: [الرجز]

٥٢٥٦ ـ وصَّانِيَ العَجَّاجُ فِيمَا وصَّنِي[٤]

يريد: فيما وصاني، ولما روي عن مجاهد هذه القراءة عن قنبل، وقال: «قرأت بها عليه» نسبه فيها إلى الغلط، ولا ينبغي ذلك، لأنه إذا ثبت ذلك قراءة، فإن لها وجهاً وإن كان غيره أشهر منه، فلا ينبغي أن يقدم على تغليطه.

فصل في نزول الآية

قال ابن عبَّاسٍ في رواية «أبي صالح»: لما نزلت هذه الآية وسمع بها المشركون، أتاه أبو جهل، فقال: يا محمد، أتزعم أنه من استغنى طغى، فاجعل لنا جبال «مكة» ذهباً لعلنا نأخذ منها فنطغى، فندعُ ديننا، ونتبع دينك، قال: فأتاه جبريل ـ عليه السلام ـ فقال: يا محمد خيِّرهم في ذلك، فإن شاءوا فعلنا لهم ما أرادوه، فإن لم يفعلوا فعلنا بهم كما فعلنا بأصحاب المائدةِ فعلم رسول الله ﷺ أنهم لا يقبلون ذلك، فكفّ عنهم أسفاً عليهم[٥].

[وقيل: أن رآه استغنى بالعشيرة والأنصار والأعوان، وحذف اللام من قوله: «أن رآه» كما يقال: إنكم لتطغون أن رأيتم غناكم][٦].

قوله: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾. هذا الكلام واقع على طريقة الالتفات إلى الإنسان تهديداً له وتحذيراً من عاقبة الطغيان، والمعنى: أن مرجع من هذا وصفه إلى الله تعالى، فيجازيه.

---

(١) تقدم.

(٢) البيت لقطري بن الفجاءة؛ ينظر ديوانه ص ١٧١، وخزانة الأدب (١/ ١٥٨)، ١٦٠، والدرر (١٨٥١٤، ٢٦٩١٢)، وشرح التصريح (٢/ ١٠)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ١٣٦، وشرح شواهد العيني (١/ ٤٣٨)، والمقاصد النحوية (٣/ ١٥٠، ٣٠٥)، وأسرار العربية ص ٢٥٥، والأشباه والنظائر (٣/ ١٣)، وأوضح المسالك (٣٣/ ٥٧)، وجواهر الأدب ص ٣٢٢، ومغني اللبيب (١/ ١٤٩)، وهمع الهوامع (١/ ١٥٦، ٢/ ٣٦).

(٣) ينظر: السبعة (٦٩٢)، والحجة ٦/ ٤٢٣، وإعراب القراءات (٢/ ٥٠٨)، وحجة القراءات (٧٦٧).

(٤) البيت لرؤبة بن العجاج ينظر اللسان (وصى)، والبحر (٨/ ٤٨٩)، والدر المصون (٦/ ٥٤٦).

(٥) ينظر تفسير القرطبي (٢٠/ ٨٣).

(٦) سقط من: ب.

والرجعى والمرجع والرجوع: مصادر، يقال: رجع إليه رجوعاً ومرجعاً ورُجْعى، على وزن «فُعْلى».

قوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ تقدم الكلام على ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾.

وقال الزمخشري[١] هنا: فإن قلت: ما متعلق «أرأيت»؟.

قلت: «الَّذي يَنْهَى» مع الجملة الشرطية، وهما في موضع المفعولين، فإن قلت: فأين جواب الشرط؟.

قلتُ: هو محذوف تقديره: «إنْ كَان عَلَى الهُدى، أو أمَرَ بالتَّقْوى، ألَمْ يَعْلمْ بأنَّ اللَّهَ يَرَى»، وإنما حذف لدلالة ذكره في جواب الشرط الثاني.

فإن قلت: كيف يصح أن يكون «ألَمْ يَعْلَمْ» جواباً للشرط؟.

قلت: كما صح في قولك: إن أكرمتك أتكرمني، وإن أحسن إليك زيد هل تحسنُ إليه؟.

فإن قلت: فما أرأيت الثانية، وتوسطها بين مفعول «أرأيت»؟ قلت: هي زائدة مكررة للتأكيد.

قال شهاب الدين[٢]: اعلم أن «أرَأيْتَ» لا يكون مفعولها الثاني إلا جملة استفهامية كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٤٧]، ومثله كثير، وهنا «أرَأيْتَ» ثلاث مرات، وقد صرح بعد الثالثة منها بجملة استفهامية، فيكون في موضع المفعول الثاني لها، ومفعولها الأول محذوف، وهو ضمير يعود على «الَّذي يَنْهَى عَبْداً» الواقع مفعولاً لـ «أرَأيْتَ» الأولى، ومفعول «أرأيت» الأولى الذي هو الثاني محذوف، وهو جملة استفهامية كالجملة الواقعة بعد «أرأيت» الثالثة، وأما «أرأيت» الثانية، فلم يذكر لها مفعول، لا أول، ولا ثان، حذف الأول لدلالة المفعول من «أرَأيْتَ» الأولى عليه، وحذف الثاني لدلالة مفعول «أرأيت» الثالث عليه، فقد حذف الثاني من الأولى، والأول من الثالثة، والاثنان من الثانية، وليس طلب كل من «أرأيت» للجملة الاسمية على سبيل التنازع؛ لأنه يستدعي إضماراً. والجملة لا تضمر إنما تضمر المفردات، وإنما ذلك من باب الحذف للدلالة وأما الكلام على الشرط مع «أرأيت» هذه، فقد تقدم في «الأنعام»، ويجوز الزمخشريُّ وقوع جواب الشرط استفهاماً بنفسه، وهذا لا يجوزُ، بل نصوا على وجوب ذكر الفاءِ في مثله، وإن ورد شيء من ذلك فهو ضرورة.

قال القرطبيُّ[٣]: وقيل: كل واحد من «أرَأيْتَ» بدل من الأول، و «ألَمْ يَعْلمْ بأنَّ اللَّه يَرَى» الخبر.

---

(١) الكشاف (٤/ ٧٧٨).
(٢) الدر المصون (٦/ ٥٤٦).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٨٤).

فصل في تفسير الآية

قال المفسرون: «الذي يَنْهَى» أبو جهل، وقوله تعالى: «عَبْداً» يعني محمداً ﷺ، فإن أبا جهل قال: لئن رأيت محمداً لأطأنَّ على عنقه. ثم إنه لما رأى رسول الله ﷺ في الصلاة نكص على عقبيه، فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم، قال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً شديداً.

قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: فأنزل الله هذه الآيات تعجُّباً منه[١].

وعن الحسن: أنه أمية بن خلف، كان ينهى سلمان عن الصلاة.

وقيل: في الكلام حذف، والمعنى: من هذا الناهي عن الصلاة من العقوبة.

قوله: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ أي: أرأيت يا أبا جهلٍ إن كان محمد ﷺ على هذه الصفة، أليس ناهيه عن الصَّلاة والتَّقوى هالكاً؟.

قوله: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ يعني أبا جهل كذب بكتاب الله، وأعرض عن الإيمان.

وقال الفراءُ: «أرَأيتَ الذي يَنْهَى عبداً إذا صلَّى»، والناهي مكذب متولٍّ عن الذكر، أي: فما أعجب هذا بما يقول، ثم قال: ويله «أَلَمْ يَعْلَمْ» أبو جهل «بأنَّ اللَّه يَرَى»، أي: يراه ويعلم فعله، فهو تقريع وتوبيخ.

قال ابن الخطيب[٢]: هذا خطاب للنبي ﷺ على سبيل التعجب، وفي وجه هذا التعجب وجوه:

أحدها: أنه ﷺ قال: «اللَّهُمَّ أعزَّ الإسلامَ بأبِي جَهلٍ أوْ بِعُمَرَ»[٣]، فقيل: أبمثل هذا يعزّ الإسلام وهو ينهى عبداً إذا صلى.

الثاني: أنه كان يلقب بأبي الحكم. فقيل: كيف يلقب بهذا وهو ينهى عن الصلاة.

الثالث: أنه كان يأمر وينهى ويعتقد وجوب طاعته، ثم إنه ينهى عن طاعة الربِّ تعالى، وهذا عين الحماقة والتكبُّر، فـ «عبداً» يدل على التعظيم، كأنه قيل: [ينهى أشد الخلق عبودية عن العبادة، وهذا عين الجهل، ولهذا لم يقل:][٤] ينهاك، وأيضاً فإن هذا

---

(١) ينظر تفسير القرطبي (٢٠/ ٨٣). (٢) ينظر الفخر الرازي (٣٢/ ٢١).

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٥٧٧)، كتاب: المناقب، باب: في مناقب عمر حديث (٣٦٨٣) من طريق النضر أبي عمر عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً.

وقال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه وقد تكلم بعضهم في النضر أبي عمر وهو يروي مناكير من قبل حفظه.

وأخرجه البغوي في «شرح السنة» (٧/ ١٨٨، ١٨٩) من هذا الوجه.

(٤) سقط من: أ.

يدل على أن هذه عادته، ودأبه، فهو أبلغ في الذم أيضاً فهذا عام في كل من نهى عن الصلاة، وروي عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ: أنه رأى أقواماً يصلون قبل صلاة العيد، فقال: ما رأيت رسول الله ﷺ يفعل ذلك، فقيل له: ألا تنهاهم فقال: أخشى أن أدخل في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٩، ١٠]، فلم يصرح أيضاً بالنهي عن الصلاة[١].

وأيضاً فيه: إجلال لمنصب رسول الله ﷺ أن ينهاه رجل لا سيما مثل هذا.

قوله: ﴿كَلَّا﴾ ردع لأبي جهل عن نهيه عن عبادة الله تعالى، أو كلا لن يصل أبو جهلٍ إلى أن يقتل محمداً ﷺ ويطأ عنقه.

وقال مقاتل: كلا لا يعلم أن الله يرى، وإن كان يعلم لكن إذا كان لا ينتفع بناصيته يوم القيامة، وليسحبنه بها في النَّار، كقوله تعالى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١]، فالآية وإن كانت في أبي جهلٍ، فهي عظةٌ للنَّاس، وتهديد لمن يمنع غيره عن الطاعة.

قوله: ﴿لَنَسْفَعًۢا﴾، الوقف على هذه النون بالألف، تشبيهاً لها بالتنوين، ولذلك يحذف بعد الضمة والكسرة وقفاً، وتكتب هنا ألفاً إتباعاً للوقف.

وروي[٢] عن أبي عمرو: «لنَسْفَعَنَّ» بالنون الثقيلة.

والسَّفع: الأخذ والقبض على الشيء بشدة، يقال: سفع بناصية فرسه، قال عمرو بن معديكرب: [الكامل]

٥٢٥٧ ـ قَوْمٌ إذَا سَمِعُوا الصَّرِيخَ رَأيْتَهُم ... مَا بَيْنَ مُلْجِمِ مُهْرِهِ أوْ سَافِعِ[٣]

وقيل: هو الأخذ، بلغة قريش.

وقال الرَّاغب: السَّفع: الأخذ بسعفة الفرس، أي: بسواد ناصيته، وباعتبار السواد قيل للأثافي: سفع، وبه سُفْعَةُ غضب اعتباراً بما يعلم من اللون الدخاني وجه من اشتد به الغضب.

وقيل للصقر: أسفع، لما فيه من لمع السواد، وامرأة سفعاء اللون انتهى.

وفي الحديث: «فقَامَت امْرَأةٌ سَفْعاءُ الخدَّيْنِ»[٤].

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٢/ ٢١).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز (٥/ ٥٠٣)، والبحر المحيط (٨/ ٤٩١)، والدر المصون (٦/ ٥٤٧).

(٣) ينظر ديوانه (١٤٥)، والكَشَّاف (٤/ ٧٧٨، واللسان (سفع) والقرطبي ٢٠/ ٨٥، والبحر ٨/ ٤٨٧، والدر المصون ٦/ ٤٧.

(٤) أخرجه مسلم (٣/ ٤٣٩ ـ نووي) كتاب: صلاة العيدين، باب: (١) حديث (٤) من حديث جابر.

وقيل: هو مأخوذ من سفعت النار والشمس إذا غيرت وجهه إلى حال تسويد.

قال: [الكامل]

٥٢٥٨ ـ أثَافِيَّ سُفْعاً في مُعرَّسِ مِرْجَلٍ ونُؤيٌ كجِذْمِ الحَوْضِ أثْلمُ خَاشِعُ[١]

قال القرطبيُّ[٢]: السفع الضرب، أي: ليلطمن وجهه، وكله متقارب المعنى، أي: يجمع عليه الضرب عند الأخذ، ثم يجر إلى جهنم.

وقرأ ابن مسعود[٣]: «لأسفعن»، أي: يقول الله تعالى: يا محمد أنا الذي أتولّى إهانته، لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ [الأنفال: ٦٢]، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ [الفتح: ٤]، والناصية: شعر مقدم الرأس، وقد يعبر بها عن جملة الإنسان، وخص الناصية بالذكر على عادة العرب فيمن أرادوا إذلاله وإهانته أخذوا بناصيته.

قوله: ﴿نَاصِيَةٍ﴾ بدل من «النَّاصية»، بدل نكرة من معرفة.

قال الزمخشريُّ[٤]: «وجاز بدلها عن المعرفة، وهي نكرة، لأنها وصفت، فاستقلت بفائدة».

قال شهاب الدِّين[٥]: وهذا مذهب الكوفيين، لا يجيزون إبدال نكرة من غيرها إلا بشرط وصفها، وكونها بلفظ الأول، ومذهب البصريين: لا يشترط بشيءٍ؛ وأنشدوا: [الوافر]

٥٢٥٩ ـ فَلاَ وأبِيكَ خَيرٌ مِنْكَ إنّي لَيُؤذِينِي التَّحَمْحُمُ والصَّهِيلُ[٦]

وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عبلة[٧]**، وزيد بن علي**: بنصب «ناصِيةً كَاذبَةً خَاطِئةً» على الشتم.

وقرأ الكسائي في رواية[٨]: بالرفع، على إضمار: هي ناصية، ونسب الكذب والخطأ إليها مجازاً. والألف واللام في «الناصية» قيل: عوض من الإضافة، أي: بناصيته.

وقيل: الضمير محذوف، أي: الناصية منه.

فصل في معنى الآية

والمعنى: لنأخذنّ بناصية أبي جهل «كاذبة» في قولها، «خاطئة» في فعلها،

---

(١) ينظر القرطبي ٢٠/ ٨٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٨٥.
(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٧٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٠٣.
(٤) الكشاف ٤/ ٧٧٨.
(٥) الدر المصون ٦/ ٥٤٧.
(٦) تقدم.
(٧) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٣، والبحر المحيط ٨/ ٤٩١، والدر المصون ٦/ ٥٤٧.
(٨) ينظر السابق.

والخاطىء معاقب مأخوذ، والمخطىء غير مأخوذ، ووصفت الناصية بأنها خاطئة كوصف الوجوه بالنظر في قوله «إلى ربها ناظرة»، وقيل: إن صاحبها كاذب خاطىء كما يقال: ليل قائم ونهار صائم، أي صائم في النهار وقائم في الليل، وإنما وصف الناصية بالكاذبة، لأنه كان كاذباً على الله تعالى في أنه لم يرسل محمداً ﷺ، وكاذباً على رسوله ﷺ في أنه ساحر، وكاذب أنه ليس بنبي؛ لأن صاحبها يتمرد على الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة: ٣٧].

قوله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾، إما أن يكون على حذف مضاف، أي: أهل ناديه، أو على التجوُّز في نداء النادي لاشتماله على الناس، كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]، والنادي والندي: المجلس المتجدّد للحديث.

قال زهير: [الطويل]

٥٢٦٠ ـ وفِيهِمْ مَقامَاتٌ حِسَانٌ وُجوهُهُمْ وأنْـدِيـةٌ يَـنْـتَـابُـهَـا الـقَـوْلُ والـفِـعْـلُ[١]

[وقالت أعرابية: هو سيد ناديه وثمال عافيه][٢].

وقال تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

وقال أبو عبيدة: «ونَادِيَه» أهل مجلسه، ولا يسمى المكان نادياً حتى يكون فيه أهله، والمعنى: فليدع عشيرته، فليستنصر بهم.

قوله: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾.

قال الزمخشري[٣]: «والزبانية في كلام العرب: الشرط، الواحد: زبنية، كعفرية من الزَّبن، وهو الدَّفع.

وقيل: زبني، وكأنه نسب إلى الزبن، ثم غير للنسب، كقولهم: أمسيّ، وأصله: زباني، فقيل: «زبانية» على التعويض».

وقال عيسى بن عمر والأخفش: واحدهم زابن.

وقيل: هو اسم جمع لا واحد له من لفظه، كعباديد، وشماطيط، وأبابيل، والحاصل: أن المادة تدل على الدفع.

قال: [الطويل]

٥٢٦١ ـ مَطَاعِيمُ في القُصْوَى مَطاعِينُ في الوَغَى زَبَـانِـيَـةٌ غُـلْـبٌ عِـظَـامٌ حُـلـومُـهَـا[٤]

---

(١) ينظر ديوانه ٩٧، والعمدة لابن رشيق ٢/ ١٣٤، واللسان (قوم)، والكشاف ٤/ ٧٧٩. والبحر ٨/ ٤٨٧، والدر المصون ٦/ ٥٤٧.

(٢) سقط من: ب.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٧٩.

(٤) ينظر القرطبي ٢٠/ ٨٥، والدر المصون ٦/ ٥٤٨.

وقال آخر: [الطويل]

٥٢٦٢ ـ ومُسْتعْجِبٍ ممَّا يَرَى مِنْ أنَاتِنَا ولـوْ زَبَـنَـتْـهُ الـحَـرْبُ لَـمْ يَـتَـرَمْـرَمِ[(١)]

[قال عتبة: زبَنَتْنا الحرب، وزبنَّاها، ومنه الزبون لأنه يدفع من بائع إلى آخر.

وقال أبو الليث السمرقندي رحمه الله: ومنه المزابنة في البيع؛ لأنهم يعملون بأرجلهم، كما يعملون بأيديهم][(٢)].

وقرأ العامة: «سَنَدْعُ» بنون العظمة، ولم ترسم بالواو، وتقدم نظيره، نحو ﴿يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٦].

وقرأ ابن أبي عبلة[(٣)]: «سيُدْعَى الزبانيةُ» مبنياً للمفعول ورفع «الزبانية» لقيامها مقام الفاعل.

فصل في المراد بالزبانية

قال ابن عباس: الملائكة الغلاظ الشداد، وروي أن النبي ﷺ لما قرأ هذه السورة وبلغ إلى قوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ قال أبو جهل: أنا أدعو قومي حتى يمنعوا عني ربك، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ فلما ذكر الزبانية رجع فزعاً، فقيل له: أخشيت منه؟.

قال: لا، ولكن رأيت عنده فارساً، فهددني بالزبانية فما أدري ما الزبانية؛ ومال إليَّ الفارس، فخشيت منه أن يأكلني.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: والله لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته. خرجه الترمذي بمعناه[(٤)].

قوله: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما يظنه أبو جهل «لا تُطِعْهُ» فيما دعاك إليه من ترك الصلاة «واسْجُدْ»، أي: صل لله «واقْتَرِبْ» أي: اقترب إلى الله بالطَّاعة والعبادة.

وقيل: المعنى: إذا سجدت اقترب من الله بالدعاء.

قال ﷺ: «أمَّا الرُّكوعُ فعَظِّمُوا فِيْهِ الربَّ تعالى، وأمَّا السُّجود فاجْتهدُوا في الدُّعاءِ، فقمن أنْ يُسْتجابَ لَكُمْ»[(٥)].

---

(١) البيت لأوس بن حجر ينظر ديوانه (١٢١)، والمحتسب ٢/ ١٠٨، والكامل ٣/ ٣٨٥، والحجة للفارسي ١/ ٢٦٥، ومجمع البيان ١/ ٧٧٩، والبحر ٨/ ٤٨٧، والدر المصون (٦/ ٥٤٨).

(٢) سقط من: ب.

(٣) ينظر: الكشاف (٤/ ٧٧٩)، والبحر المحيط (٨/ ٤٩١)، والدر المصون (٦/ ٥٤٨).

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٤١٤)، كتاب: التفسير رقم (٣٣٤٩) والنسائي في «الكبرى» (٦/ ١٥٨) من طريق عكرمة عن ابن عباس وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح.

(٥) تقدم.

وقال ﷺ: «أقْرَبُ ما يَكُونُ العبدُ مِنْ ربِّه وهُوَ سَاجِدٌ»[١].

فالسجود في قوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ يحتمل أن يكون بمعنى السجود في الصلاة، ويحتمل أن يكون سجود التلاوة في هذه السورة.

وقال ابن العربي: والظاهر أنه سجود الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾، لولا ما ثبت في الصحيح من رواية مسلم، وغيره من الأئمة عن أبي هريرة، أنه قال: سجدتُ مع رسول الله ﷺ في «إذا السَّماءُ انْشقَّتْ» وفي ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ سجدتين[٢]، فكان هذا نصًّا على أن المراد سجود التلاوةِ.

روى الثعلبي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، فكأنَّمَا قَرَأ المفصل كُلَّهُ»[٣]. والله تعالى أعلم.

---

(١) تقدم.

(٢) أخرجه مسلم كتاب المساجد (٥٧٨): باب سجود التلاوة عن أبي هريرة. وقد تقدم تخريجه موسعاً.

(٣) تقدم تخريجه مراراً.

سورة القدر

مكية في قول أكثر المفسرين ذكره الثعلبي.

وحكي الماوردي عكسه.

وذكر الواقديُّ: أنها أول سورة نزلت بـ «المدينة»، وهي خمس آيات، وثلاثون كلمة، ومائة واثْنَا عشر حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ (١) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ (٥)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾، أي: القرآن، أضمر للعلم به ﴿فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ يجوز أن يكون ظرفاً للإنزال، والقرآن كله كالسورة الواحدة، وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣٠] يريد: ليلة القدر.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: نزل به جبريل - عليه السلام - جملة[١] واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا إلى بيت العزة، وأملاه جبريل على السَّفرةِ، ثم كان جبريل ينزله على النبي ﷺ منجماً، وكان بين أوله وآخره ثلاث وعشرون سنة[٢].

حكى الماورديُّ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: نزل القرآنُ في شهر رمضان، وفي ليلة القدر، وفي ليلة مباركة، جملة واحدة من عند الله، من اللوح

---

(١) في أ: دفعة.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٥١)، عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٢٨)، وزاد نسبته إلى ابن الضريس وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل».

المحفوظ إلى السَّفرة الكرام الكاتبين في سماء الدنيا، فنجمته السَّفرة الكرام الكاتبون على جبريل عشرين سنة، ونجمه جبريل على النبي ﷺ عشرين سنة[١].

قال ابن العربي: وهذا باطل، ليس بين جبريل ـ عليه السَّلام ـ وبين الله واسطة، ولا بين جبريل محمد ـ عليهما السلام ـ واسطة.

وقيل: المعنى أنزل في شأنها وفضلها، فليست ظرفاً، وإنما كقول عمر ـ رضي الله عنه ـ: خشيت أن ينزل فيَّ قرآن، وقول عائشة ـ رضي الله عنها ـ: لأنا أحقر في نفسي أن ينزل فيّ قرآن[٢].

وسميت ليلة القدر بذلك؛ لأن الله يقدر فيها ما يشاء من أمره إلى مثلها من السَّنة القابلة من أمر الموت، والأجل، والرزق، وغيره، ويسلمه إلى مدبرات الأمور، وهم أربعة من الملائكة: إسرافيل، وميكائيل، وعزرائيل، وجبريل، عليهم السلام.

وعن ابن عباس أيضاً: أن الله يقضي الأقضية في ليلة نصف شعبان، ويسلمها إلى أربابها في ليلة القدر، وأما تضييقها بالملائكة قال الخليل: لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧].

وقيل: سميت بذلك لعظمها، وشرفها، وقدرها، من قولهم: لفلان قدر: أي شرف ومنزلة. قاله الزهري. وقيل: سميت بذلك لأن للطاعة فيها قدراً عظيماً، وثواباً جزيلاً.

وقيل: لأنه أنزل فيها كتاباً ذا قدر على رسول ذي قدر على أمه ذاتِ قدر، والقدر: مصدر، والمراد ما يمضيه الله تعالى من الأمور، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وهو بمعنى القدر، إلا أنه بالتسكين، مصدر، وبالفتح اسم.

قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ بين فضلها، وعظمها، وفضيلة الزمان إنما تكون بكثرة ما يقع فيه من الفضائل وفي تلك الليلة يقسم الخير الكثير الذي لا يوجد مثله في ألف شهر، جميع الدهر، لأن العرب تذكر الألف، لا تريد حقيقتها، وإنما تريد المبالغة في الكثرة، كقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، يعني جمع الدهر.

[وقيل: إن العابد فيما مضى لا يسمى عابداً، حتى يعبد الله ألف شهر، فجعل الله تعالى لهذه الأمة أمة محمد ﷺ عبادة ليلة خير من ألف شهر كانوا يعبدونها][٣].

---

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٣١١)، والقرطبي (٢٠/ ٨٨).

(٢) جزء من حديث الإفك وقد تقدم تخريجه.

(٣) سقط من: ب.

وقال أبو بكر الوراق: كان ملك سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ خمسمائة شهر، وملك ذي القرنين خمسمائة شهر، فصار ملكهما ألف شهر، فجعل الله العمل في هذه الليلة لمن أدركها خيراً من ملكهما.

وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: إن النبي ﷺ ذكر رجُلاً من بني إسرائيل حمل السلاح ألف شهرٍ، فعجب المسلمون من ذلك فنزلت هذه الآية، يعني خير من ألف شهر التي لبس السلاح فيها في سبيل الله، ونحوه عن ابن عبَّاس رضي الله عنه(١).

وقال مالك بن أنس ـ رضي الله عنه ـ: أري رسول الله ﷺ أعمار الناس، فاستقصر أعمار أمته، فخاف ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر، وجعلها خيراً من ألف شهر لسائر الأمم(٢).

وقال عكرمة وعروة: ذكر النبي ﷺ أربعة من بني إسرائيل، يقال: عبدوا الله ثمانين سنة، لم يعصوا الله ـ تعالى ـ طرفة عين: أيوب، وزكريا، وحزقيل بن العجوز، ويوشع ابن نون، فعجب أصحاب رسول الله ﷺ من ذلك، فأتاه جبريل ـ عليه السلام ـ فقال: يا محمد، عجبت أمتك من عبادة هؤلاء النَّفر ثمانين سنة، لم يعصوا الله تعالى طرفة عين، فقد أنزل الله عليك خيراً من ذلك، ثم قرأ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾، فسر بذلك رسول الله ﷺ(٣).

قوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، أي: تهبط من كل سماء إلى الأرض، ويؤمنون على دعاء النَّاس إلى وقت طلوع الفجر، وقوله تعالى: ﴿وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾. يجوز أن ترتفع «الرُّوحُ» بالابتداء، والجار بعده الخبر وأن ترتفع بالفاعلية عطفاً على الملائكة، و «فيها» متعلق بـ «تنزل» وأن يكون معطوفاً على الفاعل، و «فِيْهَا» ظرف أو حال، والمراد بالروح جبريل عليه السلام.

[وحكى القشيري: أن الروح صنف من الملائكة؛ جعله حفظة على سائرهم، وأن الملائكة لا يرونهم كما لا نرى نحن الملائكة.

وقال مقاتل: هم أشرف الملائكة، وأقربهم إلى الله تعالى(٤).

وقيل: هم جند الله ـ تعالى ـ غير الملائكة رواه ابن عبَّاس مرفوعاً حكاه(٥) الماوردي.

---

(١) ينظر تفسير القرطبي (٢٠/ ٨٩) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٢٩)، عن مجاهد وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي.
(٢) ينظر التفسير الكبير للفخر الرازي (٣٢/ ٣٠).
(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٢٩)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم عن علي بن عروة.
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٩٠). (٥) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٣١٣).

وقيل: الروح خلق عظيم يقوم صفاً واحداً، والملائكة صفاً][1].

وقيل: «الرُّوحُ»: الرحمة ينزل بها جبريل عليه السلام مع الملائكة في هذه الليلة على أهلها، بدليل قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢]، أي: بالرحمة فيها، أي: في ليلة القدر.

قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾. يجوز أن يتعلق بـ «تَنَزَّلُ»، وأن يتعلق بمحذوف على أنه حال من المرفوع بـ «تَنَزَّل» أي: ملتبساً بإذن ربهم.

قوله: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾. يجوز في «مِنْ» وجهان:

أحدهما: أنها بمعنى اللام، وتتعلق بـ «تَنزَّلُ»، أي: تنزل من أجل كل أمر قضي إلى العام القابل.

الثاني: أنها بمعنى الباء، أي: تنزل بكل أمر. فهي للتعدية، قاله أبو حاتم.

وقرأ العامة: «أمْرٍ» واحد الأمور.

وقرأ ابن عباس، وعكرمة[2]، **والكلبي**: «مِنْ كُلِّ امْرِىءٍ»، أي: من أجل كل إنسانٍ.

قال القرطبيُّ[3]: وتأولها الكلبي على أن جبريل ـ عليه السلام ـ ينزل فيها مع الملائكة، فيسلمون على كُلِّ امرىء مسلم، فـ «مِنْ» بمعنى «عَلَى».

وقيل: من أجل كل ملك، وهو بعيد.

وقيل: «مِنْ كُلِّ أمْرٍ» ليس متعلقاً بـ «تَنَزَّلُ» إنما هو متعلق بما بعده، أي: هي سلام من كل أمر مخوف، وهذا لا يتم على ظاهره؛ لأن «سلام» مصدر لا يتقدم عليه معموله، وإنما المراد أنه متعلق بمحذوف يدل عليه هذا المصدر.

فصل في معنى الآية

قوله: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن «هِيَ» ضمير الملائكة، و «سلامٌ» بمعنى التسليم، أي: الملائكة ذات التَّسليم على المؤمنين من مغيب الشمس حتى مطلع الفجر وقيل: الملائكة يسلم بعضهم على بعض فيها.

الثاني: أنها ضمير ليلة القدر، و «سلامٌ» بمعنى سلامة، أي: ليلة القدر ذات سلامة من كلّ شيء مخوف.

---

(١) سقط من: ب.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٥٠٦، والبحر المحيط ٨/٤٩٣، والدر المصون ٦/٥٤٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٩١.

قال الضحاكُ: لا يقدر الله ـ تعالى ـ في تلك الليلة إلا السلامة[١].

وقيل: هي ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان في مؤمن ومؤمنة، قاله مجاهد[٢].

وعلى التقديرين: يجوز أن يرتفع «سلامٌ» على أنه خبر مقدم، و «هِيَ» مبتدأ مؤخر، وهذا هو المشهور، ويجوز أن يرتفع بالابتداء، و «هي» فاعلة عند الأخفش؛ لأنه لا يشترط الاعتماد على الوصف.

وقد تقدم أن بعضهم يجعل الكلام تاماً على قوله: «بإذْنِ ربِّهِمْ»، وتعلق «كُلِّ أمْرٍ» بما بعده، وتقدم تأويله.

وقال أبو الفضل: «وقيل: معناه هي سلام من كل أمرٍ أو امرىءٍ؛ أي سالمة، أو مسلمة منه، ولا يجوز أن يكون «سلامٌ» بهذه اللفظة الظَّاهرة التي هي المصدر عاملاً فيما قبله، لامتناع تقدم معمول المصدر على المصدر، كما أن الصفة كذلك لا يجوز تقديمها على الموصول» انتهى.

[وقد تقدم أن معنى ذلك عند هذا القائل أن يتعلق بمحذوف مدلول عليه بـ «سلام» فهو تفسير معنى لا تفسير إعراب][٣].

وما يروى عن ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ أن الكلام تمَّ عند قوله تعالى: «سلامٌ» ويبتدىء بـ «هِيَ» على أنها خبر مبتدأ، والإشارة بذلك إلى أنها ليلة السابع والعشرين، لأن لفظه: هي سابعة وعشرون، من كلم هذه السورة، فلا ينبغي أن يعتقد صحته لأنه إلغاز وتغيير لنظم أفصح الكلام.

[قوله: ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ متعلق بـ «تنزل» أو بـ «سلام» وفيه إشكال للفصل بين المصدر والمعمول للمبتدأ، إلا أن يتوسع في الجار].

وقرأ الكسائي وابن محيصن: «مطلِع» بكسر اللام، والباقون[٤]: بالفتح، والفتح هو القياس، والكسر سماع، وله أخوات تحفظ فيها الكسر مما ضم مضارعه، أو فتح، نحو: المَشْرِق، والمَغْرِب، والمنْسِك، والمسْكِن، والمحْشِر، والمسْقِط.

قال القرطبي[٥]: «حكي في ذلك كله الفتح والكسر».

وهل هما مصدران أو المفتوح مصدر، والمكسور مكان؟ خلاف، وعلى كل تقدير، فالقياس في الفعل مطلقاً مما ضمت عين مضارعه أو فتحت فتح العين، وإنما يقع الفرق في المكسور العين الصحيح، نحو: «يضرب».

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٩١). (٢) ينظر المصدر السابق.

(٣) سقط من: ب.

(٤) ينظر: السبعة ٦٩٣، والحجة ٦/ ٤٢٧، وإعراب القراءات (٢/ ٥١٠)، وحجة القراءات ٧٦٨.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٩١.

فصل في تعيين ليلة القدر

اختلفوا في تعيين ليلة القدر، فالأكثرون على أنها ليله سبع وعشرين، لحديث أبيِّ ابن كعب: أنها في العشر الأواخر، وأنَّها ليلةُ سبعٍ وعشرين(١).

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ مُتَحَرِّياً لليلة القدرِ فَلْيَتَحَرَّهَا في ليلة سبعٍ وعشرين»(٢).

وقال أبيُّ بن كعب: سَمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لَيلَةُ القَدرِ ليلةُ سَبعٍ وعشْرينَ»(٣).

وقال أبو بكر الوراق: كرر ذكرها ثلاث مرات، وهي تسعة أحرف، فيكون سبعة وعشرين.

وقال عبيد بن عمير: كنت ليلة السابع والعشرين في البحر فأخذت من مائه، فوجدته عذباً سلساً.

وقال أبو هريرة وغيره: هي في ليلة السنة كلها(٤)، وإليه ذهب أبو حنيفة، وعنه أنها رفعت، وأنها إنما كانت مرة واحدة قال الخليل: من قال: إن فضلها لنزول القرآن [يقول] انقطعت، والجمهور على أنها في كل عام من رمضان، ثم اختلفوا.

فقيل: هي ليلة إحدى وعشرين، وإليه مال الشافعي ـ رضي الله عنه ـ لحديث الماء والطين.

وقيل: ليلة الثالث والعشرين، لما روى ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، إني رأيتُ ليلة القدر في سابعة تبقى، فقال النبي ﷺ: «أرَى رُؤيَاكُمْ قَدْ تَواطَأَتْ عَلى ثَلاثٍ وعِشرِيْنَ، فمَنْ أرَادَ أن يقُومَ مِنَ الشَّهرِ شَيْئاً فليَقُم لَيْلَةَ ثلاثٍ وعِشْرِيْنَ»(٥).

وقيل: ليلة خمس وعشرين، لما روى مسلم عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال: «التَمِسُوهَا في العَشْرِ الأواخرِ، في تَاسعةٍ تَبْقَى، في سابِعةٍ تَبْقَى، فِي خَامسةٍ تَبْقَى»(٦).

---

(١) تقدم في «سورة البقرة». (٢) تقدم.

(٣) أخرجه أبو داود (١٣٨٦)، والبيهقي (٤/ ٣١٢)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/ ٩٣)، وابن خزيمة (٣/ ٣٣٠)، رقم (٢١٨٩)، وابن حبان (٩٢٥ ـ موارد)، من حديث معاوية مرفوعاً.

(٤) ينظر تفسير القرطبي (٢٠/ ٩٢).

(٥) أخرجه البخاري (٤/ ٣٠١)، كتاب: فضل ليلة القدر، باب: التماس ليلة القدر في السبع الأواخر رقم (٢٠١٥)، ومسلم (٢/ ٨٢٢، ٨٢٣)، كتاب: الصيام، باب: فضل ليلة القدر والحث على طلبها... رقم (٢٠٥ ـ ١١٦٥).

(٦) تقدم.

[قال مالك رضي الله عنه: يريد بالتاسعة ليلة إحدى وعشرين، وبالسابعة ليلة ثلاث وعشرين، وبالخامسة ليلة خمس وعشرين.

وقيل: سبع وعشرين وقد تقدم](١).

وقيل: ليلة تسع وعشرين، لقول النبي ﷺ: «لَيْلةُ القَدرِ التَّاسعةُ والعِشرُونَ، والسَّابعةُ والعِشرونَ»(٢).

وقال الحسن ـ رضي الله عنه ـ: «ارتقبت الشمس ليلة أربع وعشرين عشرين سنة فرأيتها تطلع بيضاء لا شعاع لها، يعني من كثرة الأنوار في تلك الليلة»(٣).

[وروي عن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ أنها في ليالي الأفراد من النصف الأخير من شهر رمضان مستقلة في ليالي الجمع، ونظمه محمد ابن الأثير فقال: [الطويل]

٥٢٦٣أ ـ ثَلاثُ شُرُوطٍ هُنَّ فِي لَيلةِ القَدرِ كَذَا قَالَ شَيخُ العُربِ فِيهَا أبُو بكْرِ

فأوَّلُهَا وتْرٌ ولَيلَةُ جُمْعَةٍ وثَالثُهَا النِّصفُ الأخِيرُ من الشَّهْرِ

وقيل: هي تنتقل في جميع السنة](٤).

قالوا: والحكمة في إخفائها ليجتهد الناس في إحياء جميع الليالي، كما أخفى رمضان في الطاعات، حتى يرغبوا في الكل، وأخفى ساعة الإجابة في الدعاء، ليبالغوا في كل الساعات، وأخفى الاسم الأعظم، ليعظموا كل الأسماء، وأخفى قبول التوبة، ليحافظوا على جميع أقسام التوبة، وأخفى وقت الموت، ليخاف الموت المكلف، وكذلك أخفى هذه الليلة، ليعظموا جميع ليالي رمضان.

فصل في أحكام تتعلق بليلة القدر

نقل القرطبي(٥) عن بعض العلماء: أن من علق طلاق امرأته، أو عتق عبده بليلة القدر لم يقع الطلاق والعتق إلى مضى سنةٍ من يوم حلف، لأنه لا يجوز إيقاع الطلاق بالشك، ولم يثبت اختصاصها بوقت، فلا ينبغي وقوع الطلاق إلا لمضى حولٍ.

وفي هذا نظر؛ لأنه تقدم عن أبي حنيفة في أحد قوليه أنها رفعت، فعلى هذا لا ينبغي أن يقع شيء أصلاً، لوجود الخلاف في بقائها.

وروى الثعلبي عن أُبيّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ سُورة القَدرِ، كانَ كَمنْ صَامَ رمَضَانَ، وأحْيَا لَيْلةَ القَدرِ»(٦).

---

(١) سقط من: ب.
(٢) تقدم.
(٣) ينظر: تفسير القرطبي (٢٠/ ٩٣).
(٤) سقط من: ب.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٩١.
(٦) تقدم تخريجه مراراً.

سورة لم يكن

مكية في قول يحيى بن سلام، ومدنية في قول الجمهور، وهي ثمان آياتٍ وأربع وتسعون كلمة، وثلاثمائة وتسعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾، هذه قراءة العامة، وخط المصحف.

وقرأ عبد الله بن مسعود[1] ـ رضي الله عنه ـ: «لَمْ يكُن المُشْرِكُونَ وأهْلُ الكِتابِ منفكين» وهذه قراءة على التفسير.

قال ابن العربي: «وهي جائزة في معرض البيان، لا في معرض التلاوة، فقد قرأ النبي ﷺ في رواية الصحيح «فطلِّقُوهُنَّ لقُبُلِ عدَّتهِنَّ» وهو تفسيرٌ، فإن التلاوة هو ما كان في خط المصحف».

وقرئ: «والمُشرِكُون»[2] بالواو نسقاً على «الَّذينَ كَفرُوا».

قوله: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ اسم فاعل من «انفَكَ»، وهي هنا التامة، فلذلك لم تحتج إلى خبر.

وزعم بعضهم: أنها هنا ناقصة، وأن الخبر مقدر، تقديره: منفكّين عارفين محمداً ﷺ.

قال أبو حيان[3]: وحذف خبر «كَانَ» لا يجوز اقتصاراً، ولا اختصاراً.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٧، والقرطبي ٢٠/ ٩٥.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٧، والبحر المحيط ٨/ ٤٩٤، والدر المصون ٦/ ٥٥١.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٩٥.

وجعلوا قوله: [الكامل]

٥٢٦٣ب ـ .... يَبْغِي جِوَارَكَ حَيْثُ لَيْسَ مُجِيرُ[١]

أي: في الدنيا، ضرورة، ووجه من منع من ذلك أنه قال: صار الخبر مطلوباً من جهتين: من جهة كونه مخبراً به، فهو أحد جزئي الإسناد، ومن حيث كونه منصوباً بالفعل، وهذا منتقض بمفعولي ظن، فإن كلاً منهما فيه المعنيان المذكوران ومع ذلك يحذفان، أو أحدهما اختصاراً، وأما الاقتصار ففيه خلاف وتفصيل وتقدم ذكره.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ﴾ متعلق بـ «لَمْ يَكُنْ» أو بـ «مُنفكِّينَ».

فصل

قال الواحديُّ: هذه الآية من أصعب ما في القرآن نظماً وتفسيراً، ولم يبين كيفية الإشكال قال ابن الخطيب[٢]: ووجه الإشكال أن تقدير الآية: لم يكن الذين كفروا إلى أن تأتيهم البينة التي هي الرسول، ثم إنه تعالى لم يذكر الشيء المنفكّ عنه، والظاهر أن المراد لم ينفكوا عن كفرهم، حتى تأتيهم البينة التي هي الرسول، فانفكوا عنه لأن «حتَّى» لانتهاء الغاية، فهذه الآية تقتضي أنهم صاروا منفكين عن كفرهم عند إتيان الرسول ﷺ، لكن قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يقتضي زيادة كفرهم عند مجيء الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فحينئذ يحصل التناقض، والجواب من وجوه:

أحدها: وهو أحسنها، ما لخصه الزمخشريُّ[٣]: أن الأول حكاية ما كانوا يقولونه من أنه ﷺ الموعود به لا ننفك عما نحن عليه من ديننا.

والثاني: إخبار عن الواقع، يعني أنهم كانوا يعدون الاتِّفاق على الحق إذا جاءهم الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، والمعنى أن الذي وقع فيه كان خلافاً لما ادعوا.

وثالثها: المعنى: لم يكونوا منفكين عن كفرهم، وإن جاءتهم بينة، قاله القاضي. إلا أن جعل «حتى» بمعنى «أن» بعيد في اللغة.

ورابعها: المعنى لم يكونوا منفكين عن ذكر محمد ﷺ بالمناقب والفضائل، حتى أتتهم البينة، والمضارع هنا بمعنى الماضي كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [البقرة: ١٠١]، أي ما تلت أي: ما كانوا منفكين عن ذكر مناقبه، ثم لما جاءهم محمد تفرقوا، ونظيره ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩].

وخامسها: أنهم كانوا متفقين على الكفر قبل البينة، فلما جاءتهم البينة تفرقوا، وتكفي هذه المغايرة.

---

(١) تقدم.
(٢) الفخر الرازي ٣٢/٣٧.
(٣) ينظر: الكشاف ٤/٧٨٢.

وسادسها: هي كقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة ٢١٣] الآية، أي: كان كل منهم جازماً بمذهبه ودينه، فلما بعث محمد ﷺ شكوا في أديانهم، لأن قوله تعالى ﴿مُنفَكِّينَ﴾ مشعر بهذا؛ لأن الانفكاك من الشيء هو الانفصال عنه، فمعناه: أن قلوبهم ما خلت عن تلك العقائد، وما انفصلت عن الجزم بصحتها، ثم بعد المبعث لم يبق الأمر على تلك الحالة.

فصل في المراد بأهل الكتاب هنا

قال ابن عباسٍ: أهل الكتاب الذين كانوا بـ «يثرب»، وهم: قريظة، والنضير، وبنو قينقاع، والمشركون الذين كانوا بـ «مكة» وما حولها، و «المدينة»، وهم مشركو قريش، وقوله تعالى: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ أي: منتهين من كفرهم ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ يعني محمداً ﷺ[١].

وقيل: لانتهاء بلوغ الغاية أي لم يكونوا ليبلغوا نهاية أعمارهم فيموتوا حتى تأتيهم البينة. وقيل: منفكين زائلين إن لم تكن مدتهم لتزول حتى يأتيهم رسول الله ﷺ، والعرب تقول: ما انفككت أفعل كذا، أي ما زلت، وما انفك فلان قائماً، أي: ما زال قائماً.

وأصل الفك للفتح، ومنه: فك الكتاب، وفك الخلخال.

وقيل: «مُنفكِّينَ»، بارحين، أي: لم يكونوا ليبرحوا، ويفارقوا الدنيا، حتى تأتيهم البينة.

وقال ابن كيسان: أي: لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد ﷺ ويسمونه الأمين في كتابهم حتى بعث فلما بعث ﷺ حسدوه، وجحدوه، وهو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البينة: ٤]، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: ما كانوا يسيئون القول في محمد ﷺ حتى بعث، فإنهم كانوا يسمونه الأمين، حتى أتتهم البينة على لسانه، وبعث إليهم ﷺ فحينئذ عادوه.

وقال بعض اللغويين: «مُنفكِّينَ»، أي: هالكين، من قولهم: انفك صلا المرأة عند الولادة، وهو أن ينفصل فلا يلتئم فتهلك، والمعنى: لم يكونوا معذّبين، ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

فصل في المراد بالمشركين

قال قوم: المراد بالمشركين من أهل الكتاب، فمن اليهود من قال: عزير ابن الله ومن النصارى من قال: عيسى هو الله.

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٩٥).

ومنهم من قال: هو ابنه.

ومنهم من قال: هو ثالث ثلاثة وكذبوا فيما قالوا عن الله تعالى، وأن الله سبحانه وتعالى واحد لا شريك له، ولا ولد له، ولا مثل ولا ضد له، ولا ند له، ولا شبيه له، ولا صاحبة له، ولا زوجة له، ولا وزير له، ولا حاجب له، ولا بواب له، وهو سبحانه وتعالى كما قال في كتابه المنزل على نبيه ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

وقيل: المشركون وصف لأهل الكتاب أيضاً، لأنهم لم ينتفعوا بكتابهم، وتركوا التوحيد، فالنصارى مثلثة، وعامة اليهود مشبهة، والكل شرك، وهو كقولك: جاءني العقلاء والظرفاء، وأنت تريد أقواماً بعينهم تصفهم بالأمرين، قال تعالى: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢]، وهذا وصف للطائفة الواحدة، فالمعنى على هنا من أهل الكتاب المشركين.

[وقيل: أهل الكتاب كانوا مؤمنين، ثم كفروا بعد أنبيائهم، والمشركون ولدوا على الفطرة، ثم كفروا حين بلغوا.

وقيل: الكفر هنا هو الكفر بمحمد ﷺ أي: لم يكن الذين كفروا بمحمد ﷺ من اليهود والنصارى الذين هم أهل الكتاب، ولم يكن المشركون الذين هم عبدة الأوثان من العرب وغيرهم، وهم الذين ليس لهم كتاب منفكين.

قال القشيريُّ: وفيه بعد، لأن الظاهر من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أنّ هذا الرسول هو محمد ﷺ.

فيبعد أن يقال لم يكن الذين كفروا الآن بمحمد ﷺ منفكين، حتى يأتيهم محمد رسول الله ﷺ إلا أن يقال: أراد لم يكن الذين كفروا الآن بمحمد ﷺ وقد كانوا من قبل معظمين له منتهين عن هذا الكفر إلى أن يبعث الله تعالى لهم محمداً ﷺ ويبين لهم الآيات، فحينئذٍ يؤمن قوم][1].

وقرأ الأعمش وإبراهيم[2]: «والمُشرِكُونَ» رفعاً عطفاً على «الَّذينَ كَفرُوا».

قال القرطبيُّ[3]: «والقراءة الأولى أبين، لأن الرفع يصير فيه الصنفان، كأنهم من غير أهل الكتاب».

وفي حرف أبيّ[4]: «فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون منفكين».

قال ابن الخطيب: فإن قيل: لم قال الذين كفروا، بلفظ الفعل، وذكر المشركين

---

(١) سقط من: ب.
(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٩٦.
(٣) ينظر السابق.
(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٩٦.

باسم الفاعل؟ فالجوابُ: أن أهل الكتاب ما كانوا كافرين من أول الأمر؛ لأنهم كانوا مصدقين بالتوراة والإنجيل، وبمبعث محمد ﷺ بخلاف المشركين، فإنهم ولدوا على عبادةِ الأوثان، وذلك يدل على الثبات على الكفر.

قوله: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾.

قيل: البينة، محمد ﷺ لأنه في نفسه بينة وحُجَّة ولذلك سمَّاه الله ـ تعالى ـ سراجاً منيراً.

قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وهو رفع على البدل من «البَيِّنةُ»، ولأن اللام في «البَيِّنةُ» للتعريف أي: هو الذي سبق ذكره في التوراة والإنجيل على لسان موسى وعيسى، وقد يكون التعريف للتفخيم؛ إذ هو البينة التي لا مزيد عليها والبينة كل البينة، وكذا التنكير، وقد جمعهما الله ـ تعالى ـ هاهنا ـ في حق الرسول، أي: هو رسول، وأي رسول ﷺ ونظيره: قوله تعالى حين أثنى على نفسه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥] ثم قال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦] فنكر بعد التعريف.

وقال أبو مسلم[١]: المراد من البينة مطلق الرسل، فقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ أي: تأتيهم رسل من ملائكة الله تعالى، تتلو عليهم صحفاً مطهرة، نظيره: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [المدثر: ٥٢].

وقال قتادة وابن زيد: «البَيِّنةُ» هي القرآن، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾[٢] [طه: ١٣٣].

قوله: «رسُولٌ»، العامة: على رفعه بدلاً من «البينة»، إما بدل اشتمال، وإما بدل كل من كل على سبيل المبالغة، جعل الرسول ﷺ نفس البينة، أو على حذف مضاف، أي: بينة رسول.

وقال الفرَّاء: رفع على خبر ابتداء مضمر، أي: هي رسول، أو هو رسول من الله لأن البينة قد تذكَّر، فيقال: بَيِّنتي فلان.

وقرأ عبد الله وأبيّ[٣]: «رسولاً» على الحال من «البينة».

وقال القرطبي[٤]: «بالنصب على القطع».

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٢/ ٤٠.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٥٦)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٤٢)، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٨٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٠٧، والبحر المحيط ٨/ ٤٩٥، والدر المصون ٦/ ٥٥٢.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٩٦.

قوله: «من اللَّهِ» يجوز تعلُّقه بنفس «رسول» أو بمحذوف على أنه صفة لـ «رسول»، وجوز أبو البقاء ثالثاً، وهو أن يكون حالاً من «صحفاً»، والتقدير: يتلو صحفاً مطهرة منزلة من الله[1] تعالى.

يعني كانت صفة في الأصل للنَّكرة، فلما تقدمت عليها نصبت حالاً.

قوله: «يتلو» يجوز أن يكون صفة لـ «رسول» وأن يكون حالاً من الضمير في الجار قبله، إذا جعله صفة لـ «رسول». و «يتلو»: أي: يقرأ، يقال: تلا يتلو تلاوة. و «صُحُفاً» جمع صحيفة، وهي ظرف المكتوب.

«مُطهَّرة»، قال ابن عبَّاسٍ: من الزور، والشك، والنفاق، والضلالة[2]، وقال قتادة: من الباطل[3].

وقيل: من الكذب والشبهات، والمعنى واحد [أي: يقرأ ما تتضمن الصحف من المكتوب بدليل أنه كان يتلو عن ظهر قلب لا عن كتابٍ، ولأنه كان أميًّا لا يقرأ، ولا يكتب، ومطهرة من نعت الصحف كقوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ فالمطهرة: نعت للصحف في الظاهر، وهو نعت لما في الصحف من القرآن.

وقيل: مطهرة أي: لا يمسُّها إلا المطهرون كما تقدم في سورة «الواقعة».

وقيل: الصحف المطهرة هي التي عند الله ـ تعالى ـ في أم الكتاب الذي منه نسخ ما أنزل على الأنبياء صلوات الله عليهم من الكتب لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾][4].

قوله: ﴿فِيهَا كُتُبٌ﴾. يجوز أن تكون جملة صفة لـ «صُحُفاً»، أو حالاً من ضمير «مُطهَّرة» وأن يكون الوصف أو الحال الجار والمجرور فقط، و «كتب» فاعل به، وهو الأحسن، والمراد بالكتب: الآيات المكتوبة في الصحف، والقيمةُ: المستقيمة المحكمةُ، من قول العرب: قام يقوم إذا استوى وصح.

وقال صاحب «النَّظم»[5]: الكتب بمعنى الحكم؛ لقوله تعالى: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، ومنه حديث العسيف: «لأقضينَّ بَينكُمَا بكِتابِ اللَّهِ»[6]، ثم قضى بالرَّجْم، وليس ذكر الرجم مسطُوراً في الكتاب.

---

(١) الإملاء ٢/ ٢٩١.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٩٦).

(٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) سقط من: ب.

(٥) ينظر: الفخر الرازي ٣٢/ ٤١.

(٦) أخرجه البخاري (١٢/ ١٨٥)، كتاب: الحدود، باب: الإمام يأمر رجلاً فيضرب الحد غائباً حديث (٦٨٥٩، ٦٨٦٠)، ومسلم (٣/ ١٣٢٤)، كتاب: الحدود، باب: من اعترف على نفسه بالزنا حديث (١٦٩٧/٢٥، ١٦٩٨)، من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني.

وقيل: الكتب القيمة: هي القرآن، سمي كتباً، لأنه يشتمل على أنواع من البيان.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾

قوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾. أي: من اليهود والنصارى، خصَّ أهل الكتاب بالتفريق دون غيرهم، وإن كانوا مجموعين مع الكافرين؛ لأنهم مظنون بهم علم، فإذا تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب لهم أدخل في هذا الوصف.

قوله: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾. أي: أتتهم البينة الواضحة، والمعني به محمد ﷺ، أي القرآن موافقاً لما في أيديهم من الكتاب بنعته وصفته، وذلك أنهم كانوا مجتمعين على نبوته، فلما بعث جحدوا نبوته وتفرقوا، فمنهم من كفر، بغياً وحسداً، ومنهم من آمن، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤] وقيل: البينة البيان الذي في كتبهم أنه نبي مرسل.

قال العلماء: من أول السورة، إلى قوله: «قَيِّمة» حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ﴾ حكمه فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب بعد قيام الحُجج.

قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟﴾. يعني هؤلاء الكفار في التوراة والإنجيل ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أي: يوحدوه، واللام في ﴿لِيَعْبُدُوا۟﴾ بمعنى «أنْ» كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] أي: أن يبين، و ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ٨].

قوله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾. العامة: على كسر اللام، اسم فاعل، وانتصب به الدين.

والحسن[(١)]: بفتحها، على أنهم يخلصون هم أنفسهم في شأنهم.

وانتصب «الدِّينَ» على أحد وجهين: إما إسقاط الخافض، أي: «في الدين»، وإما على المصدر من معنى «ليعبدوا»، وكأنه قيل: ليدينوا الدين، أو ليعبدوا العبادة. [فالتجوز إما في الفعل، وإما في المصدر، وانتصاب مخلصين على الحال من فاعل «يعبدون»][(٢)].

قوله: «حنفاء» حال ثانية، أو حال من الحال قبلها، أي: من الضمير المستكن فيها.

[قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟﴾ أي: وما أمروا بما أمروا به إلا لكذا، وقرأ عبد الله[(٣)]: وما

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٨، والبحر المحيط ٨/ ٤٩٥، والدر المصون ٦/ ٥٥٢.
(٢) سقط من: ب.
(٣) ينتظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٩٧.

أمروا إلا أن يعبدوا، أي بأن يعبدوا، وتقدم تحرير مثله عند قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في سورة الأنعام [آية: ٧١]][1].

فصل في معنى الآية

قال المفسرون: المعنى، وما أمر هؤلاء الكفار في التوراة والإنجيل ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أي: ليوحدوه، واللام بمعنى «أنْ» كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١] أي: العبادة، وفي هذا دليل على وجوب النية في العبادات، فإن الإخلاص عمل القلب، وهو أن يراد به وجه الله لا غيره، وقوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ﴾، أي: مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، وكان ابن عباس يقول: حنفاء: على دين إبراهيم عليه السَّلام[2].

وقيل: الحنيف: من اختتن وحجّ، قاله سعيد بن جبير.

وقال أهل اللغة: وأصله أنه تحنف إلى الإسلام، أي: مال إليه.

قوله: ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي يصلُّوها في أوقاتها ﴿وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: يعطوها عند محلها، وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ أي: ذلك الدين الذي أمروا به دين القيمة، أي: الدين المستقيم، وقال الزجاج أي: ذلك دين الملة المستقيمة، و «القَيِّمَةِ» نعت لموصوف محذوف، وقيل: «ذلك» إشارة إلى الدين، أي ذلك الدين الذي أمروا به أي الدين المستقيم أي ذلك دين الأمة القيمة.

وقال محمد بن الأشعث الطالقاني: الكتب القيمة، لأنها قد تقدمت في الذكر، قال تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ فلما أعادها مع «أل» العهدية، كقوله تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٦]، وهو حسن.

وقرأ الحسن، وعبد الله[3]: «وذلك الدين القيمة»، والتأنيث حينئذٍ، إما على تأويل الدين بالملة، كقوله: [البسيط]

٥٢٦٤ ـ .... سَائِلْ بَنِي أَسَدٍ مَا هَـٰذِهِ الصَّوتُ[4]

وقال الخليل: القيمة جمع القيم، والقيم والقيمة واحد بتأويل: الصيحة، وإما على أنها تاء المبالغة: كـ «علامة».

وقال الفراء: أضاف الدين إلى «القيمة» وهو نعته، لاختلاف اللفظين، وعنه أيضاً: هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه، ودخلت الهاء للمدح.

---

(١) سقط من: ب.
(٢) ينظر القرطبي (٢٠/ ٩٦).
(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٩٥، والدر المصون ٦/ ٥٥٢.
(٤) تقدم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ كما مرَّ في أول السورة، وقوله تعالى: ﴿فِى نَارِ﴾ هذا هو الخبر، و ﴿خَـٰلِدِينَ﴾ حال من الضمير المستكن في الخبر.

قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾.

وقرأ نافع وابن ذكوان[1]: «البريئة» بالهمز في الحرفين، والباقون: بياء مشددة.

واختلف في ذلك الهمز، فقيل: هو الأصل من برأ الله الخلق: ابتدأه واخترعه، قال تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢]، فهي فعيلة بمعنى مفعولة، وإنما خففت والتزم تخفيفها عند عامة العرب.

وقد تقدم أن العرب التزمت غالباً تخفيف ألفاظ منها: النبي، والجاثية، والذرية.

قال القرطبي[2]: «وتشديد الياء عوض من الهمزة».

وقيل: «البريَّة» دون همز مشتقة من «البرى» وهو التراب، فهي أصل بنفسها، والقراءتان مختلفتا الأصل متّفقتا المعنى. إلا أن عطية ضعف هذا، فقال[3]: «وهذا الاشتقاق يجعل الهمز خطأً، وهو اشتقاق غير مُرْض» انتهى.

يعني أنه إذا قيل: إنها مشتقة من «البرى» وهو التراب، فمن أين تجيء الهمزة في القراءة الأخرى.

قال شهاب الدين[4]: «هذا غير لازم، لأنهما قراءتان مشتقتان، لكل منهما أصل مستقل، فتلك من «برأ»، أي: خلق، وهذه من «البرى» لأنهم خلقوا منه، والمعني بالقراءتين شيء واحد وهو جميع الخلق، ولا يلتفت إلى من ضعف الهمز من النحاة لثبوته متواتراً».

قال القشيريُّ: «ومن قال: البرية من البرى، وهو التراب، قال: لا تدخل الملائكة تحت هذه اللفظة».

وقيل: البرية: من بريت القلم، أي قدرته، فتدخل فيه الملائكة، ولكنه قول ضعيف؛ لأنه يجب فيه تخطئةُ من همز.

---

(١) ينظر: السبعة ٦٩٣، والحجة ٦/٤٢٨، وإعراب القراءات ٢/٥١٣، وحجة القراءات ٧٦٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٩٨. (٣) المحرر الوجيز ٥/٥٠٨.
(٤) الدر المصون ٦/٥٥٣.

وقوله: ﴿هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾، أي: شر الخليقة، فقيل: يحتمل أن يكون على التعميم.

وقال قوم: أي هم شرُّ البرية الذين كانوا في عصر النبي ﷺ كقوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]، أي: على عالمي زمانكم، ولا يبعد أن يكون في كفار الأمم قبل هذا من هو شرّ منهم، مثل: فرعون، وعاقر ناقة صالح، وكذا قوله: ﴿خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ إما على التعميم، أو خير برية عصرهم، وقد استدل بقراءة الهمزة من فضل بني آدم على الملائكة.

وقال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: المؤمن أكرم على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من بعض الملائكة الذين عنده[(١)].

وقرأ العامة: ﴿خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ مقابلاً لـ «شرّ».

وقرأ عامر بن[(٢)] عبد الواحد: «خِيارُ البريَّةِ» وهو جمع «خير» نحو: جِيَاد، وطِيَاب، في جمع جيد وطيب؛ قاله الزمخشريُّ[(٣)]. قال ابن الخطيب[(٤)]: وقدم الوعيد على الوعد، لأنه كالداء، والوعد: كالغذاء والدَّواء، فإذا بقي البدن استعمل الغذاء، فينتفع به البدن، لأن الإنسان إذا وقع في شدة رجع إلى الله تعالى، فإذا نال الدنيا أعرض.

قوله: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾. أي: ثوابهم عند خالقهم ومالكهم ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ﴾.

قال ابن الخطيب[(٥)]: قال بعض الفقهاء: من قال: لا شيء لي على فلان انتفى الدين، وله أن يدعي الوديعة، وإن قال: لا شيء لي عنده انصرف إلى الوديعة دون الدين، وإن قال: لا شيء لي قبلهُ انصرف إليهما معاً، فقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يفيد أنها أعيان مودعة عنده، والعين أشرف من الدين، والضمان إنما يرغب فيه خوف الهلاك، وهو محال في حقه تعالى. وتقدم الكلام على نظيره.

قوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾، الجنات: البساتين، والعدن: الإقامة، يقال: عدن بالمكان يعدن عدناً وعدوناً، أي: أقام. ومعدن الشيء: مركزه ومستقره، وقيل: «عدن»: بطنان الجنة ووسطها.

قوله: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، حال عامله محذوف، تقديره: ادخلوها خالدين، أو أعطوها، ولا يجوز أن يكون حالاً من الضمير المجرور في «جزاؤهُم» لئلا يلزم الفصلُ بين المصدر ومعموله بأجنبي، على أنَّ بعضهم: أجازه من «هم» واعتذر هنا بأن المصدر غير مقدر بحرف مصدري.

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٤٢)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٩٥، والدر المصون ٦/ ٥٥٣.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٨٣.

(٤) الفخر الرازي ٣٢/ ٤٨.

(٥) ينظر السابق ٣٢/ ٥١.

قال أبو البقاء[(١)]: وهو بعيد، وأما «عِندَ ربِّهِمْ» فيجوز أن يكون حالاً من «جَزاؤهُمْ»، وأن يكون ظرفاً له، و «أبَداً» ظرف مكان منصُوب بـ «خَالِدِيْنَ». أي لا يظعنون ولا يموتون.

قوله: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾، يجوز أن يكون دعاء مستأنفاً، وأن يكون خبراً ثانياً، وأن يكون حالاً ثانياً بإضمار «قَد» عند من يلزم ذلك.

قال ابن عباس: «رضي اللَّهُ عنهُمْ ورَضُوا عَنْهُ» أي: رضوا بثواب الله تعالى[(٢)].

قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ أي: ذلك المذكور من استقرار الجنة مع الخلود.

أي: خاف ربه، فتناهى عن المعاصي.

روى أنس ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال لأبيٍّ بن كعب: إن اللَّه تَعالَى أمَرنِي أنْ أقْرَأ عليْكَ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، قال: وسمَّاني لك؟ قال ـ عليه الصَّلاة والسلام ـ: «نَعم»، فبكى. خرجه البخاري ومسلم[(٣)].

قال القرطبيُّ[(٤)]: «من الفقه قراءة العالم على المتعلم».

قال بعضهم: إنما قرأ النبي ﷺ على أبيٍّ، ليعلم الناس التواضع لئلا يأنف أحد من التعلم والقراءة على من دونه في المنزلة.

وقيل: إن أبياً كان أسرع أخذاً لألفاظ رسول الله ﷺ ويعلم غيره، فأراد بقراءته عليه أن يأخذ ألفاظه ويقرأ كما سمع منه ﷺ، وفيه فضيلة عظيمة لأبيّ رضي الله عنه وعن بقية الصحابة أجمعين إذ أمر ﷺ أن يقرأ عليه. والله أعلم.

---

(١) ينظر: الإملاء ٢/ ٢٩١.

(٢) ينظر تفسير القرطبي (٢٠/ ٩٩).

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ٥٩٧)، كتاب: التفسير، باب: سورة لم يكن (٤٩٦٠)، ومسلم (٤/ ١٩١٥)، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبيّ بن كعب رقم (١٢٢/ ٧٩٩)، من حديث أنس بن مالك.

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٩٤.

سورة الزلزلة

مدنية[1] في قول ابن عباس وقتادة، ومكية في قول ابن مسعود وعطاء وجابر[2]، وهي ثمان آيات، وخمس وثلاثون كلمة، ومائة وتسع وأربعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾. «إذَا» شرط، وجوابه «تُحدِّثُ»، وهو النَّاصب لها عند الجمهور.

وجوَّز أبو البقاء[3] أن يكون العامل فيها مصدراً.

وغيره يجعل العامل فيها ما بعدها، وإن كان معمولاً لها بالإضافة تقديراً، واختاره مكي، وجعل ذلك نظير «من وما»، يعني أنهما يعملان فيما بعدهما الجزم، وما بعدهما يعمل فيهما النصب، ولو مثل بـ «أي» لكان أوضح.

وقيل: العامل فيها مقدر، أي: يحشرون.

وقيل: اذكر، وحينئذ يخرج عن الظرفية والشرط.

فصل في المناسبة بين أول هذه السورة وآخر السورة المتقدمة

وجه المناسبة بين أول هذه السُّورة وآخر السورة المتقدمة، أنه تعالى لما قال: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فكأن المكلف قال: ومتى يكون ذلك؟.

فقيل له: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ فالعاملون كلهم يكونون في الخوف، وأنت في ذلك الوقت تنال جزاءك، وتكون آمناً، لقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

وقيل: لما ذكر في السُّورة المتقدمة وعيد الكافر ووعد المؤمن أراد أن يزيد في

---

(١) في أ: مكية.

(٢) ينظر تفسير الماوردي (٦/ ٣١٨).

(٣) ينظر الإملاء ٢/ ٢٩٢.

وعيد الكافر، فقال: أجازيه، حتى يقول الكافر السابق ذكره: ما للأرض تزلزلت، نظيره ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، فذكر سبحانه الطائفتين، وذكر ما لكل طائفةٍ، ثم جمع بينهما في آخر السورة بذكر الذرة من الخير، فإن قيل: «إِذَا» للوقت، فكيف وجه البداية بها في السورة؟ الجواب: أنهم كانوا يسألونه عن الساعة، فقال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ فإنه تعالى يقول: لا سبيل إلى تعيينها بحسب وقتها، ولكن أعينه بحسب علاماته، أو أنه تعالى أراد أن يخبر المكلف أن الأرض تتحدث وتشهد يوم القيامة مع أنها في هذه الساعة جماد، فكأنه لما قيل: متى يكون ذلك؟ قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾.

فصل في معنى الزلزلة

روى عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه كان يقول: النفخة الأولى تزلزلها[١]، وهو قول مجاهد، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦، ٧]، ثم تزلزل ثانية، فتخرج موتاها، وهي الأثقال، وذكر المصدر للتأكيد، ثم أضيف إلى الأرض، كقولك: لأعطينَّك عطيتك، أي: عطيتي لك، وحسن ذلك لموافقة رءوس الآي بعدها.

وهو مصدر مضاف لفاعله، والمعنى زلزالها الذي تستحق ويقتضيه عظمها.

قال الزمخشري[٢]: «ونحوه قولك: أكرم التقي إكرامه، وأهن الفاسق إهانته».

قرأ الجمهور: «زِلْزالهَا» بكسر الزاي، **والجحدري وعيسى**[٣]: بفتحها.

قيل: هما مصدران بمعنى.

وقيل: المكسور مصدر، والمفتوح اسم، قاله الزمخشري[٤]. وليس في الأبنية «فعلال» يعني غالباً، وإلا فقد ورد: ناقة جزعال.

قال القرطبيُّ[٥]: «والزَّلزال ـ بالفتح ـ مصدر، كالوسواس، والقلقال والجرْجَار».

قوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾.

قال أبو عبيدة والأخفش: إذا كان الميت في بطن الأرض، فهو ثقل لها، وإذا كان فوقها، فهو ثقل عليها.

وقال ابن عباس ومجاهد: «أَثْقَالَهَا» موتاها، تخرجهم في النفخة الثانية[٦].

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٠٠). (٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٨٣.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥١٠، والبحر المحيط ٨/ ٤٩٦، والدر المصون ٦/ ٥٥٤.

(٤) ينظر الكشاف ٤/ ٧٨٣. (٥) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٠٠.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٥٩)، عن ابن عباس ومجاهد وذكره السيوطي في «الدر المنثور»=

ومنه قيل للجن والإنس: الثقلان، وقيل: «أثْقالهَا»: كنوزها، ومنه الحديث: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الإسطوان من الذهب والفضة»[١].

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾، أي ابن آدم، الكافر.

وقال ابن عباس: هو الأسود بن عبد الأسد.

وقيل: أراد كلَّ إنسان يشاهد ذلك عند قيام الساعة في النفخة الأولى من مؤمن وكافر، وقوله: ﴿مَا لَهَا﴾ ابتداء وخبر، وهذا يرد قول من قال: إن الحال في نحو قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٩] لازمة لئلا يصير الكلام غير مفيد، فإنه لا حال هنا، ومعنى: ﴿مَا لَهَا﴾ أي: ما لها زلزلت، وقيل: ما لها أخرجت أثقالها! وهي كلمة تعجب، أي: لأي شيء زلزلت؟! ويجوز أن يُحيي الله الموتى بعد وقوع النفخة الأولى، ثم تتحرك الأرض، فتخرج الموتى، وقد رأوا الزلزلة، وانشقاق الأرض عن الموتى فيقولون من الهول: ما لها، [كأنهم يخاطبون أنفسهم تعجباً][٢].

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم إذا زلزلت، والعامل في «يَومَئذٍ»: «تُحدِّثُ» إن جعلت «إذَا» منصوبة بما بعدها، [أو بمحذوف، وإن جعلت العامل فيها «تحدّث» كان «يومئذ» بدلاً منها فالعامل فيه][٣] العامل فيها، أو شيء آخر، لأنه على تكرير العاملِ، وهو خلاف مشهور.

فصل في معنى الآية

معنى «تحدث أخبارها»، أي: تخبر الأرض بما عمل عليها من خير، أو شر يومئذ.

ثم قيل: هو من قول الله تعالى.

وقيل: من قول الإنسان، أي: يقول الإنسان «مَا لهَا»، «تُحدِّثُ أخْبارهَا» متعجباً.

روى الترمذي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: «أتدْرُونَ ما أخْبارُهَا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنَّ أخبارها أن تشهدَ على كُلِّ عبدٍ أو أمةٍ بما عمل على ظهرهَا تقُول: عملَ يَوْمَ كَذَا، كَذَا وكَذَا، قال: «فهَذهِ أخْبارُهَا»[٤].

= (٦/ ٦٤٥)، عن ابن عباس وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وذكره أيضاً عن مجاهد وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٧٠١)، كتاب: الزكاة، باب: الترغيب في الصدقة (٦٢/ ١٠١٣)، والترمذي (٤/ ٤٢٧)، كتاب: التفسير، باب: (٣٦)، رقم (٢٢٠٨)، والبغوي في «شرح السنة» (٧/ ٤٢٥)، من حديث أبي هريرة.

(٢) سقط من: ب.

(٣) سقط من: أ.

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٤١٦)، رقم (٣٣٥٣)، والحاكم (٢/ ٥٣٣)، وأحمد (٢/ ٣٧٤)، والنسائي في=

قال الماورديُّ: قوله تعالى: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ فيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن تحدث أخبارها بأعمال العباد على ظهرها، قاله أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ ورواه مرفوعاً[١]، وهو قول من زعم أنها زلزلة القيامة.

الثاني: قال يحيى بن سلام: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ بما أخرجت من أثقالها، وهو قول من زعم أنها زلزلة أشراط الساعة.

الثالث: قال ابن مسعود: أنها تحدث بقيام الساعة، إذا قال الإنسان: ما لها؟ فتخبر أن أمر الدنيا قد انقضى، وأمر الآخرةِ قد أتى، فيكونُ ذلك منها جواباً لهم عند سؤالهم، ووعيداً للكافر، وإنذاراً للمؤمن.

وفي حديثها بأخبارها ثلاثةُ أقاويل:

أحدها: أن الله تعالى يقلبها حيواناً ناطقاً، فتتكلم بذلك.

الثاني: أن الله يحدث فيها الكلام.

الثالث: أنه يكون منها بيان يقوم مقام الكلامِ.

قال الطبريُّ[٢]: تبين أخبارها بالرَّجَّة[٣]، والزلزلة، وإخراج الموتى.

قوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ﴾ متعلق بـ «تُحدِّثُ»، أي: تحدث الأرض بما أوحى إليها ويجوز أن يتعلق بنفس أخبارها.

وقيل: الباء زائدة و «أنَّ» وما في حيزها بدل من أخبارها.

وقيل: الباء سببية، أي: بسبب إيحاء الله إليها.

وقال الزمخشريُّ: «فإن قلت[٤]: أين مفعولا «تُحدِّثُ»؟.

قلت: حذف أولهما، والثاني: أخبارها، أي: تحدث الخلق أخبارها، إلا أن المقصود ذكر تحديثها الأخبار لا ذكر الخلق تعظيماً لليوم.

فإن قلت: بم تعلقت الباء، في قوله «بأنَّ ربَّك»؟.

قلتُ: بـ «تحدث» ومعناه: تحدث أخبارها بسبب إيحاء ربك لها، وأمره إياها

= «الكبرى» (٦/ ٥٢٠)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٦١) من حديث أبي هريرة وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٤٥) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في «الشعب».

(١) هو الحديث السابق.

(٢) جامع البيان ١٢/ ٦٦٠.

(٣) في أ: بالرجفة.

(٤) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٨٤.

بالتحديث، ويجوز أن يكون المعنى: يومئذٍ تحدثُ بتحديث أن ربَّك أوحى لها أخبارها على أن تحديثها بأن ربَّك أوحى لها تحديث بأخبارها، كما تقول: نصحتني كُلَّ نصيحة بأن نصحتني في الدين».

قال أبو حيان[١]: وهو كلام فيه عفش، ينزه القرآن عنه.

قال شهاب الدين[٢]: وأي عفش فيه، فصحته وفصاحته، ولكنه لما طال تقديره من جهة إفادة هذا المعنى الحسن جعله عفشاً وحاشاه.

ثم قال الزمخشري[٣]: «ويجوز أن يكون «بأنَّ ربَّك» بدلاً من «أخْبارهَا» كأنه قيل: يومئذ تحدث بأخبارها بأن ربَّك أوحى لها، لأنك تقول: حدثته كذا، وحدثته بكذا».

قال أبو حيَّان[٤]: «وإذا كان الفعل تارة يتعدى بحرف جر، وتارة يتعدى بنفسه، وحرف الجر ليس بزائد، فلا يجوز في تابعه إلاَّ الموافقة في الإعراب، فلا يجوز: «استغفرتُ الذنب العظيم» بنصب «الذنب» وجر «العظيم» لجواز أنك تقول: «من الذنب»، ولا «اخترتُ زيداً الرجال الكرامِ» بنصب «الرجال» وخفض «الكرام»، وكذلك لا يجوز: «استغفرتُ من الذنب العظيمَ» بجر «الذنب» ونصب «العظيم»، وكذلك في «اخترتُ» فلو كان حرف الجر زائداً جاز الإتباع على موضع الاسم، بشروطه المحررة في علم النحو، تقول: ما رأيت من رجل عاقلاً، لأن «من» زائدة، ومن رجل عاقل على اللفظ، ولا يجوز نصب «رجل» وجر «عاقل» على مراعاة جواز دخول «من» وإن ورد شيء من ذلك، فبابه الشعر». انتهى.

قال شهاب الدين[٥]: ولا أدري كيف يلزم الزمخشري ما ألزمه به من جميع المسائلِ التي ذكرها، فإن الزمخشري يقول: إن هذا بدل مما قبله، ثم ذكر مسوغ دخول الباءِ في البدل، وهو أن المبدل منه يجوز دخول الباء عليه، فلو حل البدل محل المبدل منه ومعه الباء لكان جائزاً، لأن العامل يتعدى به، وذكر مسوغاً لخلو المبدل منه من الباء، فقال: «لأنك تقول: حدثته كذا وحدثته بكذا»، وأما كونه يمتنع أن يقول: «استغفرتُ الذنب العظيم» بنصب «الذنب» وجرّ «العظيم» إلى آخره، فليس في كلام الزمخشري شيء منه ألبتة، ونظير ما قاله الزمخشري في باب «استغفر» أن تقول: استغفرتُ الله ذنباً من شتمي زيداً، فقولك «من شتمي» بدل من «الذنب»، وهذا جائزٌ لا محالة.

قوله ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾. في هذه اللام أوجه:

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٩٧.
(٢) الدر المصون ٦/ ٥٥٥.
(٣) الكشاف ٤/ ٧٨٤.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٤٩٧.
(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٥٥٥.

أحدها: أنها بمعنى «إلى»، وإنما أوثرت على «إلى» لمراعاة الفواصل، والمعنى: أوحى لها تحدث أخبارها بوحي الله تعالى لها أي إليها، والعرب تضع لام الصفة موضع «إلى»، قال العجَّاجُ يصفُ الأرض: [الرجز]

٥٢٦٥ ـ أوْحَى لَهَا القَرار فاسْتقرَّتِ وشَدَّهَا بالرَّاسياتِ الثُّبَّتِ[١]

قاله أبو عبيدة.

الثاني: على أصلها، «أوحَى» يتعدى باللام تارة، وبـ «إلى» أخرى، ومنه البيت.

الثالث: اللام على بابها من العلة، والموحى إليه محذوف، وهو الملائكة، تقديره: أوحى إلى الملائكة لأجل الأرض، أي: لأجل ما يفعلون فيها.

قال الثوريُّ: تحدث أخبارها مما كان عليها من الطَّاعات والمعاصي، وما كان[٢] على ظهرها من خير وشر.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ إما بدل من «يَومئذٍ» قبله، وإما منصوب بـ «يَصْدرُ»، وإما منصوب بـ «اذكر» مقدراً. وقوله تعالى: ﴿أَشْتَاتًا﴾: حال من الناس، وهو جمع «شت» أي: متفرقين في الأمن والخوف والبياض والسواد، والصدر ضد الورود عن موضع الحساب، فريق إلى جهة اليمين إلى الجنة، وفريق إلى جهة الشِّمال إلى النار، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: «أشْتَاتاً» متفرقين على قدر أعمالهم، أهل الإيمان على حدة، وأهل كل دين على حدة[٣].

وقيل: هذا الصدر إنما هو عند النشور، يصدرون أشتاتاً، من القبور إلى موقف الحساب ليروا أعمالهم في كتبهم، أو ليروا جزاء أعمالهم، فإنهم وردوا القبور فدفنوا فيها ثم صدروا عنها، وقوله تعالى: ﴿أَشْتَاتًا﴾، أي: يبعثون من أقطار الأرض، فعلى هذا قوله تعالى: ﴿لِّيُرَوْا۟﴾ متعلق بـ «يصدرُ»، وعلى القول الأول فيه تقديم وتأخير أي: تحدث أخبارها، بأن ربَّك أوحى لها، ليروا أعمالهم، واعترض قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ متفرقين عن موقف الحساب، وعلى هذا تتعلق بـ «أوحى»، وقرأ العامة: ببنائه للمفعول، وهو من رؤية البصر، فتعدى بالهمزة إلى ثان، وهو أعمالهم، والتقدير: ليريهم الله أعمالهم.

---

(١) ينظر ديوان العجاج ص ٢٦٦، واللسان (وحى) والمحتسب ٢/ ٣٣١، والبحر ٨/ ٤٩٧، والدر المصون ٦/ ٥٥٥.

(٢) في أ: عمل.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٠٢).

وقرأ[١] **الحسن والأعرج**، وقتادة، وحماد بن سلمة، ونصر بن عاصم، وطلحة، ويروى عن نافع: بفتحها.

قال الزمخشري[٢]: وهي قراءة رسول الله ﷺ مبنياً للفاعل.

قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: من يعمل من الكفار مثقال ذرة خيراً يره في الدنيا، ولا يثاب عليه في الآخرة، ومن يعمل مثقال ذرة من شر عوقب عليه في الآخرة مع عقاب الشرك، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من المؤمنين يره في الدنيا، ولا يعاقب عليه في الآخرة إذا مات، ويتجاوز عنه، وإن عمل مثقال ذرة من خير يقبل منه، ويضاعف له في الآخرة[٣].

وفي بعض الحديث: «أن الذرة لا زنة لهَا»، وهذا مثل ضربه الله تعالى أنه لا يغفل من عمل ابن آدم صغيرة، ولا كبيرة، وهو مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] وقد تقدم أن الذر لا وزن له.

وذكر بعض أهل اللغةِ: أن الذَّرَّ: أن يضرب الرَّجل بيده على الأرض، فما علق بها من التراب فهو الذَّر، وكذا قال ابن عباس: إذا وضعت يدك على الأرض، ورفعتها، فكل واحد مما لزق به من التراب ذرة[٤].

وقيل: الذر نملة صغيرة، وأصغر ما تكون إذا مضى عليها حول.

قال امرؤ القيس: [الطويل]

٥٢٦٦ ـ مِنَ القَاصِراتِ الطَّرفِ لوْ دَبَّ مُحولٌ مِـنَ الـذَّرِّ فـوْقَ الإتْـبِ مـنْـهَـا لأثَّـرَا[٥]

قال محمد بن كعب القرظي: فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر، يرى ثوابه في الدنيا، في نفسه وماله وأهله ووطنه، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في ماله ونفسه وأهله وولده، حتى يخرج من الدنيا، وليس له عند الله شر[٦]، ودليله ما رواه أنس ـ رضي الله عنه ـ أن هذه الآية نزلت على النبي ﷺ [وأبو بكر يأكل فأمسك، وقال: يا رسول الله][٧]، وإنا لنرى ما عملنا من خير وشر؟ قال النبي: «يا أبا بكر، مَا رأيْتَ في الدُّنيا مِمَا

---

(١) ينظر: إعراب القراءات ٢/ ٥١٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٥١١، والبحر المحيط ٨/ ٤٩٨، والدر المصون ٦/ ٥٥٥.

(٢) الكشاف ٤/ ٧٨٤.

(٣) ينظر القرطبي (٢٠/ ١٠٢).

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٠٣).

(٥) تقدم.

(٦) ينظر القرطبي (٢٠/ ١٠٣).

(٧) سقط من أ.

تكرَهُ فَهُو مَثَاقِيلُ ذر الشر، ويدخر لكم مثاقِيلُ ذرِّ الخَيْرِ، حتَّى تُعطوهُ يَوْمَ القِيَامةِ»(١).

قال أبو إدريس: إن مصداقه في كتاب الله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

قال مقاتل: نزلت في رجلين، وذلك أنه لما نزل ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨]، كان أحدهم يأتيه السائلُ، فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة، وكان الآخر يتهاون بالذَّنب اليسير، كالكذبة والغيبة والنظرة، ويقول: إنما أوعد الله النَّار على الكبائر، فنزلت ترغبهم في القليل من الخير أن يعطوه، فإنه يوشك أن يكثر، وتحذرهم اليسير من الذنب، فإنه يوشك أن يكثر، ولهذا قال النبي ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ ولَوْ بِشقِّ تَمرةٍ، فمَنْ لَمْ يَجدْ فَبِكَلمَةٍ طيِّبَةٍ».

فصل في قراءة «يره»

قوله: ﴿يَرَهُۥ﴾، جواب الشرط في الموضعين.

وقرأ هشام: بسكون(٢) **هاء** «يَرَهُ» وصلاً في الحرفين، وباقي السبعة: بضمها موصولة بواو وصلاً، وساكنة وقفاً، كسائر «ها» الكناية.

ونقل أبو حيان(٣) عن هشام وأبي بكر: سكونها.

وعن أبي عمرو: بضمها مشبعتين، وباقي السبعة بإشباع الأولى وسكون الثانية انتهى.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٦٢)، من حديث أنس وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٤٤ ـ ١٤٥)، وقال رواه الطبراني في الأوسط عن شيخه موسى بن سهل والظاهر أنه الوشاء وهو ضعيف. والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٤٦)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم في «تاريخه» وابن مردويه والبيهقي في «شعب الإيمان».

وله شاهد من حديث أبي أسماء الرحبي أخرجه الحاكم (٢/ ٥٣٢ ـ ٥٣٣)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وتعقبه الذهبي فقال: مرسل.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٤٦)، وزاد نسبته إلى إسحاق بن راهويه وعبد بن حميد وابن مردويه.

وللحديث شاهد آخر عن أبي أيوب ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٤٦)، وعزاه إلى ابن مردويه.

وللحديث شاهد أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص دون ذكر الأكل أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٦٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٤٦)، وزاد نسبته إلى ابن أبي الدنيا في «كتاب البكاء» والطبراني وابن مردويه والبيهقي في «شعب الإيمان».

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد (٧/ ١٤٤)، وقال رواه الطبراني وفيه حييّ بن عبد الله المعافري وثقه ابن معين وغيره وبقية رجاله رجال الصحيح. وحيي بن عبدالله ليس في إسناد الطبري.

(٢) ينظر: السبعة ٦٩٤، والحجة ٦/ ٤٢٩ ـ ٤٣٠، وإعراب القراءات ٢/ ٥١٦، وحجة القراءات ٧٦٩.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٩٨.

وكان ذلك لأجل الوقف على آخر السورة غالباً، أما لو وصلوا آخرها بأول «العَاديَات» كان الحكم الإشباع، وهذا مقتضى أصولهم، وهو المنقول.

وقرأ العامة: «يَرَهُ» مبنياً للفاعل فيهما.

وقرأ ابن عبَّاسٍ والحسن والحسين ابنا علي بن[١] **أبي طالب**، وزيد بن علي وأبو حيوة وعاصم والكسائي في رواية الجحدريّ والسلمي وعيسى بن عمر: بضم الياء، أي: يريه اللَّهُ إياه.

قال القرطبيُ[٢]: والأولى الاختيار، لقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا**﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقرأ عكرمة: «يَرَاه»[٣] بالألف، إما على تقدير الجزم بحذف الحركة المقدرة، وإما على توهم أن «من» موصولة. وتقدم هذا في أواخر «يوسف». ومعنى «يره» أي: يرى جزاءه؛ لأن ما عمله قد مضى وعدم.

وحكى الزمخشري[٤]: أن أعرابياً أخر: «خَيْراً يرهُ»، فقيل له: قدمت وأخرت؛ فقال: [الطويل]

٥٢٦٧ ـ خُذَا جَنْبَ هَرْشَىٰ أو قَفَاهَا فإنَّهُ ... كِلاَ جَانِبَيْ هَرْشَى لَهُنَّ طَرِيقُ[٥]

انتهى.

يريد: أن التقديم والتأخير سواء، وهذا لا يجوز ـ ألبتة ـ فإنه خطأ، فلا يعتد به قراءة. وفي نصب «خيراً، وشراً»، وجهان:

أظهرهما: أنهما تمييز لأنه مقدار.

والثاني: أنهما بدلان من مثقال.

فصل في الكلام على هذه الآية

قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: هذه أحكم آية في القرآن وأصدق[٦]. وقد اتفق العلماء على عموم هذه الآية، القائلون بالعموم ومن لم يقل به.

---

(١) ينظر: السبعة ٦٩٤، والحجة ٦/ ٤٢٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٥١٢، والبحر المحيط ٨/ ٤٩٨، والدر المصون ٦/ ٥٥٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٠٣.

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٥/ ٥١٢، والبحر المحيط ٨/ ٤٩٨، والدر المصون ٦/ ٥٥٦.

(٤) الكشاف ٤/ ٧٨٤.

(٥) قائله هو عقيل بن علفة ينظر سمط اللالىء ١/ ٤٣٧، والكشاف ٤/ ٧٨٥، والخزانة ٢/ ٢٧٨، واللسان (هرش)، والدر المصون ٦/ ٥٥٦.

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٠٤).

قال كعبُ الأحبار ـ رضي الله عنه ـ: لقد أنزل الله تعالى على محمد ﷺ آيتين، أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[١]. [وكان النبي ﷺ يسمي هذه الآية الجامعة الفاذّة][٢].

روى مالك في «الموطأ»: أن مسكيناً استطعم عائشة ـ رضي الله عنها ـ وبين يديها عنب، فقالت لإنسان: خذ حبة وأعطه إياها، فجعل ينظر إليها ويتعجب، فقالت عائشة: أتعجب، كم ترى في هذه الحبة من مثقال ذرة[٣].

روى الترمذي عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ عدلَتْ لهُ نِصفَ القُرآنِ، ومَنْ قَرَأَ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ عدلتْ لهُ ثُلُثَ القُرآنِ»[٤].

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ أربعَ مرَّاتٍ، كَانَ كَمنْ قَرَأَ القُرآنَ كُلَّهُ»[٥]. والله أعلم.

---

(١) ينظر المصدر السابق.

(٢) سقط من: ب.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٤٩)، وعزاه إلى مالك وابن سعد وعبد بن حميد.

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ١٥٢)، كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في إذا زلزلت من طريق الحسن بن مسلم بن صالح العجلي ثنا ثابت عن أنس به. وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث هذا الشيخ الحسن بن مسلم.
والحسن ذكره الحافظ في «التهذيب» (٢/ ٢٨٠)، وقال: وهو شيخ مجهول له حديث واحد في فضل إذا زلزلت رواه عن ثابت البناني وعنه محمد بن موسى الحرشي أخرجه الترمذي واستغربه وكذا فعل الحاكم أبو أحمد وقال العقيلي بصري مجهول في النقل وحديثه غير محفوظ وقال الآجري عن أبي داود خفي علينا أمره وقال ابن حبان: ينفرد عن الثقات بما لا يشبه حديث الأثبات.

(٥) ذكره الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» (٤/ ٧٨٥)، وقال أخرجه الثعلبي من حديث علي بإسناد أهل البيت ولكنه من رواية أبي القاسم الطائي وهو ساقط وشاهده عند ابن أبي شيبة والبزار من رواية سلمة بن وردان عن أنس مرفوعاً بلفظ: «إذا زلزلت تعدل ربع القرآن».

سورة العاديات

مكيةٌ، في قول ابن مسعود، وجابر، والحسن، وعكرمة، وعطاء، ومدنية في قول ابن عباس، وأنس بن مالك، وقتادة، وهي إحدى عشرة آية، وأربعون كلمة، ومائة وثلاثة وستون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾، جمع عادية، وهي الجارية بسرعة من العدو، وهو المشي بسرعةٍ، والياء منقلبة عن واو لكسر ما قبلها، نحو: الغازيات، من الغزو، ويقال: عَدا يَعْدُو عَدْواً، فهو عادٍ، وهي عادية. وقد تقدم هذا في سورة «المؤمنين».

قال عامة المفسرين: يريد الأفراس تعدو في سبيل الله تعالى.

قوله: ﴿ضَبْحًا﴾، فيه أوجه:

أحدها: أنه مصدر مؤكد لاسم الفاعل، فإن الضبح نوعٌ من السير والعدو كالضبع، يقال: ضبح وضبع: إذا عدا بشدة، أخذاً من الضبع وهو الذراع، لأنه يمده عند العدو، وكأن الحاء بدل من العين، وإلى هذا ذهب أبو عبيدة والمبردُ.

قال عنترةُ: [مجزوء الكامل]

٥٢٦٨ ـ والخَيْلُ تَعْلَمُ حِينَ تَضْـ ... ـبَحُ في حِيَاضِ المَوْتِ ضَبْحَا[(١)]

الثاني: أنه مصدر في موضع الحال، أي: ضابحات وذوي ضبح والضبح: صوت يسمع من صدور الخيل عند العدو، وليس بصهيل.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أنه حكاه، فقال: أَحِ أَحِ[(٢)].

---

(١) ينظر الكشاف ٤/٧٨٦، والقرطبي ٢٠/١٥، والبحر ٨/٥٠٠، والدر المصون ٦/٥٥٧.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦٦٦)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٥٢)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر.

وقال قتادة: تضبح إذا عدت، أي: تحمحم.

وقال الفراء: والضبح: أصوات أنفاسها إذا عدون. وقيل: كانت تكمكم لئلا تصهل، فيعلم العدو بهم، فكانت تتنفس في هذه الحال بقوة.

ونقل عن ابن عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ: أنه لم يضبح من الحيوان غير الخيل والكلب والثعلب[١]، وهذا ينبغي أن يصحَّ عنه؛ لأنه روي عنه أنه قال: سُئلتُ عنها، ففسرتها بالخيل؛ وكان علي ـ رضي الله عنه ـ تحت سقاية زمزم، فسأله، فذكر ما قلت؛ فدعاني، فلما وقفت على رأسه، قال: تفتي الناس بغير علم، والله إنها لأولُ غزوةٍ في الإسلام، وهي بدر، ولم يكن معنا إلا فرسان: فرسٌ للمقدادِ، وفرس للزبير، فكيف تكون العاديات ضبحاً؟ إنما العاديات الإبل من «عرفة» إلى «المزدلفة»، ومن «المزدلفة» إلى «منى» يعني إبل الحاج.

قال ابن عباسٍ: فرجعت إلى قول علي ـ رضي الله عنه ـ وبه قال ابن مسعود، وعبيد بن عمير، ومحمد بن كعب، والسديُّ رضي الله عنهم.

ومنه قول صفية بنت عبد المطلب: [الوافر]

٥٢٦٩ ـ فَلاَ والعَادِيَاتِ غَداةَ جَمْعٍ بِأيْدِيهَا إذَا سَطَعَ الغُبَارُ[٢]

إلا أن الزمخشري، قال بعد ذلك[٣]: «فإن صحت الروايةُ، فقد استعير الضبحُ للإبل، كما استعير المشافر والحافر للإنسان، والشفتان للمُهْرِ».

ونقل غيره: أن الضبح، يكون في الإبل، والأسود من الحيَّات، والبُوم، والصدى، والأرنب، والثعلب، والفرس.

وأنشد أبو حنيفة رضي الله عنه: [الرجز]

٥٢٧٠ ـ حَنَّانَةٌ مِنْ نَشَمٍ أوْ تَألَبِ تَضْبَحُ في الكَفِّ ضُبَاحَ الثَّعْلَبِ[٤]

قال شهاب الدين[٥]: وهذا عندي من الاستعارة، ونقل أهل اللغة أن أصل الضبح في الثعلب فاستعير للخيل، وهو ضبحته النار، إذا غيرت لونه ولم تبالغ، وانضبح لونه تغير لسواد قليل، والضبح أيضاً الرماد.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٦٦)، عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٥٢)، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ينظر القرطبي ٢٠/ ١٠٦، والبحر ٨/ ٥٠٠، ومجمع البيان ١٠/ ٨٠٣، والدر المصون ٦/ ٥٥٨، وفتح القدير ٥/ ٤٨٢.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٨٨.

(٤) ينظر اللسان (صبح)، والبحر ٨/ ٤٩٩، والدر المصون ٦/ ٥٥٧.

(٥) الدر المصون ٦/ ٥٥٨.

الثالث من أوجه النصب: أن يكون منصوباً بفعل مقدر، أي: يضبح ضبحاً، وهذا الفعل حال من «العَاديَاتِ».

الرابع: أنه منصوب بـ «العَادِياتِ»، وإن كان المراد به الصوت.

قال الزمخشري[١]: «كأنه قيل: والضابحات، لأن الضبح يكون مع العدو».

قال أبو حيَّان[٢]: «وإذا كان الضَّبح مع العدو، فلا يكونُ معنى والعاديات معنى الضابحات فلا ينبغي أن يفسر به» انتهى.

قال شهاب الدين[٣]: لم يقل الزمخشري إنه بمعناه، إنما جعله منصوباً، لأنه لازم لا يفارقه، فكأنه ملفوظ به. وقوله: كأنه قيل؛ تفسير التلازم لا أنه هو هو.

فصل في هذا القسم

قال ابن العربي: أقسم الله تعالى بمحمد ﷺ فقال: ﴿يسٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يس: ١، ٢]، وأقسم بحياته فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، وأقسم بخيله وصهيلها وغبارها، وقدح حوافرها النار من الحجر، فقال: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾.

وقال الشعبيُّ: تمارى عليٌّ وابن عباس في «العَادِياتِ» فقال علي: هي الإبل تعدو في الحج.

وقال ابن عباس: هي الخيلُ، ألا تراه يقولُ: «فأثَرْنَ بِهِ نقْعاً» فهل تثير إلا بحوافرها، وهل تضبح الإبل؟.

فقال علي رضي الله عنه: ليس كما قلت، لقد رأيتنا يوم بدر وما معنا إلا فرس أبلق للمقداد، وفرس لمرثد بن أبي مرثد[٤].

وعلى هذا فالقول: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ أي: الحافر يرمي بالحجر من شدة العدو، فيضرب به حجارة أخرى فتوري النار، أو يكون المعنى: الذين يركبون الإبل، وهم الحجيج إذا أوقدوا نيرانهم بـ «المزدلفة»، وقوله تعالى: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾، والإغارة: سرعة السير، وهم يدفعون صبيحة يوم النحر مسرعين إلى «منى».

﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ يعني «مزدلفة»، لأنها تسمى بجمع، لاجتماع الحاجِّ بها، وعلى هذا التقدير، فوجه القسم بها ما تقدم ذكره من المنافع الكثيرة في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧].

---

(١) الكشاف ٤/ ٧٨٦. (٢) البحر المحيط ٨/ ٥٠٠.
(٣) الدر المصون (٦/ ٥٥٨).
(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٥٢)، وعزاه إلى عبد بن حميد عن عامر الشعبي.

وأيضاً: الغرض بذكر إبل الحج: الترغيب في الحج، فإن الكنود: هو الكفور، والذي لم يحج بعد الوجوب موصوف بذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

ومن قال: هي الخيل، وهو قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك وعطاء وأكثر المحققين، قال: إنّ النبي ﷺ بعث سرية إلى أناس من بني كنانة، فأبطأ عليه خبرها، وكان استعمل عليها المنذر بن عمرو الأنصاري، وكان أحد النقباء، فقال المنافقون: إنهم قتلوا فنزلت هذه السورة إخباراً للنبي ﷺ بسلامتها، وبشارة له بإغارتها على القوم، فالمراد: الخيل التي يغزو[(١)] عليها المؤمنون.

وفي الخبر: «مَنْ لَمْ يَعرفْ حُرمَةَ فرسِ الغَازي، ففيهِ شُعبةٌ مِنَ النِّفاقِ»، وعلى هذا القول، فالسورة مدنية، لأن الإذن في القتال إنما كان بـ «المدينة».

قوله: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾، قال عكرمة وعطاء والضحاك: هي الخيلُ حين توري النار بحوافرها وهي سنابكها[(٢)].

و «قَدْحاً» يجوز أن يكون مصدراً مؤكداً؛ لأن الإيراء من القدح، يقال: قدح فأورى، وقدح فأصلد.

ويجوز أن يكون حالاً، فالمعنى: «قادحات»، أي: ضابحات بحوافرها ما توري النار، ويقال: قدحت الحجر بالحجر، أي: صككته به.

وقال الزمخشريُّ[(٣)]: انتصب «قدحاً» بما انتصب به «ضبحاً» وكأنه جوّز في نصبه ثلاثة أوجه: النصب بإضمار فعله، والنصب باسم الفاعل قبله لأنه ملازمه، والنصب على الحال، وتسمى تلك النار التي تخرج من الحوافر: نار الحباحب.

قال: [الطويل]

٥٢٧١ ـ تَقُدُّ السَّلوقِيَّ المُضاعَفَ نَسجهُ وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نَارَ الحُباحِبِ[(٤)]

فصل في معنى الموريات

روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أورت بحوافرها غباراً[(٥)]، وهذا يخالف سائر

---

(١) في ب: يعدو.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٦٧ ـ ٦٦٨)، عن عكرمة وعطاء والضحاك وقتادة.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٥٣)، عن قتادة وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٨٧.

(٤) البيت للنابغة ينظر ديوانه (١١)، وابن الشجري ٢/ ٥٨، والإيضاح الشعري ص ٥٧٤، ومجمع البيان ١٠/ ٨٠٢، والمعاني الكبير ص ١٠٨٠، واللسان (سلق)، (حبحب). والدر المصون ٦/ ٥٥٨.

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٠٧).

ما روي عنه في قدح النارِ، وإنما هذا في الإبل [وروى ابن نجيح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ قال هي في القتال وهو في الحج، قاله ابن مسعود هي الإبل تطأ الحصى فيخرج منه النار(١)](٢).

وأصل القدح: الاستخراج، ومنه قدحت العين: إذا أخرجت منها الماء الفاسد، واقتدحت بالزّند، واقتدحت المرق: غرفته. وركيٌّ قدوح: يغرف باليد.

والقديح: ما يبقى في أسفل القدر، فيغرف بجهد، والمقدحة: ما تقدح به النار.

والقداحة والقداح: الحجر الذي يُورِي النار.

يقال: وَرَى الزند ـ بالفتح ـ يري ورْياً: إذا خرجت ناره، وفيه لغة أخرى: ورِي الزند ـ بالكسر ـ يرى فيهما، وقد مضى في سورة «الواقعة».

وقيل: هذه الآيات في الخيل، ولكن إيراءها: أن تهيج الحرب بين أصحابها، وبين عدوهم. ويقال للحرب إذا التحمت: حَمِيَ الوطيس، ومنه قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤].

قال ابن عباس: المراد بـ ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ مكر الرجال في الحرب(٣)، وقاله مجاهد وزيد بن أسلم: والعربُ يقولون إذا أراد الرجل أن يمكر بصاحبه: والله لأمكرن بك، ثم لأورين لك.

وعن ابن عباس أيضاً: هم الذين يغزون فيورون نيرانهم بالليل، لحاجتهم وطعامهم(٤).

وعنه أيضاً أنها نيران المجاهدين إذ كثرت نارها إرهاباً، ليظنها العدو كثيراً.

وقيل هي أفكار الرجال توري النار من عظيم ما تتكلم به ويظهر بها من إقامة الحججِ، وإقامة الدَّلائلِ، وإيضاح الحق، وإبطال الباطلِ.

قال القرطبي(٥): هذه الأقوال مجاز، ومنه قولهم: فلان يُوري زناد الضلالة، والأول: الحقيقة، وأن الخيل من شدة عدوها تقدح النَّار بحوافرها.

قال مقاتل: العرب تسمي تلك النَّار نار أبي حُبَاحِب، وكان أبو حباحب شيخاً من

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٦٦)، عن ابن مسعود.
(٢) سقط من: ب.
(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٦٨)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٥٢)، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٦٨)، عن ابن عباس.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٠٧.

مضر في الجاهلية، من أبخل الناس، وكان لا يُوقد نار الخبز ولا غيره حتى تنام العيون، فيوقد نُويْرَة تقد مرة، وتخمد أخرى، فإن استيقظ لها أحد أطفأها، كراهية أن ينتفع بها أحدٌ، فشبهت العرب هذه النار بناره؛ لأنه لا ينتفع بها.

وكذلك إذا وقع السيف على البيضة فاقتدحت ناراً فكذلك يسمونها.

قال النابغة: [الطويل]

٥٢٧٢ ـ ولا عَيبَ فِيهِمْ غيرَ أنَّ سُيوفَهُمْ بِهِنَّ فُلولٌ من قِرَاعِ الكَتائبِ

تَقُدُّ السَّلوقِيَّ المُضاعفَ نَسْجهُ وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نَارَ الحُبَاحِبِ[1]

قوله: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ ظرف؛ أي: التي تغير وقت الصبح، يقال: أغار يغير إغارة وغارةً: إذا باغت عدواً نهباً وقتلاً وأسراً؛ قال: [البسيط]

٥٢٧٣ ـ فَليتَ لي بِهِمُ قَوْماً إذَا رَكِبُوا شَنُّوا الإغَارَة فُرْسَاناً ورُكْبَانَا[2]

وأغار وغار أيضاً: نزل الغور، وهو المنهبط من الأرض.

قوله: ﴿فَأَثَرْنَ﴾. عطف الفعل على الاسم، لأن الاسم في تأويل الفعل لوقوعه صلة لـ «أل».

قال الزمخشريُّ[3]: «معطوف على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه، يعني في الأصل؛ إذ الأصل: واللاتي عدون فأورين فأغرن فأثرن».

قوله: ﴿بِهِۦ﴾. في الهاء أوجه:

أحدها: أنه ضمير الصبح، أي: فأثرن في وقت الصبح غباراً. وهذا حسن، لأنه مذكور بالتصريح.

الثاني: أنه عائد على المكان، وإن لم يجر له ذكر؛ لأن الإشارة لا بد لها من مكان، والسياق والعقل يدلان عليه، وإذا علم بالمعنى جاز أن يكون عما لم يجر له ذكر بالصريح كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢]. وفي عبارة الزمخشري: «وقيل: الضمير لمكان الغارة»، وهذا على تلك اللغيَّة وإلا فالفصيح أن تقول: الإغارة.

الثالث: أنه ضمير العدو الذي دل عليه «والعَادِيَاتِ».

وقرأ العامة: بتخفيف الثاء، أثار كذا إذا نشره وفرقه مع ارتفاع.

وقرأ أبو حيوة، وابن[4] **أبي عبلة**: بتشديدها.

---

(١) تقدم. (٢) تقدم.

(٣) الكشاف ٤/ ٧٨٨.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥١٤، والبحر المحيط ٨/ ٥٠١، والدر المصون ٦/ ٥٥٩.

وخرجه الزمخشري(١) على وجهين:

الأول: بمعنى فأظهرن به غباراً؛ لأن التأثير فيه معنى الإظهار.

الثاني: قلب «ثورن» إلى «وثَرْنَ»، وقلب الواو همزة انتهى.

يعني: الأصل «ثَوّرنَ» من ثور يثور ـ بالتشديد ـ عداه بالتضعيف كما يعدى بالهمزة في قولك: أثاره ثم قلب الكلمة بأن جعل العين وهي الواو موضع الفاء وهي الثاء، ووزنها حينئذ «عفلن» ثم قلب الواو همزة، فصار: «أثَرْنَ»، وهذا بعيد جداً، وعلى تقدير التسليم، فقلب الواو المفتوحة همزة لا ينقاس، إنما جاءت منه ألفاظ كـ «أحد وأناة» والنقع: الغبار.

وأنشد: [البسيط]

٥٢٧٤ ـ يَخْرُجْنَ مِنْ مُستَطَارِ النَّقْع دَائمَةً كَأنَّ آذَانَهَا أطْرافُ أقْلامِ(٢)

وقال ابن رواحة: [الوافر]

٥٢٧٥ ـ عَدِمتُ بُنَيَّتِي إنْ لَمْ تَروْهَا تُثِيرُ النَّقْعَ مِنْ كَنفَيْ كَدَاءِ(٣)

وقال أبو عبيدة: النقع، رفع الصوت؛ قال لبيدٌ: [الرمل]

٥٢٧٦ ـ فَمتَى يَنْقَعْ صُراخٌ صَادِقٌ يُحْلِبُوهَا ذَاتَ جَرْسٍ وزَجَلْ(٤)

يروى: «يجلبوها» أيضاً، يقول: متى سمعوا صراخاً أجلبوا الحرب، أي: جمعوا لها، وقوله: «ينقع صراخ» يعني رفع الصوت.

قال الزمخشري(٥): ويجوز أن يراد بالنَّقع: الصياح، من قوله عليه الصلاة والسلام: «لَمْ يكُن نَقعٌ ولا لَقلَقةٌ»(٦).

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٨٧.

(٢) قائله هو عديّ بن الرقاع العاملي ينظر سمط اللآلىء ٢/ ٢٧٦، والاقتضاب ص ٣٢٢، والأمالي ٢/ ٢٧٤، والبحر ٨/ ٤٩٩، والدر المصون ٦/ ٥٥٩.

(٣) ينظر القرطبي ٢/ ١٠٨، والبحر ٨/ ٤٩٩، والدر المصون ٦/ ٥٥٩، وفتح القدير ٥/ ٤٨٢.

(٤) ينظر ديوان لبيد ص ١٤٦، والكامل ١/ ٣٣١، والكشاف ٤/ ٧٨٧، والاقتضاب ص ٤١٩، والأضداد للأصمعي ص ٥٤، والبحر ٨/ ٥٠٠، واللسان (نقع)، والدر المصون ٦/ ٥٥٩.

(٥) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٨٧.

(٦) ذكره الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» (٤/ ٧٨٧)، وقال: لم أجده مرفوعاً، وإنما ذكره البخاري في الجنائز تعليقاً عن عمر قال: «دعهن يبكين على أبي سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة»، قال: والنقع التراب على الرأس واللقلقة الصوت. ووصله عبد الرازق والحاكم وابن سعد وأبو عبيد الحربي في الغريب كلهم من طريق الأعمش عن أبي وائل قال: «وقيل لعمر: إن نسوة من بني المغيرة قد اجتمعن في دار خالد بن الوليد يبكين عليه وإنا نكره أن يؤذينك فلو نهيتهن فقال: ما=

وقول لبيد: [الرمل]

٥٢٧٧ ـ فَمتَى يَنْقَعْ صُراخٌ صادِقٌ[١]

أي: فهيجن في المغار عليهم صياحاً وجلبة.

وقال أبو عبيد: وعلى هذا رأيت قول أكثر أهل العلم، انتهى. فعلى هذا تكون الباء بمعنى «في» ويعود الضمير على المكان الذي فيه الإغارة، كما تقدم.

وقال الكسائيُّ: قوله: «نقْعٌ ولا لقْلقَةٌ» النّقع: صنعة الطعام، يعني في المأتم يقال منه: نقعت أنقع نقعاً. قال أبو عبيد: ذهب بالنقع إلى النقيعة، وإنما النقيعة عند غيره من العلماء: صنعة الطعام عند القدوم من سفر، لا في المأتم.

وقال بعضهم: يريد عمرو بالنقع وضع التراب على الرأس فذهب إلى أن النقع هو التراب.

قال القرطبي[٢]: ولا أحسب عمراً ذهب إلى هذا، ولا خافه منهن، وكيف يبلغ خوفه ذا، وهو يكره لهن القيام، فقال: يسفكن من دموعهن وهن جلوس.

قال بعضهم: النَّقْع: شق الجيوب قال: وهو الذي لا أدري ما هو من الحديث ولا أعرفه، وليس النقع عندي في هذا الحديث إلا الصوت الشديد، وأما اللَّقلقة: فشدة الصوت، ولم أسمع فيه اختلافاً.

[قال محمد بن كعب القرظي: النقع بين «مزدلفة» إلى «منى»[٣].

وقيل: إنه طريق الوادي، ولعله يرجع إلى الغبار المثار من هذا الموضع.

وفي «الصحاح»[٤] النقع الغبار، والجمع: النقاع والنقع محبس الماء، وكذلك ما اجتمع في البئر منه.

وفي الحديث أنه نهى أن يمنع نقع[٥] البئر.

= عليهن أن يهرقن من دموعهن على أبي سليمان سجلاً أو سجلين ما لم يكن نقع أو لقلقة» وفي رواية ابن سعد قال وكيع: النقع الشق، واللقلقة الصوت. وقال بعضهم: رفع التراب على الرأس وشق الجيوب. وأما اللقلقة فهي شدة الصوت ولم أسمع فيه خلافاً وقال الحربي عن الأصمعي النقع الصياح. وعن أبي سلمة هو وضع التراب على الرأس.

(١) تقدم. (٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٠٨.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/١٠٨)، عن محمد بن كعب القرظي.

(٤) ينظر الصحاح ٣/ ١٢٩٢.

(٥) أخرجه ابن ماجه (٢/٨٢٨)، كتاب: الرهون، باب: النهي عن منع فضل الماء ليمنع به الكلأ حديث (٢٤٧٩)، من حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: لا يمنع فضل الماء ولا يمنع نقع البئر.

والنقع: الأرض الحرة الطين يستنقع فيها الماء، والجمع: نقاع وأنقع، مثل: بحار وبحر وأبحر][١].

قوله: ﴿فَوَسَطْنَ﴾. العامة على تخفيف السين.

وفي الهاء في «به» أوجه:

أحدها: أنها للصبح.

والثاني: أنها للنَّقع، أي: وسطن النقع الجمع، أي: جعلن الغبار وسط الجمع. والباء للتعدية، وعلى الأول هي ظرفية.

الثالث: الباء للحالية، أي فتوسطن ملتبساً بالنقع، أي: بالغبار، جمعاً من جموع الأعداء.

وقيل: الباء مزيدة نقله أبو[٢] البقاء.

و «جَمْعاً» على هذه الأوجه: مفعول به.

الرابع: أن المراد بـ «جمع» «المزدلفة» وهي تسمى جمعاً، والمراد: أن الإبل تتوسط جمعاً الذي هو «المزدلفة»، كما مرَّ عن أمير المؤمنين فالمراد بالجمع مكان، لا جماعة الناس، كقول صفية: [الوافر]

٥٢٧٨ ـ فَلا والعَادِيَاتِ غَداةَ جَمْعٍ[٣]

وقول بشر بن أبي خازم: [الكامل]

٥٢٧٩ ـ فَوَسَطْنَ جَمعهُمُ وأفْلتَ حَاجِبٌ تَحتَ العَجاجَةِ في الغُبارِ الأقْتَمِ[٤]

و «جَمْعاً» على هذا منصوب على الظرف، وعلى هذا فيكون الضمير في «به» إما للوقت أي في وقت الصبح، وإما للنقع، وتكون الباء للحال، أي: ملتبسات بالنقع، إلا أنه يشكل نصب الظرف المختص إذ كان حقه أن يتعدى إليه بـ «في».

وقال أبو البقاء[٥]: إن «جمعاً» حال، وسبقه إليه مكي. وفيه بعد؛ إذ المعنى على أن الخيل توسطت جمع الناس.

وقرأ علي، وزيد[٦] بن علي، وقتادة، وابن أبي ليلى: بتشديد السين، وهما لغتان بمعنى واحد.

---

(١) سقط من: ب.

(٢) ينظر الإملاء ٢/ ٢٩٢.

(٣) تقدم.

(٤) ينظر المفضليات ٦٨٢، والجمهرة (٤٠٢)، والبحر ٨/ ٥١، والدر المصون ٦/ ٥٦٠.

(٥) الإملاء ٢/ ٢٩٢.

(٦) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥١٤، والدر المصون ٦/ ٥٦٠.

وقال الزمخشري[١]: «التشديد للتعدية، والباء مزيدة للتأكيد، كقوله تعالى: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًاۖ﴾ [البقرة: ٢٥] وهي مبالغة في وسطن» انتهى.

وقوله: «وهي مبالغة» تناقض قوله أولاً للتعدية، لأن التشديد للمبالغة لا يكسب الفعل مفعولاً آخر، تقول: «ذبحت الغنم» مخففاً، ثم تبالغ فتقول: «ذبَّحتها» ـ مثقلاً ـ وهذا على رأيه قد جعله متعدياً بنفسه، بدليل جعله الباء مزيدة، فلا تكون للمبالغة.

فصل في معنى الآية

المعنى: فوسطن بركبانهن العدو، أي: الجمع الذين أغاروا عليهم.

وقال ابن مسعود: «فوسَطْنَ بِهِ جَمْعاً» يعني «مزدلفة»، وسميت جمعاً لاجتماع الناس فيها[٢].

ويقال: وسطت القوم أسطهم وسطاً وسطة، أي: صرت وسطهم، وقد أكثر الناس في وصف الخيل وهذا الذي ذكره الله أحسن.

وقال رسول الله ﷺ: «الخَيْلُ معْقُودٌ فِي نَواصِيْهَا الخَيْرُ»[٣]. وقال أيضاً: «ظهرها حرز وبطنها كنز».

ويروى أن بنت امرىء القيس أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، هل أنزل عليك ربُّك كلاماً في صفةِ الخَيْل كلاماً أفصح مما قاله جدِّي؟ فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «وما قال جدّكِ»؟ قالت: [الطويل]

٥٢٨٠ ـ مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدبِرٍ معاً ... كجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ[٤]

فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ الآيات فأسلمت.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾. هذا هو المقسم عليه، و «لرَبِّهِ» متعلق بالخبر، وقدم الفواصل، والكنُود: الجحود.

---

(١) الكشاف ٤/ ٧٨٧.
(٢) ينظر تفسير الماوردي (٦/ ٣٢٥).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) ينظر ديوان امرىء القيس ص ١٩، وإصلاح المنطق ص ٢٥، وجمهرة اللغة ص ١٢٦، وخزانة الأدب ٢/ ٣٩٧، ٣/ ٢٤٢، ٣٤٣، والدرر ٣/ ١١٥، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٣٣٩، وشرح التصريح ٢/ ٥٤، وشرح شواهد المغني ١/ ٤٥١، والشعر والشعراء ١/ ١١٦، والكتاب ٤/ ٢٢٨، والمقاصد النحوية ١/ ٤٤٩، ورصف المباني ص ٣٢٨، وشرح الأشموني ٢/ ٣٢٣، وشرح شذور الذهب ص ١٤٠، ومغني اللبيب ١/ ١٥٤، والمقرب ١/ ٢١٥، وهمع الهوامع ١/ ٢١٠.

وقيل: الكفور لنعمه؛ وأنشد: [الطويل]

٥٢٨١ ـ كَنُودٌ لِنعْمَاءِ الرِّجالِ ومَنْ يَكُنْ   كَنُوداً لِنعْمَاءِ الرِّجَالِ يُبعَّدِ[(١)]

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ هو بلسان «كندة» و «حضرموت»: العاصي، وبلسان «ربيعة» و «مضر»: الكفور، وبلسان «كنانة»: البخيل[(٢)].

وأنشد أبو زيد: [الخفيف]

٥٢٨٢ ـ إنْ تَفُتْنِي فلمْ أطِبْ عَنكَ نَفساً   غَيرَ أنِّي أمْسِي بِدهْرٍ كَنُودِ[(٣)]

وقيل: لسان الجاحد للحق. وقيل: إنما سميت كندة لأنها جحدت أباها.

وقيل: الكنود: من كند إذا قطع، كأنه يقطع ما ينبغي أن يواصله من الشكر، ويقال: كند الخيل: إذا قطع؛ قال الأعشى: [المتقارب]

٥٢٨٣ ـ يُعْطِي عَطاءَ بِصُلبِ الفُؤادِ   وصُولِ حِبَالٍ وكنَّادِهَا[(٤)]

فهذا يدل على القطع، ويقال: كند يكند كنوداً، أي: كفر النعمة وجحدها، فهو كنود، وامرأة كنود أيضاً، وكند مثله؛ قال الأعشى: [الكامل]

٥٢٨٤ ـ أحْدِثْ لهَا تُحدِثْ لوصْلِكَ إنَّهَا   كُنُدٌ لِوصْلِ الزَّائرِ المُعْتَادِ[(٥)]

أي: كفور للمواصلة، وروى أبو أمامة الباهلي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «الكنُودُ: هُو الَّذي يَأكلُ وحدهُ، ويمنعُ رفدهُ، ويَضْرِبُ عَبْدَهُ» خرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول[(٦)]. وقال الحسن: الكنود اللوام لربه يعد المحن والمصيبات، وينسى النعم

---

(١) ينظر القرطبي ٢٠/ ١٦٠، والبحر ٨/ ٥٠٠، والدر المصون ٦/ ٥٦٠.

(٢) أخرج الشطر الأول منه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٧٢)، عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٥٣)، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس.

(٣) ينظر البحر ٨/ ٥٠٠، والدر المصون ٦/ ٥٦٠، وفتح القدير ٥/ ٤٨٣.

(٤) رواية الديوان:

أميطي تميطي بصلب الفؤاد

ينظر ديوان الأعشى ص ٥٨، والقرطبي ٢٠/ ١٠٩، واللسان (كند).

(٥) ينظر ديوان الأعشى ص ٥٠، ومجمع البيان ١٠/ ٩٢، والقرطبي ٢٠/ ١٠٩.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٧٢)، والطبراني كما في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٤٥)، من حديث أبي أمامة مرفوعاً. وقال الهيثمي: رواه الطبراني بإسنادين في أحدهما جعفر بن الزبير وهو ضعيف وفي الآخر من لم أعرفه.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٥٤)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر بسند ضعيف. وقد ورد هذا الحديث موقوفاً على أبي أمامة أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٧٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٥٤)، وعزاه إلى البخاري في «الأدب» وعبد بن حميد والحكيم الترمذي وابن مردويه عنه موقوفاً.

والراحات، وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾.

واعلم أن الكنود لا يخرج عن أن يكون كفراً أو فسقاً، وكيفما كان فلا يمكن حمله على كل الناس، فلا بد من صرفه إلى كافر معين، وإن حملناه على الكل فالمعنى أن طبع الإنسان يحمله على ذلك إلا إذا عصمه الله بلطفه وتوفيقه.

قال ابن عباس: الإنسان هنا الكافر، يقول: إنه لكفور، ومنه الأرض الكنود التي لا تنبت شيئاً[(١)]. وقال الضحاك: نزلت في الوليد بن المغيرة. وقال أبو بكر الواسطي: الكنُود: الذي ينفق نعم اللَّهِ في معاصي الله.

وقال ذو النون المصري: الهلوع والكنود: هو الذي إذا مسه الشرُّ جزوعٌ، وإذا مسَّه الخيرُ منوع. وقيل: هو الحسود الحقود.

قال القرطبي[(٢)]: «هذه الأقوال كلُّها ترجع إلى معنى الكفران والجحود».

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ نزلت في قرط بن عبد الله بن عمرو بن نوفل القرشي، لقوله: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ ولا يليق إلا بالكافر المنكر لذلك[(٣)].

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾. أي: وإن الله ـ تعالى ـ على ذلك من ابن آدم لشهيد، قاله ابن عباس ومجاهد وأكثر المفسرين[(٤)].

وقال الحسن وقتادة ومحمد بن كعب: «وإنَّه» أي: وإن الإنسان لشاهدٌ على نفسه بما يصنع كقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[(٥)].

والأول أولى؛ لأنه كالوعيد والزجر له عن المعاصي.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾. اللام متعلقة بـ «شديد» وفيه وجهان:

أحدهما: أنها المعدية، والمعنى: وإنه لقوي مطيق لحب الخير أي: المال، يقال: هو شديد لهذا الأمر، أي: مطيق له، ويقال: لشديد، أي: بخيل، ويقال للبخيل: شديد ومتشدِّد؛ قال طرفة: [الطويل]

٥٢٨٥ ـ أرَى المَوْتَ يَعْتَامُ الكِرامَ ويَصْطَفِي ... عَقِيلَةَ مَالِ الفَاحِشِ المُتَشَدِّدِ[(٦)]

يقال: اعتامه واعتماه: أي: اختاره، والفاحش: البخيل أيضاً؛ قال تعالى: ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨] أي: البخل.

---

(١) تقدم تخريجه عن ابن عباس. (٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١١٠.

(٣) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٢/ ٦٤)، عن ابن عباس.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٣٠/ ١١٠). (٥) ينظر المصدر السابق.

(٦) ينظر ديوانه ص ٣٤، وابن الشجري ١/ ١١١، والكشاف ٤/ ٧٨٨، والكامل ١/ ٣٦٠، والطبري ٣/ ١٨٠، ومجمع البيان ١٠/ ٨٠٥، والبحر ٨/ ٥٠٢، والدر المصون ٦/ ٥٦١.

قال ابن زيد: سمى الله المال خيراً، وعسى أن يكون شراً وخيراً، ولكن الناس يعدونه خيراً، فسماه الله تعالى خيراً لذلك، قال تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠] وسمى الجهاد سوءاً، فقال: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤] على ما يسميه الناس(١).

الثاني: أن «اللام» للعلة، أي: وإنه لأجل حبِّ المالِ لبخيل.

وقيل: «اللام» بمعنى «على».

وقال الفراءُ: أصل نظم الآية أن يقال: وإنه لشديد الحب للخير، فلما قدم الحب قال: «لشديد» وحذف من آخره ذكر الحب؛ لأنه قد جرى ذكره، لرءوس الآي، كقوله تعالى: ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨] والعصوف: للريح لا للأيام، فلما جرىِ ذكرُ الرِّيحِ قبل اليوم، طرح من آخره ذكر الريح، كأنه قال: في يوم عاصف الريح.

قوله تعالى: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾

قوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾. لما عد عليه قبائح أفعاله خوّفه، فقال: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾.

العامل في «إِذَا» أوجه:

أحدها: «بُعْثِرَ» نقله مكيٌّ عن المبرِّد. وتقدم تحريره في السورة قبلها.

قال القرطبيُّ(٢): العامل في «إذا»: «بعثر» ولا يعمل فيه «يعلمُ» إذ لا يراد به العلم من الإنسان ذلك الوقت؛ إنما يراد في الدنيا، ولا يعمل فيه «خبير» لأن ما بعد «إن» لا يعمل فيما قبلها، والعامل في «يَومئذٍ»: «خَبِيرٌ» وإن فصل اللام بينهما؛ لأن موضع اللام الابتداء، وإنما دخلت في الخبر لدخول «إن» على المبتدأ.

والثاني: ما دل عليه خبر «إن»، أي: إذا بعثر جوزوا.

والثالث: أنه «يَعْلمُ»، وإليه ذهب الحوفي وأبو البقاء(٣)، وردّه مكي، قال: «لأن الإنسان لا يراد منه العلم والاعتبار ذلك الوقت، وإنما يعتبر في الدنيا ويعلم».

قال أبو حيان(٤): «وليس بمتضح، لأن المعنى: أفلا يعلم الآن».

وكان قال قبل ذلك: «ومفعول «يعلم» محذوف، وهو العامل في الظرف؛ أي: أفلا يعلم ما مآلهُ إذا بُعثر» انتهى.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٣٠/ ١١٠). (٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١١١.
(٣) الإملاء ٢/ ٢٩٢. (٤) البحر المحيط ٨/ ٥٠٢.

فجعلها متعدية في ظاهر قوله إلى واحد، وعلى هذا فقد يقال: إنها عاملة في «إذا» على سبيل أن «إذا» مفعول به لا ظرف؛ إذ التقدير: أفلا يعرف وقت بعثرة القبور، يعني أن يقر بالبعث ووقته، و «إذا» قد تصرفت وخرجت عن الظرفية، ولذلك شواهد تقدم ذكرها.

الرابع: أن العامل فيها محذوف، وهو مفعول «يَعْلَمُ»، كما تقدم.

وقرأ العامة: «بُعْثِرَ» ـ بالعين ـ مبنيًّا للمفعول، والموصول قائم مقام الفاعل.

وابن مسعود[1]: بالحاء.

قال الفرَّاءُ: سمعت بعض أعراب بني أسد يقرأ «بحثر» بالحاء وحكاه الماوردي عن ابن مسعودٍ.

وقرأ الأسود[2] **بن زيد ومحمد بن معدان**: «بحث» من البحث.

وقرأ نصر بن عاصم[3]: «بَعْثَرَ» مبنياً للفاعل، وهو اللَّهُ أو الملك.

فصل في معنى الآية

المعنى «أفَلا يَعْلَمُ»، أي: ابن آدم «إذَا بُعْثِرَ» أي: أثير وقلب وبحث، فأخرج ما فيها.

قال أبو عبيدة: بعثرت المتاع، جعلت أسفله أعلاه.

قال محمد بن كعب: ذلك حين يبعثون[4].

فإن قيل: لم قال: «بُعثِرَ ما في القُبُور» ولم يقل: من في القبور؟ ثم إنه ـ تعالى ـ لما قال: «مَا في القبُورِ» فلم قال: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾؟.

فالجواب عن الأول: أن ما في الأرض غير المكلفين أكثر، فأخرج الكلام على الأغلب، أو أنهم حال ما يبعثرون لا يكونون أحياء عقلاء، بل يصيرون كذلك بعد البعث، فلذلك كان الضمير الأول ضمير غير العقلاء، والضمير الثاني ضمير العقلاء.

قوله: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾، قرأ العامة: «حصّل» مبنيًّا للفاعل وروي عن ابن عمر، وعبيد بن عمير، وسعيد بن جبير ونصر أيضاً «حصل»[5] خفيف الصاد مبنياً للفاعل بمعنى جميع ما في الصحف محصلاً، والتحصيل: جمع الشيء، والحصول: اجتماعه، والاسم: الحصيلة.

قال لبيد: [الطويل]

٥٢٨٩ ـ وكُلُّ امْرِىءٍ يَوماً سَيعْلَمُ سَعْيَهُ إذا حُصِّلَتْ عِنْدَ الإلهِ الحَواصِلُ[6]

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥١٥، والبحر المحيط ٨/ ٥٠٢، والدر المصون ٦/ ٥٦١.

(٢) ينظر السابق. (٣) السابق.

(٤) ذكره القرطبي في تفسيره ٣٠/ ١١١.

(٥) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥١٥، والبحر المحيط ٨/ ٥٠٢، والدر المصون ٦/ ٥٦١.

(٦) ينظر ديوان لبيد ص ١٣٢، واللسان (حصل)، والفخر الرازي ٣٢/ ٦٨.

والتحصيل: التمييز، ومنه قيل للمنخل: محصل، وحصل الشيء ـ مخففاً ـ ظهر واستبان وعليه القراءة الأخيرة.

وقال المفسرون: «وحُصِّل ما في الصُّدورِ» أي: ميز ما فيها من خير وشر، وقال ابن عباس: أبرز. قال ابن الخطيب[١]: وخص أعمال القلوب بالذكر دون أعمال الجوارح؛ لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلوب؛ لأنه لولا البواعث والإرادات، لما حصلت أعمال الجوارح.

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ﴾. العامة: على كسر الهمزة لوجود اللام في خبرها، والظاهر أنها معلقة لـ «يَعْلَمُ» فهي في محل نصب، ولكن لا يعمل في «إذا» خبرها، لما تقدم، بل يقدر له عامل من معناه كما تقدم. ويدل على أنها معلقة للعلم، لا مستأنفة. وقراءة أبي السمال[٢] وغيره: «أنَّ ربَّهم بهم يومئذٍ خبير»، بالفتح وإسقاط اللام، فإنها في هذه القراءة سادة مسد مفعولها.

ويحكى عن الحجاج ـ الخبيث الروح ـ أنه لما فتح همزة «أن» استدرك على نفسه، وتعمد سقوط اللام، وهذا إن صح كفر، ولا يقال: إنها قراءة ثابتة، كما نقل عن أبي السمَّال فلا يكفر، لأنه لو قرأها كذلك ناقلاً لها لم يمنع منه، ولكنه أسقط اللام عمداً إصلاحاً للسانه، واجتمعت الأمة على أن من زاد حرفاً، أو نقص حرفاً في القرآن عمداً فهو كافر.

قال شهاب الدين[٣]: وإنما قلت ذلك لأني رأيت أبا حيَّان قال[٤]: وقرأ أبو السمال والحجاج، ولا يحفظ عن الحجاج إلا هذا الأثر السوء، والناس ينقلونه عنه كذلك، وهو أقل من أن ينقل عنه.

«ربهم، ويومئذ» متعلقان بالخبر، واللام غير مانعة من ذلك، وقدما لأجل الفاصلة، ومعنى «خَبِيرٌ»، أي: عالم لا يخفى عليه منهم خافية، وهو عالم بهم في ذلك اليوم، وفي غيره، ولكن المعنى: أنه يجازيهم في ذلك اليوم.

روى الثعلبي عن أبيّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ سُورة ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ أعطيَ مِنَ الأجْرِ عَشْرَ حسَناتٍ بعددِ مَنْ بَاتَ بالمُزدلفةِ، وشَهِدَ جَمْعاً»[٥]، والله أعلم وهو حزبي.

---

(١) الفخر الرازي ٣٢/ ٦٦.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٨٩، والبحر المحيط ٨/ ٥٠٢، والدر المصون ٦/ ٥٦١.

(٣) الدر المصون ٦/ ٥٦١ ـ ٥٦٢. (٤) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٥٠٢.

(٥) رواه الثعلبي والواحدي في «الوسيط» وابن مردويه كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٤/ ٢٦٧)، وهو حديث موضوع، تقدم الكلام عليه مراراً.

سورة القارعة

مكيةٌ، وهي إحدى عشرة آية، وست وثلاثون كلمة، ومائة واثنان وخمسون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١، ٢]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧]، وقد تقدم ما نقله مكي من أنه يجوز رفع «القَارِعَةُ» بفعل مضمر ناصب لـ «يوم».

وقيل: ستأتيكم القارعة.

وقيل: القارعة: مبتدأ وما بعده الخبر.

وقيل: معنى الكلام على التحذير.

قال الزجاجُ: والعرب تحذر، وتغري بالرفع كالنصب، وأنشد: [الخفيف]

٥٢٨٧ ـ لَجَدِيرُونَ بِالوَفَاءِ إذَا قَا ... لَ أخُو النَّجدةِ: السِّلاحُ السِّلاحُ[1]

وقد تقدم ذلك في قوله تعالى: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ [الشمس: ١٣]، فيمن رفعه، ويدل على ذلك قراءة عيسى[2]: «القَارِعَة ما القارعة» بالنصب، بإضمار فعل، أي: احذروا القارعة و «مَا» زائدة، و «القَارِعَة» تأكيد للأولى تأكيداً لفظيًّا.

والقرعُ: الضرب بشدةٍ واعتماد. والمراد بالقارعة: القيامة، لأنها تقرع الخلائق بأهوالها، وأفزاعها.

وأهل اللغة يقولون: تقول العرب: قرعتهم القارعة، وفقرتهم الفاقرة، إذا وقع بهم

---

(١) ينظر الخصائص ٣/ ١٠٢، والدرر ٣/ ١١، وشرح الأشموني ٢/ ٤٨٣، والمقاصد النحوية ٤/ ٣٠٦، والهمع ١/ ١٧٠، والبحر ٨/ ٥٠٣، والدر المصون ٦/ ٥٦٣.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥١٦، والبحر المحيط ٨/ ٥٠٣، والدر المصون ٦/ ٥٦٣.

أمر فظيع، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ [الرعد: ٣١]، وهي الشديدة من شدائد الدَّهرِ.

قوله تعالى: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ استفهام على جهة التعظيم والتفخيم لشأنها، كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾، واختلفوا في سبب تسمية القيامة بالقارعة، فقيل: المراد بالقارعة: الصيحة التي يموت منها الخلائقُ؛ لأنها تقرع أسماعهم.

وقيل: إنَّ الأجرام العلوية والسفلية يصطكّان، فيموت العالم بسبب تلك القرعة، فلذلك سميت بالقارعة، [وقيل: تقرع الناس بالأهوال كانشقاق السموات، وأقطارها وتكوير الشمس، وانتثار الكواكب، ودك الجبال ونسفها، وطي الأرض. وقيل: لأنها تقرع أعداء الله بالعذاب][١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾، أي: لا علم لك بكنهها؛ لأنها في الشدة بحيث لا يبلغها وهم أحد، وعلى هذا يكون آخر السورة مطابقاً لأولها.

فإن قيل: هاهنا قال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾، ثم قال في آخر السورة: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾، ولم يقل: وما أدراك ما هاوية؟

فالجواب: الفرق أن كونها قارعة أمر محسوس، وكونها هاوية ليس كذلك، فظهر الفرق.

قوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ﴾. في ناصب «يَوْمَ» أوجه:

أحدها: مضمر يدلّ عليه القارعة، أي: تقرعهم يوم يكون وقيل: تقديره: تأتي القارعة يوم.

الثاني: أنه اذكر مقدراً، فهو مفعول به لا ظرف.

الثالث: أنه «القَارِعَةُ» قاله ابن[٢] عطية، وأبو البقاء[٣]، ومكيٌّ.

قال أبو حيان[٤]: فإن كان عنى ابن عطيَّة اللفظ الأول، فلا يجوز، للفصل بين العاملين وهو في صلة «أل» والمعمول بأجنبي، وهو الخبر، وإن جعل القارعة علماً للقيامة، فلا يعمل أيضاً، وإن عنى الثاني والثالث، فلا يلتئم معنى الظرفية معه.

الرابع: أنه فعل مقدر رافع للقارعة الأولى، كأنه قيل: تأتي القارعة يوم يكون. قاله مكي. وعلى هذا يكون ما بينهما اعتراضاً، وهو بعيد جداً منافر لنظم الكلامِ. وقرأ زيد[٥] بن علي: «يَوْمُ» بالرفع، خبراً لمبتدأ محذوف، أي: وقتها يوم.

---

(١) سقط من: ب.
(٢) المحرر الوجيز ٥/٥١٦.
(٣) الإملاء ٢/ ٢٩٣.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٥٠٤.
(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٥٠٤، والدر المصون ٦/ ٥٦٤.

قوله: «كالفَراشِ». يجوز أن يكون خبراً للناقصة، وأن يكون حالاً من فاعل التامة، أي: يؤخذون ويحشرون شبه الفراش، وهو طائر معروف.

وقال قتادة: الفراش: الطَّير الذي يتساقط في النار والسراج، الواحدة: فراشة.

وقال الفراءُ: هو الهمج من البعوض والجراد وغيرهما، وبه يضرب المثل في الطّيش والهوج، يقال: أطيش من فراشة؛ وأنشد: [البسيط]

٥٢٨٨ ـ فَراشَةُ الحِلْمِ فِرعَوْنُ العَذابُ وإنْ   يَطْلُبْ نَداهُ فَكَلْبٌ دُونَهُ كَلِبُ[١]

وقال آخر: [الطويل]

٥٢٨٩ ـ وقَدْ كَانَ أقْوامٌ رَددْتَ قُلوبَهُمْ   عَليهِمْ وكَانُوا كالفَراشِ مِنَ الجَهْلِ[٢]

وقال آخر: [الرجز]

٥٢٩٠ ـ طُوَيِّشٌ مِنْ نَفَرٍ أطْيَاشِ   أطْيَشُ مِنْ طَائرةِ الفَراشِ[٣]

والفراشة: الماءُ القليلُ في الإناء وفراشة القُفل لشبهها بالفراشة، وروى «مسلم» عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَثلِي ومَثلكُمْ كَمَثلِ رجُلٍ أوْقدَ نَاراً فجعَلَ الجنَادِبُ والفراشُ يَقعْنَ فِيْهَا وهو يذُبُّهُنَّ عَنْهَا، وأنَا آخِذٌ بحُجَزِكُمْ عَن النَّارِ، وأنْتُمْ تَفلتُونَ مِنْ يَدِي»[٤].

في تشبيه الناس بالفراشِ مبالغات شتَّى: منها الطيشُ الذي يلحقهم، وانتشارهم في الأرض، وركوب بعضهم بعضاً، والكثرة، والضعف، والذلة والمجيء من غير ذهاب، والقصد إلى الداعي من كل جهة، والتطاير إلى النار؛ قال جريرٌ: [الكامل]

٥٢٩١ ـ إنَّ الفَرزْدَقَ ما عَلمْتَ وقَوْمَهُ   مِثْلُ الفَراشِ غشِينَ نَارَ المُصْطَلِي[٥]

والمبثوث: المتفرق، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧].

فأول حالهم كالفراش لا وجه له يتحير في كل وجه، ثم يكون كالجراد، لأن لها وجهاً تقصده والمبثوث: المتفرق المنتشر، وإنما ذكر على اللفظ كقوله تعالى: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٥].

---

(١) نسب البيت إلى الضحاك بن سعد، ولسعيد بن العاصي. ينظر الحيوان ١/ ٢٥٧، وديوان المعاني ١/ ١٩٦، والدرر ٥/ ٢٩٣، وشرح الأشموني ٢/ ٣٦٢، وهمع الهوامع ٢/ ١٠١.

(٢) ينظر القرطبي ٢٠/ ١١٢، والدر المصون ٦/ ٥٦٤.

(٣) ينظر القرطبي ٢٠/ ١١٢.

(٤) أخرجه مسلم (٤/ ١٧٩٨). وله شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري (١١/ ٣١٦)، كتاب الرقاق، باب: الانتهاء عن المعاصي حديث (٦٤٨٣)، ومسلم (٤/ ١٧٨٩)، كتاب الفضائل، باب: شفقته ﷺ على أمته رقم (١٨/ ٢٢٨٤).

(٥) ينظر ديوانه (٣٣٧)، والكشاف ٤/ ٧٨٩، والبحر ٨/ ٥٠٤، والدر المصون ٦/ ٦٥٤.

قال ابن عباس: «كالفَراشِ المبثُوثِ» كغوغاء الجراد، يركب بعضها بعضاً، كذلك الناس، يجول بعضهم في بعض إذا بعثوا[١].

فإن قيل كيف يشبهُ الشيء الواحد بالصغير والكبير معاً، لأنه شبههم بالجراد المنتشر والفراش المبثوث؟.

فالجواب: أما التشبيه بالفرش، فبذهاب كل واحد إلى جهة الآخر، وأما التشبيه بالجراد، فبالكثرة والتتابع، ويكون كباراً، ثم يكون صغاراً.

قوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾. أي: الصوف الذي ينفش باليد، أي: تصير هباء وتزول، كقوله تعالى: ﴿هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٦].

قال أهل اللغة: العهنُ: الصوف المصبوغ. وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌۢ سَوْفَ

قوله: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾. في الموازين قولان:

أحدهما: أنه جمع موزون، وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله تعالى، وهذا قول الفراء، ونظيره قولك: له عندي درهم بميزان درهمك، ووزن درهمك، ويقولون: داري بميزان دارك ووزن دارك، أي: حذاؤها.

والثاني: قال ابن عباس: جمع ميزان لها لسان وكفتان يوزن فيه الأعمال[٢].

[وقد تقدم القول في الميزان في سورة «الأعراف» و «الكهف» و «الأنبياء»، وأنه له كفة ولسان يوزن فيها الصحف المكتوب فيها الحسنات، والسيئات.

ثم قيل: إنه ميزان واحد بيد جبريل عليه السلام يزن به أعمال بني آدم، فعبر عنه بلفظ الجمع.

وقيل: موازين لكل حادثة ميزان][٣].

وقيل: الموازين: الحجج والدلائل، قاله عبد العزيز بن يحيى.

واستشهد بقول الشاعر: [الكامل]

٥٢٩٢ ـ قَدْ كُنتُ قَبْلَ لِقَائِكُمْ ذَا مِرَّةٍ ... عِنْدِي لِكُلِّ مُخَاصِمٍ مِيزَانُهُ[٤]

ومعنى ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾، أي: عيش مرضي، يرضاه صاحبه.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١٣/٢٠)، عن ابن عباس.

(٢) ينظر المصدر السابق.

(٣) سقط من: ب.

(٤) ينظر: القرطبي ١١٣/٢٠.

وقيل: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾، أي: فاعلة للرضا، وهو اللين والانقياد لأهلها، فالفعل للعيشة؛ لأنها أعطت الرضا من نفسها، وهو اللين والانقياد.

فالعيشة كلمة تجمع النعم التي في الجنة، فهي فاعلة للرضا كالفرس المرفوعة، وارتفاعها مقدار مائة عام، فإذا دنا منها ولي الله اتضعت حتى يستوي عليها، ثم ترتفع، وكذلك فروع الشجرة تتدلى لارتفاعها للولي، فإذا تناول من ثمرها ترتفع، كقوله تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣] وحيثما مشى من مكان إلى مكان جرى معه نهر حيث شاء.

قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، أي: رجحت سيئاته على حسناته، قال مقاتل وابن حيان: إنما رجحت الحسناتُ؛ لأن الحق ثقيلٌ، والباطل خفيفٌ.

قوله: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾، أي: هالكة، وهذا مثل يقولونه لمن هلك، تقول: هوت أمه لأنه إذا هلك سقطت أمه ثكلاً وحزناً، وعليه قوله فهي هاوية، أي: ثاكلة، قال: [الطويل]

٥٢٩٣ ـ هَوَتْ أُمُّهُ ما يَبْعَثُ الصُّبْحَ غَادِياً ... ومَـاذَا يُـؤدِّي الـلَّـيـلُ حـيـنَ يَـئُـوبُ[1]

فكأنه قال تعالى: من خفت موازينه فقد هلك.

وقيل: الهاوية من أسماء النار، كأنها النار العميقة يهوي أهل النار فيها والمعنى: فمأواهم النار.

وقيل للمأوى: أم، على سبيل التشبيه بالأم، كما يأوي إلى أمه، قاله ابن زيد.

ومنه قول أمية بن أبي الصلت: [الكامل]

٥٢٩٤ ـ فـالأرْضُ مَـعْـقِـلُـنَـا وكَـانَـتْ أمَّـنَـا ... فِـيـهَـا مَـقَـابِـرُنَـا وفِـيـهَـا نُـولَـدُ[2]

ويروى أن الهاوية اسم الباب الأسفل من النار.

وقال عكرمة: لأنه يهوي فيها على أم رأسه[3].

وذكر الأخفش والكلبي وقتادة: المهوى والمهواة ما بين الجبلين، ونحو ذلك، وتهاوى القوم في المهواة إذا سقط بعضهم في أثر بعض.

وقرأ طلحة[4]: «فإمّه» بكسر الهمزة، نقل ابن خالويه عن ابن دريد، أنها لغة

---

(١) البيت لكعب بن سعد الغنوي ينظر الأصمعيات ص ٩٥، والكشاف ٤/ ٧٨٩، واللسان (أمم، هوى)، والقرطبي ٢٠/ ١١٤، والبحر ٨/ ٥٠٤، والدر المصون ٦/ ٥٦٤.

(٢) ينظر القرطبي ٢٠/ ١١٤.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٧٧)، عن قتادة وأبي صالح وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٥٥)، عن عكرمة وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥١٧، والبحر المحيط ٨/ ٥٠٤، والدر المصون ٦/ ٥٦٤.

النحويين لا يجيزون ذلك إلا إذا تقدمها كسرة أو ياء. وقد تقدم تحقيق ذلك في سورة «النساء».

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾، الأصل: «مَا هِيَ» فدخلت الهاء للسكت.

وقرأ حمزة، والكسائي[١]، **ويعقوب، وابن محيصن**: «مَا هِيَ» بغير هاء في الوصل ووقفوا بها، وقد تقدم في سورة «الحَاقَّة». و «مَا هِي» مبتدأ وخبر، سادَّان مسد المفعولين لـ «أدْرَاكَ»، وهو من التعليق، وهي ضمير الهاويةِ، إن كانت الهاوية ـ كما قيل ـ اسماً لدركة من دركات النَّار، وإلا عادت إلى الداهية المفهومة من الهاوية.

قوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾. «نارٌ» خبر مبتدأ مضمر، أي: هي نار شديدة الحر.

روى مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «نَارُكُمْ هَذهِ الَّتي يُوقِدُ ابنُ آدَمَ جزءٌ من سبعِينَ جُزْءاً من حرِّ جَهَنَّم»، قالوا: إنها لكافية يا رسول الله، قال ـ عليه الصلاة والسلام: «فإنَّها فُضِّلت عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وستِّين جُزءاً كُلُّها مِثْلُ حرِّهَا»[٢].

روى الثعلبي عن أبيّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ سُورَةَ ﴿القَارِعة﴾ ثقل اللَّهُ مَوازِينَهُ يَوْمَ القِيامَةِ» والله أعلم[٣].

---

(١) ينظر: إعراب القراءات ٢/٥٢٣، وحجة القراءات ٧٧٠، والمحرر الوجيز ٥/٥١٧.

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ٩٩٤)، كتاب جهنم، باب: ما جاء في صفة جهنم رقم (١)، والبخاري (٦/ ٣٨١)، كتاب بدء الخلق، باب: صفة النار وأنها مخلوقة رقم (٣٢٦٥)، ومسلم (٤/ ٢١٨٤)، كتاب الجنة، باب: في شدة حر نار جهنم رقم (٣٠/ ٢٨٤٣)، من حديث أبي هريرة.

(٣) تقدم تخريجه.

سورة التكاثر

مكية في قول الجميع، وروى البخاري أنها مدنية[1]، وهي ثماني آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، «أَلْهَاكُم»: شغلكم؛ قال امرؤُ القيسِ: [الطويل]

٥٢٩٥ ـ .... فألْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمَ مُحْوِلِ[2]

أي: شغلكم المباهاة، بكثرة المال والعدد عن طاعة الله، حتَّى متم ودفنتم في المقابر.

قال ابن عباس والحسن: «أَلْهَاكُم»: أنساكم، «التَّكاثُرُ»، أي: من الأموال، والأولاد[3] قاله ابن عباسٍ والحسنُ وقتادةُ أي: التَّفاخر بالقبائل والعشائر، وقال

---

(١) أخرجه البخاري (١١/٢٥٨)، كتاب الرقاق، باب: ما يتقى من فتنة المال... حديث (٦٤٤٠)، من حديث أنس.

(٢) عجز بيت وصدره:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع

ينظر: ديوانه (١٢)، والأزهية ص ٢٤٤، والجنى الداني ص ٧٥، وجواهر الأدب ص ٦٣، وخزانة الأدب ١/ ٣٣٤، والدرر ٤/ ١٩٣، وشرح أبيات سيبويه ١/ ٤٥٠، وشرح شذور الذهب ص ٤١٦، وشرح شواهد المغني ١/ ٤٠٢، ٤٦٣، والكتاب ٢/ ١٦٣، ولسان العرب ٨/ ١٢٦، ١٢٧ (وضع)، ١١/ ٥١١ (غيل)، والمقاصد النحويَّة ٣/ ٣٣٦، وبلا نسبة في أوضح المسالك ٣/ ٧٣، ورصف المباني ص ٣٨٧، وشرح الأشموني ٢/ ٢٩٩، وشرح ابن عقيل ص ٣٧٢، ومغني اللبيب ١/ ١٣٦، ١٦١، وهمع الهوامع ٢/ ٣٦، والقرطبي ٣٠/ ١١٥.

(٣) ذكره البخاري (٨/ ٦٠٠)، تعليقاً عن ابن عباس وقال الحافظ في «الفتح» (٨/ ٦٠٠)، وصله ابن المنذر من طريق ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٥٩)، وعزاه إلى ابن المنذر.

الضحاك: ألهاكم التشاغل بالمعاش والتجارة، يقال: لهيت عن كذا ـ بالكسر ـ ألهى لهياً، ولهياناً: إذا سلوت عنه، وتركت ذكره، وأضربت عنه، وألهاه: أي: شغله، ولهاه به تلهية: أي: تملله والتكاثر: المكاثرة قال قتادةُ ومقاتل وغيرهما: نزلت في اليهود حين قالوا: نحن أكثر من بني فلان وبنو فلان أكثر من بني فلان، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضلالاً.

وقال ابن زيد: نزلت في فخذ من الأنصار.

وقال ابن عباس، ومقاتل، والكلبي: نزلت في حيين من قريش: بني عبد مناف، وبني سهم، تعادوا وتكاثروا بالسادة، والأشراف في الإسلام، فقال كل حي منهم: نحن أكثر سيداً، وأعز عزيزاً، وأعظم نفراً، وأكثر عائذاً، فكثر بنو عبد مناف سهماً، ثم تكاثروا بالأموات، فكثرتهم سهم، فنزلت: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ بأحيائكم فلم ترضوا «حتَّى زُرتُمُ المَقَابِرَ» مفتخرين بالأموات[١].

وعن عمرو بن دينار: حلف أن هذه السورة نزلت في التجار.

وعن شيبان عن قتادة، قال: نزلت في أهل الكتاب[٢].

قال القرطبي[٣]: «والآية تعمّ جميع ما ذكر وغيره».

وروى ابن شهاب عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لَوْ أنَّ لابْنِ آدَمَ وادِياً مِنْ ذهَبٍ، لأحَبَّ أنْ يكُونَ لَهُ وادِيانِ، ولنْ يَمْلأَ فَاهُ إلاَّ التُّرابُ، ويتُوبُ اللَّهُ على مَنْ تَابَ»، رواه البخاري[٤].

قال ثابت عن أنس عن أبيّ: كنا نرى هذا من القرآن، حتى نزلت: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[٥]. رواه البخاري.

قال ابن العربي: وهذا نصٌّ صريح، غاب عن أهل التفسير [فجهلوا وجهّلوا، والحمد لله على المعرفة][٦].

وقرأ[٧] **ابن عباس**: «أألهاكم» على استفهام التقرير والإنكار ونقل في هذا المد مع

---

(١) ينظر تفسير القرطبي (٢٠/ ١١٥)، والرازي (٣٢/ ٧٣).

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٥٩)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١١٥.

(٤) تقدم تخريجه من حديث ابن عباس وأنس.

(٥) أخرجه البخاري (٨/ ٢٥٨)، كتاب الرقاق: باب ما يتقى من فتنة المال حديث (٦٤٤٠).

(٦) سقط من: أ.

(٧) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥١٨، والبحر المحيط ٨/ ٥٠٦، والدر المصون ٦/ ٥٦٥.

التسهيل، ونقل فيه بتحقيق الهمزتين من غير مد.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾، «حتَّى» غاية لقوله: «أَلْهَاكُم»، وهو عطف عليه، والمعنى: أي أتاكم الموت، فصرتم في المقابر زواراً، ترجعون فيها كرجوع الزائر إلى منزله من جنة أو نار.

وقيل: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ حتى عددتم الأموات.

وقيل: هذا وعيد، أي: اشتغلتم بمفاخرة الدنيا حتى تزورا القبور، فتروا ما ينزل بكم من عذاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ و «المَقَابِر» جمع مَقْبَرة، ومَقْبُرة بفتح الباء وضمها والقبور: جمع قبر، وسمي سعيد المقبري؛ لأنه كان يسكن المقابر، وقبرت الميت أقبَره وأقبُره قبراً؛ أي: دفنته، وأقبرته، أي: أمرت بأن يقبر.

فصل في معنى ألهاكم

قال المفسرون: معنى الآية: ألهاكم حرصكم على تكثير أموالكم عن طاعة ربكم حتى أتاكم الموت فأنتم على ذلك.

قال ابن الخطيب[1]: فإن قيل: شأن الزائر أن ينصرف قريباً، والأموات ملازمون القبور، فكيف يقال: إنه زار القبر؟.

وأيضاً: فقوله ـ جل ذكره ـ: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ إخبار عن الماضي، فكيف يحمل على المستقبل؟.

فالجواب عن الأول: أنَّ سكان القبور، لا بد أن ينصرفوا منها.

وعن الثاني: أن المراد من كان مشرفاً على الموت لكبر أو لغيره كما يقال: إنه على شفير قبره وإما أن المراد من تقدمهم، كقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ٦١].

وقال أبو مسلم: إن الله يتكلم بهذه السورة يوم القيامة تعييراً للكفار، وهم في ذلك الوقت قد تقدمت منهم زيارة القبور.

فصل في ذكر المقابر

قال القرطبي[2]: لم يأت في التنزيل ذكر المقابر إلا في هذه السورة.

وفيه نظر؛ لأنه تعالى قال في سورة أخرى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢١].

واعلم أن زيارة القبور من أعظم الأدوية للقلب القاسي، لأنها تذكر الموت، والآخرة، وذلك يحمل على قصر الأمل، والزُّهد في الدنيا، وترك الرغبة فيها.

---

(١) الفخر الرازي ٣٢/ ٧٤.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١١٦.

قال رسول الله ﷺ: «كُنْتُ نَهيتُكمْ عَنْ زِيَارةِ القُبورِ، فزُوْرُوهَا، فإنَّها تُزهِدُ في الدُّنيا، وتذكرُ الآخِرَةَ»(١).

وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ لعن زوّارات القبور(٢).

قال بعض أهل العلم: كان هذا قبل ترخيصه في زيارة القبور، فلما رخص دخل في الرخصة الرجال والنساء.

وقال بعضهم: إنما كره زيارة القبور للنِّساء، لقلّة صبرهن، وكثرة جزعهن.

وقال بعضهم: زيارة القبور للرجال متفق عليه، وأما النِّساء فمختلف فيه: أما الشوابّ فحرام عليهن الخروج، وأما القواعد فمباح لهن ذلك، وجاز لجميعهن ذلك إذا انفردن بالخروج عن الرجال بغير خلاف لعدم خشية الفتنة.

فصل في آداب زيارة القبور

ينبغي لمن زار القُبُور أن يتأدب بآدابها، ويحضر قلبه في إتيانها، ولا يكون حظّه منها إلا التَّطواف فقط، فإن هذه حالة يشاركه فيها البهائم، بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى، وإصلاح فساد قلبه، ونفع الميت بما يتلوه عنده من القرآن، والدعاء، ويتجنب المشي على القبور، والجلوس عليها، ويسلم إذا دخل المقابر، وإذا وصل إلى قبر ميته الذي يعرفه سلم عليه أيضاً، وأتاه من تلقاء وجهه؛ لأنه في زيارته كمخاطبته حياً، ثم يعتبر بمن صار تحت التراب، وانقطع عن الأهل والأحباب، ويتأمل الزائر حال من مضى من إخوانه أنه كيف انقطعت آمالهم، ولم تغن عنهم أموالهم ومحا التراب محاسن وجوههم، وتفرقت في القبور أجزاؤهم، وترمّل من بعدهم نساؤهم، وشمل ذل اليتم أولادهم، وأنه لا بد صائر إلى مصيرهم، وأنَّ حاله كحالهم، ومآله كمآلهم.

[قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ قال الفراء: أي ليس الأمر على ما أنتم عليه من التفاخر والتكاثر. والتمام على هذا ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي سوف تعلمون عاقبة هذا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ جعله ابن مالك من التوكيد مع توسّط حرف العطف](٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٦٧٢)، كتاب الجنائز، باب: استئذان النبي ﷺ ربه في زيارة قبر أمه (١٠٦/ ٩٧٧)، من حديث بريدة بن الحصيب.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٧، ٣٥٦)، والطيالسي (١/ ١٧١)، رقم (٨١٧)، والترمذي (١٠٥٦)، وابن ماجه (١٥٧٦)، وابن حبان في «صحيحه» رقم (٣١٧٥)، والبيهقي (٤/ ٧٨)، وأبو يعلى (١٠/ ٣١٤)، رقم (٥٩٠٨)، من حديث أبي هريرة. وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح.

(٣) سقط من: ب.

وقال الزمخشريُّ: والتكرير تأكيد للردع، والرد عليهم، و «ثُمَّ» دالة على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول، وأشد كما تقول للمنصوح: أقول لك ثم أقول لك: «لا تَفْعَلْ» انتهى.

ونقل عن علي ـ رضي الله عنه ـ: «كَلاَّ سَوْفَ تعلمُون» في الدنيا «ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلمُونَ» في الآخرة فعلى هذا يكون غير مكرر لحصول التَّغاير بينهما؛ لأجل تغاير المتعلقين[١]، و «ثُمَّ» على بابها من المهلة وحذف متعلق العلم في الأفعال الثلاثة، لأن الغرض الفعل لا متعلقه.

وقال الزمخشريُّ[٢]: والمعنى: سوف تعلمون الخطأ فيما أنتم عليه إذا عاينتم ما قدامكم من هول لقاء الله، انتهى. فقدر له مفعولاً واحداً كأنه جعله بمعنى «عَرَفَ».

فصل في تفسير الآية

قال ابن عباس: «كَلاَّ سَوفَ تَعْلمُونَ» ما ينزل بكم من العذاب في القبور «ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعلمُونَ» في الآخِرة إذا حل بكم العذاب، فالتَّكرار للحالين[٣].

وروى زر بن حبيش عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا نشك في عذاب القبر، حتى نزلت هذه السورة[٤] فأشار إلى أن قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني في القبور.

[وقيل: كلا سوف تعلمون إذا نزل بكم الموت، وجاءتكم رسل ربكم تنزع أرواحكم، ثم كلا سوف تعلمون في القيامة أنكم معذبون، وعلى هذا تضمنت أحوال القيامة من بعث، وحشر، وعرض، وسؤال، إلى غير ذلك من أهوال يوم القيامة][٥].

وقال الضحاكُ: «كَلاَّ سوفَ تَعْلمُونَ» أيها المؤمنون[٦]، وكذلك كان يقرؤها، الأولى بالتاء، والثانية بالياء فالأول وعيد، والثاني وعد.

قوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ جواب «لَوْ» محذوف، أي: لفعلتم ما لا يوصف.

وقيل: التقدير: لرجعتم عن كفركم.

قال ابن الخطيب[٧]: وجواب «لَوْ» محذوف، وليس «لترونَّ» جوابها، لأن هذا مثبت، وجواب «لو» يكون منفياً، ولأنه عطف عليه قوله: «ثُمَّ لتُسْألُنَّ» وهو مستقبل، لا بد من وقوعه، وحذف جواب «لَوْ» كثير.

قال الأخفش: التقدير: لو تعلمُون علم اليقين ما ألهاكم.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/١١٨). (٢) ينظر الكشاف ٤/ ٧٩٢.
(٣) ينظر القرطبي في «تفسيره» (٢٠/١١٨). (٤) ينظر القرطبي (٢٠/ ١١٨).
(٥) سقط من: ب. (٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٧٩)، عن الضحاك.
(٧) ينظر: الفخر الرازي ٣٢/ ٧٥.

وقيل: لو تعلمون لماذا خلقتم لاشتغلتم وحذفُ الجواب أفخر، لأنه يذهب الوهم معه كل مذهب، قال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٢٧] وأعاد «كلاً»، وهو زجر وتنبيه؛ لأنه عقب كل واحد بشيء آخر، كأنه قال: لا تفعلوا، فإنكم تندمون، لا تفعلوا، فإنكم تستوجبون العقاب.

و ﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ مصدر.

قيل: وأصله العلم اليقين، فأضيف الموصوف إلى صفته.

وقيل: لا حاجة إلى ذلك؛ لأن العلم يكون يقيناً وغير يقين، فأضيف إليه إضافة العام للخاص، وهذا يدل على أنَّ اليقينَ أخصُّ.

فصل في المراد باليقين

قال المفسِّرون: أضاف العلم إلى اليقين، كقوله تعالى: ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، قال قتادة: اليقين هنا: الموت[١].

وعنه أيضاً: البعث[٢]، لأنه إذا جاء زال الشكُّ، أي: لو تعلمون علم البعث أو الموت، فعبر عن الموت باليقين، كقولك: علم الطب، وعلم الحساب، والعلم من أشد البواعث على الفعل، فإذا كان بحيث يمكن العمل، كان تذكرة، وموعظة، وإن كان بعد فوات العمل كان حسرة، وندامة، وفيها تهديد عظيم للعلماء، الذين لا يعملون بعلمهم.

قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾. جواب قسم مقدر، أي: لترون الجحيم في الآخرة.

والخطاب للكفار الذين وجبت لهم النار.

وقيل: عام [كقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] فهي للكفار دار، وللمؤمنين مَمَرّ][٣].

وقرأ[٤] ابن عامر، والكسائي: «لَتُروُنَّ» مبنياً للمفعول، وهي مفعولة من «رأى» الثلاثي أي: أريته الشيء، فاكتسب مفعولاً آخر، فقام الأول مقام الفاعل، وبقي الثاني منصوباً.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٨٠)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٦٠)، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٨٠)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٦٠)، وعزاه إلى الفريابي وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) سقط من: أ.

(٤) ينظر: السبعة ٦٩٥، والحجة ٦/ ٤٣٤، وإعراب القراءات ٢/ ٥٢٤، وحجة القراءات ٧٧١.

والباقون مبنياً للفاعل، جعلوه غير منقول، فتعدى لواحد فقط، فإن الرؤية بصرية.

وأمير المؤمنين، وعاصم، وابن كثير[١] **في رواية عنهم**: بالفتح في الأول، والضم في الثاني، يعني: لترونها.

ومجاهد، وابن أبي عبلة، وأشهب[٢]: بضمها فيهما.

والعامة على أن الواوين لا يهمزان؛ لأن حركتهما عارضة.

وقد نصّ مكي، وأبو البقاء على عدم جوازه، وعللا بعروض الحركة.

وقرأ الحسن وأبو عمرو[٣] **بخلاف عنهما**: بهمز الواوين استثقالاً لضمة الواو.

قال الزمخشري[٤]: «هِي مُسْتكرَهة»، يعني لعروض الحركة عليها، إلا أنهم قد همزوا ما هو أولى لعدم الهمز من هذه الواو، نحو: ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ [البقرة: ١٦] همزوا واو «اشترؤا» مع أنها حركة عارضة، وتزول في الوقف، وحركة هذه الواو، وإن كانت عارضة، إلا أنَّها غير زائلة في الوقف، فهو أولى بهمزها.

قوله: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ هذا مصدر مؤكد، كأنه قيل: رؤية اليقين نفياً لتوهم المجاز في الرؤية الأولى.

وقال أبو البقاء[٥]: لأن «رأى»، و «عاين» بمعنى.

فصل في معنى الآية

معنى الكلام: «لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ» بأبصاركم على البعد «ثُمَّ لَتَروُنَّهَا عَيْنَ اليَقِينِ» أي: مشاهدة.

وقيل: «لَوْ تَعلمُونَ عِلمَ اليَقينَ»، معناه: «لَوْ تَعْلَمُونَ» اليوم في الدنيا «عِلمَ اليَقينِ» بما أمامكم مما وصفت «لَتروُنَّ الجَحِيم» بعيون قلوبكم، فإن علم اليقين يريك الجحيم بعين فِؤادك، وهو أن يصور لك نار القيامة «ثُمَّ لَتَرونَّهَا عَيْنَ اليَقينِ»، أي: عند المعاينة بعين الرأس، فتراها يقيناً، لا تغيب عن عينك، ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ في موقف السؤال والعرض.

قال الحسن: لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار، لأن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ لما نزلت هذه الآية، قال: يا رسول الله ﷺ: أرأيت أكلة أكلتها معك في بيت أبي الهيثم بن

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥١٩، والبحر المحيط ٨/ ٥٠٦، والدر المصون ٦/ ٥٦٥.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٥٠٦، والدر المصون ٦/ ٥٦٥.

(٣) ينظر السابق.

(٤) الكشاف ٤/ ٧٩٢.

(٥) الإملاء ٢/ ٢٩٣.

التيهان من خبز شعيرٍ، ولحم، وبسر، وماء عذب، أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذي يسأل عنه؟.

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ «إنما ذلِكَ للكُفَّارِ»، ثم قرأ: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾[١] [سبأ: ١٧]؛ ولأن ظاهر الآية يدل على ذلك لأن الكفار ألهاهم التكاثر بالدنيا، والتفاخر بلذاتها عن طاعة الله، والاشتغال بذكر الله تعالى، يسألهم عنها يوم القيامة، حتى يظهر لهم أن الذي ظنوه لسعادتهم كان من أعظم الأسباب لشقاوتهم.

وقيل: السؤال عام في حق المؤمن، والكافر لقوله ﷺ: «أوَّلُ ما يُسْأَلُ العَبْدُ يَوْمَ القِيامَةِ عن النَّعيمِ، فيقالُ لَهُ: أَلَمْ نُصْحِحْ جِسْمكَ؟ أَلَمْ نَروِكَ مِنْ المَاءِ البَارِدِ»؟.

وقيل: الزائد عما لا بد منه.

وقيل غير ذلك.

قال ابن الخطيب[٢]: والأولى على جميع النعيم، لأن الألف واللام تفيد الاستغراق، وليس صرف اللفظ إلى بعض أولى من غيرها إلى الباقي، فيسأل عنها، هل شكرها أم كفرها؟ وإذا قيل: هذا السؤال للكفار.

فقيل: السؤال في موقف الحساب.

وقيل: بعد دخول النار، يقال لهم: إنَّما حل بكم هذا العذاب لاشتغالكم في الدنيا بالنعيم عن العمل الذي ينجيكم، ولو صرفتم عمركم إلى طاعة ربكم لكنتم اليوم من أهل النجاة. والله أعلم.

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٣٢/٧٧).

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٣٢/٧٨.

سورة العصر

مكية، وروى ابن عباس وقتادة: أنها مدنية[1]، وهي ثلاثُ آياتٍ. [وأربع عشرة كلمة وستون حرفاً][2].

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾. قرأ العامة: بسكون الصاد، وسلام: «والعَصِر» بكسرها، و «الصَّبِر» بكسر الباء.

قال ابن عطية[3]: «وهذا لا يجوز، إلا في الوقف على نقل الحركة».

وروي[4] عن أبي عمرو: «بالصبْر» بسكون الباء إشماماً، وهذا أيضاً لا يجوز إلا في الوقف انتهى.

ونقل هذه القراءة جماعة كالهذلي، وأبي الفضل الرازي، وابن خالويه.

قال الهذلي: «والعصر، والصبر، والفجر، والوتر، بكسر ما قبل الساكن في هذه كلها: هارون، وابن موسى عن أبي عمرو، والباقون: بالإسكان، كالجماعة» انتهى.

فهذا إطلاق منه لهذه القراءة في حالتي الوقف والوصل.

قال ابن خالويه: «وتواصوا بالصبر» بنقل الحركة عن أبي عمرو.

قال ابن خالويه [وقال صاحب «اللوامح»: وعيسى البصرة:][5] «بالصبر» بنقل حركة الراء إلى الباء، لئلا يحتاج أن يأتي ببعض الحركة في الوقف، ولا إلى أن يسكن،

---

(١) ينظر تفسير الماوردي (٦/ ٣٣٣). (٢) سقط من: ب.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٥٠٧، والدر المصون ٦/ ٥٦٧.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٥٢٠.

(٥) ينظر: الحجة ٦/ ٤٣٨، وإعراب القراءات ٢/ ٥٢٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٢٠.

فيجمع بين ساكنين، وذلك لغة شائعة، وليست بشاذة بل مستفيضة، وذلك دلالة على الإعراب، وانفصال عن التقاء الساكنين، وتأدية حق الموقوف عليه من السكون انتهى، فهذا يؤذن بما ذكر ابن عطية، أنه كان ينبغي ذلك.

وأنشدوا على ذلك: [الرجز]

٥٢٩٦ ـ واغـــتـــقَـــالاً بـــالـــرِّجِـــلْ(١)

يريد: بالرَّجْلِ.

وقال آخر: [الرجز]

٥٢٩٧ ـ أنَـا جَـرِيـرٌ كُـنـيَـتِـي أبُـو عَـمِـرْ أضْـرِبُ بـالـسَّـيْـفِ وسَـعْـدٌ بـالـقَـصِـرْ(٢)

والنقل جائز في الضم كقوله شعر:

إذ جِـــدُّ الـــنَّـــقُـــرْ(٣)

وله شروط: «والعقد» الليلة واليوم قال: [الطويل]

٥٢٩٨ ـ ولَنْ يَلْبثِ العقْدانِ: يَومٌ ولَيْلةٌ إذَا طَـلَـبَـا أنْ يُـدْرِكَـا مـا تَـيَـمَّـمَـا(٤)

قال ابن عباس وغيره: «والعصر» أي: الدهر، ومنه قول الشاعر: [الطويل]

٥٢٩٩ ـ سَيْلُ الهَوَى وعْرٌ وبَحْرُ الهَوَى غَمْرٌ ويَـوْمُ الـهَـوَى شَـهْـرٌ وشَـهْـرُ الـهـوَى دَهْـرُ(٥)

أقسم الله ـ تعالى ـ بالعصرِ لما فيه من الاعتبار للناظر بتصرف الأحوال وبتبدلها وما فيها من الأدلة على الصانع، والعصران أيضاً الغداة والعشي قال: [الطويل]

٥٣٠٠ ـ وأمْطُلُهُ العَصرَيْن حتَّى يَملَّنِي ويَـرْضَـى بِـنِـصْـفِ الـدَّيْـن والأنْـفُ رَاغِـمُ(٦)

يقول: إذا جاءني أول النهار وعدته آخره.

---

(١) سقط من: أ.

(٢) تمام الرجز:

عَـلَّـمَـنَـا إخْـوانُـنَـا بَـنُـو عِـجِـلْ شُـرْبَ الـنَّـبِـيـذِ واصْـطِـفَـافـاً بـالـرِّجِـلْ

ينظر الأشباه والنظائر ٣/ ٧٣، والإنصاف ٢/ ٧٣٤، والخصائص ٢/ ٣٣٥، وشرح الأشموني ٣/ ٧٨٤، والخصائص ٢/ ٣٣٥، وشرح الأشموني ٣/ ٧٨٤، وشرح شواهد الإيضاح ص ٢٦١، واللسان (مسك)، و(عجل)، والمقاصد النحوية ٤/ ٥٦٧، ونوادر أبي زيد ص ٣٠.

(٣) ينظر الإنصاف ٢/ ٧٣٣، والبحر ٨/ ٥٠٧، والدر المصون ٦/ ٥٦٧.

(٤) البيت لحميد بن ثور في ديوانه ص ٨، وإصلاح المنطق ص ٣٩٤، ولسان العرب ٤/ ٥٧٦ (عصر)، والقرطبي ٢٠/ ١٢٢، وشرح عمدة الحافظ ص ٥٨١.

والشاهد فيه قوله: «ولن يلبث القصران يوم وليلة» حيث أبدل النكرة من المعرفة مع اختلاف اللفظين.

(٥) ينظر القرطبي ٢٠/ ١٢٢.

(٦) ينظر اللسان (عصر) والقرطبي ٢٠/ ١٢٢.

وقيل: إنه العشي، وهو ما بين الزوال والغروب. قاله الحسن وقتادة.

[وقال الشاعر]:

٥٣٠١ ـ تَروَّحْ بِنَا يا عَمْرُو قَدْ قَصُرَ العَصرُ وفي الرَّوحةِ الأولَى الغَنِيمةُ والأَجْرُ[١]

وعن قتادة: هو آخر ساعة من النهار، فأقسم سبحانه بأحد طرفي النهار كما أقسم بالضحى، وهو أحد طرفي النَّهارِ[٢]، قاله أبو مسلم.

وقيل: هو قسم بصلاة العصر، وهي الوسطى؛ لأنها أفضل الصلوات، قاله مقاتل.

قال ﷺ: «الصَّلاةُ الوُسْطَى، صلاةُ العَصْرِ»[٣].

وقيل: أقسم بعصر النبي ﷺ لفضله بتجديد النبوة فيه.

وقيل: معناه وربِّ العصر.

فصل

قال مالك ـ رضي الله عنه ـ من حلف ألاَّ يكلم رجلاً عصراً، لم يكلمه سنة. قال ابن العربي: [إنما حمل مالك يمين الحالف ألا يكلم امرءاً عصراً على السنة، لأنه أكثر ما قيل فيه، وذلك على أصله في تغليظ][٤] المعنى في الأيمان.

وقال الشافعي: يبر بساعة إلا أن تكون له نيّة، وبه أقول، إلا أن يكون الحالف عربياً، فيقال له: ما أردت؟ فإذا فسره بما يحتمله قبل منه إلا أن يكون الأقل، ويجيء على مذهب مالك أن يحمل على ما يفسر.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾، هذا جواب القسم، والمراد به العموم بدليل الاستثناء منه، وهو من جملة أدلة العموم.

وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: المراد به الكافر.

وقال في رواية الضحاك[٥]: يريد جماعة من المشركين الوليد بن المغيرة والعاص ابن وائل والأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى والأسود بن عبد يغوث. وقوله تعالى: ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ أي: لفي غبنٍ.

وقال الأخفش: لفي هلكة.

وقال الفراء: لفي عقوبة، ومنه قوله: ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: ٩]، وقال الفراء: لفي شرّ.

---

(١) ينظر اللسان (عصر)، والقرطبي ٢٠/ ١٢٢.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٨٤)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٦٧)، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) تقدم تخريجه في سورة البقرة. (٤) سقط من: ب.

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٢٣).

وقيل: لفي نقص، والمعنى متقارب.

وقرأ العامة: «لفي خُسرٍ» بسكون السين، وزيد بن علي، وابن هرمز، وعاصم في رواية أبي بكر، وزاد القرطبيُّ: الأعرج، وطلحة، وعيسى الثقفي[١]: بضمها. وهي كالعسر واليسر، وقد تقدم في البقرة، والوجه فيها الإتباع، ويقال: خسْر وخسُر مثل عسْر وعسُر.

وقرأ علي بن أبي طالب[٢]: «والعصر»: ونوائب الدهر، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾؛ وإنه فيه إلى آخر الدهر.

قال إبراهيم: إن الإنسان إذا عُمِّرَ في الدنيا وهرم لفي نقص، وضعف، وتراجع إلا المؤمنين، فإنهم يكتب لهم أجورهم التي كانوا يعملونها في حال شبابهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤، ٥]. قال: وقراءتنا: «والعصر إنّ الإنسان لفي خُسْر فإنه في آخر الدهر». والصحيح ما عليه الأمّة والمصاحف.

[وقيل: المعنى أن الإنسان لا ينفك عن تضييع عمره؛ لأن كل ساعة تمر بالإنسان، فإن كان في المعصية، فالخسر ظاهر، وكذلك إن مرت في مباح، وإن مرت في طاعة فكان يمكن أن يأتي بها على وجه أكمل أي من الخشوع، والإخلاص، وترك الأعلى، والإتيان بالأدنى نوع خسران، والخسر والخسران مصدران، وتنكير الخسران إما للتعظيم، وإما للتحقير بالنسبة إلى خسر الشياطين، والأول أظهر، وأفرد الخسر مع كثرة أنواعه؛ لأن الخسر الحقيقي هو حرمان عن خدمة ربه سبحانه، وما عدا ذلك فالكعدم، وفيه مبالغات، ودخول «إن، واللام»، وإحاطة الخسر به، أي: هو في طريق خسر وسبب خسر][٣].

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾. استثناء من الإنسان؛ إذ المراد به الجنس على الصحيح ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: أدوا الفرائض المفترضة عليهم، وهم أصحاب الرسول ﷺ قال أبي بن كعب: قرأت على رسول الله ﷺ «والعَصْرِ» ثم قلتُ: ما تفسيرها يا نبي الله؟.

قال: «والعَصْرِ: أقسم ربكم بآخر النهار، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾؛ أبو جهل ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أبو بكر، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عمر، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾: عثمان، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾: عليّ»[٤] رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥٢٠، والقرطبي ٢٠/ ١٢٣، والبحر المحيط ٨/ ٥٠٨، والدر المصون ٦/ ٥٦٧.
(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٢٣.
(٣) سقط من: ب.
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٢٣).

وهكذا خطب ابن عباس على المنبر، موقوفاً عليه.

ومعنى تواصوا أي تحاثوا أوصى بعضهم بعضاً وحث بعضهم بعضاً بالحق أي بالتوحيد وكذا روى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما وقال قتادة بالحق أي بالقرآن وقال السدي الحق هنا الله تعالى وتواصوا بالصبر على طاعة الله والصبر عن المعاصي.

روى الثعلبي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ سُورةَ ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ خَتمَ اللَّهُ لَهُ بالصَّبرِ، وكَانَ مَعَ أصْحابِ رسول اللَّهِ يَوْمَ القِيامَةِ»[1]. والله أعلم.

(١) تقدم تخريجه.

سورة الهمزة

مكية، وهي تسع آيات، وثلاث وثلاثون كلمة، ومائة وثلاثون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، «الوَيْل» لفظ الذم والسّخط، وهي كلمة كل مكروب، وقد تقدم الكلام في الويل، ومعناه: الخزي، والعذاب، والهلكة.

وقيل: وادٍ في جهنم.

﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾، أي: كثير الهمز، وكذلك «اللُّمَزَة»، أي: الكثير اللَّمْز. وتقدم معنى الهمز في سورة «ن» واللمز في سورة «براءة».

والعامة: على فتح ميمها، على أن المراد الشخص الذي كثر منه ذلك الفعل.

قال زياد الأعجم: [البسيط]

٥٣٠٢ ـ تُدْلِي بِوُدِّي إذَا لاقَيْتَنِي كَذِباً وإنْ أغَيَّبْ فأنْتَ الهَامِزُ اللُّمَزَه[1]

وقرأ أبو جعفر[2] **والأعرج**: بالسكون، وهو الذي يهمز ويلمز أي يأتي بما يلمز به واللمزة كالضحكة [لمن يكثر ضحكه، والضحكة: بما يأتي لمن يضحك منه وهو مطرد، يعني أن «فُعَلَة» بفتح العين، لمن يكثر من الفعل، وبسكونها لمن الفعل بسببه].

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وهم المشّاءون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبُرآء العيب[3]، فعلى هذا هما بمعنى، وقال ﷺ: «شِرارُ عبادِ اللَّهِ تَعالَى:

---

(١) ينظر الكشاف ٤/ ٧٩٥، والقرطبي ٢٠/ ١٢٤، والبحر ٨/ ٥١٠، والدر المصون ٦/ ٥٦٨.

(٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٢٤.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٨٦)، عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٦٩)، وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور وابن أبي الدنيا في «ذم الغيبة» وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس.

المشَّاءُونَ بالنَّمِيمَةِ المفسِدُونَ بَيْنَ الأحبَّةِ، الباغُونَ للبُرَآءِ العَيْبَ»[١].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أن الهمزة: القتَّات، واللُّمزة: المغتاب، والقتَّاتُ: هو النمام[٢]، يقال: قتّ الحديث يقتّه: إذا زوره وهيّأه وسواه.

[وقيل: النَّمامُ الذي يكون مع القوم يتحدثون لينمّ عليهم، والقتَّات الذي يتسمع على القوم وهم لا يعلمون، ثم ينم، والقتات الذي يسأل عن الأخبار، ثم ينميها نقله ابن الأثير.

وقال أبو العالية، والحسن، ومجاهد، وعطاء بن أبي رباح: الهمزة: الذي يغتاب ويطعن في وجه الرجل، واللُّمزة: الذي يعيب به من خلفه، وهذا اختيار النحاس.

قال: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ٥٨].

وقال مقاتل هنا هذا القول: إن الهمزة: الذي يغتاب بالغيبة، واللمزة الذي يغتاب في الوجه.

وقال قتادة، ومجاهد: الهمزة: الطَّعَّان في أنسابهم، وقال ابن زيد: الهامز: الذي يهمز الناس بيده ويضربهم، واللامز: الذي يلمزهم بلسانه ويلمز بعينه].

وقال ابن كيسان: الهمزة: الذي يؤذي جلساءه بسوء اللفظ، واللُّمزة: الذي يكسر عينه على جليسه، ويشير بعينه، ورأسه، وبحاجبيه.

وقرأ عبد الله بن مسعود، وأبو وائل، والنخعي، والأعمش[٣]: «ويلٌ للهمزة اللمزة».

وأصل الهمز: الكسر، والعض على الشيء بعنف، ومنه همز الحرف، ويقال: همزت رأسه، وهمزت الجوز بكفي: كسرته.

وقيل: أصل الهمزِ، واللمز: الدفع والضرب لمزه يلمزه لمزاً، إذا ضربه، ودفعه، وكذلك همزه: أي: دفعه، وضربه؛ قال الراجز: [الرجز]

٥٣٠٣ ـ ومَنْ هَمَزْنَا عِزَّهُ تَبَرْكَعَا عَلى اسْتِهِ زَوْبَعَةً أوْ زَوْبَعَا[٤]

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٤٥٩)، من حديث أسماء بنت يزيد وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٩٦)، وقال: رواه أحمد وفيه شهر بن حوشب وقد وثقه غير واحد وبقية رجال أحمد أسانيده رجال الصحيح.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٨٧).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥٢١، والقرطبي ٢٠/ ١٢٥.

(٤) ينظر ديوان رؤبة ص ٩٣، وسمط اللآلىء ١/ ٣٢١، والأمالي للقالي ١/ ١٣٧، واللسان (همز)، والقرطبي ٢٠/ ١٢٥.

البركعة: القيام على أربع، وبركعه فتبركع، أي: صرعه، فوقع على استه، قاله في «الصحاح»[١].

فصل فيمن نزلت فيه السورة

روى الضحاك عن ابن عبَّاس: أنها نزلت في الأخنس بن شريق، كان يلمز الناس، ويعيبهم مقبلين، ومدبرين[٢].

وقال ابن جريج: نزلت في الوليد بن المغيرة، كان يغتاب النبي ﷺ من ورائه، ويقدح فيه في وجهه[٣].

وقيل: إنها نزلت في أبي بن خلف.

وقيل: في جميل بن عامر الثقفي.

وقيل: إنها عامة من غير تخصيص، وهو قول الأكثرين.

قال مجاهد: ليست بخاصة لأحد، بل لكل من كانت هذه صفته[٤].

وقال الفراءُ: يجوز أن يذكر الشيء العام، ويقصد به الخاص، قصد الواحد إذا قال: أزورك أبداً، فتقول: من لم يزرني فلست بزائره، تعني ذلك القائل.

فصل في نظم الآية

قال ابن الخطيب[٥]: فإن قيل: لم قال: «ويلٌ» منكراً، وفي موضع آخر: «ولَكُمُ الويْلُ» معرفاً؟.

فالجواب: لأن ثمة قالوا: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٠]، فقال: «ولكُمُ الويْلُ»، وهاهنا نكر، حتى لا يعلم كنهه إلا الله تعالى.

قيل في «ويْلٌ» إنها كلمة تقبيح، و «ويس» استصغار، «ويح» ترحم، فنبه بهذا على قبيح هذا الفعل.

قوله: ﴿ٱلَّذِى جَمَّعَ﴾ **قرأ ابن عامر**[٦] **والأخوان**: بتشديد الميم، على المبالغة، والتكثير.

والباقون: مخففاً، وهي محتملة للتكثير وعدمه.

---

(١) ينظر الصحاح ٣/ ١١٨٥.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٢٥).

(٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٨٨)، عن مجاهد.

(٥) الفخر الرازي ٣٢/ ٨٦.

(٦) ينظر: السبعة ٦٩٧، والحجة ٦/ ٤٤١، وإعراب القراءات ٢/ ٥٢٩، وحجة القراءات ٧٧٢.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾، العامة: على تثقيل الدَّال الأولى، وهي أيضاً للمبالغة.

وقرأ الحسن والكلبي[١]: بتخفيفها، وفيه أوجه:

أحدها: أن المعنى جمع مالاً، وعدد ذلك المال، أي: وجمع عدده، أي: أحصاه.

والثاني: أن المعنى وجمع عدد نفسه من عشيرته، وأقاربه وعدده، وعلى هذين التأويلين اسم معطوف على «مالاً»، أي: وجمع عدد المال، وعدد نفسه.

والثالث: أن عدده فعل ماض بمعنى عده، إلا أنه شذّ في إظهاره كما شذَّ في قوله: [البسيط]

٥٢٩٣ ـ .... إنِّــي أجُــودُ لأقــوامٍ وإنْ ضَــنِــنُــوا[٢]

أي: ضنوا وبخلوا، فأظهر التضعيف.

و «الذي» بدل من كل أو نصب على الذم، وإنما وصفه تعالى بهذا الوصف، لأنه يجري مجرى المسبب والعلة في الهمز واللمز وهو إعجابه بما جمع من المال، وظنه أن الفضل فيه لأجل ذلك فيستنقص غيره.

فصل في معنى جمع المال

قال المفسرون: «جَمَعَ مالاً وعدَّدهُ»، أي: أعده لنوائب الدهر، مثل: كرم، وأكرم.

وقيل: أحصى عدده. قاله السدي[٣].

وقال الضحاكُ: أي: أعد ماله[٤] لمن يرثه من أولاده.

وقيل: تفاخر بعدده، وكثرته، والمقصود: الذم على إمساك المال على سبيل الطاعة، كقوله: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ [ق: ٢٥].

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥٢١، والبحر المحيط ٨/ ٥١٠، والدر المصون ٦/ ٥٦٨.

(٢) عجز بيت لقعنب ابن أمّ صاحب وصدره:

مــهــلاً أعــاذل قــد جــربــت مــن خــلــقــي

ينظر الخصائص ١/ ١٦٠، ٢٥٧، وسمط اللآلىء ص ٥٧٦، وشرح أبيات سيبويه ١/ ٣١٨، والكتاب ٢٩٨، ٣/ ٥٣٥، ولسان العرب (ظلل)، و(ضنن)، والمنصف ١/ ٣٣٩، ٢/ ٣٠٣، ونوادر أبي زيد ص ٤٤، وخزانة الأدب ١/ ١٥٠، ٢٤٥، وشرح شافية ابن الحاجب ٣/ ٢٤١، وشرح المفصل ٢/ ١٣، والمقتضب ١/ ١٤٢، ٢٥٣، ٣/ ٣٥٤.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٧٠)، عن السدي وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

(٤) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٣٣٦)، والقرطبي (٢٠/ ١٢٥).

قوله: ﴿يَحۡسَبُ﴾، يجوز أن يكون مستأنفاً، وأن يكون حالاً من فاعل «جَمَعَ»، و «أخْلدهُ» بمعنى: «يُخلِدهُ» وأوقع الماضي موقع المضارع.

وقيل: هو على الأصل، أي: أطال عمره.

قال السديُّ: «يظن أن ماله أخلده، أي: يبقيه حياً لا يموت»[١].

وقال عكرمة: أي: يزيد في عمره[٢] وقيل: أحياه فيما مضى.

وهو ماض بمعنى المستقبل، وقالوا: هلك والله فلان، ودخل النار. أي: يدخل النار.

قوله تعالى: ﴿كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ﴿٩﴾﴾

قوله: ﴿كَلَّاۖ﴾، رد لما توهمه الكفار، أي: لا يخلد ولا يبقى له مال.

وقيل: حقاً لينبذن.

قوله: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾، جواب قسم مقدر، وقرأ علي والحسن ـ رضي الله عنهما ـ بخلاف عنه، ومحمد بن كعب، ونصر بن عاصم، وحميد، وابن محيصن، وأبو عمرو في رواية[٣]: «لَيُنْبَذَانّ» بألف التثنية، لينبذان أي: هو وماله.

وعن الحسن أيضاً[٤]: «لَيُنْبَذُنَّ» بضم الذال، وهو مسند لضمير الجماعة، أي: ليطرحن الهمزة، وأنصاره واللمزة، والمال، وجامعه معاً.

وقرأ الحسن[٥] **أيضاً**: «لَيُنبذَنَّهُ» على معنى لينبذن ماله.

وعنه أيضاً: بالنون «لَنَنْبُذَنَّهُ» على إخبار الله ـ تعالى ـ عن نفسه، وأنه ينبذ صاحب المال. ﴿فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ وهي نار الله، سميت بذلك؛ لأنها تكسر كل ما يلقى فيها وتحطمه، وتهشمه، والحطمة: الكثير الحطم، يقال: رجل حطمة: أي أكول، وحطمته: كسرته، قال: [الرجز]

---

(١) ذكره القرطبي (٢٠/ ١٢٧)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٧٠)، عنه بمعناه وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ينظر: إعراب القراءات ٢/ ٥٣٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٢٢، والبحر المحيط ٨/ ٥١٠، والدر المصون ٦/ ٥٦٩.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥٢٢، والبحر المحيط ٨/ ٥١٠، والدر المصون ٦/ ٥٦٩.

(٥) ينظر: السابق.

٥٣٠٤ ـ .... قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَّاقٍ حُطَمْ[١]

وقال آخر: [الرجز]

٥٣٠٥ ـ إنَّا حَطَمْنَا بالقَضِيبِ مُصْعبَا يَوْمَ كَسرْنَا أنفهُ ليَغْضَبَا[٢]

حكى الماوردي عن الكلبي: أن الحطمة، هي الطبقة السادسة من طبقات جهنم، وحكي القشيريُّ عنه: «الحُطمةُ» الدرجة الثانية من درج النار[٣].

وقال الضحاك: وهي الدرك الرابع[٤].

وقال ابن زيدٍ: اسم من أسماء جهنم[٥].

قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾، على التعظيم لشأنها، والتفخيم لأمرها، ثم فسرها ما هي فقال: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ﴾، أي: هي نار الله التي أوقد عليها ألف عام، حتى احمرت، وألف عام حتى اسودّت، وألف عام حتى ابيضّت.

قوله: ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ﴾ يجوز أن تكون تابعة لـ «نارُ اللَّهِ»، وأن تكون مقطوعة.

قال محمد بن كعب: تأكل النار جميع ما في أجسادهم، حتى إذا بلغت إلى الفؤاد، خلقوا خلقاً جديداً، فرجعت تأكلهم، وكذلك روى خالد بن أبي عمران عن النبي ﷺ: «إنَّ النار تأكل أهلها، حتى إذا طلعت على أفئدتهم انتهت، ثُمَّ إذا صدروا تعود، فذلك قوله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾»[٦]. وخص الأفئدة؛ لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه، أي: أنه في حال من يموت، وهم لا يموتون، كما قال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [طه: ٧٤] فهم إذاً أحياءٌ، في معنى الأموات.

وقيل: معنى ﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ أي: تعلم مقدار ما يستحقه كل واحد منهم من العذاب، وكذلك بما استبقاه الله ـ تعالى ـ من الأمارة الدَّالة عليه، ويقال: اطَّلَع فلان على كذا: أي: علمه، [وقد قال تعالى: ﴿تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [المعارج: ١٧].

---

(١) نسب البيت إلى رشيد بن رميض، وللأغلب العجلي، وللحطم القيسي، ولأبي زغيبة الأنصاري، ولأبي زغبة الخزرجي.
ينظر الأغاني ١٥/ ١٩٩، ٢٠٠، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٣٥٥، والحماسة الشجرية ١/ ١٤٤، وشرح المفصل ١/ ٩٢، والكتاب ٣/ ٢٢٣، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٢٨٦، واللسان (حطم)، و (خفق) وأساس البلاغة ص ٨٨ (حطم)، وجمهرة اللغة ص ٨٣، وسمط اللآليء ص ٥٩، وشرح المفصل ٦/ ١١٢، وما ينصرف وما لا ينصرف ص ٣٩، والمقتضب ١/ ٥٥، ٣/ ٣٢٣.

(٢) ينظر القرطبي ٢/ ١٢٦، والبحر ٨/ ٥٠٩، والدر المصون ٦/ ٥٦٩. وفتح القدير ٥/ ٤٩٤.

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٣٣٦)، وينظر تفسير القرطبي (٢٠/ ١٢٦).

(٤) ينظر المصدر السابق.

(٥) ينظر المصدر السابق.

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٢٦).

وقال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾][1] [الفرقان: ١٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾. أي: مطبقة عليهم، قاله الحسن والضحاك[2] وقد تقدم في سورة البلد.

وقيل: مغلقة بلغة قريش، يقولون: أصدتُ الباب: إذا أغلقته. قاله مجاهد[3].

ومنه قول عبيد الله بن قيس الرقيات: [الخفيف]

٥٣٠٦ ـ إنَّ في القصْرِ لوْ دخلْنَا غَزالاً مُصْفقاً مُوصداً عليْهِ الحِجَابُ[4]

قوله: ﴿عَمَدٍ﴾. قرأ[5] **الأخوان وأبو بكر**: بضمتين، جمع عمود، نحو رسول ورسل.

وقيل: جمع عماد، نحو: كتاب وكتب.

وروي عن أبي عمرو: الضم، والسكون، وهو تخفيف لهذه القراءة.

والباقون: «عَمَدٍ» بفتحتين، فقيل: بل هو اسم جمع لـ «عمود».

وقيل: بل هو جمع له.

قال الفراء: كـ «أديم وأدم».

وقال أبو عبيدة: هو جمع عماد.

و «فِي عَمَدٍ» يجوز أن يكون حالاً من الضمير في «عَليهِم»، أي: موثقين، وأن يكون خبراً لمبتدأ مضمر، أي: هم في عمد، وأن يكون صفة لـ «مُؤصَدةٌ»، قاله أبو البقاء[6]. يعني: فتكون النَّار داخل العمد.

وقال القرطبي[7]: «الفاء بمعنى الباء، أي: موصدة بعمد ممددة». قاله ابن مسعود، وهي في قراءته: «بعمد ممددة».

قال الجوهريُّ[8]: العمُود: عمود البيت، وجمع القلّة: أعمدة، وجمع الكثرة: عُمُد وعَمَد، وقرىء بهما في قوله تعالى: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾.

---

(١) سقط من: أ.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٨٩)، عن ابن عباس وعطية والحسن والضحاك.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٧٠)، عن ابن عباس وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٨٩)، عن ابن زيد. وينظر تفسير القرطبي (٢٠/ ١٣٧).

(٤) ينظر ديوانه ٨٤، والقرطبي ٢٠/ ١٢٧.

(٥) ينظر: السبعة ٦٩٧، والحجة ٦/ ٤٤٢ ـ ٤٤٣، وإعراب القراءات ٢/ ٥٣٠، وحجة القراءات ٧٧٣.

(٦) ينظر الإملاء ٢/ ٢٩٤.

(٧) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٢٧.

(٨) الصحاح ٢/ ٥١١.

وقال أبو عبيدة: العمُود: كل مستطيل من خشب، أو حديد، وهو أصل للبناء مثل العماد. عمدت الشيء فانعمد أي: أقمته بعماد يعتمد عليه، وأعمدته أي جعلت تحته عماداً.

فصل في معنى الآية

قال رسول الله ﷺ: إنَّ اللَّه تَبارَكَ وتَعَالَى يَبعَثُ عَليْهِمْ مَلائِكَةً بأطْباقٍ من نَارٍ، ومَسامِيرَ مِنْ نَارٍ، وعُمدٍ منْ نَارٍ، فتطبق عليهم بتِلْكَ الأطْبَاقِ، وتُسَدُّ بتلْكَ المَسَامِيرِ، وتُمَدُّ بتِلْكَ العُمدِ، فلا يَبْقَى فيْهَا خَلَلٌ يَدخلُ مِنهُ رَوْحٌ ولا يَخرجُ مِنهُ غمٌّ، فيكُونُ فِيهَا زَفِيرٌ وشَهِيقٌ، فذلكَ قوله تَعَالَى ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾»[(١)].

وقال قتادة: عمد يعذبون بها[(٢)]، واختاره الطَّبري[(٣)].

وقال ابن عبَّاس: إن العمد الممددة أغلال في أعناقهم[(٤)].

وقال أبو صالح: قيود في أرجلهم.

وقال القشيري: العمد: أوتاد الأطباق.

وقيل: المعنى، في دهور ممدودة، لا انقطاع لها.

روى الثعلبي عن أبيّ بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرأ ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ أعطيَ مِنَ الأجْرِ عَشْرَ حَسناتٍ، وبعدد من اسْتَهْزأ بمُحَمَّدٍ ﷺ»[(٥)].

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٧١)، وعزاه إلى الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٩٠)، عن قتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٧٠)، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) ينظر جامع البيان ١٢/ ٦٩٠.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٩٢)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ١٢٢)، من طريق محمد بن سيرين عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٧٤)، وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٩٣)، والبيهقي في «الدلائل» (١/ ١٢٣)، عن عكرمة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٧٥)، وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

سورة الفيل

مكية، وهي خمس آيات، وعشرون كلمة، وستة وتسعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾، هذه قراءة الجمهور، أعني: فتح الراء وحذف الألف للجزم.

وقرأ السلمي[1]: «تَرْ» بسكون الراء، كأنه لم يعتمد بحذف الألف.

وقرأ أيضاً[2]: «ترأ» بسكون الراء وهمزة مفتوحة، وهو الأصل، و «كَيْفَ» معلقة للرؤية، وهي منصوبة بفعل بعدها، لأن «أَلَمْ تَرَ كَيفَ» من معنى الاستفهام.

فصل في معنى الآية

المعنى: ألم تخبر.

وقيل: ألم تعلم.

وقال ابن عباس: ألم تسمع[3]؟ واللفظ استفهام والمعنى تقرير، والخطاب للرسول ﷺ ولكنه عام، أي: ألم تروا ما فعلت بأصحاب الفيل؟ أي: قد رأيتم ذلك، وعرفتم موضع منتي عليكم، فما لكم لا تؤمنون؟.

فصل في لفظ «الفيل»

الفيل معروف، والجمع: أفيال، وفيول، وفيلة.

قال ابن السكيت: ولا يقال: «أفيلة» والأنثى فيلة، وصاحبه: فيال.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥٢٣، والبحر المحيط ٨/ ٥١٢.

(٢) ينظر: السابق، والدر المصون ٦/ ٥٧١. (٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٣٤).

قال سيبويه: يجوز أن يكون أصل «فيل»: «فُعْلا» فكسر من أجل الياء، كما قالوا: أبيض وبيض.

وقال الأخفش: هذا لا يكون في الواحد، إنما يكون في الجمع، ورجل فيلُ الرأي، أي: ضعيف الرأي والجمع: أفيال، ورجل فالٌ: أي: ضعيف الرأي، مخطىء الفراسة، وقد فال الرأي، يفيلُ، فيُولة، وفيَّل رأيه تفييلاً: أي: ضعفه، فهو فيِّلُ الرأي.

فصل في نزول السورة

روي أن أبرهة بن الصباح الأشرم ـ ملك «اليمن» ـ بنى كنيسة بـ «صنعاء» لم ير مثلها، وسمَّاها القليس، وأراد أن يصرف إليها الحاج، فخرج رجل من بني كنانة مختفياً، وجعل يبولُ ويتغوطُ في تلك الكنيسة ليلاً، فأغضبه ذلك.

وقيل: أجج ناراً فحملتها ريح فأحرقتها، فقال: من صنع هذا؟ فقيل له: رجل من أهل البيت الذي يحج العرب إليه، فحلف ليهدمنَّ الكعبة، فخرج بجيشه ومعه فيلٌ اسمه محمود، وكان قويًّا عظيماً وثمانية أخرى. وقيل: اثنا عشر. وقيل: ألف، وبعث رجلاً إلى بني كنانة يدعوهم إلى حج تلك الكنيسة فقتلت بنو كنانة ذلك الرجل، فزاد ذلك أبرهة غضباً وحنقاً، فسار ليهدم الكعبة، فلما بلغ قريباً من «مكة» خرج إليه عبد المطلب، وعرض عليه ثلث أموال «تهامة»، ليرجع فأبى، وقدم الفيل، فكانوا كلما وجهوه إلى الحرم برك، وإذا وجهوه إلى «اليمن»، أو إلى سائر الجهات هرول، ثم إن أبرهة أخذ لعبد المطلب مائتي بعير، فخرج إليهم بسببها، فلما رآه أبرهة عظم في عينه، وكان رجلاً جسيماً وقيل له: هذا أسد قريش، وصاحب عير «مكة»، فنزل أبرهة عن سريره، وجلس معه على بساطه، ثم قال لترجمانه: قل له حاجتك، فلما ذكر حاجته قال له: سقطت من عيني جئت لأهدم البيت الذي هو دينُك، ودين آبائك، لا تكلمني فيه، وألهاك عنه ذود لم أحسبها لك، فقال عبد المطلب: أنا ربّ الإبل، وإنَّ للبيت ربًّا سيمنعه، ثم رجع وأتى البيت، فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفرٌ من قريش يدعون اللَّه تعالى، ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب: [مجزوء الكامل]

٥٣٠٧ ـ لاهُمَّ إنَّ العَبْدَ يَمْـ ... ـنَعُ رَحْلَهُ فامْنَعْ حَلالَكْ
لا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ ... ومُحَالُهُمْ عَدْواً مُحالَكْ
إن يَدخُلُوا البَلَدَ الحَرَا ... مَ فأمْرٌ مَا بَدَا لَكْ(١)

وقال آخر: [الرجز]

٥٣٠٨ ـ يَا ربِّ لا أرْجُو لَهُمْ سِوَاكَا ... يَا ربِّ فامْنَعْ مِنهُمْ حِمَاكَا

(١) ينظر الطبري ٣٠/ ١٩٥، والكشاف ٤/ ٧٩٨، ومجمع البيان ١٠/ ٨٢٢، والقرطبي ٢٠/ ١٣٠.

إنَّ عَـدُوَّ الـبَـيْـتِ مِـنْ عَـاداكَـا   إنَّـهُـمُ لَـنْ يَـقْـهَـرُوا قُـواكَـا[١]

فالتفت، وهو يدعو، فإذا هو بطير من ناحية «اليمن»، فقال: واللّه إنها لطير غريبة، ما هي بنجدية ولا تهامية، وكان مع كل طائر حجر في منقاره، وحجران في رجليه أكبر من العدسة، وأصغر من الحمصة.

قال الراوي: فأرسل عبد المطلب حلقة الكعبة ثم انطلق هو ومن معه من قريش إلى شعب الجبال، فتحرَّزُوا فيها ينظرون ما يفعل أبرهة إذا دخل «مكة»، فأرسل الله عليهم طيراً من البحر [أمثال الخطاطيف والبلسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار فكان الحجر يقع][٢] على رأس الرجل فيخرج من دبره، وعلى كل حجر اسم من يقع عليه، فهلكوا في كل طريق، ومنهل.

روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه رأى من تلك الأحجار عند أم هانىء نحو قفيز مخططة بحمرة كالجزع الظفاري[٣].

قال الراوي: وليس كلهم أصابت، وخرجوا هاربين يبتدرون إلى الطَّريق التي منها جاءوا.

وروي أن أبرهة تساقطت أنامله، وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه، وانقلب هو ووزيره أبو يكسوم، وطائر يحلق فوقه حتى قدموا «صنعاء» وهو مثل فرخ الطائر.

وقيل: قدموا على النجاشي، فَقَصّ عليه القصة فلما تممها وقع عليه الحجر فخرَّ ميتاً بين يديه.

فصل في ميلاد النبي ﷺ

حكى الماوردي أن النبي ﷺ قال: «وُلدتُ عَامَ الفِيْلِ»[٤].

وقال في كتاب «أعلام النبوةِ»: ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول، وكان بعد الفيل بخمسين يوماً، ووافق من شهور الروم العشرين من أشباط، في السَّنة الثانية عشرة من ملك هرمز بن أنوشروان.

قال: وحكى أبو جعفر الطبري: أن مولده ﷺ كان لاثنتين وأربعين سنة من ملك أنوشروان.

---

(١) الأبيات لعبد المطلب بن هاشم قالها وهو واقف بباب الكعبة عندما أراد الأحباش هدمها.
ينظر الطبري ٣٠/ ١٩٥، والكشاف ٤/ ٧٩٩، ومجمع البيان ١٠/ ٨٢٣، والقرطبي ٢٠/ ١٣٠.

(٢) سقط من: ب.

(٣) ينظر تفسير الماوردي (٦/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠)، والقرطبي (٢٠/ ١٢٩ ـ ١٣٤)، والدر المنثور (٦/ ٦٧٢ ـ ٦٧٣).

(٤) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٣٣٨).

وقيل: إنه ـ عليه السلام ـ حملت به أمه آمنة في يوم عاشوراء من المحرم حكاه ابن شاهين أبو حفص في فضائل يوم عاشوراء، وولد يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلةً خلت من شهر رمضان، فكانت مدة الحمل ثمانية أشهر كملاً ويومين من التاسع.

وقال ابن العربي: قال ابن وهب عن مالكٍ: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل [قال] قيس بن مخرمة: ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل.

وقال عبد الملك بن مروان لعتّاب بن أسيد: أنت أكبر أم النبي ﷺ؟ فقال: النبي ﷺ أكبر مني وأنا أسنّ منه، ولد النبي ﷺ عام الفيل، وأنا أدركت سائسه وقائده أعميين مقعدين يستطعمان الناس.

فصل في أن قصة الفيل من معجزات النبي ﷺ

قال بعض العلماء: كانت قصة الفيل فيما بعد من معجزات النبي ﷺ وإن كانت قبله، وقبل التحدي، لأنها كانت توكيداً لأمره، وتمهيداً لشأنه، ولما تلا عليهم رسول الله ﷺ هذه السورة كان بمكة عدد كثير ممن شهد تلك الواقعة، ولهذا قال: «أَلَمْ تَرَ» ولم يكن بـ «مكة» أحد إلاً وقد رأى قائد الفيل، وسائقه أعميين [يتكففان][1] الناس.

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ مع حداثة سنّها: «لَقَدْ رَأيتُ قَائِدَ الفِيْلِ وسَائِقَهُ أعْمِيَيْنِ يَسْتطعِمَانِ النَّاسَ»[2].

قوله: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾، أي: في إبطال، وتضييع؛ لأنهم أرادوا أن يكيدوا قريشاً بالقتل، والسبي، والبيت بالتخريب، والهَدْم.

قالت المعتزلة[3]: إضافة الكيد إليهم دليل على أنه ـ تعالى ـ لا يرضى بالقبيح، إذ لو رضي لأضافه إلى ذاته.

قوله: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾.

قال النحاة: «أبابيل» نعت لـ «طير» لأنه اسم جمع.

وأبابيل: قيل: لا واحد له، كأساطير وعناديد.

وقيل: واحده: «إبَّول» كـ «عِجَّول».

وقيل: «إبَّال»، وقيل: «إبِّيل» مثل سكين.

وحكى الرقاشيّ: «أبابيل» جمع «إبَّالة» بالتشديد.

---

(١) في ب: يستطعمان.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٣٣)، وقد أخرجه البيهقي في «الدلائل» (١/ ١٢٥).

(٣) ينظر الرازي ٣٢/ ٩٢ ـ ٩٣.

وحكى الفرَّاء: «إبالة» مخففة.

فصل في لفظ «أبابيل»

الأبابيل: الجماعات شيئاً بعد شيء؛ قال: [الطويل]

٥٣٠٩ ـ طَرِيقٌ وجبَّارٌ رِوَاءٌ أصُولهُ عَلَيْهِ أبَابِيلٌ من الطَّيْرِ تَنعَبُ[١]

وقال آخر: [البسيط]

٥٣١٠ ـ كَادَتْ تُهَدُّ مِنَ الأصواتِ رَاحِلَتِي إذْ سَالَتِ الأرضُ بالجُرْدِ الأبَابِيلِ[٢]

قال أبو عبيدة: أبابيل: جماعات في تفرقة، يقال: جاءت الطير أبابيل من هاهنا، وهاهنا.

قال سعيد بن جبير: كانت طيراً من السَّماء لم ير مثلها[٣].

وروى الضحاك عن ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّهَا طَيْرٌ بَينَ السَّماءِ والأرضِ تُعَشِّشُ وتُفرِّخُ»[٤].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ كان لها خراطيم كخراطيم الفيلة، وأكفّ كأكفّ الكلاب[٥].

وقال عكرمة: كانت طيراً خضراً خرجت من البحر، لها رُءُوس كرءوس السِّباع، ولم تر قبل ذلك، ولا بعده[٦].

وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: هي أشبه شيء بالخطاطيف[٧].

[وقيل: إنها أشبه بالوطاويط].

وقيل: إنها العنقاء التي يضرب بها الأمثال.

قال النحاس: وهذه الأقوال متفقة المعنى، وحقيقة المعنى: أنها جماعات عظام، يقال: فلان يؤبل على فلان، أي: يعظم عليه ويكثر، وهو مشتقّ من الإبل.

قال ابن الخطيب[٨]: هذه الآية ردّ على الملحدين جدًّا، لأنهم ذكروا في الزَّلازل، والرياح والصواعق، والخسف، وسائر الأشياء التي عذب الله ـ تعالى ـ بها الأمم أعذاراً

---

(١) البيت للأعشى، ينظر ديوانه ١١، والقرطبي ٢٠/ ١٣٤، ومجمع البيان ١٠/ ٨٢٥، والبحر ٨/ ٥١١، والدر المصون ٦/ ١٣٤.

(٢) ينظر القرطبي ٢٠/ ١٣٤، والبحر ٨/ ٥١١، والدر المصون ٦/ ٥٥٠.

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٣٤٢)، والقرطبي (٢٠/ ١٣٤).

(٤) ينظر المصدر السابق وقد ذكراه من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس.

(٥) ينظر المصدر السابق.

(٦) ينظر المصدر السابق.

(٧) سقط من: ب.

(٨) الفخر الرازي ٣٢/ ٩٢ ـ ٩٣.

ضعيفة، أما هذه الواقعة، فلا يجري فيها تلك الأعذار، وليس في شيء من الطَّبائع والحيل أن يعهد طير معها حجارة، فيقصد قوماً دون قوم فيقتلهم، ولا يمكن أن يقال: إنه كسائر الأحاديث الضعيفة؛ لأنه لم يكن بين عام الفيل، ومبعث الرسول إلا نيفاً وأربعين سنة، ويوم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية، كان قد بقي جمع شاهدوا تلك الواقعة، فلا يجري فيها تلك الأعذار، ولو كان النقل ضعيفاً لكذبوه، فعلمنا أنه لا سبيل للطَّعن فيها.

قوله: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ﴾، «بِحجَارَةٍ» صفة لـ «طير»، وقرأ العامة: «تَرْمِيهِمْ» بالتأنيث.

وأبو حنيفة، وابن يعمر[(١)]، وعيسى، وطلحة: بالياء من أسفل، وهما واضحتان، لأن اسم الجمع يذكر ويؤنث.

ومن الثانية قوله: [البسيط]

٥٣١١ ـ .... كالطَّيرِ يَنْجُو مِنَ الشُّؤبُوبِ ذي البَرِدِ[(٢)]

وقيل: الضمير لربِّك، أي: يرميهم ربك بحجارة، و «مِنْ سِجِّيْل» صفة لـ «حِجَارة» والسجيل، قال الجوهري[(٣)]: قالوا حجارة من طين، طبخت بنار جهنم، مكتوب فيها أسماء القوم، لقوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣].

وقال عبد الرحمن بن أبزى: «مِنْ سجِّيْلٍ» من السماء، وهي الحجارة التي نزلت على قوم لوط.

وقيل: من الجحيم، وهي «سِجِّين» ثم أبدلت اللام نُوناً، كما قالوا في أصيلان: أصيلال، قال ابن مقبلٍ: [البسيط]

٥٣١٢ ـ .... ضَـرْباً تَـواصَـتْ بِـهِ الأبـطـالُ سِـجِّـيـنَـا[(٤)]

إنما هو «سجيلاً».

وقال الزجاج: «مِنْ سجِّيل»، أي: مما كتب عليهم أن يعذبوا به، مشتق من السجل وقد تقدم القول في السجيل في سورة «هود».

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٥١٢، والدر المصون ٦/ ٥٧٠.

(٢) عجز بيت للنابغة وصدره:

والخيل تمزع رهواً في أعنتها

ينظر ديوانه (١٤)، والبحر ٨/ ٥١٢، والدر المصون ٦/ ٥٥٠.

(٣) ينظر: الصحاح ٥/ ١٧٢٥.

(٤) عجز بيت وصدره:

ورجلة يضربون البيض من عرض

ينظر مجاز القرآن ٢/ ٣١٢، ومعاني القرآن وإعرابه ٥/ ٣٦٤، واللسان (سجل)، (رجل) والقرطبي ٢٠/ ١٣٥، والكشاف ٤/ ٩٠.

قال عكرمة: [كانت ترميهم بحجارة معها][(١)]، فإذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجدري لم ير قبل ذلك اليوم[(٢)].

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنه: كان الحجر إذا وقع على أحدهم نفط جلده، وكان ذلك أول الجدري[(٣)].

قال يونس وأبو عبيدة: والسجيل عند العرب: الشديد الصلب.

قال بعض المفسرين: إنهما كلمتان بالفارسية جعلتهما العرب كلمة واحدة، وإنهما: سجّ وجيل، فالسجُّ: الحجر، والجيل: الطِّين، أي من هذين الجنسين: الحجر والطين.

قال أبو إسحاق: وحدثني يعقوب بن عتبة أنه قال: أول ما دامت الحصبة بأرض العرب ذلك وإنه أول ما رأى بها مرائر الشجر الحرمل والحنظل والعشار ذلك العام.

قوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾. «كَعصْفٍ» هو المفعول الثاني للجعل، بمعنى التصيير، وفيه مبالغة حسنة، وهو أنه لم يكفهم أن جعلهم أهون شيء من الزَّرع، وهو ما لا يجدي طائلاً، حتى جعلهم رجيعاً.

والمعنى: جعل الله تعالى أصحاب الفيل كورق الزروع إذا أكله الدواب، فرمت به من أسفل قاله ابن زيد وغيره، والعصف جمع واحده عصفة وعصافة، وأدخل الكاف في «كعصف» للتشبيه مع مثل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ومعنى مأكول أن المراد به قشر البرّ يعني الغلاف الذي يكون فيه حبة القمح يروى أن الحجر كان يقع على أحدهم فيخرج كل ما في جوفه فيبقى كقشر الحنطة إذا خرجت منه الحبة شبَّه تقطّع أوصالهم بتفرُّق أجزائه، روي معناه عن ابن زيد[(٤)]، وغيره.

قال ابن إسحاق: لما رد الله الحبشة عن «مكة»، عظمت العرب قريشاً، وقالوا: أهل الله قاتل عنهم، وكفاهم مئونة عدوهم، فكان ذلك نعمةً من الله عليهم.

روى الثَّعلبي عن أبيّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ سُورَة ﴿الْفِيلِ﴾ عَافاهُ اللَّهُ تَعالى أيام حياته مِنَ المسْخِ، والعَدُوّ»[(٥)]. والله أعلم.

---

(١) سقط من: أ.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٣٤).

(٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٩٩).

(٥) تقدم تخريجه.

سورة قريش

مكية في قول الجمهور، مدنية في قول الضحاك والكلبي[1]، وهي أربع آيات، وسبع عشرة كلمة، وثلاث وسبعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾، في متعلق هذه الآية أوجه:

أحدها: أنه ما في السورة قبلها من قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ﴾.

قال الزمخشري[2]: هذا بمنزلة التضمين في الشعر، وهو أن يتعلق معنى البيت بالذي قبله تعلقاً لا يصح إلا به، وهما في مصحف أبيّ سورة واحدة بلا فصل.

وعن عمر أنه قرأهما في الثانية من صلاة المغرب، وقرأ في الأولى: «والتِّينِ»، انتهى.

وإلى هذا ذهب الأخفش، إلا أن الحوفي قال: ورد هذا القول جماعة، بأنه لو كان كذا، لكان «لإيْلافِ» بعض سورة «أَلَمْ تَرَ»، وفي إجماع الجميع على الفصل بينهما ما يدل على عدم ذلك.

الثاني: أنه مضمر تقديره: فعلنا ذلك، أي: إهلاك أصحاب الفيل ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾، أي: لتأليف قريش، أو لتنفق قريش، أو لكي تأمن قريش، فتؤلف رحلتيها.

وقيل: تقديره: اعجبوا.

الثالث: أنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟﴾ لإيلافهم؛ فإنها أظهر نعمة عليهم.

قاله الزمخشري؛ وهو قول الخليل من قبله.

وقرأ ابن عامر[3]: «لإلاف» دون ياء قبل اللام الثانية.

---

(١) ينظر تفسير الماوردي (٦/ ٣٤٥).
(٢) الكشاف (٤/ ٨٠١).
(٣) ينظر: السبعة ٦٩٨، والحجة ٦/ ٤٤٤، وإعراب القراءات ٢/ ٥٣٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٢٥.

والباقون: «لإيلاف» بياء قبلها، وأجمع الكل على إثبات الياء في الثاني، وهو «إيلافهم». ومن غريب ما اتفق في هذين الحرفين: أن القراء اختلفوا في سقوط الياء وثبوتها في الأول مع اتفاق المصاحف على إثباتها خطًّا، واتفقوا على إثبات الياء في الثاني مع اتفاق المصاحف على سقوطها فيه خطًّا، وهذا دليل على أن القراء يتبعون الأثر والرواية، لا مجرد الخط.

فأما قراءة ابن عامر ففيها وجهان:

أحدهما: أنه مصدر لـ «ألف» ثلاثياً، يقال: ألف الرجل، إلفاً، وإلافاً؛ نحو: كتبته كتاباً، ويقال: ألفته إلفاً وإلافاً.

وقد جمع الشاعر بينهما في قوله: [الوافر]

٥٣١٣ ـ زَعَمْتُمْ أنَّ إخوتَكُمْ قُريشٌ لَهُمْ إلفٌ وليسَ لَكُمْ إلافُ[1]

والثاني: أنه مصدر «آلف» رباعياً نحو قاتل قتالاً. وقال الزمخشري: لِمُؤالفةِ قريش. وأما قراءة الباقين فمصدر آلف رباعياً بزنة «أكرم» يقال: آلفته، أولفه إيلافاً.

قال الشاعر: [الطويل]

٥٣١٤ ـ مِنَ المُؤلفَاتِ الرَّمْلَ أدمَاءُ حُرَّةٌ شُعَاعُ الضُّحَى في مَتْنِهَا يتوضَّحُ[2]

وقرأ عاصم[3] في رواية: «إئلافهم» بهمزتين، الأولى مكسورة، والثانية ساكنة، وهي شاذة؛ لأنه يجب في مثله إبدال الثانية حرفاً مجانساً كـ «إيمان».

وروي عنه أيضاً: بهمزتين مكسورتين، بعدهما ياء ساكنة.

وخرجت على أنه أشبع كسر همزة الثانية، فتولد منها ياء، وهذه أشدُّ من الأولى.

ونقل أبو البقاء أشد منها، فقال[4]: «بهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة، بعدها همزة مكسورة». وهو بعيد، ووجهه: أنه أشبع الكسرة، فنشأت الياء، وقصد بذلك الفصل بين الهمزتين كالألف في «أأنْذرتَهُمْ».

وقرأ أبو جعفر: «لإلف قريش» بهمزة مكسورة، بزنة: «قِرْد»، وقد تقدم أنه مصدر لـ «ألف» كقوله: [الوافر]

٥٣١٥ ـ .... لَهُمْ إلفٌ وليسَ لَكُمْ إلافُ[5]

---

(١) البيت لمساور بن هند، ينظر ديوان الحماسة للتبريزي ٢/ ١٨٦، والكشاف ٤/ ٨٠١، ومجمع البيان ١٠/ ٨٢٨، واللسان (ألف)، والقرطبي ٢٠/ ١٣٨، والبحر ٨/ ٥١٥، والدر المصون ٦/ ٥٧١.

(٢) البيت لذي الرمة ينظر ديوانه (١١١)، ومجمع البيان ١٠/ ٨٢٨، واللسان (ألف)، والبحر ٨/ ٥١٤، والدر المصون ٦/ ٥٧٦.

(٣) ينظر: هذه القراءات في المصادر السابقة. (٤) ينظر: الإملاء ٢/ ٢٩٥.

(٥) تقدم.

وعنه أيضاً، وعن ابن كثير: «إلفهم»، وهي ساكنة اللام بغير ياء، وهي قراءة مجاهد وحميد.

وروت أسماء ـ رضي الله عنها ـ أنها سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: «إلفهم»، وهو مروي أيضاً عن ابن عبَّاس وغيره.

وعنه أيضاً وعن ابن عامر: «إلافهم» مثل «كتابهم».

وعنه أيضاً: «ليْلافهم» بياء ساكنة بعد اللام، وذلك أنه لما أبدل الثانية حذف الأولى على غير قياس.

وقرأ عكرمة[١]: «ليألف قريش» فعلاً مضارعاً.

وعنه أيضاً[٢]: «لتألف قريش» على الأمر واللام مكسورة، وعنه فتحها مع الأمر وهي لغة.

فصل في اتصال السورة بما قبلها

تقدم أن هذه السورة، متصلة بما قبلها في المعنى، أي: أهلكت أصحاب الفيل لإيلاف قريش، أي: لتأليف قريش، أو لتنفق قريش، أو لتأمن قريش فتؤلف رحلتيها.

قال ابن الخطيب[٣]: فإن قيل: إنما كان الإهلاك لكفرهم.

قلنا: جزاء الكفور يكون يوم القيامة، يجزي كل نفس بما كسبت للأمرين معاً، ولكن لا تكون اللام لام العاقبة، أو يكون المعنى: «ألم تَرَ كيف فعل ربُّك بأصحاب الفيل؛ لإيلاف قريش»، أي: كل ما تضمنته السورة «لإيلافهم»، أو تكون اللاَّم بمعنى «إلى»، أي: وجعلنا هذه النعم مضافاً إلى قريش.

وقال الكسائي والأخفش: اللام في ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ لام التعجب. أي اعجبوا لإيلاف قريش، نقله القرطبي[٤].

قال الفراء: هذه السورة متصلة بالسورة الأولى؛ لأنه ذكر أهل «مكة» عظيم نعمته عليهم فيما صنع بالحبشة، ثم قال ـ جلا وعلا ـ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾. أي: فعلنا بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش، وذلك أن قريشاً كانت تخرج في تجارتها، فلا يغار عليها في الجاهلية، يقولون: هم أهل بيت الله تعالى حتَّى جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة فأهلكه الله تعالى، فذكرهم نعمته، أي: فجعل الله تعالى ذلك ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ أي:

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٨٠٢، والبحر المحيط ٨/ ٥١٥، والدر المصون ٦/ ٥٧٢.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٥١٥.

(٣) الفخر الرازي ٣٢/ ٩٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٣٨.

ليألفوا الخروج ولا يتجرأ عليهم، قاله مجاهد وابن عباس في رواية سعيد بن جبير.

قال ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾ قال: نعمتي على قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، قال: كانوا يشتون بـ «مكة»، ويصيفون بـ «الطائف»[(١)]، وعلى هذا القول يجوز الوقف على رءوس الآي، وإن لم يكن الكلام تاماً.

قال ابن الخطيب[(٢)]: والمشهور أنهما سورتان، ولا يلزم من التعلق الاتحاد؛ لأن القرآن كسورة واحدة.

وقال الخليل: ليست متصلة، كأنه قال: ألف الله قريشاً إيلافاً، فليعبدوا ربَّ هذا البيت [واللام متعلقة بقوله تعالى: فليعبد هؤلاء رب هذا البيت، لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف للامتياز، ويحمل ما بعد الألف ألفاً على ما قبلها؛ لأنها زائدة غير عاطفة كقولك: زيد فاضرب، وأما مصحف أبيّ فمعارض بإطباق الكل على الفصل بينهما، وأما قراءة عمر ـ رضي الله عنه ـ فالإمام قد يقرأ سورتين].

قال ابن العربي: وليست المواقف التي ينتزع بها القراء شرعاً عن النبي ﷺ مروياً، وإنما أرادوا به تعليم الطلبة المعاني، فإذا علموها وقفوا [حيث شاءوا، فأما الوقف عند انقطاع النفس فلا خلاف فيه، ولا تعد ما قبله إذا اعتراك ذلك، ولكن ابدأ من حيث وقف بك نفسك، هذا رأيي فيه][(٣)]، ولا دليل على ما قالوه بحالٍ، ولكني أعتمد الوقف على التَّمام، كراهية الخروج عنهم.

قال القرطبي[(٤)]: «وأجمع المسلمون أن الوقف عند قوله: «كَعصفٍ مأكُولٍ»، ليس بقبيح، وكيف يقال بقبحه، وهذه السورة تقرأ في الركعة الأولى، والتي بعدها في الركعة الثانية، ولا يمنع الوقف على أعجاز الآيات، سواء تمَّ الكلام أم لا».

فصل في الكلام على قريش

قريش: اسم القبيلة.

قيل: هم ولد النضر بن كنانة، وكل من ولده النضر فهو قرشي، وهو الصحيح وقيل: هم ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، فمن لم يلده فهر فليس بقرشي، فوقع الوفاق على أن بني فهر قرشيون، وعلى أن كنانة ليسوا بقرشيين، ووقع الخلاف في النضر ومالك، ثم اختلف في اشتقاقه على أوجه:

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧٠١)، عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٧٨)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في «المختارة».

(٢) ينظر الفخر الرازي ٣٢/ ٩٨.

(٣) سقط من: أ.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٤١.

أحدها: أنه من التقرُّش، وهو التجمُّع، سموا بذلك لاجتماعهم بعد تفرق، قال: [الطويل]

٥٣١٦ ـ أَبُونَا قُصَيٌّ كَانَ يُدعَى مُجمِّعاً ... بِهِ جَمَّعَ اللَّهُ القَبائلَ مِنْ فِهْرِ[1]

والثاني: أنه من القرش: وهو الكسب، كانت قريش تجاراً، يقال: قرش يقرش: أي: اكتسب.

والثالث: أنه من التفتيش، يقال: قَرَشَ يقرش عني أي: فتش، وكانت قريش يفتشون على ذوي الخلاَّت، فيسدون خلَّتهم.

قال الشاعر: [الخفيف]

٥٣١٧ ـ أيُّهَا الشَّامِتُ المُقرِّشُ عَنَّا ... عِنْدَ عَمْرٍو فَهلْ لهُ إبْقَاءُ[2]

والرابع: أن معاوية سأل ابن عباس لم سميت قريش قُريشاً؟.

فقال: لدابة في البحر يقال لها: القرش من أقوى دوابه، تأكل ولا تؤكل، وتعلُو ولا تُعْلَى[3].

وأنشد قول تبع: [الخفيف]

٥٣١٨ ـ وقُريشٌ هِيَ الَّتي تَسكنُ البَحْـ ... ـرَ بِهَا سُمِّيَتْ قُريشٌ قُرَيْشَا

تَأكُلُ الرثَّ والسَّمينَ ولا تَتْـ ... ـرُكُ فِيهَا لِذِي جَنَاحَيْنِ رِيشَا

هَكَذا في البِلادِ حَيُّ قُريْشٍ ... يَأكُلونَ البِلادَ أكْلاً كَمِيشَا

ولهُمْ آخِرَ الزَّمانِ نَبيٌّ ... يُكْثِرُ القَتْلَ فِيهمُ والخُمُوشَا[4]

ثم قريش: إما أن يكون مصغراً تصغير ترخيم، فقيل: الأصل مقرش، وقيل: قارش، وإما أن يكون مصغراً من ثلاثي، نحو: القرش، وأجمعوا على صرفه هنا مراداً به الحي، ولو أريد به القبيلة لامتنع من الصَّرف؛ كقوله: [الكامل]

٥٣١٩ ـ غَلَبَ المَسامِيحَ الوليدُ سَماحَةً ... وكَفَى قُرَيْشَ المُعضِلاتِ وسَادَهَا[5]

قال سيبويه في معدّ، وقريش، وثقيف، وكينونة: هذه للأحياء أكثر، وإن جعلتها أسماء للقبائل، فهو جائز حسن.

---

(١) البيت لمطرود الخزاعي ينظر اللسان (جمع)، والقرطبي ٢٠/ ١٣٨، والدر المصون ٦/ ٥٧٢.

(٢) البيت للحارث بن حلزة، ينظر القرطبي ٢٠/ ١٣٩، والبحر المحيط ٨/ ٥١٣، والدر المصون ٦/ ٥٧٢.

(٣) ينظر تفسير القرطبي (٢٠/ ١٣٩).

(٤) ينظر الخزانة ١/ ٩٨٠، والقرطبي ٢٠/ ٣٩، والبحر ٨/ ٢٥١٣، والدر المصون ٦/ ٥٧٣.

(٥) البيت لعدي بن الرقاع ينظر الكتاب ٢/ ١٦، والمقتضب ٣/ ٣٦٢، واللسان (قرش)، والإنصاف ٢/ ٥٠٦، والبحر ٨/ ٥١٥، والدر المصون ٦/ ٥٧٣.

قوله: ﴿إِۦلَـٰفِهِمْ﴾ مؤكد للأول تأكيداً لفظيًا، وأعربه أبو البقاء[١]: بدلاً.

قوله: «رحلة» مفعول به بالمصدر، والمصدر مضاف لفاعله، أي: لأن ألفوا رحلة، والأصل: رحلتي الشتاء والصيف، ولكنه أفرد لأمن اللبس؛ كقوله: [الوافر]

٥٣٢٠ ـ كُلُوا في بَعْضِ بَطْنِكُمْ تَعِفُّوا ....[٢]

قاله الزمخشريُّ[٣]. وفيه نظر، لأن سيبويه يجعل هذا ضرورة، كقوله: [الطويل]

٥٣٢١ ـ حَمَامَةَ بَطْنِ الوادِيَيْنِ تَرَنَّمِي ....[٤]

قال الليث: الرحلة اسم لارتحال القوم للمسير وقيل: رحلة اسم جنس، وكانت له أربع رحل، وجعله بعضهم غلطاً، وليس كذلك.

قال القرطبي[٥]: «رِحْلة» نصب بالمصدر أي: ارتحالهم رحلة، أو بوقوع «إِيْلافِهِم» عليه، أو على الظرف، ولو جعلتها في محل الرفع على معنى هما رحلتا الشتاء، والصيف، لجاز.

وقرأ العامة: بكسر الراء، وهي مصدر.

وأبو السمال[٦]: بضمها، وهي الجهة التي يرحل إليها، والشتاء: واد، شذُّوا في النسب إليه، فقالوا: شتوي، والقياس: شِتَائي، وشِتَاوي كـ «كسائي، وكِسَاويّ».

فصل في معنى الآية

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿إِۦلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾: لا يشق عليهم رحلة شتاء ولا صيف، منة منه على قريش[٧].

وقال الهروي وغيره: كان أصحاب الإيلاف أربعة إخوة: هاشم، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل بنو عبد مناف، فأما هاشم فإنه كان يؤلف ملك «الشام»، أي: أخذ منه حبلاً وعهداً يأمن به في تجارته إلى «الشام»، وأخوه عبد شمس كان يؤلف إلى «الحبشة»، والمطلب إلى «اليمن»، ونوفل إلى «فارس»، ومعنى يؤلف: يجير، فكان هؤلاء الإخوة يسمون المجيرين، فكان تُجّارُ قريش يختلفون إلى الأمصار، بحبل هؤلاء الإخوة، فلا يتعرض لهم.

---

(١) ينظر الإملاء ٢/ ٢٩٥.

(٢) تقدم.

(٣) ينظر الكشاف ٤/ ٨٠٢.

(٤) تقدم.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٤٠.

(٦) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٥١٥، والدر المصون ٦/ ٥٧٣.

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧٠١)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٧٨)، وزاد نسبته إلى الفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم.

قال الأزهري: الإيلاف: شبه الإجارة بالخفارة، يقال: آلف يؤلف: إذا أجار الحمائل بالخفارة، والحمائل: جمع حمولة.

قال: والتأويل: أن قريشاً كانوا سكان الحرم، ولم يكن لهم زرع ولا ضرع، وكانوا يميرون في الشتاء، والصيف آمنين، والناس يتخطَّفُون من حولهم، فكانوا إذا عرض لهم عارض قالوا: نحن أهل حرم الله، فلا يتعرض الناس لهم، وكانت إحدى الرحلتين إلى اليمن في الشتاء، لأنها بلاد حامية، والرحلة الأخرى في الصيف إلى «الشام»؛ لأنها بلاد باردة.

وعن ابن عباس، قال: يشتون بـ «مكة» لدفئها، ويصيفون بـ «الطائف» لهوائها، وهذه من أجل النعم أن يكون للقوم ناحية حر تدفع عنهم برد الشتاء، وناحية برد تدفع عنهم حر الصيف، فذكرهم الله تعالى هذه النعمة[١].

فصل في الشتاء والصيف

قال مالك: الشتاء نصف السَّنة، والصيف نصفها.

وقال قوم آخرون: الزمان أربعة أقسام: شتاء، وربيع، وصيف، وخريف.

وقيل: شتاء، وصيف، وقيظ، وخريف.

قال القرطبيُّ[٢]: والذي قال مالك أصح؛ لأن اللَّه قسم الزمان قسمين، ولم يجعل لهما ثالثاً.

قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾، أمرهم تعالى بعبادته، وتوحيده لأجل إيلافهم رحلتين، وتقدم الكلام على الفاء، والبيت هو الكعبة، وفي تعريف نفسه بأنه تعالى رب هذا البيت وجهان:

أحدهما: أنها كانت لهم أوثان، فميز نفسه تعالى عنها.

الثاني: لأنهم شُرِّفوا بالبيت على سائر العرب، فذكر لهم ذلك تذكيراً لنعمته. وقيل: المعنى: أن يعبدوا رب هذا البيت، أي ليألفوا عبادة رب هذا البيت كما كانوا يألفون الرحلتين.

﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾، أي: من أجل الجوع، و «آمنهم» من أجل الخوف، والتنكير للتعظيم أي: من جوع عظيم وخوف عظيم.

وقال أبو البقاء[٣]: ويجوز أن يكون في موضع الحال من مفعول «أَطْعَمَهُمْ».

---

(١) تقدم تخريجه عن ابن عباس. (٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٤١.

(٣) الإملاء ٢/ ٢٩٥.

وأخفى نون «من» في الخاء: نافع في رواية، وكذلك مع العين، نحو: «من على»، وهي لغة حكاها سيبويه[١].

فصل في مكانة قريش

قال ابنُ عبَّاسٍ: وذلك بدعوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ حيث قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[٢] [البقرة: ١٢٦].

وقال ابن زيد: كانت العرب يغيرُ بعضها على بعض ويسبي بعضها من بعض، فأمنت قريش من ذلك لمكان الحرم[٣].

وقيل: شق عليهم السَّفر في الشتاء والصيف، فألقى الله ـ تعالى ـ في قلوب الحبشة أن يحملوا إليهم طعاماً في السَّفر، فخافت قريش منهم وظنُّوا أنهم خرجوا لحربهم، فخرجوا إليهم متحرزين، فإذا هم قد جلبوا لهم الطعام، وأعانوهم بالأقوات، فكان أهلُ «مكة» يخرجون إلى «جدة» بالإبل والحمر فيشترون الطعام على مسيرة ليلتين.

وقيل: إن قريشاً لما كذبوا النبي ﷺ دعا عليهم، فقال: «اللَّهُم اجْعلهَا عَليهِمْ سِنيْنَ كَسني يُوسُفَ» فاشتد القحط، فقالوا: يا محمد، ادعُ الله لنا فإنا مؤمنون، فدعا لهم رسول الله ﷺ فأخصبت «تبالة»، و «جرش» من بلاد «اليمن»، فحملوا الطعام إلى «مكة»، وأخصب أهلها.

وقال الضحاك وربيع وشريك وسفيان: وآمنهم من خوف الحبشة مع الفيل.

وقال علي رضي الله عنه: وآمنهم من أن تكون الخلافة إلا فيهم.

وقيل: كفاهم أخذ الإيلاف من الملوك[٤].

روى الثعلبي عن أبيّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قَرأَ سُورَة ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ أعْطِيَ من الأجْرِ حَسناتٍ بعَددِ مَنْ طَافَ بالكَعْبَةِ، واعْتكَفَ بِهَا»[٥].

والله أعلم.

---

(١) ينظر: الكتاب ٢/ ٤١٣.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧٠٣)، عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٧٨)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧٠٤)، عن ابن زيد.

(٤) ينظر تفسير القرطبي (٢٠/ ١٤٢).

(٥) تقدم تخريجه.

سورة «الدين» وتسمى «الماعون»

مكية في قول عطاء، وجابر، وأحد قولي ابن عباس[1]، ومدنية في قول له آخر، وهو قول قتادة وغيره، وهي سبع آيات، وخمس وعشرون كلمة، ومائة وثلاثة وعشرون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾، أي: بالجزاء، والحساب، وقرأ الكسائي[2]: «أَرَيْتَ» بسقوط الهمزة. وتقدم تحقيقه في «الأنعام».

وقال الزمخشري[3]: وليس بالاختيار، لأن حذفها مختصّ بالمضارع، ولم يصح عن العرب: «رَيْتَ» ولكن الذي سهل من أمرها وقوع حرف الاستفهام في أول الكلام، ونحوه: [الخفيف]

٥٣٢٢ ـ صَاحِ، هَلْ رَيْتَ أو سَمِعْتَ بِراعٍ ... رَدَّ فِي الضَّرعِ ما قَرَى في الحِلابِ[4]

وفي «أرأيْتَ» وجهان:

أحدهما: أنها بصرية، فتتعدّى لواحد، وهو الموصول كأنه قال: أبصرت المكذب.

والثاني: أنها بمعنى «أخبرني» فتتعدّى لاثنين، فقدره الحوفي: أليس مستحقًّا عذاب الله.

وقدره الزمخشري[5]: من هو، ويدل على ذلك قراءة[6] عبد الله: «أرأيتك» بكاف الخطاب، والكاف لا تلحق البصرية.

---

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٣٥٠).

(٢) ينظر: إعراب القراءات ٢/ ٥٣٥، والدر المصون ٦/ ٥٧٤.

(٣) الكشاف ٤/ ٨٠٣.

(٤) نسب البيت لإسماعيل بن يسار، ينظر الكشاف ٤/ ٨٠٣، واللسان (علب). والدر المصون ٦/ ٥٧٤.

(٥) الكشاف ٤/ ٨٠٤.

(٦) ينظر: السابق، والبحر المحيط ٨/ ٥١٧، والدر المصون ٦/ ٥٧٤.

قال القرطبي[١]: «وفي الكلام حذف والمعنى: أرأيت الذي يكذب بالدين، أمصيب هو، أو مخطىء».

فصل فيمن نزلت فيه السورة

نقل أبو صالح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نزلت في العاص بن وائل السهمي، وهو قول الكلبي ومقاتل[٢].

وروى الضحاك عنه قال: نزلت في رجُل من المنافقين[٣].

وقال السديُّ: نزلت في الوليد بن المغيرة[٤].

[وقيل في أبي جهل.

وقال الضحاك: في عمرو بن عائذ.

وقال ابن جريج: في أبي سفيان، وكان ينحر في كل أسبوع جزوراً، فطلب منه يتيم شيئاً فقرعه بعصاه، فأنزل الله هذه السورة][٥].

قال ابن الخطيب[٦]: وقيل: إنه عام في كل مكذب بيوم الدين.

قوله: ﴿فَذَٰلِكَ﴾، فيه وجهان:

أحدهما: أن الفاء جواب شرط مقدر، أي: إن طلبت علمه فذلك.

والثاني: أنها عاطفة «فَذلِكَ» على «الَّذي يُكذِّبُ» إما عطف ذات على ذات، أو صفة على صفة، ويكون جواب «أرَأيْتَ» محذوفاً لدلالة ما بعده عليه، كأنه قيل: أخبرني، وإما تقول فيمن يكذب بالجزاء، وفيمن يؤذي اليتيم، ولا يطعم المسكين أنِعْمَ ما يصنع؟.

فعلى الأول يكون اسم الإشارة في محل رفع بالابتداء، والخبر الموصول بعده، وإما على أنه خبر لمبتدأ مضمر، أي: فهو ذلك، والموصول نعته.

وعلى الثاني: أن يكون منصوباً بالنسق، على ما هو منصوب، إلا أن أبا حيان رد الثاني فقال[٧]: جعل «فَذلِكَ» في موضع نصب عطفاً على المفعول، وهو تركيب غريب كقولك: «أكرمت الذي يزورنا فذلك الذي يحسن إلينا» فالمتبادر إلى الذهن أن «فَذلِكَ»

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٤٣.

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٣٥٠)، والقرطبي (٢٠/ ١٤٣).

(٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) ينظر المصدر السابق.

(٥) سقط من: ب.

(٦) الفخر الرازي ٣٢/ ١٠٥.

(٧) البحر المحيط ٨/ ٥١٨.

مرفوع بالابتداء، وعلى تقدير النصب يكون التقدير: أكرمت الذي يزورنا، فأكرمت ذلك الذي يحسن إلينا، فاسم الإشارة في هذا التقدير غير متمكّن تمكن ما هو فصيح، إذ لا حاجة إلى أن يشار إلى «الذي يزورنا»، بل الفصيح: أكرمت الذي يزورنا، فالذي يحسن إلينا، أو «أكرمت الذي يزورنا، فيحسن إلينا»، وأما قوله: «إما عطف ذات على ذات»، فلا يصح؛ لأن «فذلك» إشارة إلى «الَّذي يُكذِّبُ» فليسا بذاتين؛ لأن المشار إليه بقوله: «فَذلِكَ»، هو واحد، وأما قوله: «ويكون جواب أرأيت محذوفاً» فلا يسمَّى جواباً، بل هو في موضع المفعول الثاني لـ «أرأيت»، وأما تقديره «أنعمَ ما يصنع» فهمزة الاستفهام لا نعلم دخولها على «نِعْمَ»، ولا «بِئْسَ»، لأنهما إنشاء، والاستفهام لا يدخل إلا على الخبر، انتهى.

[والجواب عن قوله: «فاسم الإشارة غير متمكن» إلى آخره، أن الفرق بينهما أن في الآية الكريمة استفهاماً وهو «أرأيتَ» فحسن أن يفسر ذلك المستفهم منه بخلاف المثال الذي مثل به، فمن ثم حسن التركيب المذكور، وعن قوله: «لأن» فذلك إشارة إلى القائم لا إلى زيد، وإن كان يجوز أن يكون إشارة إليه، وعن قوله: «فلا يسمى جواباً» أن النحاة يقولون: جواب الاستفهام، وهذا قد تقدمه استفهام فحسن ذلك][(١)]، وعن قوله: «والاستفهام لا يدخل إلا على الخبر» بالمعارضة بقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ [محمد: ٢٢] فإن «عسى» إنشاء فما كان جواباً له، فهو جوابٌ لنا.

فصل

قال ابن الخطيب[(٢)]: هذا اللفظ، وإن كان في صورة الاستفهام، لكن الغرض بمثله المبالغة في التعجب كقولك: أرأيت فلاناً ماذا ارتكب.

ثم قيل: إنه خطاب للرسول عليه الصلاة والسلام.

وقيل: خطاب لكل عاقل.

قوله: ﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ قرأ العامة: بضم الدَّال، وتشديد العين من «دعَّه» أي: دفعه، وأمير المؤمنين والحسن[(٣)] وأبو رجاء: «يَدعُ» بفتح الدال وتخفيف العين.

فصل

قال الضحاك عن ابن عباس: «فذلِكَ الذي يدعُّ اليَتِيمَ»، أي: يدفعه عن حقه[(٤)]، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣].

---

(١) سقط من: أ. (٢) الفخر الرازي ٣٢/ ١٠٤.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥٢٧، والبحر المحيط ٨/ ٥١٨، والدر المصون ٦/ ٥٧٥.

(٤) وروي من رواية العوفي عنه أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧٠٤).

[قال قتادة: يقهره ويظلمه، وقد تقدم في سورة «النساء» أنهم كانوا لا يورثون النساء، ولا الصغار، ويقولون: إنما يحوز المال من يطعن بالسنان ويضرب بالحسام][١].

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ ضمَّ يَتِيْماً مِنَ المُسْلمينَ، حَتَّى يَسْتَغْنِي فَقدْ وجَبَتْ لهُ الجَنَّةُ»[٢].

قوله: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾، أي: لا يأمر به من أجل بخله، وتكذيبه الجزاء، والحساب.

وقرأ زيد[٣] بن علي: «ولا يحاضّ» من المحاضة. وقد تقدم في الفجر.

قال القرطبي[٤]: «وليس الذم عامًّا حتى يتناول من تركه عجزاً، ولكنهم كانوا يبخلون ويعتذرون لأنفسهم، ويقولون: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧] فنزلت هذه الآية فيهم، فيكونُ معنى الآية: لا يفعلونه إن قدروا، ولا يحثون عليه إن عسروا».

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾

قوله: ﴿فَوَيْلٌ﴾ مبتدأ، ومعناه: عذابٌ لهم، وقوله: ﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾ خبر، والفاء للسبب، أي: تسبب عن هذه الصفات الذَّميمة الدعاء عليهم بالويل.

قال الزمخشريُّ بعد قوله[٥]: «كأنه قيل: أخبرني»: وما تقول فيمن يكذب بالدين أنعم ما يصنع، ثم قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ على معنى: فويل لهم، إلا أنه وضع صفتهم موضع ضميرهم؛ لأنهم كانوا مع التكذيب وما أضيف إليهم ساهين عن الصلاة مرائين غير مزكين أموالهم.

فإن قلت: كيف جعلت المصلين قائماً مقام ضمير «الذي يُكذِّبُ بالدينِ»، وهو واحد؟ قلت: معناه الجمع؛ لأن المراد الجنس. قال أبو حيان[٦]: وأما وضعه المصلين موضع الضمير، وأن «المُصلِّينَ» جمع، لأن ضمير «الذي يُكذِّبُ» معناه الجمع، فتكلُّف واضح، ولا ينبغي أن يحمل القرآن إلاَّ ما عليه الظَّاهر، وعادة هذا الرجل يتكلف أشياء في فهم القرآن ليست بواضحة.

قال شهاب الدين[٧]: وعادة هذا الرجل التَّحامل على الزمخشري، حتى يجعل حسنهُ قبيحاً، وكيف يرد ما له، وفيه ارتباط الكلام بعضه ببعض، وجعله شيئاً واحداً، وما

---

(١) سقط من: ب.
(٢) تقدم تخريجه في سورة الضحى.
(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٥١٨، والدر المصون ٦/ ٥٧٥.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٤٤.
(٥) ينظر: الكشاف ٤/ ٨٠٤.
(٦) البحر المحيط ٨/ ٥١٨.
(٧) الدر المصون ٦/ ٥٧٥.

تضمنه من المبالغة في الوعيد في إبراز وصفهم الشنيع، ولا شكَّ أن الظاهر من الكلام أن السورة كلها في وصف قوم جمعوا بين هذه الأوصاف كلها من التكذيب بالدين، ودفع اليتيم، وعدم الحضّ على طعام المسكينِ، والسهو في الصلاة، والمراءاة، ومنع الخيرِ.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ﴾، يجوز أن يكون مرفوع المحل، وأن يكون منصوبه، وأن يكون مجروره، تابعاً أو بدلاً أو بياناً، وكذلك الموصول الثاني، إلاَّ أنه يحتمل أن يكون تابعاً للمصلين، وأن يكون تابعاً للموصول الأول.

وقوله: ﴿يُرَآءُونَ﴾ أصله: يرائيون كـ «يقاتلون»، ومعنى المراءاة: أي: أن المرائي يُري النَّاس عمله، وهم يرون الثَّناء عليه، فالمفاعلة فيها واضحة. وقد تقدم تحقيقه.

فصل في اتصال هذه الآية بما قبلها

في اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه:

الأول: أنه لما كان إيذاء اليتيم، والمنع من بذل طعام المسكين، دليلاً على النفاق، كانت هاتين الخصلتين معاملة مع المخلوق.

والثاني: أنه تعالى لما ذكر هاتين الخصلتين مع التكذيب بيوم الدين، قال: أليس الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؟ فقال: ويلٌ له من هذه الصلاة، كيف لا تنهاه عن هذه الأفعال المنكرة.

والثالث: كأنه يقول: إقدامه على إيذاء اليتيم، وتركه للحث على طعام المسكين تقصير في الشَّفقة على خلق الله تعالى، وسهوه في الصلاة تقصير في التعظيم لأمر الله تعالى، فلما وقع التقصير في الأمرين كملتْ شقاوته.

فصل في المراد بالمرائي في الصلاة

قال ابنُ عباس: هو المصلي، الذي إذا صلّى لم يرجُ لها ثواباً، وإن تركها لم يخشَ عليها عقاباً.

وعنه أيضاً: الذين يؤخرونها عن أوقاتها[(١)].

قال سعد بن أبي وقَّاص ـ رضي الله عنه ـ: قال النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾: «الَّذينَ يُؤخِّرُونَ الصَّلاة عَنْ وقْتِهَا تهَاوُناً بِهَا»[(٢)].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧٠٦)، وذكره السيوطي «الدر المنثور» (٦/ ٦٨٣)، وعزاه إلى الطبري.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧٠٦)، والبزار (٣٩٢ ـ كشف)، والبيهقي (٢/ ٢١٤)، مرفوعاً. قال البيهقي: وهذا الحديث إنما يصح موقوفاً. والموقوف أخرجه الطبري (١٢/ ٦ ـ ٧)، والبيهقي=

وقيل: لا يتمُّون ركوعها، ولا سجودها.

وقال إبراهيم: هو الذي يلتفت في سجوده. وقال قطربٌ: هو الذي لا يقرأ ولا يذكر الله، وفي قراءة عبد الله: «الذين هم عن صلاتهم لاهون»[١].

[وعن ابن عباس أيضاً: هم المنافقون يتركون الصلاة سراً، ويصلونها علانية، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى الآية، وهذا يدل على أنها في المنافقين قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾، ورواه ابن وهب عن مالك رضي الله عنه][٢].

فصل

قال ابن عبَّاس: ولو قال: «في صلاتهم ساهون» لكانت في المؤمنين[٣]، وقال عطاء: الحمد لله الذي قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ولم يقل: في صلاتهم، فدل على أن الآية في المنافقين[٤].

قال الزمخشريُّ[٥]: فإن قلت: أي فرق بين قوله تعالى: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾ وبين قوله: «في صلاتهم»؟.

قلت: معنى «عَنْ» أنهم ساهون عنها سهو ترك لها، وقلة التفات إليها، وذلك فعل المنافقين، أو الفسقة الشطار من المسلمين، ومعنى «فِي» أن السَّهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان، أو حديث نفس، وذلك لا يكاد يخلو منه إنسان، وكان النبي ﷺ يقع له السَّهْوُ في صلاته فضلاً عن غيره.

قال ابن الخطيب[٦]: قال كثير من العلماء: إنه ﷺ ما سها في صلاته لكن أذن الله له في ذلك الفعل بياناً للتشريع في فعل السَّاهي، ثم بتقدير وقوع السهو منه، فالسهو على أقسام:

= (٢/ ٢١٤)، وأبو يعلى (٢/ ٦٤)، عن سعد. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٣٢٥)، وقال: رواه أبو يعلى وإسناده حسن. وذكره مرفوعاً (٧/ ١٤٣)، وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه عكرمة بن إبراهيم وهو ضعيف جداً.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٨٣)، مرفوعاً وموقوفاً. وزاد نسبة المرفوع إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه. أما الموقوف فزاد نسبته إلى الفريابي وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن مردويه.

(١) ينظر المحرر الوجيز ٥/ ٥٢٧. (٢) سقط من: ب.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٤٤).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧٠٨)، عن عطاء بن يسار وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٨٣)، وعزاه إلى الطبري.

(٥) الكشاف ٤/ ٨٠٥. (٦) الفخر الرازي ٣٢/ ١٠٧.

أحدها: سهو الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأصحابه، وذلك يجبر بالسنن تارة، وبالسُّنن والنوافل تارة.

والثاني: ما يكثر في الصلاة من الغفلة، وعدم استحضار النِّيَّة، وهذا يقع كثيراً.

والثالث: ترك الصَّلاة، لا إلى قضاء الإخراج من الوقت، ومن ذلك صلاة المُنافق؛ لأنه يستهزىء بالدين، والفرق بين المُنافق والمُرائي: أنَّ المنافق يبطن الكفر، ويظهر الإيمان، والمرائي: إنما يظهرُ زيادة الخُشُوع ليعتقد من يراه دينه، أو يقال: إن المنافق لا يصلي سراً، والمرائي تكون صلاته عند النَّاس.

قال ابن العربي: السَّلامة عند السَّهو محال.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ﴾، أي: يُري الناس أنه يصلي طاعة، وهو يصلي تقيَّة كالفاسق، يري أنه يصلي عبادة، وهو يصلي ليقال: إنه يصلي، وحقيقة الرِّياء: طلب ما في الدنيا بالعبادة، وأصله: طلب المنزلةِ في قُلوب الناس، وهو من وجوه:

أولها: تحسين السَّمت، يريد بذلك الجاه، والثناء.

وثانيها: الرياء بالثياب القصار والخشنة ليتشبه بالزهادِ.

وثالثها: إظهار السخط على الدنيا، وإظهار الوعظ، والتأسّف على فوات الخير والطاعة.

ورابعها: إظهار الصلاة، والصدقة، وتحسين الصلاة، لأجل رؤية الناس، وغير ذلك مما يطول ذكره.

فصل في الرياء

لا يكون الرجل مُرائياً بإظهار العمل المفروض، لأن حق الفرائض الإعلان وإشهارها لقوله ﷺ: «ولا غمةُ فِي فَرائضِ اللَّهِ»، ولأنها أعلام الإسلام وشرائع الدين، ويستحق تاركها الذم، والمَقْت، فوجب إماطة التُّهمة بإظهارها، وأما التطوع فحقه أن يخفى؛ لأنه مما لا يلام بتركه، ولا تهمة فيه، فإن أظهره قاصداً للاقتداء كان جميلاً، وإن قصد بإظهاره أن الأعين تنظر إليه، ويثنى عليه بالصَّلاح فهو الرياء.

قوله: ﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾. في «المَاعُون» أوجه:

أحدها: «فاعول» من المعن، وهو الشيء القليل، يقال: ما له معنة، أي: قليل، قاله قطربٌ.

الثاني: أنه اسم مفعول من أعانه يعينه [والأصل: مَعُون، وكان من حقّه على هذا أن يقال: معون كـ «مقول» و «مصون» اسم مفعول من: قال وصان، ولكن قلبت الكلمة بأن قدمت عينها قبل فائها، فصار موعون، ثم قلبت الواو الأولى ألفاً كقولهم تاب وصام في توبة وصومة، فوزنه الآن مفعول، وفيه شذوذ معان كقام، وأما مفعول فاسم مفعول الثلاثي.

الثاني: القلب وهو خلاف الأصل.

الثالث: قلب حرف العلة ألفاً وإن لم يتحرك، وقياسه على تابه وصامه بعيد لشذوذ المقيس عليه، وقد يجاب عن الثالث بأن الواو متحركة في الأصل قبل القلب، فإنه بزنة معوون الوجه][1].

والثالث: أن أصله «معونة» والألف عوض عن الهاء.

ووزنه «مفعل» كـ «ملوم»، ووزنه بعد الزياة «مافعل».

فصل في تفسير الماعون

اختلف المفسرون في «الماعون»، وأحسنها: أنه كل ما يستعان به، وينتفع به كالفأس والدلو، والمقدحة.

قال الأعشى: [المتقارب]

٥٣٢٣ ـ بـأجْـودَ مِـنْـهُ بِـمَـاعُـونِـهِ إذَا مَـا سَـمَـاؤهُـمُ لَـمْ تَـغِـمْ[2]

ولم يذكر المفعول الأول للمنع، إما للعلم به، أي: يمنعون النَّاس، أو الطالبين، وإما لأن الغرض ذكر ما يمنعونه، تنبيهاً لخساستهم، وضَنّهم بالأشياء النافعة المستقبح م ها عند كل أحد.

فإن قيل: هذه الآية تدلُّ على التهديد العظيم بالسَّهو عن الصَّلاة، والرياء، ومنع الماعُون، وذلك من باب الذنوب، ولا يصير المرء به منافقاً، فلم حكم الله بمثل هذا الوعيد على هذا الفعل؟ فالجواب من وجوه:

الأول: قال ابن الخطيب[3]: المراد بالمصلين هنا المنافقون الذين يأتون بهذه الأفعال وعلى هذا التقدير: دلّت الآية على أن الكافر له مزيد عقوبة على فعل محظورات الشرعِ، وتركه واجبات الشَّرع، وذلك يدل على أنَّ الكفار مخاطبون بفروع الإسلام.

الثاني: قيل لعكرمة: من منع شيئاً من المتاع كان له الويلُ؟ فقال: لا، ولكن من جمع ثلاثتهن فله الويل، يعني: ترك الصلاةِ، وفعل الرياء، وترك الماعون.

روى الثعلبي عن أبيّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ سُورَةَ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ غفرَ اللَّهُ لهُ إنْ كَانَ مُؤدِّياً للزَّكَاةِ»[4]. والله تعالى أعلم.

---

(١) سقط من: ب.

(٢) ينظر ديوانه (٢١٧٠)، والقرطبي ٢٠/١٤٥، والبحر ٨/٥١٥، والدر المصون ٦/٥٧٦.

(٣) الفخر الرازي ٣٢/١٠٧.

(٤) تقدم تخريجه مراراً.

سورة الكوثر

مكية، في قول ابن عبَّاس، والكلبي، ومقاتل، ومدنيّة في قول الحسن، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة[1]، وهي ثلاث آيات، وعشر كلمات، واثنان وأربعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾

قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾، قرأ الحسن وابن محيصن، وطلحة، والزعفراني[2]: «أنْطَيْنَاكَ» بالنون. قال الرازي، والتبريزي: أبدل من العين نوناً.

فإن عنينا البدل الصناعي فليس بمسلَّم، لأن كل مادة مستقلة بنفسها، بدليل كمال تصريفها، وإن عنينا بالبدل: أن هذه وقعت موقع هذه لغة، فقريب، ولا شكَّ أنها لغة ثابتة.

قال التبريزي: هي لغة العربِ العاربةِ من أولى قريش.

وفي الحديث: «اليَدُ العُليَا المُنطِيةُ، واليَدُ السُّفلَى المُنطَاةُ»[3].

وقال الشاعر وهو الأعشى: [المتقارب]

٥٣٢٤ - جِيادُكَ خَيْرُ جِيادِ المُلوكِ تُصَانُ الجِلالَ وتُنْطَى الحُلُولا[4]

قال القرطبي[5]: «وروته أم سلمة عن النبي ﷺ قراءة، وهي لغة في العطاء أنطيته: أعطيته».

---

(١) ذكر السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٨٦)، عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة أنها مكية وعزاه إلى ابن مردويه.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥٢٩، والبحر المحيط ٨/ ٥٢٠، والدر المصون ٦/ ٥٧٧.

(٣) ينظر جامع المسانيد (٢/ ٥٩٨).

(٤) ينظر الديوان ص ٨٨، واللسان (جلل)، والبحر ٨/ ٥٢٠، والدر المصون ٦/ ٥٧٧.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٤٧.

والكوثر: «فَوْعَل»، من الكثرةِ، وصف مبالغة في المفرط الكثرة، مثل النوفل من النَّفل، والجوهر من الجهر، والعرب تسمي كل شيءٍ كثيراً في العدد، والقدر، والخطر: كوثراً؛ قال: [الطويل]

٥٣٢٥ ـ وأنْتَ كَثيرٌ يَا ابْنَ مَرْوانَ طَيِّبٌ ... وكَـانَ أبُـوكَ ابْـنَ الـعـقَـائِـلِ كَـوثَـرا[١]

قيل لعجوز رجع ابنها من السَّفر: بم آب ابنك؟.

قالت: آب بكوثر، أي: بمال كثير.

والكوثر من الغبار الكثير، وقد تكوثر إذا كثر؛ وقال الشاعر:

٥٣٢٦ ـ وقَدْ ثَارَ نَقْعُ المَوْتِ حتَّى تَكْوثَرَا[٢]

فصل في المراد بالكوثر

اختلفوا في الكوثر الذي أعطيه النبي ﷺ، فقيل: نهر في الجنة رواه البخاري وغيره[٣].

وروى الترمذي عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «الكَوثَرُ: نهرٌ فِي الجنَّةِ، حَافتَاهُ مِنْ ذهَبٍ، ومَجْراهُ عَلى الدُّرّ واليَاقوت، تُربتُهُ أطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وماؤهُ أحْلَى مِنَ العَسلِ، وأبْيَضُ مِنَ الثَّلْجِ»[٤].

وقال عطاء: هو حوض النبي ﷺ[٥] في الموقف وفيه أحاديث كثيرة.

وقال عكرمة: الكوثر: النبوة، والكتاب[٦].

وقال الحسن: هو القرآن[٧]. وقال ابن المغيرة: الإسلام.

وقال ابن كيسان: هو الإيثار.

---

(١) قائله هو الكميت، ينظر ديوانه ١/ ٢٧٩، والكشاف ٤/ ٨٠٦، واللسان (كثر)، والقرطبي ٢٠/ ١٤٧، والبحر ٨/ ٥٢١، والدر المصون ٦/ ٥٧٧.

(٢) عجز بيت وصدره:

أبـوا أن يـبـيـحـوا جـارهـم لـعَـدُوِّهـم

ينظر ديوان الحماسة للتبريزي ١/ ١٢٥، والقرطبي ٢٠/ ١٤٧.

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ٦٠٣)، كتاب: التفسير، باب: إنا أعطيناك الكوثر حديث (٤٩٦٥)، من حديث عائشة.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٣٥٨)، وابن ماجه (٤٣٣٤)، وأحمد (٢/ ١١٢)، من حديث ابن عمر.

(٥) ينظر تفسير الماوردي (٦/ ٣٥٤)، والقرطبي (٢٠/ ١٤٨).

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧١٨)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٨٨)، وزاد نسبته إلى هناد وابن أبي حاتم وابن عساكر عن عكرمة.

(٧) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٨٨)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم عن الحسن.

وقال الحسن بن الفضل: هو تيسير القرآن، وتخفيف الشرائع. وقال أبو بكر بن عياش ويمان بن رئاب هو كثرة الأصحاب والأتباع والأمة.

وحكى الماورديُّ: أنه رفعة الذكر.

وقيل: [الشفاعة: وقال هلال بن يساف: هو لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وقيل: الصلوات الخمس.

وقيل الفقه في الدين.

وقيل غير ذلك][1].

قال القرطبيُّ[2]: وأصح الأقوال: الأول، والثاني؛ لأنه ثابت عن النبي ﷺ نصًا في الكوثر.

فصل في الكلام على هذه السورة

قال ابنُ الخطيب[3]: هذه السورة كالمقابلة للتي قبلها، فإنه ذكر في الأول البُخل، وترك الصلاة، والرياء، ومنع الماعون، وذكر هنا في مقابلة البخل: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ وفي مقابلة ترك الصلاة: قوله: «فَصلِّ» أي: دُمْ على الصلاة، وفي مقابلة الرياء قوله تعالى: ﴿لِرَبِّكَ﴾ أي: لرضاه خالصاً، وفي مقابلة منع الماعون قوله: «وانْحَرْ»، أي: تصدَّق بلحم الأضاحي، ثم ختم السُّورة سبحانه وتعالى بقوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾، أي: أنَّ المنافق الذي أتى بتلك الأفعال القبيحة سَيمُوتُ ولا يبقى له أثر، وأما أنت فيبقى لك في الدنيا الذكر الجميل، وفي الآخرة الثواب الجزيل.

قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾.

قال ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ: أقم الصلاة المفروضة عليك[4].

وقال قتادة، وعطاء، وعكرمة: فصل لربك صلاة العيد يوم النحر[5]، «وانْحَرْ» نسُككَ.

وقال أنس: كان النبي ﷺ ينحر، ثم يصلي، فأمر أن يصلي ثم ينحر[6].

---

(١) سقط من: ب.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٤٨.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣٢/١١٠.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧٢٢)، عن مجاهد والضحاك وابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٨٩)، عن ابن عباس وزاد نسبته إلى ابن المنذر.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧٢٢)، عن عطاء وعكرمة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٩٠)، عن عطاء وعزاه إلى ابن أبي حاتم.
وينظر تفسير الماوردي (٦/ ٣٥٥)، والقرطبي (٢٠/ ١٤٩).

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٤٨).

قال سعيد بن جبير: نزلت في «الحديبية» حين حصر النبي ﷺ عن البيت، فأمره الله تعالى، أن يصلي، وينحر البدن، وينصرف، ففعل ذلك[١].

قال ابن العربي: «أما من قال: إن المراد بقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ﴾ الصلوات الخمس، فلأنها رُكْن العبادات، وقاعدة الإسلام، وأعظم دعائم الدين.

وأما من قال: إنها صلاة الصبح بالمزدلفة، فلأنها مقرونة بالنحر، وهو في ذلك اليوم، ولا صلاة فيه قبل النحر غيرها، فخصها بالذكر من جملة الصلوات لاقترانها بالنحر».

قال القرطبي: وأما من قال: إنها صلاة العيد، فذلك بغير «مكة»، إذ ليس بـ «مكة» صلاة عيد بإجماع، فيما حكاه أبو بكر رضي الله عنه.

فصل

الفاء في قوله: «فصلِّ» للتعقيب والتسبب، أي: تسبب عن هذه المنة العظيمة وعقبها أمرك بالتخلي لعبادة المنعم عليك، وقصدك إليه بالنحر لا كما تفعل قريش من صلاتها، ونحرها لأضيافها، وأما قوله تعالى: ﴿وَٱنْحَرْ﴾، قال علي ـ رضي الله عنه ـ ومحمد بن كعب القرظي: المعنى ضع اليمنى على اليسرى حذاء النحر في الصلاة.

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ أن يرفع يديه في التكبير إلى نحره، وهو مروي عن النبي ﷺ.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: استقبل القبلة مكة بنحرك[٢]، وهو قول الفراء، والكلبي وأبي الأحوص.

قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول: منازلنا تتناحر أي تتقابل نحر هذا بنحر هذا.

وقال ابن الأعرابي: هو انتصاب الرجل في الصلاة بإزاء المحراب، من قولهم: منازلهم تتناحر، أي: تتقابل.

[وعن عطاء: أنه أمره أن يستوي بين السجدتين جالساً حتى يبدو نحره.

وقال محمد بن كعب القرظي: يقول: إن ناساً يصلون لغير الله، وينحرون لغير الله ـ تعالى ـ فقد أعطيناك الكوثر، فلا تكن صلاتك ولا نحرك إلا لله تعالى.

والنَّحْر في الإبل بمنزلة الذَّبح في البقر والغنم[٣]][٤].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧٢٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٨٩)، وزاد نسبته إلى ابن مردويه.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٤٩).

(٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) سقط من: ب.

قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾. يجوز أن يكون «هُوَ» مبتدأ و «الأبتر» خبره، والجملة خبر «إن»، وأن يكون فصلاً.

وقال أبو البقاء[١]: «أو توكيد»، وهو غلط؛ لأن المظهر لا يؤكد بالمضمر.

والأبترُ: الذي لا عقب له، وهو في الأصل: الشيء المقطوع، من بترهُ، أي: قطعه.

وحمار أبتر: لا ذنب له، ورجل أباتر ـ بضم الهمزة ـ: الذي يقطع رحمه.

قال: [الطويل]

٥٣٢٧ ـ لَئِيمٌ نَزتْ فِي أنفهِ خُنزُوانَةٌ عَلى قَطْعِ ذِي القُربَى أحَذُّ أباتِرُ[٢]

وبتر ـ بالكسر ـ: انقطع ذنبه.

قال أهل اللغة: الأبتر من الرجال: من لا ولد له ومن الدواب: الذي لا ذنب له.

[وكل من انقطع من الخير أثره، فهو أبتر. والبترُ: القطع بترت الشيء بتراً قطعته قبل الإتمام، والانبتار: الانقطاع، والباتر: السيف القاطع][٣].

وفي الحديث: «مَا هَذهِ البُتَيْرَاء؟»[٤] لمن أوتر بركعة واحدة، فأنكر عليه ابن مسعود.

وخطب زياد خطبة بتراء، لم يذكر الله تعالى، ولا صلى على النبي ﷺ. وكان للنبي ﷺ درع يقال لها: «البتراء» سميت بذلك لقصرها وقال ابن السكيت الأبتران: العِيْرُ والعبد، سيما بذلك لقلة خيرهما.

[والبتريّة فرقة من الزيدية نسبوا إلى المغيرة بن سعد، ولقبه الأبتر].

وقرأ العامة: «شَانِئك» بالألف، اسم فاعل بمعنىَ الحال، أو الاستقبال أو الماضي.

وقرأ ابن عبَّاس[٥]: «شنئك» بغير ألف.

فقيل: يجوز أن تكون بناء مبالغة كـ «فعال» و «مفعال»، وقد أثبته سيبويه؛ وأنشد: [الكامل]

٥٣٢٨ ـ حَذِرٌ أموراً لا تَضِيرُ، وآمِنٌ مَا لَيْسَ مُنْجِيَهُ مِنَ الأقْدَارِ[٦]

---

(١) ينظر: الإملاء ٢/ ٢٩٥.

(٢) البيت لأبي الرئيس المازني، واسمه عبادة بن طهفة.
ينظر اللسان (بتر)، والبحر ٨/ ٥٢٠، والدر المصون ٦/ ٥٧٨.

(٣) سقط من: ب.

(٤) أخرجه ابن ماجه (١/ ٣٧٢)، كتاب: إقامة الصلاة، باب: ما جاء في الوتر بركعة حديث (١١٧٦).

(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٥٢١، والدر المصون ٦/ ٥٧٨.

(٦) تقدم.

وقول زيد الخيل: [الوافر]

٥٣٢٩ ـ أتَانِي أنَّهُمْ مَزِقُونَ عِرْضِي جِحَاشُ الكِرمَلَيْنِ لهَا فَدِيدُ[١]

[فإن كان بمعنى الحال، والاستقبال، فإضافته لمفعوله من نصب، وإن كان بمعنى المضي فهي لا من نصب.

وقيل: يجوز أن يكون مقصوراً من فاعل كقولهم: بر وبار، وبرد وبارد].

فصل في أقوال العلماء في الآية

اختلف المفسرون [في المراد] بقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ فقيل: هو العاص بن وائل، وكانت العرب تسمي من له بنون، وبنات، ثم مات البنون، وبقي البنات: أبتر.

فقيل: إن العاص وقف مع النبي ﷺ يكلمه، فقال له جمع من صناديد قريش: مع من كنت واقفاً؟ فقال: مع ذلك الأبتر، وكان قد توفي قبل ذلك عبد الله ابن رسول الله ﷺ وكان من خديجة ـ رضي الله عنها ـ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي: المقطوع ذكره من خير الدنيا، والآخرة.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان أهل الجاهلية، إذا مات ابن الرجل قالوا: بُتر فلان، فلما توفي إبراهيم ابن النبي ﷺ خرج أبو جهل لأصحابه، فقال: بتر محمد، فأنزل الله تعالى إن شانئك هو الأبتر يعني أبا جهل.

وقال شهر بن عطية: هو عقبة بن أبي معيط[٢].

وقال السديُّ وابن زيد: إن قريشاً كانوا يقولون لمن مات له ذكور ولده: قد بتر فلان، فلما مات لرسول الله ﷺ القاسمُ بـ «مكة»، وإبراهيم بـ «المدينة»، قالوا: بتر محمد، أي: فليس من يقوم بأمره من بعده، فنزلت الآية[٣].

وقيل: لما أوحى الله تعالى لرسوله ﷺ دعا قريشاً إلى الإيمان قالوا: انبتر منا محمد أي خالفنا وانقطع عنا، فأخبر الله تعالى رسوله ﷺ أنهم هم المبتورون قاله عكرمة وشهر بن حوشب.

فصل في المعاني التي احتوتها هذه السورة

قال أهل العلم: قد احتوت هذه السورة على كونها أقصر سورة في القرآن على

---

(١) تقدم.

(٢) أخرجه ابن سعد وابن عساكر والزبير بن بكار كما في «الدر المنثور» (٦/ ٦٩٠)، وينظر تفسير الماوردي (٦/ ٣٥٦).

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٩١)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم عن السدي.

معان بليغة، وأساليب بديعة، منها: دلالة استهلال السورة على أنه ـ تعالى ـ أعطاه كثيراً من كثير.

ومنها: إسناد الفعل للمتكلم المعظم نفسه، ومنها: إيراده بصيغة الماضي تحقيقاً لوقوعه كـ «أَتَى أَمْرُ اللَّهِ».

ومنها: تأكيد الجملة بـ «إِنَّ».

ومنها: بناء الفعل على الاسم ليفيد بالإسناد مرتين، ومنها: الإتيان بصيغة تدل على مبالغة الكثرةِ، ومنها حذف الموصوف بالكوثر؛ لأن في حذفه من فرط الإبهام ما ليس في إثباته.

ومنها: تعريفه بـ «أل» الجنسية الدالة على الاستغراق، ومنها: فاء التعقيب الدالة على التسبب كما تقدم في «الأنعام» سبب الشكر والعبادة.

ومنها: التعريض بمن كانت صلاته ونحره لغير الله تعالى.

ومنها: أن الأمر بالصلاة إشارة إلى الأعمال الدينية التي هي الصلاة وأفضلها كالأمر بالنَّحر.

ومنها: حذف متعلق «انْحَرْ» إذ التقدير: فصلِّ لربِّك وانحر له.

ومنها: مراعاة السجع، فإنه من صناعة البديع العاري عن التكلُّف.

ومنها: قوله تعالى: ﴿لِرَبِّكَ﴾ في الإتيان بهذه الصفة دون سائر صفاته الحسنى دلالة على أنه المربِّي، والمصلح بنعمه، فلا يلتمس كلَّ خير إلا منه.

ومنها: الالتفات من ضمير المتكلم إلى الغائب في قوله تعالى: ﴿لِرَبِّكَ﴾.

ومنها: جعل الأمر بترك الاحتمال للاستئناف، وجعله خاتمة للإعراض عن الشانىء، ولم يسمه ليشمل كلَّ من اتصف ـ والعياذ بالله ـ بهذه الصفة القبيحة، وإن كان المراد به شخصاً معيناً، لَعَنَّنَه الله تعالى.

ومنها: التنبيه بذكر هذه الصفة القبيحة، على أنه لم يتصف إلا بمجرد قيام الصفةِ به، من غير أن يؤثر في من شنأه شيئاً ـ ألبتة ـ لأن من شنأ شخصاً، قد يؤثر فيه شنؤه.

ومنها تأكيد الجملة بـ «إِنَّ» المؤذنة بتأكيد الخبر، ولذلك يتلقى بها القسم، وتقدير القسم يصلح هاهنا.

ومنها: الإتيان بضمير الفصل المؤذن بالاختصاص والتأكيد إن جعلنا «هُوَ» فصلاً، وإن جعلناه مبتدأ فكذلك يفيد التأكيد إذ يصير الإسناد مرتين.

ومنها: تعريف الأبتر بـ «أل» المؤذنة بالخصوصية بهذه الصفة، كأنه قيل: الكامل في هذه الصفة.

ومنها: إقباله تعالى على رسوله بالخطاب، من أول السورة إلى آخرها.

روى الثعلبي عن أبيّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ سُورَة: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ سقاه اللَّهُ ـ تعالى ـ من أنهار الجنَّةِ، وأعطي مِنَ الأجْرِ عَشْر حسناتٍ، بعَددِ كُلِّ قُربَانٍ قرَّبهُ العبادُ في كُلِّ عيدٍ أو يُقرِّبُونَهُ»[١].

وعن مكحول ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ كَانَ لَهُ ما بيْنَ المَشرقِ والمَغربِ أبعِرةٌ، على كُلِّ بعيرٍ كرَاريسُ، كُل كرَّاس مثلُ الدُّنيَا ومَا فيهَا، كتب بدقة الشَّعرِ ليْسَ فِيهَا إلاَّ صفة قصوره، ومنَازله في الجنَّةِ».

---

(١) تقدم تخريجه.

سورة الكافرون

مكية، في قول ابن مسعود، والحسن، وعكرمة، ومدنية في أحد قولي ابن عبَّاس، وقتادة، والضحاك[1]. وهي ستّ آيات، وست وعشرون كلمة، وأربعة وسبعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾

قال ابن الخطيب[2]: «هذه السورة تسمى سورة البراءة[3] وسورة الإخلاص، والمشفعة».

روى الترمذي من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ: «إنَّها تعدِلُ ثُلثَ القُرآنِ»[4].

وروى ابن الأنباري عن أنس ـ رضي الله عنه ـ: قال: قال رسول الله ﷺ: «قل يا أيها الكافرون تَعدلُ رُبعَ القُرآنِ»[5].

---

(١) ينظر تفسير الماوردي (٦/ ٣٥٧).

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٣٢/ ١٢٧.

(٣) الذي في الرازي: المنابذة.

(٤) أخرجه الترمذي رقم (٢٨٩٥)، من حديث أنس وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. وأخرجه أحمد (٣/ ١٤٦ ـ ١٤٧)، والخطيب (١١/ ٣٨٠).

(٥) له شواهد من حديث ابن عمر وابن عباس وأنس. حديث ابن عمر أخرجه الحاكم (١/ ٥٦٦)، من طريق غسان عن جعفر بن ميسرة عن أبيه عن نافع عن ابن عمر به. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ورده الذهبي بقوله: قلت: بل جعفر بن ميسرة منكر الحديث جداً قاله أبو حاتم وغسان ضعفه الدارقطني.

حديث ابن عباس أخرجه الترمذي (٢٨٩٦)، والحاكم (١/ ٥٦٦). وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة. وقال الحاكم: صحيح الإسناد وتعقبه الذهبي فقال: قلت: بل يمان ضعفوه.

حديث أنس ينظر الحديث السابق.

وخرج الحافظ عبد الغني بن سعيد عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ «صلَّى النبيُّ ﷺ بأصحابه في صلاة الفجر في سفرٍ، فقرأ: «قل يا أيها الكافرون» و «قل هو الله أحد» ثم قال ﷺ: «قَرأتُ عَلَيْكُم ثُلثَ القُرآنِ وَربعهُ»[١].

[وروى جبير بن مطعم أن النبي ﷺ قال: «أتُحِبُّ يا جُبير إذا خَرجْتَ سَفَراً أنْ تكُونَ مِنْ أمثلِ أصْحَابِكَ هَيْئةً، وأكْثرهِمْ زَاداً»؟ قلت: نَعَمْ، قال: فاقْرَأ هذه السُّور الخَمْسَ من أول: «قل يا أيها الكافرون» إلى «قل أعوذ برب الناس»، وافتتِحْ قِراءتكَ بـ «بِسْمِ اللَّهِ الرحمنِ الرَّحِيمِ».

قال:][٢] فوالله، لقد كنت غير كثير المال، إذا سافرت أكون أبذَّهُم هيئة، وأقلهم مالاً، فمذ قرأتهنّ صرت من أحسنهم هيئة، وأكثرهم زاداً، حتى أرجع من سفري ذلك[٣].

قال ابن الخطيب[٤]: والوجه في أنها تعدل ربع القرآن، هو أن القرآن يشتمل على الأمر بالمأمورات، والنهي عن المحظورات، وكل واحد منها ينقسم إلى ما يتعلق بالقلوب وإلى ما يتعلق بالجوارح، وهذه السورة مشتملةٌ على النهي عن المحرمات المتعلقة بأفعال القلوب، فيكون ربع القرآن.

وخرج ابنُ الأنباري عن نوفل بن فروة الأشجعي، قال: جاء رجُل إلى النبي ﷺ فقال: أوصني، قال: «اقرأ عِنْدَ مَنامِكَ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ فإنَّها براءةٌ من الشِّركِ»[٥].

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ليس في القرآن أشدّ غيظاً لإبليس ـ لعنه الله ـ من هذه السورة؛ لأنها توحيد، وبراءة من الشرك[٦].

وقال الأصمعي: كان يقال لـ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾: المقشقشتان، أي: أنهما تبرئان من النفاق.

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٩٣)، وعزاه إلى ابن الضريس والحاكم في «الكنى» وابن مردويه عن ابن عمر.
(٢) سقط من: أ.
(٣) أخرجه أبو يعلى (١٣/ ٤١٤)، رقم (٧٤١٩)، من حديث جبير بن مطعم وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٣٣ ـ ١٣٤)، وقال: رواه أبو يعلى وفيه من لم أعرفهم.
وذكره ابن حجر في «المطالب العالية (٣/ ٣٩٨)، رقم (٣٨٠٩).
(٤) ينظر الفخر الرازي ٣٢/ ١٢٧.
(٥) أخرجه أبو داود (٥٠٥٥)، والترمذي (٣٩٠٣)، والدارمي (٢/ ٥٣٨)، وأحمد (٥/ ٤٥٦)، والحاكم (١/ ٥٦٥)، وابن حبان (٢٣٦٣ ـ موارد)، عن فروة بن نوفل عن أبيه، وصححه الحاكم.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٩٤)، وزاد نسبته إلى ابن الأنباري في المصاحف وابن أبي شيبة والبيهقي في الشعب.
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٥٣).

وقال أبو عبيدة ـ رضي الله عنه ـ: كما يقشقش الهناءُ الجرب فيبرئه[١].

قال ابن السكيت: يقال للقرح والجدري إذا يبس وتقرف، والجرب في الإبل إذا قفل: قد توسَّف جلده، وتقشّر جلده، وتقشقش جلده.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: سبب نزولها أن الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب، وأمية بن خلف، لقوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمدُ، هلمّ فلنعبد ما تعبد، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كلّه، فإن كان ما جئت به خيراً مما بأيدينا، كنّا قد شاركناك فيه، وأخذنا بحظِّنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما بيدك، كنت قد شركتنا في أمرنا، وأخذت بحظك منه، فأنزل الله ـ عز وجل ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ونزل قوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسلمين في الحرم، وفيه الملأ من قريش، فقام ﷺ فقرأها عليهم، حتى فرغ من السورة، فأيسوا منه عند ذلك[٢].

وروى أبو صالح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ أنهم قالوا لرسول الله ﷺ: لو استلمت بعض هذه الآلهة لصدقناك، فنزل جبريل ـ عليه السلام ـ بهذه السورة فيئسوا منه وآذوه، وآذوا أصحابه[٣].

فإن قيل: لم وصفهم في هذه السورة بالكافرين وفي السورة الأخرى بالجاهلين كما تقدم؟.

فالجوابُ: لأن هذه السورة بتمامها نزلت فيهم، فتكون المبالغة فيها أشد فبولغ فيها بالوصف الأشنع، وهو الكفر، لأنه مذموم مطلقاً، والجهل كالشجرة، والكفر كالثمرة فقد يذم عند التقييد، كقوله ﷺ: «عِلْمُ الإنسَانِ عِلمٌ لا يَنفَعُ، وجَهْلٌ لا يَضُرُّ».

فإن قيل: قال في سورة التحريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الآية: ٧]، بغير «قُلْ»، وهنا ـ جلَّ وعز ـ ذكر «قُلْ» وذكره باسم الفاعل.

فالجواب: أنه في سورة «التحريم» إنما يقال لهم يوم القيامة، وثمَّ لا يكون رسولاً إليهم، فإذا زال الواسطة، ويكونون في ذلك الوقت مطيعين، لا كافرين، فلذلك ذكره بلفظ الماضي.

وأما هاهنا فكانوا موصوفين بالكفر، وكان رسول الله ﷺ رسولاً إليهم، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

---

(١) ينظر المصدر السابق.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧٢٧ ـ ٧٢٨)، عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٩٢)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم والطبراني.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٥٤).

فإن قيل: هذا خطاب مع الكل، وكان فيهم من يعبد الله تعالى، كاليهود، والنصارى، فلا يجوز أن يقال لهم: «لا أعبدُ ما تَعْبدُونَ»، ولا يجوز أيضاً أن يكون قوله: «وَلاَ أنْتُمَ عَابدُونَ ما أعْبدُ» خطاباً مع الكل؛ لأن في الكفار من آمن، فعبد الله.

فالجواب: أن هذا الخطاب مشافهة مع أقوام مخصوصين، وهم الذين قالوا: نعبد إلهك سنة وتعبد آلهتنا سنة وأيضاً لو حملنا الخطاب على العموم دخله التخصيص، وإذا حملناه على خطاب المشافهةِ لم يلزم ذلك.

فصل

قال القرطبي[١]: الألف واللام ترجع إلى معنى المعهود، وإن كانت للجنس من حيث إنها كانت صفة لـ «أي»، لأنها مخاطبة لمن سبق في علم الله تعالى أنه سيموت على كُفرهِ، فهي من الخصوص الذي جاء بلفظ العموم؛ ونحوه عن الماوردي: نزلت جواباً وعتاباً وعنى بالكافرين قوماً معينين، لا جميع الكافرين، لأن منهم من آمن، فعبد الله، ومنهم من مات، أو قتل على كفره، وهم المخاطبون بهذا القول، وهم المذكورون.

فصل

قال ابن الأنباري: وقرأ من طعن في القرآن[٢]: «قل للذين كفروا، لا أعبد ما تعبدون» وزعم أن ذلك هو الصواب، وذلك افتراء على ربِّ العالمين، وتضعيف لمعنى هذه السورة، وإبطال ما قصده الله من أن يذل نبيه للمشركين، بخطابه إياهم بهذا الخطاب المزري، وإلزامهم ما يأنف منه كل ذي لُبّ وحجر وذلك أن الذي يدعيه من اللفظ الباطل، قراءتنا تشتمل عليه في المعنى، وتزيد تأويلاً ليس في باطلهم، وتحريفهم، فمعنى قراءتنا: قل للذين كفروا، يا أيها الكافرون، دليل صحة هذا: أن العربي إذا قال لمخاطبه: قل لزيد: أقبل إلينا، فمعناه: قل لزيد يا زيد أقبل إلينا، فقد وقعت قراءتنا على كل ما عندهم، وسقط من باطلهم أحسن لفظ، وأبلغ معنى، إذ كان الرسول ـ عليه السلام ـ يعتمدهم في ناديهم فيقول لهم: «يا أيُّها الكَافِرُونَ» وهو يعرف أنهم يغضبون من أن ينسبوا إلى الكفرِ، ويدخلوا في جملة أهله، إلا وهو محروس ممنوع من أن تنبسط عليه منهم يدٌ، أو تقع به من جهتهم أذية، فمن لم يقرأ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، كما أنزلها الله، أسقط آية لرسول الله ﷺ، وسبيل أهل الإسلام ألاَّ يسارعوا إلى مثلها، ولا يعتمدوا نبيهم باختزال الفضائل عنه، التي منحه الله إياها، وشرفه بها.

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٥٤.

(٢) وهذا فيه نظر، فقد نقل ابن عطية هذه القراءة عن صحابيين كبيرين، وهما أبيّ بن كعب وعبد الله بن مسعود، ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥٣١.

فصل في الكلام على «يا»

قال ابنُ الخطيب[١]: روي عن عليٍّ بن أبي طالبٍ ـ رضي الله عنه ـ أن «يا» نداء النفس، و «أي» نداء القلب و «ها» نداء الروح[٢].

وقيل: «يا» نداء الغائب، و «أي» للحاضر، و «ها» للتنبيه، كأنه ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول: أدعوك ثلاثاً، ولا تجبني مرة.

قوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾. في «مَا» هذه في هذه السورة وجهان:

أحدهما: أن تكون بمعنى «الذي».

والثانية: فالأمر فيها واضح؛ لأنها غير عقلاء. و «ما» أصلها أن تكون لغير العقلاء، وإذا أريد بها الباري ـ تعالى ـ كما في الثانية والرابعة، فاستدلّ به من جوز وقوعها على أولي العلمِ، ومن منع جعلها مصدرية، والتقدير: ولا أنتم عابدون عبادتي، أي: مثل عبادتي.

وقال أبو مسلم: «ما» في الأوليين بمعنى «الذي» والمقصود: المعبود، و «ما» في الأخريين مصدرية، أي: لا أعبد عبادتكم المبنية على الشَّك وترك النظر، ولا أنتم تعبدون مثل عبادتي المبنية على اليقين، فيحصل من مجموع ذلك ثلاثة أقوال: أنها كلَّها بمعنى «الذي»، أو مصدرية، أو الأوليان بمعنى الذي، والثالثة والرابعة مصدرية، لكان حسناً، حتى لا يلزم وقوع «ما» على أولي العلم، وهو مقتضى من يمنع وقوعها على أولي العلم، كما تقدم.

فصل في التكرار في الآية

اختلفوا في التَّكرار ـ هاهنا ـ هل هو للتأكيد، أم لا؟ وإذا لم يكن للتأكيد فقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ تأكيد لقوله ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ وقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ ثانياً تأكيد لقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ أولاً.

ومثله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، و ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ في سورتيهما، و ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾، و ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾، وفي الحديث: «فَلا آذَنُ ثُمَّ لا آذنُ، إنَّما فَاطِمةُ بَضعَةٌ منِّي»[٣]؛ وقال الشاعر: [مجزوء الكامل]

٥٣٣٠ ـ هَــلاَّ سَــأَلْــتَ جُـمــوعَ كِـنْــ ـــدَةَ يَـــوْمَ ولَّـــوْا أيْـــنَ أيْـــنَــا[٤]

---

(١) الفخر الرازي ٣٢/ ١٣٣.

(٢) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٢/ ١٣٣).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) البيت لعبيد بن الأبرص، ينظر ديوانه (١٣٦)، وشرح شواهد المغني (٩١)، والقرطبي ٢٠/ ١٥٥، والدر المصون ٦/ ٥٨٠.

وقوله: [الرجز]

٥٣٣١ ـ يَا عَلْقَمَهْ يَا عَلْقَمهْ يَا عَلْقَمَهْ خَيْرَ تَمِيمٍ كُلِّهَا وأكْرمَهْ[١]

وقوله: [الرجز]

٥٣٣٢ ـ يَا أقْرعُ بْنَ حَابِسٍ يَا أقْرعُ إنَّكَ إنْ يُصْرَعْ أخُوكَ تُصْرَعُ[٢]

وقوله: [الطويل]

٥٣٣٣ ـ ألا يا اسْلَمِي ثُمَّ اسْلَمِي ثُمَّتَ اسْلَمِي ثَلاثَ تَحِيَّاتٍ وإنْ لَمْ تَكَلَّمِ[٣]

وقوله: [الرجز]

٥٣٣٤ ـ يَا جَعْفَرٌ يَا جَعْفَرٌ يا جَعْفَر إنْ أكُ دَحْدَاحاً فأنْتَ أقْصَرُ[٤]

وقوله: [المديد]

٥٣٣٥ ـ يَا لَبكْرٍ أنْشِرُوا لِي كُلَيباً يَا لَبكْرٍ أيْنَ أيْنَ الفِرَارُ[٥]

قالوا: والقرآن جاء على أساليب كلام العرب، وفائدة التكرير هنا، قطع أطماع الكفار، وتحقيق الإخبار بموافقتهم على الكفر، وأنهم لا يسلمون أبداً.

وقيل: هذا على مطابقة قولهم: تعبد آلهتنا ونعبد إلهك، [ثم تعبد آلهتنا ونعبد إلهك، ثم تعبد آلهتنا ونعبد إلهك][٦]، فنجري على هذا أبداً سنةً وسنةً، فأجيبوا عن كل ما قالوه بضده، أي: أن هذا لا يكون أبداً.

وقال جماعة: ليس للتأكيد، فقال الأخفش: «لا أعبدُ» الساعة «مَا تَعْبدُونَ، ولا أنْتُم عَابِدُونَ» السنة «ما أعبدُ» فلا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم، ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أعبد؛ فزال التوكيد إذ قد تقيد كل جملة بزمان مغاير؛ انتهى.

وفيه نظر، كيف يقيد رسول الله ﷺ نفي عبادته لما يعبدون بزمان؟ هذا مما لا يصح، وفي أسباب النزول أنهم سألوه أن يعبد آلهتهم سنة، فنزلت، فكيف يستقيم هذا؟.

وجعل أبو مسلم التغاير بما تقدم عنه، وهو كون «ما» في الأوليين بمعنى «الذي»، وفي الأخريين: مصدرية، وفيه نظر من حيث إن التكرار إنَّما هو من حيث المعنى، وهذا موجود، كيف قدر «مَا».

---

(١) ينظر القرطبي ٢٠/ ١٥٥، والدر المصون ٦/ ٥٨١، وفتح القدير ٥/ ٥٠٧.
(٢) تقدم. (٣) تقدم.
(٤) ينظر المفصل ٥/ ٩٣.
(٥) هو للمهلهل بن ربيعة، ينظر خزانة الأدب ٢/ ١٦٢، وشرح أبيات سيبويه ١/ ٤٦٦، والكتاب ٢/ ٢١٥، واللامات ص ٨٧، واللسان (لوم)، والخصائص ٣/ ٢٢٩، والقرطبي ٢٠/ ١٥٥، والدر المصون ٦/ ٥٨١.
(٦) سقط من: أ.

وقال ابن عطية[(١)]: لما كان قوله: «لا أعْبدُ» محتملاً أن يراد به الآن، ويبقى المستقبل منتظراً ما يكون فيه جاء البيان بقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ أبداً وما حييت، ثم جاء قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ الثاني حتماً عليهم أنهم لا يؤمنون أبداً كالذي كشف الغيب، كما قيل لنوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]، فهذا معنى التَّرديد في هذه السورة، وهو بارع الفصاحة، وليس بتكرار فقط، بل فيه ما ذكرته انتهى.

وقال الزمخشريُّ[(٢)]: «لا أعبد» أريد به العبادة فيما يستقبل؛ لأن «لا» لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال، كما أن «أن» لا تدخل إلاَّ على مضارع في معنى الحال، ألا ترى [أنَّ «لَنْ» تأكيد فيما تنفيه «لا».

وقال الخليل في «لن»: إن أصله:][(٣)] «لا أن» والمعنى: لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم، ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلب منكم من عبادة إلهي ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ أي: ما كنت قط عابداً فيما سلف ما عبدتم فيه، يعني: لم تعهد مني عبادة صنمٍ في الجاهلية، فكيف ترجى مني في الإسلام؛ ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أي: وما عبدتُّم في وقت ما أنا على عبادته.

فإن قلت: فهلاً قيل: ما عبدت كما قيل: ما عبدتم؟.

قلت: لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل المبعث، وهو لم يكن ليعبد الله ـ تعالى ـ في ذلك الوقت.

فإن قلت: فلم جاء على «ما» دون «من»؟ قلت: لأن المراد الصفة، كأنه قال: لا أعبد الباطل، ولا تعبدون الحق.

وقيل: إن «ما» مصدرية، أي: لا أعبد عبادتكم، ولا تعبدون عبادتي انتهى.

[يعني أنه أريد به الصفة، وقد تقدم تحقيق ذلك في سورة «والشمس وضحاها»].

وناقشه أبو حيَّان، فقال[(٤)]: أما حصره في قوله: لأن «لا» لا تدخل، وفي قوله: إنَّ «مَا» تدخل، فليس بصحيح، بل ذلك غالب فيهما، لا متحتم، وقد ذكر النحاةُ دخول «لا» على المضارع يراد به الحال، ودخول «ما» على المضارع يراد به الاستقبال، وذلك مذكور في المبسُوطات من كتب النحو. ولذلك لم يذكر سيبويه ذلك بأداة الحصر، إنما قال[(٥)]: وتكون «لا» نفياً، لقوله: «نفعل» ولم يقع الفعلُ، قال: «وأمَّا «مَا» فهي نفي، لقوله: هو يفعل إذا كان في حال الفعل. فذكر الغالب فيهما.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٥٣١.

(٢) الكشاف ٤/ ٨٠٨.

(٣) سقط من: أ.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٥٢٣.

(٥) ينظر: الكتاب ٢/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾، أي: وما كنت قط عابداً فيما سلف ما عبدتم فيه، فلا يستقيم، لأن «عابدٌ» اسم فاعل قد عمل فيما عبدتم، فلا يفسر بالماضي، إنما يعتبر بالحال، أو الاستقبال، وليس مذهبه في اسم الفاعل مذهب الكسائي، وهشام في جواز إعماله ماضياً.

وأما قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، أي: وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته فـ «عَابِدُون» قد أعمله في: «مَا أعبدُ»، فلا يفسر بالماضي.

وأما قوله: «وهو لم يكن»، إلى آخره، فسوء أدب على منصب النبوة، وغير صحيح؛ لأنه ﷺ لم يزل مُوحِّداً لله تعالى، مُنزِّهاً له عن كل ما لا يليق بجلاله سبحانه مجتنباً لأصنامهم يقف على مشاعر إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويحجّ البيت، وهذه عبادة، وأي عبادة أعظم من توحيد الله تعالى ونبذ أصنامهم، ومعرفة الله ـ تعالى ـ أعظم العبادات.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال المفسرون: أي ليعرفون، فسمى الله تعالى المعرفة به عبادة انتهى.

قال شهاب الدين(١): ويجاب عن الأول: أنه بنى أمره على الغالب، فلذلك أتى بالحصرِ، وأما ما حكاه سيبويه، فظاهر معه، حتى يقوم دليل على غيره، وعن إعماله اسم الفاعل مفسراً له بالماضي بأنه على حكاية الحال، كقوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ [الكهف: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٢]، وأما كونه ﷺ لم يزل منزهاً موحداً لله تعالى، فمسلم ذلك. وقوله: «وهذه أعظم العبادات» فمسلم أيضاً، ولكن المراد في الآية عبادة مخصوصة، وهي الصلاة المخصوصة؛ لأنها تقابل بها ما كان المشركون يفعلونه من سجودهم لأصنامهم، وصلاتهم لها، فقابل هذا ﷺ بصلاته لله تبارك وتعالى، ولكن بقي كلام الزمخشري يفهم أنه ﷺ لم يكن متعبداً قبل المبعث، وهو مذهب ساقط الاعتبار؛ لأن الأحاديث الصحيحة ترده، وهي: أنه كان يتحنَّثُ، كان يتعبد، كان يصوم، كان يطوف، كان يقف، ولم يقل بخلاف ذلك إلا شذوذ من الناس.

وفي الجملة، فالمسألة خلافية، وإذا كان متعبداً فبأي شرع كان يتعبدُ به؟ فقيل: شريعة نوح عليه الصلاة والسلام.

وقيل: إبراهيم عليه السلام.

وقيل: موسى.

وقيل: عيسى ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ، وذلك مذكور في الأصول.

---

(١) الدر المصون ٦/ ٥٨٢.

ثم قال أبو حيان(١): والذي أختاره في هذه الجمل أنه نفى عبادته في المستقبل؛ لأن الغالب في «لا» أن تنفي المستقبل، ثم عطف عليه ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ نفياً للمستقبل؛ لأن اسم الفاعل العامل، الحقيقة فيه: دلالته على الحال، ثم عطف عليه ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ نفياً للحال على سبيل المقابلة، فانتظم المعنى، أنه ﷺ لا يعبد ما يعبدون حالاً، ولا مستقبلاً، وهم كذلك، إذ قد حتم الله موافاتهم على الكفر، ولما قال: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ فأطلق «ما» على الأصنام، قابل الكلام بـ «ما» في قوله: «مَا أعبدُ» وإن كان المراد الله، لأن المقابلة تسوغ فيها ما لا يسوغ في الانفراد وهذا مذهب من يقول: إن «مَا» لا تقع على آحاد أولي العلم، أما من جوز ذلك، وهو منسوب إلى سيبويه، فلا يحتاج إلى استعذار بالتقابل.

قال القرطبيُّ(٢): كانوا يعبدون الأوثان، فإذا ملُّوا وثناً، وسئمُوا العبادة له رفضوه، ثم أخذوا وثناً غيره بشهوة نفوسهم، فإذا مروا بحجارة تعجبهم ألقوا هذه، ورفعوا تلك، فعظموها، ونصبوها آلهة يعبدونها، فأمر أن يقول: «لا أعبدُ مَا تعبدُون» اليوم من هذه الآلهة التي بيْن أيديكم، ثم قال ﷺ: «ولا أنتُم عَابدُونَ ما أعبدُ» إنما تعبدون الوثنَ الذي اتخذتموه، وهو عندكم الآن، «وَلاَ أنتُمْ عَابدُونَ ما أعبدُ»، فإني أعبد إلهي.

قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾. أتى بهاتين الجملتين الإثباتيتين بعد جملة منفية لأنه لما ذكر أنّ الأهم انتفاؤه ﷺ من دينهم، بدأ بالنفي في الجمل السابقة بالمنسوب إليه، فلما تحقق النفيُ رجع ﷺ إلى خطابه بقوله: «لَكُمْ دِينُكم ولِيَ دِينِ» مهادنة لهم، ثم نسخ ذلك الأمر بالقتال.

وفتح الياء في «لِيَ»: نافع وهشام وحفص والبزي بخلاف عنه، وأسكنها(٣) الباقون.

وحذف «الياء» من «ديني» وقفاً ووصلاً: السبعة، وجمهور القراء، وأثبتها في الحالين سلام ويعقوب، وقالوا: لأنها اسم مثل الكاف في «دينك» والثاني قد تقدم إيضاحه.

فصل

في الكلام معنى التهديد، كقوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ [البقرة: ١٣٩]، أي: إن رضيتم بدينكم، فقد رضينا بديننا، ونسخ هذا الأمر بالقتال.

[وقيل: السورة منسوخة.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٥٢٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣٢/ ١٥٥.
(٣) ينظر: السبعة ٦٩٩، والحجة ٦/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠، وإعراب القراءات ٢/ ٥٣٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٣١، والدر المصون ٦/ ٥٨٣.

وقيل: ما نسخ منها شيء؛ لأنها خبر، ومعنى لكم دينكم: أي جزاء دينكم، ولي دين: أي جزاء ديني، وسمى دينهم ديناً؛ لأنهم اعتقدوه][1].

وقيل: المعنى: لكم جزاؤكم ولي جزائي، أي: لأن الدين الجزاء.

وقيل: الدِّين العقوبة، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢]، والمعنى: لكم العقوبة من ربِّي، ولي العقوبة من أصنامكم، فأنا لا أخشى عقوبة الأصنام؛ لأنها جمادات، وأما أنتم فيحق عليكم أن تخافوا عقوبة جبَّار السَّماوات والأرض.

وقيل: الدين الدعاء، لقوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]، وقوله: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد: ١٤].

وقيل: الدين العادة؛ قال الشاعر: [الوافر]

٥٣٣٦ ـ تَقُولُ إذَا دَرأتُ لَهَا وضِينِي أهَذَا دِينُهُ أبَداً ودِينِي[2]

والمعنى: لكم عادتكم المأخوذة من أسلافكم ومن الشيطان، ولي عادتي من ربي.

فصل

قال ابن الخطيب[3]: «جرت العادة بأن يتمثلوا بهذه الآية عند المناكرة، وذلك غير جائز؛ لأن القرآن أنزل ليتدبر فيه، ويعمل بموجبه، فلا يتمثّل به». والله أعلم.

---

(١) سقط من: ب.

(٢) تقدم.

(٣) الفخر الرازي ٣٢/١٣٧.

سورة النصر

مدنية بالإجماع، وتسمى سورة «التوديع»، وهي ثلاثُ آياتٍ، وست عشرة كلمة، وتسعة وستون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾: عليك وعلى أمتك، والمقصود: إذا جاء هذان الفعلان من غير نظر إلى متعلقهما، كقوله تعالى: ﴿أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾ [النجم: ٤٤].

«أل» في «الفتح» عوض من الإضافة: أي: وفتحه عند الكوفيين، والعائد محذوف عند البصريين، أي: والفتح منه للدلالة على ذلك، والعامل في «إذا»: «جاء» وهو قول مكي، وإليه ذهب أبو حيَّان[1] وغيره في مواضع وقد تقدم ذلك.

وإما «فسبِّح»، وإليه نحا الزمخشريُّ[2] والحوفي، والتقدير: فسبح بحمد ربك إذا جاء، ورده أبو حيَّان بأن ما بعد فاء الجواب لا يعمل فيما قبلها، وفيه بحثٌ تقدم بعضه في سورة «الضحى».

فصل في الكلام على «نصر»

النصر: العون، مأخوذ من قولهم: قد نصر الغيث الأرض، إذا أعان على إنباتها.

قال الشاعر: [الطويل]

٥٣٣٧ ـ إذَا انْسَلخَ الشَّهْرُ الحَرامُ فَوَدِّعي بِـلادَ تَـمِـيـمِ وانـصُـرِي أرضَ عَـامـرِ[3]

ويروى: [الطويل]

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٥٢٤.

(٢) الكشاف ٤/ ٨١٠.

(٣) البيت للراعي للنميري ينظر ديوانه ص ٢١١، والقرطبي ٢٠/ ٢٣٠، واللسان (نصر)،

٥٣٣٨ ـ إِذَا دَخَلَ الشَّهْرُ الحَرَامُ فَجَاوِزِي بِـلادَ تَـمِـيـمٍ وَانْـصُـرِي أَرْضَ عَـامِـرِ[١]

يقال: نصره على عدوه ينصره نصراً: أي: أعانه، والاسم: النُّصرة، واستنصره على عدوه، أي: سأله أن ينصره عليه، وتناصروا: نصر بعضهم بعضاً.

وقيل: المرادُ بهذا النصر: نصر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ على قريش قاله الطبري[٢].

[وقيل نصره على من قاتله من الكفار وأن عاقبة النصر كانت له وأما الفتح فهو فتح مكة، قاله الحسن ومجاهد[٣] وغيرهما، وقال ابن عباس وسعيد بن جبير هو فتح المدائن والقصور[٤] وقيل فتح سائر البلاد، وقيل ما فتحه عليه من العلوم، وقيل إذا بمعنى قد جاء نصر الله لأن نزولها بعد الفتح، ويجوز أن يكون معناه إذا يجيئك][٥].

فصل في الفرق بين النصر والفتح

قال ابن الخطيب[٦]: الفرق بين النصر والفتح، الفتح هو تحصيل المطلوب الذي كان متعلقاً، والنصر كالسبب للفتح، فلهذا بدأ بذكر النصر، وعطف الفتح عليه، ويقال: النصرُ كمالُ الدينِ والفتح إقبال الدنيا الذي هو تمام النعمةِ، كقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

والنَّصر: الظَّفر في الدنيا، والفتح: بالجنة.

فصل في المراد بهذا النصر

قال ابن الخطيب[٧]: إن رسول الله ﷺ كان مؤيداً منصوراً بالدلائل، والمعجزات، فما المعنى بتخصيص لفظ النصر بفتح «مكة»؟.

والجواب: أن المراد من هذا النصر هو النصر الموافق للطبع.

فإن قيل: النصر لا يكون إلا من الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٠] فما فائدة التقييد بقوله تعالى: ﴿نَصْرُ ٱللَّهِ﴾؟.

فالجواب: معناه: لا يليق إلا بالله، كما يقال: هذه صنعة زيد، إذا كان مشهوراً، فالمراد هذا هو الذي سألتموه.

---

(١) ينظر القرطبي ٢٠/ ١٥٧.
(٢) ينظر: جامع البيان (١٢/ ٧٢٩).
(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧٢٩)، عن مجاهد وابن زيد. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٩٦)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر.
(٤) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٣٦٠)، والقرطبي (٢٠/ ١٥٧).
(٥) سقط من: ب.
(٦) الفخر الرازي ٣٢/ ١٤٠.
(٧) الفخر الرازي ٣٢/ ١٤٠.

فإن قيل: لم وصف النصر بالمجيء، وحقيقته: إذا وقع نصر الله، فما الفائدة في ترك الحقيقة، وذكر المجاز؟.

فالجواب: أن الأمور مرتبطةٌ بأوقاتها، وأنه ـ تعالى ـ قد ربط بحدوث كلٍّ محدث أسباباً معينة، وأوقاتاً مقدرة يستحيل فيها التقدم، والتأخر، والتبدل، والتغير، فإذا حضر ذلك الوقت، وجاء ذلك الزمان حضر ذلك الأثر معه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

فإن قيل: الذين أعانوا رسول الله ﷺ على فتح مكة هم الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ثم إنه تعالى سمى نصرتهم لرسول الله ﷺ فما السبب في إضافة النصر إليه؟.

فالجواب: أن النصر وإن كان على يد الصحابة لكن لا بدَّ لهم من داعٍ وباعث، وهو من الله تعالى.

فإن قيل: فعلى هذا التقدير الذي ذكرتم يكون فعل العبد متقدماً على فعل الله، وهو خلاف قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] فجعل نصر العبد مقدماً على نصره لنا.

فالجواب: أن لا امتناع في أن يكون فعل العبد سبباً لفعل آخر يصدر عن الله ـ تعالى ـ فإن أسباب الحوادث ومسبباتها على ترتيب عجيب تعجز عن إدراكها العقول البشرية.

قوله: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ﴾، «رأيت» يحتمل أن يكون معناه: أبصرت، وأن يكون معناه: علمت، فإن كان معناه «أبصرت» كان «يَدخُلونَ» في محل النصب على الحال، والتقدير: ورأيت الناس يدخلون حال دخولهم في دين الله أفواجاً، وإن كان معناه: «علمت» كان «يدخُلونَ» مفعولاً ثانياً لـ «علمت» والتقدير: علمت الناس داخلين في دين الله أفواجاً.

وفي عبارة الزمخشري[(١)]: أنه كان بمعنى «أبصرتُ»، أو «عرفت».

وناقشه أبو حيان[(٢)]: بأن «رأيت» لا يُعرف كونها بمعنى «عرفت» قال: «فيحتاج في ذلك إلى استثبات».

وقرأ العامة: «يدخلون» مبنياً للفاعل.

وابن كثير[(٣)] في رواية: مبنياً للمفعول و «فِي دِيْنِ» ظرف مجازي، وهو مجاز فصيح بليغ هاهنا.

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٨١١.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٥٢٥.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٥٢٤، والدر المصون ٦/ ٥٨٤.

قوله: ﴿أَفْوَاجًا﴾ حال من فاعل «يَدخُلُونَ».

قال مكي: «وقياسه: «أفوج» إلا أن الضمة تستثقل في الواو فشبهوا «فعلاً» ـ يعني بالسكون ـ بـ «فَعل ـ يعني بالفتح ـ فجمعوه جمعه» انتهى.

أي: أن «فَعْلاً» بالسكون، قياسه «أفعُل» كـ «فَلْس» و «أفلُس» إلا أنه استثقلت الضمةُ على الواو، فجمعوه جمع «فعل» بالتحريك نحو: جمل، وأجمال، لأن «فعْلاً» بالسكون على «أفعال» ليس بقياس إذا كان فعلاً صحيحاً، نحو: فرخ وأفراخ وزند وأزناد، ووردت منه ألفاظ كثيرة، ومع ذلك فلم يقيسوه، وقد قال الحوفي شيئاً من هذا.

فصل في الكلام على لفظ الناس

ظاهر لفظ «النَّاس» للعموم، فيدخل كل النَّاس أفواجاً، أي: جماعات، فوجاً بعد فوجٍ، وذلك لما فتحت «مكة» قالت العرب: أما إذْ ظفر محمد ﷺ بأهل الحرم، وقد كان الله ـ تعالى ـ أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان؛ فكانوا يسلمون أفواجاً أفواجاً أمة بعد أمة.

قال الضحاكُ: والأمة: أربعون[(١)] رجلاً.

وقال عكرمةُ، ومقاتل: أراد بالنَّاس أهل «اليمن»[(٢)]، وذلك أنه ورد من «اليمن» سبعمائة إنسان مؤمنين طائعين، بعضهم يؤذنون، وبعضهم يقرءون القرآن، وبعضهم يهلِّلُون، فسُرَّ النبي ﷺ، وبكى عمر وابن عباس. وروى عكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ قرأ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ وجاء أهل اليمن، رقيقة أفئدتهم لينة طباعهم، سخية قلوبهم، عظيمة خشيتهم، فدخلوا في دين الله أفواجاً[(٣)].

وروى مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ «أتَاكُمْ أهْلُ اليَمنِ، وهُمْ أضْعَفُ قُلوباً، وأرَقُّ أفئِدةً، الفقهُ يمانٍ، والحِكمةُ يَمانِيةٌ»[(٤)].

وقال ﷺ: «إنِّي لأجدُ نَفَسَ ربِّكُمْ من قبلِ اليَمنِ»[(٥)] وفيه تأويلان:

أحدهما: أنه الفرجُ، لتتابع إسلامهم أفواجاً.

والثاني: معناه أن الله تعالى نفس الكرب عن نبيه ﷺ بأهل «اليمن» و [الأنصار][(٦)].

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٥٧). (٢) ينظر المصدر السابق.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧٣٠).

(٤) أخرجه البخاري ٧/ ٧٠١، كتاب المغازي، باب: قدوم الأشعريين وأهل اليمن (٤٣٨٨ ـ ٤٣٩٠)، ومسلم ١/ ٧١ كتاب الإيمان، باب: تفاضل أهل الإيمان (٢٤ ـ ٥٢)، والترمذي ٥/ ٦٨٣، كتاب المناقب، باب: فضل أهل اليمن (٣٩٣٥).

(٥) ذكره الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» (٤/ ٨١١).

(٦) في أ: الأخبار.

وروى جابرُ بنُ عبد الله قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ النَّاس دخلوا فِي دِينِ اللَّهِ أفْواجاً، وسَيخرُجُونَ مِنهُ أفْواجاً»[1] ذكره الماوردي.

قال ابن الخطيب[2]: كانت تدخل فيه القبيلة بأسرها بعد ما كانوا يدخلون واحداً واحداً، واثنين اثنين.

فصل في المراد بدين الله

ودينُ الله، هو الإسلام، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وإضافة الدين إلى الاسم الدال على الإلهية، إشارة إلى أنه يجب أن يعبد لكونه إلهاً، وللدين أسماء أخر، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦].

ومنها: الصراط، قال تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٣].

ومنها: كلمة الله، ومنها النور: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ٨].

ومنها الهدى، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٨].

ومنها العروة الوثقى ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ومنها: الحبلُ المتين: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ومنها: حنيفية الله، وفطرة الله.

فصل في إيمان المقلد

قال جمهور الفقهاء والمتكلمين: إيمان المقلد صحيح، واحتجوا بهذه الآية، قالوا: إنه تعالى حكم بصحة إيمان أولئك الأفواج، وجعله من أعظم المنن على نبيه محمدٍ ﷺ ولو لم يكن إيمانهم صحيحاً، لما ذكره في هذا المعرض، ثم إنا نعلم قطعاً أنهم ما كانوا يعرفون حدوث الأجسام بالدليل، وإثبات كونه تعالى منزّهاً عن الجسمية، والمكان والحيز، وإثبات كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات التي لا نهاية لها، ولا إثبات الصفات، والتنزيه بالدليل، والعلم بأن أولئك الأعراب ما كانوا عالمين بهذه الدقائق ضروري، فعلمنا أن إيمان المقلد صحيح، لا يقال: إنهم كانوا عالمين بأصول دلائل هذه

---

(١) حديث جابر أخرجه أحمد ٣/ ٣٤٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٩٩)، وعزاه إلى ابن مردويه. وله شاهد من حديث أبي هريرة بلفظ: ليخرجن منه أفواجاً كما دخلوا فيه أفواجاً. أخرجه الحاكم (٤/ ٤٩٦)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) ينظر الفخر الرازي ٣٢/ ١٤٥.

المسائل؛ لأن أصول هذه الدلائل ظاهرة، بل كانوا جاهلين بالتفاضل؛ لأنا نقول: إن الدليل لا يقبل الزِّيادة والنُّقصان، فإن الدليل إذا كان مركباً من عشر مقدمات، فمن علم تسعة منها، وكان في المقدمة العاشرة مقلداً، كان في النتيجة مقلداً لا محالة.

قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ حال، أي: ملتبساً بحمده.

قال ابن الخطيب[١]: إنه ـ تعالى ـ أمره ﷺ بالتسبيح، ثم بالحمد، ثم بالاستغفار، والفائدة فيه أن تأخير النصر سنين، مع أن محمداً ﷺ كان على الحقّ، مما يثقل على القلب، ويقع في القلب أني إذا كنت على الحق فلم لا ينصرني، ولو سلطت على هؤلاء الكفار. فلأجل الاعتذار عن هذا الخاطر، أمر بالتسبيح أما على قولنا: فالمراد من هذا التنزيه، أنه تعالى منزَّه عن أن يستحق عليه أحد شيئاً [بل كل ما يفعله فإنما يفعله بحكم المشيئة الإلهية، فله أن يفعل ما شاء كما يشاء، ففائدة التسبيح: تنزيه الله تعالى عن أن يستحق عليه أحد شيئاً][٢].

وأما على قول المعتزلة، ففائدة التنزيه: هو أن يعلم العبد أن تنزيه اللَّهِ تعالى عما لا يليق ولا ينبغي بسبب المصلحة، لا بسبب ترجيح الباطل على الحق، ثم إذا فرغ العبد من تنزيه الله، فحينئذ يشتغل بحمده على ما أعطاه من الإحسان، والبر، ثم حينئذ بالاستغفار لذنوب نفسه.

فصل في معنى الآية

قال المفسرون: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ﴾ أي: إذا صليت، فأكثر من ذلك.

وقيل: معنى «سَبِّحْ»: صلِّ، قاله ابن عبَّاس رضي الله عنهما[٣].

[وقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ حامداً له على ما آتاك من الظفر، والفتح، واستغفره أي: سلوا الله الغفران.

وقيل: فسبح أي: المراد به التنزيه، أي: نزهه عما لا يجوز عليه، مع شكرك له، وبالاستغفار، ومداومة الذكر].

وروي في «الصحيحين» عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: ما صلى رسول الله ﷺ صلاة بعد أن نزلت سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ إلا يقولُ فيها: سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدِكَ اللَّهُمَّ اغفرْ لِي[٤].

وقالت أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ: كان النبي ﷺ آخر أمره[٥] لا يقوم، ولا يقعد،

---

(١) الفخر الرازي ٣٢/١٤٦. (٢) سقط من: أ.

(٣) ينظر تفسير القرطبي (٢٠/١٥٨).

(٤) أخرجه البخاري (٨/ ٦٠٥)، كتاب التفسير، باب: إذا جاء نصر الله والفتح حديث (٤٩٦٨).

(٥) في أ: عمره.

ولا يجيء، ولا يذهب إلاَّ قال: «سُبحانَ اللَّهِ وبحَمدِهِ، أَسْتغْفِرُ اللَّه، وأتوبُ إليه»، قال: «فإنِّي أمرتُ بِهَا»، ثم قرأ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾[١] إلى آخرها.

وقال عكرمة: لم يكن النبي ﷺ قط أشدّ اجتهاداً في أمور الآخرة ما كان عند نزولها.

وقال مقاتل: لما نزلت، فقرأها النبي ﷺ على أصحابه، ومنهم أبو بكر وعمر وسعد ابن أبي وقاص، ففرحوا، واستبشروا، وبكى العباس، فقال له النبي ﷺ: «مَا يُبْكيْكَ يَا عمّ».

قال: نُعيتْ إليك نَفسُكَ، قال: «إنَّه لَكمَا تقُولُ»، فعاش بعدها ستين يوماً، ما رئي فيها إلاّ ضاحكاً مستبشراً[٢].

وقيل: نزلت في «منى» بعد أيام التشريق، في حجَّة الوداع، فبكى عمر والعباس فقيل لهما: إن هذا يوم فرح، فقال: لا بل فيه نعي النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «صدقتما، نعيت إليَّ نفسي».

وروى البخاري، وغيره عن ابن عبَّاس، قال: كان عمر بن الخطَّاب يأذن لأهل بدر، ويأذن لي معهم، قال: فوجد بعضهم من ذلك، فقالوا: يأذن لهذا الفتى معنا، ومن أبنائنا من هو مثله، فقال لهم عمر: إنه من قد علمتم، قال: فأذن لهم ذات يوم، وأذن لي معهم، فسألهم عن هذه السورةِ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، فقالوا: أمر الله ـ جلَّ وعزَّ ـ نبيه ﷺ إذا فتح عليه أن يستغفره، وأن يتوب إليه، فقال: ما تقول يا ابن عباس؟.

قلتُ: ليس كذلك ولكن أخبر الله رسوله ﷺ بحضور أجله، فقال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، فذلك علامة موتك، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: تلومونني عليه؟ وفي رواية: قال عمر: «ما أعلم منها إلا ما تقول»[٣].

فصل

فإن قيل: فماذا يغفر للنبي ﷺ حتى يؤمر بالاستغفار؟.

فالجواب: كان النبي ﷺ يقول في دعائه: «ربِّ اغفِرْ لِي خَطيْئَتِي وجَهْلِي، وإسْرافِي في أمْرِي كُلِّه، ومَا أنْتَ أَعْلَمُ بِهِ منِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي خَطيئَتِي، وعمدي، وجهْلِي وهزلِي، وكل ذِلكَ عِنْدي اللَّهُمَّ اغفر لِي ما قدَّمتُ ومَا أخَّرتُ، وما أعْلنتُ، ومَا أسْرَرْتُ، أنتَ المُقدِّمُ، وأنتَ المُؤخِّرُ، إنَّكَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ».

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧٣١)، عن أم سلمة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٩٩)، وزاد نسبته إلى ابن مردويه.

(٢) ينظر تفسيره القرطبي (٢٠/ ١٥٨).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٨/ ٦٠٦)، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾ رقم (٤٩٧٠)، من حديث ابن عباس.

[وكان الرسول ﷺ يستغفر لنفسه لعظيم ما أنعم الله عليه، ويرى قصوره عن القيام بحقّ ذلك.

وقيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وقيل: يحتمل أن يكون المعنى كن متعلقاً به سائلاً راغباً متضرعاً على رؤية التقصير في أداء الحقوق.

وقيل: الاستغفار نفسه يجب إتيانه لا للمغفرة بل تعبداً.

وقيل: واستغفر أي: استغفر لأمتك إنه كان تواباً على المسبحين والمستغفرين، يتوب عليهم ويرحمهم، ويقبل توبتهم، وإذا كان عليه السلام وهو معصوم يؤمر بالاستغفار فماذا يظنّ بغيره][١].

فصل في تفسير الآية

قد مرَّ تفسير الحمد، وأما تفسير قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ ففيه وجوه:

الأول: قال الزمخشري[٢]: قل: سبحان الله، والحمد لله، تعجباً مما أراك الله من عجيب إنعامه، أي: اجمع بينهما، كقولك: الماءُ باللبن، أي: اجمع بينهما خلطاً، وشرباً.

الثاني: أنَّ التسبيح داخل في الحمد؛ لأنك إذا حمدت الله تعالى، فقد سبَّحته بواسطته، لأن الثناء عليه، والشكر له يتضمن تنزيهه عن النقائص، ولذلك جعل الحمد مفتاح القرآن، فمعنى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، أي: سبحه بواسطته، أن تحمده، وأن تسبحه بهذا الطريق.

الثالث: أن يكون حالاً، أي: سبحه مقدراً أن تحمد بعد التسبيح، كأنك تقول: لا يتأتى لك الجمع بينهما لفظاً، فاجمعهما نية كما تنوي الصلاة يوم النحر مقدراً أنك تنحر بعدها، فيجتمع لك الثواب في تلك الحالة.

الرابع: أن هذه الباء كهي في قولك: فعلت هذه بفضل الله، أي: بحمده، أي: أنه الذي هداك لرشدك لا تجد غيره، كقوله ﷺ: «الحَمدُ للَّهِ على الحَمْدِ».

الخامس: قال السديُّ: «بحمدِ ربِّك» أي: بأمر ربك[٣].

السادس: أن تكون الباء زائدة، والتقدير: سبح حمد ربك، أي: طهر محامد ربك عن الرياء، والسمعة، أو اختر له أطهر المحامد، وأذكاها وأحسنها أو ائتِ بالتسبيح والتنزيه بدلاً عن الحمد.

---

(١) سقط من: ب. (٢) الكشاف ٨١١/٤. (٣) ذكره الرازي في تفسيره ١٤٨/٣٢.

السابع: فيه إشارة إلى أن التسبيح والحمد لا يتأخر أحدهما عن الآخر، ولا يمكن أن يؤتى بهما معاً، ونظيره: من ثبت له حق الشفعة، وحق الرد بالعيب وجب أن يقول: اخترت الشفعة بردي ذلك المبيع، كذا هاهنا، قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ ليقع معاً، فيصير مسبحاً حامداً في وقت واحد معاً.

[فإن قيل: التوبة مقدمة على جميع الطَّاعات، ثم الحمد مقدم على التسبيح؛ لأن الحمد على النعم، والنعم سابقة أيضاً، والاستغفار سابق، ثم التسبيح؟ فالجواب لعله بدأ بالأشرف تنبيهاً على أن النزول من الخالق إلى الخلق أشرف من الصعود من الخلق إلى الخالق، أو نبّه بذلك على أن التسبيح والحمد الصادرين من العبد، إذا قابلا جلال الحقّ وعزته استوجبا الاستغفار، ولأن التسبيح والحمد إشارة إلى تعظيم أمر الله، والاستغفار إشارة إلى الشفقة على خلق الله، فالأول كالصلاة، والثاني كالزكاة فكما أن الصلاة مقدمة على الزكاة، فكذا هاهنا][١].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿كَانَ تَوَّابًا﴾ بدل من الماضي، وحاجتنا إلى قبوله في المستقبل وأيضاً: هلا قال سبحانه: ﴿غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]، كما قال تعالى في سورة نوح عليه الصلاة والسلام.

وأيضاً قال تعالى: ﴿نَصْرُ ٱللَّهِ﴾، وقال: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ وقال: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ ولم يقل: بحمد الله.

فالجواب عن الأول: أن هذا أبلغ كأنه يقول: إني أثنيت على من هو أقبح فعلاً منهم كاليهود، فإنهم بعد ظهور المعجزات الظاهرة العظيمة، كفلق البحر، ونتق الجبل ونزول المنِّ والسلوى عصوا ربَّهم، وأتوا بالقبائح، ولما تابوا قبلت توبتهم، فإذا كنت قابلاً لتوبة أولئك، وهم دونكم، أفلا أقبل توبتكم، وأنتم خير أمة أخرجت للنَّاس؟ أو لأني شرعت في توبة العصاة، والشروع ملزم أو هو إشارة إلى تخفيف جنايتهم، أي: لستم أول من جنى، والمصيبة إذا عمت خفت؛ أو كما قيل: [المتقارب]

٥٣٣٩ـ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ فِيما مَضَى ... كَذلِكَ يُحْسِنُ فِيمَا بَقِي[٢]

والجواب عن الثاني: لعله خص هذه الأمة بمزيد الشرفِ، لأنه لا يقال في صفات العبد: غفار أو يقال: تواباً، ويقال إذا كان آتياً بالتوبة، فكأنه تعالى يقول: كنت لي سمياً من أول الأمر، أنت مؤمن، وأنا مؤمن، وإن اختلف المعنى فتب حتى صرت سمياً في آخر الأمر، فأنت تواب، وأنا تواب، ثم التواب في حق الله تعالى أنه يقبل التوبة كثيراً، فيجب على العبد أن يكون إتيانه بالتوبة كثيراً.

---

(١) سقط من: ب.

(٢) ينظر الفخر الرازي ٣٢/ ١٦٣.

[وأنه إنما قال: تواباً، لأن القائل قد يقول: أستغفر الله، وليس بتائب كقول المستغفر بلسانه المصر بقلبه، كالمستهزىء.

فإن قيل قد يقول: أتوب، وليس بتائب.

قلنا: فإذن يكون كاذباً، فإن التوبة اسم للرجوع، أو الندم بخلاف الاستغفار، فإنه لا يكون كاذباً فيه، فيكون تقدير الكلام: وأستغفر الله بالتوبة، وفيه تنبيه على خواتم الأعمال].

والجواب عن الثالث: أنه راعى العدل، فذكر اسم الذَّات مرتين، وذكر اسم الفعل مرتين؛ أحدهما: الرب والثاني: التواب، فلما كانت التربية تحصل أولاً، والتوبة آخراً، لا جرم ذكر اسم الرب أولاً، واسم التوبة آخراً.

فصل في نزول السورة

قال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ نزلت هذه السورة بـ «منى» في حجة الوداع ثُمَّ نزلت: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ فعاش ﷺ بعدها خمسين يوماً، ثم نزل: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] فعاش بعدها ﷺ خمسة وثلاثين يوماً، ثم نزلت: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ٢٨١] فعاش بعدها ﷺ أحداً وعشرين يوماً[١].

وقال مقاتل: سبعة أيام[٢].

وقيل غير ذلك.

فصل

قال ابن الخطيب[٣]: اتفق الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على أن هذه السورة دلت على نعي رسول الله ﷺ.

فإن قيل: كيف دلت السورة على هذا المعنى؟.

فالجواب من وجوه:

أحدها: قال بعضهم: إنما عرفوا ذلك لما روي أنه ﷺ خطب عقيب السورة، وذكر التخيير.

وثانياً: أنه لما ذكر حُصول النَّصر، ودخول النَّاس في دين اللَّه أفواجاً، دل ذلك على حصول التمام، والكمال، وذلك يستعقبه الزَّوال؛ كما قيل: [المتقارب]

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٥٩).

(٢) ينظر المصدر السابق.

(٣) ينظر: الرازي ٣٢/ ١٥١.

٥٣٤٠ـ إذَا تَـمَّ شَـيءٌ بَـدَا نَـقـصـهُ تَـوقَّـعْ زَوالاً، إذا قِـيـلَ: تَـمْ[١]

وثالثها: أنه جل ذكره أمر بالتسبيح، والحمد، والاستغفار مطلقاً، واشتغاله ﷺ بذلك يمنعه من الاشتغال بأمر الأمة، فكان هذا كالتنبيه على أنّ التبليغ قد تم وكمل، وذلك يوجب الموت، لأنه لو بقي ﷺ بعد ذلك، لكان كالمعزول عن الرسالة، وهذا غير جائزٍ.

ورابعها: قوله: «واسْتَغفِرْهُ» تنبيه على قرب الأجل، كأنه يقول: قرب الأجل ودنا الرحيل فتأهّبْ للأمر. ونبه به على أن سبيل العاقل إذا قرب أجله يستكثر من التوبة.

وخامسها: كأنه قيل: كان منتهى مطلوبك في الدنيا هذا الذي وجدته، وهو النصر والفتح، والله تعالى وعدك بقوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤] فلما وجدت أقصى مرادك في الدنيا، فانتقل إلى الآخرة لتفوز بتلك السعادة العالية.

روى الثعلبي عن أبيّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ سُورةَ: «النصر» فكأنَّمَا شَهِدَ مَع مُحمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام فَتْح مَكَّةَ»[٢].

(١) ينظر سمط اللآلىء ١/ ١٠٥، ومجمع البيان ١٠/ ٨٤٤، والفخر الرازي ٣٢/ ١٦٤.

(٢) تقدم تخريجه.

سورة تبت

مكية، وهي خمس آياتٍ، وثلاث وعشرون كلمة، وسبعة وسبعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، أي: خسرت. وتقدم تفسير هذه المادة في سورة غافر عند قوله: ﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾[1]، وأسند الفعل إلى اليدين مجازاً؛ لأن أكثر الأفعال تزاول بهما، وإن كان المراد جملة المدعو عليه.

وقوله: ﴿تَبَّتْ﴾ دعاء، ﴿وَتَبَّ﴾ إخبار، أي: قد وقع ما دعي به عليه؛ كقول الشاعر: [الطويل]

٥٣٤١ ـ جَزانِي، جَزَاهُ اللَّهُ شَرَّ جزَائِه جَزاءَ الكِلابِ العَاوِيَاتِ وقَدْ فَعلْ[2]

ويؤيده قراءة[3] عبد الله: «وقَدْ تبَّ»، والظَّاهر أنَّ كليهما دعاء، ويكون في هذا شبه من مجيء العام بعد الخاص؛ لأن اليدين بعض، وإن كان حقيقة اليدين غير مراد.

وقيل: كلاهما إخبار، أراد بالأول: هلاك عمله، وبالثاني: هلاك نفسه، وإنما عبر باليدين؛ لأن الأعمال غالباً تُزاول بهما.

وقيل: المراد باليدين نفسه وقد يعبر باليد عن النفس، كقوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]، أي نفسك، وهذا شائع في كلام العرب يعبّرون ببعض الشيء عن كله، يقولون: أصابه يد الدهر، ويد المنايا، والرزايا، أي: أصابه كل ذلك.

---

(١) آية ٣٧. (٢) تقدم.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٨١٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٣٤، والبحر المحيط ٨/ ٥٢٦، والدر المصون ٦/ ٨٥.

قال الشاعر: [مخلع البسيط]

٥٣٤٢ ـ لـمَّـا أكـبَّـتْ يَـدُ الـرَّزايَـا عَـلـيْـهِ نَـادَى ألاَ مُـجِـيـرُ[١]

وقال ابن الخطيب[٢]: وعبر باليدين، إما لأنه كان يرمي النبي ﷺ بالحجارة، وقيل: المراد دينه، ودنياه وأولاده، وعقباه، أو المراد بأحدهما جر المنفعة، وبالأخرى: دفع المضرة، أو لأن اليمين سلاح، والأخرى جُنَّة.

وقيل: بمعنى ماله، وبنيه، «وتَبَّ» هو نفسه وقيل: «تبَّ» يعني ولده وعقبه، وهو الذي دعا عليه رسول الله ﷺ فقال: «اللَّهمَّ سلِّط عليْهِ كَلباً من كِلابِكَ» لشدة عداوته، فافترسه الأسد.

وقرأ العامة: «لَهَب» بفتح الهاء، وابن كثير[٣]: بإسكانها.

فقيل: هما لغتان بمعنى نحو: النَّهَر والنَّهْر، والشَّعَر والشَّعْر، والبَعَر والبَعْر، والضَّجَر والضَّجْر.

وقال الزمخشري[٤]: «وهو من تغيير الأعلام، كقوله: شمس بن مالك، بالضم»، يعني أن الأصل: بفتح الشين فغيرت إلى الضم.

ويشير بذلك لقول الشاعر: [الطويل]

٥٣٤٣ ـ وإنِّي لـمُهْدٍ مِنْ ثَنَائِي فَعاهِدٌ بِهِ لابْنِ عَمِّ الصِّدْقِ شُمْسِ بْنِ مَالِكِ[٥]

وجوز أبو حيان[٦] في «شمس» أن يكون منقولاً من «شمس» الجمع، كما جاء «أذناب خيل شمس»، فلا يكون من التغيير في شيء.

وكني بذلك أبو لهب: إما لالتهاب وجنتيه، وكان مشرق الوجه، أحمرهُ، وإما لما يئول إليه من لهب جهنم، كقولهم: أبو الخير، وأبو الشر، لصدورهما منه، وإما لأن الكنية أغلب من الاسم، أو لأنها أنقص منه، ولذلك ذكر الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بأسمائهم دون كُناهم، أو لقُبحِ اسمه؛ لأن اسمه عبد العُزَّى، فعدل عنه إلى الكنية؛ لأن الله لم يضف العبودية في كتابه إلى صنم.

وقيل: اسمه أبو لهب، كما سمي أبو سفيان، وأبو طالب.

---

(١) ينظر: القرطبي ٢٠/ ١٦١. (٢) ينظر: الفخر الرازي ٣٢/ ١٥٣.

(٣) ينظر: السبعة ٧٠٠، والحجة ٦/ ٤٥١، وإعراب القراءات ٢/ ٥٤٢، وحجة القراءات ٦٧٦.

(٤) ينظر: الكشاف ٤/ ٨١٤.

(٥) البيت لتأبط شرًّا؛ ينظر ديوان الحماسة ١/ ٣١، والخزانة ١/ ٢٠٠، والبحر ٨/ ٥٢٥، والدر المصون ٦/ ٥٨٥.

(٦) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٥٢٧.

وقال الزمخشريُّ[(١)]: فإن قلت: لم أكناه، والكنية تكرمة؟.

ثم ذكر ثلاثة أجوبة: إما لشهرته بكنيته، وإما لقبح اسمه كما تقدم، وإما لتجانس قوله: «ناراً ذات لهبٍ» لأن مآله إلى لهب جهنم. انتهى.

وهذا يقتضي أن الكنية أشرف، وأكمل لا أنقص، وهو عكس القول الذي تقدم آنفاً.

وقرىء[(٢)]: «يَدَا أبُو لهبٍ» بالواو مكان الجر.

قال الزمخشري[(٣)]: «كما قيل: علي بن أبو طالب، ومعاوية بن أبو سفيان، لئلاً يغير منه شيء، فيشكل على السامع، ولفليتة بن قاسم أمير «مكة» ابنان: أحدهما: «عبدِ الله» بالجر، والآخر «عبدَ الله» بالنصب».

ولم يختلف القراء في قوله: «ذَات لهب» أنها بالفتح. والفرق أنها فاصلة، فلو سكنت زال التشاكل.

[قال قتادة: تبت خسرت[(٤)].

وقال ابن عباس: خابت[(٥)].

وقال عطاء: ضلت[(٦)].

وقال ابن جبير: هلكت[(٧)]. وقال يمان بن رئاب: صفرت من كل خير][(٨)]

فصل في نزول الآية

حكى الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء، أنه لما قتل عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ سمع الناس هاتفاً يقول: [مجزوء الوافر]

٥٣٤٤ ـ لَقَدْ خَلَّوكَ وانْصَرفُوا ... فَمَا آبُوا وَلا رَجعُوا

ولَمْ يُوفُوا بِنَذْرِهِمُ ... فَيَا تَبًّا لِمَا صَنَعُوا[(٩)]

فصل في نزول السورة

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ

---

(١) الكشاف ٤/ ٨١٤.

(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٥٨٥.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٨١٤.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧٣٣)، وذكره السيوطي في «الدر المثور» (٦/ ٧٠٢)، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وابن المنذر.

(٥) ذكره الماوردي (٦/ ٣٦٤)، والقرطبي (١٦١).

(٦) ينظر المصدر السابق.

(٧) ينظر المصدر السابق.

(٨) سقط من: ب.

(٩) ينظر القرطبي ٢٠/ ١٩١.

عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] خرج رسول الله ﷺ حتَّى صعد الصَّفا، فهتف: يا صباحاه فقالوا: من هذا الذي يهتف؟.

قالوا: محمد، فاجتمعوا إليه، فقال: «يَا بَنِي فُلانٍ يَا بَنِي فُلانٍ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، يا بني عبد المُطَّلب»، فاجتمعوا إليه، فقال: «أرَأيتُمْ لَوْ أخْبَرْتُكم أنَّ خَيْلاً تَخرجُ بسفحِ هذا الجَبلِ، أكُنتُمْ مُصدِّقِيّ»؟.

قالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً، قال: «فإنِّي نذيرٌ لكُم بينَ يدي عذاب شديدٍ»، فقال أبُو لهبٍ: تبًّا لك، أما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام فنزلت هذه السورة(١).

وفي رواية: لما سمعت امرأته ما نزل في زوجها وفيها من القرآن، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وفي يدها فهر من حجارة، فلما وقفت عليه أخذ الله بصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر، إن صاحبك قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربتُ بهذا الفهر فاهُ؛ والله إني لشاعرة: [منهوك الرجز]

٥٣٢٥ ـ مُـذمَّـمـاً عَـصَـيْـنَـا وأمْـرهُ أبَـيْـنَـا
ودِيـنَـهُ قَـلَـيْـنَـا(٢)

ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك؟ قال: «مَا رأتْنِي، لقَدْ أخَذَ اللَّهُ بَصرهَا عَنِّي».

وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ مذمماً، ثم يسبونه، وكان رسول الله ﷺ يقول: «ألا تعجبون لما صرف الله تعالى عني من أذى كفار قريش يسبون ويهجون مذمماً وأنا محمد رسول الله».

وحكى أبو عبد الرحمن بن زيد: أن أبا لهب أتى النبي ﷺ فقال: ماذا أعطى إن آمنت بك يا محمد؟ قال: «كَمَا يُعطَى المُسلمُونَ»، قال: ما لي عليهم فضل؟.

قال: وأيَّ شيءٍ تَبْغِي؟ قال: تبًّا لهذا من دينٍ، أن أكون أنا وهؤلاء سواء. فأنزل الله تعالى فيه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾(٣).

وحكى عبد الرحمن بن كيسان قال: كان إذا وفد على النبي ﷺ وفد، انطلق إليهم أبو لهب، فيسألونه عن رسول الله ويقولون له: أنت أعلم به منا، فيقول لهم أبو لهب: إنه كذاب ساحر، فيرجعون عنه، ولا يلقونه فأتى وفد، ففعل معهم مثل ذلك، فقالوا: لا

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٦٠٩)، كتاب: التفسير، باب: سورة تبت يدا أبي لهب وتب، رقم (٤٩٧١)، ومسلم (١/ ١٩٤)، والطبري (١٢/ ٧٣٤)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٧٠١)، وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي كلاهما في «الدلائل».

(٢) ينظر: القرطبي ٢٠/ ١٦٠.

(٣) تقدم تخريجه.

ننصرف حتى نراه، ونسمع كلامه، فقال لهم أبو لهبٍ: إنا لم نزل نعالجه، فتبًّا له وتعساً، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ، فاكتأب لذلك، فأنزل الله: «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ».

وقيل: إن أبا لهب أراد أن يرمي النبي ﷺ بالحجر، فمنعه الله تعالى من ذلك، فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ للمنع الذي وقع به.

فصل في تفسير التَّبِّ

قال ابن الخطيب[١]: من فسر التبَّ بالهلاك، فلقوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧]، أي: في هلاك، ومن فسَّره بالخسران، فلقوله تعالى: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١١١]، أي: تخسير، ومن فسره بالخيبة، قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: لأنه كان يدفع القوم عنه ﷺ بأنه ساحر، فينصرفون عنه قبل لقائه؛ لأنه كان شيخ القبيلة ـ لعنه الله ـ فكان لا يأتيهم، فلما نزلت هذه السورة، وسمع بها غضب، وأظهر العداوة الشديدة، وصار مُتَّهماً، فلما قال في الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعد ذلك، فكأنه قد خاب لسعيه، ولعله إنما ذكر التب؛ لأنه إنما كان يضرب بيده على يد الوافد عليه، فيقول: انصرف راشداً فإنه مجنون، فإن المعتاد أن من يصرف إنساناً يضع بيده على كتفه، ويدفعه عن ذلك الموضع.

ومن فسر التبَّ بقوله: ضلت، فلأنه كان يعتقد أن يده العليا، وأنه يخرجه من «مكّة»، ويذلّه، ومن فسره: بـ «صَفِرَتْ» فلأن يده خلت من كل خير.

فصل في ترجمة أبي لهب

أبو لهب: اسمه عبد العُزَّى بن عبد المطلب عم النبي ﷺ؛ وامرأته: العوراء أم جميل أخت أبي سفيان بن حرب، وكلاهما كان شديد العداوةِ للنبي ﷺ.

قال طارق بن عبد الله المحاربي: إني بسوق ذي المجاز، إذ أنا بإنسان يقول: «يا أيُّها النَّاسُ، قولوا: لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ تُفلِحُوا» وإذا رجل خلفه يرميه، قد أدمى ساقيه وعرقوبيه، ويقول: يا أيها الناس، إنه كذاب ساحر، فلا تصدقوه، فقلت: من هذا؟.

فقالوا: محمد، يزعم أنه نبيّ، وهذا عمه أبو لهب يزعم أنه كذاب.

وروى عطاء عن ابن عباس قال: قال أبو لهب: سحركم محمد، إن أحدنا ليأكلُ الجذعة، ويشرب العُسّ من اللبن، فلا يشبع، وإن محمداً قد أشبعكم من فخذِ شاةٍ، وأرواكم من عُسِّ لبن[٢].

قوله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ﴾. يجوز في «مَا» النَّفي، والاستفهام، فعلى الاستفهام يكون

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٢/١٥٣.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٦١).

منصوب المحل بما بعدها، التقدير: أي شيء أغنى المال، وقدم لكونه له صدر الكلام.

وقوله: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾: يجوز في «مَا» هذه أن تكون بمعنى «الَّذي»، والعائد محذوف، وأن تكون مصدرية، أي: وكسبه، وأن تكون استفهامية: بمعنى وأي شيء كسب؛ أي: لم يكن يكسب شيئاً، قاله أبو حيان[١]، فجعل الاستفهام بمعنى النفي، فعلى هذا يجوز أن تكون نافية، ويكون المعنى على ما ذكر، وهو غير ظاهر.

وقرأ ابن مسعود[٢] والأعمش: «وما اكتسبَ».

فصل في معنى الآية

المعنى: ما دفع عنه عذاب الله ما جمع من المال، ولا ما كسب من الجاه. وقال مجاهد: وما كسب من مال، وولد الرجل من كسبه.

وقال أبو الطفيل: جاء بنو أبي لهب يختصمون عند ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ فاقتتلوا، فقام يحجز بينهم، فدفعه بعضهم فوقع على الفراشِ، فغضب ابن عباس، وقال: أخرجوا عنِّي الكسب الخبيثَ، يعني ولد أبي لهب[٣].

وقال ﷺ: «إنَّ أطْيبَ ما أكَلَ الرجلُ من كسْبهِ»[٤].

وقال ابن عباس: لما أنذر رسول الله ﷺ عشيرته بالنَّار، قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقًّا فإني أفدي نفسي بمالي وولدي، فنزل: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾[٥].

قال الضحاك: ما أغنى عنه ماله ما ينفعه ماله، وعمله الخبيث: يعني كيده، وعداوة رسول الله.

قوله: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾.

قرأ العامة: «سَيَصْلَى» بفتح الياء، وإسكان الصاد، وتخفيف اللام، أي: يصلى هو بنفسه.

وقرأ أبو حيوة[٦]، وابن مقسم، وعياش في اختياره؛ قال القرطبي[٧]: والأشهب العقيلي، وأبو سمال العدوي، ومحمد بن السميفع: «سَيُصلَّى» بضم الياء، وفتح الصاد، وتشديد اللام، ومعناه سيصليه الله.

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٥٢٧.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٤، والبحر المحيط ٨/ ٥٢٧، والدر المصون ٦/ ٥٨٦.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧٣٥). (٤) تقدم.

(٥) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٢/ ١٧٠). (٦) ينظر البحر المحيط ٨/ ٥٢٧، والدر المصون ٦/ ٥٨٦.

(٧) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٦٣.

وقرأ **الحسن، وابن أبي إسحاق، وأبو رجاء، والأعمش،** ورواها محبوب عن إسماعيل عن ابن كثير عن أبيّ ـ رضي الله عنه ـ، وحسين عن أبي بكر عن عاصمٍ[1]: بضم الياء.

ومعنى ذات لهب أي ذات اشتعال وتلهب، وقد تقدم القول فيه في سورة المرسلات.

قوله: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾.

قرأ العامة: بالرفع، على أنها جملة من مبتدأ وخبر، سيقت للإخبار بذلك.

قيل: وامرأته: عطف على الضمير في «سيصلى» سوغه الفصل بالمفعول، و «حمَّالةُ الحَطبِ» على هذا فيها أوجه: كونها نعتاً لـ «امرأته»، وجاز ذلك لأن إضافته حقيقية، إذ المراد المعنى، وكونها: بياناً أو بدلاً، لأنها أقرب من الجوامد لتمحض إضافتها، أو كونها خبراً لمبتدأ مضمر أي: هي حمالةُ.

وقرأ ابن عباس[2] ـ رضي الله عنهما ـ: ومريئته حمالة الحطب.

وعنه أيضاً: «ومريته» على التصغير، إلا أنه أقر الهمزة تارة، وأبدلها ياء، وأدغم فيها أخرى.

وقرأ العامة: «حَمَّالةُ» بالرفع، **وعاصم**[3]: **بالنصب على الشَّتم**. وقد أتى بجميل من سبّ أم جميل.

قال الزمخشريُّ[4]: وكانت تكنى أم جميل، لعنها الله.

وقيل: نصب على الحال من «امرأته» إذا جعلناها مرفوعة بالعطف على الضمير.

ويضعف جعلها حالاً عند الجمهور من الضمير في الجار بعدها إذا جعلناها لـ «امْرَأتهُ» لتقدمها على العامل المعنوي، واستشكل بعضهم الحالية ـ لما تقدم ـ من أن المراد به المعنى، فتتعرف بالإضافة، فكيف يكون حالاً عند الجمهور؟.

ثم أجاب بأن المراد الاستقبال؛ لأنه ورد أنها تحمل يوم القيامة حزمة من حطب النار، كما كانت تحمل الحطب في الدنيا.

وفي قوله تعالى: ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ قولان:

أحدهما: هو حقيقة.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٥، والبحر المحيط ٨/ ٥٢٧، والدر المصون ٦/ ٥٨٦، والقرطبي ٢٠/ ١٦٣.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٥٢٧، والدر المصون ٦/ ٥٨٦.

(٣) ينظر: السبعة ٧٠٠، والحجة ٦/ ٤٥١، وإعراب القراءات ٢/ ٥٤٢، وحجة القراءات ٧٧٦.

(٤) الكشاف ٤/ ٨١٥.

قال قتادة: كانت تعير النبي ﷺ بالفقر، ثم كانت مع كثرة مالها تحمل الحطب على ظهرها لشدة بخلها، فعيرت بالبخل[١].

وقال ابن زيد والضحاك: كانت تحمل العِضَاهَ، والشَّوك، فتطرحه بالليل على طريق النبي ﷺ وأصحابه، فكان ﷺ يطؤه كما يطأ الحرير[٢].

وقال مُرَّة الهمذاني: كانت أم جميل ـ لعنها الله ـ تأتي كل يوم بإبالة من الحسك فتطرحها على طريق المسلمين، فبينما هي حاملة ذات يوم حزمة أعيت فقعدت على حجر لتستريح، فجذبها الملك من خلفها فأهلكها.

القول الثاني: أنه مجاز عن المشي بالنميمة، ورمي الفتن بين الناس؛ قال: [الرجز]

٥٣٤٦ ـ إنَّ بَنِي الأدرم حَمَّالُو الحطبْ هُمُ الوشَاةُ في الرِّضَا وفي الغَضَبْ
عليهِمُ اللَّعْنَةُ تَتْرَى والحَرَبْ[٣]

وقال آخر: [الطويل]

٥٣٤٧ ـ مِن البيضِ لَمْ تَصطَدْ عَلى ظَهْرِ لأمَةٍ لَمْ تَمْشِ بَينَ الحَيِّ بالحطَبِ الرَّطبِ[٤]

وجعله رطباً تنبيهاً على تدخينه، وهو غريب من ترشيح المجاز، يعني لم تمش بالنمام.

وقال سعيد بن جبيرٍ: حمالة الخطايا، والذنوب، من قولهم: فلان يحتطب على ظهره[٥].

قال تعالى: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١].

وقرأ أبو قلابة[٦]: «حاملة الحطب» على وزن «فاعلة»، وهي محتملة لقراءة العامة، وقرأ عياض[٧]: «حمالة للحطب» بالتنوين وجر المفعول بلام زائدة تقوية للعامل كقوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، وأبو عمرو في رواية: «وامرأته» باختلاس الهاء دون إشباع

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٦٣)، وأخرجه الطبري (١٢/ ٧٣٦).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧٣٦)، عن الضحاك وابن زيد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٧٠٢)، عن ابن زيد وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم.

(٣) ينظر القرطبي ٢٠/ ١٦٣، والبحر ٨/ ٥٢٨.

(٤) البيت ليعقوب ينظر الكشاف ٤/ ٨١٥، والقرطبي ٢٠/ ١٦٣، والبحر ٨/ ٥٢٨، والدر المصون ٦/ ٥٨٦.

(٥) ينظر تفسير الماوردي (٦/ ٣٦٧)، والقرطبي (٢٠/ ١٦٤).

(٦) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٥، والدر المصون ٦/ ٥٨٦.

(٧) ينظر: الدر المصون ٦/ ٥٨٦.

قوله: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ﴾ يجوز أن يكون «في جيدها» خبراً لـ «امرأته»، و «حبل» فاعلاً به وأن يكون حالاً من امرأته على كونها فاعلة، و «حَبْلٌ» مرفوع به أيضاً، وأن يكون خبراً مقدماً و «حَبْلٌ» مبتدأ مؤخر، والجملة حالية أو خبر ثان.

والجيدُ: العُنُق.

قال امرؤ القيس: [الطويل]

٥٣٤٨ ـ وجِيدٍ كَجِيدِ الرِّئْمِ ليسَ بفَاحِشٍ إذَا هِـيَ نَـصَّـتْـهُ ولا بِـمُـعَـطَّـلِ[(١)]

و «مِنْ مسدٍ» صفة لـ «حبل»، والمسد: ليف المقل.

وقيل: الليف مطلقاً.

قال النابغة: [البسيط]

٥٣٤٩ ـ مَقْذُوفَةٍ بِدَخيسِ النَّحضِ بَازِلُهَا لَهُ صَرِيفٌ صَرِيفَ القَعْوِ بالمَسَدِ[(٢)]

وقد يكون من جلود الإبل وأوبارها؛ قال الشاعر: [الرجز]

٥٣٥٠ ـ ومَسَدٍ أُمِرَّ مِنْ أيَانِقِ لَيْسَ بأنْيَابٍ ولا حَقَائِقِ[(٣)]

وجمع المسد: أمساد.

وقال أبو عبيدة: هو حبل يكون من صوف.

وقال الحسن: هي حبال من شجرٍ ينبت بـ «اليمن» يسمى المسد وكانت تفتل.

فصل

قال الضحاك وغيره: هذا في الدنيا، وكانت تعيرُ النبي ﷺ بالفقر، وهي تحتطب في حبلٍ تجعله في عنقها من ليفٍ، فخنقها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ به فأهلكها، وهو في الآخرة حبل من نار[(٤)] يلف على عنقها

وعن ابن عباس: حبل من مسد قال: سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً، وهو قول مجاهد وعروة بن الزبير، يدخل في فيها، ويخرج من أسفلها، ويلوى سائرها على عنقها، وقال قتادة: «حبل من مسد» حبل من وَدَعٍ.

---

(١) تقدم.

(٢) ينظر ديوانه ص ١٦، وجمهرة اللغة ص ٥٧٨، ٧٤١، ٩٤٤، والدرر ٣/ ٧٦، وشرح أبيات سيبويه ١/ ٣١، وشرح الأشموني ٢/ ٥٧، والكتاب ١/ ٣٥٥، واللسان (صرف)، (قذف)، (بزل)، (قعا)، (دخس)، ومجالس ثعلب ص ٣٤٠، وهمع الهوامع ١/ ١٩٣.

(٣) البيتان لعمارة بن طارق، ونسبا إلى عقبة الهجيمي.
ينظر اللسان (مسد)، ومجاز القرآن ٢/ ٣١٥، والكشاف ٤/ ٨١٦، والقرطبي ٢٠/ ١٦٤، ومجمع البيان ١٠/ ٨٥١، والدر المصون ٦/ ٥٨٧.

(٤) ينظر تفسير الماوردي (٦/ ٣٦٧)، والقرطبي (٢٠/ ١٦٤).

وقال الحسن: إنما كان حرزاً في عنقها.

وقال سعيد بن المسيب: كانت قلادة واحدة من جوهر، فقالت: واللات والعزى لأنفقها في عداوة محمد ﷺ، ويكون عذاباً في جيدها يوم القيامة.

وقيل: إن ذلك إشارة إلى الخذلان يعني أنها مربوطة عن الإيمان بما سبق لها من الشقاء كالمربوط في جيدها بحبل من مسد.

والمسدُ: الفَتْلُ، يقال: مسد حبله يمسده مسداً، أي: أجاد فتلهُ.

قال: [الرجز]

٥٣٥١ ـ يَمْسُدُ أعْلَى لحْمِهِ ويَأرِمُهْ[1]

يقول: إن البقل يقوي ظهر هذا الحمار.

وقال ابن الخطيب[2]: وقيل: المسد يكون من الحديد، وظنُّ من ظنَّ أن المسد لا يكون من الحديد خطأ، لأن المسد هو المفتول سواء كان من الحديد، أو من غيره، ورجل ممسود: أي: مجدول الخلق وجارية حسنة المسد، والعصب، والجدل، والأرم، وهي ممسودة، ومعصوبة، ومجدولة، ومأرومة؛ والمساد: على «فِعَال»: لغة في المساب، وهي نحي السمن، وسقاء العسل، قال كل ذلك الجوهري[3].

[فإن قيل: إن كان هذا الحبل كيف يبقى أبداً في النار؟.

قلنا: كما يبقى الجلد واللحم والعظم أبداً في النار].

فصل في الإخبار عن الغيب

تضمنت هذه الآيات الإخبار عن الغيب من ثلاثة أوجه:

أولها: الإخبار عنه بالتباب، والخسار، وقد كان ذلك.

وثانيها: الإخبار عنه بعدم الانتفاع بماله وولده، وقد كان ذلك.

وثالثها: الإخبار بأنه من أهل النَّار، وقد كان ذلك، لأنه مات على الكفر، هو وامرأته، ففي ذلك معجزة للنبي ﷺ فامرأته خنقها الله ـ تعالى ـ بحبلها، لعنها الله تعالى، وأبو لهبٍ رماه الله بالعدسةِ، بعد وقعة بدر بسبع ليال، فمات، وأقام ثلاثة أيام، ولم يدفن حتى أنتن، ثم إن ولده غسلوه بالماء قذفاً من بعيد مخافة عدوى العدسةِ، وكانت قريش تتقيها كما يتقى الطاعون، ثم احتملوه إلى أعلى «مكة»، وأسندوه إلى جدار، ثم صمُّوا عليه الحجارة.

---

(١) ينظر اللسان (مسد) والقرطبي ٢٠/ ١٦٥.

(٢) ينظر الفخر الرازي ٣٢/ ١٥٩.

(٣) ينظر: الصحاح ٢/ ٥٣٨، ٥٣٩.

فصل في جواز تكليف ما لا يطاق

احتج أهل السنة على جواز تكليف ما لا يطاق بأنه تعالى كلف أبا لهب بالإيمان مع تصديق الله تعالى في كل ما أخبر عنه، ومما أخبر عنه أنه لا يؤمن وأنه من أهل النار، فقد صار مكلفاً بأن يؤمن بأنه لا يؤمن، وهذا تكليف بالجمع بين النقيضين، وهو محال وذلك مذكور في أصول الفقه.

ذكر الثعلبيُّ عن أبيّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرأ سُورَةَ ﴿تَبَّتْ﴾ رجَوْتُ أنْ لا يجْمعَ اللَّهُ تَعالَى بَينهُ وبَيْنَ أَبِي لهبٍ فِي دارٍ واحدةٍ»[1].

(١) تقدم تخريجه.

سورة الإخلاص

مكية في قول ابن مسعود، والحسن وعطاء وعكرمة وجابر، ومدنية في أحد قولي ابن عبَّاس وقتادة والضحاك، والسدي، وهي أربع آيات[1]، وخمس عشرة كلمة، وسبعة وأربعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. في «هُوَ» وجهان:

أحدهما: أنه ضمير عائد على ما يفهم من السياق، فإنه يروى في سبب النزول أنهم قالوا: صف لنا ربَّك وانسبه.

وقيل: قالوا له: أنُحَاسٌ هو أم حَديدٌ؟ فنزلت.

وحينئذ يجوز أن يكون «اللَّهُ» مبتدأ، و «أحد» خبره، والجملة خبر الأولِ، ويجوز أن يكون «الله» بدلاً، و «أحد» الخبر، ويجوز أن يكون «الله» خبراً أولاً، و «أحد» خبراً ثانياً، ويجوز أن يكون «أحد» خبراً لمبتدأ محذوف، أي «هو أحد»، والثاني: ضمير الشأن؛ لأنه موضع تعظيم، والجملة بعد خبره مفسرة.

وهمزة «أحد» بدل من واو؛ لأنه من الوحدة، وإبدال الهمزة من الواو المفتوحة قليل، منه: امرأة أناة من الونى، وهو الفُتُور، وتقدم الفرق بين «أحد» هذا، و «أحد» المراد به العموم، فإن همزة ذاك أصل بنفسها.

ونقل أبو البقاء[2]: أن همزة «أحد» هذا غير مقلوبة، بل أصلها بنفسها، فالمراد به العموم. والأول هو المعروف.

وفرق ثعلب بين «أحد» و «واحد» بأنَّ الواحد يدخله العدد والجمع والاثنان

---

(١) ينظر تفسير الماوردي (٦/ ٣٦٩).

(٢) ينظر: الإملاء ٢/ ٢٩٧.

و «أحد» لا يدخله ذلك، ويقال: اللَّهُ أحد، ولا يقال: زيد أحد؛ لأن الله تعالى هذه الخصوصية، وزيد له حالات شتى. ورد عليه أبو حيَّان بأنه يقال[1]: أحد وعشرون، ونحوه، فقد دخله العدد انتهى.

وقال مكيٌّ: إن أصله: «واحد» فأبدلت الواو همزة، فاجتمع ألفان؛ لأن الهمزة تشبه الألف، فحذفت إحداهما تخفيفاً.

وقرأ عبد الله وأبيّ[2]: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ دون «قُلْ».

وقرأ النبي[3] ﷺ: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ بغير ﴿قُلْ هُوَ﴾.

وقرأ الأعمش[4]: «قل هو الله الواحد».

وقرأ العامة: بتنوين «أحَدٌ» وهو الأصل.

وزيد بن علي وأبان بن عثمان، وابن أبي إسحاق[5] **والحسن، وأبو السمال، وأبو عمرو** في رواية، في عدد كثير: بحذف التنوين للخفة، ولالتقاء الساكنين، كقوله: [الكامل]

٥٣٥٢ ـ عَمرُو الذي هَشَمَ الثَّرِيدَ لقومِهِ ورِجالُ مكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافُ[6]

وقوله: [المتقارب]

٥٣٥٣ ـ .... ولا ذَاكِرَ اللَّهَ إلاَّ قَلِيلا[7]

فصل

والصمد: الذي يصمدُ إليه في الحاجات، ولا يقدر على قضائها إلا هو.

قال: [الطويل]

٥٣٥٤ ـ ألاَ بكَّرَ النَّاعِي بخَيْرِ بَنِي أَسَدْ بِعمْرِو بنِ مسعُودٍ وبالسَّيِّدِ الصَّمَدْ[8]

وقال آخر: [البسيط]

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٥٢٩.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٨١٧، والدر المصون ٦/ ٥٨٨.

(٣) ينظر السابق.

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٥٨٨.

(٥) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥٤٦، والبحر المحيط ٨/ ٥٢٩، والدر المصون ٦/ ٥٨٨.

(٦) تقدم. (٧) تقدم.

(٨) قائله هو سبرة بن عمرو الأسدي ينظر الاقتضاب ص ٢٨٩، وسمط اللآلىء ٢/ ٣٩٢، ومجاز القرآن ٢/ ٣١٦، وإصلاح المنطق ص ٥٨، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٨، والأمالي ٢/ ٣٢٠، والطبري ٣٠/ ٢٢٤، ومجمع البيان ١٠/ ٧٥٧، والقرطبي ٢٠/ ١٦٧، واللسان (صمد)، والدر المصون ٦/ ٥٨٩.

٥٣٥٥ ـ عَلوتهُ بحُسَامٍ ثُمَّ قلتُ لهُ خُذهَا حُذيفُ فأنْتَ السيِّدُ الصَّمدُ[١]

وقيل: الصمد: المصمت الذي لا جوف له.

ومنه قوله: [الطويل]

٥٣٥٦ ـ شِهَابُ حُروبٍ لا تَزالُ جِيَادهُ عَوابِسَ يَعلُكْنَ الشَّكيمَ المُصَمَّدَا[٢]

وقال أبيّ بن كعب رضي الله عنه: تفسيره، من قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وهذا يشبه ما قالوه من تفسير الهلوع، والأحسن في هذه الجملة أن تكون مستقلة بفائدة هذا الخبر، ويجوز أن يكون «الصَّمدُ» صفة، والخبر في الجملة بعده، كذا قيل، وهو ضعيف من حيث السِّياق، فإن السياق يقتضي الاستقلال بأخبار عن كل جملة[٣].

قال القرطبي[٤]: [«لأنه ليس شيء إلا سيموت][٥]، وليس شيء يموت إلا يورث».

قيل: الصمد: الدائمُ الباقي الذي لم يزل، ولا يزال.

وقال أبو هريرة: إنه المستغني عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد[٦].

وقال السديُّ: إنه المقصود في الرغائب، والمستعان به في المصائب[٧].

[وقال الحسن بن الفضل: إنه الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

وقال مقاتل: إنه الكامل الذي لا عيب فيه][٨].

قال القرطبيُّ[٩]: والصحيح من هذه الأقوال ما شهد له الاشتقاق، وهو القول الأول، ذكره الخطابي.

فصل في لفظ أحد

قال ابن الخطيب[١٠]: ونكر لفظ أحد، لأن الذي يعرفه الخلق من الموجودات محسوس، وكل محسوس منقسم، فأما ما لا ينقسم فلا يعرف، وعرَّف الصمد؛ لأنه الذي يقصد إليه في الحوائج، وذلك معلوم عند الخلق، وقدم ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ وإن كان العرف سبق؛ لأنه الأهم، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ كالحجة على أنه لم يلدْ، وجاء هنا ﴿لَمْ يَلِدْ﴾، وفي سورة «الإسراء»: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١]، لأن من

---

(١) ينظر: القرطبي ٢٠/ ١٦٧.

(٢) ينظر القرطبي ٢٠/ ١٦٨، والبحر ٨/ ٥٢٩، والدر المصون ٦/ ٥٨٩.

(٣) ينظر تفسير القرطبي (٢٠/ ١٦٧).

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٦٨.

(٥) في أ: كل شي يولد يموت.

(٦) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٣٧٢)، والقرطبي (٢٠/ ١٦٧).

(٧) ينظر المصدر السابق.

(٨) سقط من: ب.

(٩) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٦٨.

(١٠) ينظر: الفخر الرازي ٣٢/ ١٦٧.

النصارى من يقول: عيسى ولدُ الله حقيقة، ومنهم من يقول: إن الله اتخذه ولداً تشريفاً، فنفى الأمرين.

فصل في الرد على من أسقط «قل هو»

قال القرطبي[(١)]: وقد أسقط من هذه السورة من أبعده الله وأخزاه، وجعل النار مقامه ومثواه، وقرأ: «الله الواحد الصمد» والناس يستمعون، فأسقط «قل هو» وزعم أنه ليس من القرآن، وغير لفظ «أحد»، وادَّعى أن هذا هو الصواب، والذي عليه الناس هو الباطلُ، فأبطل معنى الآية، لأن أهل التفسير قالوا: نزلت الآية جواباً لأهل الشركِ، لما قالوا لرسول الله ﷺ: صِفْ لنَا ربَّك أمِنْ ذهبٍ هُو أم من نُحاس أم من [صفر][(٢)]؟.

فقال الله تعالى رداً عليهم: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ففي «هُوَ» دلالة على موضع الرد، ومكان الجواب، فإذا سقط بطل معنى الآية، وصح الافتراء على الله ـ عز وجل ـ والتكذيب لرسوله ﷺ.

وروى الترمذي عن أبيٍّ بن كعب: أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: «انسب لنا ربك» فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾[(٣)]، والصمد: الذي لم يلد، ولم يولد؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله تعالى لا يموت، ولا يورث.

وروى أبو العالية: أن النبي ﷺ ذكر آلهتهم، فقالوا: انسب لنا ربك، قال: فأتاه جبريل بهذه السورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[(٤)].

قال الترمذي: وهذا أصحّ.

قال القرطبيُّ[(٥)]: «ففي هذا الحديث إثبات لفظ، «قل هو الله أحد»، وعن عكرمة نحوه»[(٦)].

وقال ابن عباس: «لَمْ يلدْ» كما ولدت مريم، و «لَمْ يُولدْ» كما ولد عيسى، وعزير، وهو رد على النصارى، وعلى من قال: عزير ابن الله، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ فقدم خبر كان على اسمها، لينساق أواخر الآي على نظم واحدٍ[(٧)].

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٦٨. (٢) في أ: حديد.

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٢١)، كتاب التفسير، باب: سورة الإخلاص حديث (٣٣٦٤)، من طريق أبي سعد عن أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبيّ بن كعب به.

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٢١)، رقم (٣٣٦٤)، من طريق عبيد الله بن موسى عن أبي جعفر الرازي عن الربيع عن أبي العالية به، قال الترمذي وهذا أصح.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٦٨. (٦) ينظر تفسير القرطبي (٢٠/١٦٨).

(٧) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٣٧٢)، والقرطبي (٢٠/١٦٧).

فصل في الكلام على الآية

قال ابن الخطيب[١]: دل العقل على استحالة كونه تعالى ولداً ووالداً، والأحديَّةُ والصَّمديَّةُ يوجبان نفي كونه تعالى والداً، أو مولوداً، وذكر بعدهما كما ذكر النتيجة بعد الدليل.

قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾. في نصب «كُفواً» وجهان:

أحدهما: أنه خبر «يَكُونُ» و «أحَدٌ» اسمها و «لَهُ» متعلق بالخبر، أي: ولم يكن كفواً له كما تقدم وقد رد المبرد على سيبويه بهذه الآية من حيث إنه يزعم أنه إذا تقدم الظَّرف كان هو الخبر، وهنا لم يجعله خبراً مع تقدمه.

وقد رد على المبرِّد بوجهين:

أحدهما: أن سيبويه لم يحتم ذلك بل جوزه.

والثاني: أنا لا نسلم أنَّ الظرف هنا ليس بخبر، بل هو خبر، ونصب «كُفُواً» على الحال، على ما سيأتي بيانه.

وقال الزمخشري[٢]: الكلام العربي الفصيح، أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدم، وقد نص سيبويه في كتابه على ذلك، فما باله مقدماً في أفصح كلام وأعربه؟

قلت: هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه، وهذا المعنى مصبُّه ومركزه هو هذا الظرف، فكان لذلك أهم شيء وأعناه، وأحقه بالتقديم وأحراه.

والثاني: أن ينصب على الحال من «أحدٌ»؛ لأنه كان صفة، فلما تقدم عليه نصب حالاً و «له» هو الخبر. قاله مكي، وأبو البقاء[٣]، وغيرهما.

ويجوز أن يكون حالاً من الضمير المستكن في الجار لوقوعه خبراً.

قال أبو حيان بعد أن حكى كلام الزمخشري ومكي[٤]: وهذه الجملة ليست من هذا الباب، وذلك أن قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ليس الجار والمجرور فيه تامًّا، إنما هو ناقص، لا يصلح أن يكون خبراً لـ «كان» بل متعلق بـ «كُفُواً»، وتقدم على «كُفُواً» للاهتمام به، إذ فيه ضمير الباري تعالى، وتوسط الخبر وإن كان الأصل التأخير؛ لأن تأخير الاسم هو فاصلة، فحسن ذلك، وعلى هذا الذي قررناه يبطل إعراب مكي وغيره، أن «لهُ» الخبر، و «كُفُواً» حال من «أحَدٌ» لأنه ظرف ناقص، ولا يصلح أن يكون خبراً، وبذلك يبطل سؤال الزمخشري وجوابه، وسيبويه إنما تكلم في الظرف الذي يصلح أن يكون خبراً، ويصلح أن يكون غير خبر.

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٢/١٦٨ ـ ١٦٩.
(٢) الكشاف ٤/٨١٨.
(٣) الإملاء ٢/٣٩٧.
(٤) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٥٣٠.

قال سيبويه: وتقول: ما كان فيها أحد خير منك، وما كان أحد مثلك فيها، وليس أحد فيها خير منك، إذا جعلت «فيها» مستقراً، ولم تجعله على قولك: فيها زيد قائم، ثم أجريت الصفة على الاسم، فإن جعلته على قولك: فيها زيد قائم، نصبت، تقول: ما كان فيها أحد خيراً منك، وما كان أحد خيراً منك فيها، إلا أنك إذا أردت الإلغاء، فكلما أخرت الذي تلغيه كان أحسن، وإذا أردت أن يكون مستقراً، تكتفي به، فكلما قدمته كان أحسن، والتقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربي جيد كثير، قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

وقال الشاعر: [الرجز]

٥٣٥٧ ـ مَا دَامَ فِيهِنَّ فَصِيلٌ حَيَّا[١]

انتهى كلام سيبويه.

قال أبو حيَّان[٢]: فأنت ترى كلامه، وتمثيله بالظرف الذي لا يصلح أن يكون خبراً، ومعنى قوله: «مستقرًا» أي: خبراً للمبتدأ، ولـ «كان».

فإن قلت: قد مثل بالآية الكريمة.

قلت: هذا الذي أوقع مكياً والزمخشري وغيرهما فيما وقعوا فيه، وإنما أراد سيبويه أن الظرف التام، وهو في قوله: [الرجز]

٥٣٥٨ ـ مَا دَامَ فِيهِنَّ فَصِيلٌ حَيَّا[٣]

أجري فضلة، لا خبراً، كما أن «لهُ» في الآية أجري فضلة، فجعل الظرف القابل أن يكون خبراً كالظرف الناقص في كونه لم يستعمل خبراً، ولا يشك من له ذهن صحيح أنه لا ينعقد كلام من قوله: «ولم يكن له أحد» بل لو تأخر «كُفُواً» وارتفع على الصفة وجعل «لهُ» خبراً لم ينعقد منه كلام، بل أنت ترى أن النفي لم يتسلط إلا على الخبر الذي هو «كُفُواً» و «لَهُ» متعلق به، والمعنى: لم يكن له أحد مكافئه انتهى ما قاله أبو حيَّان.

قال شهاب الدين[٤]: قوله: «ولا يشك» إلى آخره، تهويل على الناظر، وإلا

---

(١) البيت لابن ميادة وهو أحد ثلاثة أبيات هي:

لتقربن قرباً جلذيّا ... ما دام فيهن فصيل حيّا

فقد دجا الليل فهيّا هيّا

ينظر ديوانه ص ٢٣٧، وخزانة الأدب ٤/ ٥٩، ٩/ ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، وشرح أبيات سيبويه ١/ ٢٦٦، وشرح المفصل ٤/ ٣٣، واللسان (جلذ)، وسمط اللآلىء ص ٥٠١، والكتاب ١/ ٥٦، والمقتضب ٤/ ٩١، والدر المصون ٦/ ٥٩٠.

(٢) ينظر البحر المحيط ٨/ ٥٣١.

(٣) تقدم.

(٤) الدر المصون ٦/ ٥٩٠.

فقوله: «هذا الظرف ناقص» ممنوع، لأن الظرف الناقص عبارة عما لم يكن في الإخبار به فائدة كالمقطوع عن الإضافة ونحوه، وقد نقل سيبويه الأمثلة المتقدمة، نحو: «ما كان فيها أحد خيراً منك» وما الفرق بين هذا، وبين الآية الكريمة، وكيف يقول هذا، وقد قال سيبويه في آخر كلامه: «والتقديم والتأخير، والإلغاء، والاستقرار عربي جيد كثير».

فصل

قرأ العامة: «كُفُواً» بضم الكاف والفاء، وقد سهل الهمزة الأعرج[١] ونافع في رواية، وسكن الفاء حمزة وأبدل الهمزة واواً وقفاً خاصة، وأبدلها حفص واواً مطلقاً، والباقون بالهمزة مطلقاً.

قال القرطبي: وتقدم في البقرة أن كل اسم على ثلاثة أحرف أوله مضموم، فإنه يجوز في عينه الضم والإسكان إلا قوله تعالى «أتتّخذنا هزواً»[٢].

وقرأ سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس[٣] رضي الله عنهم «كفاء» بالكسر والمد أي لا مثل له، وأنشد للنابغة: [البسيط]

٥٣٥٩ ـ لاَ تَقْذِفَنِّي بِرُكْنٍ لا كِفَاءَ لَهُ ....[٤]

وقرأ نافع في رواية: كِفَا بالكسر وفتح الفاء من غير مد كأنه نقل حركة الهمزة وحذفها.

والكفو النظير كقوله: هذا كفؤ لك: أي نظيرك، والاسم الكفاءة بالفتح.

قال ابن الخطيب[٥]: والتحقيق أنه تعالى لما أثبت الأحديَّة، والصمديّة، ونفى الوالدية، والمولودية ختم السورة بأن شيئاً من الموجودات يمتنع أن يساويه في شيء من صفات الجلال، والعظمة لانفراده سبحانه، وتعالى بوجوب الوجود لذاته.

فصل

روى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُول الله تعالى: كذَّبنِي

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٧، والبحر المحيط ٨/ ٥٣٠، والدر المصون ٦/ ٥٩٠.
(٢) الذي في القرطبي ٢٠/ ١٦٨: قوله تعالى: ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً﴾ [الزخرف: ١٥].
(٣) ينظر السابق.
(٤) صدر بيت وعجزه:

وإن تـأثَّـفـك الأعْـداءُ بـالـرِّفَـدِ

ينظر الديوان ص ٢٦، والطبري ٣٠/ ٢٢٤، وإعراب القرآن ٥/ ٣١١، والبحر المحيط ٨/ ٥٣٠، وفتح القدير ٥/ ٥٧٧.
(٥) ينظر الفخر الرازي ٣٢/ ١٦٩.

ابنُ آدمَ ولمْ يكُنْ لهُ ذلِكَ، وشَتمنِي ولمْ يكُنْ لهُ ذلِكَ، فأما تَكْذيبهُ فقوله: لن يُعِيدنِي كَمَا بَدأنِي، وليْسَ بأوَّلِ الخَلقِ وليس بأهْونَ عليَّ مِنْ إعَادتهِ، وأمَّا شتمهُ إيَّاي، فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحدُ الصَّمَدُ، لم ألدْ ولم أولَدْ ولم يكن لي كفواً أحد»(١).

فصل في فضائل هذه السورة

روى البخاري عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها، فلما أصبح جاء النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال رسول الله ﷺ: «والَّذي نَفسِي بيدهِ، إنَّهَا لتعْدِلُ ثُلثَ القُرآنِ»(٢) لأن القرآن أنزل ثلاثاً؛ ثلثاً: أحكام. وثلثاً: وعد ووعيد. وثلثاً: أسماء وصفات، وجمعت هذه السورة أحد الأثلاث، وهو الأسماء والصفات.

وروى مسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «سلُوهُ لأيِّ شيءٍ يصْنَعُ ذلِكَ»؟ فسألوه: فقال: لأنَّها صفةُ الرَّحمنِ، فأنا أحبُّ أن أقرأ بها، فقال رسول الله ﷺ «أخبرُوهُ أنَّ اللَّه تعالى يُحِبُّهُ»(٣).

وروى الترمذي عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «وَجبتْ»، قلتُ: ومَا وَجبَتْ؟ قال: «الجنَّةُ»(٤).

وروى أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ قَرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ خمسِينَ مرَّة غُفرَتْ ذُنوبهُ»(٥).

وروى سعيد بن المسيب ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أحَدَ عشرة مرَّة بَنَى اللَّهُ لهُ قصْراً في الجنَّةِ، ومن قَرأهَا عِشْرينَ مَرَّة بنَى اللَّهُ لهُ قَصرينِ في الجنَّة، ومنْ قَرأهَا ثلاثين مرَّةً، بَنَى له بِهَا ثلاثة قُصُورٍ في الجنَّة»، فقال عمرُ بن الخطاب: والله يا رسول الله إذاً لنُكثِرَنَّ قُصورنَا، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «اللَّهُ أوسعُ مِنْ ذلِكَ»(٦).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري ٨/ ٦٧٦، في فضائل القرآن: باب فضل ﴿قل هو الله أحد﴾ (٥٠١٣)، (٦٦٤٣، ٧٣٧٤)، وأخرجه مسلم ١/ ٥٥٦، في صلاة المسافرين: باب فضل ﴿قل هو الله أحد﴾ (٢٥٩/ ٨١١، ٨١٢).

(٣) أخرجه البخاري ٨/ ٦٧٨، في كتاب فضائل القرآن، باب: فضل المعوذات (٥٠١٧).

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ١٥٤)، كتاب فضائل القرآن، باب: ما جاء في سورة الإخلاص رقم (٢٨٩٧)، من حديث أبي هريرة وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٥) أخرجه الدارمي (٢/ ٤٦١)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٧٠٦)، وعزاه إلى أبي يعلى ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة.

(٦) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٧٠٩)، وعزاه إلى أبي الشيخ عن ابن عمر وله شاهد من=

وقال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في مرَضِه الَّذي يَمُوتُ فِيهِ لَمْ يُفتَنْ في قَبْرِهِ، وأمِنَ من ضغطةِ القبْرِ، وحمَلتهُ الملائِكةُ يومَ القِيامةِ بأكُفِّها، حتَّى يُجيزَ الصِّراطَ إلى الجنَّةِ»[1].

فصل في أسماء هذه السورة

في أسمائها: قال ابن الخطيب[2]: سورة التفريد، وسورة التجريد، وسورة التوحيد، وسورة الإخلاص، وسورة النجاة، وسورة الولاية، وسورة النسبة، لقولهم: انسبْ لنا ربَّك، وسورة المعرفة، وسورة الجمال، وسورة البراءة؛ لأنها تبرىء من النفاق، وسورة الأساس، وسورة المحضر؛ لأن الملائكة تحضر لسماعها، وسورة المانعة، والمنفرة؛ لأنها تنفر الشيطان، وسورة النور، لأنها تنور القلب، والله نور السموات والأرض. والله أعلم.

= حديث معاذ بن أنس ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٤٨/٧)، وقال: رواه الطبراني وأحمد وفي إسنادهما رشدين بن سعد وزبان وكلاهما ضعيف وفيهما توثيق لين.

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢١٣/٢)، والطبراني في الأوسط كما في «مجمع الزوائد» (١٤٨/٧ ـ ١٤٩). وقال الهيثمي: وفيه نصر بن حماد الوراق وهو متروك.

(٢) ينظر الفخر الرازي ١٦١/٣٢.

سورة الفلق

مكية في قول الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر[1]، ومدنية في قول ابن عبَّاس، وقتادة[2]، وهي خمس آياتٍ، وثلاث وعشرون كلمة، وأربعة وسبعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾. هذه السورة، وسورة «النَّاس»، و «الإخلاص» نزلت على رسول الله ﷺ حين سحرته اليهود، وزعم ابن مسعود أنهما دعاء، وليستا من القرآن، وخالف به الإجماع من الصحابة، وأهل البيت.

قال ابن قتيبة: لم يكتب عبد الله بن مسعود في مصحفه المعوِّذتين؛ لأنه كان يسمع رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين بهما، فقدر أنهما بمنزلة: «أعُوذُ بكَلماتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ من كُلِّ شيْطانٍ وهَامَّةٍ، ومِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ».

قال ابن الأنباري: وهذا مردود على ابن قتيبة؛ لأن المعوذتين من كلام ربِّ العالمين؛ المعجز لجميع المخلوقين، و «أعِيذُكما بكَلمَاتِ اللَّهِ التَّامةِ» من قول البشر، وكلام الخالق الذي هو آية، وحجة لمحمد ﷺ على جميع الكافرين، لا يلتبس بكلام الآدميين على مثل عبد الله بن مسعود، الفصيح اللسان، العالم باللغة العارف بأجناس الكلام.

وقال بعضُ الناس: لم يكتب عبد الله المعوذتين؛ لأنه أمن عليهما من النسيان، فأسقطهما وهو يحفظهما كما أسقط فاتحة الكتاب من مصحفه، وما يشك في إتقانه، وحفظه لهما، ورد هذا القول على قائله، واحتج عليه بأنه قد كتب: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ و ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وهن يجرين مجرى المعوذتين في أنهن غير طوال، والحفظ إليهن أسرع، والنسيان مأمون، وكلهن يخالف فاتحة الكتاب؛ إذ

---

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٣٧٣). (٢) ينظر المصدر السابق.

الصلاة لا تتم إلا بقراءتها، وسبيل كل ركعة أن تكون المقدمة فيها قبل ما يقرأ من بعدها، فإسقاط فاتحة الكتاب من المصحف على معنى الثقة ببقاء حفظها، والأمن من نسيانها، صحيح، وليس من السور في هذا المعنى مجراها، ولا يسلك به طريقها.

فصل في تفسير السورة

تقدم الكلام على الاستعاذة، و «الفلقُ»: هو الصبح، وهو فعل بمعنى مفعول، أي: مفلوق، وفي الحديث: «الرُّؤيَا مثلُ فلقِ الصُّبْحِ».

قال الشاعر: [البسيط]

٥٣٦٠ ـ يَا ليلَةً لَمْ أنمْهَا بِتُّ مُرتفِقاً أرْعَى النُّجُومَ إلى أن نَوَّرَ الفَلقُ[١]

وقال ذو الرمة يصف الثور الوحشي: [البسيط]

٥٣٦١ ـ حتَّى إذَا ما انْجَلَى عَنْ وجْههِ فلقٌ هَاديهِ فِي أخرياتِ اللَّيلِ مُنتَصِبُ[٢]

يعني بالفلق هنا: الصبح بعينه.

وقيل: الفلق: الجبال، والصخور، تنفلق بالمياه، أي: تتشقق وقيل: هو التفليق بين الجبال، لأنها تنشق من خوف الله تعالى.

قال زهير: [البسيط]

٥٣٦٢ ـ مَا زِلتُ أرْمُقهُمْ حتَّى إذَا هَبطَتْ أيدِي الرِّكابِ بِهِمْ من راكِسٍ فَلقَا[٣]

والراكس: بطن الوادي.

وكذلك هو في قول النابغة: [الطويل]

٥٣٦٣ ـ .... أتَانِي ودُونِي رَاكِسٌ فالضَّواجِعُ[٤]

والراكس أيضاً: الهادي، وهو الثور وسط البيدرِ تدور عليه الثيران في الدِّياسة.

وقيل: الرحم تنفلق بالحيوان.

وقيل: إنه كل ما انفلق عن جميع ما خلق من الحيوان، والصبح، والحب، والنوى وكل شيء من نبات وغيره. قاله الحسن وغيره.

---

(١) ينظر القرطبي ٢٠/ ١٧٤، والبحر ٨/ ٥٩١، والدر المصون ٦/ ٥٩١، وفتح القدير ٨/ ٥٣٢.

(٢) ينظر ديوان ذي الرمة ص ٩٢، وشرح شواهد الإيضاح ص ٢٤٠، واللسان (فرق)، والقرطبي ٢٠/ ١٧٤، والبحر ٨/ ٥٣٣، والدر المصون ٦/ ١٧٤.

(٣) ينظر ديوانه ص ٣٧، ومعجم ما استعجم ١/ ٤٧، والقرطبي ٢٠/ ١٧٤.

(٤) عجز بيت وصدره:

وَعِيدُ أبِي قَابُوس في غيرِ كُنهِهِ

ينظر ديوان النابغة ص ٣٢، وسمط اللآلىء ١/ ٤٨٩، واللسان (ركس)، والقرطبي ٢٠/ ١٧٤.

قال الضحاك: الفلق: الخلق كله، قال: [الرجز]

٥٣٦٤ ـ وسْوسَ يَدْعُو مُخْلِصاً ربَّ الفَلَق سِرًّا وقَدْ أَوَّنَ تَأْوِينَ العُقَقْ(١)

قال القرطبيُّ(٢): «وهذا القول يشهد له الاشتقاقُ، فإن الفلق: الشَّق، يقال: فلقت الشيء فلقاً، أي: شققته، والتفليق مثله، يقال: فلقته فانفلق وتفلق، فكل ما انفلق عن شيء من حيوان وصبح وحب ونوى وماء فهو فلق: قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقال ـ عز وجل ـ: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩].

[والفلق مقطرة السمّان، فأما الفِلق بالكسر فهو الداهية، والأمر العجيب يقال منه: أفلق الرجل وافتلق، وشاعر مفلق، وقد جاء بالفلق؛ قال الشاعر: [الرجز]

٥٣٦٥ ـ واعَجَباً لِهَذِهِ الفَلِيقَهْ هَلْ يُذْهِبَنَّ القُوَبَاءَ الرِّيقَهْ

والفِلْق أيضاً: القضيب يشق باثنين، فيعمل منه قوسان، يقال لكل منهما: فِلْق، وقولهم: جاء بعُلَق فلق وهي الداهية، يقال منه أعلقت وأفلقت. أي جئت بعُلق فلق، ومر يفتلق في عدوه أي بالعجب من شدته](٣).

قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، متعلق بـ «أعوذ»، والعامة: على إضافة «شرّ» إلى «ما»، وقرأ(٤) عمرو بن فايد: «مِنْ شرٍّ» بالتنوين.

وقال ابن عطية(٥): وقرأ عمرو بن عبيد وبعض المعتزلة الذين يرون أن الله لم يخلق الشَّر: «مِنْ شرٍّ» بالتنوين، «مَا خلقَ» على النفي وهي قراءةٌ مردودةٌ مبنيةٌ على مذهب باطل انتهى.

ولا يتعين أن تكون «ما» نافية، بل يجوز أن تكون موصولة بدلاً من «شرٍّ» على حذف مضاف، أي: من شر شر ما خلق، عمم أولاً، ثم خصص ثانياً.

وقال أبو البقاء(٦): و «ما» على هذا بدل من «شر»، أو زائدة، ولا يجوز أن تكون نافية؛ لأن النافية لا يتقدم عليها ما في حيزها، فلذلك لم يجز أن يكون التقدير: ما خلق من شر، ثم هو فاسد في المعنى. وهو رد حسن صناعي، ولا يقال: إن «مِنْ شرٍّ» متعلق بـ «أعُوذُ» وقد أنحى مكي على هذا القائل، ورده بما تقدم.

و «ما» مصدرية، أو بمعنى «الذي».

فصل في المقصود بشر ما خلق

روى عطاء عن ابن عباس: يريد إبليس خاصة؛ لأن الله تعالى لم يخلق أشرَّ منه،

(١) البيتان لرؤبة بن العجاج. ينظر اللسان (أون) والقرطبي ٢٠/ ١٧٤.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٧٤. (٣) سقط من: ب.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٥٣٣، والدر المصون ٦/ ٥٩١.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٥٣٨. (٦) الإملاء ٢/ ٢٩٧.

وأن السورة[١] إنما نزلت في الاستعاذة من السِّحر، وذلك إنَّما يتم بإبليس وجنوده، لعنهم الله[٢]، وقيل: جهنم وما خلق فيها.

وقيل: عام؛ أي من شر كل ما خلقه الله وقيل: ما خلق الله من الأمراض، والأسقام [والقحط][٣] وأنواع المِحَنِ.

قال الجبائي والقاضي[٤]: هذا التقييد باطل؛ لأن فعل الله ـ تعالى ـ لا يجوز أن يوصف بأنه شر؛ لأن الذي أمر بالتعوذ منه هو الذي أمر به، وذلك متناقض؛ لأن أفعاله ـ تعالى ـ كلها حكمة وصواب، فلا يجوز أن يقال: شرّ.

وأيضاً: فلأن فعل الله لو كان شرًّا؛ لوصف فاعله بأنه شر، وتعالى الله عن ذلك.

والجواب عن الأول: أنه لا امتناع في قوله: أعوذ بك منك، كما رد عن الثاني أن الإنسان لما تألم وصف بالألم كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وعن الثالث: أن أسماء الله توقيفية لا اصطلاحية، ومما يدل على جواز تسمية الأمراض والأسقام بأنها شرور قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا﴾ [المعارج: ٢٠].

قوله: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، «إذا» منصوب بـ «أعوذ» أي: أعوذ بالله من هذا في وقت كذا، وكذا.

والغسقُ: هو أول ظلمةِ الليل، يقال منه: غسق الليل يغسق، أي: يظلم.

قال ابن قيس الرقيَّات: [المديد]

٥٣٦٦ ـ إنَّ هَذا اللَّيلَ قدْ غَسقَا واشْتكَيْتُ الهَمَّ والأرَقَا[٥]

وهذا قول ابن عباس والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم، ووقب على هذا: أظلم[٦].

وقيل: نزل، قال: وقب العذاب على الكافرين: نزل.

قال: [الكامل]

٥٣٦٧ ـ وقَبَ العَذابُ علَيهِمُ فكَأنَّهُمْ لحِقَتْهُمُ نَارُ السَّمُومِ فأحْصِدُوا[٧]

---

(١) في أ: الآية.

(٢) ينظر تفسير القرطبي (٢٠/ ١٧٥).

(٣) سقط من: ب.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٣٢/ ١٧٧.

(٥) ينظر ذيل ديوان ابن الرقيّات ص ١٨٧، ومجاز القرآن ١/ ٣٩٨، واللسان (غسق)، والقرطبي ٢٠/ ١٧٥.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧٤٨، ـ ٧٤٩)، عن ابن عباس والحسن.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٧١٨)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر.

(٧) ينظر القرطبي ٢/ ١٧٥، والبحر ٨/ ٥٣٢، والدر المصون ٦/ ٥٩١، وفتح القدير ٥/ ٥٢٠.

وقال الزجاج: قيل لليل غاسق، لأنه أبرد من النَّهار، والغاسق: البارد، والغسق: البرد، ولأنَّ في الليل تخرج السِّباع من آجامها، والهوام من أماكنها، وينبعث أهل الشرِّ على العبث، والفسادِ، فاستعير من الليل.

قال الشاعر: [البسيط]

٥٣٦٨ ـ يَا طَيفَ هِندٍ لقَدْ أبقَيتَ لِي أرقاً إذْ جِئتَنَا طَارِقاً واللَّيلُ قَدْ غَسَقا[(١)]

أي: أظلم واعتكر، وقيل: الغاسق: الثُّريَّا، لأنها إذا سقطت كثرت الأسقام والطواعين، وإذا طلعت ارتفع ذلك. قاله عبد الرحمن بن زيد.

وقال القتبي: القمر إذا وقب إذا دخل في ساهوره كالغلاف إذا خسف وكل شيء أسود فهو غسق.

وقال قتادة: «إذَا وَقبَ»: إذا غاب[(٢)].

قال القرطبي[(٣)]: وهو أصح، لما روى الترمذي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ نظر إلى القمر، فقال: «يا عَائشةُ، استَعيذِي باللَّهِ من شرِّ هذا، فإنَّ هذا هُوَ الغاسقُ إذا وقبَ»[(٤)]، قال: هذا حديث حسن صحيح.

[وقيل: الغاسق: الحيَّة إذا لدغت، وكأن الغاسق نابها لأن السم يغسق منه أي: يسيل، يقال: غسقت العين تغسق غسقاً، إذا سالت بالماء، وسمي الليل غاسقاً، لانصباب ظلامه على الأرض، ووقب نابها إذا قامت باللدغ][(٥)].

وقيل: الغاسقُ: كل هاجم يضر، كائناً ما كان، من قولهم: غسقت القرحة، إذا جرى صديدها.

قال ابن الخطيب[(٦)]: وعندي فيه وجه آخر، لو أنه صح، أن [القمر في جرمه غير مستنير، بل هو مظلم، فهذا هو المراد من كونه غاسقاً، وأما وقوبه فهو انمحاء نوره في آخر] الشهر والمنجمون يقولون: إنه في آخر الشهر منحوس، قليل القوة؛ لأنه لا يزال نوره بسبب ذلك تزداد نحوسته، فإن السحرة إنما يشتغلون في السحر الموروث، للتمريض في هذا الوقت، وهذا مناسب لسبب نزول السورة، فإنها نزلت؛ لأجل أنهم سحروا النبي ﷺ لأجل التمريض.

---

(١) ينظر القرطبي ٢٠/ ١٧٥، والبحر ٨/ ٥٣٣، والدر ٦/ ٥٩٢.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٧٥). (٣) ينظر: المصدر السابق.

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٢١ ـ ٤٢٢)، كتاب: التفسير، باب: المعوذتين حديث (٣٣٦٦)، من حديث عائشة. وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٥) سقط من: ب. (٦) الفخر الرازي ٣٢/ ١٧٨.

قوله: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾، النَّفَّاثات: جمع نفاثة، مثال مبالغة من نفث، أي: نفخ، واختلف فيه.

فقال أبو الفضل: شبه النفخ من الفم بالرقية، ولا شيء معه.

قال عنترة: [الوافر]

٥٣٦٩ ـ فإنْ يَبْرَأ فلمْ أنفُثْ عليهِ وإنْ يُفْقَدْ فحُقَّ لهُ الفُقُودُ[١]

وقال الزمخشري[٢]: «النفخُ مع ريق».

وقرأ الحسن[٣]: «النُّفَّاثات» بضم النون، وهو اسم كالنفاثة. ويعقوب وعبد الرحمن بن سابط وعيسى بن عمر وعبد الله بن القاسم: «النافثات»، وهي محتملة لقراءة العامة.

والحسن[٤] وأبو الربيع: «النفثات» دون ألفْ كحاذر وحذر، ونكّر غاسقاً وحاسداً؛ لأنه قد يتخلف الضرر فيهما؛ فإن التنكير للتبعيض، وعرف النفاثات إما للعهد كما يروى في التفسير، وإما للمبالغة في الشَّر.

فصل في معنى النَّفَّاثات

قال المفسرون: يعني السَّاحرات اللائي ينفثن في عقد الخيط حين يرقين عليها.

قال أبو عبيدة: النفاثات هي بنات لبيد بن أعصم اليهودي سحرن النبي ﷺ.

قال الشاعر: [المتقارب]

٥٣٧٠ ـ أعُوذُ بربِّي مِنَ النَّافِثَا تِ في عِضَهِ العَاضِهِ المُعْضِهِ[٥]

وقال متمم بن نويرة: [السريع]

٥٣٧١ ـ نَفَثْتُ فِي الخيطِ شَبيهَ الرُّقَى مِنْ خَشْيةِ الجِنَّةِ والحَاسِدِ[٦]

فصل

روى النسائي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَقدَ عُقدةً ثُمَّ نفث فيها، فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلَّق شيئاً وُكلَ إليْهِ»[٧].

---

(١) ينظر ديوان عنترة (٤٢)، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ١/ ١٦٢، ومجاز القرآن والقرطبي ٢٠/ ١٧٦، والبحر ٨/ ٥٣٢، والدر المصون ٦/ ٥٩٢.

(٢) الكشاف ٤/ ٨٢١.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٥٣٣، والدر المصون ٦/ ٥٩٢.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٥٣٣، والدر المصون ٦/ ٥٩٢.

(٥) ينظر القرطبي ٢٠/ ١٧٦.

(٦) ينظر القرطبي ٢٠/ ١٧٦.

(٧) أخرجه النسائي (٧/ ١١٢)، من حديث أبي هريرة.

واختلف في النَّفث عند الرقى: فمنعه قوم، وأجازه آخرون.

قال عكرمة: لا ينبغي للراقي أن ينفث، ولا يمسح، ولا يعقد[(١)].

قال إبراهيم: كانوا يكرهون النفث من الراقي، والصحيح الجواز؛ لأن النبي ﷺ كان ينفث في الرقية.

وروي محمد بن حاطب أن يده احترقت، فأثبت النبي ﷺ، فجعل ينفث عليها، ويتكلم بكلام، وزعم أنه لم يحفظه.

وروي أن قوماً لدغ فيهم رجل، فأتوا أصحاب النبي ﷺ فقالوا: هل فيكم من راقٍ؟ فقالوا: لا حتى تجعلوا لنا شيئاً، فجعلوا لهم قطيعاً من الغنم، فجعل رجل منهم يقرأ فاتحة الكتاب ويرقى ويتفل حتى برىء، فأخذوها، فلما رجعوا إلى النبي ﷺ ذكروا ذلك له، فقال: وما يدريكم أنها رقية؟ خذوا واضربوا لي معكم سهماً.

وأما ما روي عن عكرمة فكأنه ذهب فيه إلى أن النفث في العقد مما يستعاذ به بخلاف النفث بلا عقد.

قال ابن الخطيب[(٢)]: هذه الصناعة إنما تعرف بالنِّساء، لأنهن يعقدن في الخيط، وينفثن، وذلك لأن الأصل الأعظم فيه ربط القلب بذلك الأمر، وإحكام الهمَّة والوهم فيه، وذلك إنما يتأتَّى من النساء لقلة عملهن، وشدة شهوتهن، فلا جرم كان هذا العمل منهن أقوى.

قوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، الحسدُ: هو تمني زوال نعمة المحسود، وإن لم يصر للحاسد مثلها، والمنافسة: هي تمنِّي مثلها وإن لم تزل من المحسود، وهي الغبطة، فالحسد: شر مذموم، والمنافسة مباحة.

قال ﷺ: «المؤمن يغبط والمنافق يحسد» وقال: «لا حَسَدَ إلاَّ في اثنتينِ»[(٣)]. يريد الغبطة.

قال ابن عباس وعائشة ـ رضي الله عنهما ـ: لما كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ قربت إليه اليهود، فلم يزالوا حتى أخذوا مشاطة من أثر النبي ﷺ وعدة من أسنان مشطه، فأعطاه اليهود؛ ليسحروه بها ﷺ وتولى ذلك ابن الأعصم، رجل من اليهود[(٤)].

---

(١) ينظر تفسير القرطبي (٢٠/ ١٧٦).

(٢) ينظر الفخر الرازي ٣٢/ ١٧٩.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه الثعلبي من طريق أبي عصمة نوح بن أبي مريم عن زيد العمي عن أبي نضرة عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب به كما في «تخريج الكشاف» للزيلعي (٤/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨).
وأخرجه أيضاً ابن مردويه والواحدي في الوسيط من طريق نوح ونوح بن أبي مريم وضاع مشهور.

فصل في أن الله خلق الخير والشر

هذه السورة دالة على أن الله خلق كل شر، وأمر نبيه ﷺ أن يتعوذ من جميع الشرور، فقال ـ عز وجل ـ: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وذلك خاتمة ذلك الحسد تنبيهاً على عظمته، وكثرة ضرره، والحاسد عدو نعمة الله تعالى.

قال بعض الحكماء: الحاسد بارز ربَّه من خمسة أوجه:

أحدها: أنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره.

وثانيها: أنه ساخط لقسمة ربه، كأنه يقول: لم قسمت إلي هذه القسمة.

وثالثها: أنه ضاد الله، أي: أن فضل الله يؤتيه من يشاء، وهو يبخل بفضل الله.

ورابعها: أنه خذل أولياء الله، أو يريد خذلانهم، وزوال النعمة عنهم.

وخامسها: أنه أعان عدوه إبليس.

وقيل: الحاسد لا ينال في المجالس إلا ندامة، ولا ينال عند الملائكة إلا لعنة وبغضاء، ولا ينال في الخلوة إلا جزعاً، وغمًّا، ولا ينال في الآخرة إلا حزناً، واحتراقاً، ولا ينال من الله إلا بعداً ومقتاً.

وروي أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثةٌ لا يُستجَابُ دعاؤهُم: آكلُ الحرامِ، ومُكثرُ الغِيبةِ، ومنْ كان فِي قلبهِ غلٌّ أو حسدٌ للمسلمين»[١].

روى [الثعلبي عن أبيّ][٢] ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ المعوذتين فكأنما قرأ الكتب التي أنزلها الله تعالى كلها». وعن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبرُكَ بأفضلِ ما تعوَّذ بهِ المتعوِّذُونَ؟» قلت: بلى يا رسُول اللَّهِ، قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[٣]. والله أعلم.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٧٧).

(٢) في ب: عقبة بن عامر.

(٣) تقدم تخريجه.

سورة الناس

مكية، وهي ست آيات، وعشرون كلمة، وتسعة وتسعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾. قرئ[1]: «قُلَ عُوذُ» بحذف الهمزة، ونقل حركتها إلى اللام، ونظيره: ﴿فَخُذَ رْبَعَةً﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وأجمع القراء على تلك الإمالة في «النَّاس» إذا كان في موضع الخفضِ.

ومعنى «رَبّ الناس» مالكهم، ومصلح أمورهم، وإنما ذكر أنه «رَبّ الناس»، وإن كان رباً لجميع الخلق لأمرين:

أحدهما: لأن الناس معظمون، فأعلم بذكرهم أنه ربٌّ لهم وإن عظموا.

والثاني: لأنه أمر بالاستعاذة من شرِّهم، فأعلم بذكرهم أنه هو الذي يعيذ منهم، وإنما قال: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ لأن في الناس ملوكاً فذكر أنه ملكهم، وفي الناس من يعبد غيره، فذكر أنه إلههم، ومعبودهم، وأنه الذي يجب أن يستعاذ به، ويلجأ إليه دون الملوك، والعظماء.

قوله: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾. يجوز أن يكونا وصفين لـ «ربّ الناس» وأن يكونا بدلين، وأن يكونا عطف بيان.

قال الزمخشريُّ[2]: فإن قلت: «ملك الناس، إله الناس»؟ ما هما من «رب الناس»؟ قلت: هما عطف بيان، كقولك: سيرة أبي حفص عمر الفاروق، بين بـ ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ ثم زيد بياناً بـ ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنه قد يقال لغيره: «رب النَّاس»، كقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ

(١) ينظر الكشاف ٤/ ٨٢٣، والفخر الرازي ٣٢/ ١٨١. (٢) الكشاف ٤/ ٨٢٣.

﴿أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، وقد يقال: «ملك النَّاس»، وأما «إله النَّاس» فخاص لا شركة فيه، فجعل غاية للبيان.

واعترض أبو حيَّان[١]: بأن البيان يكون بالجوامد، ويجاب عنه بأن هذا جارٍ مجرى الجوامد وقد تقدم تقريره في «الرحمن الرحيم» أول الفاتحة.

وقال الزمخشري[٢]: فإن قلت: لم قيل: «بربِّ النَّاس» مضافاً إليهم خاصة؟.

قلت: لأن الاستعاذة وقعت من شر الوسواس في صدور الناس، فكأنه قيل: أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم.

قال الزمخشري: «فإن قلت: فهلاً اكتفي بإظهارِ المضاف إليه الذي هو النَّاس مرة واحدة؟ قلت: لأن عطف البيان للبيان، فكان مظنةً للإظهار دون الإضمار».

وكرر لفظ «النَّاس»؛ لأن عطف البيان يحتاج إلى مزيد الإظهار، ولأن التكرار يقتضي مزيد شرف الناس، وأنهم أشرف مخلوقاته.

قال ابن الخطيب[٣]: وإنما بدأ بذكر الرب تعالى، وهم اسم لمن قام بتدبيره، وإصلاحه من أوائل نعمه إلى أن رباه، وأعطاه العقل، فحينئذ عرف بالدليل أنه مملوك وأنه ملك، فثنى بذكر الملك، ثم لما علم أن العبادة لازمة له، وعرف أنه معبود مستحق للعبادة وعرفه أنه إله فلهذا ختم به.

قال ابن الخطيب[٤]: ولم يقرأ في المشهورة هنا «مالك» بالألف، كما قرىء به في الفاتحة، لأن معنى المالك هو الربُّ، فيلزم التكرار.

وقرىء به في الفاتحة، لاختلاف المضافين، فلا تكرار.

قوله: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾.

قال الزمخشري[٥]: «اسم بمعنى الوسوسة، كالزلزال بمعنى الزلزلة، وأما المصدر: فوِسْواس ـ بالكسر ـ «كزِلْزال»، والمراد به الشيطان، سمي بالمصدر كأنه وسوسة في نفسه، لأنها صنعته، وشغله الذي هو عاكف عليه، وأريد ذو الوسواس». انتهى، وقد مر الكلام معه أن المكسور مصدر، والمفتوح اسم في «الزلزلة»؛ فليراجع.

والوَسْوَسَةُ: حديث النفس، يقال: وسوست إليه نفسه وَسْوَسة ووِسْوَسة ـ بكسر الواو ـ قاله القرطبي[٦].

ويقال لهمس الصائد، والكلاب، وأصوات الحليّ: وسواس.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٥٣٥.
(٢) الكشاف ٤/ ٨٢٣.
(٣) الفخر الرازي ٣٢/ ١٨٠.
(٤) السابق ٣٢/ ١٨١.
(٥) الكشاف ٤/ ٨٢٣.
(٦) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٧٨.

قال ذو الرمة: [البسيط]

٥٣٧٢ ـ فَبَاتَ يُشْئِزُهُ ثَأْدٌ ويُسْهِرُهُ تَذؤُبُ الرِّيحِ والوَسْوَاسُ والهِضَبُ[(١)]

وقال الأعشى: [البسيط]

٥٣٧٣ ـ تَسْمَعُ للحَلْيِ وسْوَاساً إذا انصَرفَتْ كَمَا اسْتَعَانَ بِرِيحِ عِشْرِقٌ زَجِلُ[(٢)]

قوله: «الخنَّاس» أي: الرجَّاع؛ لأنه إذا ذكر الله ـ تعالى ـ خنس، وهو مثال مبالغة من الخنوس.

يقال: خنس أي تأخر، يقال: خنسته فخنس، أي أخرته فتأخر، وأخنسته أيضاً. وتقدم الكلام على هذه المادة في سورة: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾.

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ﴾: يجوز جره نعتاً وبدلاً [وبياناً لجريانه مجرى] الجوامد، ونصبه ورفعه على القطع.

قال القرطبي[(٣)]: «ووصف بالخناس؛ لأنه كثير الاختفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥] يعني النجوم لاختفائها بعد ظهورها».

فصل في الكلام على الشيطان

قال مقاتل: إن الشيطان في سورة خنزير، يجري من ابن آدم مجرى الدم في عروقه، سلَّطه الله على ذلك، فذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾[(٤)]، وقال ﷺ: «إنَّ الشَّيطَانَ يَجرِي من ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ»[(٥)] رواه البخاري ومسلم.

قال القرطبي[(٦)]: «ووسوسته: هو الدعاء إلى طاعته، حتى يصل به إلى القلب، من غير صوت».

قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾. فيه أوجه:

أحدها: أنه بدل من «شرّ» بإعادة العامل، أي: من شر الجنة.

الثاني: أنه بدل من ذي الوسواس؛ لأن الموسوس من الجن والإنس.

الثالث: أنه حال من الضمير في «يُوسْوِسُ» حال كونه من هذين الجنسين.

الرابع: أنه بدل من «النَّاس» وجعل «مِنْ» تبييناً، وأطلق على الجن اسم النَّاس؛

---

(١) ينظر ديوانه ١٤٤، واللسان (دسس)، والقرطبي ٢٠/ ١٧٨.

(٢) ينظر الديوان ص ١٤٤، واللسان (عشرق)، ومجمع البيان ١٠/ ٨٦٨، والقرطبي ٢٠/ ١٧٩.

(٣) القرطبي: ٢٠/ ١٧٩.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٧٩ ـ ١٨٠)، عن مقاتل.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) ينظر الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١٧٩).

لأنهم يتحركون في مراداتهم. قاله أبو البقاء[١]، إلا أنَّ الزمخشري أبطله، فقال بعد أن حكاه[٢]: «واستدلوا بنفر ورجال في سورة «الجنّ»، وما أحقه لأن الجنَّ سموا جنًّا لاجتنانهم، والناس ناساً لظهورهم من الإيناس، وهو الإبصار، كما سموا بشراً، ولو كان يقع الناس على القبيلين، وصح ذلك، وثبت لم يكن مناسباً لفصاحة القرآن، وبعده عن التصنُّع، وأجود منه أن يراد بالنَّاس: الناسي، كقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٦]، ثم يبين بالجنة والناس؛ لأن الثقلين هما النوعان الموصفان بنسيان حق الله عز وجل».

الخامس: أنه بيان لـ ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ﴾ على أنَّ الشيطان ضربان: جني، وإنسي، كما قال: ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وعن أبي ذر، أنه قال لرجل: هلاً استعذت من شياطين الإنس.

السادس: أن يتعلق بـ «وسوس»، و «مِنْ» لابتداء الغاية، أي: يوسوس في صدورهم من جهة الإنس، ومن جهة الجن.

السابع: أن «الناس» عطف على «الوسواس»، أي: من شر الوسواس والناس، ولا يجوز عطفه على «الجنَّة»؛ لأن النَّاس لا يوسوسون في صدور النَّاس، إنما يوسوس الجن، فلما استحال المعنى حمل على العطف على الوسواس، قاله مكي.

الثامن: أن «مِنَ الجنَّةِ»، حال من «النَّاس»، أي: كائنين من القبيلين، قاله أبو البقاء[٣]، ولم يبين أي الناس المتقدم أنه صاحب الحال، وعلى كل تقدير فلا يصح معنى الحالية في شيء منها، لا الأول، ولا ما بعده، ثم قال: «وقيل: هو معطوف على الجنة»، يريد: «والنَّاس» الأخير معطوف على الجنة، وهذا الكلام يستدعي تقدير شيءٍ قبله وهو أن يكون الناس عطفاً على غير الجنة؛ وفي الجملة فهو كلام يتسامح فيه.

فصل في شياطين الإنس والجن

قال الحسن: هما شيطانان لنا: أما شيطان الجن، فيوسوسُ في صدور الناس، وأما شيطان الإنس فيأتي علانية[٤].

وقال قتادةُ: إن من الجن شياطين، وإنَّ من الإنس شياطين فتعوذ بالله من شياطين الجن والإنس[٥].

وعن أبي ذر: أنه قال لرجل: هل تعوَّذتَ بالله من شياطين الإنس؟.

---

(١) الإملاء ٢/ ٢٩٨.
(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٨٢٤.
(٣) الإملاء: ٢/ ٢٩٨.
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٨٠).
(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٧٢٢)، وعزاه إلى عبد الرزاق وابن المنذر.

قال: أو من الإنس شياطين؟ قال: نعم، لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾(١) [الأنعام: ١١٢].

وذهب قوم: أنَّ المراد بالناس هنا الجن، سموا بذلك ناساً كما سموا رجالاً في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦]، وكما سموا نفراً في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

فعلى هذا يكون «والنَّاس» عطفاً على «الجنَّةِ»، ويكون التكرير لاختلاف اللفظين.

وقيل: معنى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾، أي: الوسوسة التي تكون من الجنة والناس، وهو حديث النفس.

قال النبي ﷺ: «إنَّ اللَّهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ تجَاوَزَ لأمَّتِي مَا حدَّثث بِهِ أنفُسهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أوْ تتَكلَّمْ بِهِ»(٢). والله أعلم.

[تـمّ]

(١) تقدم في سورة الأنعام.

(٢) تقدم تخريجه.

فهرس محتويات
الجزء العشرين
من
اللباب

فهرس المحتويات

سورة الإنسان

سورة المرسلات

سورة النبأ

سورة النازعات

سورة عبس

سورة التكوير

سورة الانفطار

سورة المطففين

سورة الانشقاق

سورة البروج

سورة الطارق

سورة الأعلى

سورة الغاشية

سورة الفجر

سورة البلد

سورة الشمس

سورة الليل

سورة الضحى

سورة «ألم نشرح»

سورة التين

سورة العلق

سورة القدر

سورة البينة

سورة الزلزلة

سورة العاديات

سورة القارعة

سورة التكاثر

سورة العصر

سورة الهمزة

سورة الفيل

سورة قريش

سورة «الدين» وتسمى «الماعون»

سورة الكوثر

سورة الكافرون

سورة النصر

سورة تبت

سورة الإخلاص

سورة الفلق

سورة الناس